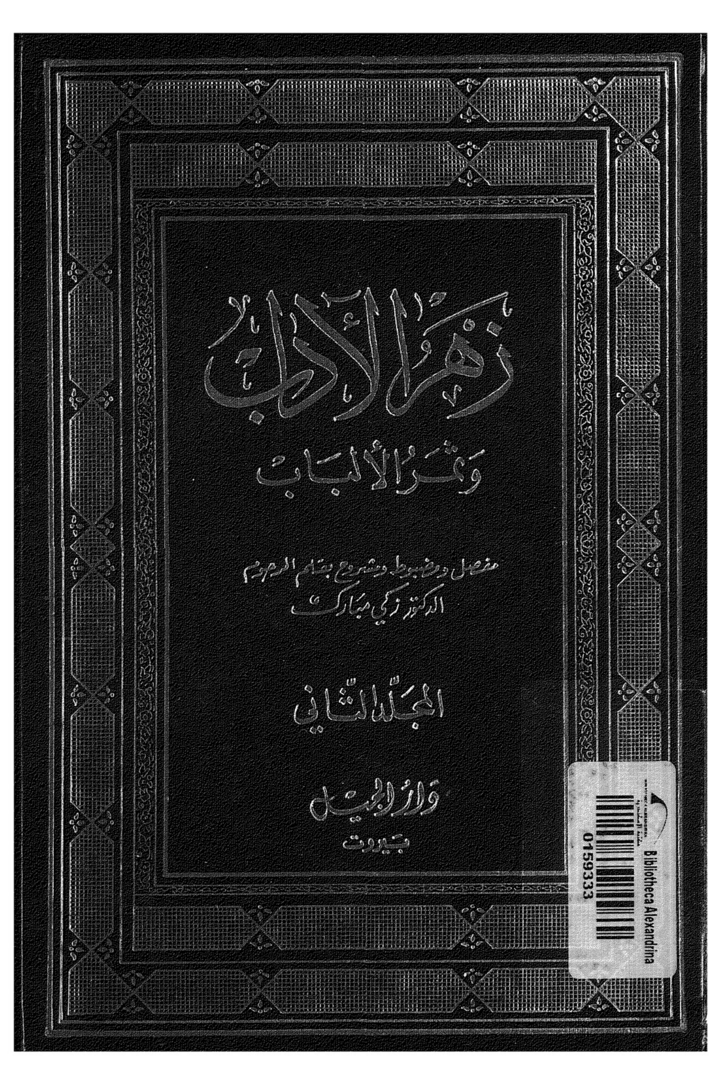


زهر الآداب
وثمر الألباب
مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم
الدكتور زكي مبارك
المجلد الثاني
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0159333





وثمر الألباب

لأبى إسحاق إبراهيم بن على ، الحصرى ، القيروانى

المتوفى فى عام ٤٥٣ من الهجرة

مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم

الدكتور زكى مبارك

الجزء الثالث

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧



الطبعة الرابعة

نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر

تجرى فى المدح مجرى الأمثال ؛ لحسن استعاراتها ، وبراعة تشبيهاتها

فلان مسترضَعٌ ثَدْيَ المجد ، مُفْتَرِشٌ حِجْرَ الفضل ، له صَدْرٌ تَضِيق به الدَّهْنَاء ، وتَفْزَع إليه الدَّهْمَاء ، له فى كل مكرمة غُرَّة الإصباح[1] ، وفى كل فضيلة قادِمَةُ الجَنَاح[2] ، له صورة تستنطق الأفْوَاهَ بالتسبيح ، ويترقرق فيها ماء الكرم ، وتقرأ فيها صحيفة حُسْن البشر ، تحيا القلوب بلقائه ، قبل أن يُمِيتَ الفَقْرَ بعطائه ، له خُلُقٌ لو مُزِج به البحرُ لنفى مُلُوحَتَه ، وكفى كدورته . هو غذاء الحياة ، ونسيم العشق ، ومادَّة الفَضْل ، آراؤُه سكاكين فى مفاصل الخُطوب ، له هِمَّةٌ تعزل السماكَ الأعْزَل ، وتجرّ ذيلها على المجرّة ، هو راجحٌ فى موازين العَقْل ، سابقٌ فى ميادين الفَضْلِ ، يَفْتَرِع أبكارَ المكارم ، ويَرْفَع مَنَارَ المحاسن . ينابيع الجود تتفجّر من أنامله ، وربيعُ السماء يَضْحَكُ من فَوَاضِلِه . هو بيتُ القصيدة ، وأول الجَرِيدة ، وعَيْن الكتيبة ، وواسطة القِلادة ، وإنسانُ الحدَقة ، ودُرَّة التاج ، ونقش الفصّ ! وهو مِلح الأرض ، ودِرْع المِلّة ، ولسان الشريعة ، وحِصْنُ الأمة . هو غُرّة الدّهر والزمان ، وناظر الإيمان . له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفَضْلِ ، وشِيَمٌ تشَام منها بَوَارِقُ المَجْد[3] ، أرِج الزمانُ بفَضْلِه ، وعَقِمَ النساء عن الإتيان بمثلِه . الجميلُ لديه مُعْتَاد ، والفضْلُ منه مبدوء ومُعَاد ، مَالُهُ للعُفَاة[4] مُبَاح ، وفعاله فى ظلمة الدهر مِصْبَاح ، كأن قلبَه عَيْن ، وكأن جسمه سَمْع ، يرى بأوّل رَأْيه آخرَ الأمر ، جوهرٌ من جواهر الشرف لا من جواهر الصَّدَف ، وياقوتة من يواقيت الأحرار

---

(١) فى نسخة « غرة الأوضاح » (م)

(٢) القادمة : واحدة القوادم ، وهى ريشات فى مقدم جناح الطائر ويقابلها الخوافى (م)

(٣) الشيم : جمع شيمة ، وهى الخصلة . وتشام : تنظر ، والبوارق : جمع بارق ، والمراد به البرق (م)

(٤) العفاة : جمع عاف ، وهو طالب الحاجة (م)

لا يواقيت الأحجار ، طلعتُه للبشاشة عليها ديباجة خُسْرَوَانيّة ، وفيهـا للطلاقة روضة رَبيعية . وَجْهٌ كأن بَشَرته نشر البِشْر ، ومواجهته أمانٌ من الدّهر . يصل ببشره ، قبل أنْ يَصِل ببرّه ، قدلحظت منوجهه الأنوار ، ومن بَنَانِه النّوار . أنا من كرم عشرته ، وطلاقة أسرّته ، فى روضةٍ وغدير ، وجنّةٍ وحرير ، وهو بَحْرٌ من العلم ممدود بسبعة أبحر ، ويومُه من يوم الأدب كعمر سبعة أَنْسُر . العلم حَشْوُ ثيابه ، والأدب مِلْء إهَابه . هو شَخْصُ الأدبمائلا ، ولسانُ العلم قائلا . شَجَرة فَضْلٍ عودُها أدب ، وأغصانها عِلْم ، وثمرتها عَقْل ، وعروقها سَرْوٌ ، تسقيها سماء الحريّةِ ، وتغذّيها أرضُ المروءة . هم ملح الأرض إذا فسدت ، وعمارةُ الأرض إذا خَربت ، ومعرض الأيام إذا احتشدَتْ ؛ وهم جمالُ الأيام ، وخواصُّ الأنام ، وفرسان الكلام ، وفلاسفة الإسلام . فلان غُصْنُ طَبْعِهِ نَضير ، ليس له فى مَجْدِهِ نظير ، قد جمع الحِفظَ الغزير، والفَهْمَ الصحيح ، والأدبالقوىّ القويم ، وما يُؤْنِسُه من الوَحْشَةِ إلا الدفاتر ، ولا يَصْحَبه فى الوَحْدَةِ إلاّ المحابر . فلان يحلُّ دقائقَ الأشكال ، ويُزيل معترض الإشكال . له خُلق كنسيم الأسْحَار ، على صفحات الأنوار . كالماء صَفَاء ، والمسك ذكاء . أخلاق قد جمعت المروءةُ أطرافَها ، وحرست الحرية أكنافَها . أخلاق تجمع الأهواء المتفرّقة على محبته ، وتؤلّف الآراء المتشتّتة على مودّتِهِ . أخلاق أعذبُ من ماء الغَمام ، وأحلىمن ريق النّحل ، وأطيب من زمان الوَرْد . أخلاق أحسن من الدرّ والعِقْيان ، فى نحور الحِسَان، وأذكى من حركات الروح والرّيحان . فلانٌ يستحطّ القمر[1] بطَرْفِه ، ويستنزل النّجم بلُطْفه[2] . هو حُلْوُ المَذَاق ، سهل المَسَاغ . أجمل الناس فى جدّ ، وأحلاهم فى هَزْل . يتصرّفُ مع القلوب، كتصرُّفِ السحاب مع الجَنُوب . ذو جِدٍّ كعُلوّ الجدّ[3] ، وهَزْل كحديقة الوَرْدِ . لهعِشْرَة ماؤها يقطر ، وصَحْوُها من

(١) فى نسخة «يستحط العصم» وهى أفضل مما فى الأصل (م)

(٢) فى نسخة « بلفظه » (م)

(٣) الجد ، بالكسر : الاجتهاد ، والجد ، بالفتح : الحظ والبخت (م)

الغَضَارة بمطر[1] . هو رَيْحَانة على القَدَح ، وذريعة إلى الفرَح . عشرته أَلْطَفُ من نسيم الشمال ، على أديم الزّلال ، وأَلْصَقُ بالقلب ، من علائق الحب . إذا أردت فهو سُبْحَة ناسك ، أو أحببت فهو تُفَّاحة فاتك ، أو اقترحتَ فهومدرعة راهب ، أو آثرت فهو نخبة شارب . أخباره زكيّة ، وآثاره ذَكية . أخباره تأتينا كما وَشَى بالمسك ريَّاه ، ونَمَّ على الصباح مُحيَّاه . قد انتشر من طيب أخباره مازاد على المسك الفَتيق ، وأَوْفَى على الزَّهْر الأَنيق. مناقب تَشْدَخ فى جبينها غُرَّة الصباح ، وتتهادى أنباءها وُفُودُ الرياح . فلان أخبارُه آثاره ، وعينه فراره[2] ، قد حصل له من حَميد الذكر ، وجميل النَّشْر ، مالا تزال الرواةُ تدرسه ، والتواريخ تحرسه . سألت عن أخباره فكأنى حرّكت المسك فتيقاً ، أو صبّحت الروض أنيقا . أخباره متضوعة كتضوّع المِسْك الأذفر ، ومُشْرِقة إشراقَ الفجر الأنور . أحببْتُه بالخَبَر ، قبل الأثر ، و بالوصف قبل الكَشْف. هو ممن يثقل ميزانُ ودّه ، و يُحْصف ميثاق عَهْدِه . هو كريم العهد ، صحيح العَقْد ، سليم الصَّدْرِ فى الودّ ، حميد الوِرْد فيه والصدَرْ . هو لإخوانه عُدَّة تشدّهم وتقويهم ، ونورٌ يسعى بين أيديهم . هو ركن الإخاء ، صافى شِرْب الوَفاء ، حافظٌ على الغيب ما يحفظه على اللقاء . هو ممن لاتدومُ المُداهنة فى عَرَصاتِ قلْبه ، ولا تحوم المُوَاربة على جنبات صدره. هو يَسْرى إلى كرم العهد ، فى ضياء من الرّشد. عهده نَقْشٌ فى صَخْر ، ووده نَسَبٌ ملآن من فخر . يقبلُ من إخوانه العَفْوَ ، كما يوليهم من إحسانه الصَّفْو . فى وُدِّه غِنى للطالب ، وكفاية للراغب ، ومَرَادٌ للصَّحْب ، وَزَادٌ للركب . هو فى حَبْلِ الوفاء حَاطِب ، وعلى فرض الإخاء مواظب . النُّجْحُ معقودٌ فى نواصى آرائه ، واليُمْنُ معتاد فى مذاهب أنحائه . له الرَّأْيُ الثاقب الذى تَخْفَى مَكايده ، وتَظْهَر عوائده ، والتدبيرُ النافذ الذى تَنْجَعُ مَبَاديه ، وتبهج تَوَاليه . رَأْيٌ

(١) الغضارة : النعمة (م) (٢) هذا من المثل «إن الجواد عينه فراره» (م)

كالسَّهْم أصاب غِرَّة الهَدَفِ ، ودهاء كالبحر فى بُعْد الغَوْر وقرْب المغترف ، لا يضعُ رَأيه إلا مواضع الأصالة ، ولا يصرف تدبيره إلاّ على مواقع السداد والإصابة . يعرفُ من مبادىء الأقوالِ خواتِمَ الأفعال ، ومن صدور الأمور أعجاز مافى الصدور . رُؤْيته رَأى صَلِيت ، و بديهته قدرٌ مصيب . يسافرُ رَأْيه وهودَانٍ لم يبرح ، و يسير تدبيره وهوثاوٍ لم ينزح . له رأىٌ لايخطىء شاَكِلَةَ الصَّوَابِ ، [ولا يخشى بادرة العِثَار . فلان يخمّر الرأىَ و يُحيله ، و يجيد الفكر و يجيله ، حتى يحصل على لب الصواب][1] ، ومحض الرأى . إذا أذكى سراج الفكر ، أضاء ظلامَ الأمر ، هو قطب صَوابٍ تَدُورُ به الأمور ، ومستنبط صلاح يردُّ إليه التدبير . يرى العواقبَ فى مِرْآة عقله ، و بصيرةِ ذكائه وفضله . وله رَأْىٌ يردُّ الخَطْبَ مُصَلّماً ، والرمح مُقَلَّما . [آراؤه سكاكين فى مفاصل الخطوب] ، كأنه ينظرُ إلى الغيب من وراء سِتْرٍ رقيق ، و يطالعه بعَيْن السَّداد والتوفيق . يستنبطُ حقائقَ القلوب ، و يستخرج ودائع الغيوب . قد سَرَيْناَ من مشورته فى ضياء ساطع ، ومن رأيه الصائب فى حُكم قاطع .

نبذ من مفردات الأبيات فى فرائد المدح

أبو نواس :

وكَلْت بالدهر عيناً غَـيْرَ نائمةٍ … من جُودِ كفيك تَأْسُو كلَّماجَرَحَا

الطائى :

فلو صوَّرتَ نفسك لم تَزِدْها … على ما فيك من كَرَمِ الطبائع

البحترى :

ولو لم يكن فى كفّه غيرُ نفسهِ … لجاد بهـــا فلْيَتَّقِ اللهَ سائلُه

وله :

ولم أر أمثالَ الرجالِ تفاوتوا … لدى المجد حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

كشاجم :

عرف الفاضـــلون فضلك بالعلـ ـم وقال الجُهّال بالتقليدِ

المتنبي :

شَخَصَ الأنامُ إلى كمالك فاستَعِذْ من شرِّ أعينهم بعَيْبٍ واحـدِ

وله :

ولمّا رأيت الناسَ دون محلّهِ تيقّنت أنّ الدهرَ للنـاسِ ناقد

وله أيضاً :

إن خوطبوا أو لُقُوا أو كوتبوا وُجِدُوا في اللفظ والخطِّ والهيجاء فُرْسـانا

وله أيضاً :

ذُكِرَ الأنامُ لنا فـكان قصيدةً كنتَ البديعَ الفَرْدَ في أبياتِها

أبو العباس الناشيء :

خلقْتَ كما أرادَتْك المعـالي فأنتَ لِمَنْ رجاك كما يُريد

المأموني :

وخلائق كالخمر دُونَ فعالِه حَبَبٌ لهنّ وما لهنّ خُمارُ

[في مجالس الخلفاء والملوك والحكماء والأمراء]

بين الموصلي والهادي

وقال إبراهيم الموصلي لموسَى الهادي ، وهو نديمُه، وقد غنّاه صوتا فأعجبه : إنّ مَنْ كان محلّه من أمير المؤمنين مَحَلّي في الانبساط وتَقَدُّم النِّدَام جرأه البَسْطُ على الطلب ، و بعثَته المنادمةُ على الرجاء ، وقد نصَب لي أميرُ المؤمنين بقُرْبي منه مَشَارِعَ الرغبة إليه ، وحتّى محلّي عنده على الكُرُوع في المَنْهَلِ بين يديه . فقال : سَلْ شِفَاهاً ؛ فإني جاعِلٌ فِعْلي عن إجابتك إليه حاضراً ؛ فسأله ماقيمته خمسون ألف درهم ؛ فأمر له بمائة ألف درهم .

بين الإسكندر ودارا بن دارا

ولما ظَفِر الإسكندرُ بدارا بن دارا قال له : بمَ أجترأ عليك صاحبُ شُرطتك ؟ قال : بتَرْكى ترهيبَهُ وَقْتَ إساءته وتفريطه ، و إعطائه وَقْتَ الإحسانِ اليسيرِ من فعله نهايةَ رغبته . فقال الإسكندر : نِعْمَ العونُ على استصلاح القلوب الموغَرَةِ الترغيبُ بالأموال ، وأصلح منه عاجلا الترهيبُ وقت الحاجة إليه .

حكيم يصف أحزم الملوك

وقال الحسنُ بن سهل : خرج بعضُ ملوكِ الفرس متنزِّها ، فلقى بعضَ الحكماء ، فسأله عن أحزم الملوك ، فقال : من ملك جِدُّه هَزْله ، وقهر لُبُّه هَوَاه ، وأعرب لسانُه عن ضميره ، ولم يَخْدَعْه رِضاه عن سخطه ، ولا غضبُه عن صدقه . فقال الملك : لا ، بل أحزمُ الملوكِ من إذا جاع أكل ، وإذا عطش شرِب ، وإذا تعب استراح . فقال الحكيم : أيها الملك ، قد أجَدْتَ الفِطْنَة . هذا العلم مستفاد أم غريزى ؟ قال : كان عندنا معلِّم من حكماء الهند ، وكان هذا نقشَ خاتمه . قال : فهل علَّمك غير هذا ؟ قال : ومِنْ أين يوجَدُ مثل هذا عند رجل واحدٍ ؟ ثم قال له الملكُ : علِّمنى من حكمتك أيُّها الحكيم . قال : نعم ، احفَظْ عنى ثلاثَ كلمات . قال : ما هنّ ؟ قال : صَقْلُك السيفَ ليس له جوهرٌ من سِنْخِه[1] خَطأ ، وصبُّك الحَبَّ فى الأرضِ السَّبِخَة ترجُو نباته جَهْلٌ ، وحَمْلك المسِنَّ على الرياضة عناء .

قال أبو تمّام الطائى :

والسيفُ مالم يلفَ فيهِ صَيْقَلٌ ... مِنْ سِنْخه لم ينتفِعْ بصِقالِ

وقيل لبعض الحكماء : ماالدليل الناصح ؟ قال : غريزة الطبع . قيل : ماالقائدُ المشفِق ؟ قال : حسن المنطق . قيل : فما العناء المُعَنِّى ؟ قال : تطبيعك مالا طبعَ له .

أنوشروان يبين سياسة الدولة

وكان أنو شروان يقول : الناس ثلاث طبقات تسوسهم ثلاث سياسات : [طبقة من خاصة الأحرارِ تسوسهم بالعَطْفِ واللّين والإحسان ، و] طبقة من خاصة الأشرار تسوسُهم بالغِلْظَة والعُنْف والشدّة ، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة ، لئلا تُحْرِجهم الشدّة ، ولا يُبْطِرَهم[2] اللّين .

---

(١) السنخ ، بالكسر : الأصل

(٢) يبطرهم : يطغيهم (م)

واصل بن عطاء يصف أخلاق السفلة

وقال واصل بن عَطَاء : ألا قاتلَ الله هذه السفلة ! تُوَادُّ مَنْ حَادَّ الله ونبيَّه ، وتحادُّ من وَادَّ الله ونبيَّه ، وتذمّ مَن مدحه الله ، وتمدح من ذمّه الله ؛ على أنه بهم عُلِم الفضلُ لأهل الطبقةالعالية ، وبهم أُعطِيت الأوساط حظًّا من النّبل .

ما يبلغ أقصى درجات الفضل

وقيل لبعض الملوك ، [وقد بلغ فى القدر مالم يبلغه أحد من ملوكِ زمانه] : ما الذى بلغ بكَ هذه المنزلة ؟ قال : عَفْوى عند قدرتى ، ولِينى عند شِدَّتى ، وبَذْلى الإنصاف ولو من نفسى ، وإبقائى فى الحب والبغض مكاناً لموضع الاستبدال .

أحزم الرأى

وقال الإسكندر لأحد الحكماء ، وأراد سفراً : أَرْشِدْنِى لأَحزم أمرى . قال : لا تملأنّ قلبك من محبَّةِ الشىء ، ولا يَسْتَوْلينّ عليك بغضه ، واجعلهما قَصْداً[1] ؛ فإن القلبَ كاسْمِه ينزع ويرجع ، واجعل وزِيرَكَ التثبت ، وسَمِيرَكَ التيقّظ ، ولا تَقْدِمِ إلاّ بعد المشورة ؛ فإنها نِعْمَ الدليل ، فإذا فعلتَ ذلك ملكت قلوب رعيَّتِك .

حكيم يصف خلال الفضل

وقيل لبعض الحكماء : ماالحزم ؟ قال: سوء الظن . قيل: فماالصواب؟ قال: المشورة . قيل : فماالرأىُ الذى يجمعُ القلوبَ على المودّة ؟ قال : كفٌّ بَذُول ، وبشر جميل . قيل : فما الاحتياط ؟ قال : الاقتصاد فى الحبّ والبغض .

بزر جمهر يصف

وسُئل بزر جمهر : ما المروءة ؟ قال : تَرْكُ مالا يعنى . قيل : فما الحَزْم ؟ قال : انتهازُ الفُرْصَة . قيل : فما الحلمُ ؟ قال : العفوُ عند المقدرة . قيل : فما الشدة ؟ قال : ملك الغضب . قيل : فما الْخُرْق ؟ قال : حب مُغْرِق ؛ وبغض مُفْرِط .

وصية معاوية لزياد

قال معاوية رضى الله عنه لزياد حين ولاّه العراق : يازياد ؛ ليكن حبُّك وبغضك[1] قَصْداً ؛ فإن العَثْرة فيهما كامنة ، واجعل للنزوع والرجوع بقيّة من قلبك ، واحذَرْ صَوْلَةَ الانهماك ، فإنها تؤدى إلى الهلاك .

---

(١) قصداً : أى بغير إفراط ولاتفريط

ومن كلام بلغاء أهل العصر فى ذكر السلطان

للصاحب — أبو القاسم الصاحب : مَرْضَاة السلطان ، لاتغلو بشىء من الأثمان ، ولا ببَذْلِ الروح والجَنَان . تهيُّب السلطانِ فَرْضٌ وَكِيد ، وحَتْمٌ على مَنْ أَلْقَى السمعَ وهو شهيد .

للصابى — أبو إسحاق الصابى : المَلِكُ أحقُّ باصطفاء رجاله منه باصطفاء أمْواله ؛ لأنه مع اتساع الأمر وجَلالَةِ القَدْر لا يكتَفِي بالوَحْدَة ، ولا يستغني عن الكَثْرَة ؛ ومثلُه فى ذلك مثلُ المسافرِ فى الطريق البعيد الذى يجب أن تكونَ عنايتُه بفرسه المَجْنُوبِ ، كعنايته بفرسِه المركوب .

فصل للصابى : الملك بمن غلط من أتبَاعِه فاتَّعظ أشدّ انتفاعا منه بمن لم يغلط ولم يتعظ ؛ فالأول كالقارح[1] الذى أدَّبَتْه الغرَّة ، وأصلحَتْه القَدَامَة ، والثانى كالجَذَع المُتهَوِّكِ[2] الذى هو راكب للغِرَّة وراكن إلى السلامة .

وقيل : إن العظم إذا جبر من كَسْره عاد صاحبُه أشدَّ بطشاً وأقوى أيداً .

للخوارزمى — أبو بكر الخوارزمى : لا صغيرَ مع الولاية والعِمالَة ، كما لا كبيرَ مع العُطلة والبَطَالَة ؛ وإنما الولايةُ أنثى تصغر وتكبر بواليها ، ومطيَّة تحسن وتقبح بمُمْتَطيها ، والصَّدْر لمن يليه ، والدَّست لمن جلس فيه ، والأعمال بالعمّال ، كما أنّ النساء بالرجال .

فصل له : إنّ ولايةَ المرء ثوْبه ؛ فإن قصُر عَرِى منه ، وإنْ طَالَ عَثَرَ فيه .

قليلُ السلطان كثير ، ومُدَارَاتُه حَزْمٌ وتدبير ، ومكاشفته غُرور وتَغرير .

للبستى — أبو الفتح البستى : أجهلُ الناس مَنْ كان على السلطان مُدِلاًّ ، وللإخوان مُذِلاًّ .

لابن العميد — أبو الفضل ابن العميد : الإبقاء على حَشَم السلطان وعُمّاله عدلُ الإبقاء[3] على ماله ، والإشفاقُ [علىٰ حاشيته وحشمه مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه] .

(١) القارح : الذى تمت قوته واستحكمت شدته ، وأصله فى الإبل (م)
(٢) الجذع ـ بالتحريك ـ الحدث ، وأصله أيضاً فى الحيوان (م)
(٣) هذا عدل هذا : أى مساويه ومكافئه (م)

وله من رسالة طويلة ، جواب لأبى شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صَدْرَ كتاب ألّفه أبو الحسن الصوفى فى نوع من علوم الهيئة .

أ ناأقدم الإجابة بحمدالله تعالى جَدُّه ، على ماوهب لنامعاشرَعبيدِهوخدمهخاصة، بل لرعاياه عامّة ، بل لأهل الأرض كافة ، من عظيم النعمة بمكانه ، وجسيم الموهبة بإنفاق أعمارنا فى زمانه ، حتى شاركْناهُ فى أسباب السعادة التى لم تَزَلْ مَذْخورة عليه ، حتى صارت إليه ، وساهمناه فى موادّ الفضيلةِ التى لم تَزَلْ محفوظةً له حتى اتّصَلَت به ؛ فإنّ المرء أشْبَه شىء بزمانه ، وصفات كل زمانٍ منتَسخة من سجايا سُلْطانه ؛ فإن فَضَلَ شاعَ الفضلُ فى الزمان وأهله ، وتحلّى الدَّهرُ بأفضل حِلْيته ، وتجلّى للعيونِ والقلوبِ بأحسن زينته ، وكسا بَنِيه والناشئين فيه بشرفِ جَوْهَرِه ، وأورثهم نَيْلَ فضله ، وعزَّ العِلم وأهله ، وعرف لمقتبسه قَدْرَه ، وتوجَّهت الاذهانُ نحوه ، وتعلّقت الخواطرُ به ، وصرفت الفكر فيه ، ونشدت ضوَالّه ، ونظم أشْتاَته ، وجمعت أفْرادهُ ، ووثقَتْ نفوسُ الساعين فى استفادته بحُسْنِ عائدته ، فحرصت عليه ، وصرفَتْ نظرَها إليه ، وأيقنت فى بضاعتها بالنَّفاق ، وفى تجارتها بالإرْفَاق ؛ فصار ذلك إلى نَماء العلوم وزيادتها داعية ، ولتكثير قليلها و إيضاح مجهولها سببا وعلّةً ، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة فى سلوك التصنيف سبيلا ، وإلى تقييد شواردِها بعُقُل[1] التأليف طريقا . وإن رَذل السلطان اُتبِعَت الرذيلةُ اتباعاً ، وذَهبتِ الفضائلُ ضَيَاعاً ، وبطلت الأقدارُ والقيم ، وسلِبَت الأخطار والهِمم ، وزال العلم والتعلم ، ودَرَس الفَهْمُ والتفهم ، وضرَبَ الجهلُ بجِرَانِه ، ووطىء بمنسمه ، واستَعْلَى الخمولُ على النباهة ، واستولى الباطلُ على الحقّ ، وصارُ الأدبُ وبالاً على صاحبه ، والعلمُ نَكالاً على حامله . وبحسب عظيم المحنة بمن هذه صِفَتُه ، والبلوى مَعَ مَنْ هذه صورتُه ، تَعْظُمُ النعمةُ بمُلْكِ سلطانٍ عالم ، كالأمير الجليل عضد الدولة ، أطال اللهُ تعالى بقاءه ، وأدام قُدْرَته ، الذى أحله اللهُ عزَّ وجل من الفضائل بملتقى طُرُقها ومجتَمع فِرقها ، فهى نَوَادُّ ممن لاقت

(١) العقل : جمع عقال ــ بزنة كتاب وكتب ــ وهو فى الأصل ماتربط به الدابة (م)

حتى تصيرَ إليـه ، وشوارِدُ نوازِعُ حيث حلّت حتى تقعَ عليه ، تتلفت تلفتَ الرامِق ، وتتشوَّفُ إليه تشوفَ الصبِّ العاشقِ ، قد ملكها أنّى توجهت وحشة المضاع وحَيرة المرتاع .

فإنْ تغشَ قوماً غـيره أو تزُرْهُم ... فـكالوحش يُدْنِيها من الأُنسِ المَحْلُ[1]

حتى إذا قابلته أسرعت إليه إسراع السيل منصبٌّ فى الحدور ، والطير ينقضُّ إلى الوكور .

لأبى الطيب المتنبى

وقال أبو الطيب المتنبى :

أحَقٌّ عافٍ بدَمْعك الهِمَمُ ... أحْدَثُ شىء عَهْداً بها القِدَمُ[2]

وإنما الناسُ بالملوكِ ، وما ... تُفلِح عُرْبٌ مُلوكُها عَجَمُ

لا أدبٌ عندهُمْ ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لهم ولا ذِمَمُ

بكلّ أرضٍ وطِئْتَهـا أُمَمٌ ... تُرْعَى بعَبْدٍ كأنّها غَنَمُ

يستَخْشِنُ الخزَّ حين يلمسه ... وكان يُبْرَى بظُفْرِه القلمُ

بين ابن ميادة وعبد الواحد ابن سليمان

وقال الزبير بن بكار : قَدِم ابنُ ميّادة ، واسمه الرَّمّاحُ بن أبرد ، زائراً لعبد الواحد بن سليمان ، وهو أميرُ المدينة ، فكان عنده ليلةً فى سُمّاره ؛ فقال عبدُ الواحد لأصحابه : إنى لأهم أن أتزوج فابغُونى أيِّما ، قال ابن ميادة : أنا ـ أصلحك الله ـ أدلُّك ، قال : على مَن يا أبا بشر تَميل ؟ قال : قدمتُ عليك أيهـا الأمير ، فلما قدمت ألفيتُ المسجد وإذا أشبه شىء به وبمن فيه الجنة ومَنْ فيها ، فبينا أنا أمشى إذ قادتنى رائحةُ رجلٍ عِطرٍ حتى وقفت عليه ، فلما وقع بصرى عليه استَلْهَى حُسْنُه ناظرى ، فما أقلعت ناظرى حتى تـكلّم فما زال يتـكلّم كأنما يَنْثُر دُرًّا ، ويتلو زَبوراً ، ويدرس إنجيلا ، ويقرأ فُرْقَانًا ، حتى سكت ، فلولا معرفتى بالأمير ماشككت أنه هو ، ثم خرج من مُصَلاّه إلى داره ، فسألت عنه ، فأُخْبِرْتُ أنه

---

(١) هذا البيت من قصيدة جيدة لمسلم بن الوليد (٢) العافى : المنزل الدارس

من الحسن بمكانه ، وأنه للخليفتين ، وأنه قد نالَتْه ولادَةٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ساطعٌ من غرَّته ؛ فإن اجتمعتَ أنتَ وهو على ولدٍ ساد العبادَ ، وجابَ ذِكرُه البلاد .

فلما قضى ابنُ ميَّادة كلامه قال عبد الواحد ومَنْ حضر : ذلك محمد بن عبدالله ابن عمرو بن عثمان رضى الله تعالى عنه لفاطمة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم ، وقال ابن ميادة :

لهم سيرةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرَهم ۞ وكلُّ قضاءِ اللهِ فهو مُقَسَّمُ

لعويف القوافى يمدح طلحة الزهرى

هذا فى تقابل نسبه ، وكمال منصبه ، كقول عُوَيْفِ القوافى فى طلحة بن عبد الله الزهرى :

يُصَمُّ رجالٌ حين يُدْعَوْن للندى ۞ ويَدْعُون ابنَ عوفٍ للندى فيجيب

وذاك امرؤ من أىِّ عِطْفَيه يَلْتَفِتْ ۞ إلى المجد يَحْوِى المجدَ وهو قريب

للقطامى يمدح عبدالواحد بن سليمان

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذى يقول فيه القطامى :

أقولُ للحَرْفِ لما أنْ شكَتْ أصلا ۞ طولَ السِّفار وأفْنَى نِيَّها الرَّحل[1]

إن ترجعى من أبى عثمان منجِحَةً ۞ فقد يَهُونُ على المستنجح العمل

أهل المدينة لا يحزنك شأنهمُ ۞ إذا تخطَّأ عَبْدَ الواحد الأجَلُ

ومن قول القطامى : « إن ترجعى من أبى عثمان منجحة » أخذ الآخر قوله :

إذا ما تَمَنَّى المرء فى إثر حاجةٍ ۞ فأنجح لم يثقل عليه عناؤهُ

نسب عبدالواحد

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان ، قال الكلبى : هو عبدالواحد ابن الحارث بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، والأول قول ابن السكيت .

(١) الحرف : الناقة ، ونيها : شحمها (م)

والقصيدة التى منها هذه الأبيات منأجْوَدِ قوله ، وفيها يقول مما يتمثل به :

والعيشُ لا عَيْشَ إلا ما تقرُّ بهِ عَيْنٌ ولا حالَ إلا سوف يَنْتَقِلُ

والناسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون لهُ ما يَشْتَهِى ولأُم المخطىء الهَبَلُ (١)

قد يُدْرِكُ المتأنّى بعضَ حاجتِهِ وقد يكونُ مع المستعجل الزَّلَلُ

قوله : « والناس مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له » مأخوذ من قول المرقش :

ومَنْ يَلْقَ خيراً يحمد النَاسُ أمْرهُ ومَن يَغْوَ لايعدَمْ على الغىِّ لائما

منزلة شعر القطامى

وقال عمرو بن سعيد للأخطل : أيسرك أنّ لك بشعرك شعراً ؟ قال : لا ، ما يسرُّنى أن لى بقولى مقوَلا من مَقَاوِيل العرب ، غير أنّ رجلا من قومى قال أبياتاً حسَدْتُه عليها ، وايم الله ، إنه لمُغْدِف القناع ، ضيِّق الذراع ، قليل السماع ، قال : ومَنْ هو ؟ قال : القُطامى ، قال : وما هده الأبيات ؟ فأنشد له يَصِفُ إبلا من هذه القصيدة :

يمشين رَهْواً فلا الأعْجَازُ خاذِلَة ولاالصدورُ عَلَى الأعْجَازِ تتَّكِلُ (٢)

فهن معترِضات وَالحصا رَمِضٌ وَالرِّيحُ سَاكِنَةٌ وَالظلُّ معتدلُ (٣)

يتبعن سَامِيةَ العَيْنَيْنِ تحسبها مجنُونة أو تَرَى مالا تَرَى الإبلُ

[نغم الألفاظ وَنغم الألحان]

بين مخارق وأبى العتاهية

قال أبو العتاهية لمخارق : أنت بنغمِ ألفاظك دون نَغَمِ ألحانك ، تُطْرِبُ إذا تكلّمت ، فكيف إذا ترنّمت !

وقال له يوماً : يا حكيم هذه الأقاليم ؛ أصبُبْ فى هذه الآذان من جيِّدِ تلك الألحان ، فأُقْسِمُ لو كانَ الكلامُ طعاما ، لكان غناؤك له إداما .

---

(١) المخطىء : الذى أخطأه الغنى ونحوه ، والهبل ـ بالتحريك : الثكل (م)

(٢) الرهو : السير السهل (٣) رمض : حار ـ من الرمضاء (م)

إسحاق الموصلى يصف جارية للمعتصم

قال إسحاقُ بن إبراهيم الموصلى : دخلتُ على المعتصم يوماً وقد خلاً ، وعنده جاريةٌ تُغنّيه ، وكان معجباً بها ، فلما جلست قال لى : ياأبا إسحاق ، كيف تَراها ؟ فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أراها تقهره بحِذْق ، وتختله برِفق ، ولا تخرج من حَسَن إلاّ إلى أحسن منه ، وفى حلقها شذورٌ نَغَمٍ أحسنُ من دوام النعم ، قال : يا إسحاق ؛ هن غاياتُ الأمل ، ومُنْسِيات الأجل ، والسقم الداخل ، والشُغْل الشاغل ، و إن صِفَتَك هذه لو سمعها مَنْ لم يرَها لفقد لُبَّه ، وقَضَى نَحْبَه .

ويصف المجيد من المغنين

وسُئِل إسحاق عن المُجيد من المغنين ، فقال : مَنْ لَطُفَ فى اختلاسه ، وتمكَّن من أنفاسه ، وتفرَّع فى أجناسه ، يكادُ يَعرِفُ ضمائرَ مُجالِسيه ، وشهواتِ مُعاشِريه ، يَقْرَعُ مسمع كلِّ واحد منهم بالنحو الذى يُوافقُ هواه ، ويُطابِقُ معناه .

من ترجمة إسحاق الموصلى

وكان إسحاقُ بن إبراهيم قد جمع إلى حِذْقِه بصناعَته حُسْنَ التصرف فى العلوم ، وجَوْدَةَ الصنعة للشعر ، وحَدَّث عن نفسه فقال : كنت أيام الرشيد أُبكِّر إلى هُشَيم ووكيع فأسمعُ منهما ، ثم أنصرف إلى عاتكة بنت شُهَيد ؛ فتُطارِحُنى صوتين ، ثم أصير إلى زلزل الضارب فآخذ منه طريقين ، ثم أسير إلى منزلى فأبعث إلى أبى عبيدة والأصمعى ، فلا يزَالانِ عندى إلى الظهر ، ثم أذهبُ إلى الخليفة .

ونزل أبوه بالموصل وليس من أهلها فنُسِب إليها ، وهو مولى خزيمة بن خازم[1] التميمى ، وفى ذلك يقول إسحاق :

إذا مضرُ الحمراء كانت أرُومتِى ... وقام بِنَصْرِى خازمٌ وابنُ خازِمِ
عطَسْتُ بأنفٍ شامخاً وتَناوَلَتْ ... بَنَانِى الثريّا قاعداً غيرَ قائم

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجانى يرثيه :

على الجدَثِ الشرقىِّ عُوجَا فسلِّما ... ببغدادَ لما صدّ عَنْه عوائده
أإسحاقُ لاتبعد، و إن كان قَدْرَمَى ... بكَ الموتُ مرمًى ليس يصدر وارِدُه
متى تأتِهِ يوماً تحاولُ مُنْفِساً ... مِن الدين والدنيا فإنك وَاجِدُه

(١) فى نسخة « خزيمة بن أبى حازم التميمى »

إذا هزل اخضرَّتْ فروعُ حَديثه ورقَّتْ حَوَاشِيه وطابَتْ مشاهِدُه
و إنْ جَدَّ كان القولُ جِدًّا وأقسمت مخارجه ألاَّ تلينَ شَـــدائِدُه

ومن جَيِّد شعر إسحاق قصيدته فى إسحاق بن إبراهيم المصعَبىّ بعد إيقاعه بالخرّمية :

تَقَضَّتْ لبـانـاتٌ وَجَدَّ رَحِيـلُ ولم يُشْفَ مِنْ أَهْلِ الصفاء غليلُ
ومُدَّتْ أكفٌّ للوداع فصافَحَتْ وفاضت عيونٌ للفراقِ تَسِيلُ
ولا بدّ للألاَّف مِن فَيْضِ عَبْرَةٍ إذا ما خَليلٌ بَانَ عنـه خَليلُ (١)
فكم مِن دمٍ قد طُلَّ يوم تحمَّلَتْ أوَانِسُ لا يُودَى لهن قَتِيـلُ (٢)
غداة جَعَلْتُ الصبرَ شيئًا نسيتُهُ وأعولتُ لو أجْدَى عَلَىَّ عَوِيلُ (٣)
ولم أنْسَ مِنْهَا نظرةً هَاجَ لى بها هَوًى مِنْـهُ بادٍ ظاهِرٌ وَدَخِيـلُ
كما نظَرَتْ حَوْرَاءُ فى ظلِّ سِدرةٍ دَعَاهَا إلى ظلِّ الـكِناس مَقِيلُ
فلا وَصْـلَ إلاَّ أن تلافاه أَيْنُقٌ عِتَاقٌ نَمَاهَا شَـدْقم وجَدِيلُ (٤)
إذا قلبت أجفانها بتَنُوفةٍ طوى البعدَ منهـا هزةٌ وذَمِيلُ (٥)
تفرَّد إسحاقٌ بنُصْحِ أميرِهِ فليس له عنـد الإمام عَدِيلُ
يفرج عنه الشكَّ صِدْقُ عَزِيمةٍ وَلُبٌّ به يَعْلُو الرجالَ أصِـيلُ
أغرّ نجيبُ الوالدين كأنهُ حسامٌ جَلَتْ عنه العيون صقيلُ
بنى مُصْعَبٍ للمَجْدِ فيكم إذا بدتْ وجوهكمُ للناظرين دَليـلُ
كرُمتم فما فيكم جَبَانٌ لَدَى الوغى ولا منكمُ عنـد العطاء بَخِيلُ
غَلبتم على حُسْنِ الثناء فَرَاقَكم ثنـاءٌ بأفـواهِ الرجالِ جَمِيلُ

(١) الألاف : جمع آلف ، وبان عنه : فارقه ، والخليل : الصديق (م)
(٢) طل ــ بالبناء للمجهول ــ أهـدر ، والأوانس : جمع آنسة ، وهى التى يؤنس إليها ، ولا يودى قتيلهن : لا تعطى ديته (م) (٣) أعولت : بكيت (م)
(٤) شدقم وجديل : فحلان من فحولة الإبل المعروفة ، كانا للنعمان بن المنذر (م)
(٥) التنوفة : الصحراء المترامية الأطراف ، والذميل : ضرب من السير السريع (م)

إذا استكثر الأعداء ماقلتُ فيكمُ ... فإن الذى يستكثرون قليلُ

وهذا نمط الحذاق الفحول ، وقال :

ومَدْرَجةٍ للريح غَبْرَاء لم يكن ... ليَجْشَمها زُمَّيلةٌ غير صارِمِ[1]

يَضِلُّ بها السارِى وإنْ كان هادياً ... وتقطَعُ أنفاسَ الرياحِ النَّواسِم

تعسَّفت أبْرِى جَوْزَها بشِملَّةٍ ... بعيدة ما بين العرى والمَحازِم[2]

كأنَّ شَرَار المَرْوِ من نَبْذها بِهِ ... نجومٌ هوَتْ إحدى الليالى العواتِم[3]

إذا ضمّها والسَّفْرَ ليلٌ فعيتْ ... دياجيره عنهم رءوس المعالِم

تنادَوْا فصاروا تحت أكناف رَحْلها ... ليهديَهم قَدْحُ الحَصَى بالمَناسِم

وقال :

ولما رأيْنَ البَيْنَ قد جدّ جِدّهُ ... ولم يبقَ إلاَّ أنْ تَبين الركائبُ

دنَوْنَا فسلّمنا سلاماً مُخالساً ... فردَّتْ علينا أعينٌ وحواجبُ

تَصُدُّ بلا بُغْضٍ وتخلس لمحةً ... إذا غفلت عنا العيونُ الرواقبُ

نُذَاد إذا حُمنا لشفيَ غلةً ... كما ذِيدَ عن وِرْدِ الحِياض الغرَائبُ

وما أحسن ما قال أبو العباس الناشىء فى هذا المعنى :

ولما رأين البين زُمّت رِكابهُ ... وأيقَنَّ منا بانقطاع المطالبِ

طلبن على الرّكْب المجدين عِلّةً ... فعُجْنَ علينا من صدور الركائبِ

فلما تلاقَيْنا كتبْنَ بأعينٍ ... لنا كُتُباً أعْجَمْنَها بالحواجبِ

فلما قرأناهُنّ سِرًّا طويْنَهَا ... حِذار الأعادى بازْوِرَار المناكبِ

وقال إسحاق :

ألا مَنْ لقلبٍ لا يزالُ رَمِيّةً ... لِلَمْحَةِ طَرْفٍ أو لِكسرةِ حَاجِبِ

---

(١) مدرجة للريح : مكان هبوبها ، وأراد الصحراء ، والزميلة : الجبان (م)

(٢) تعسفت : قطعت ، وجوزها : وسطها ، والشملة : الناقة السريعة (م).

(٣) المرو : حجارة بيض براقة تورى النار إذا قدحت (م)

وللخُمُر اللاتى تساقط لوثها ... فتُورالخطا عن وَارِدَات الذوائبِ

[استطراد فى ذكر جمال الذوائب]

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز :

لابن المعتز

سقَتْنِيَ فى ليـلٍ شبيهٍ بشعرها ... شَبيهَةَ خـدَّيْهَا بغـيرِ رقيبِ
فأمسيت فى ليلين بالشَّعْرِ والدُّجَى ... وخَمْرَيْنِ من راحٍ وخَدِّ حبيبِ

لابن النطاح

وقال بكر بن النطاح :

بيضاء تسحب من قيامٍ شعرَها ... وتغيبُ فيه وَهْوَ جَثْلٌ أَسْحَمُ[1]
فكأنها فيه نهـارٌ مبصرٌ ... وكأنه ليـلٌ عليها مظلِمُ

للمتنبى

وقال المتنبى :

نَشَرَتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شَعْرِها ... فى ليـلةٍ فأَرَتْ ليـالىَ أربعا
واستقبلَتْ قمـرَ السماء بوجهها ... فأَرَتْنِيَ القمرَيْنِ فى وقتٍ معا

لابن الرومى

وقال ابن الرومى :

وفاحم واردٍ يُقَبِّلُ مَمْـ ... ـشاه إذا اختال مُسْبلاً غُدَرَهْ[2]
أقبَـلَ كالليـلِ فى مفارقهِ ... منحَدِرا لا يُرَام مُنْحَدَرَهْ
حـتى تنـاهَى إلى مواطئِهِ ... يَلْثَم من كلِّ مَوْطِىءٍ عَفَرَهْ
كأنهُ عاشِـقٌ دَنَا شغفاً ... حتى قضى مِنْ حبيبه وَطَرَهْ
يُغْشِى غَوَاشِي قرونهِ قَدَماً ... بيضاءَ للنـاظرين مُقْتَدِرَهْ
مثل الثريّا إذا بَدَتْ سحَراً ... بعـد غَمَام وحاسرٍ حَسَرَهْ

لمحمد ابن مطران

أخذه بعض أهل العصر ــ وهو محمد بن مطران ــ فقال :

---

(١) الشعر الجثل ــ بالفتح ــ الكثير اللين، ويروى «وهو وحف» وهو الأسود الكثيف (م) .

(٢) غدره ــ بضم الغين والدال جميعاً : جمع غديرة ، والغديرة : الذؤابة ، وتجمع على غدائر (م)

ظِباءٌ أعارتها الظّبا حُسْنَ مَشْيِها ... كما قد أعارَتْها العيونَ الجآذِرُ
فمِنْ حُسْنِ ذاك المشي قامت فقبّلت ... مواطىء من أقدامهنّ الغدائرُ

وقال مسلم بن الوليد :

أجدّكِ هل تدرينَ أنْ رُبَّ ليلةٍ ... كأنّ دُجَاهَا من قرونك يُنشَرُ
نَصَبْت لهـا حتى تجلّتْ بغُرّةٍ ... كغُرّةِ يَحيى حين يُذْكر جَعْفَرُ

[وَحْدة القصيدة واتساقها]

قال الحاتمى : مثلُ القصيدةِ مثلُ الإنسان فى اتّصالِ بعض أعضائه ببعض ؛ فمتى انفصلَ واحدٌ عن الآخر وباينَهُ فى صحّةِ التركيب، غادرَ الجسمَ ذا عاهَةٍ تتخوّنُ[1] محاسنَه ، وتُعَفّى معالِمَه ؛ وقد وجدت حُذّاقَ المتقدّمين وأربابَ الصناعة من المحدَثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراساً يجنّبُهم شوائبَ النقصان ، ويقفُ بهم على محجّةِ الإحسان ، حتى يقعَ الاتّصالُ ، ويُؤْمَن الانفصال ، وتأتى القصيدةُ فى تناسُب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخُطْبَة الموجَزَة ، لاينفصل جزء منها عن جزء ، وهذا مذهبٌ اختصّ به المحدَثون؛ لتوقّدِ خواطرهم، ولُطْفِ أفكارهم ، واعتمادهم البديع وأفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهبٌ سهّلُوا حَزْنَه[2]، ونهجوا رَسْمَهُ ؛ فأمّا الفحول الأوائل ، ومَنْ تلاهُمْ من المخضرمين والإسلاميين فمذهبُهم المتعالم « عَدِّ عن كذا إلى كذا »[3] وقُصارَى كلّ واحدٍ منهم وَصْفُ ناقته بالعِتْق ، والنَّجابة والنجاء ، وأنه امتطاها ؛ فادّرع عليها جِلْبابَ الليل ؛ وربما اتّفق لأحدِهم معنى لطيف يتخلّص به إلى غرضٍ لم يتعمّده إلا أن طبعه السليم ، وصِراطه فى الشعر المستقيم ، نصبا مَنارَه[4] وأوقدا باليفاع نارَه ؛ فمِنْ أحسن تخلّص شاعر إلى معتمده قولُ النابغة الذبيانى .

(١) تتخون محاسنه : تنتقصها (م) (٢) الحزن : ضد السهل (م)
(٣) من ذلك قول زهير بن أبى سلمى عند التخلص بعد النسيب :
دع ذا ، وعد القول فى هرم ... خير البداة وسيد الحضر (م)
(٤) فى نسخة « نضى تياره ، وأوقد باليفاع ناره» (م)

فكفكفتُ منّى عَبْرَةً فرددْتُها على النَّحْرِ منهـا مستهلٌّ ودامعُ
على حين عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا وقلتُ : ألمَّا أصْحُ والشيبُ وَازِعُ
وقد حال همٌّ دونَ ذلِكَ شـاغِلٌ مكان الشِّغاف تبتغيـه الأصابعُ
وعيدُ أبى قابوسَ فى غير كُنْهِهِ أتانى ودونى راكِس فالضَّـواجعُ

وهذا كلام متناسخ(١) تقتضى أوائلُه أواخره ، ولايتميز منه شىء عن شىء :

أتانى ، أبيتَ اللعن ، أنك لُمْتَنِى وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامِـعُ
مقـــالة أن قد قلتَ سوف أناله وذلك من تِلقَاء مثلك رائــــعُ

ولو توصَّل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى ، وفتحوا أبوابَ البديع ، واجتنوْا ثمرَ الآداب ، وفتَحُوا زَهْرَ الكلام لكان معجزا عجبا ، فكيف بجاهلٍ بدَوِى إنما يغترفُ من قليب قَلْبِه ، و يستمدُّ عفوَ هاجسه .

وقال علىّ بن هارون المنجم عن أبيه : لم يتوصل أحدٌ إلى مدح بمثل قول [ابن] وهيب :

ما زال يُلثِمُنِى مراشـفهُ ويُعِلُّنِى الإبريقُ والقَدَحُ
حتى استردَّ الليـلُ خلعَتَهُ و بدَا خِلالَ سوادِه وَضَحُ(٢)
و بدَا الصباحُ كأن غرّتهُ وَجْهُ الخليفة حينَ يُمتَدَحُ

وقال علىّ بن الجهم :

وليـــلةٍ كحلتْ بالنِّقْس مُقْلتَها ألقت قِناعَ الدُّجى فى كلّ أخدود(٣)
قد كاد يُغرِقُنِى أمواجُ ظُلْمَتِهـا لولا اقتباسى سَنَاً وَجْهِ ابنِ دَاوُدِ

قوله : « كحلَتْ بالنِّقْس مقلتها » مأخوذ من قول أعرابى : « والليل قـد صَبَغ الحصَى بِمِدَادِ » .

---

(١) لعله « متناسق » (م) (٢) الوضح : البياض (م)
(٣) النقس ، بالكسر : المداد

وقد أخذ هذا أبو نواس فقال :

أَبِنْ لى كيف صِرْتَ إلى حَرِيمى وجَفْنُ الليلِ مُكْتَحِلٌ بقَارِ

وقد أخذ هذا أبو تمام فقال :

إليكَ هَتَكْنَا جُنْحَ ليلٍ كأنهُ قد اكتحلتْ منهُ البلادُ بإثمِدِ

وقد أخذ لفظَ الأعرابى المتقدم أبو نواس فقال :

قد أغتدى والليلُ كالمِدَادِ والصبحُ يَنْفِيه عن البلاد

طرد المشيبِ حالكَ السَّوادِ

وإنما نظرَ فى هذا إلى قول الأعرابى[1] :

أقول والليلُ قد مالَتْ أواخِرُه إلى الغروب : تأمَّل نظرةً حارِ

ألمحة من سَنا بَرْقٍ رأى بصرى أم وجه نُعْمٍ بدا لى أم سَنَا نَارِ

بل وجْهُ نُعْمٍ بدَا والليلُ مُعْتَكِرٌ فلاحَ ما بين حُجَّابٍ وأسْتَارِ

ومن بديع الخروج قول علىّ بن الجهم وذكر سحابةً :

وسارِيةٍ تَزْدَارُ أرضاً بجَوْدِها شَغَلْتُ بها عيناً طويلا هجودُها[2]

أتتنا بها ريحُ الصَّبَا فكأنها فتاةٌ تزجِّيها عجوزٌ تقودها

[فما برحت بغدادَ حتى تفجّرت بأودية ما تستفيق مُدُودها]

[فلما قضَتْ حقَّ العراق وأهله أتاها من الريح الشمال بَرِيدها]

فمرت تفوتُ الطَّيْرَ سَبْقاً كأنها جنودُ عبيد الله وَلَّتْ بُنُودها

يريد انصراف أصحاب عبيد الله بن خاقان عن الجعفرىّ إلى سُرّ من رأى عند قتل المتوكل . وقد أخذ هذا التشبيه معكوساً من قول أبى العتاهية :

ورايات يَحُلُّ النصرُ فيها تَمُرُّ كأنها قِطَعُ السحابِ

---

(١) الأبيات لنـ مة ، وقد رواها له صاحب الجمهرة ، وهى فى ديوانه (م)

(٢) السارية : السحابة ، وتزدار : تطلب الزيارة ، والجود : المطر (م)

وقال ديك الجنّ :

وغرير يقفى بحكمين : فى الرا ح بجور ، وفى الهوى بمحالِ
للنقـــا ردفُه ، وللخُوط ما حُـمِّـل لينا ، وجيــدُه للغزالِ[١]
فَعَلَتْ مُقْلتاه بالصَّبِّ ما تفــعل جَدْوَى يَدَيْك بالأموالِ

ومن بارع الخروج قول المتنبي :

مرّتْ بنا بَيْن تِرْبَيْها فقلتُ لها : من أين جانَسَ هذا الشادِنُ العرَبَا
فاستضحكت ثم قالت كالمغيث يُرَى لَيْثَ الشَّرَى وهو من عِجْلٍ إذا انتسبا

واشتهار شعره ، يمنعنى من ذكره .

[السر فى الابتداء بالنسيب]

قال ابن قتيبة[٢] : سمعت بعضَ أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ بوصف الديار والدِّمَن والآثار ؛ فبكى وشكا ، وخاطَبَ الربع ، واستوقف الرفيق ؛ ليجعلَ ذلك سبباً لذكر أهله الظاعنين ؛ إذ كانت نازلةُ العمد فى الحلول والظَّعن على خـلاف ماعليه نازلة المَدَرِ ؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء ، وانتجاعهم الـكَلَأَ ، وتتبُّعهم مساقِطَ الغيث حيثُ كان ؛ ثم وصل ذلك بالنسيب ، فبكى شدَّة الوجد ، وألم الصبابة والشوق؛ ليُميلَ نحوه القلوب ، ويَصْرِف إليه الوجوه ، ويستدعى إصغاءَ الأسماع ؛ لأن النسيب قريبٌ من النفوس ، لائط بالقلوب[٣] ، لما جعل الله تعالى فى تركيب العباد من محبّةِ الغزل ، وإلف النساء ، فليس أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم ، حلال أو حرام . فإذا استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ؛عقَّب بإيجاب الحقوق؛ فرحل فى شعره ، وشكا النَّصَبَ والسهر ، وسُرَى الليل [وحر الهجير ، وإنضاء الراحـلة والبعير ،

---

(١) النقا : كثيب الرمل ، والخوط ــ بالضم ــ الغصن الناعم الرقيق (م)
(٢) اختصر المؤلف هذا الفصل من مقدمة كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة (م)
(٣) لائط بالقلوب : لاصق بها (م)

فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمام التأميل] ، وقرّر عنده ما ناله من المكاره فى المسير ، بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة ، وفضّله على الأشباه ، وصغّر فى قدره الجزيلَ ، وهزّه لفعل الجميل ؛ فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام ، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر ، ولم يطل فيُمِلَّ السامعين ، ولم يقطع وفى النفوس ظمأ إلى المزيد .

[موازنة بين أبى تمام والبحترى]

ويتعلق بهذه القطعة ما حدّث به الحاتمى عن نفسه ، وإن كانت الحكاية طويلة فهى غيرُ مملولة ؛ لما لبسته من حُلَل الآداب ، وتزينتْ به من حُلى الألباب ، قال : جمعنى ورجلا من مشايخ البصرة ممن يُومَأ إليه فى علم الشعر مجلسُ بعضِ الرؤساء ، وكان خبره قد سبق إلىّ فى عصبيّته للبحترى ، وتفضيله إياه على أبى تمام ، ووجدت صاحبَ المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا فى هذا المعنى ، فأنشأتُ قولا أنحيْتُ فيه على البحترى إنحاء أسرفْتُ فيه ، واقتدحْتُ زِنادَ الرجل ، فتكلّم وتكلمتُ ، وخُضْنا فى أفانين من التفضيل والمماثلة ، غلوتُ فى جميعها غلوّا شهده جميع من حضر المجلس ، وكانوا جِبّة الوقت ، وأعيان الفضل ، فاضطر إلى أن قال : ما يحسن أبو تمام يبتدىء ، ولا يخرج ، ولا يختم ، ولو لم يكن للبحترى عليه من الفضل إلا حسن ابتداءاته ، ولطفُ خروجه ، وسرعة انتهائه ، لوجب أن يقع التسليمُ له ، فكيف بأوابده التى تزدادُ على التكرار غَضَارة وجِدة ثم أقبل علىّ ، فقال : أين يُذهب بك عن ابتدائه :

عارضْنَنا أصُلاً فقلنا الرَّبْرَبُ ... حتى أضاء الأقحوانُ الأشنبُ[1]

واخضرّ مَوْشىُّ البرودِ وقد بَدَا ... منهن ديباجُ الخدودِ المُذْهَبُ

---

(١) الأصل : جمع أصيل ، وهو الوقت مابين العصر إلى الغروب ، والربرب : جماعة البقر الوحشية ، والأقحوان : نبت له زهر أحمر تشبه به اللثات ، والأشنب : وصف من الشنب — بفتح الشين والنون — وهى رقة وعذوبة وبرد فى الأسنان(م)

وأنّى لأبى تمام مثل خروجه حيث يقول :

أدارَهُمُ الأولى بدارة جُلجـل سقاكِ الحَيَا رَوْحاته و بواكِرُه[١]

وجاءك يحكى يوسف بن محمد فروَّتك رَيّاهُ وجادَك ماطِرُه

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال :

تنصّبَ البرقُ مختـالا فقلت له : لوجُدْتَ جودَ بنى يَزْدان لم تَزِدِ

ومن ذا الذى لَطُف لأن يخرج من وصف روض إلى مدح ، فقال أحسن من قوله :

كأنّ ســناها بالعشىّ لصَحْبها تبلُّج عيسى حين يَلفظُ بالوَعْدِ[٢]

وأنّى لأبى تمام مثلُ حسن انتهائه حيث يقول :

إليك القوافى نازعات شواردا يُسيَّر ضَاحِى وَشْيها ويُنَمنمُ

ومشرقةً فى النظم غرًّا يزيدُها بهاءً وحسناً أنها لك تُنظمْ

وقوله فى هذا المعنى :

ألست المُوالِى فيك نَظْمَ قصائدٍ هى الأنجم اقتادتْ مع الليل أنجُمَا

ثناء تَخَالُ الروضَ فيه منوّرا ضحًى ، وتخالُ الوَشْى فيه مُنَمْنَما

ولقد تقدم البحترى الناسَ كلهم فى قوله :

لو أن مشتاقاً تكلّف فوق ما فى وُسْعِهِ لسعى إليك المنبرُ

قال أبو على : وكنت ساكتاً إلى أن استتم كلامه ، فكأنّ الجماعة أعجبهم ذلك ، عصبيةً علىّ لا لَى أبى تمام ؛ لأنى كنت كالشَّجَى معترضاً فى لهوَاتهم ، وأسرّ كلّ واحد منهم إلى صاحبه سرًّا يومىء به إلى استيلاء الرجل علىّ ؛ فلما استتم كلامه و برقت له بارقةُ طمع فى تسليمى له ابتدأت فقلت : لست ممن

---

(١) الحيا : المطر (م).

(٢) سناها . ضوءها ، وتبلجه : إشراق وجهه (م)

يُقَعْقَعُ له بالشِّنَان ، ولا يُقْرَع له بالعصا ، لا إلهَ إلا الله ! استنّت الفصالُ حتى القَرْعَى ! هل هذه المعانى إلا عُونٌ مُفْتَرَعة[1] ، قد تقدم أبو تمام إلى سبْك نُضارها ، وافتضاض أبكارها ، وجرى البحترى على وَتِيرته فى انتزاع أمثالها واتباعها ، فأمّا قوله : « عارضْنَنَا أصلا فقلنا الربرب » ، فمن قول أبى جُوَيْرِيَة العبدى :

سلّمن نحـــوى للوداع بمقلة فـكأنما نظرت إلينا الربرب

وقرأن بالحدَقِ المِرَاض تحية كادت تـكلّمنا وإن لم تُعرِب

وأما قوله فى صفة الغيث مخاطبا للدار : « وجاءك يحكى يوسف بن محمد » وقوله فى هذا المَعْنَى : « لوجادت جود بنى يزدان لم تزد » فمن قول أبى تمام :

ولنُؤْيِها فى القلب نُؤىٌ شفّهُ وَلَهٌ بظاَعِنها وبالمتخلّف

وكأنما استسقى لهنّ محمد من سومهن من الحَيا فى زُخْرُفِ

ومن قوله الذى تقدم فيه كلّ أحد لفظاً رشيقا ومعنى رقيقا[2] :

ديمة سَمْحةُ القياد سَـكُوبُ مستغيثٌ بها الثَّرَى المـكروب

لو سعَتْ بقعةٌ لإعْظَام نُعمى لسعَى نحوها المكانُ الجديبُ

ومن هنا أخذ البحترى : « لسعى إليك المنبر » :

[أيها لميث حيّ أهلا بمغْدا ك وعند السرى وحين تَئُوبُ

لأبى جعفر خلائق تحكيـــهنّ قد يشبه النجيبَ النجيبُ

أنت فينا فى ذا الأوان غريبٌ وهو فينا فى كل وقت غريبُ][2]

وأما قوله :

كأنّ سناها بالعشى لصحبها تَبَلُّجُ عيسى حين يلفظ بالوَعْدِ

فإنما نظر فيه إلى قول دِعْبِل بن على :

ومَيْثَاء خضراء زرْبيّة بها النَّوْر يلمع فى كل فن[3]

(١) العون من النساء : غير البكر (م) (٢) هذه الأبيات من قصيدة أبى تمام وليست بثابتة فى أكثر نسخ زهر الآداب (م)

(٣) الميثاء من الأرض : السهلة اللينة ، وزربية : قد اخضر نبتها واصفر واحمر (م)

ضحوكا إذا لاعبته الرياح تأوّد كالشارب المرجَحِنْ
فشبّه صحبى سنا نَوْرِها بديباج كسرى وعَصْبِ اليمنْ
فقلت : بَعُدتم ، ولكننى أشبهه بجناب الحَسَنْ
فتى لا يرى المال إلا العطاء ولا الكنز إلاّ اعتقادَ المِنَنْ

وأما قوله فى صفة الغوانى « يبسِّر ضاحى وَشْيها وينمنم » وقوله فى وصفها : « وتخال الوشى فيه منمنما » فمن قول أبى تمام :

حلّوا بها عُقَد النسيب ، ونَمنَمُوا من وَشْيها نثراً لها وقصيدا

ومن قوله الذى أبدع فيه :

ووالله لا أنفكّ أهدِى شوارداً إليكَ تحمّلنَ الثناء المنخَّلاَ[1]
تخالُ به بُرْداً عليكِ محبَّراً وتحسبه عقداً عليك مفصَّلا
ألذّ من السَّلْوَى وأطيبَ نفحةً من المسك مفتوقاً وأيسرَ مَحْمِلاَ
أخفّ على قلبى وأثقلَ قيمةً وأقصرَ فى قلبِ الجليس وأطْولاَ

وقول البحترى * هى الأنجم اقتادَتْ مع الليل أنجما * مأخوذ من قول أبى تمام مقصراً عنه كلّ تقصير عن استيفاء إحسانه حيث يقول :

أصِخْ تستَمِع حُرَّ القوافِى ؛ فإنها كواكبُ إلاّ أنهنّ سُعُودُ
ولا تمكن الإخلاقَ منها فإنما يلذّ لباسُ البُرْدِ وهو جديدُ

فهذه خصال صاحبك فيما عددتَه من محاسنه التى هتكت بها ستور عَوَاره ، ونَشَرْتَ مطوىّ أسرارِه ، حتى تتوضحت الجماعة أنّ إحسانَه فيها عاريةٌ مرتجعة ، ووديعة منتزَعة ، فاسمع ماقال أبو تمام فى نحو أبياتِك التى أوجبتِ الفضلَ لصاحبك حين قال مبتدئا :

---

(١) الشوارد : جمع شاردة ، وأراد قصائد المدح ، والثناء المنخل : أراد به الذى نفى عنه كل غريب عنه (م)

لا أنت أنت ، ولا الديارُ ديارُ خفَّ الهوَى، وتقضَّتْ الأوطارُ[١]

كانت مجاورةُ الطـلولِ وأهلها زمناً عِذَابَ الوِرْدِ فهى بحارُ

وقوله :

رقَّت حَوَاشِي الدهر فهى تمرمَرُ وغدا الـثّرَى فى حَلْيِه يتكسّرُ

وقوله :

أرأيتَ أىَّ سوالفٍ وخُدودِ عَنَّتْ لنا بين اللّوى وزَرودِ

وهل يستطيعُ أحدٌ أن يبتدىء بمثل ابتدائه :

طللَ الجميع لقد عَفَوْتَ حميدا وكفى على رُزْئى بذاك شهيدَا

دِمَنٌ كأن البين أصبح طالباً دمنـاً لدى آرامِها وحـقودا[٢]

أو مثل قوله مبتدئاً :

يا دارُ دَرَّ عليك إرهامُ الندى واهتزّ روضُك للثرى فترأّدَا[٣]

وكسيتِ من خِلع الحيا مستَاسداً أنفاً يغـادرُ وحْشَهُ مستأسِـدَا

أو مثل قوله متبدئاً :

غدَتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نَوَى غَد وعاد قَتَاداً عندها كل مَرْقَد

فاذْرَى لها الإشفاقُ دمعاً مورّداً من الدم يجرى فوق خدٍّ مورّد

ولقد أحسن حين ابتدأ فقال :

نَوارٌ فى صواحبها نَوارُ كما فاجاك سِرْبٌ أو صُوار

تـكذّب حاسدٌ فنأَتْ قلوبٌ أطاعَتْ واشياً ونأَتْ دِيارُ

وحيث يقول :

ما فى وقوفك ساعةً مِنْ بَاسِ تَقْضِى ذِمام الأَربُعِ الأَدْرَاسِ

(١) الأوطار : جمع وطر – بفتح الواو والطاء جميعا — والوطر : الحاجة (م)

(٢) دمن الأول : جمع دمنة ، وهى آثار الديار د ، ومن الثانى : الذحول (م)

(٣) إرهام الندى : أراد نزول المطر ، وترأد : اهتز من النعمة (م)

فلعلَّ عينَكَ أنْ تجودَ بدَمْعِها والدمعُ منه خاذِلٌ ومُواسِى[١]

وحيث يقول :

ما عَهِدْنا كذا نَحِيبَ المشُوق كيف والدمعُ آيةُ المعشوقِ

وحيث يقول :

دِمَنٌ ألمَّ بها فقال : سلامُ، كم حلَّ عقـدةَ صَبْرِه الإلمام ؟

نحرت ركاب الركب حتى يعبُرُوا رجلا ، وقد عنفوا علىَّ ولامُوا

وحيث يقول :

أما الرسوم فقد أذْكَرْن ماسلفا فلا تـكفّن عن شانيك أوْ يَـكِفاَ

لا عذر للصب أن يَقْنَى السّلوَّ ولا للدمع بعد مضىَّ الحىِّ أنْ يَقِفا

ومن اقتضاباته البعيدة قوله :

لهانَ علينا أن نَقُول وتَفْعلا ونذكر بعضَ الفضلِ منكَ فتُفضلا

وقوله أيضاً مقتضبا :

الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عَوارِى فحذارِ من أسد العرين حَذَارِ

ومما تقدم فيه كلَّ واحدٍ فى حسنِ التخلص إلى المدح قوله :

إساءةَ الحادثاتِ استنبطى نفقَاَ فقد أظلّكَ إحسانُ ابنِ حَسّانِ

وقوله :

إذا العيسُ لاقَتْ بى أبَا دُلَفٍ فقد تَقَطّع مابينى وبين النوائبْ

وقوله :

لم يجتمع قطّ فى مصر ولا طرف محمد بن أبى مروانَ والنُّوَبُ[٢]

وقوله المنقطع دونه كلّ قول فى هذا المعنى :

---

(١) الذى فى ديوان أبى تمام « فلعل عينك أن تعين بمائها » (م)

(٢) فى نسخة « لم يجتمع قط فى مصر ولا بلد » (م)

إنّ الذى خلق الخلائق قاتَها أقواتَها لتصرُّف الأَحْرَاسِ
فالأرضُ معروفُ السماء قرًى لها وبنو الرجاء لهم بنو العبَّاسِ
القوم ظلّ الله أسكن دينَهُ فيهم، وهم جَبَلُ الملوكِ الراسى[1]

وقوله :

عَامِى وعامُ العيسِ بين وَدِيقَةَ مَسْجُورةٍ وتنوفةٍ صيهودِ[2]
حتى أغادِرَ كلّ يوم بالفلا للطّير عيداً من بناتِ العيد
هيهات منها روضةٌ محمودةٌ حتى تناخَ بأحمدَ المحمودِ
بمعرّس العرب الذى وَجَدَتْ بهِ أَمْنَ المرُوعِ ونجدةَ المنْجُودِ

ومن أبدع ابتدائه قوله :

سقّى ديارهمُ أجشُّ هزيمُ وغدَتْ عليهم نَضْرَةٌ ونعيمُ
جادَتْ معاهدَهم عِهَادُ سحابةٍ ما عهدُها عند الديارِ ذَميمُ

ثم تخلص إلى المدح فقال وأحسن كلّ الإحسان :

لا والذى هو عالم أنّ النَّوَى مُرّ وأن أبا الحسين كَريمُ[3]
مازلتُ عن سَنَنِ الودادولا غَدَتْ نفسى على إلفٍ سِوَاكَ تحومُ

ثم عاد إلى المدح ، فقال :

لمحمد بن الهيثم بن شبابةٍ مجدٌ إلى حيثُ السّماكُ مقيم
ملك إذا نُسِبَ النَّدَى من ملتقى طرفَيْه فهو أخٌ له وحَميم

وأبو تمام الذى وصف القوافى بما لم يستطع وصفَها به أحد فقال :

فإنْ أنا لم يحمدك عنىَ صاغراً عدوُّك فاعلم أننى غيرُ حامِدِ
بسيَّاحَةٍ تنساقُ من غير سائق وتنقادُ فى الآفاق من غير قائد

---

(١) فى نسخة «أسكن ظله فيهم» (م) (٢) العيس : الإبل ، والوديقة : شدة الحر . والتنوفة : الصحراء المترامية الأطراف . والمسجورة : الموقدة ، و صيهود : الفلاة التى لا ينال ماؤها (م) (٣) يرويه علماء البلاغة « أن النوى صبر » (م)

محبّبة ما إنْ تزالُ تَرَى لها ... إلى كل أفق واحدا غَيْرَ وافدِ
مخلقة لمّا تردْ أذنَ سَامع ... فتصدرُ إلا عن يمين وشاهدِ

والذى قال أيضاً فى صفتها

جاءتْكَ من نَظْمِ اللسان قِلَادةٌ ... سِمْطَانِ فيها اللؤلؤُ المكنون
إنسيّةٌ وحشيةٌ كثرَتْ بها ... حركاتُ أهل الأرض وَهْىَ سُكُون
حذيت حذَاء الحَضْرَميّةِ أرهفت ... وأجادَها التَّخْصير والتلْسِين
ينبوعها خَضِلٌ، وحَلْىُ قريضها ... حَلْىُ الهدى، ونسيجها مَوْضُون(١)
أَخَذَا كما صَنَعُ الضمير يمدُّهُ ... حَسَبٌ إذا نضبَ الكلامُ مُعِين(٢)
أما المعانى فهى أبكارٌ إذا ... نُصَّتْ، ولكنّ القوافىَ عُونُ

وقد أبدع فى وصفها فقال:

لم أبقِ حلية منطقٍ إلاّ وقدْ ... سبقتْ سوابقها إليكَ جيَادى
أبقينَ فى أعناقِ جُودِكَ جَوْهَراً ... أبقى من الأطواق فى الأجيادِ

هل يستطيع أحدٌ أن ينسب هذا أو شيئا منه إلى السَّرَق والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشىء من شعر البحترى، أو أشعار المحدثين فى عصره ومن قبله؟ فَعَىَّ عن الجواب قُصوراً، وأحجم عن المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لى بالقَهْر، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبى تمام فى صنعة البديع واختراع المعانى على جميع المحدّثين. وكان يوماً مشهوداً.

[أثَرُ الغناء والجمال]

وقال ثُمَامة بن أشرس: كنتُ عند المأمون يوماً، فاستأذن الغلام لمُمَيَّز المأمونى فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية فى وجهى، فقال: يا ثمامة، مالك؟

(١) موضون: قد ثنى بعضه فوق بعض (م)
(٢) صنع الضمير: أراد أنه ماهر، وفى الديوان «يمده جفر» والجفر: البئر (م)

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إذا غنَّانا عمير ذكرت مواطن الإبل ، وكُثْبان الرمل ، وإذا غنتنا فلانة انبسط أملى ، وقوى جَذلى ، وانشرح صَدْرى ، وذكرت الجنان والولدان ، كم بين أن تغنيك جارية غادة كأنها غصن بَان ، ترنو بمقلة وَسْنَان ؛ كأنما خلقتْ من ياقوتة ، أو خرطت من فضة ، بشعر عكاشة العمى حيث يقول :

من كفِّ جارية كأن بَنَانَهَا   من فضة قد طُرِّفَتْ عُنَّابا
وكأنَّ يمناها إذا ضربت بها   تُلْقِى على الكفِّ الشمال حسابا

وبين أن يغنيك رجلٌ كثُّ اللحية ، غليظ الأصابع ، خشن الكف ، بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول :

رأيت زهيراً تحت كَلْكَلِ خالد   فأقبلت أسعى كالعَجُول أبادره[1]

وكم بين أنْ يحضرك مَنْ تشتهى النظرَ إليه ، وبين من لا يقفُ طَرْفك عليه ؟ فتبسم المأمون ، وقال : الفرق بينهما واضح ، والمنهج فسيح ؛ ياغلام ، لا تأذَنْ له ، وأحْضَر أطيبَ قَيْنَاته ، فظَلِلْنَا فى أمْتَعِ يوم .

عكاشة ابن عبد الصمد البصرى

وعكاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصرى ، نقيُّ الديباجة ، ظريف الشعر ، وكان شاعرا مجيداً . وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشىء ، وزادَ فيه ، فقال :

وإذا بصُرت بكفها اليُسْرَى حكت   يدَ حاسبٍ تُلْقِي عليك صنوفا
فكأنما المِضْرَابُ فى أوتاره   قَلَمٌ يُمَجْمِجُ فى الكتاب حروفا
ويجُسُّه إبهامُها فكأنما   فى النَّقْر تنفى بهْرَجاً وزُيُوفَا

أخذ هذا البيت من قول أبى شجرة السلمى وذكر ناقته :

تَطيرُ عنها حَصَى الظُّرَّانِ من بَلَدٍ   كما تُنُوقِد عند الجِهْبِذِ الوَرِقُ[2]

---

(١) العجول : الثكلى والواله من الإبل والنساء

(٢) الظران ، بضم الظاء وكسرها ، جمع ظرر ، بزنة صرد ، وهو الحجر ، وقيل : المدور المحدد منه ، والجهبذ : الخبير ، والورق : الفضة (م)

وأصله قول امرىء القيس :

كأنّ صليلَ المَرْوِحينَ تُشِذُّه　　صليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بعَبقَرا[1]

وقال أبو الفتح كشاجم :

لو لم تحـركه أناملُها　　كان الهواء يُعيدهُ نطقا
جَسَّتْهُ عالمةً بحالته　　جَسّ الطبيب لمدنف عِرْقَا
غنّت فخِلْتُ أظنّني طربًا　　أسْمُو إلى الأفلاك أو أرْقى
وحسبت يُمْناها تحرّكه　　رعدا وخِلْتُ يسارَها بَرْقا

وأنشد الحاتمى لأبى بكر الصولى :

وغناء أرقّ من دَمْعة الصـــبّ وشكوَى المتيم المهجورِ
يَشْغَلُ المرء منظرٌ ثم نطقٌ　　فهوَ يُضْنِى بظاهر وضميرِ
صافحَ السمعَ بالذى يشتهيه　　وأذاقَ النفوسَ طعمَ السرورِ
ليس بالقائل الضعيف إذا ما　　راض نغما ولا الشنيع الجهيرِ

وقال أبو نُوَاس :

وأهيف مثل طاقةِ ياسمينٍ　　له حَظَّان من دُنيًا ودِينِ
يحرِّكُ حين يشدُو ساكناتٍ　　فتنبعث الطبائع للسكونِ

وهذا مليح ، يريد حركة الجوانح للغناء ، وسكون الجوارح للاستماع

وقال الحمدونى يصف عوداً :

وناطقٍ بلسانٍ لا ضميرَ له　　كأنه فخذٌ نيطتْ إلى قَدَمِ
يُبْدِى ضميرَ سِوَاهُ للقلوب كما　　يبدى ضمير سواه منطق القلم

---

(١) الصليل . الصوت ، والمرو : حجارة بيض براقة ، وعبقر : بلد ينسب العرب إليها كل مايتعاظمون صنعته ، وزعموا أنها مقر الجن (م)

[من وَصْفِ القيان]

ومن أحسنِ ما قيل فى صفة القيان قولُ ابن الرومى : — لابن الرومى

وقيانٍ كأنها أمهاتٌ عاطفات على بَنِيهَا حَوَانِى
مُطفِلاتٌ وما حملْنَ جنيناً مرضعات ولَسْنَ ذاتَ لِبَانِ
مُلْقِمَاتٌ أطفالَهُنّ ثُدِيًّا ناهداتٍ كأحسنِ الرُّمان
مفعمات كأنهـا حافِلات وَهْىَ صِفْرٌ من دِرَّةِ الألبانِ
كل طفل يُدعى بأسماء شَتّى بين عُودٍ ومزهرٍ وكِرَانِ[1]
أمه دَهْرَها تترجِمُ عنـهُ وهو بادى الغِنَى عن الترجمانِ

وقال أبو الفتح كشاجم : — لكشاجم

جاءت بعُود كأنّ نغمتَهُ صوتُ فتاةٍ تشكو فراقَ فتى
محفّف حفّت العيونُ بهِ كأنما الزهر حولَهُ نبتا
دارتْ ملاويه فيه فاختلفتْ مثل اختلافِ العيونِ مذ ثبتا
لو حـركتْه وراء منهـزم على بريدٍ لعـاج والتفتـا

وقال :

يقولون تُبْ والكأس فى كف أغيد وصوت المثـانى والمثالث عَالى
فقلت لهم لو كنت أزمعت توبةً وشاهدت هذا فى المنام بَدَا لِى[2]

وقال :

أفدى التى كَلِفَ الفؤادُ مِنَ أجْلِها بالعُودِ حتى شـفّنى إطرابا
تاهَتْ بجمع صناعتين ، وأظهرتْ كـبرا بذاك ، وأُعْجِبت إعجـابا
قالت : فضـلتك بالغناء وأنت لا تشـدو ، وكنا مثلكم كتّابا

(١) الكران — بوزن كتاب — آلة من آلات اللهو تشبه العود أو الصنج (م) .
(٢) أزمعت : اعتزمت ، وفى ديوانه «أضمرت» (م) .

فغَنيت بالأوتار حتى لم أدع　　نغما ولم أُغْفِل لهنّ حسـابا
وألفتها فأغار ذاك على يدى　　قلبى وعاتبها عليـه عتابا
فجعلت للقرطاس جانِبَ صدرِه　　وجعلتُ جانب عَجْزِه مِضْرابا

وقال :

جاءتْ بعُودٍ كأنّ الحبَّ أنْحَلَهُ　　فما يُرَى فيه إلا الوهمُ والشَبَحُ
فحركَتْه وغنتْ بالثقيل لنا　　صوتاً به الشوقُ فى الأحشاء ينقَدحُ
بيضاء يحضرُ طيبُ اللهوِ ماحضرَتْ　　فإن نأتْ عنك غاب اللهوُ والفرَحُ[1]
كل اللباس عليها مَعْرِضٌ حَسَنٌ　　وكلُّ ما تتغنى فهو مقترَح

هذا من قول ابن المعتز :

وغنَّت فأغنتْ عن المسمِعيـ　　ـن وارتجَّ بالطرب المجلسُ
محاسِنُها نُزْهَـة للعيون　　ومَعرِضها كل ما تلبس

وقال أيضاً :[2]

أشْتَهى فى الغناء بُحة حَلْقٍ　　ناغِم الصوت مُتْعَبٍ مكدُودِ
كأنين المحبّ أضعفه الشَّوْ　　قُ فضاهَى به أنينَ العُودِ
لا أحِبّ الأوتار تعلو كما لا　　أشتهى الضربَ لازماً للعَمُود
وأحب المجنبات كحبى　　للمبادى موصـولة بالنَّشيدِ
كهبوب الصبا توسط حالاً　　بين حالين شـدة وركودِ

وقال :

آه من بُحةٍ بغير انقطاع　　لفتاةٍ موصـولة الإيقاع
أتعبتْ صوتها وقد يُجْتَنَى من　　تعبِ الصوت راحةُ الأسماعِ

---

(١) «ما» فى قوله «ماحضرت» هى المصدرية الظرفية : أى مدة حضورها .
وفى الديوان « يحضر طيب العيش إن حضرت (م) »
(٢) هذا القائل هو أبو الفتح كشاجم(م) .

فَقَدَتْ تكثر الشَّجَاجَ وحطّت طبقاتِ الأوتار بعد ارتفاع[1]
كأنين المحبّ خفّض منهُ صوتَ شكواه شدّةُ الأوجاع

لأبي الحسن ابن يونس

وقال بعض أهل العصر، وهو أبوالحسن بن يونس :

غنّت فأخفت صوتها فى عُودِها فكأنما الصوتانِ صوتُ العودِ
غَيْدَاء تأمرُ عودَها فيطيعها أبداً، ويتبعُها اتبّاع وَدُود
أندَى من النُّوّار صُبحاً صَوْتُهَا وأرقّ من نَشْر الثّنا المعهودِ
فكأنما الصوتان حين تمازَجَا ماء الغمامةِ وابنة العُنقود

من ترجمة أبي الحسن ابن يوسف

وأبو الحسن هذا هو: على بن عبدالرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى صاحب عبد الله بن وهب الفقيه ، وكان لأبي الحسن فى الشعر مذهب حسن ، وطبعٌ صحيح ، وحَوْكٌ مليح ، وكان عالمًا بالنجوم وما يتعلق بها من علوم الأوائل وهو القائل :

سقَى اللهُ أكنافَ اللّوى كلما سقى بضَرْبٍ من المزْنِ الكَنَهْوَرِ هَامِلِ[2]
إذا نشرت ريحٌ جُمانَ سحابةٍ غدَا وَهْوَ حَلْيٌ للرياضِ العَوَاطِلِ
به وَجْدُ رَعْد ليس بين جوانح ووسواسُ وَدْقٍ ليس بين مفاصل
إذا كان خدّ البرق يلمس نبتهُ تلقّاه دُرُّ النَّور فوقَ الخمائلِ

وقال، وذكر غلاماً :

يجرى النسيمُ على غلائل خَدّهِ وأرقّ منه ما يَمُرُّ عليهِ
ناولتُه المرآة ينظرُ وَجْهَهُ فكستْهُ فتنة ناظريْه إليْهِ

لابن المعتز فى المرآة

وقال ابن المعتز — وذكر المرآة :

تبيّنني لى كلما رُمْت نظرةً وناصحَتي من دون كلّ صَدِيق

---

(١) فى الديوان « تكثر البحاح » (م) .
(٢) الكنهور — بزنة السفرجل — المتراكم من السحاب (م) .

يقابلنى منك الذى لا عدمتهُ بلُجّةِ ماء وهْو غير غَرِيقِ

لكشاجم يصف مرآة

وقال أبو الفتح كشاجم يصفُ مرآة أهداها :

أختشمسالصفاءفىالحسن والإشـــــراق غــير الإعشاء للأجفان
ذات طَوْق مشرف من لُجين أُجريت فيــه صُفْرَةُ العِقْيَان
فهو كالهــالة المحيطة بالبــدر لستّ مضين بعـــد ثمانِ
وعلى ظهرها فوارسُ تلهو ببُزَاةٍ تَغْــدُو على غِزْلاَنِ
[لك فيهـــا إذا تأملت فأل حَسَنٌ مُخْــبر بنيل الأمانى]
لم يكن قبلها من المــاء جرم حاصِرٌ نفسَه بغـيرِ أَوَان
عدّلت عكسها الشعاع فبــدا ه إليها ورَجْعـــه سِيّانِ
وهى شمسٌ وإنْ مِثَالُك يوماً لاح فيهـــا فإنها شَمْسَانِ
أينما قابلتْ مثالَك من أر ضٍ ففيها تقابلَ النَّيِّران
فالقها منــك بالذى ما رآه خائف فانثنى بغـير أَمَان

ومن ألفاظ أهل العصر فى مدح الغناء

غِناؤُه كالغِنَى بعــد الفقر ، وهو جَبْرٌ للكسر[1] . [غِناؤُه] يبسط أَسِرَّةَ الوَجْهِ ، ويرفعُ حجابَ الإذْن ، ويأخذُ بمجامِــع القَلْب ، ويحرِّك النفوس ، ويرقص الرءوس . فلان طبيب القلوب والأسماع ، ومحيي مَوَات الخواطِر والطِّباع ، يُطْعِمُ الآذانَ سروراً ، ويقدح فى القلوب نوراً . القــلوبُ من غنائه على خَطر ؛ فكيف الجيوب ؟! السكر على صوتِه شهادة . كل ما يغنّيه مقــترَح . لغنائه فى القَلْبِ ، موقع القَطْر فى الجدْب . نغمة نغمته تطرب ، وضروب ضَرْبه لا تضطرب. وقيل : السماع مُتْعَة الأسماع ، وإدامُ المدام .

(١) فى نسخة « وهو عذر للسكر » (م) .

[الأقــلام]

من أخ إلى أخيه وقد أهداه أقلاما

أهدى بعضُ الكتّاب إلى أخ له أقلاماً وكتب إليه : إنه — أطال اللهُ بقاءك ! — لما كانت الكتابةُ قِوَامَ الخلافة ، وقرينة الرياسة ، وعمودَ المَمْلَكة ، وأعظم الأمور الجليلة قَدْرا ، وأعلاها خَطَرًا ، أحببتُ أن أُتحفك من آلاتها بما يَخِفُّ عليك مَحْمِله ، وتثقل قيمتُه ، ويكثر نفعُه ؛ فبعثتُ إليك أقلاماً من القصب النابت فى الأعْذَاء[1] ، المغذوّ بماء السماء ، كاللآلى المكنونة فى الصَّدَف ، والأنوار المحجوبة بالسّدف ، تَنْبُو عن تأثير الأسنان ، ولا يثنيها غَمْزُ البَنان ، قد كسَتْها طباعها جوهراً كالوَشْى المحبّر ، وفرند الديباج المنيّر ، فهى كما قال الكميت :

وبيضٍ رقاقٍ صِحاح المتـو نِ تَسْمَع للبيض فيها صَرِيرا
مُهَنَّـدة من عَتَـادِ الملوك يكاد سَنَاهُنّ يُعْشِى البصيرا

وكقِسِىّ النبل فى ثقل أوزانها ، وقُضُب الخيزُرَان فى اعتدالها ، ووشيج الخطّ فى اطّرادها ، تمرّ فى القراطيس كالبَرْقِ اللامح ، وتجرى فى الصحف كالماء السائح ، أحسن من العِقْيان ، فى نحور القِيَان .

من عبيد الله ابن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم

وكتب عبيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله أن يوجِّهَ إليه بأقلام قصبيّة : أما بعد ، فإنّا على طول الممارسة لهذه الصناعة التى غلبَتْ على الاسم ، ولزمت لزوم الوَسْم ، فحلَّت محل الأنساب ، وجرت مَجْرَى الألقاب — وجدنا الأقلام القصبيّة أسرعَ فى الكَوَاغِدِ ، وأمرّ فى الجلود ، كما أن البَحْرِية منها أسلسُ فى القَرَاطيس ، وألين فى المعاطف ، وأكلّ عن مزيقها ، والتعلق بما ينبو من شظاياها . ونحن فى بلادٍ قليلة القَصَب ، ردىء ما يوجد

---

(١) الأعذاء : جمع عذى ، وهو الزرع الذى لا يسقى بغير ماء المطر (م) .

بها منه ؛ فأحببت أن تتقدَّم فى اختيار أقلام قصبية ، وتتأنّق فى انتقائها قِبَلك ، وطلبها فى منابتها ، من شُطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ، وأن تتيمَّم باختيارك منها الشديدة الجسّ ، الصّلبة المعضّ ، الغليظة الشحوم ، المكتنزة الجوانب ، الضيّقة الأجواف ، الرزينة الوَزْن ، فإنها أبقى على الكِتَاب، وأبعد من الحَفَاء ، وأن تقصدَ بانتقائك منها للرقاق القضبان ، اللطاف المنظر ، المقوَّمات الأوَد ، المُلْس العُقد ، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أَمْت ؛ وضُمّ الصافيةَ القشور ، الخفية الأُبَن [1] ، الحسنة الاستدارة ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، تكادُ أسافلها تهتزّ من أعلاها ، لاستواء أصولها برءوسها ، المستكملة يبساً ، القائمة على سوقها ، قد تشرّبت الماء فى لِحائها ، وانتهت فى النُّضْج منتهاها ، لم تعجّل عن تمام مصلحتها . وإبَّانِ يُنْعِها ، ولم تؤخّر فى الأيام المخوفة عاهاتها ؛ من خَصَر الشتاء ، وعَفَنِ الأنداء ، فإذا استجمعتْ عندك أمرْتَ بقطعها ذِراعا ذراعا ، قَطْعاً رفيقاً تتحرّز معه أن تتشعّبَ رءوسها ، أو تنشق أطرافها ، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية ، وعليها الخيوط الوثيقة ، ووجِّهْتَها مع من يحتاط فى حراستها وحفظها وإيصالها ؛ إذ كان مثلها يُتَوانى فيه ، لقلّة خطرِها عند من لا يعرفُ فَضْلَ جوهرها ؛ واكتب معه بعدَّتِها وأصنافها وأجناسها وصفاتِها ، على الاستقصاء ، من غير تأخير ولا إبطاء .

جواب إسحاق ابن إبراهيم

فأجابه ووجّه إليه مع الأنابيب : أتانى كتاب الأمير ـ أعزّه الله ! ـ بما أمر به وخصه ، من البحث بما شاكل نَعْتَه ، وضاهى صِفَته ، من أجناس الأقلام ، فتيممت بُغيته قاصداً لها ، وانتهجتُ معالمَ سُبُلِه آخذا بها ، فأنفذْتُ إليه حزماً أنشئت بلطيف السّقيا ، وحُسْن العهد والبُقْيا ، لم تعجل بإخراجها ، ولا بُودِرتْ

---

(١) الأبن : جمع أبنة ، وهى العقدة فى العود (م) .

قبل إدرا كها؛ فهى مستويةُ الأنابيب معتدلتها ، مثقّفة الكعوب مقوّمتها؛ لا يُرَى فيها أَمْتٌ زَوَر، ولا وصم صغر ولا عِوَج ، وقد رجوت أن يجدَها الأمير عند إرادته وحسَبَ بُغْيَتِه .

لمنصور بن عمار يصف القلم

ومن كلام منصور بن عمَّار فى صفة القلم ، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب :أو ليس من عجائب اللهِ فى خَلْقِه ، و إنعامِه على عباده ، تعليمُه إياهم الكتابَ المفيد للباقين حكم الماضين ، والمخاطِبَ للعيون بسرائر القلوب ، على لغات مختلفة ، بمعان مفترقة معقودة ، وأحرفٍ مقلوبة ، من ألِف وتاء ، وجيم وباء ، متباينات الصور ، مختلفات الجهات ، لِقَاحها التفكير ، ونتاجها التأليف ، تخرس مفردة ، وتنطِقُ مزدوجة ، بلا أصواتٍ مسموعة ، ولا ألسُنٍ محدودة ، ولا حركات ظاهرة ، بل قلم حَرَّفَ بارِيه قطَّته ، ليعلقَ المدادُ به ، وأرْهَف جانبيه ليردّ ماانتشر عنه إليه ، وشقّ فى رأسه ليحتبس الاستعداد عليه ، ورفع من شعبتيه لتجتمع حواشي تصويره ؛ فهنالك روى القلم فى شِقّه ، وقذف المادة إلى صدره ، فإذا علقتها العيون حكَتْها الألسن، فالقلوبُ حينئذ رَاعِية ، والآذان واعِية ، لكلام سَدّاه العقْل ، وألحمه اللسان ، وأدّته اللَّهَوَات ، ولفظته الشّفَاه ، ووعته الأسماع ، على اختلاف أنحاء ، من صفاتٍ وأسماء ؛ فتبارك الله أحْسَنُ الخالقين .

للنجيرمى فى وصف القلم

حمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر ، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله النجيرمى ، فى القلم إلى أبى عمران بن رياح :

إنه لما كان القلمُ مطيَّةَ الفِكْر والبيان، ومُخرِجَ الضمير إلى العِيان،ومستنبطا ما تُوارِيه ظُلَمُ الجنانِ إلى نُور البيان ، ومُريحَ الفِطَنِ العوازب ، وجالبَ الفِكَرِ الغرائب [ولسان الغائب ، و بز الكاتب ، ومكتّب الكتائب]،ومفرق الجلائب، وعماد السّلْم، وزناد الحرب ، و يدَ الحدثَان، وخليفة اللسان، ورأس الأدوات التى

خصّ الله بها الإنسان ، وشرّفه بها على سائر أصناف الحيوان ، ومركباً لآلة قد تقدّمتْ كلّ آلة ، وحِكْمة سبقَتْ فى الإنسان كلّ حكمة ، وَقِوَاماً لهندسة عقلية ، ومصدرا لتقّل العاقل ، وجهل الجاهل . الناقل إلينا حِكَمَ الأولين ، وحاملها عنا إلى الآخرين ، الحافظ علينا أمْرَ الدنيا والدين ، أول شىء خلقه الله بأمره وسَبَّحَه ، وَمجّده وَحِمدَه وسجدَ له ، فكان له فرسانٌ خُلِقَ لهم ، وكُنْتَ عميدَهم ، وأقرانٌ قُصِرَ عليهم ، وأنت صنديدهم ، وميدانٌ كنت زَيْنه ، ومضمار كنت عَيْنَه ، وحَلْبَة كنت سـابقها ومعجزها ، وغاية كنت مالِكها ومُحْرِزَها ، ورمت بى الأيام إلى معدنه الذى كُلفت به وعنيت بطلبه ، فانفردت منه بمدح فَذّ أَوْحد ، فَرْد فى منبته ، قد ساعدت عليه السعود فى فلك البروج حولا كاملا ، مُخْتلف يُؤَلِّفه أركانها وطباعها ، ومتباين أنوائها وأنحائها ، وتؤيده بقواها وجواهرها ، حتى غذَتْه عِرْقا فى الثرى معرقًا ، وأرضعته ناجماً ، وسقتـه مكعباً ، وأروته مقصباً ، وأظمأته مكتهلا ، ولوحته مستحصداً ، وجللته بهاءها ، وألقت عليه عنوانها ، وأودعته أعراقها وَأوراقَها وأخلاقَها ، حتى إذا شق بازله ، ورقّت شمائله ، وابتسم من غشائه ، ونادى من لِحَائه ، وتعرى[1] عن خز المصيف ، بانقضـاء الخريف ، وانكشف عن لون البيض المـكنون ، والصدف المخزون ، ودر البحار ، وفُتَاتَ الجمار ، دعا منه نَفَق العاَج بنقبة الديباج ، وقميص الدرر بطراز النساج ، فاجتمعت له زينة الأيدى البشرية ، إلى الأيدى العلوية ، والأنساب الأرضية ، إلى الأنساب السماوية ، فلما قادته السعادة إلىّ ، ورأيته نسيجَ وَحْدِه فى الأقلام ، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحْدِه فى الأنام ، فآثرتك به مُؤْثِراً للصنيعة ؛ عالماً أن زين الجيادِ فرسانها ، وزين السيوف أقرانها ، وزين بزة لابِسُهَا ، وزين أداةٍ ممارسُهَا ،

---

(١) فى نسخة « وتفرى عنه » .

فالآن أعطيت القوس باريها ، وزناد المكارم مُوريها ، والصمصامة مُصْلِتها ، والقناة مُعلمها ، وحلّة المَجْدِ لاَبِسها .

من أخبار النجيرمى

وكان النجيرمى جَيِّدَ الروية والبديهة فى نظمه ونثره ، حلو التصريف ، مليح التأليف ، وكان يوماً عند أبى المسك كافور الإخشيدى ، فدخل عليه أبو الفضل ابن عياش فقال : أدام الله أيامِ سيدنا الأستاذ — بالخَفْض — فتبسّم كافور إلى أبى إسحاق ، فقال ارتجالا :

لا غَرْوَ إن لَحَن الدّاعِى لسيِّدنا ... وغُصّ من هَيْبَةٍ بالريقِ والبَهَرِ
فمثل سيدنا حالت مهَابَتهُ ... بين البليغ و بين القول بالحصَرِ
فإن يكن خفَضَ الأيام من دَهش ... من شدةِ الخوف لامِنْ قِلَّةِ البَصَرِ
فقد تفاءلت فى هـذا لسيدنا ... والفأل مأثرة عن سيّد البشَرِ
بأن أيامه خَفْضٌ بلا نَصَب ... وأن دولتـه صـفوٌ بلا كدَرِ

فأمر له بثلثمائة دينار ، ولابن عياش بمائتين .

لحمدان الدمشقى يصف قلماً

وقال حمدان الدمشقى يصف قلماً :

وله إذا لم تجرِه إطـراقهُ ... للأيْم بعثته وشَقّ لِسَـانِهِ
من حيث يَجْرِى سمه تِرْيَاقهُ ... كالحيَّةِ النَّضْنَاضِ إلاّ أنهُ

وصف القلم الصالح للكتابة

قال العتابى : سألنى الأصمعى فقال لى : أى الأنابيب أصْلَحُ للكتابة وعليها أصبر ؟ فقلت : مانشِفَ بالهجير ماؤُه ، وستره عن تلويحِه غشاؤُه ، من التِّبرية القشور الدرّية الظهور ، الفضية الكسور ، قال : فأىّ نوع من البَرْى أكتب وأصْوب؟ قلت : البرية المستوية القطّ ، عن يمين سنّها ، برية تأمن معها الجَّة عند المط[1] ،

(١) فى نسخة « عند الخط » (م) .

الهواء فى مَشَقّها فتيق ، والريح فى جوفها خَريق ، والمِدَاد فى خرطومها رَقيق ، قال : فبقىَ الأصمعى شاخصاً إلىّ ضاحكا لا يُحيرُ مسألة ولا جوابا .

[من ترجمة العتابى وأدبه وأخباره]

والعتابى : هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبى ، يُكْنَى أباعمرو ، قال أبو عثمان الجاحظ : كان العتّابىّ ممن اجتمع له الخطابة ، والبيـان ، والشعر الجيد ، والرسائل الفاخرة ، وعلى ألفاظه وحَـذْوِه يقول فى البديع جميعُ من يتكلّف ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النَّمرى ، ومسلم بن الوليـد الأنصارى ، وأشباههما ، وكان العتابى يَحْتذى حَذْو بشّار فى البديع ، ولم يكن فى المولدين أجودُ بديعاً من بشار وابن هَرْمَةَ

والعتابى من ولد عَمْرو بن كلثوم ابن مالك بن عَتّـاب بن سـعد ، ولذلك قال :

إنى امرُؤٌ هدم الإقتار مأثرتى ... واجتاح ما أَبْدَتِ الأيامُ من خطرى

أنا ابنُ عمرو بن كلثوم يسوّدهُ ... حيّا ربيعةَ والأحياء من مضرِ

أرومَةٌ عَطّلتنى من مكـارمها ... كالقوسِ عطّلها الرامى من الوترِ

وكان صاحبَ بديهة فى المنظوم والمنثور ، حسن العقل وَالتميز ، وَالعربُ تقول : من تمَنّى رجلا حسنَ العَقْلِ ، حسنَ البيانِ ، حسنَ العِلْم ، تمَنّى شيئاً عسيراً. وَقد اجتمع ذلك كله للعتابى .

وَعاتبه يحيى بن خالد على لباسه ، وَكان لا يُبَالى أى ثوبيـه ابتذلَ ! فقال : أبعَدَ اللهُ رجلا مهمُّه أن يكون جمالُه فى لباسه وَعطره . إنما ذلك حظُّ النساء ، وَأهل الأهواء ، حتى يرفعه أكبرَاه : هِمّته ، وَلبّه ، وَيعلو به معظماه: لسانُهُ ، وَقلبه .

ودخل على الرشيد فقال : تكلَّم يا عتَّابيّ ! فقال : الإيناس قبل الإبسَاس ، لا يُمْدَحُ المرء بأوّل صَوابه ، ولا يُذَمّ بأول خَطئه ؛ لأنه بين كلام زَوَّرَه ، أو عِيٍّ حَصَرَه .

وذكر أبو هفّان أنَّ الرشيد لقيَه بعد قَتْل جعفر بن يحيى وزوال نِعمته ، قال : ما أحْدَثت بَعْدُ يا عتَّابى ؟ فأنشده ارتجالا :

تلومُ على تَرْكِ الغِنَى باهليـــةٌ … طوَى الدهرُ عنها كلَّ طِرْفٍ وتَالِدِ
رأتْ حولها النسوان يرفلن فى الكُسا … منظمةً أجيـــادُها بالقلائِدِ
أَسَرَّكِ أنى نِلْتُ ما نال جعفرٌ … من الملك أو مَا نَالَ يحيى بن خالدِ
وأن أمير المؤمنـــين أغَصَّنى … مغصَّهُما بالمرهَـفَاتِ البـوارِدِ
فإنَّ رفيعات المعـالِى مَشُوبةٌ … بمستودعاتٍ فى بطونِ الأسـاودِ

وكان متحرفاً عن البرامكة ، وفيهم يقول :

إنَّ البَرَامِكَ لا تنفكُّ أنْجِيَةً … بصفحة الدّين من نجواهُمُ نَدَبُ[(١)]
تجرَّمَتْ حججٌ منهم ومُنْصلُهم … مضرَّج بدم الإسلام مختَضِبُ[(٢)]

واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنزل العتَّابى ، فقال : أليس هذا منزلَ كلثوم ابن عَمْرو ؟ قيل : نعم ، فثَنَى رجله ، ودخل إليه ، فألفاه جالسا فى بَيْتِ كتبه ، فحادَثه وذاكَرَه ، ثم انصرف ، فتحدّث الناسُ فى ذلك ، وقالوا : إن الأمـير لم يَقْصِدهُ ، و إنما اجتاز به فأَخْطر ذلك الزيارةَ ، فـكتب إليه :

يا مَنْ أفادَتْـنى زيارَتُهُ … بَعْدَ الخمول نباهةَ الذكْرِ
قالوا الزيارةُ خَطْرَةٌ خَطَرت … ومجاز خَطْرِك ليس بالخطر
فادْفَعْ مقالتهم بثالثـة … تستنفِدِ المجهودَ مِنْ شكرى

(١) أنجية : متناجين متسارين . والندب : الجروح (م)
(٢) تجرمت : مضت وانقضت ، وفى نسخة «تصرمت» والمنصل : السيف (م) .

لا تجعلَنَّ الوِتْرَ واحدةً ... إن الثلاث تتمةُ الوتر

فبعثته الأبياتُ إلى أنْ زارَهُ ثلاثاً .

وكان يميل إلى المأمون ، فلما خرج المأمون إلى خُراسان شيَّعه حتى وصل معه إلى سندان[1] كِسرى، فقال له المأمون :سألتك بالله ياعتّابى إلا عملتَ على زيارتنا إنْ صار لنا من هذا الأمر شيء ، فلما ولى المأمون الخلافةَ ، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين توصَّل إليه العتّابى ، فلم يمكنه الوصول ، فقال للقاضى يحيى بن أكثم: إن رأيتَ أن تُعلِم أميرَ المؤمنين بمكانى! فقال: لَسْتُ بحاجب! قال: قدعلمت، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل مِعْوان ! فقال : سلكتَ بى غير طريقى! قال: إن الله تعالى ألحقك بجاهٍ ونعمة ، وهما يقيمان عليك بالزيادة إن شكرت ، والتغيير إن كفرت ، وأنا اليوم لك خيرٌ منك لنفسك ؛ أدعوك لما فيه زيادة نعمتك ، وأنت تأبى ذلك ؛ ولكلِّ شيء زكاة ، وزَكاةُ الجاهِ بَذْلُهُ للمستعين ، فدخل يحيى على المأمون فقال : أجِرْنى من لسان العتّابى ، فلهَا عنه ، ولم يأذن له ، فلما طال عليه كتب إليه :

ما على ذلك افترقنا بسندا ... ن ولا هكذا عَهِدْنا الإخاء

لم أكن أحسب الخلافة يزدا ... د بها ذو الصفاء إلاّ صفاء

تضرب الناس بالمثقفة السُّمـ ... ـرِ على غَدْرِهم وتنسى الوفاء

يعرِّض بقتْله لأخيه على غَدره ، ونكثه لِماَ عقد الرشيد ؛ فلما قرأ المأمون والأبيات أمر أن يُدْخَل عليه . فلما سلم قال : يا عتابى ، بلغتنى وفادَتُكَ فسرَّتْنى ، وقد كانَتْ بلَغَتْنِى وفاتُكَ فساءتنى ، و إنى لحرىٌّ بالغم لبُعدِك ، والسرور بقربك! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لو قسم هذا الكلام على أهلِ الأرض لوسعهم عَدْلا

---

[1] هكذا ، وربما كانت « سنداد كسرى » (م) .

وأعجزهم شكراً ، وإنّ رضاك لغاية المُنىَ ؛ لأنه لا دينَ إلا بك إلا معك ، قال : سَلْنى ، قال : يَدُكَ بالعطية أطلق من لسانى بالمسألة ، بخمسين ألفا .

وقال العتابى وودّع جاريةً له :

ما غَناء الحِذَارِ والإشفاقِ وشآبيب دَمْعِك المُهْرَاقِ
ليس يَقْوَى الفؤادُ منك على الهَدِّ ولا مُقْلتَا طَلِيحِ المآقى
غدرات الأيّامِ منتزِعَاتٌ ما غَنِمْنَا من طول هذا العناق
إنْ قضَى اللهُ أن يكون تلاَقٍ بعد ماقد ترين كان تلاقِ
هَوِّنِى ما عليك واُقْنَىْ حَيَاء لستِ تبقين لى ولستُ بِبَاقِ
أيّنا قدّمَتْ صروفُ المنايا فالذى أخّرتْ سريعُ اللّحاق
ويدُ الحادثات رَهْنٌ بمُرَّا تِ من العيشِ مُصْبِرَاتِ المذاق
غُرّ مَنْ ظن أن يفوت المنايا وعُراها قلائدُ الأعناق
كم صفيّيْنِ مُتِّعَا بانفاقٍ ثم صارا لغُرْبَةٍ وافتراقِ
قلت للفرقدين والليل مُلْقٍ سُودَ أكنافه على الآفاقِ
ابقَيَا ماَ بقيتما سوف يُرمى بين شخصيكما بسَهْمِ الفرَاقِ
بينما المرء فى غَضَارةِ عَيْش وصلاحٍ من أمرِه واتّفَاق
عطفتْ شِدّةُ الزمان فأدّتْـــه إلى فاقةٍ وضيقِ خِنَاقِ
لا يدومُ البقاء للخَلْق لَكِـــنّ دوامَ البقاء لِلخَلّاق

وقال فى الرشيد :

إمامٌ له كفّ تضُمِ بَنَانُها عصا الدين ممنوعاً من البَرْى عودُها

وعينٌ محيطٌ بالبريَّة طَرْفُها سواءٌ عليها قُربها وبَعيدُها

وقال فيه :

رعى أمّة الإسلام فهو إمامُها وأدّى إليها الحقّ فهْو أمِينُها

مقيمٌ بمستنّ الفَلاَحَيْثُ تَلتقى طَوَارِقُ أبكارِ الخطُوبِ وعُونُها

وكان منصور النمرى سَعَى به إلى الرشيد فخافه ، فهرب إلى بلد الروم . وله قصائد يعتذرُ فيها جيدةٌ مختارةٌ ، وهو مشبّهٌ فى حسن الاعتذار بالنابغة الذبيانى، ومن جيّد اعتذاره قوله للرشيد ، ويقال : بل قالها على لسان عيسى بن موسى الهاشمى يخاطب الرشيد :

جعلتُ رجاَء العفوِ عذراً وشُبْتَهُ بهيبةِ إمَّا غافرٍ أو مُعَاتِب

وكنتُ إذاماخفت حادث نَبْوَةٍ جعلتك حِصناً من حِذَارِ النوائب

فأنْزَلَ بى هجرانُك اليأس بعدما حللتُ بوادٍ منك رَحْبِ المشارب

أظل ومرْعَاىَ الجديبُ مكانَه وآوِى إلى حافات أكدرَ نَاضِب

ولم يثْنِ عن نفسى الردى غير أنها تنوء بباقٍ من رجائك ثائب[١]

هى النفس محبوسٌ عليك رجاؤُها مقيدة الآمالِ دون المطالبِ

وتحت ثياب الصبر منى ابن لَوْعةٍ بظلّ ويُمسِى مستلين الجوانب

فتى ظفرتْ منه الليالى بزَلَّةٍ فأقْلَعْنَ عنه داميات المخالب

حنَانَيْكَ إنى لم أكُنْ بعتُ عِزَّة بذلٍّ، وأحرزتُ المنى بالمواهبِ

فقد سُمْتَنِي الهجران حتى أذَقْتَنى عقوبة زلاتى وسوء مَنَاقِب

فها أنا مَقْصًى فى رضَاك، وقابضٌ على حدِّ مصقولِ الذبابين قاضِبِ

ومنتزعٌ عما كرِهْتَ وجاعلٌ هواك مثالا بين عينى وحاجبى

---

(١) تنوء به : يثقل عليها ، وفى نسخة « تثوب» وثائب : راجع (م)

وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة :

وأشعث مشتاق رمى في جفونه ... غروب الكرى بين الفجاج السباسب
سحبت له ذيل الثرى وهو لابس ... دجى الليل حتى مج ضوء الكواكب
ومن فوق أكوار المهاري لبانة ... أحل لها أكل الذرى والغوارب
وكل فتى عاداته قصر شوقه ... وطي الحشى دون الهموم العوازب
يسر الهوى لم يبده نعت فرقة ... صراخاً، ولم تسمع به أذن صاحب
إذا ادرع الليل انجلى وكأنه ... بقية هندي الحسام المضارب
بركب ترى كسر الكرى في جفونهم ... وعهد الليالي في وجوه مشاحب

وقال أيضاً :

لو رأتني بذي المحارة فرداً ... وذراع ابنة الفلاة وسادي[1]
أطفيء الحزن بالدموع إذا ما ... حمة الشوق أثرت في فؤادي
خاشع الطرف قد توشحني الضر ... فلانت له قناة قيادي
ترب بؤس أخا هموم كأن الـ ... حزن والبؤس وافيا ميلادي
وكأني استشعرت ما لفظ النا ... س من النائرات والأحقاد
أنصـدى الردى وأدرع الليـ ... ـل بهوجاء فوقها أقتادي
حظ عيني من الكرى خفقات ... بين سرجي ومنحنى أعوادي
أوحش الناس جانبي فما آ ... نس إلا بوحدتي وانفرادي
قد رددت الذي به أتقى النا ... س وأبرزت للزمان سوادي
فاستهلت علي تمطرني الشو ... ق شآبيب مزنة مرعاد

وقال :

أما راع قلب العامرية أنني ... غدوت ومرجوع السقام قريني

(١) في نسخة «بذي المجازة» وفي أخرى «بذي المجادة» وابنة الفلاة : الناقة(م)

وقال :

أكاتِمُ لَوْعاتِ الهوَى وَيُبِينُهَا تخلّلَ مَاء الشوق بين جُفُونى
ومطروفة الإنسان فى كل لوعة لهانظرةٌ موصـــولة بحَنين

[من آداب آل وهب]

وقال الحسن بن وهب بن سعيد :

أبْكِ فمِنْ أحسن ما فى البكَىْ أنّ البكَىْ للوَجْـد تحليلُ
وهْو إذا أنت تأملتـــهُ حزن على الخدّين محلول

وقد أعرق بنو وَهْب فى الكتابة وأنجبوا ، ولهم فى هذا الكتاب ما يشهد لهم بما نُسب إليهم ، وفيهم يقول الطائى :

كل شِعب كنتم بهآلَ وَهْبٍ فهو شعبى وشِعْبُ كلّ أديبِ[1]
إن قلبى لكم لكالكبد الحـــرّى وقلبى لغيركم كالقلوبِ

وفى هذه القصيدة يقول فى مدح سليمان بن وهب :

ما عَلى الوُسّج الرّوَاتِك من عيـ ب إذا ما أتتْ أبا أيوبِ
حُــوّلٌ لاَ فِنَاله مرتع الذمّـــ ولا عِرضه مناخ العُيُوبِ
واجد بالصديق منْ بُرَحَاء الشّـ وقِ وجدانَ غَيْره بالحبيب

أخَذَ سليمانُ منه معنى هذا البيت الأخير ، فقال فى رسالة لبعض إخوانه :
ظَرْفُ الصداقة ، أرقُّ من ظرف العلاقة ، والنفس بالصديق، آنس منها بالعشيق . فقال له أبو تمام : كلامك هذا أرق من شعرى .

والحسن بن وهب حَسَنُ الشعر والبلاغة ، جيّد اللسان ، حلو البيان ، وكان يحب بنان جارية محمد بن حمّاد ، وله فيها شعر جيد، ولها يقول :

---

(١) أصل هذا هو قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » (م)

(٢) الوسج : جمع واسجة ، وهى الناقة السريعة السير ، والرواتك : جمع راتكة وهى متقاربة الخطو(م)

أقول وقد حاولتُ تقبيلَ كفِّها ... وبى رِعدةٌ أهتزُّ منها وأسكن
ليهنئك أنّى أشجعُ الناسِ كلِّهم ... لدَى الحرب إلا أننى عنك أجْبَنُ

وحضرتْ مجلسه وبين يديه نارفأمرتْ بإزالتها ، فقال :

بأبى كرِهتِ النارَ حتى أُبعدتْ ... فعلمتُ ما معناكِ فى إبعادها
هى ضَرَّةٌ لكِ فى الْتمَاع ضِيائها ... وهبوبِ نفْحَتِها لدى إيقادها
وأرَى صنيعك فى القلوب صنيعَها ... بسَيَالهــا وأراكِها وعَرَادِها[1]
شَركَتْكِ فى كلّ الأمورِ بفِعْلها ... وضيائها وصَلاحِها وفسادِها

و إلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعزّ :

ما هجرتُ المُدامَ والوردَ والبد ... رَ طَوْعِ ، لكن برَغْمٍ وكُرْهِ
منعتنى من الثــلاثة مَنْ لَوْ ... قتلتنى لم أحكِ واللهِ مَنْ هِى
قالت الوردُ والمدامةُ والبــد ... رُ ضيائى ولونُ خدّى ووَجْهِى
قلت بخـلاً بكلّ شىء فقالت ... لا ولكن بخلت بى وبِشِبْهِى
قلت ياليتنى شبيهُكِ قالت ... إنما يقتــل المحبَّ التشهِّى

ولما مات الحسنُ بن وَهب — وكان موته بالشام — عُزّى عنه أخوه سليمان فجاء أبو العيناء ، فقال : أنشدنى أبو سعيد الأصمعى :

لعمرى لنِعْمَ المرء من آل جعفر ... بحوران أمْسَى أعلقَتْه الحبائلُ
لقد فقدوا عَزْماً وحزْماً وسؤدداً ... وعِلما أصــيلا خالفته المجَاهِل
فإن عِشْتَ لم أملل حياتى وإن تمت ... فما فى حياتى بعد مَوْتِكَ طائلُ

فقال سليمان : أحسن اللهُ جزاءك ، ووصل إخاءك ، إن هــذا لمن أحسن الشعر ، وقد تمثّل به قتيبة حين بلغه موتُ الحجاج ، ولكنى أقول كما قال كعب ابن سعد الغنَوِى يرثى أخاه أبا المغوار :

---

(١) السيال — بزنة السحاب — شجر سبط الأغصان ، والأراك : الشجر الذى تتخذ من أغصانه المساويك ، والعراد : شجر صلب ، واحدته عرادة .

أخِي ما أخى لا فاحِشٌ عند بَيْتِه ... ولا وَرَعٌ عنــــد اللقاء هَيُوبُ

حليم إذا ما سَوْرة الجهل أطلقَتْ ... حُبَى الشيب ، للنفس اللَّجُوج غَلُوبُ

حبيبٌ إلى الزوّار غِشْيَانُ بَيْتِه ... جميــــل المحيّا شبّ وهْو أرِيبُ

إذا ما تراآه الرجالُ تحفَّظُوا ... فلم تَنطِقِ العَوْرَاء وهْوَ قريبُ

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان ، وحسن جوابه ، وصحّة تمثله .

والأبيات التى أنشدها الأصمعى للحطيئة ، واسمه جَرْوَل بن أوْس بن جُؤَيَّة ابن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيفة بن عَبْس بن بَغيض ، يقولها فى علقمة ابن عُلاَثَة وفيها يقول :

فما كان بينى لو لَقِيتُكَ سالمـا ... وبين الغِنَى إلا ليـالٍ قلائل

قال سليمان بن وهب : لما جار علينا بالنـكبة السلطان ، وجفَانا من أجلها الإخوان ، أنصفنا ابن أبى دُوَاد بتطوُّله ، وكفانا الحاجـةَ إليهم بتفضّله ، فـكنا وإياه كما قال الحطيئة :

جاورتُ آل مقلَّدٍ فَحَمِدتُهم ... إذ لا يكادُ أخـو جوار يُحْمَدُ

أيام مَن يُرِد الصنيعَة يصطَنِـعْ ... فينا ، ومَنْ يُرِد الزهادةَ يَزْهَدُ

وله فصل إلى بعض إخوانه :

لك أن تعتب ، وشبيهك أن يعـذر ؛ فهَبْ أقل الأمرين لأكثرهما ، وقدّم فضلك على حقّك ، ويقينك على شكّك .

ووصف رجلا بليغاً فقال : كان والله واسعَ المنطق ، جَزْلَ الألفاظ ، ليس بالهذِر فى لفظه ، [ولا المطلِ فى مقصده ؛ معناه إلى القلم أسْرَع من لَفْظه إلى السَّمع].

وهــذا ضدّ قول محمد بن عبد الملك الزيات فى عبيد الله بن يحيى بن خاقان : هو مهزول الألفاظ ، غليظ المعـانى ، سخيفُ العقل ، ضعيفُ العقدة ، واهِى العَزْم ، مأفونُ الرأى

ألفاظ لأهل العصر فى ذم الكِتاب والكُتَّاب والنثر والشعر

الخَرَسُ أحسنُ من كلامه ، والعِيّ أبلغُ من بيانه ، حاطره يَنْبُو ، وقلمه يَكْبُو ، ويسهو ويغلط ، ويخطىء ويُسقِط . هو قصير باع الكتابة ، قاصر سَعْى الخطابة ، وكتُبه مضطربة الألفاظ ، متفاوتة الأبعاض ، منتشرة الأوضاع ، متباينة الأغراض . الجلمُ أولى بكفّه منَ القلم ، والطَّاس أليقُ بها من القرطاس . كلامٌ تنبو عن قبوله الطباع ، وتتجافى عن استماعه الأسماع . ألفاظٌ تَنْبُو عنها الآذان فتمجّها ، وتنكرها الطباع فتزُجُّها . كلام لا يَرْفَعُ الطبعُ له حجابا ، ولا يفتحُ السمعُ له بابا . كلام يُصْدِي[1] الرّيان ، ويصدىء الأفهام والأذهان . كلام قد تعمّل فيه حتى تبذل ، وتكلّف حتى تعسّف . طبع جاسٍ ، ولفظ قاسٍ ، لامساغَ له فى سَمْع ، ولاوصول له مع خلو ذَرْع . كلام لا الرويّة ضربَتْ فيه بسَهْم ، ولا الفكرة جالت فيه بقِدْح . كلام تتعثَّرُ فى حزونته ، وتتحيَّر الأفهامُ من وعُورته . كلمات ضعيفةُ الإتقان، قليلة الأعيان ، مضمحلّة على الامتحان . ألفاظ تُسْتَعَارُ من الدياجى ، ومعانٍ تقدّر من الأثافى . كلام بمثله يتسلّى الأخرس عن كلمه ، ويفرح الأصم بصممه ، أثقل من الجندل ، وأمرّ من الحنظل ، هو هذيان المحموم ، وسوداء الهموم . كلام رثّ ، ومعنًى غَثّ ، لا طائل فيهما ، ولا طلاوة عليهما . أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه ، ولا من أحجال الكلام وغُرَره . شعر ضعيف الصنعة ردىء الصيغة بغيض الصفة [وقد جمع بين إقواء[2] وإيطاء ، وإبطاء وإخطاء . ما قطع فى شعره شَعْرة] ولا سقى قطرة . لو شعر بالنقص ما شعر.

---

(١) الصدى : العطش ، وأصداه : أعطشه ، والريان : الممتلىء ريا (م) .

(٢) الإقواء والإيطاء : ضربان من عيوب القافية ، فالإقواء : هو تغير حركات الروى ، والإيطاء : إعادة كلمة الروى لفظاً ومعنى (م)

لا يميز بين خبيثِ القول وطيّبه ،ولا يَفرِق بين بِكْرِه وثيّبه . هو باردُ العبارة، ثقيل الاستعارة . هو من بين الشعراء منبوذ بالعَرَاء . لم يلبَسْ شعرُه حلةَ الطلاوة . له شعر لايطيب دَرْسه ، ولايخف سَرْده ، وخطٌّ مضطرب الحروف ، متضاعف التضعيف والتحريف. خط يُقذِي العين و يُشْجِي الصَّدْر . خط منحطّ، كأنه أرجل البطّ ، وأنامل السرطان ، على الحيطان . قلمه لايستجيب بَرِيه ، ومداده لايساعد جَرْيه . قلمه كالولد العاقّ ، والأخ المشاق ، إذا أدَرْتَه استطال ، و إذا قوّمته مال ، و إذا بعثْتَه وقف ، و إذا وقفته انحرف . قلم مائل الشق ، مضطرب الشق ، متفاوت [البَرْى ، معدوم الجَرْى ، محرّف القطّ . قلم لم يُقَلَّم ظفره فهو] يخدش القِرطاس ، و ينقش الأنقاس[1] ، و يأخذ بالأنفاس . قلم لا يُنبعث إذا بعثته ، ولا يقف إذا وقفته . قد وقف اضطرابُ [بَرْيِه ، دون استمرار] جَرْيه، واقتطعَ تفاوت قَطِّه ، عن تجويد خطه .

[وصف الكلام]

وصف كلام العرب لعتبة ابن أبي سفيان

ذكر عُتبة بن أبي سفيان كلامَ العرب فقال : إنّ للعرب كلاما هو أرقّ من الهواء، وأعذب من الماء ، مرق من أفواههم مُروقَ السهام من قِسيِّها ، بكلمات مؤتلفات ، إنْ فُسِّرت بغيرها عطِلتْ ، و إن بدلت بسواها من الكلام استصعبَتْ ؛ فسهولة ألفاظهم توهِمك أنها ممكنة إذا سمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلِبتْ . هم اللطيف فهمهم ، النافعُ علمهم ، بلغتهم نزل القرآن ، وبها يدرَكُ البيان ، وكلٌّ نوع من معناه مُبَايِنٌ لما سواه ، والناسُ إلى قولهم يصيرون ، وبهداهم يأتمّون ، أكثر الناسِ أحلاماً ، وأكرمهم أخلاقا .

وكان يقال : خير الكلام المُطْمِع الممتنع .

---

(١) الأنقاس : جمع نقس ــ بكسر النون وسكون القاف ــ وهو المداد (الحبر) (م) .

وأنشد إبراهيمُ بنُ العباس الصُّولىُّ لخاله العبّاس بن الأحنف :

إليك أشكو ربِّ ما حَلّ بى ... مِنْ صدِّ هذا العاتب المُذْنبِ
إنْ قال لَمْ يفعل ، وإن سِيلَ لم ... يبذلْ ، وإن عُوتب لم يُعْتِبِ
صبٌّ بعصيانى ، ولو قال لى ... لا تشرب البارد لم أشربِ

ثم قال : هذا والله الشعر الحسن المعنى ، السهل اللفظ ، العَذْب المستمع ، الصعب الممتنع ، العزيز النظير ، القليل الشبيه ، البعيد مع قُرْبه ، الحَزْن مع سهولته ، فجعل الناس يقولون : هذا الكلام أحسن من الشعر .

الناشىء يصف شعره

وقال أبو العباس الناشىء يصف شعرهُ :

يتحير الشعراء إن سمعوا به ... فى حُسْن صنعته وفى تأليفهِ
فكأنه فى قُرْبه من فهمِهم ... ونكولهم فى العَجْزِ عن ترصيفهِ
شجرٌ بَدَا للعَيْنِ حسْنُ نباتِه ... ونَأى عن الأيدى جَنَى مقطوفهِ
فإذا قرنت أبيّه بمُطيعهِ ... وقرنْتَهُ بغريبه وطريفه
ألفيت معناه يطابق لفظَه ... والنظم منه جليّهُ بلطيفهِ
فأتاه متّسقاً على إحسانه ... قد نِيط منه رَزِينه بخفيفه
هذبتُه فجعلتُه لك باقيا ... ومنعت صرفَ الدهر عن تصريفه

للناشىء فى الشعر

وقال الناشىء فى فَصْلٍ من كتابه فى الشعر : الشعرُ قَيْدُ الكلام ، وعقل الآداب ، وسُورُ البلاغة ، ومعدن البَراعة ، ومجال الجنان ، ومسرحُ البيانِ ، وذريعة المتوسّل ، ووسيلةُ المتوصل ، وذِمام الغريب ، وحُرْمَة الأديب ، وعِصْمة الهارب ، وعدّة الراهب ، ورحلة الدّانى ، ودَوْحَة المتمثل ، وروحة المتحمّل ، وحاكم الإعراب ، وشاهدُ الصواب .

وقال فى هذا الكتاب : الشعرُ ما كان سَهلَ المطالع ، فصل المقاطع ، فَخْل

المديح ، جَزْل الافتخار ، شجِيّ النسيب ، فكِه الغزل ، سائر المَثَل ، سليم الزلل ، عديم الخلل ، رائع الهجاء ، موجب المعذرة ، مُحَبّ المعتبة ، مُطْمِع المسالك ، فائت المدارك ، قريب البيان ، بعيدَ المعانى ، نائى الأغوار ، ضاحى القرار ، نقى المستشف ، قد هُرِيقَ فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له نورَ الزجاجة ،فانهل فى صادِى الفهم ، وأضاءفى بهيم الرأى . لمتأمله ترقرق ، ولمستشفه تألق، يروق المتوسم ، ويسر المترسّم ؛ قد أبدت صدوره مُتُونه ، وزَهَتْ فى وجوهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وطابقت [ألفاظه معانيه ، وخالفت أجناسه مبانيه ، فاطّرد لمتصفحه ، وأنار] لمستوضحه ، وأشْبَه الروضَ فى وَشْى ألوانه ، وتعمّمْ أفنانه ، وإشراق نوّاره ، وابتهاج أنجاده بأغواره ؛ وأشبه الوشى فى اتفاق رُقومِه ، واتساقِ رُسومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير فُوفه ؛ وحكى العِقْد فى التئام فُصولِه ، وانتظام وُصوله ، وازديان ياقوته بدُره ، وفريده بشَذْرِه ، فلو اكتنف الإيجاز موارده ، وصقَلَت مَدَاوِس الدربة مَناصله ، وشحذت مدارس الأدب فَيَاصِله ، جاء سليما من المعايب ، مهذّبا من الأدناس ، تتحاشاه الأبَن ، وتتحاماه الهُجَن ، مُهْدِيا إلى الأسماع بَهْجَته ، وإلى العقول حِكْمته .

للمؤلف فى الشعر

وقد قلتُ فى الشعر قولاً جعلته مثلا لقائليه ، وأسلوبا لسالكيه ، وهو :

الشِعرُ ما قومت زَيْغ صدُورهِ	وشددْتَ بالتهذيب أسْرَ مُتُونِه
ورأبْتَ بالإطناب شَعْبَ صدُوعِه	وفتحْتَ بالإيجاز غور عُيُونِه
وجمَعْتَ بين قريبه وبعيدِهِ	ووصَلْتَ بين مجمّه ومَعِينِه
وعقدت منه لكلّ أمر يقتضى	شبهاً به فقرَنْتَه بقرينـــهِ
فإذا بكيت به الديارَ وأهلَها	أجْرَيْتَ للمحزون ماء شُئُونِه
ووكلته بهمومه وغمـــومه	دهراً فلم يَنْسَ الكَرَى بجفونِه

وإذا مدَحْتَ به جواداً ماجداً | وقَضَيْتَه بالشُّكر حقّ دُيونه
أصفيتَــه بنفيسِه ورَصينه | ومنحتَه بخطــيره وثمينه
فيكون جَزْلا فى اتفاقِ صنُوفِه | ويكون سَهْلا فى اتِّساق فُنونِه
وإذا أردتَ كنايةً عن رِيبــةٍ | باينْتَ بين ظهورِه وبُطونِه
فجعلت سامعَه يشوب شكوكَهُ | ببيانِه وظنونَه بيقينه
وإذا عتبتَ على أخ فى زَلَّةٍ | أدمَجْتَ شدّته له فى لِينــه
فتركتَه مستأنِسا لدماثةٍ | مستيئِسا لوُعُونِه وحُزُونِه
وإذا نبذت إلى التى عُلِّقتها | إن صارمَتْكَ بفاتنات شئونه
تيَّمتَها بلطيفــه ورقيقه | وشغفْتَها بخفيِّــهِ وكمينه
وإذا اعتذرتَ إلى أخ فى زلّةٍ | وَاشْــكَلْتَ بين مُحيله ومُبينه
فيَحُورُ ذَنْبُك عند من يعتدّهُ | عَتْبا عليك مُطَالبا بيمينه
والقولُ يَحْسُنُ منه فى مَنْثُوره | ماليس يحسن منه فى مَوْزُونِه

للخليل بن أحمد فى الشعراء

وقال الخليل بن أحمد : الشعراء أمراء الــكلام ، يصرّفونه أنّى شاءوا ؛ وجائزٌ لهم مالا يجوزُ لغيرهم : من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللَّفظ وتعقيــده ، ومدّ مقصوره ، وقَصْرِ ممدوده ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته

وقال : الشعرُ حِلْية اللسان ، ومَدْرَجَة البيان ، ونظامُ الــكلام ، مقسوم غَيْرُ محظور ، ومشترك غير محصــور ، إلا أنه فى العرب جَوْهرىّ ، وفى العجم صناعى .

بين أعرابى وفارسى

قال أعرابى لشاعر من أبناء الفرس : الشعْرُ للعرب ، فــكلُّ مَنْ يقول الشعر منــكم فإنما نَزَا على أُمّه رجلٌ منا ! فقال الفارسى : وكذلك من لا يقولُ الشعرَ منــكم ، فإنما نَزَا على أُمّه رجل منا !

لعمارة بن عقيل وللجاحظ

وقال عمارة بن عقيل : أجود الشعر ما كان أَمْلَس المتون ، كثيرَ العيون ، لا يمجُّه السمع ، ولا يستأذِنُ على القلب . وأُنشد الجاحظ شعرَ أبى العتاهية فلم يَرْضَــه ، وقال : هو املَسُ المتون ، ليس له عيــونٌ . كأنه وعُمارة تجاذبا كلاماً واحداً .

وقال ابن عقيل : الشعرُ بضاعةٌ من بضائــع العرب ، ودليل مِنْ أدلَّةِ الأدب ، وأثارة من أثارات الحسب . ولن يهزّ الشعرُ إلا الــكريمَ المَحْتِد ، الــكثير السؤدد ، الــكلِف بذِكْرِ اليومِ والغَد .

لبشار وقد مدح المهدى فلم يجزه

ومدح بشار المهدىّ فلم يُعطِه شيئا ، فقيل له : لم تَجُدْ فى مَدْحه . فقال : لا والله ، لقد مدَحْته بشعرٍ لو قلت مثلَه فى الدهر لما خيف صَرْفُه على حُرّ ، ولــكنى أكْذِبُ فى العمل ، فأكْذَبُ فى الأمل .

نظمه الناجم فقال :

ولى فى أحمــدٍ أملٌ بَعيد ... ومَدْحٌ حين أنشده طريفُ

مدائح لو مدَحْتُ بهــا الليالى ... لما دارتْ علىّ لهــا صروف

خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صِفْ لى جريراً والفرزدق والأخطل، فقال : يا أمير المؤمنين ، أما أعظمهم فَخْراً ، وأبعدُهم ذِكرا ، وأحسنهم عُذْرا ، وأسْيَرُهم مَثَلاً ، وأقلّهم غزلا ، وأحلاهم عِللا ، البحر الطامى إذا زَخَر ، والحامى إذا ذعر ، والسامى إذا خطر ، [الذى إذا هدر جال ، و إذا خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق . وأما أحسنهم نَعْتا ، وأمدَحُهُمْ بيتا ، وأقلهم فَوْتا ، الذى إن هجا وضع ، و إن مدح رَفَع ، فالأخطل . وأما أغْزَرُهم بحرا ، وأرقُّهم شعراً ، وأكثرهم ذِكرا ، الأغرّ الأبلق ، الذى إن طَلب لم يُسْبق، و إن طُلب لم يُلْحَق، فجرير . وكلُّهم ذكىُّ الفؤادِ ، رفيع العماد ، وَارِى الزناد .

قال مسلمة بن عبد الملك ، وكان حاضرا : ماسمعنا بمثلك يابن صفوان فى الأولين ولا فى الآخرين ، أشهدُ أنك أحسنُهم وصفا ، وألْيَنُهُم عِطفا ، وأخفُّهم مقالا ،

وأكرمهم فعالا . فقال خالد : أتم الله عليك نِعَمه ، وأجزل لك قِسَمه . أنتَ والله أيها الأمير — ما علمت — كريمُ الفِراس ، عالمٌ بالناس ، جوادٌ فى المَحْلِ ، بسّام عند البَذْلِ ، حليم عند الطَّيْشِ ، فى الذِّرْوَة من قريش ، من أشراف عبد شمس ، ويومك خيرٌ من الأمس .

فضحِك هشام وقال : ما رأيت مثلك يابن صفوان لتخلصك فى مَدْح هؤلاء ، ووصفهم ، حتى أرضيتهم جميعاً وسَلِمْتَ منهم .

بين العجاج وعبد الملك بن مروان

ودخل العجّاجُ على عبدِ الملك بن مروان فقال له : بلغنى أنك لا تُحْسِن الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدر على تشييد الأبنية ، أمكنه خَرابُ الأخبية ، قال : ما يمنعُك من ذلك ؟ قال : إنّ لنا عِزًّا يمنعُنا من أن نُظْلَمَ ، وحِلْماً يمنعنا من أنْ نَظلم ، قال : لَكَلِماتُك أحسنُ من شعرك ! فما العزُّ الذى يمنعك أن تظلم ؟ قال : الأدب [البارع ، والفهْم الناصع . قال : فما الحِلْمُ الذى يمنعُك من أن تظلم ؟ قال : الأدب] المستطرف ، والطبع التّالد ، قال : لقد أصبحت حكيما . قال : وما يمنعنى من ذلك وأنا نَجِيُّ أميرِ المؤمنين ؟

قال أبو إسحاق : وليس كما قال العجاج ، بل لكثير من الشعراء طباع تَنْبُو عن الهجاء كالطائى وأضرابه ، وأصحابُ المطبوع أقدرُ عليه من أهل المصنوع ، إذ كان الهجو كالنادرة التى إذا جرَتْ على سجيَّةِ قائلها ، وقربتْ من يَدِ متناولها ، وكانَ واسِع العطن ، كثير الفطن ، قريب القلب من اللسان ، التهبَتْ بنارِ الإحسان .

المقامة القريضية من مقامات البديع يصف الشعراء

ومما يَنْحُو هذا النحو من مقامات أبى الفتح الإسكندرى إنشاء بديع الزمان قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحتْنِى النوَى مطارِحَها ، حتى إذا وطِئْتُ جُرْجان الأَقصى ، فاستظهرْتُ على الأيام بضِياعٍ أَجَلْتُ فيها يَدَ العِمارة ، وأموالٍ وقفتها على التجارة ، وحانُوتٍ جعلته مَثابةً(١) ، ورُفقة اتخذتهم صَحَابة ، وجعلتُ للدار حاشِيَتِى النهار ، والحانوتِ ما بينهما ؛ فجلسنا يوما نتذاكرُ الشعر والشعراء ،

(١) الحانوت : دكان الخمار ، ومثابة : مكان يرجع إليه كلما أراد .

وتلقانا شاب قدجلس غيرَ بعيد ، يُنصِت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الـكلامُ بنا مَيْله ، وجَرَّ الجَدَلُ فينا ذَيله ، قال : أصبتم عُذَيقه[١] ، ووافيتم جُذَيله ، ولو شئتُ للفظت [فأفضْت] ، ولو أردت لسردت ، ولجلوت الحقَّ فى معرض بيانٍ يُسْمِعُ الصم ، ويُنزِل العُصم . فقلت : يا فاضل ، اُدْنُ فقد منَّيْتَ ، وهاتِ فقد أثنيت ، فدنا وقال : سَلُونى أُجِبْكم ، واستمعوا أُعْجِبكم .

قلنا : فما تقول فى امرىء القيس ؟ قال:هو أول مَنْ وقَفَ بالديار وعَرصاتِها ، واغْتَدى والطيرُ فى وُكُناتها ، ووصف الخيلَ بصفاتها ، ولم يقل الشعرَ كاسِبا ، ولم يُجِدِ القولَ راغبا ، ففَضل مَنْ تفتَّقَ للْحِيلة لسانُه ، وانتجعَ للرغبة بنانُه .

قلنا : وما تقول فى النابغة ؟ قال : ينسب إذا عَشِق ، ويَثْلُبُ إذا حَنِق ، ويمدح إذا رَغِب ، ويعتذر إذا رَهِب ، فلا يرمى إلا صائبا .

قلنا : فما تقول فى طَرَفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكَنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرارُ دفائنه ، ولم تطلق عِتاق خزائنه .

قلنا : فما تقول [فى زهير ؟ قال : يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه ، ويدعو القَوْلَ والسِّحْرُ يُجيبه .

قلنا : فما تقول] فى جرير والفرزدق ؟ وأيهما أسْبَق ؟ قال:جرير أرقُّ شعرا ، وأغْزَر غزرا ، والفرزدق أمتَنُ صخرا ، وأكثر فخرا ، وجرير أوْجَع هَجْوا ، وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر رَوْما ، وأكثر قوما ، وجرير إذا نَسب أشْجَى ، وإذا ثَلَب أرْدَى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجْزى ، وإذا وصف أوفى ، وإذا احتقر أزْرى .

قلنا : فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدمينَ منهم ؟قال : المتقدمون أشرفُ لفظا ، وأكثرُ فى المعانى حظّاً ، والمتأخِّرون ألطفُ صُنْعا ، وأرقُّ نَسْجا .

---

(١) عذيقه : مصغر عذق ـ بالكسر ـ وأصله النخلة بحملها

قلنا :فلو أريتَ من أشعارك ،ورويْتَ من أخبارك ، قال :خُذْها فى معرض واحد ، وأنشد :

أمَا تَرَوْنِي أتغشّى طِمْــرا	مُلْتَحِفا فى الضُّرِّ أمْــراً إمْرَا
مُنْطَويا عَلَى الليـــالى غِمْرا	ملاقِياً منها صروفا حُمْــرا
أقصى أمَانِيَّ طُلُوعُ الشِّـعْرَى	فقد عُنِينا بالأمانى دَهْـــرَا
وكان هـــذا الحُرُّ أعلى قَدْرا	وماءُ هـــذا الوجهِ أغْلَى سِعْرَا
ضربت للسّرْوِ قِبـاباً خُضْرَا	فى دَارِ دَارَا وإِوان كِسْرَى
فانقلبَ الدهرُ لبَطْنٍ ظَهــرا	وعاد عُرْفُ العَيْشِ عندى نُـكْرَا
لم يُبْقِ مِنْ وَفْرِىَ إلا ذِكْرَا	ثمَّ إلى اليوم هَـــلُمَّ جَرا
لولا عجُــوزٌ لى بسُرَّ مَنْ رَا	وأفْرخٌ دُونَ جبـــالِ بُصْرَى
قد جلَبَ الدَّهرُ إليهـم شرًّا	قَتَلْتُ يا سادةُ نَفْسِى صَـبْرَا !

قال عيسى بن هشام : فنُلْتُه ما تَاحَ[1] ، وأعرض عنّا فَراحَ ، وجعلتُ أنفيه وأثبته ، وأنـكره وكأنى أعرفُه ، ثم دلَّتنى عليه ثناياه ، فقلت : الإسكندرى واللهِ؛ فلقد كان فارقَنـا خِشْفا ، ووافانا جِلْفـا[2] ،ونهضتُ على إثْرِه ، ثم قبضتُ عَلَى خَصْرِه ، وقلت : ألستَ أبا الفتح ؟ ألم تـكُنْ فينا وَليدا ، ولبثتَ فينا من عُمْرك سنين ؟ فأىُّ عجوزٍ لكَ بسرَّ مَنْ رأى ؟ فضحك وقال :

ويحك هـــذا الزمانُ زُورُ	فلا يغـــرَّنَّكَ الغُرُورُ
غرِّقْ وبَرِّق وكل وطـرِّق	وأسرق وطَلْبِق لمن تَزُورُ
لا تلتزم حـــالةً ولكن	دُرْ لليـــالى كما تَدُورُ

---

(١) نلته : أعطيته ، وماتاح : ما تهيأ وكان حاضراً عندى (م) .

(٢) الخشف ــ بالـكسر ــ ولد الظبية ، والجلف : الغليظ الجافى (م) .

المقامة الغيلانية من مقامات البديع

ومن إنشائه مقامة ولدها على لسان عِصْمة وذى الرمة قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : بينا نحن فى مجتمع لنا ومعنا يومئذ رجلُ العرب حِفْظا ورِوَاية عِصْمَة ابن بَدْر الفَزَارى ، فأفضى الكلامُ إلى ذِكرِ مَنْ أعرضَ عن خَصْمِه حِلْما ، أو أعرض عنه خَصْمُه احتقارا ، حتى ذكر الصَّلَتَان العَبْدِى واللّعِين المنقري ، وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما . فقال عصمة : سأحدِّثكم بما شاهدته عيني ، ولا أحدّثكم عن غيرى : بينا أنا أسيرُ فى بلاد تميم مرتحلا نجيبة ، وقائدا جَنيبة ، عنَّ لى راكبٌ على أوْرَقَ جَعْد اللُّغَام[١] ، فاجتاز بى رافعا صَوْتَه بالسلام . فقلت : مَنِ الراكبُ الجهيرُ الكلامِ ، المحيِّي بتحيَّةِ الإسلام ؟ فقال : أنا غَيْلَان ابن عُقْبَة . فقلت : مرحبا بالكريمِ حَسَبُه ، الشهير نسبه ، السائر منطقه . فقال : رَحُبَ وَادِيك ، وعزَّ نادِيك ، فمن أنت ؟ قلت : عصمة بن بدر الفزارى . فقال: حياكَ الله ، نعم الصديقُ ، والصاحبُ والرفيقُ . وسِرْنا فلما هَجَّرنا قال : ألا نُغَوِّرُ[٢] يا عصمة فقد صهرَتْنَا الشمسُ ؟ فقلت : أنْتَ وذاكَ ، فملنا إلى شجرات ألاء[٣] كأنهن عذارَى متبرّجات ، قد نَشَرْنَ الغدائر ، وسرحن الضفائر ؛ لأثَلاتٍ متناوحات ؛ فحطَطْنا رِحَالنا ، ونِلْنَا من الطعام ، وكان ذو الرمة زهيدَ الأكل . وزال كلٌّ منا إلى ظل أثلة يريد القائلَة ، واضطجع ذو الرُّمة وأردتُ أن أصنَعَ صنيعَه ، فولّيْتُ ظَهْرِى الأرض ، وعيناى لا يملكهما غُمض ، فنظرتُ غيرَ بعيدٍ إلى ناقةٍ كَوْمَاء ، ضَحِيَتْ وغَبِيطُها مُلْقًى[٤] ، وإذا رجل قائم يكلؤها كأنه عَسِيفٌ أو أسيف[٥] ، فلَهِيت عنهما ، وما أنا والسؤال عما

(١) أراد أنه يمتطى جملا ، والأورق : الذى لونه الورقة وهى بياض وسواد ، وجعد اللغام : كثير الزبد (م) .

(٢) نغور : نقيل (م) . (٣) الألاء ــ كسحاب ــ شجر عظيم الظل (م) .

(٤) الكوماء : العظيم سنامها ، وضحيت : أصابتها الشمس بحرها (م) .

(٥) العسيف . الأجير ، والأسيف : العبد المملوك (م)

لا يَعْنِينِي ! ونام ذو الرُّمة غِرَارا ، ثم انتبهَ ، وكان ذلك فى أيام مُهَاجاته لذلك المرِّيّ . فرفع عقيرته ينشد فيه :

أمِنْ مَيَّةَ الطَّلَلُ الدارسُ ... ألظّ به العاصِفُ الرَّامِسُ
فلم يَبْقَ إلا شَجيج القَذَال ... ومُسْتَوْقَدٌ ماله قَابِسُ
وحَوْضٌ تَثَلَّمَ من جانبَيْه ... ومحتَفَلٌ دَاثِرٌ طامِسُ
وعَهدِى بهِ وبهِ سَكْنُهُ ... ومَيَّةُ والإنْس والآنس
ستأتى امرأ القيس مأثورةٌ ... يغنِّى بها العابِرَ الجَالِسُ
ألم تر أنَّ امرأ القَيْس قد ... ألظّ به داؤه الناجسُ
همُ القومُ لا يَألَمُون الهجَاء ... وهل يَألَمُ الحَجَرُ اليابِسُ ؟
فما لهُمُ فى الفلاَ رَاكِبٌ ... ولا لهمُ فى الوغَى فَارِسُ
إذا طمَحَ الناسُ للمكرمات ... فطَرَفُهمُ المطرِقُ الناعِسُ
تعَافُ الأكارِمُ إصهارَهم ... فكل نسائهمُ عَانِسُ

فلما بلغ هذا البيت جعل ذلك النائم يمسح عينيه ويقول : أذو الرُّمَيْمَة يمنعنى النوم بشعرٍ غيرِ مثقّف ولا سائر . فقلت : يا غيلان ، منْ هذا ؟ فقال : الفرزدق ، يعنى الفرزدق ، وحَمِى ذو الرمة :

وأمَّا مُجاشِعٌ الأَرْذَلُون ... فلم يَسْقِ ميتَهم رَاجِسُ
سَيَعْقِلُهم عن مَساعِى الكِرَام ... عِقَالٌ ، ويَحْبِسُهم حَابِسُ

فقلت : الآن [يَشْرق فيثور ، و] يعمُّ الفرزدقُ هذا وقبيله بالهجاء . فوالله مازاد على أنْ قال : قبحاً لك يا ذا الرُّمَيْمَة ! أتعرِضُ لمثلى بمَقَال مُنْتَحل ! ثم عاد فى نَوْمِه كأن لم يسمَعْ شيئا ، وسار ذو الرّمة وسِرْت ، وإنى لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا .

***

قوله فيما ولد على الفرزدق« بعقال مُنْتَحل » ، يريد أن البيتَ الأخير منقول من قول جرير :

ألم تر أنَّ الله أخْـزَى مجاشِـعاً إذا ما أفاضَتْ فى الحديث المجالسُ
وما زال معقولًا عِقالٌ عن الندى وما زال محبوساً عن المجد حَابِسُ

عقال: ابن محمد بن [سعيد بن] مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك ابن زيد مناة بن تميم ، وهو جد الفرزدق . وحابس: ابن عقال بن محمد بن سفيان ابن مجاشع بن دارم ، وهو أبو الأقرع بن حابس أحدُ المؤلَّفة قلوبهم .

قِصَر فى الشعر

قيل لابن الزِّبَعْرى : لم تقصر أشعارك ؟ فقال : لأنها أعْلَق بالمسامع ، وأجْوَل فى المحافِلِ .

وقيل ذلك لعقيل بن عُلَّفة فى أهاجيه ، فقال : يكفيك من القِلاَدَة ما أحاط بالعُنُقِ .

غيره : لسانُ الشاعر أرض لا تُخْرِج الزهر حتى تستسلف المطر ، وما ظنّك بقوم الاقتصارُ محمود إلا فيهم ، والكذب مذموم إلاَّ منهم . إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مَثُوبة ، ويقرع جليسه بأدنى زَلّة .

أبو القاسم الصاحب بن عباد : النثر يتطايرُ كتَطَايُر الشرر ، والنظم يبقى بقاء النَّقْشِ فى الحَجَر .

أبو عبيدة : الزِّحَاف فى الشعر كالرُّخْصَة فى الدين، لا يُقدِم عليها إلا فقيه.

وقال أبو فراس الحمدانى :

تناهَضَ النـاسُ للمعانى لمَّا رَأَوْا نحـوَها نُهوضى
تكلفـوا المكرمات كَدًّا تكلُّف الشعرِ بالعَرُوضِ

وقد مدح الجاحظ العروض وذمّها ، فقال فى مدحها : العروض ميزان ، ومعراض بها يعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم ، وعليها مَدَار الشعر، وبها يسلم من الأَوَدِ والكَسْر . وقال فى ذمّه : هو علم مُوَلَّد ، وأدب مستَبْرَد ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول ، يستنكر[1] العقل بمستفعلن وفعول ، من غير فائدة ولا محصول .

ومن مفردات الأبيات فى هذا المعنى قول دعبل :

يموتُ ردِيءُ الشعرِ من قبل أهْلِهِ ... وجَيّدُه يَبْــقَى وإن مات قَائِلُهْ

البحترى :

أعْيَا علىَّ ؛ فــلا هَيَّابةٌ فَرِقٌ ... يَخْشَى الهجاء ، ولا هَشٌّ فَيُمتَدَحُ

آخر :

[و] مما يَقْتُل الشعراء غَمّا ... غداوة من يُغَــلّ عن الهجاء

أحمد بن أبى فنن :

وإنَّ أحقّ النــاس باللوْم شاعرٌ ... يَلوم على البخـلِ اللئامَ ، ويَبْخلُ

وهذا كقول على بن العباس الرومى فى أبى الفياض سَوّار بن أبى شراعة ، وكان سوّار شاعراً مجيداً :

يا مَنْ صناعته الدعاءُ إلى العُــلاَ ... ناقَضْتَ فى فعليك أىَّ نِقَاضِ

عجباً لحَضَّاضِ الكِرَامِ على الذى ... هو فيه محتــاجٌ إلى حَضَّــاضِ

وَصَفَ المكارِمِ وهْوَ فيها زاهِدٌ ... ورَأى الجميلَ وفيــه عنه تَغَاضِ

لم ألْقَ كالشعراء أكثر حارضا ... وأشــدَّ معتبَةً على الحَرّاضِ[2]

---

(١) فى نسخة « يستكد العقل بمستفعلن » وهى خير مما أثبتناه .

(٢) الحارض : الكثير الهموم .

كم فيهمُ من آمِرٍ برشـــيدةٍ لم يأتِهـــا ، ومرغبٍ رفّاضِ
يا حسرتى لمودّةٍ أدبيــــــةٍ لم نفترق عنهـا افتراقَ تَرَاضِ
ليس العتـــابُ بنافعٍ فى قاطع أعْيَا المشيبُ تتـابعَ المِقْرَاضِ

ثم قال بعد هذا التبكيت والعِتَاب ما منعه أن يَتَوَهّمَ أنه هجاه :

وَلَماَ هجوتُكَ، بل وعظتُك إنّنى لا أجعلُ الأعراض كالأغراضِ (١)
فاكفُفْ سِهامَكَ عَنْ أخيك فإنما آسفْته ، فرَمَاكَ بالمعـــرَاضِ
فمتى حلمتَ وجدتَ أحْنفَ دَهْرِهِ ومتى جهلتَ مُنيتَ بالبرّاضِ
فاعـذِرِ أخاكَ على الوعيد؛ فإنما أنذرت قبـل الرَّمْىِ بالإنباض
[واعلم وقيت الجهلَ أن خساسةً بطرُ الغنى ومذلّةُ الإبعـاض]

ثم هجاه بقوله :

وما تكلمتَ إلاّ قلت فاحشـــةً كـأن فكّيْك للأغراض مِقْراضُ
مهما تقل فسِهَامٌ منكَ مُرْسَـــلةٌ وَفُوكَ قوسُكَ والأعراض أغرَاض (١)

وابن الرومى هذا كما قال مسلم بنُ الوليد الأنصارى فى الحكم بن قنبر المازنى :

عَابنى من مُعايبٍ هُنّ فيـــهِ حكم فاشـــتفى بها من هَجَانى

وكما قال الآخر :

ويأخذ عيبَ الناس مِنْ عَيْبِ نفسه مُرادٌ لعمـرى ما أرادَ قريبُ

[الأحنف بن قيس]

وروى عيسى بن دَأب قال : أوّل ما عرف الأحنف بن قيس وقُدِّم أنه وفد على عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان أحْدَثَ القوم سنا ، وأقبحهم منظراً ، فتكلم كل

(١) الأغراض : جمع غرض ، وهو — بالتحريك — ما يجعله الرامى هدفا يقصد برميه إليه .

رجل من الوَفْدِ بحاجته فى خاصته ، والأحنف ساكتٌ ، فقال له عمر : قل يافتى !
فقام فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ العرب نزلتْ بمساكن طيبة ، ذات ثمار وأنهارٍ
عذَاب ، وأكنّة ظليلة[1] ، ومواضع فسيحة ، وإنا نزلنا بسَبخةٍ نَشّاشة ، ماؤُها
مِلْح ، وأفنيتها ضيقة ، وإنما يأتينا الماء فى مثل حلق النعامة فإلاّ تدركنا يا أمير
المؤمنين بحَفْر نهر يَغْزر ماؤه ، حتى تأتىَ الأمَة فتغرف بجرّتها وإنائها أوشك أن
نهلك ، قال : ثم ماذا ؟ قال: تزيد فى صاعنا ومُدّنا ، وتثبت من تلاَحق فى العطاء من
ذريتنا . قال : ثم ماذا ؟ قال : تخفّف عن ضعيفنا ، وتنصف قوينا ، وتتعاهد ثغورنا ،
وتجهّز بعثنا ، قال : ثم ماذا ؟ قال : إلى ها هنا انتهت المطالب ، ووقف الكلام .
قال : أنت رئيس وَفْدِك ، وخطيب مِصرك ، قم عَنْ موضعك الذى أنت فيه .
فأدناه حتى أقعده إلى جانبه ، ثم سأله عن نسبه ، فانتسب له ، فقال : أنت سيدُ
تميم ، فبقيت له السيادة إلى أن مات .

نسب الأحنف

وهو الأحنف ، واسمُه الضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن
ابن عبادة بن النزال بن مرّة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن [سعد بن]
زيد مناة بن تميم

وقال بعض بنى تميم : حضرتُ مجلس الأحنف وعنده قومٌ مجتمعون له فى
أمرٍ لهم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الكرمَ مَنْعُ الحرمِ ، ما أقربَ النقمةَ
من أهل البَغْيِ ، لا خيرَ فى لذّةٍ تُعقِب ندماً ، لم يهلك من اقتصد ، ولم يفتقر
من زهد ، رب هزل قد عاد جِداً ، من أمِن الزمان خانه ، ومن تَعَظّم عليه
أهانه ، دَعُوا المِزَاحَ فإنه يُوَرِّثُ[2] الضغائن ، وخَيرُ القول ماصدّقه الفِعْل ، احتملوا
لِمَنْ أدلّ عليكم ، واقبلوا عُذْرَ من اعتذر إليكم ، أطِعْ أخاك وإن عصَاكَ ،
وصِلْهُ وإن جَفَاكَ ، أنصِفْ مِنْ نفسك قبل أن يُنْتَصفَ منك ، إيّاكم ومشاوَرَةَ

---

(١) الأكنة : جمع كن ، وهو الستر الواقى من الحر والبرد ، والظليلة : ذات الظل (م) .
(٢) يورث الضغائن : يوقدها ، ويشعلها ، ويؤجج نارها ، والمراد أنه ينشئها ويزيدها (م) .

النساء ، واعلم أنّ كُفر النِّعَمِ لؤم ، وصُحْبَةَ الجاهل شُؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذّمم ، ما أقْبَح القطيعةَ بعد الصلةِ ، والجفاء بعد اللّطف ، والعداوة بعد الوُدّ ، لا تكونَنّ على الإساءةِ أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البُخل أسرعَ منك إلى البَذْل ، واعلَمْ أنّ لك من دُنياك ما أصلحت به مَثْوَاك ، فأنفق في حَقّ ، ولا تكن خازناً لغيرك ، و إذا كان الغَدْرُ موجوداً فى الناس فالثِّقَةُ بكل أحدٍ عَجْز ؛ اعْرِف الحقّ لمن عرَفه لك ، واعلم أنّ قطيعةَ الجاهلِ تَعْدِل صلةَ العاقل . قال : فما سمعتُ كلاماً أبلغَ منه . فقمت وقد حفظته .

كلام للأحنف في مجلس معاوية

ودخل الأحنف على معاوية، ويزيدُ بين يديه، وهو ينظرُ إليه إعجاباً،فقال : يا أبا بَحْر ، ما تقولُ فى الولَدِ ؟ فعلم ما أراد ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ، وثمرُ قلوبنا ، وقرّة أعيننا ، بهم نَصولُ على أعدائنا ، وهم الخلف مِنّا بَعْدَنا ، فكن لهم أرضاً ذليلة ، وسماء ظليلة ، إن سألوك فأَعْطِهم ، و إن استعتبوك فأَعْتِبهُم [١] . ولا تمنَعهم رِفْدِك فيملّوا قُرْبَك ، و يستثقلوا حياتَك، و يتمنوا وَفاتك. فقال : لله درُّك يا أبا بَحْر ، هُمْ كما قلت !

وزعمت الرواة أنها لم تسمع للأحنف إلاّ هذين البيتين :

فلو مدّ سَرْوى بمالٍ كثير ... لَجُـدْتُ وكنتُ له بَاذلا

فإنّ المروءةَ لا تستطاع ... إذا لم يَكُنْ مالُها فاضلا

صفة الأحنف

وكان يُبَخَّل . وقال لبنى تميم : أتزعمون أنى بخيل ! والله إنى لأُشير بالرّأى قيمتهُ عشرةُ آلاف درهم ! فقالوا : تقويمك لرَأيك بُخل . وكان الأَحنفُ من الفضلاء الخطباء النّسّاك ، و به يُضْرَب المثل فى الحِلْم

ذكر للنبى فاستغفر له

وقد ذُكر للنبى صلى الله عليه وسلم فاستغفَر له ؛ فقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم رجلا إلى قومه بنى سَعْد يَعْرِض عليهم الإسلام ، فقال الأحنف : إنه يدعوكم

---

(١) استعتبوك : طلبوا رضاك ، وأعتبهم : أعطهم الرضا (م)

إلى خَيْر ، ولا أسمعُ إلا حسناً . فذُكِر للنبى صلى الله عليه وسلم، فقال : اللهم اغفِر للاحنف . وكان الأحنفُ يقول : ماشىء أرْجَى عندى مِنْ ذلك .

من أوصاف الأحنف

قال عبدُ الملك بن عُمَيْر : قدم إلينا الأحنفُ ، فما رأينا خصلةً تذَمّ فى رجل إلاّ رأيناها فيه ،كان أصلع الرَّأسِ ، متراكب الاسنان ، أشْدَق ، مائل الذَّقَنِ ، ناتئ الوجنتين ، باخق العينين[1]، خفيفَ العارضين ، أحْنف الرِّجلين ،وكانت العينُ تقتحمُه دَمَامَةً وقلّةَ رُواء ، ولكنه إذا تكلّم جَلّى عن نفسه . وهو الذى خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء ، وتنازعت القبائل ؛ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا معشرَ الأزد [وربيعة] ، أنتم إخوانُنا فى الدين ، وشركاؤنا فى الصِّهر ، وأكفاؤنا فى النسب ، وجيرانُنا فى الدار ، ويَدُنا على العَدُوّ ،والله لأزْدُ البَصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة ، [ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام] ، وفى أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم .

جارية لآل المهلب تنظر إلى الأحنف

وقد قام خطباء البصرة فى هذا اليوم وتكلّموا وأسهبوا، فلما قام الأحنفُ أصْغَت القبائلُ إليه ، وانثالَتْ عليه ، وقال الناس : هذا أبو بَحْرٍ ، هذا خطيب بنى تميم ، وحضر ذلك الجمعَ جاريةٌ لآلِ المهلب، فذهبتْ ترومُ النظر إليه ، فاعتاص ذلك عليها ، فأشرفَتْ عليه من دارِها ، فلما رأته والأبصارُ خاشعةٌ لكلامه ، ورأت دمامةَ خَلقِه ، وكثرةَ آفاتِ جوارِحه ، قالت : فُقِدَتْ هذه الخِلقَة ولو افترّتْ عن فَصْلِ الخطاب

الأحنف يفد على معاوية

وذكر المدائنى أنّ الأحنفَ بن قيس وَفَدَ على معاوية رضى الله عنه مع أهل العراق ، فخرج الآذِنُ ، فقال : إنّ أميرَ المؤمنين يعزم عليكم ألاَّ يتكلّمَ أحدٌ إلاّ لنفسه . فلما وصلوا إليه قال الأحنف : لولا عَزْمَة أمير المؤمنين لأخبرته أنْ دافَّة دَفَّتْ ، ونازلةً نزلَتْ ، ونابتة نبتَتْ ، كلهم بهم حاجة إلى معروفِ أمير المؤمنين وبِرّه . قال : حسبك يا أبا بحر ، فقد كفيت الشاهدَ والغائب .

---

(١) البخق فى العين : ألا يلتقى جفناها (م)

كلامه لمعاوية وقد أراد البيعة ليزيد

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجّه إليه بوَفْد أهلِ العراق ، فبعث إليه بوَفْدِ البصرة والكوفة ، فتكلّمت الخطباء فى يزيد ، والأحنف ساكتٌ ، فلما فرغوا قال : قل يا أبا بَحْر ، فإنّ العيونَ إليك أشْرَع منها إلى غيرك . فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنك أعلَمُنا بيزيدَ فى ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره ، فإنْ كنتَ تَعْلَمُه لله رضا فلا تشاوِرْ فيه أحداً ، ولا تُقِمْ له الخطباء والشعراء ، وإن كنتَ تعلم بُعْدَه من الله فلا تزوّده من الدنيا وتَرْحَل أنتَ إلى الآخرة ؛ فإنك تَصير إلى يوم يفرّ [فيه] المرء من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه. قال : فكأنه أفْرِغ على معاوية ذَنوب ماء بارد . فقال له : اقعُدْ يا أبا بَحْر ؛ فإن خِيرَة الله تجْرِى ، وقضاء الله يمضى ، وأحكام الله تنفذ ، لا مُعَقِّب لحكمه ، ولا رَادَّ لقضائه ؛ وإن يزيدَ فتًى قد بلَوْنَاه[1] ، ولم نجِدْ فى قريش فتى هو أجْدَر بأن يُجتمَع عليه منه . فقال : يا أمير المؤمنين ، أنت تَحْكِى عن شاهد ، ونحن نتكلَّمُ على غائب ، وإذا أراد الله شيئاً كان .

* * *

ابن الرومى يذكر حق الشاعر على الكرام

قال ابن الرومى :

إن امرأً رَفَضَ المكاسب واغتَدَى ... يتعلَّمُ الآدابَ حتى أحكما
فكسا وحَلَّى كلَّ أرْوَعَ مَاجد ... من حُرّ ما حاكَ القريضَ ونَظَّما
ثِقةً برعْى الأكرمين حقوقَه ... لأحقّ ملتمسٍ بألاّ يُحْرَمَا

قال أبو العباس أحمد بن عبيد الله بن عمّار : ومن نادرِ شعر أبى الحسن فى هذا المعنى قوله ، ووصف إتعاب الشعراء أنفُسَهم بدُءوبهم فى صناعتهم ، وما يتصرّم من أعمارهم ، وأن إلحاحَهم فى طلَبِ ما فى أيدى من أسلفوه مديحَهم لو كان رغبةً منهم إلى ربّهم كان أجْدَى عليهم ، وأقرب من دَرك بُغْيتهم ، ونُجْح طَلِبتهم ، ثم انحرف إلى توبيخ من مَدَحه لحرمه بأحسن عبارة ، وأرضى استعارة ، فقال :

(١) بلوناه : اختبرناه (م)

للنـاس فيما يكلفون مَغَارِم | عند الكِرَامِ لها قضاه ذمَامِ
ومغارم الشعراء فى أشعارهم | إنفاقُ أعمارٍ وهَجْرُ مَنَامِ
وجفاه لذاتٍ ورفضُ مكاسب | لو حُولفت حرست من الإعدام
وتَشَاغُل عن ذكر ربّ لم يَزَلْ | حَسَنَ الصنائعِ سابغ الإنعام[1]
من لو بخدمته تشاغل معشرٌ | خدموكم أجدَى على الخدّام
أفَما لذلك حُرْمة مرعيّةٌ | إنَّ الكرامَ إذًا لغيرُ كِرامِ
لم أحتسِبْ فيك الثوابَ بمِدْحتي | إياك يابنَ أكارمِ الأقوامِ
لو كان شعرى حِسْبَةً لم أكسُهُ | أحداً أحقّ به من الأيتام
لا تقبلنّ المدْحَ ثم تعافهُ | فتنام والشعراءُ غيرُ نيامِ
واحذَرْ مَعرَّتهم إذا دَنَّستهم | فلهم أشدُّ معرَة العُرَّامِ
واعلَمْ بأنهمُ إذا لم يُنْصَفوا | حكموا لأنفسهم على الحكام
وجناية العادِى عليهم تنقضِى | وعقابُهم يَبْقَى مع الأيامِ

أبو الطيب المتنبى :

ومكايد السفهاء واقعةٌ بهم | وعداوةُ الشعراء بئس المُقتَنَى

***

وفاة الأحنف ورثاء امرأة له

مات الأحنف بن قيس بالكوفة ، فمشى مصعب بن الزبير فى جنازته بغير رداء ، وقال : اليوم مات سرُّ العرب ؛ فلما دُفن قامت امرأةٌ على قبره فقالت : لله درُّك من مُجَنٍّ فى جَنَنٍ[2] ، ومُدْرَجٍ فى كَفَن ، نسألُ الذى فجعنا بموتك، وابتلانا بفَقْدِك، أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلَك ، ودليلَ الرّشد دَليلك، وأن يوسّع لك فى قبرك ، و يغفر لك يوم حَشْرِك ؛ فوالله لقد كنت فى المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل

---

(١) سابغ الإنعام : من إضافة الصفة للموصوف ، والإنعام السابغ : الكثير الوافى (م) . (٢) مجن: مستور، والجنن ـ بالتحريك ـ القبر ، وجمعه أجنان (م)

عَطُوفاً ، ولقد كنت فى الحىّ مُسَوَّدا ، وإلى الخليفة مُوفَدًا ، ولقد كانوا لقولك مستَمِعين ، ولرأيك متَّبِعين ؛ ثم أقبلت على الناس فقالت : ألاَ إن أولياء الله فى بلادِه ، شهود على عباده ، وإنى لقائلةٌ حقًّا ، ومثنيةٌ صِدْقا ، وهو أهلٌ لحُسْنِ الثناء ، وطيب النَّثَا[1] ، أما والذى كنتَ من أجله فى عُدَّة ، ومن الحياة إلى مدَّة ، ومن المقدار إلى غاية ، ومن الإياب إلى نهاية ، الذى رفع عملك ، لما قَضَى أجَلَكَ ، لقد عِشت حميداً مودوداً ، ومُتَّ سعيداً مفقوداً ، ثم انصرفت وهى تقول :

لله درُّك يا أبا بَحْرٍ ما ذا تغيَّبَ منكَ فى القَبْرِ ؟
لله درُّك أىّ حَشْوِ ثرًى أصبحتَ من عُرْفٍ ومن نُكْرِ
إنْ كان دهرٌ فيك جرَّ لنا حدَثاً به وهَنَتْ قُوَى الصَّبْرِ[2]
فلكم يَدٍ أسديتها ويدٍ كانَتْ تَرُدُّ جرائرَ الدهرِ[3]

ثم انصرَفت فسُئِل عنها ، فإذا هى امرأتُه وابنةُ عمه . فقال الناس : ما سمعنا كلامَ امرأة قطّ أبلغ ولا أصدق منه .

قال : وكان الأحنفُ قدم الكوفة فى أيام مصعب بن الزبير ، فرآه رجلٌ أعورَ دميما قصيراً أحْنَفَ الرجلين ، فقال له : يا أبا بحر ؛ بأى شىء نلتَ فى الناس ما أرى ؛ فوالله ما أنتَ بأشرف قومِك ، ولا أجودِهم ؟ ! فقال : يا ابن أخى ، بخلاف ما أنت فيه ! قال : وما هو ؟ قال : تَرْكِى من أمرك ما لا يعنينى ، كما عَنَاكَ من أمرى ما لا تتركه .

[منصور النمرى]

المعتصم ومحمد بن وهيب الشاعر

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم : مَنْ كان منكم يحْسِنُ أن يقول مثل قول منصور النَّمرى فى أمير المؤمنين الرشيد :

---

(١) فى رواية « وطيب الدعاء » (م) (٢) وهنت . ضعفت (م)

(٣) أسديتها : أعطيتها ومنحتها ، والجرائر : جمع جريرة ، وهى الجريمة ، والخطيئة ، والذنب (م)

إنّ المكارمَ والمعروفَ أودية ... أحلّكَ اللهُ منها حيث تجتمعُ
إذا رفعتَ أمراً فاللهُ رافعُـه ... ومن وضعتَ من الأقوام متّضعُ
من لم يكن بأمين اللهِ معتصماً ... فليس بالصلواتِ الخمس ينتفعُ
إنْ أخلف الغيثُ لم تُخْلِف أناملهُ ... أو ضاق أمرٌ ذكرناه فيتّسع

فليدخل ، فقال محمد بن وهيب : فينا من يقولُ خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثةٌ تشرِقُ الدنيـا ببهجتهم ... شمسُ الضحى وأبو إسحاق والقمرُ
يحكى أفاعيلَه فى كل نائبةٍ ... الغيثُ والليثُ والصمْصَامة الذّكَرُ

فأمر بإدخاله وأحسن صلَته .

أخذ معنى البيت الأول من بيتى محمد بن وهيب أبو القـاسم محمدُ بن هانىء الأندلسى :

المدنَفَانِ من البـريّة كلهـا ... قَلْبى وطَرْفٌ بابلىٌّ أحْوَرُ[1]
والمشرقات النّـيراتُ ثلاثةٌ ... الشمسُ والقمرُ المنـير وجَعْفَرُ

و بيت أبى القاسم [الأول] مأخوذ من قول ابن الرومى :

يا عليـلا جعـل العلّـة مِفتاحاً لسقمى
ليس فى الأرض عليـلٌ غـير جَفْنَيـك وجِسْمِى

منصور النمرى والعتابى

ومر النمرى بالعتابى مغموماً فقال : مالكَ، أعزّكَ الله ؟ فقال : امرأتى بطلْق[2] منذ ثلاث ونحنُ على يَأْسٍ منها . فقال له العتّابى: وإنّ دواءَها منك أقربُ من وجهها ، قل : هارون الرشيد ، فإن الولدَ يخرج ! فقال : شكوت إليكَ ما بى ، فأجبتنى بهذا ؟ فقال : ما أخذت هذا إلا من قولك :

إن أخلف الغيث لم تخلف أنامِله ... أوضاق أمرٌ ذكرناه فيتسعُ

---

(١) المدنفان : مثنى مدنف ، وهو اسم مفعول من «أدنفه المرض» أى أضعفه والطرف ـ بالفتح ـ أراد به العين ، والبابلى : المنسوب إلى بابل ، وهى بلد السحر ، وهم يصفون عيون الغوانى بالفتور . كما يصفونها بأنها تفعل بالألباب ما لا يفعل السحر (م) (٢) كذا ، وأحسب أن أصلها « امرأتى تطلق » أى يأتيها المخاض وهو وجع الولادة ، ولما فى الأصول وجه (م)

وأبياتُ منصور بن سَلمة بن الزبرقان النمرى التى ذكرها المعتصم من قصيدةٍ له وهى أحسنُ ما قيل فى الشيب أولها :

ما تنقضى حَسْرَةٌ منى ولا جَزَع ... إذا ذكرتُ شباباً ليس يُرْتجَعُ
بانَ الشباب وفاتَتْنى بغرّتِه ... خطوبُ دَهْرٍ وأيامٌ لها خُدَعُ[1]
ما كنتُ أوفى شبابى كُنْه غِرّته ... حتى انقضى فإذا الدنيا له تبعُ
تعجبَتْ أن رأتْ أسرابَ دمعته ... فى حلبة الخدّ أجْرَاها حشًى وَجِعُ
أصبحتِ لم تطعمى ثُكْلَ الشباب ولم ... تَشْجَىْ بغُصَّته فالعُذْر لا يَقعُ
لا ألحينّ فتاتى غير كاذبة ... عين الكذوب فما فى ودٍّ كم طَمَع
ما واجه الشيبَ من عَيْنٍ وإن وَمِقَتْ ... إلا لها نبْوَةٌ عنهُ ومُرْتَدَعُ[2]
إنى لمعترف ما فىَّ من أرَبٍ ... عند الحسان فما للنفْسِ تَنْخَدِع
قد كدت تقضى على فَوْت الشباب أسًى ... لولا تعزّيك أنّ الأمرَ منقطعُ

وذُكر أن الرشيد لما سمع هذا بكى ، وقال : ما خير دنيا لا تخطر فيها ببرد الشباب ! وأنشد متمثلا :

أتأمُل رَجْعَةَ الدنيا سَفَاهًا ... وقد صار الشبابُ إلى ذهَابِ
فليت الباكياتِ بكلّ أرض ... جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشبابِ

تقديم الرشيد للنمرى وأسبابه

وكان الرشيد يقدم منصورا النمرى بجَوْدَة شعره ، ولما يَمُتُّ إليه من النسب من العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وكانت نُتيلة أم العباس من النمر بن قاسط ؛ ولما كان يُظهِرُ من الميل إلى إمَامَة العباس وأهله ، والمنافرة لآل على رضى الله عنه ويقول :

بنى حسن وقل لبنى حُسَين ... عليكم بالسَّدَادِ من الأمورِ
أميطوا عنكُم كذِب الأمانى ... وأحلاما يَعِدْنَ عِداة زُورِ[3]

---

(١) غرة الشباب : غفلته وسهوه ، والخدع : جمع خدعة : وهى ما تنخدع به (م)
(٢) ومقت : ودت وأحبت ، والمرتدع : الارتداع والانزجار (م)
(٣) أميطوها عنكم : أبعدوها عنكم (م)

تسمّون النبى أباً ويأبى   من الأحزاب سَطرٌ فى سطور

يريدُ قولَ الله تعالى: (ما كان محمدٌ أبا أحَدٍ من رجالكم). وهذا إنما نزل فى شأن زيد بن حارثة ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تبنّاه ، فقال له الرشيد : ما عدوتَ ما فى نفسى ، وأمره أن يدخلَ بيتَ المال فيأخذ ما أحبّ .

وكان يضمر غير ما يظهر ، ويعتقد الرّفض ، وله فى ذلك شعر كثير لم يَظْهَرْ إلاّ بعد موته ، وبلغ الرشيد قوله : النمرى رافضى

آلُ النبى ومن يُحِبُّهُمُ   يتطامَنون مَخافةَ القَتْلِ
أمِنَ النصارى واليهودُ ومَن   من أمّةِ التوحيد فى أزْلِ (١)
إلا مَصَالت ينصرُونَهُمُ   بظُبَا الصّوارم والقَنا الذُّبْلِ (٢)

فأمر الرشيد بقتله [وكان حينئذ برأس العين] ، فمضى الرسولُ فوجده قدمات فقال الرشيد : لقد هممت أن أنبش عظامَه فأحرقها . وكان يُلغِز فى مدحه لهرون ، وإنما يريد قول النبى صلى الله عليه وسلم لعلىّ رضوان الله عليه : أنت منى بمنزلة هرون من موسى . وقال الجاحظ : وكان يذهب أولا مذهب الشُّراة(٣) ، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضى وسمع كلامَه ، فانتقل إلى الرفض ، وأخبرنى مَنْ رآه على قبر الحسين بن على رضى الله عنهما ينشد قصيدتَه التى يقول فيها:

فما وُجدت على الأكتاف منهم   ولا الأقفــاء آثارُ النُّصولِ (٤)
ولـكنّ الوجوهَ بهـا كُلومٌ   وفوق حُجورهم مَجْرَى السيولِ
أريق دمُ الحسين ولم يراعــوا   وفى الأحيــاء أمواتُ العُقولِ
فدتْ نفسى جبينَكَ مِنْ جَبِينٍ   جرَى دمُه على خدّ أســيلِ
أيخلو قلبُ ذى وَرَعٍ ودِينٍ   مِنَ الأحزانِ والألمِ الطويلِ

(١) الأزل : الشدة والضيق(م) (٢) المصالت : جمع مصلت ، وهو المقدام الشجاع ، والظبا : جمع ظبة ، وهى حد السيف ، والصوارم : السيوف واحدها صارم (م) (٣) الشراة : الخوارج، سموا أنفسهم بذلك لأنهم زعموا أنهم شروا أنفسهم بأن له لهم الجنة ، والروافض : فرقة من الشيعة(م)
(٤) يريد أنهم لايفرون فيقع الطعن فى ظهورهم (م)

وقد شرِقت رِماحُ بنى زيادٍ بِرِیٍّ من دماء بنى الرسول[١]
بتربة كَرْبَلاء لهم دِيارٌ نيامُ الأهل دارِسَةُ الطُّلُولِ
فأوصال الحسين ببَطْنِ قاع ملاعبُ للدَّبور ولِلقَبول
تحياتٌ ومغفرة وروحٌ على تلك المحلة والحلول[٢]
برئنا يا رسولَ الله ممن أصابك بالأذيَةِ والذُّحُولِ[٣]

[ابنا المعذل]

أحمد بن المعذل

وقال أحمد بن المعذل :

أخو دَنفٍ رَمتْه فأقصدتْهُ سِهامٌ من جفونكِ لا تَطِيشُ
كئيب إن ترحّل عنه جيشٌ من البَلْوى أَلمّ به جُيُوش

وكان أحمد بن المعذَّل بن غَيْلان العبدى فى اللغة والبيان والأدب والحلاوة غايةً .

قال : دخلتُ المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصّنى ويُعْنَى بى ، فلما فاتحنى قال : ماتحتاجُ أنت إلى شفيع ، معك من الحذاء والسقاء ما تأكلُ به لبّ الشجر ، وتشرب صَفْوَ الماء .

بين أحمد وأخيه

وكان أخوهُ عبد الصمد يؤذيه ويهجُوه ، فكتب إليه احمد : أما بعدُ فإنّ أعظم المكروه ما جاء من حيث يُرْجَى المحبوب ، وقد كنتَ مؤمَّلا مَرْجوا ، حتى شمل شرك ، وعمّ أذاك ، فصرت فيك كأبى العاق: إن عاش نغّصه ، و إن مات نَقَصَه، واعلم لقد خَشَّنتصَدْرَ أخٍ جَيْبُهُلك ناصحٌ ، والسلام .

وكان يقول له : أنت كالأصبع الزائدة : إن تُرِكَتْ شانَتْ ، وإن قطعت آلمت !

ومثلُ هذا قولُ النعمان بن شمر الغسانى :

---

(١) شرقت الرماح بدمائهم : كناية عن كثرة ما أسالته منها (م)
(٢) المحلة : الموضع الذى يحلون به ، والحلول : جمع حال (م)
(٣) الذحول : جمع ذحل ، وهو الوتر (م)

وصـالُ أبى بردٍ عَناء ، وتركهُ بلاء ، فما أدرِى به كيف أصنعُ
إذا زُرْته يومـين ملَّ زيارتى وإن غبت عنه ظلّت العينُ تدْمَع

وقول الضحاك بن همام الرقاشى :

وأنتَ امرؤٌ منا خلقت لغـيرنا حياتُك لاترجَى وموتك فاجِـعُ
وأنت ـ على ما كان منك ـ ابنُ حرةٍ وإنى لمـا يرضى به الخصم مانِعُ
وفيك خصـالٌ صالحاتٌ يَشِينُهَا لديك جفاء عندهُ الودُّ ضائعُ

وقال بعضُ المحدثين :

إذا ساءنى فى القولِ والفعل جاهِداً وفى كلِّ حالٍ مَنْ أحب وأمحض[1]
فياليتَ شِـعْرِى ما يعاملنى به على كلِّ ذنب مَن أعادِى وأبغضُ

أحمد أحمد بـ المعذل للصلة

وقال أبو العباس المبرّد : وكان أحمد بن المعذّل من الأُبَّهة ، والتمسك بالمهاج، والتجنُّب للعبَث ، والتعرّض للاشفاق لِما فى[2] أيدى الناس،و إظهار الزُّهْدِ فيه ، والتباعد عنه ، على غاية ، حتى حُمِل فى فقهاء وأدباء من أهل البصرة ؛ فأخـذَ الصلة غيرَ مُمتَنِع ولا مُنْـكر . ووصله إسحاق بن إبراهيم فقبل، واستدعى اجتباءه إياه ، وتحلّى له جهده ، فقال عبدالصمد :

عذيرى من أخٍ قد كان يُبْدِى عَلَى مَنْ لاَبس السلطانَ عَتْبَهْ
وكان يذمهم فى كلّ يوم له بالجهـل والهذيان خُطْبَـهْ
فلمـــا أن أتته دُرَيهماتٌ من السلطان باعَ بهنَّ رَبَّهْ

وقال فيه :

لِى أخٌ لا تَرَى لهُ سـائلا غـيرَ عاتِبِ
أجْمَعُ الناسِ كلّهمْ للئيمِ المَـــذَاهِب

(١) من أحب : هو فاعل «ساءنى» (م) (٢) للاشفاق : هو مفعول لأجله وأصل الكلام : والتعرض لما فى أيدى الناس لأجل الإشفاق(م)

دون معـــروفِ كفِّهِ لَمْسُ بعضِ الـكواكبِ
ليت لى منـــك يا أخى جارةً مِنْ مُحاربِ
نارها كلّ شَـــتْوَةٍ مِثْلُ نارِ الحُبَـــاحِبِ

* * *

القطامى يهجو امرأة من محارب

ذهب إلى قول القُطَامى ، وقولُ القطامى من خبيث الهجاء ، وكان نَزَل بامرأةٍ من محارب بن خَصَفَةَ بن قيس بن عَيْـلان بن مضر ، فذمّ مَثْوَاه عندها ، فقال :

و إنى و إنْ كان المسافرُ نازلاً و إن كان ذا حقّ على الناسِ واجبِ
فلا بدّ أن الضيفَ يُخْـبِرُ مارأى مُخَبِّرُ أهـل أو مُخَبِّرُ صاحبِ
لَمخبرك الأنباء عن أمّ منزل تضيّفتُها بين العُذيب فراسبِ
تلفّعت فى طَلّ وريح تَلُفُّنى إلى طِرْمِسَاء غَيْرِ ذات كواكبِ[1]
إلى حَيْزَبُون تُوقِد النارَ بعدما تَلَفَّعَتِ الظلماء من كل جانبِ[2]
تصَلّى بها بَرْدَ العِشاء ولم تكن تَخَالُ وميض النار يَبْدُو لراكب
[فما راعهـــا إلا بغام مطيتى تريح بمحسودمن الصوت لاغب][3]
فجُنَّتْ فنوناً من دِلاَث مُنَاخةٍ ومن رَجُلٍ عاري الأشاجع شاحبِ[4]
سَرَى فى حَلِيكِ الليل حتى كأنما تخزّم بالأطراف شوكُ العقَاربِ
تقول وقد قرّبتُ كُورِى وناقتى إليك ، فلا تذعَرْ علىّ ركائبى
فسلّمت والتسليمُ ليسَ يسرُّها ولـكنه حَقٌ على كل جانب
فردّت سلاماً كارهاً ثم أعرضتْ كما انحاشَت الأفعى مخافَةَ ضاربِ
فلما تنازعنَا الحـديثَ سألتُها مَنِ الحيُّ؟قالت:معشرٌمن محاربِ

---

(١) الطرمساء : الظلمة الشديدة (م) (٢) الحيزبون : العجوز .
(٣) بغام مطيق : صوتها(م) (٤) الدلاث: السريع من النوق والجمال وغيرها(م)

من المشتَوين القِدّ مما تَرَاهم جِيَاعاً وريفُ الناس ليس بناضِبِ
فلما بَدا حرمانُها الضيفَ لم يكن علىّ مبيتُ السوء ضَرْبةَ لازبِ
وقمتُ إلى مَهْريَّةٍ قد تعوّدَتْ يَداها ورجلاها حثيثَ المراكبِ
إلا إنما نيران قيسٍ إذا شتَوْا لطارقِ ليلٍ مِثلُ نارِ الحُبَاحِب

ومحارب : قبيلة منسوبة إلى الضعف ، وقد ضَربت العربُ بها المثل . قال الفرزدق لجرير :

وما استعهد الأقوام من زوج حُرةٍ من الناس إلا منك أو من مُحَاربِ

أى يأخذون العَهْدَ عليه أنه ليس من كليبٍ ولا من محاربٍ .

وقال أبو نواس فى قصيدته التى فخر فيها باليمانية وهجا قبائل معدّ :

وقيس عيلان لا أريدُ لها من المخازى سِوَى مُحارِبها

* * *

أم عبد الصمد ابن المعذل

وكانت أم عبدالصمد بن المعذل طباخةً ، فكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه : ماعَسِيتُ أن أقول فيمن أُلقِحَ بين قدر وتنُّور ، ونشأ بين زق وطُنبور[1]؟ وعبدالصمد شاعر أهل البصرة فى وقته ، وهو القائل :

تكلفنى إذلالَ نفسى لِعِزِّها وهان عليها أن أُهانَ لتُكرما
تقول: سَلِ المعروفَ يحيى بنَ أكثم فقلت: سَلِيه رَبَّ يحيى بن أكثما

لأبى حكيمة فى الرقيق

قال أبو شُراعة القَيسى : كنتُ فى مجلس العُتْبى مع عبد الصمد بن المعذل ، فتذاكرنا أشعارَ المولدين فى الرقيق ، فقال عبد الصمد : أنا أشعر الناس فيه وفى غيره ، فقلت : أحذق منك والله بالرقيق الذى يقول ، وهو راشد بن إسحاق أبو حُكيمة الكوفى :

(١) الزق : أراد به الخمر ، والطنبور : من آلات اللهو ، يعنى أنه ردىء القحة سوء التنشئة ، فلن يخرج إلا نكداً (م)

ومستوحش لم يُمسِ في دار غُرْبَةٍ ولكنَّهُ ممن يحبّ غَرِيبُ
طَوَاه الهوى واستشعر الوَصْلَ غيرهُ فشطَّتْ نَواهُ والمَزارُ قَرِيبُ[1]
سلامٌ على الدارِ التي لا أزورُها وإن حَلَّها شخصٌ إليَّ حبيبُ
وإن حَجبتْ عن ناظريَّ ستُورُها هوًى تحْسُن الدُّنيا به وتَطِيبُ
هوى تَضْحَكُ اللذاتُ عندحضوره ويَسْخَنُ طَرْفُ اللهو حين يَغيب
تثَنَّى به الأعطافُ حتى كأنهُ إذا اهتزَّ من تحتِ الثيابِ قَضِيبُ
ألمْ ترَ صَمْتى حين يَجْرى حديثهُ وقد كنت أُدعَى باسْمِه فأجيبُ
رضيت بسَعْى الدهر بينى وبينه وإن لم يَكن للعين فيه نصيبُ
أحاذِر إنْ واصلته أن ينالنى وإياه سَهْمٌ لِلفراقِ مُصِيبُ
أرى دون مَنْ أهوى عيونا تَرِيبنى ولا شك أنى عندهنَّ مُرِيبُ
أُدارِى جليسى بالتجلّد فى الهوى ولى حين أخلو زَفْرَةٌ ونَحِيبُ
وأُخْبِرُ عنه بالذى لا أحبّـهُ فيضحك سِنِّى والفؤادُ كئيب
مخافةَ أن تَغْرَى بنا ألسنُ العِدَا فيطمع فينا كاشحٌ فيعيب
كأن مجالَ الطَّرْف فى كل ناظر على حَرَكات العاشقين رقيبُ
أرَى خطرات الشوق يبكين ذَا الهوى ويصبين عقلَ المرء وهْو لبيبُ
وكم قد أذلَّ الحبُّ من متمنِّعٍ فأضحى وثَوْبُ العزِّ منه سَلِيبُ
وإن خُضُوعَ النفس فى طلب الهوى لأمرٌ، إذا فكرتُ فيه، عَجيب

فلم ينطق بحرف .

لأبى شراعة

ولأبى شُراعة يمدح بنى رياح :

بنى رياح أعاد اللهُ نعمتَكم خير المَعاد وأسقى رَبْعَكم دِيما[2]

(١) شطت : بعدت . ونواه : نيته ، أو بعده ، وهم يسندون الفعل إلى مصدره فيقول : جد جده ، وشعر شعره (م) (٢) الديم : جمع ديمة ، وهو المطر الدائم (م)

فكم بهِ من فتى حُلوٍ شمائلهُ ... يكادُ ينهلُّ من أعطافه كَرَما

لم يلبسوا نعمةً لله مُذْ خلقوا ... إلاّ تلبّسها إخوانهم نِعَما

لابن المعذل في إبراهيم بن رياح

وفى إبراهيم بن رياح يقول عبد الصمد بن المعذل :

قد تركت الرياح يابنَ رياحٍ ... وهى حَسْرَى إنْ هبَّ منها نسيمُ

نهكتْ مالكَ الحقوقُ فأضحَى ... لكَ مَالٌ نِضوٌ وفضلٌ جَسيمُ[1]

وكان عبد الصمد [بن المعذل] متصلا بإبراهيم و بنيه ، وأفاد منهم أموالا جليلة ، واعتقد عقدا نفيسة ، فما شكر ذلك ولا أصحبه بما يجب عليه من الثناء عند نَكْبته ، وكان الواثق عزَلَه عن ديوان الضياع ، ودفعه إلى عمر بن فرج الرخجى ، فحبسه فهجاه عبد الصمد .

صفات عبدالصمد بن المعذل

قال أبو العباس محمد بن يزيد[2] : وكان عبد الصمد شديدَ الإقدام على ردىء السريرة فيما بينه و بين الناس ، خبيث النيَّة ، يرصُد صديقَه بالمكروه ، تقديرا أن يعاديه فيسوءه بأمرٍ يعرفه ؛ ولا يكاد يَسْلَمُ لأحد ، وكان مشهورا فى ذلك الأمر ، يُلْبَسُ عليه[3] ، ويحمل على معرفةٍ ، عجباً بِظَرْفِ لسانهِ ، وطيبِ مجلسه ، وأيضا لقُبْح مسبَّته ، وشائن معرّته .

قال أبو العيناء : ولما حبس الواثق إبراهيم بن رياح ، وكان لى صديقا ، صنعتُ له هذا الخبر رجاء أن ينتهى إلى أمير المؤمنين فينتفع به ، فأخبرنى زيدُ بن على ابن الحسين أنه كان عند الواثق حين قُرِىء عليه فضَحِك واستظرفه . وقال: ماصنع هذا كُلَّه أبو العيناء إلا فى سبب إبراهيمَ بن رياح، وأمر بتخليته، والخبر : قال لقيتُ أعرابيا من بنى كلاب فقلت له : ما عندك من خَبر هذا العسكر ؟ فقال : قتل أرضا عالِمُهَا ، قال: فقلت : فما عندك من خبر الخليفة ؟ قال: بَخْبخ بعزه، وضرب

(١) نهكته : اتت عليه واجتاحته ، والنضو ـ بالكسر ـ الضعيف السقيم(م)

(٢) هو المبرد (م) (٣) يلبس عليه . أى يخالطه الناس مع علمهم به(م)

بجِرانه، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرهف قلمَ كلَّ كاتب بجبايته . قلت: فما عندك في أحمد بن أبي دُواد ؟ قال : عُضلة[1] لا تُطاقُ ، وجَنْدَلة لا تُرَام ، ينتحي بالمدَى لتحزه فيجور ، وتنصب لهُ الحبائل حتى تقول : الآن ، ثم يضبر[2] ضَبْرَة الذئب ، ويخرج خروج الضب ، والخليفة يحنو عليـه ، والقرآن آخذ بضَبْعَيْه . قلت : فما عندك في عمر بن فرج ؟ قال : ضَخْم حِضَجْر[3] ، غضوب هِزَبْر . قد أهدفه القومُ لبَغْيهم ، وانتضلوا له عن قِسِيِّهـم ، وأخرِ له بمثـل مصرع من يصرع . قلت : فما عندك في خبر ابن الزَّيات ؟ قال :ذلك رجُلٌ وسع الوَرَى شره ، و بطن بالأمور خيره . فلهُ في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثرُ ناب ولا مِخلب، إلا بتسديد الرأى. قلت : فما عندك في خبر إبراهيم بن رياح ! قال : ذاك رجل أوْبقَـه كَرَمُه ، وإن يَفُزْ للـكرام قدح ، فأحْرِ بمَنْجَاتِه ، ومعه دعاء لا يخذله ، وَربٌّ لا يسلمه ، وَفوقه خليفة لا يظلمه . قلت : فما عندك في خـبر نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره من ناقض أوتار، يتوقد كأنه شعلةُ نار، له في القَيْنَة بعد الفينة، عند الخليفة خلسة كخلسة السارق ، أوْ كحسوة الطائر ، يقومُ عنها وَقد أفاد نعما ، وَأوْقع نقما . قلت : فما عندك في خبر ابن الوزير ؟ قال : إخاله كَبْش الزنادِقة ، ألا ترى أنّ الخليفة إذا أهمله خضِمَ ورَتع ، و إذا أمر بتقصيه أمطر فأمْرَع . قلت : فما عندك من خبر الخصيب أحمد] ؟ قال : ذاك أحمق ، أكل أكْلَة نَهِم ، فاختلف اختلاف بشم .قلت:فما عندك في خبر المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل قُدَّ من صخرة ، فصَـبْره صبرُها ، ومسُّه مسُّها ، وكلٌّ ما فيه بعد فمنها ولها . قلت:فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل ؟ قال : كتوم غرور[4]، وجَـلْد صبور، رجل جِـلْدُه جلد نمر، كلما خرقوا له إهابا ، أنشأ الله له إهابا . قلت : فما عندك من خبر الحسن بن وهب ؟ قال : ذاك رجل اتخذ السلطانَ أخاً ،

---

(١) العضلة ـ بالضم ـ الداهية (م)

(١) يضبر ضبرة : يثبت وثبة . وفي نسخة « يطفر طفرة » (م)

(٣) الحضجر : عظيم البطن ، والهزبر : الأسد ، ووزنهما واحد (م)

(٤) في نسخة « غدور » (م)

فاتخذه السلطانُ عبداً ، قال : قلت : فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب ؟ قال : شَدَّ ما استوفيتَ مسألتك أيها الرجل ! ذاك حرمة حبست مع صواحباتها فى جزيرة محرمة ، ليس من القوم فى وِرْدٍ ولا صَدَر ، هيهات :

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا   وعلى الغانيات جرُّ الذيول

قال : قلت : فما عندك من خبر عبد الله بن يعقوب ؟ قال : أمواتٌ غير أحياء ، وما يشعرون أيَّانَ يبعثون .

قلت : فأين نزلت فأؤمّك ؟ قال : مالى منزل تأمُّه . أنا أستتر فى الليل إذا عَسْعَس[1] ، وأنتشِرُ فى الصبح إذا تنفَّس .

***

من شعر راشد ابن إسحاق ابن راشد

ومن مليح شعر راشدِ بن إسحاق بن راشد، وهو أبو حُكيمة، وكان قَوِيَّ أسْرِ الشعر :

تحيرتُ فى أمرى وإنى لواقف   أُجيلُ وجوه الرأى فيك وما أدرى[2]

أأعزِمُ عزمَ اليأس فالموتُ راحةٌ   أمَ اقنعُ بالإعراض والنَّظرِ الشَّزْرِ

وإنى وإن أعرضت عنك لمُنْطَوٍ   على حُرَقٍ بين الجوانح والصدرِ

إذا هاج شوقى مثَّلتكَ لىَ المنى   فألقاكَ ما بينى وبينك فى سِتْرِ

فديتك لم أصبر ولى فيك حيلةٌ   ولكنْ دعانى اليأسُ فيك إلى الصبر

تصبَّرت مغلوباً وإنى لموجَعٌ   كما صبَرَ الظمآنُ فى البلد القفْرْ

وقال :

عتبت عليك فى قطع العتاب   فما عَطَفَتْكَ ألسنة العتاب

---

(١) أخذه من قوله تعالى : (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس) فى سورة التكوير وعسعس الليل : أقبل ظلامه ، أو أدبر ، ضد (م)

(٢) أجيل وجوه الرأى : أديرها ليظهر لى الصواب (م)

وفيما صرت تظهر لى دليـــل على عَتْب الضمـــيرِ المستَرابِ
ومإخطرتْ دواعى الشـــوقِ إلاَّ هززتُ إليـــك أجنحة التصابى

وقال أيضاً :

ضحِكْتِ ولو تَدْرِينَ ما بِى من الهوى بَـكَيْتِ لمحزونِ الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرَحْ عيناه من فَيضِ عَبْرَةٍ ولا قَلْبُهُ مِنْ زَفْرَةٍ ونحيب
لمستأنس بالهمِّ فى دارِ وَحْشَـــةٍ غريب الهوَى باكٍ لـكلِّ غريبِ
ألا بأبى العيشُ الذى بانَ فانقضى وما كان من حُسْنٍ هناك وطِيبِ
ليـــالىَ يدعونا الصِّبا فنجيبهُ ونأخـــذُ مِنْ لذَّاتِه بنصيبِ
نردِّدُ مستور الأحاديث بيننا على غَفْلَةٍ من كاشح ورقيب
إلى أن جرى صَرْفُ الحوادث فى الهوى فبُدِّلَ منهـــا مَشْهَدٌ بمَغيبِ

وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، صُنتُ الـكتاب عن ذكره .

[عبـد الملك بن صالح]

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح ــ وكان معتقلا فى حَبْسه ــ فلما مَثَل بين يديه التفت إليه ، وكان يُحَدِّث يحيى بن خالد بن بَرْمك وزيرَه ، فقال متمثلا :

أريد حياتَه ويريدُ قَتْـــلى عذيرَكَ من خليـلِكَ من مُرادِ[1]

ثم قال: ياعبدَ الملك ، كأنى أنظر إلى شُؤْبُوبها[2] قد هَمَع، وإلى عارِضِها قد لَمَع ،وكأنى بالوعيد قد أوْرَى[3] ،بل أدْمى،فأبرز عن بَراجِمَ بلا مَعاصِم[4] ،ورءوس بلا غَلاصم ، فهلاً بنى هاشم ، فهى والله سَهُلَ لـكم الوَعْر ، وصفا لـكم الـكَدِر ، وألقَتْ إليـكم الأمور أثناء أزِمتها ، فنذار لـكم نذرا قبل حلول داهية خبوط باليد والرِجْل ، فقال عبـد الملك : أفذًّا أتكلم أم تَوْأما ؟ قال : بل فَذّا ، قال : اتق

(١) عذيرك : أى اطلب من يعذرك (م)
(٢) الشؤبوب : الدفعة من المطر (م)
(٣) من قولهم «أورى الزند» إذا قدحته فأخرج ناراً (م)
(٤) البراجم : الأصابع (م)

اللهَ يا أمير المؤمنين فيما ولاّك ، واحفظه فى رعاياك الذى استرعاك ، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر ، والعقاب بمَوْضِع الثواب ، فقد والله سَهَّلْتَ لك الوعور ، وجمعت على خوفك ورجائك الصدور ، وشددتُ أوَاخِيَ ملكك بأوثقَ من رُكْنَيْ يَلَمْلَمَ ، وكنتُ لك كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب ـ يعنى لبيدا :

ومقامٍ ضَيّقٍ فرّجتهُ ... بلسانٍ وبَيَانٍ وجَدَلْ
لو يقومُ الفيلُ أو فيّالُه ... زَلّ عن مثل مقامى وزَحَلْ

فأعاده إلى مجلسه[1] ، وقال : لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عاتقه مراراً ، فيمنعنى عن قتله إبقائى على مثله .

[مدح الحقد وذمه]

عبد الملك يمدح الحقد

وأراد يحيى بن خالد أن يضعَ من عبد الملك ليُرْضِيَ الرشيد ، فقال له : ياعبد الملك ، بلغنى أنك حَقُود ! فقال عبد الملك : أيها الوزير ، إنْ كان الحقد هو بقاء الشر والخير ، إنهما لباقيان فى قلبى ! فقال الرشيد : تالله ما رأيتُ أحداً احتجّ للحقد بأحسنَ مما احتجّ به عبد الملك .

لابن الرومى

وقد مدح ابن الرومى الحقد ، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك ، وزاد فيه ؛ فقال لعائب عابه بذلك :

لئن كُنْتَ فى حفظى لما أنا مُودَعٌ ... من الخير والشر انتحيْتَ على عرضِي
لَمَا عِبْتَنى إلا بفضلِ إبانة ... وربَّ امرىءٍ يزْرِى على خُلُقٍ مَحْض[2]
ولا عيبَ أنْ تُجزَى القروضُ بمثلها ... بل العيبُ أن تَدّان دَينا ولا تقضى
وخيرُ سجيّاتِ الرجال سجيةٌ ... توفيك ما تسدى من القَرْض بالقرض
إذا الأرض أدّتْ رَيْع ما أنت زارعٌ ... من البَذْر فيها فهى ناهيك من أرضِ

(١) قد يكون الصواب «فأعاده إلى محبسه» (م)

(٢) فى ديوانه «لما عبتنى بما ليس عائبى * وكم جاهل يزرى ...» وأزرى عليه : عابه (م)

ولولا الحقودُ المستكنات لم يكنْ لينقض وتراً آخرَ الدهر ذونقض
وما الحقدُ إلا توأم الشكر فى الفتى و بعض السجايا ينتمين إلى بعض
فحيث ترى حِقداً على ذى إساءة فثمّ ترى شكراً على حَسَن القرْض

وقال يردّ على نفسه، ويذم ما مدح، توسّعاً واقتداراً :

يا مادحَ الحقـدِ محتالا له شبهاً لقد سلكت إليه مسلكا وَعثاً
إنّ القبيح وإنْ صنّعت ظاهرَهُ يعودُ مالمْ منـه مرةً شَعِثاً[١]
كم زَخْرَف القول ذو زُور ولبّسهُ على القلوب ولكن قل ما لبثاً
قد أبرم اللهُ أسباب الأمور معاً فلن ترى سبباً منهن منتكِثا[٢]
يادافنَ الحقدِ فى ضعفى جوانبهِ ساء الدفينُ الذى أضحت له جَدثا
الحقـد داء دَوِىٌّ لا دواء لهُ يَرِى الصدورَ إذا ما جَمْرُهُ حُرِثا
فاستشفِ منه بصَفْحٍ أو معاتبةٍ فإنما يبرىء الصدورَ ما نَفَثا
واجعل طلابك بالأوتار ماعظمتْ ولا تكن بصغير القول مُكترِثا
فالعفوُ أقربُ للتقوى وإن جُرمٌ من مجرم جَرَحَ الأكبادَ أو فرثا
يكفيك فى العفو أن الله قرّظهُ وَحياً إلى خير من صلّى ومن بُعِثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن تلقى أخاك حقُوداً صَدْره شرثا
إذا وسَرّكَ أن تلقى الذنوب معاً وأن تصادف منه جانبًا دَمِثا
إنى إذا خلط الأقوام صالحهُمْ بسيىء الفعل جدّا كان أو عَبَثاً
جعلت قلبى كظرف السبك حينئذ يستخلص الفضة البيضاء لا الخَبَثا
ولستُ أجعله كالحوض أمدحُه بحِفظِ ما طاب من ماءٍ وما خَبُثا

***

والبيتُ الذى تمثل به الرشيد هو لعمرو بن معد يكرب يقوله لقَيس بن

(١) صنعت ظاهره : زينته وحسنته ، من قولهم « صنع الجارية » إذا أحسن إليها حتى سمنت (م) (٢) منتكثا : منقوضا (م)

المكشوح المرادى ، وقد تمثّل به على بن أبى طالب رضى الله عنه لمَّا رأى عبد الرحمن ابن مُلْجَم المرادى فقال له : أنت تخضب هذه من هذه، وأشار إلى لحيته و نُقْرَته[1].
فقيل له : يا أميرَ المؤمنين ، ألا تقتله ! فقال : كيف يقتلُ المرء قاتلَه ؟

بين مسلمة ابن عبدالملك والعباس ابن الوليد

وكان بين مَسْلَمة بن عبد الملك و بين العباس بن الوليد تباعُد، فبلغ العباس أن مسلمة ينتقصه ، فكتب إليه يقول :

ألا تَقْنَى الحياءَ أبا سعيدٍ ... وتُقْصِر عن مُلاحاتى وعَذْلِى
فلولا أنّ فَرْعَكَ حين تُنْمَى ... وأصلك منتهى فرعى وأصلى
وأنى إن رَمَيْتُكَ هِضْتُ عَظمى ... ونالتنى إذا نَالَتْكَ نَبْلى
لقد أنكرتَنى إنكارَ خوفٍ ... يَضُمُّ حشَاكَ عن شَتْمى وأكْلِى
فكم من سَوْرةٍ أبطأتَ عنها ... بنى لك مجدَها طلبى وحَفْلِى
ومُبْهمة عييتَ بها فأبدى ... عَويلى عن مخارجها وفَضْلى
كقول المرء عَمْرٍو فى القوافى ... لِقَيسٍ حين خالفَ كلَّ عَدْلِ
عذيرى من خليلى من مرادٍ ... أريدُ حياتَه و يريدُ قتلى

لم يتفق له فى القافية كما قال عمرو ، فغيّره .

[رَجْع إلى عبد الملك بن صالح]

من أخبار عبد الملك ابن صالح

وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن على، وكان بليغاً جَهيراً فاضلا عاقلا .

وقال الجاحظ : قال لى عبد الرحمن مؤدّب عبد الملك بن صالح: قال لى عبد الملك، بعد أن خصّنى وصيّرنى وزيراً بدلا من قُمامة : ياعبدَ الرحمن ، انظر فى وجهى؛ فأنا أعْرَفُ منك بنفسك ولا تُسْعِدنى على مايقبح ؛ دع [عنك كيف الأمير؟] ، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمْسَى ؟ واجعل مكانَ التقريظ حُسْنَ الاستماع

(١) فى نسخة «ونغرته» وهى نقرة النحر بين الترقوتين . والنقرة ـ بالضم أيضاً ـ منقطع القمحدوة فى القفا (م)

منى ، واعلم أن صوابَ الاستماع أحسنُ من صواب القول ، وإذا حدّثتك حديثاً فلا يفوتنّك شىء منه ؛ وأرِنى فهمَك فى طرفك ؛ إنى اتخذتك وزيرا بعد أن كنت معلّماً ، وجعلتُك جليساً مقرّبا بعد أن كنت مع الصبيان مُبْعَداً ، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجحان ما صرتَ إليه .

بين الرشيد وعبد الملك وقد تسايرا

وساير الرشيدُ عبدَ الملك ، فقال له قائل : طأطىء من إشرافه ، واشْدُدْ من شكائمه ، وإلاّ فسدَ عليك ، فقال له الرشيد : مايقولُ هذا ؟ قال : حاسدُ نِعْمة ، ونافس رُتبة ، أغضبه رِضاكَ عنى ، وباعدَه قُرْبُك منى ، وأساءه إحسانُك إلىّ . فقال له الرشيدُ : انخفض القومُ وعلوتَهم ؛ فتوقّدَتْ فى قلوبهم جَمْرةُ التأسف . فقال عبدالملك : أضرَمَها اللهُ بالتزيّد عندك ! فقال الرشيدُ : هذا لك وذاك لهم .

اعتذار عبد الملك وقد أرتج عليه

وصعد المنبر ، فأُرتج عليه فقال : أيها الناس ، إن اللسان بضْعَة من الإنسان تكِلُّ بكلاله إذا كلّ ، وتنفسح [بانفساحه] إذا ارتجل، إن الكلامَ بعد الإفحام كالإشراقِ بعد الإظلام، وإنا لانسكتُ حَصَرا ، ولا ننطقُ هَذَرا ؛ بل نسكتُ مفيدين ، وننطق مُرْشِدِين ، وبعد مقامنا مقام ، ووراء أيامنا أيّام ، بها فَصْل الخطاب ، ومواقع الصواب ، وسأعودُ فأقول، إن شاء الله تعالى

بين يدى الرشيد بعد حبسه

وقال الأصمعى : كنتُ عنـــد الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حَبْسه، فقال : يا عبد الملك ، أكُفراً بالنِّعْمةِ[1]، وغَدْراً بالسلطان ، ووثوباً على الإمام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، بُؤْتُ بأعباء الندم ، واستحلال النِّقم ، وما ذاك إلاَّ من قولِ حاسِدٍ، ناشدتك الله والولاية ، ومودّة القرابة . فقال الرشيد: ياعبدالملك، تَضَعُ لى لسانك، وترفعُ لى جَنانك ، بحيث يحفظُ اللهُ لى عليك ، ويأخذ لى منك، هذا كاتبُك قمامة ينبىء عن غِلِّكَ[2]، فالتفت عبدُ الملك إلى قُمامة وكان قائماً، فقال:

---

(١) كفرا بالنعمة : جحوداً لها وإنكاراً (م)

(٢) غلك : حقدك وفساد قلبك (م)

أحقًا يا قمامة ؟ قال : حقًا ، لقد رُمْتَ خَتْر[1] أمير المؤمنين ! فقال عبد الملك : وكيف لا يكذِب علىّ يا أمير المؤمنين فى غَيْبتى من يَبْهَتنى فى حضرتى ؟ فقال الرشيد : دَعْ قمامة ، هــذا ابنُك عبد الرحمن ينبىء عنك بمثل خبر قمامة ، فقال عبد الملك : إنّ عبد الرحمن مأمور أو عاقّ ؛ فإن كان مأموراً فهو معذور ، و إن كان عاقًا فما أتوقّع من عقوقهِ أكثر .

[فى مقام الخوف]

بين الرشيد والحسن ابن عمران

وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِل عليه يَرْسُفُ فى قُيُودِه : ولّيتك دمشق وهى جنّةٌ مونِقة ، تحيط بها غُدُر كاللّجين[2] ، فتكِف على رياضٍ كالزّرابى ، وكانتْ بيوتَ أموال فما برح بها التعدّى ، حتى تركتَها أجردَ من الصّخر ، وأوحش من القفْر ! فقال : يا أميرَ المؤمنين ، ما قصدت لغير التوفيق من جهته ، ولـكنى ولّيت أقواماً ثقُلَ على أعناقهم الحقّ ، فتفرّغوا فى ميدان التعدى ، ورأوْا أنّ المراغمة بتَرْك العِمارة أوقعُ بإضرار السلطانِ ، وأنوَه بالشنعة ؛ فلا جرَم أنّ مَوْجِدَة أمير المؤمنين قد أخذتْ لهم بالحظّ الأوفر من مساءتى ! فقال عبد الله ابن مالك : هذا أجزلُ كلامٍ سُمِــع لخائف ، وهذا ما كنا نسمعه عن الحــكماء « أفضل الأشياء بديهةُ أمْنٍ وردَتْ فى مقامِ خَوْف » .

بين الرشيد ويزيد بن مزيد

ولما رَضِىَ الرشيدُ عن يزيد بن مَزْيد دَخل عليه فقال : الحمد لله الذى سهّلَ لى سُبُلَ الـكرامة بلقائك ، وردَّ علىَّ النعمةَ بوَجْهِ الرضا منك ، وجزاكَ الله فى حال سُخْطِك حقّ المتثبتين المراقبين ، وفى حال رضاكَ حقّ المنعمين المتطوّلين ؛ فقد جعلك الله — وله الحمد — تتثبّت [تحرّجا] عند الغضب ، وتتطول [ممتناً] بالنعم ، وتستَبْقِى المعروفَ عند الصنائع تفضّلا بالعفو .

(١) رمت : أردت ، والختر : الغدر والخيانة (م)

(٢) الغدر — بضمتين — جمع غدير ، وهو ما احتجنه السيل من الماء ، واللجين : الفضة (م)

[من الرثاء]

لمسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد

وفي يزيد بن مزيد يقول مسلم بن الوليد مرثيته، وقد رُويت له في يزيد بن أحمد السلمي :

قَبرٌ ببرذعةَ استسرَّ ضريحُهُ خطراً تقاصَرُ دونهُ الأخطارُ(١)

نُفضتْ بك الأحلاسُ نَفْضَ إقامةٍ واسترجعتْ نُزّاعَها الأمصارُ

فاذهَبْ كما ذهبتْ غَوادِي مُزْنةٍ أثنى عليها السهلُ والأوعارُ

سلكتْ بكَ العربُ السبيلَ إلى العُلا حتى إذا سبق الرَّدَى بك حارُوا

لمحمد بن أبي عطية يرثي أخاه

وقال أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عطية يرثي أخاه :

حنَّطتَه يانصرُ بالكافور وزففتَه للمنزل المهجورِ

هلاَّ ببعض خِصالِه حنطتهُ فيضوعَ أفقُ منازلٍ وقبورِ

واللهِ لو بنسيمِ أخلاقٍ لهُ تُعزَى إلى التقديسِ والتطهيرِ

حنَّطتَ من وطِيءَ الحصى وعَلاَ الربى لتزوّدٍ بل عُدَّةً لنشورِ

فاذهب كما ذهب الشبابُ فإنهُ [قد كان خير مُجاوِرٍ ومُجيرِ]

[واذهب كما ذهب الوفاء فإنه] عصفت به رِيحا صَبًا ودَبُورِ

واللهِ ما أبّنتُه لأزيدهُ شرفًا ولكن نفثةَ المصدُورِ

لأعرابي يرثي أعرابيا

ومات رجلٌ من العرب كان يعولُ اثني عشرَ ألفًا ، فلما حُمل على سريره صَرّ، فقال بعضُ من حضر:

وليس صَريرُ النعشِ ما تسمعونهُ ولكنه أصلابُ قومٍ تقصّفُ(٢)

وليس فتيق المسك ما تجدونهُ ولكنه ذاك الثناء المخلَّفُ

لابن المعتز

وقال عبد الله بن المعتز في عبيد الله بن سليمان بن وَهْب يرثيه :

يابن وَهْبٍ بالكُرْه منّي بقيتُ عجبي يوم متَّ كيف حَييتُ

---

(١) في الأمالي (١/٢٧٦) «قبر بحلوان استسر» واستسر : أخفى وستر (م)

(٢) الصرير : الصوت ، وصر : صوت ، وتقصف : أصله تتقصف ، ومعناه تتكسر وتتحطم (م)

إنما طيّب الثناء الذى خلـــفت لا مِسْكُ نَعْتِك المفتوتُ
وأختصرت الطريق بعدك للمو ت فلاقيته ولستُ أفوتُ
كيف يَبْقَى على الحوادث حَىٌّ بيدِ الدَّهْرِ عُودُه منحوتُ

وقال أيضاً :

ذكرت ابنَ وَهْبٍ فلله ما ذكرتُ وما غيّبوا فى الكَفَنْ
تقطّر أقـلامه من دمٍ ويعلمُ بالظنّ مالم يَـكُنْ
وظاهر أطـــرافه سَاكِنٌ وما تحتــــه حرَكاتُ الفِطنْ

وقال :

ذكرت عبيد الله والتربُ دُونَه فـــلم تحبس العينانِ منّى بكاهُما[1]
وحاشاهُ من قولٍ «سَقَى الغيثُ قبرَهُ» يداهُ تروِّى قـــبرَه مِنْ نداهُما

للبحترى فى الحسن ابن وهب

وهذا مأخوذ من قول الطائى :

سقى الغيثُ غيثاوارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ وإن لم يكُنْ فيه سحابٌ ولا قَطْرُ[2]
وكيف احْـــتِمالِى للسحابِ صنيعةً بإسقائها قبرا وفى لَحْدِه البَحْرُ

وقال ابن المعتز :

لم تمُتْ أنتَ ، إنما ماتَ مَنْ لم يُبْقِ فى المجدِوالمكارمِ ذِكْرَا
لستُ مستسقيا لقـــبرك غيثاً كيف يَظمأ وقد تضمّن بحرا

والبيت الثانى من هذين من بيت الطائى .

وقال :

محمدُ بنُ حُمَيْـــدٍ أُخلِقت رِمَمُهْ أُريق ماء المعـــالى إذْ أُرِيقَ دَمُه
رأيتـــه بنِجادِ السيفِ مُحْتَبِياً كالبدر حين انجلَتْ عن وجهه ظُلَمُهْ
فى روضـــةٍ حفّها من حولها زَهَرٌ أيقنت عنـــد انتباهى أنها نِعَمُهْ

---

(١) فى الديوان «فلم تملك العينان إلا بكاهما» (م)
(٢) الغيث الأول : المطر ، والغيث الثانى : الجواد الكريم، أراد به المرثى (م)

فقلتُ والدمعُ من وَجْدٍ ومن حُرَقٍ ... يَجْرِى وقد خدَّدَ الخدين منسجمُهْ:
ألم تمت ياسليلَ المجد من زمنٍ ؟ ... فقال لى : لم يَمُتْ من لم يمت كَرَمُه

وقال بعض أهل العصر :

عُمْرُ الفتى ذِكْرُه، لاطولُ مدَّتِه ... وموتُه موتُه لا موته الدَّانِى
فأَحْيِ ذكرَكَ بالإحسان تزرعهُ ... تُجْمَعْ به لك فى الدنيا حَياتانِ

وقال عبد السلام بن رَغبان الحِمْصى[1] :

سقى الغيثُ أرضا ضُمِّنتك وساحَةً ... لقَبْرُكَ فيه الغيث والليثُ والبَدْرُ
وما هى أهلٌ إذْ أصابتك بالبِلَى ... لسُقيا، ولكن من حَوَى ذلك القبرُ

أخذ هذا البيت [الأول] الراضى فقال يرثى أباهُ المقتدر :

بنفسى ثرًى ضُمِّنْت فى ساحة البِلَى ... لقد ضَمَّ منك الغيثَ والليثَ والبَدْرا
فلو أنّ عمرى كان طوعَ مشيئتى ... وأسعدنى المقدورُ قاسمتُكَ العمرا
ولو أنَّ حيًّا كان قَبْراً لميت ... لصيَّرْتُ أحشائى لأَعْظُمِه قَبْرا

هذا البيت ينظر إلى قول المتنبى :

حتى أتَوْا جَدَثًا كأن ضريحهُ ... فى قلْبِ كلِّ موحِّدٍ محفورُ

* * *

قطر الندى والخليفة المعتضد

لما حُملت قَطْرُ الندى بنت خُمَارَوَيْه بن [أحمد بن] طولون إلى المعتضد كتب معها أبوها إليه يذكره بحُرْمَة سلفها [بسلفه] ، ويذكُرُ ما تَرِدُ عليه من أبّهة الخلافة ، وجلالة الخليفة ، ويسأل إيناسها وبَسْطَها ، فبلغَتْ من قَلْب المعتضد لما زُفَّت إليه مبلغا عظيما ، وسُرَّ بها غاية السرور ، وأمر الوزير أبا القاسم عبيد الله ابن سليمان بن وهب بالجواب عن الكتاب ، فأراد أن يكتبَه بخطّه ، فسأله أبو الحسين بن ثَوَابة أن يُؤْثره بذلك ففعل ؛ وغاب أياما وأتى بنسخة يقول فى فصل

(١) هو المعروف بديك الجن .م)

منها : وأمّا الوَديعةُ فهي بمنزلةِ شيء انتقل من يمينك إلى شمالك ،عنايةً بهـا ، وحِياطة عليها ، ورعايةً لمودتك فيها . ثم أقبل عبيد الله يُعجب من حُسْنِ ما وقع له من هذا ، وقال : تسميتى لها بالوديعة نصفُ البلاغة ، فقال عبيد الله : ما أقبحَ هذا ! تفاءلتَ لامرأةٍ زُفَّت إلى صاحبها بالوديعة ، والوديعةُ مستردة . وقولك « من يمينك إلى شمالك أقبح » لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمالَ ، ولو قلت : « وأما الهديةُ فقد حسن موقعها منّا ، وجلّ خطرُها عندنا ؛ وهى وإنْ بعدَتْ عنك ،بمنزلة من قربَتْ منك ؛ لتفقّدِنا لها ، وأُنْسِنابها ، ولسرورها بما وردَتْ عليه ، واغتباطها بما صارت إليه » لـكان أحسن ، فنفذ الـكتاب .

وكانَتْ قَطْرُ الندى مع جمالها موصوفةً بفضل العقل ، خلا بها المعتضد يوما للأُنس بها فى مجلسٍ أفرده لم يحضره غيرها ، فأخذَتْ منه الـكأس ، فنام على فخذها ،فلما استثقلَ(١) وضعَتْ رأسَه على وسادة ، وخرجت فجلست فى ساحة القصر على باب المجلس ، فاستيقظ فلم يجِـدْها ، فاستشاط غضبا(٢) ، ونادى بها فأجابته على قرب ، فقال : ما هذا ؟ أخليتك إكراما لكِ ، ودفعتُ إليك مهجتى دون سائر حظاياى ، فتضَعين رأسى على وسادة ! فقالت : يا أمير المؤمنين ، ما جهلتُ قدرَ ما أنعمتَ به علىّ ، وأحسنتَ فيه إلىّ ، ولـكن فيما أدّبنى به أبى أن قال لى : لا تنامى مع الجلوس ، ولا تجلسى بين النيام .

* * *

[رجع إلى الرثاء]

لابن المعتز فى ابن ثوابة

وفى أبى الحسين بن ثوابة يقول ابن المعتز يرثيه :

ليس شىءٌ لصحّةٍ ودَوامِ ... غلبَ الدهرُ حِيـلةَ الأقوامِ

وتولّى أبو الحُسين حميداً ... فعلى رُوحه سَلام السلامِ

(١) استثقل : كناية عن تمكن النوم منه (م) .

(٢) استشاط غضبا : غضب غضبا شديداً ، وأصل معنى «استشاط» احترق (م)

حين عاقدته على الحفظ للعهـــد وصافحته بكف الذمام[1]
واصطفته على الأخلاء نفسى كاصطفاء الأرواح للأجسام
كان ريحانة الندامى وميزا ن القوافى شعراً و بحر كلام
ومكان السهم الذى لا يرى الشـــك ولا يستغيث بالأوهام
ساحر الوحى فى القراطيس لا تحـــبس عنـــه أعنة الأقلام
فإذا ما رأيتـــه خلت فى خــــديه صبحاً منقباً بظـــلام
نفس صبراً لا تجزعى إن هذا خلق من خـــلائق الأيام

[أيام الشباب]

لرجل من بنى كلاب

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب لرجل من بنى كلاب :

سقى الله دهراً قد تولت غياطـله وفارقنا إلا الحشاشة باطـله[2]
ليالى خدنى كل أبيض ماجد يطيع هوى الصابى وتعصى عواذله
وفى دهرنا والعيش فى ذاك غرة ألا ليت ذاك الدهر تثنى أوائله
بما قد غنينا والصبا جل همنا يمايلنـــا ريعانه ونمايـله
وجر لنا أذياله الدهر حقبة يطاولنا فى غيه ونطاوله
فسقياً له من صاحب خذلت بنا مطيتنا فيـه وولت رواحـله
أصد عن البيت الذى فيه قاتلى وأهجـره حتى كأنى قاتـله

هذا البيت يناسب قول ذى الرمة ، و إن لم يكن فى هذا المعنى ، يصف ظبية وولدها :

إذا استودعته صفصفاً أو صريمة تنحت ونصت جيدها بالمناظر[3]
حذاراً على وسنان يصرعه الكرى بكل مقيل عن ضعاف فواتر

---

(١) الذمام – بكسر الذال – العهد (م)

(٢) غياطله : ظلماته ، واحدها غيطل (م)

(٣) الصفصف : المستوى من الأرض ، والصريمة : الرملة المنقطعة من الرمال

وتهجرُه إلا اختلاساً نَهارَهَا ... وكم مِن محبٍّ رهبةَ العين هاجِرِ

لأبي حية النميري

وقال أبو حية النميري :

أما وأبي الشباب لقد أراهُ ... جميلا ما يُرادُ به بَديلُ

إذِ الأيامُ مقبلةٌ علينا ... وظِلٌّ أراكةِ الدنيا ظليلُ

لابن بسام

وقال على بن بسام :

بشاطئ نهر قبرك فالمصلَّى ... فـا والآها فالقريتينِ

معاهِدُ لَهْوِنا والعيشُ غضٌّ ... وصرف الدهر مقبوضُ اليدينِ

* * *

من ترجمة ابن بسام وأخباره

وكان ابن بسام هذا — وهو على بن [محمد بن] منصور بن بسام مليح المقطعات ، كثير الهجاء خبيثهُ ، و [ليس] له حظ الطويل ، وهو القائل :

كم قد قطعْتُ إليك من دَيْمومةٍ ... نُطَفُ المياهِ بها سَوادُ الناظرِ (١)

فى ليلةٍ فيها السماء مُرِذّةٌ ... سوداء مظلمةٌ كقَلْبِ الكافرِ (٢)

والبرقُ يخفِقُ من خلال سحابهِ ... خَفْقَ الفؤاد لموعدٍ من زائرِ

والقَطْرُ منهمِلٌ يسُحّ كأنهُ ... دمع المودّع إثْرَ إلفٍ سائرِ

وقال فى العباس [بن الحسين] لما وَزَرَ للمكتفى :

وزارة العباسِ من نَحْسِها ... ستقلع الدولةَ من أُسِّها

شَبَّهْته لما بَدَا مُقْبِلا ... فى خِلعٍ يخجل من لُبْسِها

جاريةً رَعْناء قد قدّرَتْ ... ثياب مولاها على نفسِها

وقال فى على بن يحيى المنجم يَرْثيه :

---

(١) النطف : جمع نطفة ، وهى الماء الصافى (م)

(٢) مرذة : اسم الفاعل من قولهم «أرذ المطر» إذا هطل ، وفى نسخة « فيها السماء مزادة » (م)

قد زرتُ قبرك يا علىّ مسلماً ولكَ الزيارة من أقل الواجبِ
ولو استطعت حملتُ عنك تُرَابهُ فلطالما عنى حملتَ نوائبى

وكان مولعاً بهجاء أبيه ، وفيه يقول وقد ابتنى داراً :

شِدْتَ داراً خِلْتَها مَكْرُمةً سلَّط اللهُ عليها الغَرَقا
وأرانيك صريعاً وسطها وأرانيها صعيداً زَلَقا

وقال أبو العباس بن المعتز يهجوه :

من شاء يَهْجُو عليًّا فشعرُه قد كفاه[1]
لو أنه لأبيه ما كان يَهْجُو أباهُ

[مع الخلفاء]

بين المأمون وأحمد ابن أبى خالد

وقال المأمون لأحمد بن أبى خالد ، وهو يخلف الحسنَ بن سَهل ، وقد أشار إليه برأى استرجحَه : قد اعتلّ الحسنُ ولزم بيته ، ووكَلَ الأمرَ إليك ، فأنا إلى راحته و بقائه، أحوجُ[منى] إلى إتعابه وفنائه،وقد رأيتُ أن أستوزرك؛ فإن الأمرله ما دُمْتَ أنت تقوم به ، وقد طالعتُ رأيه فى هذا الأمر ، فما عدَاك . فقال : يا أمير المؤمنين ، أَعفِنى من التسمّى بالوزارة ، وطالبنى بالواجب فيها ، واجعلْ بينى و بين الغاية ما يرجونى له وَلِّى ، ويخافنى له عدُوِّى ، فما بعد الغايات إلا الآفات . فاستحسن كلامه ، وقال : لا بد من ذلك، واستوزره .

المأمون ومحمد ابن داود فى حسن الخط

ورأى المأمونُ خطاً محمد بن دَاود فقال : يا محمد ، إن شاركْتَنَا فى اللفظ ، فقد فارقناك فى الخطّ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من أعظم آياتِ النبى صلى الله عليه وسلم أنه أدّى عَنِ الله سبحانه وتعالى رسالاته ، وحفظ عنه وَحْيَه ، وهو

---

(١) فى الديوان «فشعره قد هجاه »

أمّى لا يعرف من فنون الخط فنّا ، ولا يقرأ من سائره حرْفا ، فبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يَشْرُفون بالشَّبَه الـكريم فى نَقْص الخط ، كما يشرفُ غيرُهم بزيادته؛ وإن أمير المؤمنين أخصُّ الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارثُ لموضعه، والمتقلّد لأمره ونهيه ؛ فعلقت به المشابهة الجليلة ، وتناهَتْ إليه الفضيلة فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتنى لا آسَى على الـكتابة ، ولو كنتُ أمّيا .

وهذا شبيهٌ بقول سعيد بن المسيب ، وقد قيل له : ما بال قريش أضعفُ العرب شعراً ، وهى أشرفُ العرب بيتاً ؟ قال : لأنّ كَوْن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها قطع مَتْن الشعر عنها .

من رأفة المأمون بعماله

وقال إبراهيم بن الحسن بن سَهل : كنّا فى مجلس المأمون وعَمْرو بن مَسْعَدَة يقرأ عليه الرِّقَاع، فجاءته عَطْسَةٌ ، فلوَى عنقه فردّها ، فرآه المأمون فقال : ياعمرو ، لا تفعَل فإن ردّ العَطْسة وتحويل الوجه بها يُورِثان انقطاعا فى العنق . فقال بعض ولد المهدى : ما أحسنها من مولًى لعبده ، وإمام لرعيته ! فقال المأمون : وما فى ذلك ؟ هذا هشامٌ أضطربت عِمامته فأهوى الأبرش الكلبى إلى إصلاحها ، فقال هشام : إنّا لا نتّخذُ الإخوان خوَلا[1] ! فالذى قال هشام أحسنُ مما قلته . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين : إنّ هشاماً يتكلّفُ ما طُبِعْتَ عليه ، [ويظلم] فيما تعدل فيه ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قيامك بحق الله ، وإنك والملوك لـكما قال النابغة الذبيانى :

ألم تَرَ أنّ الله أعطـاك سَوْرَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذبُ
لأنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طلعَتْ لم يبدُ منهن كوكبُ

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة :

---

(١) الخول ـ بالتحريك ـ الخدم والعبيد (م)

تكادُ تَميد الأرض بالناس إنْ رَأَوا   لعمرو بن هند غَضْبَة وهو عاتِبُ
هو الشمس وافَتْ يوم دَجْنٍ فأفضلَتْ   على كل ضوء والملوكُ كواكبُ(١)

بين يزيد بن معاوية وجميل بن أوس

قال يزيد بن معاوية لجميل بن أوس ، وكان أكرمه واجتباه : لِمَ كرِهْتَ الإفراط فى تقديمى ، وتطامَنْتَ عنِ الدرجة التى سما بك إليها مكانك منى ؟ فقال : [أيدَ الله سلطانك، وأعلى مكانك] ، إن الذين كانوا قبلنامن أهل العلوم والآداب ، والعقول والألباب، كانوا أطول أعماراً منا ، وأكثر للزمان صُحْبة ، وأكثر للأيام تجربة ، وقد قال الحكيم : بقدر الثواب عند الرّضا يكون العقاب عند السخط ، و بقَدْر السموّ فى الرفعة تكون وَجْبة الرفعة ، ولا خير فيمن لا يسمع الموعظة ، ولا يقبل النصيحة ، وأنا يا أمير المؤمنين و إن كنت آمناً من التعرض لسُخْطك والدنوّ مما يقرب منه ، فلستُ بآمِنٍ من طَعْنِ المُساوِى فى الدرجة عندك ، وحقر المشارك لى فى المنزلة منك ، وليس من تقديمك قليل ، ولا من تعظيمك يسير ، فإن أقل ذلك فيه النباهة ، والفخر ، [والثناء] والذكر ، وحسبى مما بذلته من أموالك استحقاق عندك لإكرامك ، وحسبى من تقديمك خالص رضاك ، وصفاء ضميرك

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر

لما جُعِل الإسكندرُ فى تابوت من ذهب تقدّم إليه أحدُهم فقال : كان الملكُ يخبأُ الذهب ، وقد صار الآن الذهبُ يخبؤه ، وتقدم إليه آخر ، والناسُ يبكون و يجزعون ، فقال : حرّكنا بسكونه ، أخذه أبو العتاهية فقال :

يا علىّ بنَ ثابت بانَ منّى   صاحبٌ جَلّ فَقْدُه يوم بنْتَا

---

(١) الدجن : الظلمة ، ووقع فى نسخة «وافت يوم سعد» وأفضلت : زادت (م)

قد لَعَمْرِى حكيتَ لى غُصَصَ المو ... تِ وحرَّكتنى لهــا وسَكَنْتَا

وتقدم إليه آخر فقال : كان الملكُ يَعِظُنا فى حياته ، وهو اليومَ أوعظُ منه أمسِ . أخذه أبو العتاهية فقال :

وكانت فى حياتك لى عِظَاتٌ ... وأنتَ اليومَ أوْعَظُ منك حيّا

وتقدّمَ إليه آخر فقال : قد طاف الأرَضِينَ وتملّكها ، ثم جُعـل منها فى أربعة أذرع . ووقف عليه آخر فقال : مالك لا تُقلّ عضواً من أعضائك ، وقد كنت تستقلّ ملكَ العباد . ووقف عليــه آخر فقال : انظرْ إلى حلم النائم كيف انقضى ، و إلى ظلّ الغمام كيف انجَلَى . وقال آخر : مالك لا ترغَبُ بنفسك عن ضيق المكان ، وقد كنت ترغبُ بها عن رحب[1] البلاد . وقال آخر : [كان الملك غالباً فصار مغلوبا ، وآكلا فصار مأكولا . وقال آخر] : أمَاتَ هذا الميتُ كثيراً من الناس لئــلاَّ يموت ، وقد ماتَ الآن . وقال آخر : ما كان أقبح إفراطك فى التجبّر أمس ، مع شدّةِ خضوعك اليوم . وقالت بنت دارا : ماعلمت أنَّ غالب أبى يُغلَب . وقال رئيس الطباخين : قد نضــدت النضائدُ ، وأُلقيت الوسائد ، ونُصِبت الموائد ، ولستُ أرى عميدَ المجلس !

جملة من كلام ابن المعتز فى الفصول القصار فى ذكر السلطان

أشْقَى الناس بالسلطان صاحبُه ، كما أنّ أقربَ الأشـياء إلى النارِ أسرعُها احتراقاً . لا يُدْرِكُ الغنى بالسلطان إلا نفس خائفة ، وجِسْمٌ تعِب ، ودينٌ متثلم. إن كان البحرُ كثيرَ المـاء فإنه بعيدُ المَهْوَى ، ومَنْ شارك السلطانَ فى عزّ الدنيا شاركه فى ذُلّ الآخرة . فسادُ الرعيــة بلا ملك كفسادِ الجسم بلا رُوح . إذا زادك السلطانُ تأنيسا فزِدْهُ إجلالا . مَنْ صحب السلطانَ صبر على قسْوته كصَبْرِ

---

(١) الرحب : الواسع (م)

الغوّاص على ملوحة بَحْرِه . الملك بالدين يبقى، والدينُ بالُملكِ يَقوى . من نصح لخدمة نصحتْه المجازاة . لا تلتبس بالسلطان فى وقت اضطرابِ الأمور عليه ؛ فإن البحر لا يكادُ يسلم صاحبه فى حالِ سكونه ، فكيف عند اختلاف رِياحِه ، واضطراب أمواجِه ؟ .

ومن كلام أهل العصر وغيرهم فى هذا النحو

الأوطانُ حيثُ يعدل السلطان. إذا نطق لسان العدل فى دار الإمارة، فلها البُشْرى بالعزّ والإمارة . أَحْرِ بالملك العادل أن يستقلّ سريرَه فى سُرّة الأرض. ريحُ السلطان على قومٍ سَمُوم[1] ، وعلى قوم نَسيم. أَخْلِقْ بدم المستخف بالجبابرة أن يكون جُبَارا[2] . من غمس يده فى مال السلطان فقد مشى بقدمه على دَمه . الملك خليفةُ الله فى عبادِه و بلادِه ، ولن يستقيم أمرُ خلافتــه مع مخالفته . الملك مَنْ ينشرُ أثواب الفضل ، و يبسطُ أنواعَ العدل. السلطانُ كالنارِ : إنْ باعدتَها بطل نَفْعُها ، و إن قاربتها عَظُم ضررها . إقبالُ السلطان تَعَبٌ وفِتْنَةٌ ، و إعراضُه حسرة ومذلة . صاحبُ السلطان كراكب الأسد يهابُه النــاسُ وهو لمركبه أهيبُ . السلطانُ إذا قال لعمّاله : هاتوا ، فقد قال لهم : خذوا. ثلاثة لا أمان لهم : السلطان، والبحر ، والزمان . ليكن السلطان عندك كالنار : لا تدنُو منها إلا عنــد الحاجةِ إليها ، و إن اقتبست منها فعلى حذر . مثل أصحاب السلطان كقومٍ رَقُوا جبلا ثم وقعوا منه ، فكان أقربُهم إلى التلف أبعدَهم فى المرقى . مثــل السلطان كالجبل الصّعْب الذى فيــه كلُّ ثمرة طيبة ، وكل سَبُع حَطوم ، فالارتقاء إليــه شديد ، والمقام فيه أشدّ . لئن عزّ الملوك فى الدنيا بالجور ليذلُّن فى الآخرة [بالعدل] .

لابن عبّاد الصاحِب :

إذا ولاّك سلطانٌ فزده   من التعظيم واحْذَرْهُ ورَاقِبْ

---

(١) سموم — بفتح السين — حارة محرقة (م)

(٢) جبار — بضم الجيم وفتح الباء مخففة — هدر ، ليس له من يأخذ به (م)

فمــا الســلطانُ إلا البحرُ عظماً ... وقربُ البحرِ محذُورُ العَوَاقِبْ

[وصف كاتبـــة]

ووصف أحمد بن صالح بن شيران[1] جاريةً كاتبة فقال: كأنَّ خطَّها أشكال صورتها ، وكأنَّ مِدَادَها سوادُ شعرها ، وكأن قرطاسها أديمُ وَجْهها ، [وكأنَّ قلمَها بعضُ أناملها ، وكأنَّ بنانَها سِحْرُ مُقْلتهــا ، وكأن سِكّينها غُنج لحظها] وكأن مِقطّها قلبُ عاشقها .

[وصف غلام كاتب]

وقال بعضُ الــكتّاب يصف غلاماً كاتباً :

انظر إلى أثرِ المــداد بخدّهِ ... كبنفسجِ الرّوْضِ المَشُوبِ بِوَرْدِهِ

ما أخطأتْ نُونَاتُهُ من صُدْغِهِ ... شــيئاً ، ولا ألِفاتُه مِنْ قدّهِ

ألقتْ أناملُه على أقلامـــهِ ... شَبهاً أراكَ فِرنْدَها كفِرنْدِهِ[2]

وكأنما أنقاسُه من شَـــعره ... وكأنما قِرْطَاسه من خدّهِ[3]

وقال أحمد بن أبي سمرة الدارمي فيما ينظر إلى هذا من طَرْف خَفِي :

[سَرَابُ الفيافي صادقٌ عندوعدها ... وسمُّ الأفاعي مُبْرِئٌ عند صدّها]

رمتني ولم أسْعَدْ بأيام وَصْلهـــا ... بعينيْ مَهَاةٍ أنحَسَتْنِي بِبُعْدِها

فعُلّقها قلبي كما قد تعلقت ... صوالج صــدغيها بتفّاح خَدها

فقلبيَ لَمَّـــا أضعفته كخصرها ... ودمعيَ لَمَّا نظمته كعقدها

ونيل الثُّريَّا ممكنٌ عند وصْلِها ... وأسرعُ من برق تناقضُ وعدها

[من بديع الزمان إلى ابن العميد]

رقعة كتبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه : أين تكرّم الشيخ العميد أيّده اللهُ على مولاه ؟ وكيف معدله إلى سِوَاه ؟ أيقصر في النعمة ، لأني قصّرت

---

(١) في نسخة «بن بشير» (م) (٢) فرند السيف — بكسر الفاء والراء — حده (م) (٣) الأنقاس : جمع نِقس — بكسر فسكون — وهو الحبر (م)

فى الخدمة ؟ إذَنْ فقد أساء المعاملةَ ، ولم يحسن المقابلة ، وعثر فى أذيال السهْوِ ، ولم ينعش بيدِ العفو ، أم يقول : إن الدهر بيننا خُدَع ، وفيما بعد مُتَّسع، فقد أزف رَحِيلى[1] ، ولا ماء بعد الشطِّ ، ولا سطح وراء الخط ؛ أم ينتظر سؤالى ؟ و إنما سألته ، يوم أمّلته ، واستمنَحتهُ[2]، يوم مدحته ، واقتضيته، يوم أتيته، وانتجعت سحابه ، لما قرعت بابَه ، وليس كل السؤال أعْطِنى ، ولا كل الردّ أعفِنى ؛ أم يظن ـ أيّده الله تعالى ـ أنى أردّ صِلَته ،ولا ألبَس خلعته ؟ وهذه فراسة المؤمن إلا أنها باطلة ، وتَخيلة العارف إلا أنها فاسدة ؛ أم ليس يجد فىّ مكاناً للنعمة يضعُها ، وأرضاً للمنّة يزرعها ؟ فلا أقل من تجربة دفعة ، والمخاطرة بإنفاذ خلعة ، ليخرج من ظلمة التخمين،إلى نور اليقين ، وينظر أأشكر أم أكفر؛أم يتوقع ـ أيده الله ـ صاعقة تملكنى ، أوبائقة تهلكنى[3] ، فلهذا أمَلٌ موفَّر ، لأن شيخ السوء باق مُعَمَّر ؛ أم يقدر ـ أيّده الله ـ أنى أشكره إذا اصطنع ، وأعذره إذا منع ، وتالله لو كنت ينبوعِ المعاذِير ماحظى منها بجرعة ، فليُرحنى بسُرعة .

[بين البديع وأبى القاسم الهمذانى]

وكتب أبو القاسم الهمذانىّ إلى البديع : قد كتبت لسيدى حاجة إن قضاها وأمضاها ، ذاق حلاوة العطاء ، و إن أباها وفَلَّ شَباها[4] لقِى مرارةَ الاستبطاء ، . فأى الجودين أخفّ عليه ؟ أجُودٌ بالعِلْق[5] ، أم جودٌ بالعرض ؟ ونزول عن الطريف ، أم عن الخلق الشريف ؟

فأجابه : جعلت فداك هذا طبيخ ،كله توبيخ ، وثريد ،كله وَعيد ، ولُقَم ، إلا أنها نِقَم ، ولم أرقِدراً أكثرَ منها عظما ، ولا آكلا أكثر منى كَظْما ، ولم أرَ شَرْبة أمرّ منها طعما ، ولا شارباً أتمّ منى حلماً ، ما هذه الحاجة ؟ ولكن حاجتك من بعدُ ألينَ جوانب ، وألطفَ مطالب ، توافق قضاءها وتَرائق ارتضاءَها ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) أزف رحيلى : قرب (م) (٢) استمنحته :طلبت منحته ، أى عطاءه؛ وفى نسخة «استمحته» بدون نون (م) (٣) البائقة: المهلكة (م) (٤) فل : كسر وحطم ، وشباها ـ بفتح الشين ـ حدها (م) (٥) العلق ـ بالكسر ـ النفيس الذى يتغالى فيه (م)

وفى مقامات أبى الفتح[1] الإسكندرى من إنشائه ، قال :

من مقامات بديع الزمان الهمذانى

حدثنا عيسى بن هشام قال : أحلّنى جامعَ بخارى يوم ، وقد انتظمت مع رُفقةٍ فى سِمطِ الثريّا ، وحين احتفل الجامعُ بأهله طلع علينا ذو طِمرَين[2] ، قد أرسل صِوانًا ، واستتلى [طفلا] عُرْيانا ، يضيق بالضرّ وُسْعه ، ويأخذُه القرُّ ويَدَعُه ، لا يملك غيرَ القِشرة[3] بُرْدَة ، ولا يلتقى لَحياه رِعْدَة ، ووقف الرجل وقال : لا ينظر لهذا الطفل إلاّ مَنْ رحم طفله ، ولا يرقُّ لهذا الضُّر إلا مَنْ لا يأمنُ مثله ، يا أصحاب الجُدُود المفروزة ، والأرْدِية المطروزة ، والدور المنجَّدة ، والقصور المشيدة ، إنكم لن تأمنوا حادثًا ، ولن تعدموا وارثًا ، فبادِرُوا الخيرَ ما أمكن ، وأحسنوا مع الدهر ما أحسنَ ، فقد والله طَعِمْنَا السِّكْبَاج[4] ، وركبنا الهِملاج[5] ، ولبسْنا الديباج ، وافترشنا الحشايا بالعشايا ، فما راعنا إلا هبوبُ الدهر بغَدْرِه ، وانقلاب المِجنّ لظهره ، فعاد الهِمْلاج قَطوفا[6] ، وانقلب الديباج صُوفا ، وهلمّ جرا ، إلى ما تشاهدون من حالى وزِيّى ؛ فها نحن نرضع من الدهر ثَدْىَ عقيم ، ونركب من الفقر ظهر بَهيم ، ولا نَرْنُو إلا بعين اليتيم ، ولا نمد إلا يد العديم ، فهل من كريم يجلو عنا غياهب هذه البؤوس ، ويفلُّ شَبا هذه النحُوس؟ . ثم قعد مرتفقًا ، وقال للطفل : أنت وشأنك . فقال : وما عسى أن أقول ، وهذا الكلامُ لو لقى الشعر لحلقه ، أو الصخر لفلقَه ، وإنّ قلبًا لم يُنْضِجْه ما قلت لَنِىءٌ ! قد سمعتم يا قوم ، مالم تسمعوا قبل اليوم ، فليشغل كلّ منكم بالجود يدَه ، وليذكر غَدَه ، وَاقيًا بى ولدَه ، واذكرونى أذكركم ، وأعطونى أشكركم !

قال عيسى بن هشام : فما آنَسنى فى وَحْدتى إلا خاتم ختّمت به خنصره ، فلما تناوله أنشأ يقول :

وَمُمنطَقٍ من نفسِهِ   بقلادةِ الجوزاء حُسْنا

(١) المراد المقامات التى وضعها البديع على لسان أبى الفتح الإسكندرى (م)

(٢) طمرين : مثنى طمر — بالكسر — وهو الثوب الخلق البالى الرث (م)

(٣) القشرة : الجلدة (م) (٤) السكباج : ضرب من الطعام ، لحم بخل (م)

(٥) الهملاج : الفرس السريع (م) (٦) القطوف : البطىء السير (م)

كتَـــيِّمٍ لَقِىَ الحبيـــب فضمّهُ شغفاً وحزنَا
متألّقٍ من غير أُسْـــرَتِهِ على الأيام خِـــدْنَا
عِلْقٍ نَـــفِيسٌ قَدْرُهُ لـكنّ مَنْ أهداهُ أسْنَى
أقسمت لو كان الوَرَى فى المَجْدِ لفظاً كنتَ معْنَى

قال عيسى بن هشام : فتبعته حتى سفَرَت الخلوَة عن وجهه ، فإذا والله شيخنا الإسكندرى ، و إذا الصبىّ غلامٌ له ، فقلت :

أبا الفتح شِبْتَ وشبّ الغلام فأين الكلامُ ، وأين السلام؟[1]

فقال :

غـريباً إذا جمعتنا الطريق أليفاً إذا نظمتنا الخيـــام

فعلمت أنه كره لقائى، فتركته وانصرفتُ.

[وصف فص وخاتم]

لأبى الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يصف فصاً :

ماجِلْ بفصّك مَنْ أرَدْتَ وباهِهِ فـكفى به كَـــداً لقلب الحاسِدِ
متألّق فيه الفِـــرِنْد كأنهُ وجهى غداة ندًى وضَيْفٍ قاصِدِ
لو أنّ ظَمْآى منه عُلّت لارْتَوَتْ من ماء جوهرهِ المَعِـينِ البارِدِ[2]
بَهَرَ العيونَ إضَـــاءةً فى رِقّةٍ فـكأننى متختّم بُمطَـــارِدِ

لبعض المحدثين

وقال بعضُ المحدّثين يصف خاتماً :

ووحِيدُ الـكيان صِيغَ بديعاً فإذا تمّ صِيغَ من جوهَرَيْنِ
خِلَعَتْ خَجْـــلَةُ الخدودِ عليهِ خِلَعاً قد لبسن فوق اللُّجَـــيْنِ

---

(١) فى نسخة «شبت وشاب الغلام» (م)
(٢) علت : أصله شربت بعد شرب ، والمراد هنا شربت مطلقا (م)

فإذا ما رأيتَــــه فى بنــــانٍ ... قد كساها من حُسْنِه حُلّتين

قلت نجمٌ هوَى من الجوِّ حتى ... صار مجرى بُروجه فى اليَدَيْنِ

للبحترى

وقال البحترى يستَهْدِى المعتز فصًّا :

فهل أنت يابنَ الراشدين مختّمى ... بياقوتةٍ تبهَى علىَّ وتُشْرِقُ

يغار احمرار الوَرْدِ من حُسْنِ صبغها ... ويحكيه جادِىُّ الرحيقِ المعتّقُ

إذا برزَتْ والشمس قلت تجارَيا ... إلى أمَدٍ أو كادت الشمسُ تسبقُ

إذا التهبتْ فى اللَّحْظِ ضاهَى ضياؤها ... جبينَك عند الجودِ إذْ يتألَّقُ (١)

أُسَرْبَلُ منها ثوبَ فخرٍ معجّلٍ ... فيبقى بها ذِكرٌ على الدهر محلقُ

لأبى الفتح كشاجم

وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم :

عرَضْنَ فعرَّضْنَ القلوبَ مِنَ الهوى ... لأشْرَعَ من كَىِّ القلوب على الجمْرِ

كأنَّ الشفاه اللُّعْسَ منها خواتِمٌ ... من التِّبْر مختومٌ بهنَّ على الدُّرِّ (٢)

وقال الناظم :

يَروعُ مُنَاجيه بهـارُوتِ لحظِهِ ... ويُؤْنِسُه منــــه بصُورةِ آدمِ

ترى فيه لاماً فردةً فوق وَرْدَةٍ ... وفصًّا من الياقوت من فوق خاتمِ

[مفاضلة بين الكلام والصمت]

وقال أبو تمام الطائى : تذاكَرْنَا فى مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلامَ وفضله ، والصمتَ ونُبله ، فقال : ليس النَّجْمُ كالقمر؛ إنك إنما تمدحُ السكوتَ بالكلام ، ولا تمدحُ الكلامَ بالسكوت ، وما أنبأ عن شىء فهو أكبرُ منه .

قال الجاحظ : كيف يكونُ الصمتُ أنفعَ من الكلام ، ونفعُه لا يكادُ يجاوزُ

(١) ضاهى : أشبه ، ويتألق : يضىء (م) .

(٢) اللعس : جمع لعساء ، وهى التى فيها خيط أحمر ،وهو مما يتمدح به (م) .

صاحبَه ، ونَفْعُ الكلام يعمّ ويخصّ ، والرواةُ لم تَرْوِ سكوتَ الصامتين ، كما روت كلام الناطقين ؛ فبالكلام أرسل اللهُ تعالى أنبياءه لا بالصَّمْتِ ، ومواضعُ الصَّمْتِ المحمودةُ قليلة ، ومواطنُ الكلام المحمودةُ كثيرةٌ ، وبطول الصَّمْت يَفْسُد البيان . وكان يقال : محادثةُ الرجال تلقيحٌ لألبابها .

وذُكِر الصمتُ في مجلس سليمان بن عبدالملك فقال : إنّ مَنْ تكلّم فأحسن قَدَر أنْ يسكتَ فيُحْسِن ، وليس مَنْ سكت فأحسن يتكلّمُ فيُحْسِن .

قال بعضُ النساك : أسكتتني كلمةُ ابن مسعود عشرين سنةً ؛ وهي : من كان كلامُه لا يوافِق فعله فإنما يوبّخ نفْسَه .

[الحنين إلى الأوطان]

قال أبو عَمْرو بن العلاء : مما يدلُّ على حرية الرجل وكرم غريزته حنينُه إلى أوطانه ، وتشوّقه إلى متقدم إخوانِه ، وبكاؤه على ما مضى من زَمَانِه .

وقالوا : الكريم يحنُّ إلى جنابه ، كما يحنُّ الأسدُ إلى غابه .

وقالوا : يشتاق اللبيبُ إلى وطنه ، كما يشتاق النجيب إلى عَطَنه[1] .

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن

بلد لا تُؤْثِر عليه بلداً ، ولا تَصْبِر عنه أبداً . هو عشُّ الذي فيه دَرجَ ، ومنه خرجَ . مجمع أُسرته ، ومقطع سُرَّتِه . بلد أنشأته تربتُه ، وغذّاه هواؤه ، وربّاه نسيمُه ، وحُلَّتْ عنه التمائمُ فيه .

قالوا : وكان الناسُ يتشوّقون إلى أوطانهم ، ولا يفهمون العِلّةَ في ذلك ، حتى أوضحها على بن العباس الرّومى في قصيدةٍ لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستَعدِيه على رجل من التُّجّار ، يعرف بابن أبي كامل ، أجبره على بَيْع داره واغتصبه بعض جُدرها ، بقوله :

---

(١) النجيب : هنا الجمل الأصيل ، والعطن ـ بفتح العين والطاء جميعا ـ مبرك الإبل . أى مكان بروكها (م)

لابن الرومى في تعليل الحنين إلى الوطن

ولِى وطنٌ آليتُ ألاّ أبيعهُ … وألاّ أرى غيرى له الدهرَ مالِكا
عهدتُ به شَرْخَ الشباب ونعمةً … كنعمة قومٍ أصبحوا فى ظلالكا
وحبّب أوطانَ الرجال إليهمُ … مآربُ قضّاها الشبابُ هُنالكا
إذا ذكروا أوطانَهم ذكّرتْهمُ … عهودَ الصِّبا فيها فحنّوا لذلكا
فقد ألِفته النفسُ حتى كأنهُ … لها جَسَدٌ إن بانَ غُودِرَ هالكا

يقول له فيها :

وقد عزّنى فيها لئيمٌ وسامَنى … فقال لىَ اجهَدْ فىَّ جهدَ احتيالكا[1]
وما هُو إلا نسجُك الشِّعر ضلّة … وما الشعرُ إلاّ ضلة من ضلالكا
بصيرٌ بِمَسْأَل الملوك ، ولم يكن … بعارٍ على الأحرار مثلُ سؤالكا
وإنى وإنْ أضْحَى مُدِلاًّ بمالِه … لآملُ أن أضْحى مُدِلاًّ بمالكا
فإن لم تُصبْني من يمينك نِعمَةٌ … فلا تُخْطئنَّهُ نقمةٌ من شِمالكا
فكم لقى العافون بَدْءًا وعودَةً … نوالَكَ والعادون مِن نكالكا

وقال على بن عبد الكريم النصيبى : أتانى أبو الحسن بن الرومى بقصيدته هذه ، وقال : أنصِفْنى ، وقل الحق : أيهما أحسن قولِى فى الوطن أو قول الأعرابى :

أحَبُّ بلادِ الله ما بين مَنْعِجٍ … إلىّ وسلمى أن يَصُوبَ سحابُها
بلادٌ بها نيطَتْ علَىَّ تمائمى … وأوّل أرضٍ مسّ جِلْدِى تُرابُها[2]

فقلت : بل قولك ؛ لأنه ذكر الوطنَ ومحبّته ، وأنت ذكرتَ العلة التى أوجبتْ ذلك .

وله يشتاق إلى بغداد

وقال ابنُ الرومى أيضاً يتشوّق إلى بغداد ، وقد طال مقامه بسُرَّ من رأى :

بلدٌ صحِبْتُ به الشبيبة والصبا … ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثّل فى الضمير رأيتَه … وعليه أغصانُ الشبابِ تميدُ[3]

(١) عزنى: غلبنى (م) (٢) نيطت : علقت ، والتمائم : جمع تميمة ، وهى المعاذة تعلق على الصبى تمنع عنه العين فى زعمهم (م) (٣) تميد : تتحرك وتمايل .

وقال أبو العباس : ولما احتفل القائل فى هذا المعنى السابق إليه قال :

* بلادٌ بها حَلّ الشبابُ تمائمى *

وقد تقدّم . وإذا كانت تمائمه قطعت بأبرق العَزّافَ ، وكان الترابُ الذى مَسّ جلدَه ترابَ جزيرة سيراف، وجب أن يحنّ إليه حنينَ المتأسفين على غُوطَةِ دمشق ، وقصور مدينة السلام ، ونجف الجزيرة ، ومستشرفِ الخورنق ، وجوْسق سرّ مَنْ رأى، لمَّا بعد عنها ، وطال مقامه بغيرها ، كلاّ ، ولكن هذا الرجل علم أن الحنينَ إلى الأوطانِ لما تُذَكِّر من معاهد اللّهو فيها ، بحدّة الشباب الذى ذكر أنّ غول سَكْرَته ، يغطى على مقدار فضيلته ، فى قوله:

لا تلْحَ مَنْ يبْكى شبيبتَه ... إلاّ إذا لم يَبْكِها بدَمِ

عَيْبُ الشبيبةِ غولُ سَكْرَتها ... ومِقْدَار مافيها من النِّعَم

لَسْنَا نراها حقّ رؤيتها ... إلاّ أوان الشيبِ والهَرَمِ

كالشمس لا تبدو فضيلتُها ... حتى تُغَشّى الأرضُ بالظُّلَمِ

ولَرُبَّ شىء لا يَبَيِّنه ... وجدانه إلاّ مع العَدَمِ

أخذها هذا من قول الطائى :

راحَتْ وفودُ الأرضِ عَنْ قبره ... فارِغَةَ الأيدى مِلاء القلوبْ

قد علمت مارُزِئتْ ، إنما ... يعرفُ فَقْدُ الشمس بعد الغروبْ

لبشار بن برد فى حب الوطن

وأخذ ابنُ الرومى قولَه فى صفة الوطن من قول بشّار :

متى تعرف الدارَ التى بَانَ أهلها ... بسعدى فإن العهدَ منك قريبُ

تذكّرك الأهواء إذْ أنتَ يافعٌ ... لديها فَمغْنَاهَا لديك حَبيبُ(١)

لبعض الأعراب

أو من قول بعض الأعراب :

ذكرت بلادى فاستهلّت مَدَامِعى ... بشوقى إلى عَهْدِ الصبا المتقادمِ(٢)

---

(١) يافع : أراد صغير السن ، ومغناها : موطن الإقامة منها (م)

(٢) استهلت مدامعى : انهمرت ،وهطلت، وسالت (م)

حَنَنْتُ إلى أرضٍ بها اخضرّ شاربي ... وقُطِّع عنى قَبل عقد التمائم

وأنشد ثعلب لرجاء بن هرون العكى :

لرجاء ابن هارون العكى

أحِنُّ إلى وادِى الأراكِ صبابةً ... لعَهْدِ الصِّبا فيه ومذ كان أول

كأنَّ نسيمَ الريحِ فى جَنَباتِهِ ... نسيمُ حبيب أو لقاء مؤمَّل

قال أبو بكر الصولى : ولست أشكُّ أنه من قول رجاء أخذ ، وبه ألمّ ، وعليه عوّل ؛ لأنه فى تناولهِ المعنى غريبُ الأخذ ، عائرِ السّهم (١) ، لا يعارض معنى معروفا إذا أنشد علم الناسُ أنه معْدِنه الذى انتحته منه .

وقد اختُلس معنى قول ابن الرومى :

فقد ألفته النفسُ حتى كأنه ... لها جسدٌ إن بانَ غُودِرَ هالِكا

أخذه على بن محمد الإيادى وقال فأحسن الأخْذَ ولطف فى السرقة :

للإيادى

بالجزع فالخَبْتَيْنِ أشلاءُ دارْ ... ذات ليال قد تولّتْ قصارْ

بانوا ففاتت أسفا بعدهم ... وإنما الناسُ نفوسُ الديارْ

وقال أعرابى :

لأعرابى

أيا حبذا نجدٌ وطِيب ترابه ... تصافِحُهُ أيدِى الرياحِ الغرائب

وعهدُ صباً فيهِ ينازعُكَ الهوى ... بذلك أترابٌ عِذَابُ المشاربِ

تنالُ المُنَى منهنّ فى كل مطلب ... عِذَابُ الثنايا واردات الذوائب (٢)

وقال ابن ميّادة يخاطبُ الوليدَ بن يزيد .

لابن ميادة

ألاَ ليتَ شعرى هل أبيتنّ ليلةً ... بحرّة ليلى حيث ربّتَنِى أهلى

بلادٌ بها نيطَتْ علىّ تمائمى ... وقُطِّعْنَ عنى حين أدرَكَنِى عقلى

فإن كنتَ عن تلك المواطنِ مانعى ... فأفْشِ علىّ الرزقَ واجمَعْ إذاً شملى

وقال سوار بن الضرير (٣) ، ورويت لمالك بن الريب :

(١) السهم العائر : الذى لا يعرف راميه (م) .
(٢) الذوائب : جمع ذؤابة ، وأراد الشعر ، وورود: استرساله (م) .
(٣) فى نسخة «سوار بن المضرب» (م) .

سقى اللهُ اليمامة من بلادٍ نوافحُها كأرْوَاحِ الغوانى(١)
وجوًّا زاهِراً للريح فيــه نَسيمٌ لا يَرُوعُ الترْبَ وَانِى
به سُقْتُ الشباب إلى زمانٍ يقبح عنـدنا حسنَ الزمانِ

لأعرابى

وقال أعرابى :

أقول لصاحبى والعيسُ تَخْدِى بنا بَيْنَ المُنيفة فالضِّمار(٢)
تمتَّعْ مِنْ شَمِيـــمِ عَرارِ نجْدٍ فما بَعْدَ العشيَّةِ مِنْ عرارِ
ألا يا حبَّذا نفحات نَجْدٍ وريًّا رَوْضِه غِبَّ القِطار(٣)
[وأهلك إذ يحلّ القوم نجـدا وأنت على زمانِك غـيرُ زَارِ]
شهور يَنْقَضِينَ وما شَـــعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرَارِ

وهذا البيت كقول الآخر :

سقَى اللهُ أياماً لنـا قد تتابعتْ وَسَقْياً لعَصْرِ العامريةِ من عَصْرِ
ليالىَ أعطَيتُ البَطالَةَ مِقْوَدِى تمرُّ الليالى والشهورُ ولاَ أدْرِى

ابن الرومى يهجو سليمان ابن عبد الله ابن طاهر

وتخلَّفَ سليمان عن نصرة ابن الرومى ؛ فذاك الذى هاجـه على هجائه ، فمن ذلك قوله ، وقد خرج فى بعض الوجوه فرجع مهزوماً :

جاء سليمان بنى طاهرٍ فاجتاح معتزَّ بنى المعتَصِمْ
كأن بغداد وقد أبصرتْ طلعته نائحةٌ تلتَـدِمْ(٤)
مستقبل منـه وَمستدبر وجه بخيـلٍ وقفاً منهزِمْ

وقال :

قِرْن سليمان قد أضرَّ بِهِ شـوقٌ إلى وجْهِه سيتلفهُ

(١) فى نسخة «نوافحها كأرواح الغوانى» والأرواح : جمع ريح (م)
(٢) العيس : الإبل ، وتخدى : تسرع فى سيرها ، والمنيفة : ماء لتميم (م)
(٣) غب القطار : بعد المطر (م) (٤) تلتدم : تلطم وجهها (م)

كم يَعِدُ القِرْنَ باللقاءِ وكمْ | يكذبُ فى وَعْدِه ويخلفهُ
لايعرف القِرْنُ وجْهَه ويرى | قَفَاه من فَرْسَخٍ فيعرفهُ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض الخوارج ، وقد قال له أبو جعفر المنصور : أخْبِرْنى أى أصحابى كان أشدّ إقداماً فى مُبَارزتك ، فقال : ما أعرفُ وجوههم ، ولكننى أعرفُ أقفاءهم ، فقل لهم يدبروا أعرِّفك .

وفى هذه المنازعة يقول ابن الرّومى لمواليه بنى هاشم وكان ولاؤه لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور :

تَخِذْتُكم دِرْعاً علىّ لتَدْفَعُوا | نِبَالَ العِدى عنى فكنتم نِصَالَهَا
وقد كنتُ أرجومنكم خَيْرَ ناصِر | على حين خِذْلاَن اليمين شِمالها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودّتى | ذِماماً فكونوا لا عليها وَلاَ لَهَا
قِفُوا موقفَ المعذور عنى بمعزل | وخَلُّوا نِبَالى والعِدَا ونبالها

ألفاظ لأهل العصر ، فى وصف الأمكنة والأزمنة

بلدة كأنها صورةُ جنّة الخلد ، منقوشة فى عَرَضِ الأرض . بلدةٌ كأن محاسنَ الدنيا مجموعةٌ فيها ، ومحصورة فى نواحيها . بلدةٌ كأن ترابَها عنبرٌ ، وحَصْباءها عقيق[1] ، وهواءها نسيم ، وماءها رَحِيق . بلدةٌ معشوقة السُّكْنَى ، رَحْبَةُ المَثْوَى[2] ، كوكبُها يقظان ، وجَوّها عُريان ، وحَصَاها جَوْهر ، ونسيمُها مُعَطّر ، وترابها مِسْك أذفر ، ويومها غداةٌ ، وليلها سَحر ، وطعامها هنىٌّ ، وشرابها مَرِىّ . بلدة واسعةُ الرقعة ، طيبة البقعة ، كأنّ محاسن الدنيا عليها مفروشة ، وصورة الجنة فيها منقوشة ، واسطة البلاد وسرّتها ، ووجهها وغرّتها .

---

(١) الحصباء : صغار الحصى (م)
(٢) المثوى : مكان الإقامة ، ورحبته : أى واسعه (م)

ولهم فى ضد ذلك

بلد مُتَضايِقُ الحدود والأفنية ، متراكب المنازلِ والأبنية . بلد حرُّها مؤذٍ ، وماؤها غير مغذ . بلدة وَسِخة السماء ، رَمِدة الهواء ، جوّها غبار ، [وأرضها خَبَارٌ[1]] ، وماؤُها طِين ، وترابُها سِرْجين[2] وحيطانها نَزُوز ، وتشرينها تموز[3] ، فكم فى شمسها من محترق ، وفى ظلها من غَرِق . بلدة ضيقة الديار ، سيئة الجوار ، حيطانها أخصاص ، و بيوتها أقفاص ، وحُشُوشها مسايل ، وطرقها مَزَابل .

ولهم فى صفات الحصون والقلاع

حصن كأنه على مَرْقَب النجم ، يحسر دونه الناظر ، و يقصر عنه العُقابُ الكاسِرُ ، يكادُ مَنْ علاه يغرق فى حوض الغمام . حصن انتطق بالجوزاء ، وناجَتْ أبراجه بُرُوجَ السماء . قلعة حلَّقت بالجو تُناجِى السماء بأسرارها . قلعة بَعُدَ فى السماء مُرْتَقَاها ، حتى تساوى ثَرَاها مع ثُرَيّاها . قلعة تتوشّح بالغيوم ، وتتحلّى بالنجوم . قلعة عالية على المرتقى ، صمّاء عن الرقى ، قد جاوزت الجوزاء سَمْتا ، وعزات السماك الأعزل سَمْكا ، هى متناهية فى الحصانة ، موثوقة بالوثاقة ، ممتنعة على الطلب والطالب ، منصوبةٌ على أضيق المسالك وأوعر المناصب ، لم تزدها الأيامُ إلا نُبُوَّ أعطاف ، واستصعاب جوانب وأطراف ، قد ملّ الوُلاةُ حِصَارها ، ففارقوها عن طموح منها وشِمَاس ، وسئمت الجيوشُ ظلَّها ، ففادَرَتْها بعد قنوطٍ ويأسٍ ، فهى حِمًى لا يُرَاغ[4] ، ومَعْقِل لا يُستطاع ، كأنّ الأيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث والليالى عاهدتْها على التسليم من القوارع . قلعة تَحْوِى من الرِّفْعَةِ قَدْراً لا تستهان مواقمه ، وتلوى فى المنعة جيدا لا تستلان أخادِعه ، ليس للوَهم قبل القدوم إليها مَسْرَى ، ولا للفِكْرِ قبل الخَطْو نحوها مَجْرَى .

---

(١) الخبار — بفتح الخاء المعجمة ، بزنة السحاب — اللين المسترخى من الأرضين (م)

(٢) أراد أن ترابها نجس ؛ لأن السرجين عذرة البهائم (م)

(٣) تشرين وتموز : من أسماء الشهور الرومية ، وتشرين فى الشتاء ، وتموز فى الصيف ، يريد أنها شديدة الحر (م)

(٤) لا يراغ : لا يطلب لأنه لا سبيل إليه (م)

ولهم فى صفات القصور والدور

قصر كأن شُرُفَاته بين النَّسْر والعَيُّوق[١]، كأنه يُسَامِى الفرقد، وقد اكتست له الشِّعرى العَبور ثوبَ الغيور . قصر طال مَبْنَاه ، وطاب مَغْناه ، كأنه فى الحَصَانة جبلٌ مَنِيع ، وفى الحسن رَبِيع مَرِيع . شُرُفَات كالعذارى شَدَدْن مناطقها ، وتوّجن بالأكاليل مَفَارِقَهَا . قَصْرٌ أقرّت له القصورُ بالقُصور[٢]، كأنه سَحَاب فى بحر السماء . دار قَوْرَاء تُوسِع العينَ قُرة ، والنفس مسرّة . كأنّ بانيها استسلف الجنة فعُجِّلت له . دار تخجل منها الدور ، وتتقاصرُ عنها القصور ؛ إن مات صاحبُها مغفوراً له فقد انتقل مِن جنة إلى جنة . دار قد اقترن اليُمْن بيمناها ، واليُسْر بيُسْراهـا ، الجسومُ منها فى حَضَر ، والعيون على سَفَر . دار هى [دائرة الميامن ، و] دَارَة المحاسن . دارٌ دارَ بالسعد نجمُها ، وفاز بالحسن سَهْمها . دار يخدمها الدهر ، ويأويها البَدْرُ، ويكنفها النَّصر ، هى مَرْتَع النواظر ، ومتنفَّس الخواطر . دارٌ قد أخذت أدواتِ الجِنَان ، وضحكت عن العَبْقَرِىّ الحِسَان .

[من رسائل الميكالى وشعره]

فصل لأبى الفضل الميكالى إلى بعض إخوانه :

ما ابتدأتُ بمخاطبة سـيّدى حتى سرَتِ المسرّةُ فى نفسى ، وقويَتْ أركانُ بَهْجَتى وأُنسِى ، وحتى أقبلَتْ وجوهُ الميامن تتهلَّل إلىّ ، وبدَرُ المساعِد تنثالُ علىّ[٣]، وكيف [لا يملكنى الجذَل والفرح ، وكيف] لا يهزُّنى النشاطُ والمَرَح ، وقد زففتُ وُدِّى إلى كُفْء كريم ، وعرضته لحظٍّ من الجمال جسيم ، وأرجو أن يرِدَ منه على حُسْنِ قبولٍ وإقبال ، ويَحْظَى من ارتياحه له بمَزِدِ

---

(١) النسر والعيون والشعرى : أسماء نجوم فى السماء (م)
(٢) القصور الأول : جمع قصر ، والثانى بمعنى التقصير (م)
(٣) تنثال على: تتوالى وتكثر (م)

أشتمال ، ويُصادف من اهتزازه و إنشائه ، وعمارته و إنمائه ، وتحصين أطرافه من شوائب الخلل ، وشوائن الوَهن والميل ، وماتستحكم به مرائر الوصال ، وتؤمن على قُواها عوادى الانتقاض والانحلال .

وله : إذا لم يؤتَ المرء فى شكر المنعم إلا من عِظَم قَدْرِ الإنعام والاصطناع، واستغراقه منه قُوَى الاستقلال والاضطلاع ، فليس عليه فى القصور عن كُنْهِ واجبه عَتْب ، ولا يلحقه فيه نقيصةٌ ولا عَيْبٌ . ولئن ظهر عَجْزِى عن حق هذه النعمة فإنى أحيل بحسن الثناء على من لا يُعْجزه حمله ، ولا يؤوده ثقله ، ولا يزكو الشكرُ إلا لديْه ، ولا تُصْرَفُ الرغبَةُ إلا إليه ، والله يُبقِيه لمجدٍ يقيم أعلامَه ، وفَضْلٍ يَقْضِى ذِمَامَه ، وعُرْفٍ يَبثّ أقسامه ، وولىّ يوالى إكرامه ، وعدوّ يُديمُ قمعه و إرْغامَه

وله : ولو وفيت هذه النعمة الجسيمة حقَّها لمشيت إلى حضرته — آنسها الله تعالى — حَبْوًا [لا] (1) على القَدم ، ولآثرْت فيه خدمة اللسان على خِدْمة القلم ، ولما رضيت له بباعى القصير ، وعبارتى الموسومة بالعجز والقصور ، حتى أستعير فيه ألسِنةً تحملُ شكرا وثناء ، وتوسِع نَشراً (2) ودعاء ، ثم لا أكونُ بلغتُ مبلغاً كافيا ، ولا أبليت عُذْراً شافياً ؛ إلا أنّ عدم الإذن ثبطّنى (3) عن مقصودِ الغرض ، وعاقنى عن الواجب المفترض ؛ فأقمتُ عاكفاً على دعاء أرفَعُهُ إلى اللهِ عزّ وجل مبتَهلا، وأواصله مجتهداً فى ليلى ونهارى محتفلا .

وله : أحقّ النعمة بالزيادة نعمة لم تزل العيون إليها مستشرفة (4)، والقلوب إليها متشوّفة ، والأيام بها وَاعِدة ، والأقدار فيها مساعدة ، حتى استقرّت فى نِصَابها ، وألقتْ عِصِىّ اغترابها ، فهى للنماء والزيادة مترشحة ، وبالعزّ والسعادة متوشحة ، وبالأدعية الصالحة مستدامة مرتَهنة ، وباتفاق الكلمةِ والأهواء عليها مرتبطة محصّنة .

---

(1) «لا» هذه ليست فى الأصول ، ولكن المعنى يتطلبها ألبتة (م) .

(2) النشر ، هنا : الإذاعة بين الناس (م) .

(3) ثبطنى : أقعدنى (م) . (4) مستشرفة ، وكذلك متشوفة : متطلعة (م) .

وله فصل من كتاب تعزية بالأمير ناصر الدين :

أقدارُ الله تعالى فى خلقِهِ لم تَزَلْ تختلفُ بين مكروه ومحبوب ، وتتصرَّفُ بين مَوْهوب ومسلوب، غاديَةً أحكامُها مَرَّةً بالمصائب والنوائب ، رائحة أقسامها تارةً بالعطايا والرغائب ، ولكن أحسنَها فى العيونِ أثراً ، وأطيبَها فى الأسماع خبرًا ، وأحْرَاها بأن تَكسِبَ القلوبَ عزاء وتصبُّرا ، ما إذا انطوَى نُشِر ، وإذا انكسر جُبِر ، وإذا أخذ بيد ردَّ بأخرى، وإذا وهب بيمنى سلبَ بيسرى، كالمصيبة بفلان التى قرَّحَتِ الأكباد ، وأوهنتِ الأعضاد[1]، وسوَّدت وجوهَ المكارم والمعالى ، وصورت الأيامَ فى صُور الليالى ، وغادرت المجدَ وهو يلبَس حِدَادَه، والعَدْلَ وهو يبكى عِمَادَه ، والدين وهو يندب جهاده ، حتى إذا كاد اليأسُ يغلبُ الرَّجاءَ ، ويردُّ الظنونَ مُظْلِمةَ النواحى والأرجاء ، قيَّضَ الله تعالى من الأمير الجليل مَنِ اجتمعتْ عليهِ الأهواء ، ورضِيَتْ به الدهماء ، فأسَى به حادِثَ الكَلْمِ ، وسدَّ بمكانِهِ عَظِيمَ الثَّلْمِ ، وردَّ الآمال والنفوسَ قد استبدلتْ بالحيرة قوة وانتصارا ، وصارتْ للدولة المباركة أعوانًا وأنصاراً

من شعر الميكالى فى تجنيس القوافى

ومن شعره فى تجنيس القوافى، فى معانٍ مختلفة :

إذا لم تكُنْ لمقالِ النصيح سَمِيعاً ولا عامِلا أنت بهْ
يُنَبِّهْكَ الدهرُ من رَقْدَةِ الْـمَلاهى وإن قُلْت لا أنتَبِهْ

وقال :

تفرَّق الناسُ فى أرزاقهم فِرَقاً فَلاَبِسٌ من ثراء المالِ أوْ عارِى
كذا المعايش فى الدنيا وساكنها مَقْسُومة بين أوعاثٍ وأوْعَارِ

وقال :

حوَى القدُّ عمراً فقلت اعتقِدْ رضاً بالقضاء ولا تحتقِدْ

---

(١) أوهنت : أضعفت ، والأعضاد : جمع عضد ، وهو من اليد ما بين الكتف والذراع ، ويرمز به إلى القوة ، ومنه قولهم « فت فى عضده » ، ويطلق العضد على الناصر والمعين ، مجازا مأخوذا من ذلك (م) .

فإمّا احتقدت قضـــاءَ الإلهْ   فأقبحْ بمحتقد تحت قد

وقال :

تمّت محاسنه فمـا يُزْرِى بهـا   معَ فضلـه ونمـائه وكمالِه
إلا قصـورُ وجودِه عن جُودِه   لاَ عَوْنَ للرجل الـكريم كمَالِه
انصُرْ أخاكَ إذا اجْتَدَاكَ فَوَاسِهِ   وإن اسـتغاثك واثقاً بك مَالِه[1]

وقال أيضاً :

إذا تغدّيْتُ صَدْرَ يومى   ثم تأذّيتُ بالغداءِ
فقلت إذْ مسّنى أذاهُ   أرى غـدائى أراغ دائى

وله فى هذا [الصوغ] :

لنا صـديقٌ يُجيـدُ لَقْماً   راحتُنا فى أذَى قَفاهُ
ماذاق من كسبه ، وَلـكنْ   أذى قَفَاه أذاقَ فَاه

وقال يهجو رجلا :

يريد يوسّـــع فى بَيْتِهِ   ويَأبَى له الضيقُ فى صَدْرِهِ
فتًى سَخِطَ النَّصْبَ فى قِدْرِهِ   كما رَضِىَ الْخَفضَ فى قَدره
يحدّر أوصالَ أضيافهِ   ولا يُبْرِزُ الْخبْزَ من خِدْرِه

وقال فى غير هذا المذهب يصفُ كتابا وَرَد عليه :

له فى وصف كتاب ورده

قد أتانا من صديقٍ كلامٌ   كلآلٍ زانهنّ نظامُ
فسرى فى القلب منى سرورٌ   مطربٌ يعجز عنـه المُدامُ
مثـل ما يرتاح ربٌّ بنات   حـوله من جمعهن زِحَامِ

---

(١) اجتداك : طلب جدواك ، والجدوى : العطاء ، و «ماله» أصله « ما ‌له » فخفف الهمزة بقلبها ياء ثم حذفها كما تحذف لام المنقوص (م) .

فرعى الله طـويلا يُرَجى خلفا من نَسْلِه لا يُخامُ
وأتاه بعـــد يأسٍ بشير قال يا بشراى هـذا غلامُ

له فى وصف الشمع

وقال يصف الشمع :

وليلٍ كلَوْنِ الهَجْر أو ظُلمةِ الحِبْرِ نصَبْنَا لراجيهِ عموداً من التِّبْرِ
يشقّ جلابيبَ الدُّجى فكأنما ترى بين أيدينا عمـوداً من الفَجر
يُحاكِى رُواءَ العاشِـــقينَ بلَوْنِه وذوب حشاه والدّموع التى تجرى
خَلاَ أنْ جارِى الدمع ينحله قوى وعَهْدى بدَمْعِ العينِ ينحلّ إذ يجرى
تبدّى لنـا كالغصن قدًّا وفوقهُ شـعاعٌ كأنّا منه فى ليـلة البَدرِ(١)
تحمّل نورا حَتفُه فيـــه كامِنٌ وفيه حياةُ الانسِ واللّهوِ لو يَدرى
إذا ما عَلَتهُ عِلّةٌ جُزّ رأسه فيختالُ فى ثوبٍ جديدٍ من العمر

وقال :

يارُبّ غُصْنٍ نورهُ يزرِى بنور الشفقِ
يظلُّ طولَ عمـــرهِ يَبْكِى بجفْنٍ أرِقِ
نارُ الحب فى الحشـــا ونارُه فى المفرقِ
لاح لنـــا فى مغربٍ فردّنا فى مَشْرِق

وقال :

وقضيبٍ من بنات النحــــل فى قدّ الكعابِ(٢)
يُشْبه العاشِـــقَ فى لو نِ ودمعٍ ذى أنسكابِ
كسِى الباطن منـــه وهو عريانُ الإهابِ(٣)

---

(١) فى نسخة « كأنا منه فى ليلة القدر » وليلة البدر : هى الليلة الرابعة عشر من ليالى الشهر العربى ، وفيها يكتمل البدر نوره (م) .

(٢) من بنات النحل : يريد أنه من الشمع الذى يؤخذ من النحل (م) .

(٣) وقع البيت فى بعض الأصول «قد كسى - إلخ» وكلمة «قد» فى أوله زائدة عن الوزن ، وتقرأ كلمة « كسى » بالبناء للمجهول فيتم البيت وزنا ومعنى (م) .

فإذا ما أنعم الأبـ ـدان ملبوس الثياب
فهو للشقوة منهـا في بلاء وعذاب

***

لكشاجم في وصف الشمع

وقال كشاجم يصف شمعاً أهداها [إلى بعض الملوك] :

[و] (١) صُفْرٍ من بناتِ النّحل تُكسَى بواطنُها وأظهُرُها عواري
عذارى يُفتضَضْن مِنَ الأعالي إذا افتضت من السُّفل العذارى
وأمست تنتج الأضواء حتّى تلقح في ذوائبها بنارِ
كواكب لسْنَ عنك بآفلاتٍ إذا ما أشرقتْ شمسُ النهارِ
بعثْتُ بها إلى مَلِكٍ كريم شريف الأصل محمود النّجار
فأهديت الضياء بها إلى مَنْ محاسنهُ تُضيء لكل سارِي

وقال :

يَشْقَى الفتى بخلاف كلّ معاندٍ يُؤْذيه حتّى بالقَذَى في مائه
يقذى إذا أصغى الإناء لشُرْبِهِ ويروغ عنه عِنْدَ سَكْبِ إنائهِ (٢)

وقال :

أُطالبُ أيامي بإنجاز مَوْعِدي وها هِيَ تلوى بالوفاء وتجمحُ
أقولُ عساها أن تلينَ لمطلبي قليلا فبعض الشوك بالمنّ يَسمحُ

وقال :

أرى وصَالَكَ لا يَصْفُو لآمِلِهِ والهجرُ يتبعهُ رَكْضاً على الأثرِ
كالقوس أقربُ سهميها إذا عطفت عليه أبعدُها من منزع الوترِ

لابن الرومي يذكر متلونا

أخذ هذا من قول ابن الرومي وذكر رجلا متلوناً :

رأيتك بينا أنتَ خِلٌّ وصاحِب إذا بك قد ولّيتنا ثانيا عِطفَا

---

(١) لابد من هذه الواو ليتم وزن البيت ، وهي ساقطة من بعض النسخ (م) .
(٢) أصغى الإناء : أماله ، وفي نسخة « يهودي إذا ـ إلخ » (م) .

وأنك إذ أخنى حنوّك مُوجِبٌ بعاداً لمن باولته الودّ واللطفا
لكالقوس أحنى ماتكونُ إذا انحنت على السهم أنأى ما تكونُ له قذْفا

وله فى نحو ذلك :

تودّدْت حتى لم أجِدْ متودّداً وأتعبت أقلامى عتـــابا مُرَددا
كأنىَ أســـتدعى لك ابن حَنِيّةٍ إذا النزع أدْناه من الصدر أبْعدا

***

[فى وصف أبى الفضل الميكالى]

وذكر عمر بن على بن محمـد المطوعى أبا الفضل الميكالى فى كتاب ألّفه فى منظومه ومنثوره فقال : قد أصبحتْ حضرتُه ـ لازالتْ أرجَةَ الأرجَاءِ بطيبِ شمائله ، راضية الرضا عن صَوْبِ أنامله ـ مَوْسِمَ الآمالِ ، ومحط الرحال ؛ وعَبَدَه أحرار الـكلام ، كما خدمَتْه أحرارُ الأيام ، وأطاعته المعانى والمعالى ، كما أطاعه صَرْفُ الأيام والليالى ، فهو ـ أدامَ اللهُ تمـكينَه ـ شهابُ المجدِ الذى لا يخبو واقده ، ورَوْض الـكرم الذى لايجدب رائِدُه ؛ إن أردْتَ البلاغةَ فهو مَالكُ عنانها ، وفارسُ ميدانها ، وناظم دُرِّها ومرجانها ، وصائغ لُجَيْنِها وعِقْيَانِها ؛ وإن أردت السماحةَ فهو محلُّها ومكانُها ، وتاريخُها وعنوانُها ، ويدُها ولسانُها ، وحَدَقتُها وإنسانها ، وحديقتها وبُسْتانُها ؛ وإن أردت شرف الأصل والنسب ، والجمعَ بين الموروث [من المجد] والمـكتَسب ، فناهِيك بأوائله شرفاً سابقاً ، وفضـلاً باسقاً ، ومجداً فى فلك الفخر سامقاً [1] ؛ فهم الجحاجِحَةُ الغرّ ، والـكواكب الزُّهر ، ومن بهم يفتخِرُ الفخر ، ويتشرّف الدهر ، زحموا مناكبَ الـكواكب من بُعْد أقدارهم ، وصكّوا فَرْقَ الفرقد وصَدْرَ البَدْرِ بشرف أخطارهم ، فما فيهم إلا قمر فضْلٍ دارَ فى فلك علم ، وهلال مجدٍ لاح فى سماء فَهْم ، توارثُوا المجد كابراً عن كابر ، وباقياً عن غابر ، وسافرت أخبارهم فى البُعْد والقُرْب ، وطارت فى أقاصى

---

(١) سامقا : عاليا شديد العلو (م) .

الشرقِ والغربِ ، وسارَتْ مَسِيرَ الشمس فى كلّ بلد ، وهبّتْ هبوبَ الريح فى البر والبحر ، فهم كما قال أبو عبادة البحترى فى الشاه بن ميكال وأهله فأحسن وأجاد و بلغ ماأراد :

بنى أحْوَذِيٍّ يغمر الطرف مُوفِياً بِسَطْلَتِه والسيفُ وَافِى الحمائلِ (١)
تضيقُ الدروع التُّبَّعيات منهمُ على كل رَحْبِ الباع سَبْطِ الأناملِ
عُراعرقوم يسكنُ الثغرَ إن مَشَوْا على أرضِه والثغرُ جمّ الزلازل (٢)
فكم فيهمُ من مُنْعِمٍ متطوّلٍ بآلائه أو مُشْرِفٍ مُتَطاوِلِ
إذا سُئلوا جادَتْ سيوفُ أكفِّهم [نظائر جماتِ التلاع السوائل
خليقون سَرْواً أن تُلينَ أكفُّهم] عرائك أحداث الزمان الجلائل
وما زال لحظُ الراغبين معلّقا إلى قمرٍ فيهم رفيع المنازلِ

وفيه ، أو فى أبيه ، يقولُ أبو سعيد أحمد بن شبيب :

و إلى الأمير ابن الأمير تواهَقَتْ رَزْحَى الركاب بِرَازِحِي الركّاب (٣)
شِيَمٌ أرقُّ من الهواء بل الهوَى وألذُّ من ظَفَرٍ بعقْبِ ضِرَابِ
وعزائم لو كُنّ يوماً أسْهُماً لنَفَذْنَ فى الأيام غَيْرَ نَوَابِ (٤)
مائية الجرَيَانِ إلا أنها نارِيَّةُ الإقْدَامِ والإلهاب
يخطرن بين سِيَاسَةٍ ورِيَاسَةٍ ويَتِهنَ بين مَثُوبَةٍ وعقَابِ

[ابن أبى دواد بين يَدَىِ الواثق]

قال أبو عبد الله بن حمدون النديم : لقد رأيت الملوك فى مقاصيرها ، ومجامع

---

(١) الأحوذى : الحاذق الخفيف المشمر للأمور الجاد فيها (م) .
(٢) العراعر ـ بضم أوله ـ الشريف ، وجمعه عراعر بفتح أوله (م) .
(٣) تواهقت : تبارت ومدت أعناقها فى سيرها ، والرزحى : الساقطة تعبا وهزالا (م)
(٤) نوابيه : جمع ناب ، وهواسم الفاعل من « نبا السيف والرمح » إذا حاد عن ضريبته (م) .

حفلها ، فما رأيت أغزر أدبا من الواثق ؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول : لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعى ، يريد دعبلا :

خليلىّ ماذا أرتجى من غد امرئ ‌ طوى الكشح عنى اليوم وهو مكينُ
وإنّ امرأً قد ضنّ عنى بمنطق ‌ يسُدُّ به من خلتى لضنينُ

فانبرى احمد بن أبى دُوَاد يسأله كأنما نشطَ من عقال فى رجل من أهل اليمامة فأطنب وأسهب ، وذهب فى القول كل مذهب ؛ فقال الواثق: ياأباعبدالله لقد أكثرتَ فى غير كبير ، ولا طيّب ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إنه صديقى :

وأهونُ ما يُعطى الصديقُ صديقَهُ ‌ من الهيّن الموجودِ أن يتكلَّما

فقال : وما قدر اليمامى أن يكون صديقك ، وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك ؟ . قال : يا أمير المؤمنين ، إنه شهرنى بالاستشفاع إليك ، وجعلنى بمرأى ومسمع من الردّ والإسعاف ، فإذا لم أقم له هذا المقام أكون كما قال أميرُ المؤمنين آنفا :

خليلىّ ماذا أرتجى من غِنَى امرئٍ ‌ طوى الكشحَ عنى اليوم وَهْوَ مكينُ

فقال الواثق : بالله يامحمدُ بنَ عبد الملك إلاّ عجّلتَ لأبى عبد الله حاجتَهُ ، ليسلم من هُجْنة المَطْل ، كما سلم من هجنة الرد .

[من صفة ابن أبى دُواد ، وأخباره]

وكان ابن أبى دُواد من أحسن الناس تأتّيا ، وكان يقول : ربما أردت أن أسألَ أميرَ المؤمنين الحاجةَ بحضرَة ابن الزيات فأؤخّر ذلك إلى وقت مغيبه ؛ لئلا يتعلّم حُسنَ التلطُّف منى ! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك عداوة عظيمة وأمر الواثقُ أصحابَه أن ينهضوا قياما لأبى جعفر إذا دخل ، ولم يرخّص فى ذلك لأحد ، فاشتدّ الأمرُ على ابن أبى دُواد ، ولم يجد لخلاف الواثق سبيلا . فوكّلَ بعض غلمانه بمراقبة موافاته ، فإذا أقبل أخبره فنهض يركع ، فقال ابن الزيات :

صلّى الضُّحَى لما استفادَ عَداوَتِي ... وأراه يَنْسُكُ بعدَها ويَصُومُ
لا تعدمنّ عداوةً موسومةً ... تركَتْك تقعُدُ بعدها وتقومُ

وقال الواثق يوما لابن أبي دُواد تضجرًا بكثرة حوائجه : قد أخلَيْتَ بيوتَ الأموال بطلباتك للآئذين بك ، والمتوسّلين إليك . فقال : يا أمير المؤمنين ، نتائج شكرها متّصلة بك ، وذخائرُها موصولة لك ، ومالى من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلودِ المدح ، فقال : والله لا مَنَعْناكَ ما يزيدُ في عشقك ، ويقوّى فى همتك فينا ولنا ؛ وأمر فأُخرج له خمسة وثلاثون ألف درهم .

[بين أبي العيناء وابن أبي دواد]

قال أبو العيناء : [قلت] لابن أبي دُواد : إنّ قوما من أهل البصرة قدموا الى سُرّ من رأى يداً علىّ ، فقال : يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم . فقلت: إنّ لهم مَكْراً، فقال : ولا يحيقُ المكرُ السّيِّئُ إلاّ بأهله ، فقلت : إنّهم كثير . قال : كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله مع الصابرين ، فقلت : لله درُّ القاضي فهو كما قالت الصَّمُوتُ الكلابية :

لله درك أى جُنّةِ خائفٍ ... ومتاع دُنْيَا أنت للحدثانِ
متخمِّط يَطَأُ الرجالَ شهامةً ... وَطْءَ الفنيق مدارج القِرْدَانِ[1]
ويكبّهم حتى تظلَّ رُءوسُهم ... مأمومةً تنحطُّ للغربانِ
ويفرجُ البابَ الشديدَ رِتاجُهُ ... حتى يصيرَ كأنه بابانِ

وكانت هذه المجاوبة بين أبي العيناء و بين أبي العلاء المنقرى ، وكان قد استجاش عليه قوماً من أهل البصرة .

---

(١) المتخمط : المتكبر ، والفنيق : الفحل من الإبل المكرم عند أهله ، والقردان : جمع قراد ، مثل غراب وغربان ، يريد أنه يذل الرجال ويقهرهم ولا يأبه لهم (م) .

قطعة من شعر الأعراب فى الغزل

ابن ميادة :

ألا ليت شِعْرى هل يَحُلَّنَّ أهلنا ... وأهلك روضاتٍ ببطن اللّوَى خُضْرا

وهـل تأتينّ الريحُ تدرج مَوْهِناً ... بريَّاكِ تعـرورى بنـا بلداً قَفْراً

بريح خُزامى الرمـل بات مُعانقا ... فروع الأقاحى تنضب الطلّ والقَطْرا

ألا لَيْتَنى ألقاكِ يا أمّ جَحْـدَرٍ ... قريباً ، فأمّا الصبرُ عنك فلا صَبْرا

وقال :

وما رَوْضَةٌ باتَ الربيعُ يَجودُها ... على ما بهـا من حَنْوةٍ وعَرارِ (1)

بأطيبَ من ريح القرنفل مَوهناً ... بما الْتفَّ من دِرْعٍ لها وخمارِ

وقال آخر :

تجالِسُنَا بنتُ الدّلالِ تعلّقت ... عراه بحبّاتِ القلوبِ الهوائمِ

وبيّن ما تخفى من الوَجْد ردّها ... غريق الأناسى فى الدّموع السّواجِمِ

جرَى الدمعُ مَجْرَى مائهِ فكَفَفْنَهُ ... بعُنّابِ أطرافِ الأكفّ النواعمِ

وردّ التحيات الهوَى من عيونها ... بيَقْظَانِ طَرْفٍ فى مَخيلة نائمِ

وقال العلاء بن موسى الجهنى :

ولمـا رأتنى مخطراً شَوْكةَ العِدَى ... رَدَى النفسِ مُجتَابا إلى غير مَوْعدِ

جلَتْ داجِىَ الظلماءِ منها بسُـنَّةٍ ... ونحرٍ مَشُـوبٍ لونُهُ بالزبرجدِ (2)

---

(١) يجودها : يمطرها ، والحنوة : الريحانة ، والعرار — بفتح العين — ورد أصفر ذو رائحة طيبة .

(٢) داجى الظلماء : أراد سواد الليل ، والسنة — بضم السين — الجبين ، جعلها بيضاء الجبين مشرقته حتى أنارت له فى الظلام (م).

وبالشَّذْر مشبُوكا كأن التهابَهُ تلهّبُ جمْرِ الفـــرقد المتـوقدِ[1]
وجاءت كنَصْلِ السيفِ لو مرَّ مشيُها على البيض أمسَى سالما لم يُخَضَّد
فبتْنا ولم نكذبْك لو أنَّ ليلنـــا إلى الحَوْلِ لم نملل وقلنا له ازدَدِ
نَذُودُ النفوسَ الصادياتِ عن الهوى ذِيَاداً ونسقيهنّ ســقى المصرَّدِ
فلما بدا ضوء الصباح وزاعَنا مع الصُّبح صَوت الهاتفِ المتشهّدِ[2]
نهضْنا بشَخْصٍ واحدٍ فى عيونهم نَطَا فى حواشِى الأتحمىّ المعضَّدِ[3]
إلى جنَّةٍ منهم وسـلّمت غاديا عليها ســلامَ الباكر المتزوّد
وولّت وأغباش الدُّجى مرجَحِنةٌ تأطّرَ غُصْـــنِ البانةِ المتأوّدِ

وقال أعرابى من طيىء :

وأحور يصطادُ القــلوبَ وما لهُ من الريش إلاّ زعْفرانٌ وإثمِدُ
وما كنتُ أخشى الفتكَ ممّن سلاحُهُ سِوارٌ وخلخال وطَوْق منضَّدُ
وأشنبُ برّاق الثنــايا غرُوبُهُ من البَرَد الوَسْمِىّ أصفَى وأبردُ
خليلىّ بالله أقعـــدا فتبيّنا وميضاً نرى الظلماء منه تقدّدُ
يكشفُ أعراضَ السحابِ كأنهُ صفيحةُ هِنْدِىّ تَسَلّ وتُغْمَدُ
فبتّ على الأجبـال ليلاً أشيمُهُ أقومُ له حتى الصــباحِ وأقعدُ

هذا فى البرق كقول الطرماح فى النور :

يَبْدُو وتضمره البـلادُ كأنهُ سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسلّ ويُغمَد

[زيارة طيف الخيال]

وقال بشار :

أعددْت لى عتْباً بحبّكمُ يا عبد طالَ بحبّكم عنى

---

(١) الشذر : حبات صغار من الذهب أو اللؤلؤ ، وأراد عقدها (م)
(٢) الهاتف المتشهد : المؤذن ، لأنه يأتى فى أذانه بالشهادتين (م) .
(٣) نطا : أصله نطأ — مهموز الآخر ، فسهل الهمزة بقلبها ألفا (م) .

ولقد تعرض لِي خيالُكُمُ في القُرْطِ والخلخال والقُلْبِ
فشربتَ غيرَ مباشرٍ حَرَجاً برضاب أشنبَ باردٍ عذبِ

وقال المتنبي :

بِتْنَا يُنَاوِلُنا المُدَامَ بكَفِّهِ مَنْ ليس يَخْطُرُ أن نراه ببَاله
نجنى الكواكبَ من قلائد جيده وننالُ عَيْنَ الشمسِ من خلخالِه

وأول شعر أبى الطيب :

لا الحُلْمُ جادَ به ولا بمثالِه لولا ادِّكارُ وَدَاعِه وزيالِه
إن المعيدَ لنا المنامُ خَيَالَهُ كانت إعادَتُه خيالَ خَيَاله
إنى لأُبغِضُ طيفَ منْ أحببتُهُ إذ كان يَهجرُنا زمانَ وصالِهِ

يقول : التمثيل والتخيل له فى اليقظة أعاد خياله فى المنام ، فكأنَّ الخيالَ الذى فى النوم تصوَّر فى اليقظة . وأظْهَرُ من هذا قول الطائى :

زار الخيالُ لها لا بل أزَارَكَهُ فِكرٌ إذا نام فكرُ الخلق لم يَنَمِ
ظبىٌ تقنَّصْتَهُ لما نَصَبْتَ لهُ فى آخر الليل أشراكاً من الحلمِ

أما بيته الأول فمن قول جميل :

حييتُ طيفكِ من طَيْفٍ ألمَّ به حدَّثت نفسك عنه وهوَ مشغولُ

وقال ذو الرمة :

نأت دارميَّ أن تُزَار ، وزَورُها إذا ما دجا الإظلامُ منا وساوس (١)
إذا نحن عرَّسنا بأرضٍ سَرَى لنا هوًى لبَّسَتهُ بالقلوب اللوابسُ (٢)

و بيته الثانى ألمَّ فيه بقول قيس بن الملوَّح :

---

(١) فى ديوانه (ص ٤٦) جاء عجز البيت « إلى صحبتى بالليل هادمواعس » (م)
(٢) عرسنا : نزلنا ليلا ، وسرى : سار ، ولبسته : خلطته (م) .

وإنى لأستغشى وما بىَ نَعسة ... لعلّ خيالاً منكِ يَلْقَى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلّنى ... أحدّثُ عنك النفسَ فى السرّ خاليا
تَقَطّعُ أنفاسى لذكرك أنفساً ... يَرِدْنَ فما يَرْجِعْنَ إلا صَوادِيا

وقد قال فيه قيس بن ذريح :

وإنى لأهْوَى النومَ فى غير نَعْسَةٍ ... لعلّ لقاءه فى المنام يكونُ
تخبّرنى الأحـــلامُ أنى أراكُم ... فياليتَ أحـــلامَ المنامِ يقينُ

وكان البحترى أكثرَ الناس إبداعاً فى الخيال ، حتى صار لاشتهارِه مثلا يقال له « خيال البحترى » ، وفى بعض ذلك يقول :

ألمّتْ بنا بعد الهدوّ ، فسامحتْ ... بوَصْـلٍ متى تَطْلُبْه فى الجدّ تُمْنَعِ
فما برحت حتى مضى الليلُ وانقضَى ... وأعْجَلها دَاعِى الصـبـاحِ الملمّعِ
فولّتْ كأنّ البينَ يَخْلِجِ شَخْصها ... أوان تَولّتْ من حشاىَ وأضْـلُعِى[1]

وقال :

سقى الغيثُ أجزاعاً عهدت بجوّها ... غزالاً تراعيـــه الجآذِرُ أغْيَدا
إذا ما الكرى أهدى إلىّ خيالَهُ ... شَفَى قُربه التبريحَ أو نقع الصدى[2]
فلم نر مثلَينا ولا مثـــل شأننا ... نُعذَّبُ أيقاظاً وننعَمُ هُجَّـــدا

وقال :

بلى وخيـــال من أُثيْلة كلما ... تأوّهْتُ من وَجْدى تعرّضَ يُطمِعُ
يُرِى مقلتى مالاً ترى من لقائه ... وتسمع أذنى رَجْعَ مالِيس تسمع
[ويكفيك من حق تخيّل باطل ... تردّ به نفس اللهيف فترجـــعُ]

قوله فى البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك :

---

(١) يخلج شخصها : يجذبه وينزعه (م)
(٢) نقع الصدى : أروى العطش (م)

وماذا يفيدك طيفُ الخيا ... لِ والهجرُ حظُّك ممن تُحِب
غَنَاه قليلٌ ، ولكننى ... تَمَلَّيتُه بفنوع المحِبْ

والحسين فى هذا المعنى وإن لم يكن فى ذِكْرِ الخيال :

وصفَ البَدْرُ حُسْنَ وجهِك حتى ... خِلت أنى ، وما أراكَ ، أراكا
وإذا ما تنفّس النرجسُ الغَضُّ ... توهّمته نسيمَ جناكا
خُدَعٌ لِلمُنَى تُعَلِّلُنى فيـ ... ـك بإشراقِ ذَا ونكهة ذاكا[1]

وأول من طرد الخيالَ طَرفة بن العبد ، فقال :

فقل لخيال الحنظلية ينقلبْ ... إليها فإنى واصلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ

فتبعه جرير فى قوله فقال

طرقَتْك صائدةُ القلوبِ وليس ذا ... حِينُ الزيارةِ فارْجِعى بسَلامِ

قال البحترى ، ونفى هذا المعنى بقوله :

قد كان منى الوَجْدُ غِبَّ تذكّرٍ ... إذ كان منك الصدُّ غبَّ تَنَاسى
تجرى دموعى حين دَمْعُك جامدٌ ... وَيَلِينُ قلبى حين قلبُك قاسى
ما قلت للطيف المُسَلِّم لا تَعُدْ ... تغشى ، ولا نهنهتُ حَامِلَ كاسى

وقال ابن هانى الأندلسى :

ألا طرقتنا والنجومُ ركودُ ... وفى الحىِّ أيقاظٌ ونحن هُجُودُ[2]
وقد أعجل الفجرُ الملمّعُ خطوها ... وفى أخرياتِ الليل منه عَمُودُ
سَرت عاطِلا غَضْبَى على الدرِّ وحدهُ ... فلم يدرِ نَحْرٌ ما دَهاهُ وجِيدُ[3]
فما برحت إلا ومن سِلْكِ أدمُعِى ... قلائدُ فى لَبّاتِها وعُقودُ
ألم يأتِها أنّا كبرنا عن الصبا ... وأنا بلينا والزمانُ جديدُ

---

(١) النكهة : أصلها ريح الفم (م) . (٢) هجود : نيام (م) .
(٣) عطلت المرأة فهى عاطل : أى أنها ليست بذات حلى (م) .

وقال علىّ بن محمد الإيادى :

أما إنه لولا الخيالُ المراجعُ وعاصٍ يُرَى فى النوم وهو مطاوع
لأشفق وَاستحيا من النوم وَالِهٌ يُرى بعد رَوْعات الهوى وهو هاجع

وقال أيضاً :

طيفٌ يزورُك من حبيبٍ هاجر أهلاً به وبطيفه من زائر
شَقَّ الدجى وسَرَى فأمعن فى السُّرى حتى ألمَّ فبات بين محاجرى
يحْدُو به هَيف القوام المنثنى نَحْوِى وسالفةُ الغزال النافر
لله درُّك من خيالٍ واصلٍ أسرى فأنصف من حبيبٍ هاجرٍ
عَلَّلت علة قلب صَبٍّ هائم وقضيت ذِمَّةَ فيض دَمْعٍ قاطرِ

وقال عبد الكريم بن إبراهيم

لم أدرِ مَغْناكِ لولا المسكُ والقُطُرُ وزَوْرَة لِمُلِمّ عهـــدُه عفرُ[1]
سرى يعارضُ أنفاسَ الرياح بما تمرّ الوردُ منه وانتشى الزَّهَرُ
يخفى بثوب الدُّجَى مَسْرَاهُ مستتِراً ومن تَقَنَّع صُبْحًا كيف يَسْتَتِرِ
كأنَّ أعينَ واشيه تُرَاقِبهُ فيه فيدمج أخبارِى فيَختصرُ

وقال .

أهلا به من زائرٍ معتادٍ والليلُ يرفلُ فى ثياب حِدَادِ[2]
يتجاوزُ الراياتِ يخفقُ ظلها ويشقُّ ملتفَّ القنَا المنآدِ
أنَّى اهتدَى فى ظل أخضر مُغْدِف حتى تيمَّم بالعرَاء وسادى
بأرقَّ من كبد المتيَّم مقـدماً فى حيث ينبو الحارث بن عُبَادِ[3]
معتادة أمِنَتْ نمائم حليهـا والحلىُ نمَّامٌ على العُوَّادِ

---

(١) فى نسخة « لمم عنده خفر » (م)
(٢) يرفل فى ثياب حداد : أراد أنه أسود شديد السواد (م)
(٣) الحارث بن عباد — بزنة غراب — هو فارس النعامة الذى اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل بن ربيعة ابنه (م)

وكأنما ياقوتُها فى نحرِها   متوقد مما يُجِنُّ فؤادى

[عقال بن شبة بين يدى المنصور]

خطب صالح بن أبى جعفر المنصور فى بعض الأمر فأحسن ، فأراد المنصورُ أن يقرظه ويثنى عليه ، فلم يجسر أحد على ذلك لمكان المهدى ، وكان مرشحا للخلافة ، وخافوا ألا يقع الثناء على أخيه بموافقته ، فقام عقال بن شبّة ، فقال : ما رأيت أبين بيانا ، ولا أفصح لسانا ، ولا أحسن طريقا ، ولا أغمض(١) عروقا ، من خطيب قام بحضرتك يا أمير المؤمنين ، وحُقّ لمن كان أميرُ المؤمنين أباه ، والمهدى أخاه ، أن يكون كما قال زهير :

يطلبُ شأوَ امرأين قدَّما حَسَناً   بزّا الملوكَ وبزّا هذه السُّوَقَا(٢)

هو الجوادُ فإن يَلْحَقْ بشأوِهِمَا   على تكاليفه فمِثْلُه لحِقا

أو يسبقاهُ على ما كان من مَهَلٍ   فبالذى قَدَّمَا من صالحٍ سَبَقا

فعجب الناسُ من حُسْن تخلصه ، فقال أبو جعفر : لا ينصرف التميمى إلا بثلاثين ألفاً .

قال أبو عبد الله كاتبُ المهدى : ما رأيت مثل عقال قط فى بلاغته ؛ [مدح الغلام ، و] أرضَى المنصور ، وسَلِم من المهدى .

[زهير وهرم بن سنان]

وفى قصيدة زهير هذه يمدح هرم بن سنان بن أبى حارثة المرى :

قد جعلَ المُبْتَغُونَ الخيرَ فى هَرِمٍ   والسائلون إلى أبوابه طرُقا

من يَلْقَ يوماً على عِلاَّتِه هرماً   يَلْقَ السماحةَ منه والندَى خُلُقَا

(١) فى نسخة « ولا أعيص عروقا » (م) .

(٢) بزا الملوك : فاقاها ، وفى نسخة الديوان « نالا الملوك » (م) .

وليس مانعَ ذى قُرْبى وذى رَحِمٍ   يوماً ولا مُعْدِماً من خَابطٍ وَرَقا[١]
ليثٌ بعَثَّرَ يصطادُ الرجالَ ، إذا   ماالليثُ كذَّبَ عن أقرانِه صَدَقا[٢]
يطعَنُهم ما ارتموا حتى إذا اطَّعَنُوا   ضارب حتى إذا ماضَارَبُوا اعتنقا
فَضْلُ الجوادِ على الخيل البِطَاء فلا   يُعطِى بذلك ممنونا ولا نَزِقَا
هـــذا وليس كمن يعيا بحُجَّتهِ   وَسْطَ الندىِّ إذا ما ناطقٌ نطقا
لو نال حىٌّ من الدنيا بمكرمةٍ   أفقَ السماء لنـالَتْ كفّه الأفقا

وكان زهيرٌ كثيرَ المدح لهرم ، ويروى أن بنتا لسنان بن أبى حارثة رأت بنتا لزهير بن أبى سلمى فى بَعض المحافل ، وإذا لها شارةٌ وحالٌ حسنة ، فقالت : قد سرنى ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك [فقالت : إنها منكم] . فقالت : بلى والله لك الفضل ، أعطينا كم ما يَفْنَى ، وأعطيتمونا ما يبقى !

وقد قيـل : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لابنة هرم بن سنان : ما وهَب أبوك لزهير ؟ قالت : أعطيناه مالا وأثاثا أفنـاه الدهر . قال : لكن ما أعطاكموه لا تُفْنِيه الدهور . وقد صدق عمر رضى الله عنه ، لقد أبقى زهير لهم ما لا تفنيه الدهور ، ولا تُخْلِقه العصور ، ولا يزال به ذكر الممدوح ساميا ، وشرفه باقياً ، فقد صار ذكرهم عَلَماً منصوبا ، ومثلاً مضروبا ، قال الطائى ، وذكرهم فى شعره :

مالى ومالك شِبْهٌ حين أذكرهُ   إلا زهـير وقد أصْغَى له هرم

وقال يوسف الجوهرى يمدح الحسن بن سَهْـل :

لو أنَّ عَيْنَىْ زهيرٍ أبصرتْ حَسَنا   وكيف يصنعُ فى أموالِهِ الـكرمُ
إذن لقال زهـيرٌ حين يُبْصِرهُ   هذا الجوادُ على العلاتِ لا هَرِمُ

---

(١) المراد بالخابط ، هنا : طالب المعروف ، وأصله الذى يخبط الشجر لينزل ورقه فيأخذه لعلف ماشيته ، كنى بذلك زهير عن كرمه (م) . (٢) عثر : مكان بعينه (م).

وقال آخر ، ويدخل فى باب تفضيل الشعر :

الشعرُ يَحفَظُ ما أوْدَى الزمان به   والشعرُ أفضل ما يجنى من الكرَم

لولا مقالُ زهــــير فى قصائدهِ   ما كان يعرف جُودٌ كان من هَرِم

وقيل : أعطى هرم [العطاء الجزيل] عوض قول زهير فيه :

تالله قــــد علمت سَرَاةُ بنى   ذُبيَان عَامَ الحَبْسِ والأصْرِ

أنْ نِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أنتَ إذا   دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ فى الذُّعْرِ[(١)]

حامى الذِّمارِ على مُحَافظة الْـــجُلَّى أمينُ مغيَّبِ الصــــدْرِ[(٢)]

حَدِبٌ على المَوْلَى الضَّرِيكِ إذا   ضاقت عليــــه نوائبُ الدَّهْرِ[(٣)]

ومرَهَّقُ النـــيران يُحْمَدُ فى الــ   ــلأوَاءِ غـــيرُ ملعَّنِ القِدْرِ[(٤)]

والستر دونَ الفاحشاتِ ، وما   يلقاكَ دونَ الخيرِ من سِـــتْرِ

وقال :

إن البخيلَ ملومٌ حيثُ كان ولَـــكنّ الجوادَ على عِلاَّتِه هَرِمُ

هوالـكريمُ الذى يُعطِيكَ نَائِلَهُ   عَفْواً ، ويُظلَم أحياناً فَيظَّلِمُ

وإن أتاه خليـــلٌ يوم مسألة   يقولُ : لا غائبٌ مَالِى ولا حَرِم

الخليل : الذى أخلّ به الفقر ؛ إلى غير ذلك من مُختارِ مدحه فيه .

[فضل الشعر]

ولما امتدح نُصَيْبٌ عبدَ الله بنَ جعفر رضى الله عنه أمر له بإبل وخيل ، وثياب ودنانير ودراهم ، قال له رجل : أتُعْطِى لمثل هذا العبد الأسود هذا العطاء ؟ فقال : إن كان أسود فإن شِعْرَه أبيض ، وإن كان عبدا فإن ثناءه حُرٌّ ، ولقد استحق بما قال أكثرَ مما أعطى وهل أعطيناه إلا ثيابا تَبلى ، ومالا يَفْنَى ، ومطايا تَنْضَى ، وأعطانا مديحا يُرْوَى ، وثناء يَبْقَى .

---

(١) نزال : اسم فعل أمر بمعنى انزل ، وهى كلمة تقال عند القتال يدعو بها القرن قرنه .

(٢) الجلى : النائبة الشديدة ـ وأمين مغيب الصدر : أراد أنه مأمون فى غيبه كما هو مأمون فى حضوره لا ينال من صديق فى حال غيبته عنه (م) .

(٣) الضريك : المحتاج (م) .   (٤) مرهق النيران : تغشى الضيفان نيرانه ، واللأواء : الشدة ، وغير ملعن القدر : لا تسب قدره لأنه يطعم ما يشتهيه الناس (م) .

وقال الأخطل يعتدُّ على بنى أمية بِمَدْحِهِ لهم :

أبنى أمية إن أخـذت نوالـكم   فلما أخذتُم من مديحىَ أكثَرُ
أبنى أمية لِى مــــدائحُ فيكمُ   تُنْسَوْن إنْ طَال الزمانُ وتذكَرُ

ولما مدح أبو تمام الطائى محمد بنْ حسان الضبى بقصيدته التى أولها :

أسقى طلولَهم أجَشُّ هَزِيمُ   وغدَتْ عليهم نَضْرَةٌ ونَعيم[1]

وصَلَه بمال كثير، وخلع عليه خلعة نفيسة، فقال يصفها :

قد كسانا من كُسْوَةِ الصيف خِرْقٌ   مُكْتَسٍ من مكارم ومَسَاعِ[2]
حُلَّةً ســـــابِرِيَّةً وكِسَاء   كسَحَا القَيْضِ أو رداءِ الشجاع[3]
كالسراب الرقراقِ فى الُحسْنِ، إلاَّ   أنه ليس مثـــله فى الِخدَاع
قصبيًا تسترجف الريحُ مَتْنَيـــــه بأمرٍ من الهبوب مطاع
رجَفانا كـأنه الدهرَ منهُ   كَبِدُ الصبِّ أوْ حَشَى المُرْتَاع[4]
لازما مايليـــه تحسبُه جز   ءًا من المتنين والأضــــلاع
كســوة مِنْ أغرَّ أروعَ رَحْب الـصَّـدرِ رَحبِ الفؤادِ رَحْبِ الذِّرَاع
سوف أكسوكَ ما يعفِّى عليهـا   من ثناء كالبرد بردِ الصَّنَاع
حسنُ هاتيك فى العيون، وهـذا   حسنهُ فى القلوب والأسماع

فقال : لعنةُ الله علىّ إن بقى عنـدى ثوب أو يَصِل إلى أبى تمام؛ وأمَر بحمْلِ ما فى خزائنه إليه .

بعض الأخبار عن أبى تمام

قال إبراهيم بن العبّاس الصولى لأبى تمام : [أمراء] الكلام يا أبا تمام رعيَّةٌ لإحسانك، قال : [ذاك] لأنى أستضىءُ بنورك، وأرِدُ شريعتك .

---

(١) أراد بأجش هزيم : المطر، وأصل الأجش الخشن الصوت، والهزيم : الذى له صوت شديد (م) . (٢) الخرق - بكسر الخاء - الفتى الحسن الكريم الطبائع (م) .

(٣) السحا : كل ما انقشر عن شىء، والقيض القشرة العليا اليابسة على البيضة، والشجاع هنا : الحية، يريد أن الثوب الذى كساه إياه رقيق (م) .

(٤) انتصاب «الدهر» هنا على الظرفية الزمانية، والمشبه به هو «كبد الصب - إلخ - (م) .

وكان الطائى مع جَوْدَة شعره بليغَ الخطاب، حاضرَ الجواب ، وكان يقال : ثنتان قلّما يجتمعان : اللسانُ البليغ ، والشعر الجيد .

وقال الحسن بن جُنَادة الوشّاء : انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السلطان ، فوقف عليّ ، فقلت : من أين؟ فقال : كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاما طيّبا ، وفاكهة فاضلة ، وبُخِّرنا وغُلّفنا ؛ فخرجتُ هاربا من المجلس، نافراً إلى التسلى، ومافى منزلى نبيذ [فإن كان عندك منه شيء فامنحنى، فقلت: ماعندى نبيذ] ، ولكن عندى خَمْرٌ أريده لبعض الأدوية ، فقال : دع اسمه ، وأعطِنَا جِسْمَه ، فليس يثنينا عن المدام ، ما هَجَّنْته[1] به من اسم الحرام .

[استنجاز أعرابى مَوْعِدَةً]

قال عبيدالله[2] بن محمد بن صدقة: كنّا عند أبى عبيدالله[2] ، فدخل عليه أعرابى قد كان له عليه وَعد، فقال له : أيها الشيخ السيد ، إنى والله أتَسَحَّبُ على كرمك ، وأستوطِيء فراشَ مجدك ، وأستعين على نعمك بقدرك ؛ وقد مضى لى موعدان ، فاجعل النُّجْحَ ثالثا ، أقُدْ لك الشُّكْر فى العرب شادخَ الغُرَّة ، باديَ الأوضاح . فقال أبو عبيدالله[2] : ماوعدتك تغريراً ، ولا أخّرتُك تقصيراً ، ولكن الأشغال تقطعنى ، وتأخذ بأوْفَر الحظّ منى، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية ، ومنتهى الوُسْع بأوفر مأمول ، وأحمد عاقبة ، وأقرب أمَدٍ ، إن شاء الله تعالى

فقال الأعرابى : ياجلساءَ الصِّدْق ، قد أحصرنى التطول ، فهل من معين مُنْجِد ومساعدٍ منشد ؟ فقال بعضُ أحداث الكتاب لأبى عبيدالله[2] : والله ـ أصلحك الله ـ لقد قصدك ، وما قصدك حتى أمَّلَك ، وما أمَّلك إلا بعد أن أجال النظر ، فأمن الخطر ، وأيقن بالظَّفَر . فحقق له أمله بتهيئة القليل ، وتهنئة التعجيل . قال الشاعر :

إذا ما اجتلاه المجد عن وَعْدِ آملٍ   تبلّج عن بشر ليستكمل البشرا
ولم يَثْنِهِ مطل العداة عَنِ التى   تصونُ له الحمدَ الموفّر والأجرا

(١) هجنته : قبحته (م) .   (٢) فى نسخة «عبدالله» فى المواضع كلها (م) .

فأحضر أبو عبيدالله(١) للأعرابي عشرةَ آلافِ درهم ، وقال الأعرابي للفتى : خُذْها فأنت سببها . فقال: شكرُك أحبُّ إليّ منها ، فقال له أبو عبيدالله(١) : خُذْها فقد أمَرْنا له بمثلها . فقال الأعرابي : الآن كمُلَت النعمة ، وتمّت المنة .

[معاوية بن يسار]

وكان أبو عبيد(١) الله واسعَ الذَّرع، سابغَ الدرع في الكرم والبلاغة ، واسمُه معاوية بن يَسَار(٢) .

وكان يقول: إنّ نخوةَ الشرف تُنَاسِبُ بَطَرَ الغِنَى، والصبرُ على حقوق الثَّرْوَة أشدُّ من الصَّبْر على ألَمِ الحاجة ، وذلُّ الفقر يسعى على عزِّ الصبر ، وجور الولاية مانع من عَدْل الإنصاف ، إلا من ناسب بعد الهمة ، وكان لسلطان عزمه قوة على شهوته .

وكان يقول : لا يكسر رأسُ صناعة إلا في أخسِّ رُتّان ، وأرذلِ سلطان ، ولا يعيبُ العلمَ إلا من انسلخ عنه ، وخرج منه .

وكان يقول : حُسْنُ البِشْر عَلَم من أعلام [النجاح] ورائد من [روّاد الفلاح] ، وما أحسن ما قال زهير :

تراه إذا ما جئته متهلِّلاً كأنك تُعطيه الذي أنت سائله

وقال له المهديُّ بعد أن قتل ابنَه على الزندقة : لا يمنعك ما سبق [به] القضاء في ولدك ، من [ثلج صَدْرِكَ] وتقديم نُصْحِك؛ فإني لا أعرض لك رأيا على تُهمة، ولا أُوخر لك قدما عن رتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما كان [ولدي حسنة] من نَبْت إحسانك أرضُهُ ، ومن تفقُّدِك سماؤه، وأنا طاعة أمرك ، وعَبْدُ نهيك، و بقية رأيك لي أحسن الخَلَف عندي

وكان يقول : العالم يمشي البَرَازَ آمنا ، والجاهل يهبط الغيطان كامناً ، ولله درّ زهير حيث يقول :

الستر دون الفاحشات وما يَلْقاك دونَ الخير من سِتْر

وقال أبو عبيدالله(١) : ذاكرني المنصورُ في أمر الحسَين(٣) بن قَحْطَبة ، فقال: كان

(١) في نسخة «أبو عبدالله» (م) . (٢) في نسخة «معاوية بن بشار» (م) .
(٣) في نسخة « الحسن » .

أوثق الناس عندى ، وأقربهم من قلبى ، فلما لقى أبا حنيفة انتكث ، فقلت: إن فسدت نيتُه فسيضَعُه الباطلُ كما رفعه الحقُّ ، وتشهد مخايله عليه كما شهدَتْ له ، فتعدل فى أمره من شَكّ إلى يقين . ثم قال لى : اكتُمْ علىّ ما ألقَيْتُ عليك .

قال عمران بن شهاب : استعنت على أبى عبيد الله فى أمرٍ ببعضِ إخوانه وكان قد تقدَّم سؤالى إيَّاه فيه . فقال لى : لولا أن حقَّك لا يُجْحَد ولا يضاع ، لحجبت عنك حُسْنَ نظرى ؛ أظننتنى أجهل الإحسانَ حتى أعلَّمه ، ولا أعرف موضعَ المعروف حتى أعرَّفه ؟ لو كان يُنَالُ ما عندى إلا بغيرى لـكنت مثل البعير الذَّلول ؛ يحمل عليه الحمل الثقيل ، إن قِيدَ انقاد ، وإن أنيخ برَكَ ، ما يملك من نفسه شيئا ، فقلت : معرفتك بموضع الصنائع أثبت معرفة ، ولم أجعل فلانا شفيعا إنما جعلته مذكِّراً . قال: وأى إذكار أبلغ عندى فى رَعى حقِّك من مسيرك إليه وتسليمك عليه[1] ، إنه متى لم يتصفَّح المأمول أسماء مؤمّليه غدوة ورواحا لم يكن للأمل محلاًّ ، وجرى عليه المقدارُ لمؤمّليه على يديه بما قدر ، وهو غـيْرُ محمود على ذلك ولا مشكور ، ومالى إمامٌ بعد وردى من القرآن إلا أسماء رجال أهل التأميل ، حتى أعرضهم على قلبى ، فلا تستَعِنْ على شريفٍ إلا بشَرَفِه ؛ فإنّه يرى ذلك عيبا لُعرفه : وأنشد :

وذاك امرؤ إن تأْته فى عظيمة إلى بابه لا تأْته بشفيعِ

ومن توقيعاته : الحق يُعقِب فَلْجا أو ظفرا ، والباطل يُورث كذبا وندَما .

وكتب إليه رجل : والنفس مولعة بحبِّ العاجل . فـكتب إليه : لـكن العقل الذى جعله الله للشهوة زِمَاماً وللهوى رباطا موكّل بحبِّ الآجل ، ومستصغِرٌ لـكل كثير زائل .

قال مصعب بن عبد الله الزبيرى : وَفَدَ زياد الحارثى على المهدى وهو بالرّىّ ولىّ عهد ، فأقام سنتين لا يَصِلُ إليه شىء من برّه ، وهو ملازم كاتبه أبا عبيد الله ، فلما طال أمره دخل إلى كاتبه فأنشده :

---

(١) فى نسخة «من سيرك إلى ، وتسليمك على » وهى أدق من جهة المعنى (م) .

ما بعد حولين مرّا من مطالبةٍ ولا مُقَامَ لذى دين وذِى حَسبِ
لئن رحلتُ ولم أظفر بفائدةٍ من الأمير لقد أعذرت فى الطَّلَبِ

فوقع أبو عبيد الله : يصنعُ الله لك ! فكتب إليه :

ما أردت الدعاء منك لأنى قد تيقَّنْت أنه لا يُجَابُ
أيجاب الدعاء من مستطيل جُلُّ تسبيحِه الخَنا والسِّبابُ

ألفاظ لأهل العصر ، فى ذكر الاستطالة والكبر

مع ما يشاكلُ ذلك من معانيها ، ويطرق نواحيها من المساوى والقبائح

فلان لسانُه مِقْرَاضٌ للأعراض ، لا يأكل خبْزَه إلا بلحوم الناس . هو غرضٌ يرشَق بسهام الغيبة ، وعلمٌ يقصد بالوقيعة ، قد تناولته الألسن العاذلةُ ، وتناقلت حديثَهُ الأنديةُ الحافلة . قد لزمهْ عار لا يُمْحَى رَسْمُه ، ولزمه شنار لا يزولُ وَسْمُه ، فأصبح [نَقْلَ كلِّ لسان ، وضُحْكَةَ كل إنسان[1] ، وصار دولة الألسن ، ومُثْلَةَ الأعين . وقد عرّض عرضه] غرضا لسهام الغائبين ، وألسنة القاذفين ، وقلد نفسه عظيم العار والشّنار ، والسّبّة الخالدة على الليل والنهار . قد أسكرته خَمْرَةُ الكبر ، واستغرقته عِزَّةُ التِّيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، وبَلْقِيس إحْدَى داياته ، وكأنّ يوسف لم ينظرْ إلا بطلعته ، [وداود لم ينطق إلاّ بنغمته] ، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته ، والشمس لم تطلع إلا من جبينه ، والغمام لم يَنْدَ إلا من يمينه ، وكأنه امتطى السّماكين ، وانتعل الفرقدين ، وتناول النَّيِّرَين بيدين ، وملك الخافقين ، واستعبد الثقلين ، وكأن الخضراء له عرشت ، والغبراء باسمه فرشت .

---

(١) النقل ــ بفتح النون وسكون القاف ــ مايتنقل به على الشراب ، والضحكة : الذى يضحك منه الناس (م) .

فلان له من الطاوُس رِجْلُه ، ومن الوَرْدِ شَوْكه ، ومن الماء زَبَدُه ، ومن النار دخانها ، ومن الخمر خُمارها ، قد هبّت سمائمُ نمائمه ، ودبّت مكايد عقاربه ، والنمام يضرب بسَيْفٍ كليل إلا أنه يقطع ، ويضرب بعضد واهِن إلا أنه يوجع .

هو تمثالُ الجبن ، وصورة الخوف ، ومقرّ الرعب ؛ فلو سمّيت له الشجاعة لخافَ لَفْظَها قبل معناها ، وذِكْرَها قبل فحواها ، وفزع من اسمها دون مسماها ، فهو يهلك من تخوفه أضغاثَ أحلامٍ ، فكيف بمسموع الكلام ؟ إذا ذكرت السيوف لمس رأسَه هل ذهبَ ، ومسّ جبينَه هل ثُقب ؟ كأنه أسلِم فى كتّاب الجُبْنِ صبيًا ، ولُقّنَ كتابَ الفشل أعجميا . وَعْدُه بَرْقٌ خُلّب ، وروغان ثعلب . غيم وعده جَهام ، وحدُّ سَيفِه كَهام . حصلتُ منه على مواعيد عرقوبية[1] ، وأحزان يعقوبية[2] ، قد حرمنى ثمرَ الوعد ، وجرّنى على شَوْكِ المطْلِ . فتى له وعدٌ أخذَ[3] من البَرْق الخلّبِ خلقا ، وقد تناول من العارض الجهام طبعا ، وتركنى أرْعَى رِياضَ رجاء لا يُنبت ، وأجْنِى ثمار أمل لا يُورِق ؛ فأنا فى ضمان الانتظار ، وإسار عِدَةٍ ضِمار[4] .

هو يرسل بَرْقَه ، ولا يسيل وَدْقَه ، ويقدم رَعْده ، فلا يمطر بعدهُ . وعْدُه الرقم على بساط الهواء ، والخطّ فى بسيط الماء .

حلّ هذا من قول أبى الفضل بن العميد :

لا أستفيقُ من الغرام ، ولا أرى	خِلْوًا من الأشجان والبُرَحاء
وصروفُ أيامٍ أقمن قيامتى	بنَوى الخليطِ وفُرْقَةِ القُرَنَاء
وجَفاء خِلّ كنتُ أحسبُ أنهُ	عَوْنِى على السراء والضراء
ثَبْت العزيمة فى العقوق ، ووُدُّهُ	متنقلٌ كتنقّل الأحياء
ذى خلة يأتيك أثبتُ عهدهِ	كالخطّ يُرْسَم فى بسيطِ الماء

(١) عرقوبية : نسبة إلى عرقوب ، وهو مضرب المثل فى الخلف والمطل (م) .

(٢) يعقوبية : نسبة إلى يعقوب نبى الله تعالى الذى حزن على ابنه يوسف وبكاه حتى ابيضت عيناه من الحزن (م) .

(٣) فى المطبوعات « له وعد أخدع من البرق الخلب خلقا » وما أثبتناه أشد توافقا والتئاما بما بعده (م) . (٤) الضمار : الغائب الذى لا يرجى (م) .

أردت هذا البيت .

هوصخرة خَلْقَاء[1]، لا يستجيبُ للمرتقَى ، وحيّة صمّاء لا تسمع للرُّقَى ، كأنى أستنفر بالجوّ رعْدًا ، وأهزّ منه بالدعاء طودا ، هو ثابت العطف [نابى العطف] ، عاجز القوة ، قاصر المُنّة ، يتعلّق بأذناب المعاذير ، ويحيل على ذنوب المقادير . هو كالنعامة تكونُ جملا إذا قيلَ لها طِيرى ، وطائرا إذا قيل لها سِيرى . يفاض له بذل ، ولا يفوّض إليه شغل ، ويملأ له وَطْب ، ولا يُدْفَع به خَطْب ، قد وفر همّه على مطعم يجوّدُه ، ومَلْبَس يجوِّده ، ومَرْقَد يمهّده ، وبنيان يشيّده ، هذا كقول الحطيئة :

دَع المكارمَ لا ترحَلْ لبُغْيَتِها واقعُدْ فإنك أنتَ الطاعمُ الكاسِى

قَلْب نَغِل ، وصَدْرٌ دغِل ، وطويّةٌ معلولة ، وعقيدة مَدْخولَة ، صَفْوُه رَنْق[2] ، وبرّه مَلَق ، قد مُلِئ قلبُه رَيْنا ، وشُحِنَ صدرُه مَيْنا[3] . يدَّعِى الفضلَ وهو فيه دَعِيّ ، دأبه بثّ الخدائع ، والنَفْثُ فى عُقَد المكايد ، ضميرُه خُبث ، ويمينه حِنْث ، وعهده نَكْث . هو سحابة صَيْف ، وطارِقُ ضَيْف ، قوته غنيمة ، والظفر به هزيمة . هو العَوْد المركوب ، والوَتَرُ المضروب ، يطؤه الخفُّ والحافرُ ، ويستضيمُه الواردُ والصادر . [يغمض عن الذكر] ، ويصْغُر عن الفِكْر . ذاتُه لا يوسَم أغفالها ، وصفتُه لا تنفرج أقفالها . هو أقلُّ من تبنة فى لَبِنة ، ومن قلامة فى قُمَامة . وهو بيذق الشِّطْرَنْج فى القيمة والقامَة ، جَهْله كثيف ، وعَقله سخيف ، لا يستترُ من العقل بسِجْف ، ولا يشتمل إلاّ على سخف . يمدُّ يدَ الجنون فيغرُك بها أُذُنَ الحزْم ، ويفتح جِرَاب السخف فيصفَع به قفَا العقل . لا تزالُ الأخبارُ تورد سفائح جَهْله وخُرْقه ، والأنباء تنقلُ نتائجَ سُخْفِه وحُمْقِه . قد ظلّ يتعثّرُ فى فضول جَهْله ، ويتساقطُ فى ذيولِ عقله . هو سمينُ المالِ مهزول النَّوال . ثَرْوَةٌ فى الثريا وهمّةٌ فى الثَّرَى .

---

(١) خلقاء : ملساء (م) . (٢) رنق : كدر (م)

(٣) الرين : الدنس ، وأراد الحقد والضغن ، والمين : الكذب (م) .

وجْهُه كَهَوْلِ المطلع ، وزوال النّعمة ، وقضاءِ السّوءِ ، وموتِ الفُجَاءة .هو قذَى العَيْن ، وشَجَى الصَّدْرِ ، وأذَى القلب ، وحُمَّى الروح ، وَجْهُه كآخر الصك ، وظلِم الشكّ ، كأنّ النحسَ يطلع من جَبينه ، والخلّ يقطر من وجنته . وجْهُه طَلْعَة الهَجْر ، ولفظُه قِطَع الصَّخر . وجهُه كحضور الغَريم ، ووصول الرقيب ، وكتاب العَزْل ، وفراق الحبيبِ . له من الدينار نَضْرَته ، ومن الوَرْدِ صُفْرَتُه ، ومن السحاب ظُلْمَتُه ، ومن الأسد نكهته[1] . هوعصارةُ لؤمٍ فى قرارة خُبْث . ألأم مهجة فى أسقط جثّة . حديث النِّعْمَة ، خبيثُ الطعمة ، خبيث المركب ، لئيم المنتسب ، يكادُ من لُؤْمِه يُعْدِي من جلس إلى جَنْبِه ، أو تَسَمَّى باسْمِهِ . قد أُرْضِع بلبان اللُّؤْم ، ورُبِّى فى حِجْر الشؤم ، وفُطِم عن ثدى الخَيْرِ ، ونشأ فى عَرْصَة الُخبْثِ ، وطلّقَ الكرم ثلاثاً لم ينطق فيه استثناء ، وأعْتَق الجدَ بتاتاً لم يستوجب عليه ولاء . هو حمارٌ مبطّن بثور مفروز بتَيْس ، مطرّز بطرر [أتى من اللؤم بنادر] ، لم تَهْتَدِ له قصةُ مادر[2] . هوقصيرُ الشبر ، صغيرُ القِدْرِ ، قاصر القَدْر ، ضيِّق الصَّدْرِ ، ردّ إلى قيمة مثله فى خبث أصله ، وفرْط جهله ، لا أمسَ ليومه ، ولا قديم لقومه ، سائله محروم ، ومالُه مكتُوم ؛ لا يحينُ إنفاقه ، ولا يحلّ خناقه . خيرُه كالعنقاء تَسْمَعُ بها ولا ترى . خُبْزُه فى حالق ، وإدامه فى شَاهِق . غِنَاه فَقْر ، ومَطْبَخُه قَفْر ، يملأ بطنَه والجار جائع ، ويحفظُ مالَه والعِرضُ ضائع ، قد أطاع سُلطان البُخْل وانخرط كيف شاء فى سِلْكِهِ . هو ممن لا يبضّ حجَره ، ولا يثمر شجره ، سُكَّيت الحَلْبَةِ[3] ، وساقةُ الكتيبة ، وآخِرُ الجريدة . لُعْنَة العائب ، وعرضة الشاهد والغائب . هو عَيْبَةُ العيوب ، وذَنوب الذُّنوب . وقال أبو الفضل الميكالى :

---

(١) النكهة : ريح الفم ، والأسد معروف بالبخر ، وهو نتن الفم (م) .

(٢) مادر : مضرب المثل فى البخل ، كان له حوض يملأه ماء ليسقى دوابه ، فإذا فرغ قذف فيه الحصى الكثير لئلا يستقى غيره (م) .

(٣) الحلبة : موضع جرى الخيل المتسابقة . وسكيتها : أراد أنه يأتى فى آخر المتسابقين (م) .

وطلعـةٍ بقبحها قد شُهِرَتْ　تحكى زوالَ نعمة ما شكرتْ
كأنّها عن لحيها قد قشرتْ　أقبِحْ بها صحيفةً قد نشرتْ
عنوانها إذا الوحوش حُشِرَتْ　يلعنها ما قدّمتْ وأخّرتْ
صَاحِبُهَا ذو عورة لو سترت　إن سار يوماً فالجبال سُيِّرَتْ
أو رَامَ أكلا فالجحيم سُعِّرَتْ

من بديع الزمان يشكو الحيرى القاضى

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضى على بن أحمد يشكو أبا بكر الحيرى القاضى ويذمّه — وقد أطلتُ عِنان الاختيارِ فيها لصحّة مبانيها، وارتباط ألفاظها بمعانيها:

الظُّلامة ـ أطال اللهُ بقاء القاضى ـ إذا أتتْ من مجلسِ القضاءِ، لم ترق إلاّ إلى سيّدِ القضاة. وما كنت لأقصر سيادتَه على الحكام، دون سائر الأنام، لولا اتصالُهم بسببه، واتّسامُهم بلقبه، وهُبهم مطفّلين على قَسْمِهِ، مغيرين على اسمه، ألهم فى الصحة أديم كأديمه[1]، أو قديمٌ فى الشرفِ كقديمه، أو حديث فى الكرم كطريفه؛ فهنيئاً لهم الأسماء، وله المعانى، ولا زالت لهم الظواهرُ، وله الجواهر. ولا غروَ أن يسمَّوْا قضاة، فما كلُّ مائع ماء، ولا كلّ سَقْفٍ سماء، ولا كلّ سيرة عَدْلَ العُمَرَيْن[2]، ولا كلّ قاضٍ قاضى الحرمَين، ويالثارات القضاء! ما أرخص ما بِيع، وأسرع ما أضيع! والسنةُ الإنذار، قبل خلو الديار، وموت الخيار، ألاَ يُغَار لحلى الحسناء، على السوداء، ومركب أولِى السياسة، تحت السّاسة، ومجلس الأنبياء، من تصدّر الأغبياء، وحَمَى البزاة من صَيْدِ البغاثِ، ومرتع الذكور[3] من تسلّط الإناثِ؟ ويا للرجال، وأين الرجالُ! ولى القضاء من لا يملكُ من آلاته غير السِّبَالِ[4]، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال، ولا يتوجّه

(١) الأديم: الجلد (م).
(٢) العمرين: أبى بكر وعمر بن الخطاب، رضى الله عنهما (م).
(٣) فى نسخة «ومربع الذكور» (م). (٤) السبال ـ بكسر السين ـ جمع سبلة ـ بالتحريك ـ وهو الشارب، ويقال: مقدم اللحية وماأسبل منها على الصدر (م).

فى أحكامه إلا إلى الاستحلال ، [ولا يرى التفرقة إلا فى العيال] ولا يُحْسِنُ من الفقه غير جمع المال ، [ولا يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال ، وكثرة الافتعال] ولا يدرس من أبواب الجدال إلا قبيح الفعال ، وزُورَ المقالِ ، ذاك أبو بكر القاضى ، أضاعَه اللهُ كما أضاع أمانتَه ، وخانَ خزانته ، ولا حاطه من قاضٍ فى صَوْلة جندى ، وسبلة كردى ... إلى أن قال : أيكفِى أن يُصْبِحَ المرء بين الزقّ والعودِ ، ويمسى بين موجبات الحدود ، حتى يكمل شبابه ، وتشيب أترابُه . ثم يلبس دَنِّيته[1] ، ليخلع دينيّته ، ويسوى طيلسانه ، ليحرف يده ولسانه ، ويقصر سِبالَه ، ليطيل حباله ، ويُظهِر شقَاشقه ، ليستر مَخَارقه ، ويبيّض لحيته ، ليسوّدَ صحيفته ، ويبدى ورَعه ، ليخفى طمعه ، ويغشى محْرَابه ، ليملأ جِرَابه ، ويكثر دُعاءه ، ليحشوَ وعاءه ، ثم يخدم بالنهار أمعاءَه ، ويعالج بالليل وَجْعَاءَه ، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالمًا ، ويقعد حاكمًا ؟ هذا إذا الجِدُّ كالوه بقُفْزَان[2] وباعوه فى سوق الخسران ! هيهات حتى ينْسَى الشهوات ، ويجُوب الفلوَات ، ويعتضد المحابرَ ، ويحتَضِن الدفاتر ، وينتج الخواطر ، ويُحالف الأسفار ، ويعتاد القِفَار ، ويصل الليلةَ باليوم ، ويعتاض السهرَ من النوم ، ويحمل على الروح ويجنى على العين ، وينفق من العيش ، ويخزن فى القلب ، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق ، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق ؛ وحاملُ هذه الكلف إن أخطأه رائدُ التوفيق ، فقد ضلّ سواء الطريق ، وهذا الحِيرِىُّ رجل قدشغله طلبُ الرياسة عن تحصيل آلاتها ، وأعجله حصولُ الأمنية عن تمحل أدواتها[3] :

والكلبُ أحسن حالةً ... وهو النهاية فى الخَسَاسَهْ

ممن تَصَدَّى للريا ... سة قبل إبّانِ الرياسه

---

(١) الدنية ـ بفتح الدال وتشديد النون مكسورة ـ قلنسوة كان القضاة يلبسونها ، وقد جاء فى مقامات الحريرى « فضحك القاضى حتى هوت دنيته » (م) .

(٢) قفزان : جمع قفيز ، وهو مكيال . (٣) فى نسخة « عن تنخل أدواتها » (م) .

فولّى المظالموهو لا يَعرفُ أسرارَها ، وحَمَل الأمانةَ وهو لا يَدْرى مقدارَها؛ والأمانةُ عند الفاسق خفيفةُ الحمل على العاتِق ، تُشْفِق منها الجبالُ ، و يحملها الجهّال ، وقعد مَقْعَد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بين حديثه يروى ، وكتاب الله يُتْلى ، و بين البينة والدعْوَى ، فقبّحه اللهُ تعالى من حاكم لا شاهِد عنده أعدل من السَّلّة والجام[1] ، يُدْلَى بهما إلى الحكّام ، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر[2] ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أحبُّ إليه من غمزات الخصوم ، على الكيس المختوم ، ولا كفيل أوقع بوفائه من خبيثة الذّيل ، وحمال الليل ، ولا وكيل أعز عليه من المنديل والطبق ، فى وقت الغَسَق والفَلَق ، ولا حكومة أبغض إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفْلِس ، ثم الويل للفقير إذا ظُلِم ، فما يغنيه موقف الحكم إلا بالقَتْل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء إلا بالنار من الرمْضَاء . وأقسم لو أن اليتيم وقف بين أنياب الأسود ، بل الحيات السُّود ، لكانت سلامته منهما أرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضى بين عَقار به وأقّار به ؛ وما ظنُّ القاضى بقوم يحملونَ الأمانةَ على مُتُونهم ، ويأكلون النارَ فى بطونهم ، حتى تغلظ قَصَراتهم[3] من مالِ اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى ، وما رأيه فى دار عمارتُها خرابُ الدور ، وعُطلة القدور ، وخَلاَء البيوت ، من الكسوة والقوت ، وما قوله فى رجل يُعَادِى الله فى الفَلْس ، و يبيعُ الدِّينَ بالثمن البخْس ، وفى حاكم يبرُز فى ظاهر أهل السَّمْتِ ، و باطن أصحاب السبتِ ، فعله الظلمُ البَحْت ، وأكله الحرام السُّحْت . وما قوله فى سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام ؛ وجرادٍ لا يقع إلا على الزرع الحرام ، ولصّ لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يُغيرُ إلا على الضعاف ، وليث لا يفترِسُ عبادالله إلا بين الركوع والسجود ، وخارب[4] لا ينهب مالَ الله إلا بين العهود والشهود .

---

(١) السلة — بفتح السين — السرقة ، والجام : الوعاء الذى تشرب به الخمر (م) .
(٢) الصفر : جمع أصفر ، وهو الدينار (م) . (٣) القصرات : جمع قصرة — بالتحريك — وهى أصل العنق . (٤) الخارب : السارق (م) .

وذكر فى هذه الرسالة فصلاً فى ذِكْر العلم ـ وهو مستطرف البلاغة ، مستعذب البراعة ـ قال :

والعلم ـ أطال اللهُ بقاءَ القاضى ـ شىء كما تعرفُه ، بعيد المرام ، لا يُصَادُ بالسّهام ، ولا يُقْسَمُ بالأزلام[1] ؛ ولا يُرَى فى المنام [ولا يُضْبَطُ باللجام ، ولا يُورَث عن الأعمام ، ولا يكتب للئام] ، وزَرْع لا يَزْكُو[2] حتى يصادِفَ من الحَزْم ثرًى طيباً ، ومن التوفيق مطراصيّبًا ؛ ومن الطبْع جوّا صافيا ، ومن الجهد روحاً دائما ، ومن الصبر سقيا نافعا ، والعلم عِلْقٌ[3] لا يباع ممن زاد ، وصَيْدٌ لا يألف الأوغاد ، وشىء لا يُدْرك إلاّ بنزع الروح ، وعَوْن الملائكة والرّوح ، وغَرضٌ لا يصابُ إلا بافتراش المدَر[4] ، واتّساد الحجَر ، وردّ الضجَر ، وركوب الخَطر ، وإدْمَان السهر ، واصطحاب السفر ، وكَثْرة النظَر ، وإعمال الفكر ، ثم هو معتاص إلا على من زكا زَرْعه ، وخلا ذرعه ، [وكرم أصْله وفَرْعه ، ووَعى بصره وسمعه] ، وصفا ذهنه وطبعهُ ، فكيف يناله من أنفق صِباه على الفحْشاء ؛ وشبابَه على الأحشاء ، وشغل نهاره بالجمع ، وليلَه بالجماع ، وقطع سَلْوته بالغنى ، وخَلْوَته بالغناء ، وأفرغ جده على الكيس ، وهزله فى الكأس ؛ والعلم ثمرٌ لا يصلح إلا للغَرْس ، ولا يغرس إلا فى النفس ، وصيد لا يقع إلا فى الندر ، ولا ينشب إلاّ فى الصدر ، وطائر لا يخدعه إلاّ قَنَص اللفظ ، ولا يعلقه إلاّ شَرَكُ الحفظ [ولا ينشب إلاّ فى الصدر ،] وبَحْر لا يخوضُه الملاّح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبَلٌ لا يتسنم إلا بخُطا الفِكْر ، وسماء لا يصعد إلا بمِعْرَاج الفهم ، ونَجْمٌ لا يلمس إلا بيَدِ المجد .

---

(١) الأزلام ، هنا : قداح الميسر (م) .

(٢) لا يزكو : لا ينمو (م)

(٣) العلق ــ بالكسر ــ النفيس الذى يتغالى فيه (م)

(٤) المدر - بالتحريك ــ صغار الحصى (م) .

ومن مفردات الأبيات فى المعايب والمقابح

قول أبى تمام :

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوانِى   لما أُمْهِرْنَ إلاَّ بالطلاقِ

آخر :

قومٌ إذا جرَّجَانٍ منهمُ أمِنُوا   من لُؤْمِ أحْسابِهم أن يقتلوا قَوَدا[1]

البحترى :

سا فى يدِى ، وابن اللئيمةِ وَاجِدٌ   ويَنْبُو الخبيثُ الطَّبْع وهو صَقِيلُ

ابن الرومى فى رجل يعرف بابن رمضان :

رأيتك تدَّعِى رمضان دعوى   وأنتَ نظيرُ يوم الشكِّ فيهِ

وله فى أعمى :

كيف يَرْجُو الحياء منه صديقٌ   ومكانُ الحياءِ منه خَرابُ

غيره :

هو الكلْب ، إلاَّ أنَّ فيه ملالةً   وسُوءَ مُرَاعاةٍ وماذَاكَ فى الكَلْب

آخر :

أبادُلَف يا أكْذَبَ الناسِ كلِّهم   سِوَايَ فإنى فى مديحك أكذب

أبو الفضل الميكالى :

هو الشَّوْكَ لا يُعْطِيك وافِرَ منَّة   يدَ الدَّهْرِ إلاَّ حين تَضْرِبه جلْدا

---

(١) جر : اكتسب جريرة . يريد أنهم لا يساوون أحدا من الناس ، ومن شرط القود — وهو الاقتصاص من القاتل بقتله — التكافؤ . فليسوا يقتلون أصلا (م) .

[قولهم فى اللحن وتعلم العربية]

قال المأمون لبعض وَلِده وسمع منه لحنا : ماعلى أحدكم أن يتعلَّم العربية ، فيقيم بها أَوَدَه[١] ، ويزينُ بهاَ مَشْهده ، ويفلُّ[٢] حُجَجَ خَصْمه ، بمُسْكتاتِ حكمه[٣] ، ويملكَ مَجْلس سُلْطانه ، بظاهرِ بيانه ؛ ليس لأحدكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبدِه أو أمته ، فلا يزالُ الدهر أسيرَ كلمته .

وقال رجلٌ للحسن البصرى يا أبو سعيد ، قال : كَسْبُ الدراهم شغلَك أن تقولَ ياأبا سعيد ، ثم قال : تعلَّموا العلم للأديان ، والنحوَ للسان ، والطبَّ للأبدان .

وكان الحسن كما قال الأعرابى وسمع كلامه : والله إنه لفصيحٌ إذا لفظ، نصيحٌ إذا وَعظ . وقيل له : ياأبا سعيد ، ما نراكَ تلحن ، قال : سَبَقْتُ اللحن . أخذه أبو العتاهية ، وقيل له : إنك تخرج فى شعرك عن العَرُوض، فقال: سبقت العروض ،

وقال إسحاق بن خلف البهرانى :

النحو يصلح من لسانِ الألْكَنِ ... والمرءُ تُعْظِمُه إذا لم يلحنِ

فإذا طلبت من العلوم أجلَّها ... فأجلُّها منها مقيمُ الألسُنِ

وقال على بن بسام :

رأيتُ لسانَ المَرْءِ رائدَ عِلمِه ... وعنوانه فَانْظُرْ بماذا تُعَنْوِنُ

ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسانِ فإنهُ ... يُخَبِّرُ عما عنده ويبين

على أن للاعراب حَدًّا ، وربما ... سمعت من الإعراب ماليس يحسُنُ

ولاخيرَ فى اللفظ الـكريهِ استماعهُ ... ولا فى قبيح اللَّحْنِ والقصدُ أزْيَنُ

---

(١) أوده : اعوجاجه (م) .

(٢) يفل : يكسر ويضعف (م) . (٣) فى نسخة « بمسكتات حكمه » (م) .

وقال بعضُ أهل العصر ، وهو أبو سعيد الرستمى :

أفِى الحقِّ أن يُعْطَى ثلاثون شاعراً ... ويحرَم مادونَ الرّضا شاعِرٌ مثلى

كما سامحوا عمْراً بواوِ زيادةٍ ... وضُويِقَ بسم الله فى ألِف الوَصْلِ

أبو الفتح البستى :

حُذِفتُ وغيرى مثبَتٌ فى مكانهِ ... كأنِّىَ نونُ الجمعِ حين يُضَافُ

وقال :

أفدِى الغزالَ الذى فى النّحْوِ كلَّمنِى ... مُنَاظِراً فاجتنيت الشّهدَ من شفَتِهْ

فأوْرَدَ الحججَ المقبولَ شاهِدُها ... محققا ليرينى فَضْلَ معرفَتِهْ

ثم افترقتُ على رَأْيٍ رضيتُ بهِ ... والرفع من صِفتى والنصب من صفته

الحسن اللحام[١] :

أنا من وجوهِ النحوِ فيكم أفْعَلُ ... ومن اللغاتِ إذا تُعَدُّ المهمَلُ[٢]

. [لَوْعَةُ الشوق]

وقال أحمد بن يوسف :

كتب غلامٌ من ولد أنو شروان ممن كان أحد غلمانِ الديوان ، إلى آخر منهم وكان قد علق به ، وكان شديدَ الـكَلَف به والمحبَّة له : ليس من قَدْرِى - أدام الله سعادَتك - أن أقولَ لمثلك جُعِلْتُ فِدَاك ؛ لأنى أراك فوقَ كلٍّ قيمة خطيرة وثمن مُعْجِز ، ولأنَّ نفسى لا تُسَاوِى نفسك ، فتُقْبَل فى فِدْيتك ، وعلى كل حال ؛ فجعلنى الله فِدَاء ساعة من أيامك ، اعلمْ أيها السيد العلىُّ المنزلة ، أنه لو كان لعَبْدِك من شدة الخطب أمرٌ يقِفُ على حدّه النعت[٣] ، لاجتهدنا أن يُضعِفَ[٤]

---

(١) فى نسخة « أبو الحسن اللحام » (م)

(٢) أفعل : يريد أنه غير منصرف، وسقطت هذه الكلمة من بعض النسخ (م) .

(٣) النعت : الوصف ، نعته ينعته : وصفه يصفه (م) .

(٤) فى نسخة « لاجتهد أن يصف » (م) .

من ذلك ماعسى أن يعطف به زمام قَلْبك ، وتحنو له على الرّقة به والتحفّى أثناء جوانحك ، ولـكن الذى أمسيت وأصبحت ممتحَنا به فيه شَسَع[(١)] على كل بيان ، ونزح عَنْ كلّ لسان ؛ والحب أيها المالك لم يَشُبْه قَذَى ريبة ، ولم يختلط به قلب مَعَاب . فلا ينبغى لمن كرمت أخلاقُه أن يعاف مقاربَة صاحبهالمدل بحرمة نيته ، والذىأتمناه أيها المولىاللطيف مجلسأقف فيه أمامك، ثم أبوح بما أضنى جسدى ، وفتّ كبدى . فإن خفّ ذلك عليك ورأيت نشاطا من نفسك إليه كنتَ كن فكّ أسيراً وأبرَأ عليلا ، ومن الخير سلك سبيلا ، يتوعّرُ سلوكُها على منْ كان قبله ، ومَنْ يكون بعده ؛ ثم أضاف إلىذلك منةً لايُطيقها جَبَلٌ رَاس ، ولا فلك دائر ، فرأيك أيها السيد المعتمد فى الإسعاف ، قبل أن يَبْدرَنى الموتُ ؛ فيحول بينى وبين مانزعت إليه النفس مواصلا برّا إن شاء الله تعالى .

فأجابه : تولّى اللهُ تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد ، ولا أوْحش ما بيننا بطائر فُرْقَة ، ولا صافر تشتّت ، وضمّنَا وإياك فى أوثَق حبال الأُنس ، وأوكد أَسبابِ الأُلْفَةِ ؛ وقفت على ماخصته من العجز عن بلوغ ماخامرَ قلبك[(٢)] ، وانطوى فى ضميرك ، من الشَّغف المقلق ، والهوى المضرع ، ولعمرى لو كشَفْتُ لك عن مِعْشَار مااشْتَمَل عليه مضمر صدرى لأيقنت أنّ الذىعندك إذا قسْته إلى ماعندى كالمتلاشى البائد ، ولـكنك بفَضْل الإنعام سبَقْتَنا إلى كَشْف ما فى الضمير . وأما طاعتى لك ، وذمامىإليك ؛ فطَاعةُ العبد المقْتَنَى ، الطائع لـما يَحْـكُم له وعليه مولاه ومالِـكه ، وأنا صائرٌ إليك وَقْتَ كذا ؛ فتأهّبْ لذلك بأحمد عافية ، وأتمّ عُقْدَة[(٣)] ، وأسْعَد نجم جرى بالأُلفة ، إن شاء الله تعالى .

وكتب بعض الـكتّاب : إنى لأَكْرَهُ أنْ أفديك بنفسى استحياء من التقصير

---

(١) شسع : بعد ، وفى نسخة « منع من كل بيان » (م) .

(٢) خامر قلبك : خالطه (م)   (٣) فى نسخة « وأتم عافية » (م) .

فى المعاوضة ، ومن التخلّف فى الموازنة ، وعلى الأحوال كلّها ، فقدّم اللهُ رُوحِى عنك ، وصانني عن رُؤْية المكروه فيك .

وقال المتنبى :

فدًى لكَ من يُقَصِّر عن مَدَاكا ... فـلا مَلِكٌ إذَنْ إلاَّ فِدَاكا

ولو قلنا فِدًى لك من يُسَاوِى ... دَعَوْنَا بالبقاء لمَنْ قَلاَكا

وآمَنَّا فداءكَ كلَّ نفسٍ ... وإن كانت لمملكة مِـلاَكا

[وقال عبيد الله بن شبيب : كتب إلىَّ بعض إخوانى من أهـل البصرة كتابا ملح فيـه وأوجز ، وهو : أطال الله بقاءك ، كما أطال حياءك ، وجعلنى فداك إن كان فىَّ فداؤك .

كتبتُ ولو قدرتُ هوًى وشوقا ... إليك لـكنت سطراً فى كتابى]

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابنى المدبّر ، وقد أصابتهما مِحْنَةٌ ثم أردفتها نعمة : لو قُبلت فيكما ، ودانيتُ قدريكما ، لقلت : جعلنى الله فداكما ، ولـكنى لا أجزى عنكما ، فلا أُقبل بكما ، وقد بلغتنى المحنة التى لو مات إنسان غمًّا بهـا لـكنته [ثم اتصلت النعمة التى لو طار امرؤ برحابها لـكنته] وكتب تحته :

وليس بتزويقِ اللسانِ وصَوْغهِ ... ولـكنّهُ قد خالط اللَّحْمَ والدَّمَا

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد الله بن سليمان يعتذِرُ فى تَرْكِ مكاتبته بالتفدية [الله يعلم ، وكفى به عليما ، لقـد وددت مكاتبتك بالتفدية] فرأيت عيبا أن أفديك بنفسٍ لابدَّ لها من فَنَاء ، ولا سبيلَ لها إلى بَقَاء ، ومَنْ أظهر لك شيئاً وأضمر لك خِلاَفه فقـد غشَّ ؛ والأمرُ إذا كانت الضرورةُ تُوجبُ أنه مَلَقٌ[1] لايحقق ، و إعطاء لايتحصّل ، لم يجب أن يخاطبَ به مِثْلُك ، و إن كان عند قوم نهايةً من نهايات التعظيم ، ودليلا من دلالات الاجتهاد ، وطريقاً من طرق التقرّب .

قال الزبير بن أبى بكر : قال لى مسلمة بن عبد الله بن جندب الهذلى : خرجت أريدُ العقيق ومعى زَبَّان السوّاق ؛ فلقينا نسوةً فيهن امرأةٌ لم أرَ أجملَ منها فأنشدت بيتين لزَبَّان :

(١) فى المطبوعات « توجب أنه مالك لا يحقق » تحريف ما أثبتناه (م) .

ألاَ يا عبادَ الله هـــذا أخوكمُ قتيلٌ ، فهل فيكم له اليوم ثائرُ؟
خُذُوا بدمى ، إن متُّ ، كلَّ خريدةٍ مريضةِ جَفْنِ العين والطَّرْفُ ساحِرُ

ثم قال : شأنك بها يابنَ الكرام فالطلاقُ له لازمٌ إن لم يكن دَمُ أبيك فى نقابها . فأقبلت علىَّ وقالت : أنت ابن جندب ؟ فقلت : نعم . قالت : إن قتيلنا لايُودى ، وأسيرنا لا يفدى ، فاغْتَنِمْ لنفسك ، واحتسب أباك .

بنو عذرة

قال أبو عبيدة : قال رجل من فزارة لرجل من بنى عذرة : تعدُّونَ موتكم من الحبّ مزية ، وإنما ذاك من ضَعْف المُنّة ، وعَجْز الروية . فقال العذرى : أما إنكم لو رأيتم المحاجِرَ البُلْج[1] ، ترشق بالأعين الدُّعْج[2] ، فوقها الحواجبُ الزُّج[3] ، [وتحتها المباسم الفُلْج] ، والشِّفَاهُ السُّمْر ، تفترّ عن الثنايا الغُرّ ، كأنها بَرَد الدُّر ، لجعلتموها اللات والعُزّى ، ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم :

وصف الحسان

وقال أعرابى : دخلتُ بغداد فرأيتُ فيها عيوناً دُعْجاً[2] ، وحواجبَ زُجًّا[3] ، يسحَبْنَ الثيابَ ، ويَسْلبْنَ الألباب .

وذكر أعرابى نساءً فقال : ظعائن فى سوالفهن طول ، غير قبيحاتِ العُطُول[4] ، إذا مشين أسْبَلْنَ الذيول ، وإن رَكِبْنَ أثقلنَ الحمول .

ووصف آخر نساء فقال : يتلثّمن على السبائك ، ويتّشِحْنَ على النيازك[5] ، ويتّزِرْنَ على العَوَاتك ، ويرتفقن على الأرائك ، ويتهادَيْن على[6] الدَّرَانك ، ابتسامُهن وَمِيض ، عن ثَغْرٍ كالإغريض ، وهن إلى الصِّبَا صُور ، وعن الخَنا حُور[7] .

---

(١) المحاجر : جمع محجر . وهو بزنة مجلس : الوضع يكون عليه النقاب ، وهو أيضا مادار بالعين ، والبلج : جمع أبلج أو بلجاء ، والأبلج : الأبيض المشرق (م)
(٢) الدعج : جمع دعجاء ، وهى العين الشديدة البياض مع السواد (م) .
(٣) الزج : جمع أزج ، وهو الدقيق من الحواجب (م) . (٤) العطول : أراد التجرد من الحلى (م) . (٥) النيازك : الرماح ، واحدها نيزك (م) . (٦) الدرانك : البسط ، واحدها درنك (م) . (٧) صور : مائلات ، وحور : راجعات (م) .

(وصف الهوى ، وأمره)

سئل بعضُ الحكماء عن الهوى ، فقال : هو جليسٌ مُمْتِع ، وأليف مُؤْنِس ، أحكامه جائرة [١] ، ملكَ الأبدانَ وأرواحها ، والقلوبَ وخواطرها ، والعيون ونواظرَها ، والنفوسَ وآراءها ، وأعطى زمام طاعتها ، وقيادَ مملكتها ، توارَى عن الأبصار مَدْخَلُه ، وغمض عن القلوب مَسْلَكه .

وسئلت أعرابيةٌ عن الهوى فقالت : لامُتِّعَ الهوَى بملكه ، ولامُلِّيَ بسلطانه ، وقبض الله يدَه ، وأوْهَن عَضُده ؛ فإنه جائر لا ينصف فى حكم ، أعمى ما ينطقُ بعدل ، ولا يقصر فى ظلم ، ولا يَرْعَوِى لِلَوم ، ولا ينقادُ لحقّ ، ولا يبقى على عقل ولا فهم ، لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمورَ على أدبارها ، والدنيا على أعقابها .

ووصف أعرابى الهوى فقال : هودَاء تدوَى به النفوسُ الصِّحَاح ، وتسيل منه الأرواح ، وهو سقم مكتتم ، وجَمْر مُضْطَرِم ؛ فالقلوبُ له منضجة ، والعيون ساكنة [٢]

قال [أبو] عبيدالله بن محمد بن عمران المرزبانى : أخبرنى المظفر بن يحيى ، قال : أحبّ رجلٌ امرأةً دونه فى القَدْر ، فعذَله عمّه ، فقال : يا عمّ ، لا تَلُمْ مُجْبَرا على سَقَمه ؛ فإن المقر على نفسه مستغْنٍ عن منازعة خَصْمِه ، وإنما يُلام من اقترف ما يقدر على تركه ، وليس أمرُ الهوىَ إلى الرأى فيملكه ، ولا إلى العقل فيدبره ؛ بل قُدْرَتُه أغلبُ ، وجانِبُه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلةُ حازم ، أو لطف محتال .

وقال بعضهم : رأيت امرأتين من أهل المدينة تُعَاتِب إحداهما الأخرى على هَوًى لها ، فقالت : إنه يقال فى الحكمة الغابرة ، والأمثال السائرة : لا تلومنّ من أساء بك الظنّ إذا جعلتَ نفسَك هدَفا للتهمة ، ومن لم يكن عَوْنًا على نفسه مع خصْمه لم يكن معه شىء من عُقْدَة الرأى ، ومن أقْدَم على هَوًى وهو يَعلمُ

(١) فى نسخة وفى تزيين الأسواق « جائرة » (م) .

(٢) فى نسخة « ساكبة » أى تسيل الدمع (م) .

مافيه من سوء المغبّة سلط على نفسه لسانَ العَذْلِ ، وضيع الحَزْم . فقالت للعذولة : ليس أمرُ الهوى إلى الرأى فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره ، وهو أغلب قدرةً ، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة الحازم ، أو ماسمعت قول الشاعر :

ليس خطبُ الهوَى بخطْبٍ يسير لا ينبّيك عنه مثـــلُ خَبير

ليس أمرُ الهَوى يُدَبَّرُ بالرَّأْ يِ ولا بالقياس والتفكير

إنمـا الأمرُ فى الهوى خَطَراتٌ محدَثاتُ الأمورِ بَعْدَ الأمـورِ

قال المرزبانى : أخبرنى الصولى أنّ هذه الأبيات لعُلية بنت المهدى ، ولها فيها لَحَنٌ .

وقيل لعبد الله بن المقفع: مابالُ العاقل المميز الذهن ، واللبيب الفطِن ، يتعرض للحب وقد رأى منه مواضعَ الهلكة ، ومصارعَ التّلَف، وعلم مايؤول[1] إليه عُقْبَاه ، وترجع به أُخْراه على أولاه ؟ فقال : زُخْرِفَ[2] ظاهرُ العشق بجمال زينة يستدعى القلوب إلى ملامَسَتِهِ ، ومُلِّى بعاجل حلاوة يطبى[3] النفوسَ إلى ملابَسَتِهِ ، كظاهر زخرف الدنيا ، و بهاء رونقها ، ولذيذ جَنَى ثمرها ، وقد سكرت أبصارُ قلوب أبنائها عن النظر إلى قبيح عيوب أفعالها ، فهم فى بلائها منغمسون ، وفى هلكة فتنتها متورطون ، مع علمهم بسوء عواقب خَطْبها ، وتجرُّع مرارةِ شربها ، وسرعة استرجاعها ماوهبت ، و إخراجها مِمَّا ملكت ، فليس يَنْجُومنها إلاَمَنْ حَذِرها ، ولا يهلك فيها إلا من أَمِنها ، وكذلك صُورةُ الهوى ؛ هما فى الفتنة سواء .

[بعض ماجاء فى العفاف]

وقال ابن دُرَيد : قال بعضُ الحكماء : أَغْلِق أبواب الشبهات بأقفال الزهادة ، [وافتح أبوابَ البر بمفاتيح العبادة] فإنّ ذلك يُدْنيك من السعادة ،

---

(١) يؤول : يرجع (م) . (٢) زخرف : زين (م) .

(٣) يطبى النفوس : يدعوها (م) .

وتستوجب من اللهِ الزيادة .

وقال غيرُه : إنّ اللذةَ مشوبةٌ بالقُبح ؛ ففكّروا فى انقطاع اللذةِ وبقاء ذكرِ القُبحِ .

قال أبو عبد الله بن إبراهيم بن عرفة [نفطوَيه] :

ليس الظريفُ بكاملٍ فى ظَرفِهِ حتى يكونَ عن الحرامِ عفيفاً
فإذا تعفّفَ عن محارمِ رَبّهِ فهناكَ يُدعَى فى الأنامِ ظَريفا

وقال :

كم قد ظفرتُ بمن أهوَى فيمنَعُنى منه الحياءُ وخَوفُ اللهِ والحَذَرُ
وكم خَلَوتُ بمن أهوَى فيُقنِعُنى منه الفكاهَةُ والتقبيلُ والنَّظَرُ
أهوَى المِلاحَ وأهوَى أنْ أجالِسَهم وليس لى فى حَرَامٍ منهمُ وَطَرُ
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيَةٍ لا خيرَ فى لذةٍ من بعدها سَقَر

وقال العباس بن الأحنف :

أتأذنونَ لِصَبٍّ فى زيارتكم فعندكم شهواتُ السَّمعِ والبَصَرِ
[لا يبصر السوء إن طالَتْ إقامتُه عفّ الضمير ولكن فاسق النظر][1]

وقال بعضُ الطالبيين :

رمَوْنى وإيام بشَنْعاءَ هُمْ بها أحَقُّ ، أدَالَ اللهُ منهم وعجَّلا
بأمرٍ تركناه وربِّ محمدٍ جميعاً فإما عفّةً أو تجمّلا

وقال سعيد بن حميد :

زائرٌ زارَنا على غيرِ وعد مُخطَفُ الكَشحِ مُثقَلُ الأردافِ
غالبَ الخوفَ حين غالبه الشو قُ وأخفَى الهوَى وليس بخافِى
غضّ طرفى عنه تُقَى اللهِ فاختر تُ على بَذلِه بقاء التّصافى
ثم ولّى والخوفُ قد هَزّ عِطفَيه ولم يخلُ من لِباسِ العَفافِ

(١) سقط هذا البيت من بعض النسخ ، وحفظى فيه «لا يضمر السوء إن طال الجلوس به» (م) .

وفى الحديث الشريف : « مَنْ أحبَّ فعفَّ فمات فهو شهيدٌ » .

والعفافُ مع البَذْل ، كالاستطاعة مع الفعل ، كما قال صريع الغوانى :

وما ذَمِّىَ الأيام أنْ لَسْتُ مادحاً لعَهْدِ لياليها التى سلَفَتْ قبلُ

ألاَ رُبَّ يومٍ صادقِ العَيْشِ نِلْتهُ بها ونَداماى العفافةُ والبَذْلُ[1]

وأنشد الصولى لأبى حاتم السجستانى فى المبرّد ، وكان يلزم حَلْقته . وكان من المِلَاح وهو غلام :

ماذا لقيتُ اليومَ من مُتَمجِّنٍ خَنِث الكلام[2]

وقفَ الجمالُ بوَجْهِهِ فسمَتْ له حدَقُ الانَام

حرَكاتهُ وسُكُونهُ يُجْنَى بها ثَمرُ الأثام

فإذا خَلَوْتُ بمثلهِ وعزَمْتُ فيهِ على اعتزام

لم أعْدُ أخلاقَ العَفا فِ وذاك أوْكدُ للغرَام

نَفْسِى فِدَاؤكَ يا أبا الـ ـعباس جَلَّ بك اعتصام

فارْحَمْ أخاكَ فإنهُ نَزْرُ الكَرَى بادِى السقام

وأنِلْهُ ما دُونَ الحرا مِ فليس يَرْغَبُ فى الحرام

وكان أبو حاتم يتصدّق كلّ يوم بدرهم ، ويختم القرآن فى كل أسبوع .

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سُرَيج الشافعى ، وأبو بكر بن داود العباسى فى مجلس على بن عيسى بن الجراح الوزير ، فتناظرَا فى الإيلاء ، فقال ابن سريج : أنت بقولك : « من كثرت لحَظَاته دامَتْ حسَراته » أبْصَرُ منك بالكلام فى الإيلاء ، فقال أبو بكر : لئن قلت ذلك فإنى أقول :

أُنزِّه فى رَوْضِ المحاسن مُقْلتى وأمْنَعُ نفسى أن تنالَ مُحَرَّمَا

---

(١) الندامى : جمع نديم ، وأصله الذى يجالسك على الشراب (م) .

(٢) المتمجن : الكثير المجون ، وخنث الكلام : أى لينه متكسره (م) .

وأحمِلُ من ثِقــل الهوَى مالَوَ أنه يُصَــبُّ على الصَّخْر الأصمِّ تهدَّمَا
وينطق طَرْفِي عن مــترجم خاطري فــلولا اختــلاسى رَدَّهُ لتكلَّما
رأيتُ الهوَى دَعْوَى من الناس كلِّهم فلستُ أرى حباً صــحيحاً مسلَّما

فقال أبو العباس : بِمَ تفتخرُ عليَّ ؟ وأنا لو شئت لقلت :

ومُطَــاعِمٍ للشَّهْدِ مِنْ نَغَمَاتِهِ قد بِتُّ أمنعُــهُ لذيذَ سِــنَاتِهِ
صبًّا بحُسْنِ حَـــديثه وكلامِهِ وأُكَرِّر اللحظاتِ في وجنــاتِهِ
حتى إذا ما الصبحُ لاح عمودُهُ ولّى بخـــاتم رَبِّهِ وبرَاتِهِ

فقال أبو بكر : أصلح الله الوزير ، تحفظ عليه ما قال حتى يقيمَ شاهدَيْن عَدْلين أنه ولّى بخاتم ربه ! فقال أبو العباس : يلزمنى فى هذا ما يلزمك فى قولك: أنزه فى رَوْض المحاسن مُقْلَتِي ... البيت . فضحك الوزيرُ ، وقال : لقد جَمَعتما ظرفاً ولُطفاً وفَهْماً وعلما .

ألفاظ لأهل العصر ، فى محاسن النساء

هى روضــةُ الحسْنِ ، وضرَّةُ الشمْسِ ، وبَدْرُ الأرض . هى من وجهها فى صباحٍ شَامِس ، ومن شعْرِها فى ليل دَامس[1] ، كأنها فلقة قَمَر على بُرْج فضــة . بَدْر التم يضىء تحت نِقابها ، وغُصْن البانِ يهتز تحت ثيابها ، ثَغرُها يجمعُ الضريب والضرَب[2] ، كأنهُ نثر الدرّ ، كما قال البحترى :

إذا نَضَــوْنَ شُفُوفَ الرَّيْطِ آونةً قَشَرْنَ عَنْ لؤلؤِ البَحْرَيْن أصْدَافا

قد أنبَتَ صدرُها ثمرَ الشباب ، خرطَتْ لها يدُ الشبابِ حُقَّيْنِ[3] من عاج ، كأنها البدرُ قُرِّط بالثريّا ، ونيطَ بها عِقْدٌ من الجوزاء ، أعلاها كالغُصْن ميّال ،

---

(١) شامس : ذى شمس ، على النسب ، ودامس : مظلم (م) .
(٢) الضريب : اللبن ، والضرب : عسل النحل (م) .
(٣) حقين : تثنية حق ، وهو الطبة ، وأراد ثدييها (م) .

وأسفلها كالدِّعص[1] مُنْهال ، لها عنق كإبريق اللُّجَيْنِ، وسُرَّة كمُدْهُن العاج ، نِطَاقُهَا مُجْدِب ، وإزارُها مُخْصِب . مَطلَع الشمس من وَجْهِها ، ونَبْت الدرّ من فيها ، وملقط الوَرْد من خدّها ، ومنبع السِّحْرِ من طَرْفِها ، ومبادىء الليل من شَعْرِها ، ومغرس الغصن من قدِّهَا ، ومهيل الرَّمْلِ من رِدْفِها

ولهم فى محاسن الغلمان والمعذرين

زاد جمالُه ، وأقمر هِلاله . ترقرقَ فى وجهه ماء الُحسْنِ ، شادِنٌ فاتِرٌ طَرْفه ، ساحرٌ لَفْظه . غلامٌ تأخذُه العَيْن ، ويَقْبَله القَلْبُ ، ويأخذه الطَّرْفُ، وترتاح إليه الرّوح . تكادُ القلوبُ تأكله ، والعيون تَشْرَبُه . جرى ماء الشباب فى عُوده فتمايلَ كالغُصْنِ ، واستوفى أقسامَ الُحسْنِ ، ولبس ديباجةَ المَلاَحة ، كأنَّ البَدْرَ قد ركب أزراره ، لا يشبَع منه الناظرُ ، ولا يروَى منه الخاطِر ، كاد البدرُ يَحكيه ، والشمسُ تشبهه وتُضَاهيه ، صورة تَجلو الأبصار ، وتُخْجِل الأقمار ، شادنٌ مُنْتَقِبٌ بالبَدْر ، ومكتَحِلٌ بالسحر . ماهو إلاّ نُزْهَة الأبصار ، ومخْجل الأقمار ، وبِدْعة الأمصار ، غمزات طَرْفه تُخْبِر عن ظَرْفه ، ومنطقُه ينطقُ عن وَصْفِه . تخالُ الشمسَ تبرقعَتْ غرّتَه، والليل ناسب أصداغَه وطُرّتَه الُحسْنُ مافوق أزراره ، والطِّيبُ ما تحت إزاره ، شادن يَضْحَكُ عن الأقحوان ، ويتنفَّسُ عن الريحان ، كأنَ خدّه سكران من خَمْر طرفه[2]، و بغداد مسروقةٌ من حُسْنِه وظَرْفه ، أعجمت يدُ الجمالِ نونَ صُدْغِه بخَال ، هذا محلول من قول ابن المعتز :

غِلالة خَدّهِ صُبِغت بوَرْدٍ ونونُ الصُّدْغ مُعْجَمَةٌ بخَالِ

---

(١) الدعص ـ بالكسر ـ الكثيب من الرمل (م)

(٢) فى نسخة « من خمرة فه » وهى ــ وإن كانت أشهر فى كلامهم ـ أبعد من انسجام أسلوب المؤلف (م) .

له عينان حَشْوُ أجفانهما السِّحْرُ ، كأنه قد أعار الظَّبْيَ جِيدَه ، والغصنَ قدَّه، والراحَ ريحَه، والوَرْدَ خدَّه ، الشَّكل[1] من حرَكاته، وجميعُ الحسْنِ بعض صفاته، قد ملكَ أزِمَّةَ القلوب ، وأظهر حجَّةَ الذنوب ، كأنما وَسَمَه الجمالُ بنهايته ، ولحظَه الفلكُ بعنايته ، فصاغَه من لَيْلِه ونهاره، وحَلاه بنجومه وأقماره، ونقَّبه ببدائع آثاره ، ورمَّقه بنواظر سُعودِه ، وجعله بالجمال أحدَ حدوده . وقد صَبَغ الحياء غِلالَةَ وَجْهه ، ونشر لؤلؤُ العرق عن وَرْدِ خدِّه . تكادُ الألحاظُ تسفكُ من خَدِّه دمَ الخجَلِ . له طُرَّة كالغَسَقِ ، على غُرَّةٍ كالفَلَق . جاءنا فى غلالة تنمُّ على ما يستره ، وتجفو مع رِقّتها عما يظهره[2]. وجهٌ بماء الحُسْنِ مغسول، وطَرْف بمِرْود السِّحْرِ مكحول ثغر حُمِيَ حمايةَ الثغور ، وجُعِل ضرّة لقلائد النحور . السحْرُ فى ألحاظه، والشهدُ فى ألفاظه. اختلس قامةَ الغُصْنِ ، وتوشّح بمطارف الحسن ، وحكى الروض غِبَّ المُزْن[3]. الأرضُ مشرقةٌ بنورِ وجهه ، وليل السِّرَارِ فى مثل شَعْره[4]. الجنةُ مجتناةٌ من قُرْبه ، وماء الجمال يترقرقُ فى خدِّه ، ومحاسنُ الربيع بين سَحْرِه ونَحْرِه، والقمرُ فَضْلَةٌ من حُسْنه . ماهو إلا خالٌ فى خدِّ الظَّرف، وطِرَازٌ على علمِ الحُسْنِ ، ووَرْدَةٌ فى غُصْنِ الدهرِ ، ونَقْشٌ على خاتم الملك ، وشمسٌ فى فَلَكَ اللطف . هو قَمَرٌ فى التصوير ، شمسٌ فى التأثير . منظر يملأ العيونَ ، و يملكُ النفوس، زَرافين أصداغه[5] معاليقَ القلوب . كأنَّ صُدْغه قرط من المسك على عارض البَدْر . وجهُه عرس ، وصدغه مأتم ، ووصله جنة ، وهجره جهنم . أصداغُه قد اتخذت شَكْلَ العقاربِ، وظلمت ظُلْمَ الأقارب . إن كان عقرب صُدْغه تلسع ، فترياق ريقه يَنْفَع . كأن شاربَه زِئْبَرُ الخزّ الأخضرِ ، وعِذَارُه طراز المِسْكِ والعَنْبَرِ [الأذفر] ، على الوَرْدِ الأحمر . إذا تكلّم تكشَّفَ حِجَابُ الزمرّد والعقيق ،

---

(١) الشكل : الدلال (م). (٢) فى نسخة «وتحنو مع رقتها على ما يظهره» (م) .
(٣) المزن : المطر (م) . (٤) ليل السرار : آخر ليالى الشهر العربى (م) .
(٥) الزرافين : جمع زرفين ، وهو الحلقة ، أو خاص بحلقة الباب ، ويقولون « زرفن صدغيه » أى جعلهما على شكل الزرفين (م) .

عن سِمْطِ الدرّ الأنيق . قد همّ أرقمُ الشَّعْر على شاربه ، وكاد فم الحُسْن يقبّله .
كأنّ العذار ينقش فصّ وَجْهه، و يحرق فضّة خدّه . طرّز الجمالُ ديباج وجْهه ،
وأبانَ عِذارُه العذرَ فى حُبّه . [لعب الربيعُ بخدّه ، فأنبت البنفسجَ فى وَرْده .
لما احترقتْ فضةُ خدّه ، احترق سواد القلب من حبّه] .

كيف لا يخضرُّ شاربهُ   ومياهُ الحسْنِ تسقيهِ

ولهم فى نقيض ذلك ، فى ذم خروج اللحية

قد انتقب بالدَّيجُورِ ، بعد النوز ؛ فدَوْلةُ حُسْنِه قد أعرضَتْ أيامه، وانقرضَتْ
دَوْلَتُه وأحكامُه . استحال خدُّه دُجا ، وزمرّد خَدِّه سُبَجا[1] ؛ وأخمدت نارُ حُسْنِه
بعد الإيقاد ، ولَبس عارضُه ثوبَ الحِدَاد . ذَبُل وَرْدُ خدّه ، وتشوّكَ زعفرانُ
خطه . فارقنا خَشْفا ، ووافانا جِلفا ، وفارَقنا هلالا وغزَالا ، وعاد وبالا ونَكالا .
مالى أرى الآباطَ جائِشة : والآنافَ مُعْشِبة ، والعيون منورة ، والأزرار مرعى ،
والأظفارَ حمَى . واللحى لبودا ، والأسنان خُضْراً وَسُودا .

من رسائل البديع ومقاماته

من رسالة لمن طلب وداده

وكتب إلى بديع الزمان بعضُ من عُزل عن ولاية حسنة يستمدُّ وداده و يستميل
فؤاده ؛ فأجابه بنسخته : وردَتْ رقعتُك أطالَ الله بقاءك فأعرْتُها طرف التعزّز
ومددت إليها يدَ التقزز ، وجمعت عليها ذَيلَ التحرُّز ، فلم تند على كبدى ، ولم
تحظَ بناظرِى وَيدِى : ولقد خطبت من مودّتى مالم أجدْك لها كُفيًّا ، وطلبت
من عِشرتى ما لم أرَكَ لها رضيًّا ؛ وقلت : هذا الذى رفع عنّا أجفان

(١) فى نسخة «وزمرد خطه سبجا » والخط من قولهم «خط الغلام» إذا نبت عذاره ، والسبج : جمع سبجة أو سبيجة ، وهى كساء أسود ، والمراد أن شعر عارضيه قد نبت (م) .

طَرْفه ، وشال بشعرات أنفه ، وتاه بحُسْنِ قَدِّه ، وزهاَ بوَرْد خَدِّه ، ولم يَسْقِنامن من نَوْئِه ، ولم نَسِرْ بضوئه ؛ فالآنَ إذْ نسخ الدهرُ آيةَ حُسْنِه ، وأقام مائل غُصنِه، وفَلَّل غَرْبعُجْبِه[1]،وكفَّ شأو زهْوه ، وانتصرلنامنه بشعرات قد كسفت هِلاله ، وأكسفَتْ بالَه ، ومسخَتْ جمالَه ، وغيّرتْ حاله ، وكدّرَتْ شِرْعَته[2]، ونَـكّرت طَلْعته ، جاء يستقى من جرفنا جَرفا ، ويغرف من طينتنا غَرْفا ، فهلا يا أبا الفضل مهلا :

أرغبْتَ فينا إذْ علاَ ك الشَّعْرُ فى خدّ قَحِلْ
وخرجْتَ من حدِّ الظبا ء وصِرْتَ فى حدِّ الإبل
أنشأت تطلبُ عِشْرَتى عُدْ للمداوةِ ياخجل

أنسيت أيامك ؛ إذ تـكلّمنا نَزْرا[3]، وتنظرنا شَزْرا[4]، وتجالسُ مَنْ حضر ، ونسرق إليك النظر ، ونهتزّ لـكلامك ، ونهش لسلامك :

فَمَنْ لكَ بالعينِ التى كنتُ مرة إليك بها فى سالفِ الدَّهْرِ أنْظُرُ

أيام كنت تمايل، والأعضاء تتزايَل ، وتتغانج ، والأجسادُ تتفالج ، وتتفلّت، والأكباد تتفتّت، وتخطر وترفل ، والوَجْدُ بنا يعلو ويسفل ، وتُدْبِر وتُقْبل ، فتمنى وتخبل ، [وتصد] وتُعْرِض ، فتضنى وتمرض :

وتبسم عن ألمى كأنَّ منورا تخلل حرّ الرمل دعص له ند

فأقْصِر الآنَ فإنه سوقٌ كَسَد ، ومتـاعٌ فَسد ، ودولة أعرضت ، وأيام انقضت :

وعهد نِفَاق مَضَى وسوق كسادٍ نَزلْ
وخدّ كأنْ لم يكُنْ وخَط كأن لم يَزَلْ

---

(١) فلل: كسر ، والغرب: الحد . وفى نسخة «وفثأ غرب عجبه» وفثأ : سكن (م).
(٢) الشرعة ـ بالكسر ـ موضع ورود الماء ، وتكديرها: تصييرمائها كدرا (م).
(٣) النزر : القليل (م) . (٤) الشزر : النظر من ناحية شأن المتكبرين (م) .

ويوم صارأمس ، وحسرة بقيتْ فى النفس ، وثغر غاضَ ماؤُه فلا يرشف ، وريق خدع فلا ينشف ، وتمايل لا يعجب ، وتثنّ لا يطرب ، [ووجه زال بهاؤه] ، ومُقْلة لا تجرح ألحاظها ، وشفة لا تفتن ألفاظها ، فحتّام تُدِلّ ، وإلامَ نحتملُ وعلامَ ؟ وآن أن تذعِن الآن ، وقد بلغنى ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العِشاء فى الغَسَق ، وتشبيه يفتضحُ عند ذوى البصر والصدق ؛ من إفنائك لتلك الشعرات جفّا وحصّا ، وإنحائك عليها نقصا وقصّا . وسيكفينا الدهرُ مؤونة الإنكار عليك ، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته إليك ؛ فأما ما استأذنت فيه رأيى من الاختلاف إلى مجلسى فما أقلّ إليك نشاطى ، وأضيق عنك بساطى ، وأشنع قلقى منك ، وأشد استغنائى عن حضورك ، فإن حضرت فأنت داء نرُوضُ عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، ونتكلف فيه الاحتمال ، ونُغْضِى منه الجفنَ على قَذى ، ونطْوِى منه الصدر على أذى ، ونجعله للقلوب تأنيبا ، وللعيون تأديبا . ومالك إلا أن تعتاض من الرغبة عنّا رغبةً فينا . ومن ذلك التدلّل علينا تذللا لنا ، ومن ذلك التعالى تبَصْبصا ، ومن ذلك التغالى ترخُّصا ، وما بالُ الدهر أعقبك من التزايد تنقصا[1] ، ومن التسحُّب على الإخون تقمُّصا ، ولئن اعتضْتَ من الذهاب رُجوعا ، لقد اعتضنا من النزاع نُزُوعا[2] ، فأنا برَحْلك وجانبك ، ملقًى حَبْلك على غاربك ، لا أُوثِر قُرْبك ، ولا أندَه سِرْبك ، والسلام .

المقامة الأسدية من إنشاء البديع

ومن إنشاء بديع الزمان فى مقامات الإسكندرى ولعلّ ما فيها من الطول غير مملول . قال : حدثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلغُنى من مقامات الإسكندرى ما يُصْغِى له النفُور ، وينْتَفِضُ له العصفور ، ويُرْوَى لى من شِعْره ما يَمتزج بأجْزاء الهواء رِقّة ، ويَغْمُضُ عن أوهام الكهنَة دِقة ، وأنا أسألُ الله َبقاءه ،

(١) يقولون «بصبص الكلب بذنبه» إذا حركه يتملق به صاحبه (م) .

(٢) نزعت النفس إلى كذا نزاعا : اشتاقته ، ونزعت عنه نزوعا : انصرفت (م) .

حتى أُرْزَقَ لقاءَه، وأتعجّب من قعودِ هِمّته بحالته ، مع حُسْنِ آلتهِ ، وقد ضربَ الدهر شؤونه أسدادا[1] وهلمّ جرا . إلى أن اتفقَتْ لى حاجةٌ بحِمص ، فشحَذَتُ إليها الحِرْصَ ، فى صُحْبَة أفرادٍ كنجوم اللّيلِ ، أحْلاَس[2] لظهورِ الخيلِ ، فأخذنا الطريق نَنْتهبُ مسافتَه ، ونستأصِلُ شأفته ، ولم تَزَلْ نَفْرِى أسْنِمَةَ النِّجَادِ[3] بتلك الجيادِ ،حتى صِرْن كالعِصِيِّ ،ورَجَعْنَ كالقِسِيِّ، وتاح لنا وادٍ فى سفح جبل ، ذى ألاء وأثلٍ ، كالعذارى يُسَرّحْن الضفائرَ ، وينشُرْن الغدائر ، فمالتِ الهاجرةُ بنا إليها ، فنزلنا نُغوِّر ونَغُور ، وربَطْنا الأفراسَ بالأمْراس ، ومِلْنا مع النُّعاس ، فما راعَنا إلا صهيلُ الخيول ، ونظرتُ إلى فَرَسى وقد أرْهَفَ أذنيه ، وطمَحَ بعينيه ، يجُذُّ قُوَى الحَبل بمشافره ، ويخُدُّ خَدًّا الأرضِ بحوافره ، ثم اضطربت الخيلُ ، فأرسلت الأبوال ، وقطّعَتِ الحبالُ ، وصار كلٌّ منا إلى سلاحه ، فإذا الأسدُ فى فَرْوة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخا فى إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطَرْف قد ملىء صَلَفًا ، وأنف قد حشى أنفًا . وصدرٍ لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرُّعب ، فقلنا: خطْبٌ والله ملمّ ، وحادِثٌ مهمٌّ ، وتبادَرَنا إليه من سَرَعان الرُّفقة فتى :

أخضر الجِلدةمن بيت العرَب ... يملأ الدّلْوَ إلى عقد الكرَبْ

بقلبٍ ساقه قدر ، وسيفٍ كله أثرٌ ، فملكتْهُ سورة الأسد ، فخانته أرضُ قدمه ، حتى سقط ليده وفمه ، وتجاوز الأسد مَصْرَعه ، إلى مَن كان معه ، ودَعا الحينُ أخاه ، إلى مثل مادعاه ، فسار إليه ، وعقل الرُّعب يديه ، فأخذ أرضه وافترس الليثُ صدرُه ، ولكن شغلتُ بعمامتى فمه ، حتى حقنتُ دمه ، وقام الفتى فوَجأ بطنه حتى هلك من خوفه ، والأسد بالوجأة فى جوفه ، ونهضنا

(١) فى المقامات «ضرب الدهر شؤونه ، بأسداد دونه » (م)

(٢) أحلاس لظهور الخيل : يريد أنهم يلازمون ظهورها، كناية عن شجاعتهم وفروسيتهم (م) (٣) النجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض ، ضد السهل (م)

على أثر الخيل ، فتألفنا منها ما ثبت ، وتركنا ما أفلتَ ، وعدنا إلى الرفيق لنجهزه .

فلما حَثَوْنَا التربَ فوقَ رفيقنا جَزعنا ولكن أيُّ ساعة مَجزع

وعدنا إلى الفلاةْ ، فهبطنا أرضها ، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد ، ونفِدَ الزادُ ، أو كاد يدركه النفاد ، ولم نملك الذهاب ولا الرّجوع ، وخفنا القاتلين الظمأَ والجوعَ ، عنَّ لنا فارسٌ فصَمَدْنا صَمْده ، وقصدنا قصده ، ولما بلغنا نَزَلَ عن حاذ فرسه ينقُشُ الأرضَ بشفتيه ، ويلقى الترابَ بيديه ، وعمدنى من بين الجماعة ، فقبل ركابى ، وتحرّم بثيابى ، ونظرتُ فإذا وَجه يبرق برق العارض المتهلل ، وفرس متى ما ترقّ العينُ فيه تسهل ، وعارضٌ قداخضرّ ، وشاربٌ قد طر ، وساعدٌ ملآن ، وقضيب ريّان ، ونجار تركىّ ، وزى ملكى ، فقلت : ما جاء بك ؟ لا أبالك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك ، همّ من قتلى بهمّ ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى ، وشهدت شواهدُ حاله ، على صدق مقاله ، ثم قال : أنا اليوم عبدُك ، ومالى مالك ، فقلت : بشرى لك وبك ، أدّاك سيرُك إلى فناء رَحْب ، وعيش رَطْب ، وهنأتنى الجماعة ، بحسب الاستطاعة ، وجعل ينظرُ فتقتلنا ألحاظه ، وينطقُ فتفتننا ألفاظه ، والنفس تناجينى فيه بالمحظور ، والشيطان من وراء الغرور ، فقال : ياسادة ، إنّ فى سفح هذا الجبل عيناً ، وقد ركبتم فلاة عَوْراء[1] ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، وركبت الجنادبُ العيدانَ[2] ، فقال : ألا تقيلون فى هذا الظل الرّحب ، على هذا الماء العذب ؟ فقلنا : أنت وذاك ، فنزل عن فرَسه ، ونحى منطقته ، وحلّ قرطقته[3] ، فما استترعنا إلا بغلالة [تنمُّ] على بدنه ،

(١) فلاة عوراء : صحراء ليس بها ماء (م) .

(٢) ركبت الجنادب العيدان : كناية عن اشتداد الحر (م)

(٣) القرطق : ضرب من الكساء (م)

فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهرب من رضوان ، وعمد إلى السروج فحطها ، وإلى الأفراس فحشها(١) ، وإلى الأمكنة ففرشها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقعت الأبصارُ عليه ، وودّ كل منا شبقاً ، وخنث اللفظ ملقا .وقلت : يافتى ، ما ألطفك فى الخدمة ! وأحسنك فى الجملة ! فالويلُ لمن فارقته ، وطوبى لمن رافقته ، فكيف نشكر الله على النعمة بك ؟ ! فقال : ما سترونه أكثر ، أتعجبكم خفتى فى الخدمة ، فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة ؟ أريكم من حذقى طرفا ، لتزدادوا بى شغفاً ؟ فقلنا : هاتِ ، فعمد إلى قوس [أحدنا] فأوتره ؛ وفوّق سهماً فرماه فى السماء ، وأتبعه بآخر فشقه فى الهواء، وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كنانتى فأخذها ، وإلى فرسى فعلاه ، ورمى أحدنا بسهم أثبته فى صدره ، وآخر طيره من ظهره ، فقلت : ويحك ! ما تصنعُ ؟ قال : اسكت يالكع ، والله ليشدنّ كل منكم يدَ رفيقه ، أو لأغصنه بريقه ، فلم ندر ما نصنعُ ، وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطةٌ ، وأسلحتنا بعيدة ، وهو راكبٌ ونحن رجّالة ، والقوسُ فى يده يرشقُ بها الظهورَ ، ويمشق بها(٢) البطونَ والصدورَ ،وحين رأينا منه الجدّ ،أخذنا(٣) القِدَّ ، فشدّ بعضنا بعضاً ،وبقيت وحدى لا أجدُ من يشدُّنى ، فقال: اخرجْ بإهابك(٤) ، عن ثيابك ، ثم نزل عن فرسه ، وجعل يصفعُ الواحدَ منا بعد الآخر ، ويقول : أقت قضيبك ، فخذ نصيبك ، [ونزع ثيابه] وصار إلىّ وعلىّ خفّانِ جديدان فقال : اخلعهما لا أمّ لك ، فقلت : هذا خفّ لبستُه رَطباً ، فليس يمكننى خلعه فقال : علىّ نزعه ، ثم دنا ليزعَ الخف ، ومددتُ يدِى إلى سكّين فيه

---

(١) حشها : قدم لها الحشيش (م) (٢) يمشق : يضرب فى سرعة (م) .
(٣) القد ـ بكسر القاف ـ السير من جلد يربط به الأسير (م) .
(٤) الإهاب : الجلد (م) .

وهومشغول ، فأَثبَتُّه فى بطنه، وأبنته من مَتْنِه[1] . فمازادعلى فَم فَغَرَه[2] ، وألْقَمَه حجَره ، وقُمْتُ إلى أصحابى فحَللتُ أيدِيَهم ، وتوَزَّعنا سَلَب المقتولَيْن ، وأدركْنا الرفيق ، وقد جاد بنفسه ، وصار إلى رَمْسِه[3] ، وصِرْنا إلى الطريق فوردنا حِمْص بعد ليال ، فلما انتهينا إلى فُرْضَةٍ من سُوقِها رأينا رجلا قد قام على رأس ابن وبُنَيّة ، بجِراب وعُصَيّة ، وهو يقول :

رَحِم اللهُ من حَشَا ... فى جِرَابى مَكارِمَهْ

رَحِمَ اللهُ من رَنَى ... لسعيدٍ وفاطِمَهْ

إنّهُ خادِمٌ لكُمْ ... وهْىَ لا شكّ خادِمَهْ

قال عيسى بن هشام : فقلت : إنّ هذا الرجل هو الإسكندرى الذى سَمِعْتُ به وسألتُ عنه فإذا هو هو ، فدَلَفْتُ إليه ، فقلت له : أحكمك حكمك ، فقال : درهم ، فقلت :

لكَ دِرهمٌ فى مِثْلِه ... مادامَ يُسْعِدُنى النَّفَس

فاحسبْ حِسابَكَ والتمسْ ... كيما تنال الملتمَسْ

لك دِرهم فى اثنين ، وفى ثلاثة ، وفى أربعة ، فى خمسة حتى بلغتُ العشرين ، ثم قلت : كم معك ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرتُ له بها ، وقلت : لا نصرة مع الخِذْلان ، ولا حِيلَة مع الحِرْمَانِ .

وقال أبو فراس الحمدانى .

لأبى فراس الحمدانى يتغزل

سكِرتُ من لَحْظِه لا مِنْ مُدَامتِه ... ومال بالنومِ عن عينى تمايُله

وما السُّلافُ دَهَتْنِى بل سَوالِفُه ... ولاَ الشَّمولُ دهَتْنِى بل شمائِلُهُ

ألْوَى بصبْرِىَ أصْدَاغٌ لُوِينَ لهُ ... وغَالَ عَقْلِى[4] بما تَحْوِى غَلائِلُه

---

(١) أبنته : أظهرته ، وأراد أنفذه ، ومتنه : ظهره (م) .

(٢) فغر فمه : فتحه (م) . (٣) رمسه : قبره (م) .

(٤) ألوى به : ذهب به ، وغال عقلى : أضاعه وأهلكه (م) .

لابن المعتز في الغزل

وقال ابنُ المعتزّ ، وقد تقدَّم عنه في هذه الألفاظ :

ويوم فاختِيّ الدَّجن مُرْخ عَزَالِيَهُ بهَطْلٍ وانهمال[1]
أبحْتُ سرورَه وظللت فيه برَغْمِ العاذلات رَخِيَّ بَالِ
وساقٍ يحملُ المنديل منــهُ مكان حمائلِ السيفِ الطوالِ
غلالة خَدِّه صبغَتْ بوَرْدٍ ونون الصُّدْغ مُعْجَمة بخَالِ
بدا والصبحُ تحت الليل بادٍ كطِرْفٍ أبلقٍ مرخى الجِلال
بكأس من زجاج فيه أسْدٌ فرائسهن ألبــابُ الرجالِ
أقولُ وقد أخذت الكأس منهُ وقَتْكَ السوء ربَّاتُ الحجالِ

وقد أحسنَ ما شاء في قوله : * فرائسهن ألبابُ الرجالِ * وإن كان أصل المعنى لأبي نواس في ذكر تصاوير الكأس .

لأبي نواس في وصف يوم شرب

قال الصولي : مَرَّ أبو نواس بالمدائن فعدل إلى سَابَاط[2] ، فقال بعضُ أصحابه : ندخل إيوان كسرى ؛ فرأينا آثاراً في مكانٍ حسَن تدلُّ على اجتماع كان لقوم قبلنا ، فأقمنا خمسةَ أيام نشربُ هناك ، وسألنا أبا نواس صفةَ الحالِ ، فقال :

ودارِ نَدامَى عَطَّلُوها وأدْلجُوا بها أثرٌ منهم جَدِيدٌ ودارِسُ
مَساحِبُ من جَرِّ الزِّقاق على الثَّرَى وأضْغاثُ رَيْحانٍ جنِيٌّ ويَابِسُ
ولم أرَ منهم غيرَ ما شهِدَتْ بِهِ بشرقِي سَابَاطَ الديارُ البَسَابِس
حبَسْتُ بها صَحْبِي فجَمَّعتُ شَمْلَهم وإني على أمثال تلك لَحابِسُ
أقمْنَا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويومٌ له يوم الترحُّل خَامِسُ
تُدَارُ علينا الراحُ في عَسْجدِيَّةٍ حَبَتْها بأنواع التصــاويرِ فارسُ

---

(١) فاختى: منسوب إلى الفاختة ، واحدة الفواخت ، وهي من ذوات الأطواق من الحمام يشبه لونها ضوء القمر ، والدجن ـ بالفتح ـ الغيم ، وهو المطر الكثير ، وفي نسخة « فاحمى الدجن » والعزالى : جمع عزلاء ، وأصلها مصب الماء من الراوية . ويقال : « أرخت السماء عزاليها » إذا أريد الكناية عن اشتداد المطر (م) .

(٢) ساباط : موضع بمدائن كسرى (م) .

قرارَتُها كِسْرَى وفى جنَبَاتها مَهًى تَدَّريها بالقِسِىِّ الفوارسُ(١)
فللرّاحِ ما زُرّتْ عليه جيوبُها وللماءِ ما دارت عليه القَلانِسُ

وقال على بن العباس النوبختى : قال لى البحترى : أتدرى من أين أخذ الحسن قوله : * ولم أرَ منهم غيرما شَهِدَتْ به * ؟ . . البيتَ ــ فقلت : لا ، قال : من قول أبى خراش :

ولم أدر مَنْ ألقَى عليــه رِداءهُ سوى أنه قد سُلَّ عن ماجِدٍ مَحْض

فقلت : المعنى مختلف ، فقال : أما ترى حَذْوَ الـكلامِ واحداً ، وإن اختلف المعنى ؟ !

قال الجاحظ : نظَرْنَا فى الشعر القديم والمحْدَث فوجَدْنَا المعانى تُقْلَب و يؤخذ بعضُها من بعض ، غير قول عَنْتَرة فى الأوائل :

وخلا الذبابُ بها يُغَنّى وحْدَه غَرداً كفِعْلِ الشارب المترنّم
هَزِجا يَحُكُّ ذرَاعَه بذراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَم

وقول أبى نواس فى المحدثين :

قرارتُها كِسرى وفى جنباتها مَهًى تَدّريها بالقسىّ الفوارسُ
فللرّاح ما زُرّتْ عليه جيوبُها وللماء ما دارَتْ عليه القلانسُ

أخذه أبو العباس الناشىء فقال وولّد معنًى زائداً :

لأبى العباس الناشىء

ومُدَامَةٍ لا يبتغى مِنْ رَبّهِ أحدٌ حَباه بها لَدَيْهِ مزيدا
فى كأسها صُوَر تُظَنّ لحسْنها عُرُباً برزْنَ من الخيام وغِيدَا(٢)
و إذا المزاج أثارها فتقسَّمت ذهباً ودُرّا تَوْأماً وفريدا
فـكأنهن لبسْنَ ذاكَ مَجَاسِدا وجَعَلْنَ ذا لِنُحُورِهن عقُودا

لأبى خراش

وأبياتُ أبى خراش ، وكان خراش وعروة غزَوَا ثمالة فأسَروهُمَا ، وأخذوهما

(١) قرارتها كسرى : يريد أن فى قرارة الكأس صورة كسرى ، وفى جوانبها صور مهى ، وتدريها : تختلها ، والقسى : جمع قوس ، والفوارس : جمع فارس (م).
(٢) عرب : جمع عروب ــ بفتح أوله كصبور ــ وهى المرأة المتحببة إلى زوجها (م) .

وهمّوا بقتلهما ، فنهاهم بنو رزام ، وأبى بنو هلال إلا قَتْلَهما ، وأقبل رجل من بنى رزام فألْقَى على حراش رداءه ، وشُغِل القومُ بقَتْل عُرْوة ، وقال الرجل لخراش : انْجُهْ ، فنجا إلى أبيه ، فأخبره الخبر ، ولا تعرفُ العرب رجلا مدح مَنْ لا يعرفه غيرُهُ :

حمِدْتُ إلٰهى بعد عُرْوة إذ نَجا ... خِرَاشٌ وبعضُ الشرِ أهونُ من بعض

فواللهِ لا أنْسَى قتيلاً رُزِئْتُه ... بجانب قُوسَى ما مشيتُ على الأرض

بلى إنّها تَعْفُو الكُلومُ ، وإنما ... نُوَكَّل بالأدنى وإنْ جَلَّ ما يَمضِى (١)

ولم أدْرِ مَنْ ألْقَى عليه رِدَاءَهُ ... سوى أنّه قد سُلَّ عن ماجدٍ مَحْضِ

ولم يكُ مثلوجَ الفؤادِ مهبّجاً ... أضاع الشبابَ فى الرَّبِيلةِ والخَفْضِ (٢)

ولكنه قد لوَّحَتْه مَخَامِص ... على أنه ذو مِرّة صادقُ النهضِ

كأنهمُ يشّبّثون بطائر ... خفيفِ المُشَاشِ عَظْمُه غيرُ ذى نَحْضِ

يُبادِر فَوْتَ الليلِ نهو مُهابِذٌ ... يَحُثُّ الجناحَ بالتبسّطِ والقَبْضِ

الربيلة : الخفض والدعة ، والمهابذ : المجتهد فى العَدْو والطيران .

أبو خراش يرثى أخاه عروة

وقال أبو خراش يرثى أخاه عروة :

تقولُ أراه بعد عُرْوَةَ لاهياً ... وذلك رُزْءٌ لو علمْتِ جليلُ

فلا تحسَبِى أنى تناسيتُ عَهْدَهُ ... ولكنَّ صَبْرِى يا أميمَ جَميلُ

ألم تَعلمى أنْ قد تَفَرَّقَ قبلَنا ... خليلاَ صفاء مالكٌ وعَقِيلُ

وأنِّى إذا ما الصبحُ آنستُ ضوءه ... يعاودُنى قِطْعٌ علىَّ ثقيلُ

[أبى الصبرَ أنى لا أزالُ يهيجنى ... مبيتٌ لنا فيما مَضَى ومَقِيلُ]

مالك وعقيل اللذان ذكرهما نديما جذيمة الأبرش ، وكانا أتياه بابْنِ أخته عمرو ،

---

(١) حفظى « على أنها تعفو الكلوم » (م) .

(٢) مهبجاً : ثقيلا ، والربيلة : كثرة اللحم ، يريد لم يكن متثاقلا إذا دعى ولم يضيع أيامه فى اكتساب اللحم والشحم (م) .

وكان قد استهوته الجنّ ، فمنّاها فتمنّيا منادمته ، وهما اللذان عنى متمّم ابن نُوَيْرَةَ في مرثية أخيه مالك :

وكنّا كندمانَيْ جَذِيمةَ حِقْبَةً　　من الدهرِ حتى قيل لن يتصدّعا
فلما تفرّقنا كأنى ومالكا　　لطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلَةً معا

وقول عنترة في وَصْفِ الذباب أوْحَد فرد ، ويتيم فَذّ ، وقد تعلّق ابن الرومى بذيله وزاد معنًى آخر في قوله :

لابن الرومى

إذا رنقت شمسُ الأصيلِ ونفَّضَتْ　　على الأفق الغربىّ وَرْساً مُزَعْزَعا[1]
ولاحظتِ النُّوارَ وهى مريضةٌ　　وقد وضعَتْ خَداً على الأرض أضرعا
كما لاحظت عُوَّادَها عَيْنُ مُدْنَفٍ　　توجَّع من أوصابه ماتوجَّعا[2]
وبين إغضاء الفِراق عليهما　　كأنهما خِلاَّ صَفاء تودّعا
وقدضربَتْ في خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرةٌ　　من الشمس فاخضرَّاخضِراراً مشَعْشَعا
وظلَّت عيونُ النَّوْرِ تخضَلُّ بالندى　　كما اغرورقَتْ عَيْنُ الشَّجِىِّ لتَدْمَعا
وأذْكى نسيم الرَّوْضِ ريعانُ ظلّه　　وغنَّى مُغَنِّى الطيرِ فيه مُرَجِّعَا
وغرّد ربعى الذبابِ خِلالَهُ　　كما حَثْحَثَ النَّشْوَانُ صَنْجاً مشرّعَا
فكانت أرانين الذبابِ هناكُمُ　　على شَدَوَاتِ الطيرِ ضَرْبا موقّعا

لأبى نواس

وذكر أبو نواس معنًى قولِهِ في تصاوير الكئوس في مواضع من شعره فمن ذلك :

بنَيْنَا على كِسْرَى سماء مُدَامَةٍ　　مكلّلةً حافاتُهـا بنجُومِ
فَلَوْ رُدَّ في كِسْرَى بن ساسانَ رُوحُهُ　　إذاً لاَصطفَانى دونَ كلِّ نَدِيمِ

[وصف الدمن والأطلال]

وأول هذا الشعر :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدادُ طِيبَ نَسِيمِ　　على طولِ ما أقْوَت وحُسْنَ رسُومِ[3]

---

(١) الورس ـ بالفتح ـ نبت ذو نور أصفر يصبغ به (م) .
(٢) المدنف : المريض (م) .
(٣) الدمن : جمع دمنة ، وهى آثار الديار ، وأقوت : أقفرت (م) .

تجافَى البِلَى عنهنّ حتى كأنما . لبِسْنَ على الإقْوَاء ثوبَ نَعيمِ

وهذا معنًى مليح و إن أخذه من قول أعرابى :

شطّتْ بهم عنك نيةٌ قُذُفٌ غادرت الشعْبَ غيرَ مُلتَئِمِ (١)

واستودَعْتَ سِرَّهَا الديارَ فما تزدادُ طِيباً إلاّ على القِدَمِ

لابن وهيب

وهذا ضِدّ قول محمد بن وهيب :

طَلَلاَنِ طالَ عليهما الأمد دَرَسا فلا عَلَمٌ ولا قَصَدُ

لَبِساَ البِلَى فكأنما وَجَدَا بعد الأحِبَّة مثلَ ما وَجَدُوا

للأخطل

وقال الأخطل :

لأسماءَ مُحتَلٌّ بناظرةِ البشر قَديمٌ ولمّا يعفُه سالفُ الدَّهْرِ

يكادُ من العِرْفَانِ يَضْحَكُ رَسْمُهُ وكم من ليالٍ للديار ومن شَهْرِ

لأبى صخر

هذا أيضاً كقول أبى صخر الهذلى :

لِلَيْلَى بذاتِ الجَيْش دارٌ عرَفْتُها وأخرى بذاتِ البَيْنِ آياتُها سَطْرُ

كأنهما م الآن لم يتغيّرا وقد مرّ للدارينِ من بَعْدِنا عَصْرُ (٢)

لمزاحم العقيلى

وقد قال مُزَاحم العقيلى :

تَراها على طولِ القَوَاء جَديدةً وعَهْدُ المغانِى بالحلولِ قديمُ

وقرأ الزبير بن بكار أخبار أبى السائب [المخزومى] فلما بلغ إلى قول مالك بن أسماء الفزارى :

بكتِ الديارُ لفقْدِ ساكنها أفعِند قلبى أبتَغِى الصَّبْرَا ؟

لابن وهيب

هذا البيت نظير قول ابن وهيب :

بيناهُمُ سكنٌ بجيرَتِهِمْ ذكروا الفراقَ فأصبحوا سَفْرا

فظللت ذا ولَهٍ يعارِضُنِى مَنْ لايرَى أمْرِى له أمْرَا

---

(١) نية قذف : بعيدة .

(٢) م الآن : أصله « من الآن » حذف النون للتخفيف ، ومثله قول المتنبى :

نحن قوم ملجن فى زى ناس فوق طير لها شخوص الجمال (م .

وإن أبا السائب قال عند سماع البيت الأوسط : ما أسرع هذا ! أما اهتدَوْا ! أما قدّموا ركابا ! أما ودّعوا صديقاً ! فقال الزبير: رحم الله أبا السائب ! فكيف لو سمع قولَ العباس بن الأحنف :

سألونا عن حالِنا كيف أنتم　　فقَرنَّا وَدَاعَنا بالسؤالِ
ما أنخنا حتى ارتحَلْنا فما فَرْ　　رَقْنَ بين النزول والإرتحالِ[1]

هكذا رواه الزبير بن بكار لمالك بن أسماء، ورواها غيره لأيوب بن شبيب الباهلي.

ومن ألفاظ أهل العصر، فى صفة الديار الخالية

دارٌ لبِسَت البِلى، وتعطّلت من الحُلى . دار قد صارت من أهلها خالية ، بعد ما كانَتْ بهم حَالية . دار قد أنفَدَ البين سكانَها ، وأقعد حيطانها ، شاهد اليأس منها ينطِقُ ، وحَبْلُ الرجاء فيها يقصر . كأنّ عُمْرانها يُطوى وخرابَها يُنشر ، أركانُها قيام وقعود ، وحيطانها ركّعٌ وسُجود .

يشبه الأول من قول مالك بن أسماء قول مزاحم العقيلى .

بكَتْ دارُهم مِنْ فَقْدِهم فتهلّلت　　دموعى ، فأىّ الجازعَيْنِ ألومُ ؟[2]
أمستعبرٌ يَبكى على الهون والبِلَى　　أمَ آخر يَبكى شَجْوَه فيَهيمُ

للمتنبي

أبو الطيب المتنبي :

لكِ يا منازِلُ فى القلوبِ منازِلُ　　أقفرْتِ أنت وهُنّ منكِ أوَاهِلُ
يعْلَمْنَ ذاكِ ، وما علمتِ ، وإنما　　أولاكُما يبكى عليه العاقلُ

لعلى بن جبلة

وقال على بن جَبَلة ، فى معنى قول العباس بن الأحنف :

زائرٌ نَمّ عليه حسنُهُ　　كيف يُخْفِى الليلُ بَدْراً طلَعا
بأبى مَنْ زارَنى مكتتما　　خائفاً مِنْ كلّ أمرٍ جزِعا

---

(١) هكذا بقطع همزة « الإرتحال » ـ وهى همزة وصل ـ لضرورة إقامة الوزن (م) .

(٢) تهللت دموعى : انهلت وانصبت (م) .

رَصَدَ الغَفْلَةَ حتى أمكنَتْ ورَعى الحارسَ حتى هجَعا
رَكِبَ الأهوالَ فى زَوْرَته ثمّ ما سلّم حتى ودّعَا

للحسن ابن الضحاك

وقال الحسين بن الضحاك :

[بأبى زورٌ تلفّت له فتنفّستُ عليه الصُّعَدا [1]
بينما أضحكُ مسروراً به إذ تقطّعتُ عليه كمدَا [2]

للمتنبى

أبو الطيب المتنبى] :

بأبى مَنْ وددتُه فافترقْنَا وقضَى اللهُ بعد ذاك اجتماعا
فافترقْنَا حوْلا ، فلما اجتمَعْنا كان تسليمُه علىّ الوداعا

وقال أبو الحسن جحظة : قال لى خالد الكاتب : دخلتُ يوماً بعض الدّيارات فإذا أنا بشابٍ موثَق فى صِفَاد حسن الوجه ؛ فسلّمتُ عليه ، فردّ علىّ ، وقال : مَنْ أنت ؟ قلت : خالد بن يزيد ، فقال : صاحب المقطعات الرقيقة ؟ قلت : نعم ! فقال: إن رأيت أنْ تفرّجَ عنى ببعض ما تنشدنى من شعرك فافْعَل ، فأنشدته :

ترشّفْت من شَفتَيْها عقاراً وقبّلتُ من خَدها جُلنّارا [3]
وعانَقْتُ منها كثيباً مَهِيلاً وغُصْناً رَطِيباً وبدراً أنارا
وأبصرْتُ من نُورها فى الظلام لكلّ مكانٍ بليلٍ نهارا

فقال : أحسنت ! لا يفضُضِ اللهُ فَاك ، ثم قال : أجزْ لى هذين البيتين :

ربّ ليلٍ أمدّ من نَفَسِ العَا شِق طولاً قطعْتُه بانتحابِ
وحديثٍ ألذّ من نظَرِ الوا مق بدّلْتُه بسُوء العتابِ

فوالله لقد أعملت فكرى فما قدرت أن أجيزهما . [ويمكن أن يجازا بهذا البيت:

ووصالٍ أقلّ مِنْ لَمحة البَا رقِ عُوّضْتُ عنهُ طولَ اجتنابِ]

---

(١) الزور ــ بالفتح ــ الزائر . وأصله مصدر فوصف به ، والصعدا ــ بضم الصاد وفتح العين ــ أصله الصعداء ممدودا فقصره ضرورة (م) .
(٢) الكمد ــ بالتحريك ــ الحزن (م) .
(٣) العقار ــ بوزن غراب ــ الخمر (م) .

[طول الليل]

لابن الرومى

وقال ابنُ الرومى فى طول الليل :

رُبَّ ليلٍ كأنه الدهرُ طولاً قد تناهى فليس فيه مَزِيدُ
ذى نجومٍ كأنهنّ نجومُ الشَّيْبِ ليستْ تغيبُ لكن تَزِيدُ

لبشار

وهذا من أجود ما جاء فى هذا المعنى ، وقد قال بشار :

لخدَّيْكَ مِن كفَّيْكَ فى كلّ ليلةٍ إلى أن ترى وَجْهَ الصباح وِسَادُ
تبيتُ تُرَاعى الليلَ ترجو نَفَادهُ وليس لليل العاشقين نَفادُ(١)

وقال :

خليلىَّ ما بالُ الدُّجَى لا تزحزحُ وما بالُ ضوء الصبح لا يتوضَّحُ
أضلَّ النهارُ المستنيرُ سبيلَهُ أم الدهر ليلٌ كلّه ليس يَبرَحُ
كأنَّ الدجَى زادَتْ وما زادت الدجَى ولكنْ أطالَ الليلَ همٌّ مبرِّحُ

وقال [أيضاً] :

طال هذا الليلُ ، بل طال السهرْ ولقد أعرفُ لَيْلِى بالقِصَرْ
لم يطُلْ حتى جفانى شَادِنٌ نَاعِمُ الأطراف فَتَّانُ النظَرْ(٢)
لىَ فى ليلىَ منه لوعةٌ ملكَتْ قلبى وسَمعِى والبصَرْ
فكأن الهمّ شخصٌ ماثلٌ كلما أبصره النومُ نفَرْ(٣)

وقال أيضاً :

كأنّ فؤاده كرةٌ تنزَّى حذارَ البَيْن إن نفع الحذارُ(٤)
يروّعُه السرارُ بكل شىء مخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ
[كأن جفونه سُمِلَتْ بشوكٍ فليس لنومه فيها قرارُ]
أقول وليلتى تزدادُ طولاً : أما لليل بعدهمُ نهارُ

---

(١) ترجو نفاده : تتمنى زواله ، أو انتهاءه (م) .
(٢) الشادن : الظبى إذا قوى وترعرع (م)
(٣) شخص ماثل : قائم (م) . (٤) تنزى : تثب ، وأصله تتنزى (م)

جفَتْ عينى عن التغميض حتى كأنّ جفونَها فيها قِصارُ

قيل لبشار : من أين سرقت قولك : * يروِّعُه السرارُ بكلّ شىء *
فقال : من قول أشعب الطمع ، وقد قيل له : ما بلغ من طمَعِك؟قال : مارأيتُ اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يُريدان أن يأمرا لى بشىء . وأخذه أبو نواس فقال :

لا تبيحنّ حُرمة الكتمان راحةُ المستهامِ فى الإعلان
قد تسترْتُ بالسكوتِ وبالإطراق جهدى فنمّتِ العينانِ
تركَتْنى الوُشاة نصْبَ المشيرين وأحدوثةً بكل مكانِ
ما ترى خاليَيْنِ فى الناسِ إلا قُلْتُ ما يخلُوان إلا لِشانى

ومثل قول بشار : * جفَتْ عَيْنى عن التغميض * ... البيتَ ، قولُ الآخر :

كأنّ المحبَّ بطول السُّهادِ قصيرُ الجفونِ ولم تَقْصُرِ

وقد تناول هذا المعنى العتابى [فأفسده وقال] :

وَفى المآقِى انقباضٌ عن جفونهما وفى الجفونِ عن الآماقِ تقْصِيرُ

وقال المتنبي :

أعِيدوا صَباحى فَهْوَ عندالكواكبِ وردُّوا رُقادى فَهْوَ لَحْظُ الحبائبِ
كأنّ نهارى ليلةٌ مدلهمّةٌ على مُقْلةٍ من فَقْدِكم فى غَياهِبِ
بعيدةُ ما بَيْنَ الجفونِ كأنما عقدتم أعالِى كلّ هُدْبٍ بحاجب

أيهما أوصف لطول الليل ؟

وقال الشعبى : تشاجر الوليدُ بن عبدالملك ومسلمة أخوه فى شعر امرئ القيس والنابغة فى طول الليل ، أيهما أشعر ؟ فقال الوليد : النابغة أشعر ، وقال مسلمة : بل امرؤ القيس ، فرضيا بالشعبى ، فأحضراه ، فأنشده الوليد :

كِلينى لهمّ يا أُميمة ناصِبِ وليلٍ أُقاسيه بطىءِ الكواكبِ (١)
تطاوَل حتى قلتُ ليس بمنقَضٍ وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيبِ (٢)

---

(١) كلينى : اتركينى ، وناصب : صاحب نصب ، على النسب ، والنصب ــ بالتحريك ــ التعب (م) .

(٢) آيب : راجع ، والقياس أن يقال « آئب » بالهمز ، ولكنهم قد يخففون الهمزة بقلبها ياء لان الياء تجانس الكسرة (م) .

وصَدْرٍ أراحَ الليل عازبَ همِّهِ تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب[1]

وأنشده مسلمة قول امرئ القيس :

وليلٍ كموْجِ البَحْرِ أرْخَى سُدُولَهُ عليّ بأنواعِ الهموم ليَبْتَلي

فقلت له لما تمطّى بجَوْزه وأردفَ أعجازاً وناء بكَلْكَلِ

ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي بصُبح ، وما الإصباحُ منك بأمْثَلِ

فيالك من ليلٍ كأن نجومهُ بكل مُغار الفتل شُدّتْ بيَذْبُلِ

فطرب الوليد طرباً ، فقال الشعبي : بانت القضية .

معنى قول النابغة : * وصدر أراح الليل عازب همّه *

أنه جعل صَدْرَه مأوى للهموم ، وجعل الهموم كالنَّعَم السارحة الغادية ، تسرحُ نهاراً ثم تَأْتي إلى مكانها ليلا . وهو أول من استثار هذا المعنى ، ووصف أن الهمومَ مترادفةٌ بالليل لتقييد الألحاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتصرُّف اللحظ عن استعمال الفكر ، وامرؤ القيس كره أن يقول إن الهمّ يخفُّ عليه في وقت من الأوقات فقال : وما الإصباح منك بأمثل .

للطرماح

وقال الطرماحُ بن حكيم الطائي :

ألا أيها الليل الذي طال أصْبِحِ بيوم ، وما الإصباح فيك بأرْوَح

على أن للعينين في الصُّبْح رَاحةً لطرحهما طَرْفَيْهما كلَّ مَطْرَح

فنقل لفظ امرئ القيس ومعناه ، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فُحْش السرقةِ وإنما تنبّه عليه من قول النابغة ، إلا أنّ النابغة لوّح ، وهذا صرّح .

لابن بسام

وقال ابن بَسّام :

لا أظلمُ الليلَ ولا أدّعي أن نجومَ الليلِ ليستْ تَغُورْ[2]

ليْلِي كما شاءتْ ، فإنْ لم تَزُر طالَ ، وإن زارت فلَيْلِي قصيرْ

وإنما أغار ابنُ بسام على قولِ علي بن الخليل فلم يغير إلا القافية :

---

(١) أراح : رد ، والعازب : البعيد (م) .

(٢) ليست تغور : لاتغرب (م) .

لعلى ابن الخليل

لا أظلمُ الليلَ ولا أدعى أنَّ نجومَ الليل ليست تزولُ
ليلى كما شاءت ، قصيرٌ إذا جادَتْ ، وإن ضنَّتْ فليلى طويلْ

وهذه السرقةُ كما قال البديعُ فى التنبيه على أبى بكر الخوارزمى فى بيت أخذ رويّه و بعضَ لفظِه: « و إن كانت قضية القَطْعِ تجب فى الربع ، فما أشدشفقتى على جوارحه [أجمع] ؛ ولعمرى إن هذه ليستْ سرقة ، و إنما هى مكابرة محضة ، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال : هذه بضاعَتُنا رُدَّت إلينا ، فحسبت أن ربيعة ابن مكدم وعُتيبة بن الحارث بن شهاب كانا لا يستحلاَّ ن من البيت ما استحله ، فإنهما كانا يأخذان جُلَّه[1] ، وهذا الفاضل قدأخذ كله ، وقد أخذ على بن الخليل من قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان :

لا أسألُ اللهَ تغييراً لما صنعتْ نامَتْ وإن أسهرَتْ عينىّ عيناها
فالليلُ أطول شىء حين أفقدُها والليلُ أقصرُ شىء حين ألقاها

وابن بسام فى هذا [الشعر] كما قال الشاعر :

وفتى يقول الشعر إلا أنهُ فى كل حال يَسْرِقُ المسروقا

ألفاظ لأهل العصر فى طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة من غُصَص الصَّدْرِ ، ونِقَم الدهْرِ . ليلةُ هموم وغموم ، كما شاء الحسود، وساءَ الوَدود . ليلة قُصّ جناحُها ، وضَلَّ صباحُها . ليل ثابتُ الأطناب ، طامى الغوارب ، طَامح الأمواج[2] ، وافى الذَّوائب . ليال ليست لها أسْحَار ، وظلمات لا تتخللها أنوار . بات بليلة نابغية ، يُراد قوله :

---

(١) جله ـ بضم الجيم وتشديد اللام ـ معظمه (م) .
(٢) فى نسخة « طاغى الأمواج » (م) .

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرُّقْش فى أنيابها السُّمُّ نَاقِعُ[1]
[يُسَهَّدُ من ليل التّمام سليمُها لِحَلْىِ النساء فى يديه قعاقعُ]

بات فى الصيف بليلة شتوية . سامَرَتْه الهموم ، وعانَقَتْه الغموم ، واكتحَلَ المهاد ، وافترش القَتَاد[2]، فاكتحل[2] بمُلْمُول السهَر ، وتململ على فراش الفِكر . قد أقِضَّ مِهاده ، وقَلِقَ وسادُه . هموم تفرِّقُ بين الجَنْبِ والمهاد ، وتجْمَعُ بين العين والسُّهاد . طَرْف برَعْىِ النجوم مطروف ، وفراش بشعار الهمِّ محفوف . كأنه على النجوم رقيب ، وللظلام نَقيب .

ولهم فيما يتصل بضدّ ذلك من ذِكر [إقبال] الليل وانتشار الظلمة، وطلوع الكواكب

أقبلَتْ عساكِرُ الليل ، وخفقَتْ راياتُ الظلام . وقد أرخى الليلُ علينا سُدولَه ، وسحب الظلام فينا ذيوله . توقَّد الشفقُ فى ثوب الغَسَق . أقبلت وفودُ النجوم [وجاءت مواكب الكواكب . تفتّحت أزاهير النجومَ] ، وتوردت حدائقُ الجو ، وأذْكَى الفلكُ مصابيحه . قد طفت النجومُ فى بَحْرِ الدُّجَى ، ولبس الظلامُ جلبابا من القار . ليلة كغراب الشباب ، وحَدَق الحِسَان ، وذوائب العذارى . ليلة كأنها فى لباسِ بنى العباس[3] ليلة كأنها فى لباس الثكالى ، وكأنها من الغَيْش فى مواكب الحَبَش . ليلة قد حلك إهابها ، فكأنّ البحر يهابُها .

ولهم فى ذكر النوم والنعاس

شرِبَ كأسَ النعاس ، وانتشى من خمر الكَرَى[4]، قد عَسْكر النُّعَاسُ بطَرْفه ، وخيّم بين عينيه . غرق فى لُجَّةِ الكَرى ، وتمايل فى سَكْرَة النوم . قد كحل الليلُ الورَى بالرقاد ، وشامت الأعين أجفانها فى الأغماد .

(١) الرقش : جمع رقشاء، وهى الحية (م)
(٢) القتاد ـ بزنة السحاب ـ الشوك (م) .
(٣) كان العباسيون قد اتخذوا السواد شعارا فى لباسهم وفى راياتهم وبنودهم (م) .
(٤) الكرى : النوم (م) .

وفى انتصاف الليل وتناهيه ، وانتشار النور، وأفول النجوم

قد اكتمل الظلامُ . قد انتصفنا عُمْرَ الليلِ ، واستغرقنا شبابَه . قد شاب رأسُ الليل ، كاد ينِمُّ النسيمُ بالسَّحَرِ . قدانكشف غطاه الليلِ . انهتَكَ[1] ستْرُ الدّجى ، وشَمِطَتْ ذَوَائِبُه ، وتقوّسَ ظهرُه ، وتهــدّم عُمْره . قُوِّضت خيامُ الليل ، وخلع الأُفُق ثوبَ الدُّجى . أعرض الظلامُ وتولى ، [وتدلّى] عنقودُ الثريا طرَّز قميصُ الليل بغرّة الصبح ، و باح الصبح بسِرِّهِ . خلع الليلُ ثيابَه ، وحَدَر الصبحُ نِقَابَه . لاحت تباشيرُ الصبحِ ، وافترّ الفَجْرُ عن نواجذه ، وضرب النورُ فى الدُّجى بعموده . بَثَّ الصبح طَلائِعه . تبرقَعَ الليلُ بغُرَّةِ الصبح . أطار بازى الصبح غرابَ الليلِ[2] ، وعزلت نوافج الليل[3] بجامات الكافور ، وانهزم جُنْدُ الظلام عن عَسْكَر النور . خلعنَا خلعة الظّلامِ ، ولبسنا رداء الصباح ، وملأ الآذان بَرْقُ الصباح ، وســطع الضوء ، وطلع النور ، وأشرقت الدنيا ، وأضاءت الآفاق . مالت الجَوْزاء للغروب، وولت موا كبُ الكوا كب، وتناثرت عقودُ النجوم ، وفَرّت أسرابُ النجوم من حدَقِ الأنام ، وَهَى نِطاقُ الجوزاء ، وانطفأ قنديلُ الثريا . قال بعضُ الأعراب : خرجنا فى ليلة حِنْدِس قد أَلقَتْ على الأرض أكارِعَها ، فمحَتْ صورة الأبدان ، فما كنّا نتعارف إلا بالآذان .

قال ابن محكان السعدى :

وليلٍ يقول الناسُ فى ظلماتِه ... سواءٌ صحيحاتُ العيون وعُورُها
كأن لنا منه بيوتاً حصينةً ... مُسوحا أعاليها وساجاً ستورها[4]

وهذا بارع جدّا . أراد أنّ أعلاه أشدُّ ظلاما من جوانبه .

وقال أعرابى فى صفته : خرجتُ حين انحدرَت النجومُ ، وشالَتْ أرْجُلُها،

(١) فى إحدى المطبوعات « ستر الدجى هرم الليل » وليس بشىء (م) .
(٢) فى نسخة « أطار منادى الصبح غراب الليل » وليست بذاك (م) .
(٣) فى نسخة « نوافج المسك » (م) .
(٤) المسوح : جمع مسح ـ بالكسر ـ وهو ثوب من شعر أسود يشبه ثوب الرهبان ، والساج : خشب شجر ينبت بالهند ، ولونه أسود ، وفى نسخة «وساجا كسورها» (م) .

فما زِلْتُ أَصْدَعُ الليلَ حتى انصدعَ الفجر .

ومن بديع الشعر فى صفةِ الليل قول الأعرابى :

والليلُ يَطْرِدُه النهارُ ولا ترى   كالليلِ يطردُهُ النهارُ طَريداً

فتراه مثلَ البيتِ مَالَ رِوَاقُهُ   هتك المقوّضُ سِتْرَهُ الممدودَا

ومن البديع :

على حينِ أثنى القومُ خيراً على السُّرَى   وطارَتْ بأخرى الليلِ أجنحةُ الفَجْرِ

آخر :

وليل ذى غَيَاطِلَ مُدْلَهِمٍّ   رميتُ بفَجْبِه عرضَ الأفولِ

يردُّ الطرف منقبضاً كَليلا   ويملأُ هَوْلُه صَدْرَ الدَّليلِ

ابن المعز :

هامَتْ ركائبنا إليك بنا   بظليل أهلِ النارِ والمنح

فكأنَّ أيديهن دائبةً   يفحصْنَ ليلتهنَّ عن صُبحِ

وقال كشاجم :

يَا ليلِ قصرتُ مُدَّتهُ   بدير مَرَّان مَرَّ مشكورا

وبات بَدْرُ الدجى يشعشعها   نُورِيَّةً تملأُ الدُّجَى نُورَا[1]

غارَتْ على نفسها وقد سَفرتْ   فعاد جيبُ الحباب مزرُورَا

حتى رأيتُ الظلاَم يدرجُه الـ   ـغرب ودَرْجَ الصباحِ منشُورا[2]

فاختلط الليلُ والنهارُ كَما   تخلط كفٌّ مسكا وَكافوراً

وقال على بن محمد الكوفى :

مَتَى أرْتَجِى يوماً شفاءً من الضَّنا   إذا كان جارِيهِ علىَّ طبيبى

ولى عائداتٌ ضِفتُهن لجِئْنَ فى   لباسِ سوادٍ فى الظلام قشيبِ[3]

نجومٌ أرَاعِى طولَ ليلى برُوجَها   وهنَّ لبُعْدِ السير ذاتُ لُغوبِ .

---

(١) يشعشعها : يمزجها ، وأراد الخمر (م) .

(٢) فى نسخة « وبرد الصباح منشوراً » (م) . (٣) قشيب : جديد (م)

خوافقُ فى جُنْحِ الظلام كأنها ... قلوبٌ معدَّاةٌ بطولِ وَجِيبِ[1]
تَرَى حُوتَها فى الشرقِ ذاتَ سباحةٍ ... وعقربَها فى الغربِ ذاتَ دَبِيبِ[2]
إذا ماهوَى الإكليلُ منها حسِبْتَه ... تهدُّلَ غُصْنٍ فى الرياضِ رطيبِ
كأنَّ التى حولَ المجرَّةِ أوردَتْ ... لتَكرع فى ماء هناك صَبِيبِ
كأنَّ رسولَ الصُّبْحِ يخلطُ فى الدُّجى ... شجاعةَ مِقْدامٍ بجُبْنِ هَيُوبِ
كأنَّ اخضِرارَ البَحْرِ صَرْحٌ ممرَّدٌ ... وَفيه لآلٍ لم تُشَنْ بثقوبِ[3]
كأنَّ سوادَ الليلِ فى ضوءِ صُبْحِهِ ... سوادُ شبابٍ فى بياضِ مَشِيبِ
كأنَّ نذيرَ الشمسِ يحكى ببِشْرِهِ ... علىَّ بن دَاود أخِى ونسيبى
ولولا اتِّقَائى عَتْبَه قلت سيدى ... ولكن يَرَاهَا من أجلِّ ذنوبى
جوادٌ بما تَحْوِى يَدَاهُ مهذب ... أديبٌ غَدا خِلاًّ لكلِّ أديبِ
نسيب إخاه وهو غيرُ مناسبٍ ... قريبُ صفاء وهو غيرُ قريبِ
ونِسبةُ ما بينَ الأقاربِ وحشةٌ ... إذا لم يؤنِّسها انتسابُ قلوب

[أخو الصفاء قريب]

وهذا البيت كقول الطائى :

وقلتُ أخى قالوا أخٌ من قرابةٍ ... فقلت لهم إنَّ الشكولَ أقاربَ
[نسيبىَ فى رأيى وعزمى ومذهبى ... وإنْ باعَدَتْنَا فى الأصول المناسبُ]

وقال عبد السلام بن رغبان[4]، وسلك طريق الطائى [فما ضلَّ عنها] :

أخ كنتُ أبكيه دماً وَهوَ حاضرٌ ... حذاراً ، وتَعْنَى مُقْلتِى وَهْوَ غائبُ
بكاء أخ لم تَحْوِه بقرابة ... بَلَى إنَّ إخوانَ الصفاء أقاربُ
فمات فما شَوْقِى إلى الأجْرِ واقف ... ولا أنا فى عُمْرِى إلى اللهِ راغبُ
وأظلمتِ الدنيا التى أنتَ نورُها ... كأنك للدنيا أخٌ ومناسِب

---

(١) الوجيب : خفقان القلب واضطرابه (م) .
(٢) الحوت والعقرب والإكليل والمجرة : نجوم فى السماء (م) .
(٣) صرح : قصر عال ، وممرد : مطول أى عال ، ولم تشن : لم تعب (م) .
(٤) هو ديك الجن (م) .

أرى زمناً لم تبق فيــه مصائبُ ... يُبَرِّدُ نيرانَ المصــائبِ أننى

وفى هذه القصيدة :

ترشَّفَتْ أيامى وهُنَّ كوالحٌ ... إليك ، وغالَبْتُ الرَّدَى وهو غالِبُ
ودافعتُ فى كَيد الزمان ونَحْرِهِ ... وأىُّ يدٍ لى والزّمان المُحَارِبُ ؟
وقلتُ له : خَلِّ ابْنَ أُمّى لعُصْبَةٍ ... وهأنا أو فازْدَدْ فإنّا عصَائِبُ
فوالله إخلاصاً من القولِ صادقاً ... وإلاَّ فحُبِّى آلَ أحمدَ كاذِبُ
لَوَ أن يَدِى كانَتْ شِفَاءك أودَمِى ... دم القلب حتى يَقضِبَ الحَبْلَ قاضِبُ
لسلَّمتُ تَسْلِيمَ الرِّضَا واتخذتها ... يداً للرَّدَى ما حَجَّ لله راكِبُ
فَتًى كان مثل السيف من حيث جئتَهُ ... لنــائبةٍ نابَتْكَ فهو مُضَارِبُ
فتى هَمُّهُ حَمْدٌ على الدهر رابح ... وإن نابَ عنه مَالُهُ وهو عَازِبُ
شمائل إن تَشْهَدْ فهنَّ مشــاهد ... عظامٌ ، وإن ترحل فهنَّ رَكَائِبُ

وقال الطائى لعلىِّ بن الجهم :

إن يُكْدِ مُطَّرَفُ الإخاء فإننّــا ... نَغْدُو ونَسْرِى فى إخاء تالدِ[١]
أو يفترق نَسَبٌ يؤلِّفْ بيننا ... أدَبٌ أقمناهُ مقامَ الوالدِ
أو يختلف ماء الوصال فماؤُنا ... عَذْبٌ تحدَّرَ من غمامٍ وَاحِدِ[٢]

وقال محمدُ بن موسى بن حماد : سمعتُ علىَّ بن الجهم ، وذكر دِعبلا فلعنه ، وكفره ، وقال : وكان يطعَنُ على أبى تمــام ، وهو خيرٌ منــه ديناً وشــعراً ، فقال رجلٌ : لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مَدْحِك له . فقــال : إلاَّ يكن أخا نَسَب فهــو أخو أدَب ، أما سمعتَ ما خاطبنى به ؟ وأنشد الأبيات :

---

(١) المطرف والطارف والطريف : الجديد الحديث ، ويقابله التالد والتليد (م)

(٢) لأبى تمام فى استعارة الماء عبارات غريبة كماء الوصال هنا ، وماء الملام ، ونحو ذلك (م)

وقال رجل لابن المقفع : إذا لم يكن أخى صديقى لم أحبه ، قال : نعم صدقت ، الأخ نسيبُ الجسم ، والصديق نسيب الروح .

وقال أبو تمام يخاطب محمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفرٍ إن الجهالةَ أمُّها ... ولودٌ ، وأمُّ العلم جدّاء حائل[1]

أرى الحشوَ والدهماء أضحوا كأنهم ... شعوبٌ تلاقتْ دوننا وقبائل

غدَوْا وكأنَّ الجهل يجمعهم أبًا ... وحظ ذوى الآداب فيهم نوافل

فكن هضبةً تأوِى إليها وحرةً ... يُعرِّد عنها الأعوجىُّ المناقل[2]

فإن الفتى فى كل حال مناسبٌ ... مُنَاسبَ روحانيةَ مَنْ يشاكل

وقال البحترى لأبى القاسم بن خرداذبه :

إن كنتَ من فارسٍ فى بيتِ سؤددها ... وكنت من بحترى البيت والنسب[3]

فلم يَضِرْنَا تنَائِى المنصبين وقدْ ... رُحنا نسيبين فى علمٍ وفى أدبِ

إذا تقاربت الآدابُ والتأمتْ ... دَنَتْ مسافة بين العُجْمِ والعُرْبِ

[وصف النجوم]

لابن هانى الأندلسى

وقد احتَذى طريقَه أبو القاسم محمد بن هانىء ، فقال يمدحُ جعفر بن على ، وذكر النجوم ، فقال :

جعَلْنَا حشايانا ثِيابَ مُدامِنا ... وقدّت لنا الظلماء من جِلْدِها لحفا

فمن كبدٍ تُدْنى إلى كبد هَوًى ... ومن شفَةٍ تُوحى إلى شفَةٍ رَشْفا

بعيشك نبِّه كأسَه وجفونَهُ ... فقد نبّه الإبريقُ من بعد ما أغفَى

وقد فكّت الظلماء بعضَ قيودِها ... وقد قام جيشُ الليل للفجْرِ فاصطفّا

---

(١) جداء : صغيرة الثدى قليلة الدر ، وفى نسخة «جيداء» تطبيع (م)

(٢) يعرد عنها : يميل عنها وينفر منها ويهرب ، والأعوجى : الفرس المنسوب إلى أعوج وهو فرس مشهور (م)

(٣) فى ديوانه « وكنت من طىء فى البيت ـ إلخ » وفى نسخة « وكنت من محتدى فى البيت ـ إلخ » ولعل أصل مافى الأصل «وكنت من بحترى ـ إلخ » (م)

وولّتْ نجومٌ للثريا كأنهـا | خواتم تَبْدُو فى بنَانٍ يدٍ تخفى
ومـرّ على آثارِها دَبَرَانُهـا | كصاحب رِدْء أكمنت خيله خَلْفا[1]
وأقبلت الشّعرى العَبُور ملبـــة | بمرزمها اليعبوبِ نجنبه طرفا
وقد بادرَتها أختُها من وَرائهـا | لتخرق من ثِنْتَيْ مَجرّتها سِجْفا
تخافَ زَئِـيرَ الليث يقـدم نَثْرة | وبربر فى الظلماء ينسفها نَسْفاً
كأنّ السماكَيْنِ اللّذين تظـاهرا | على لِبْدَتَيْهِ ضامِنـان له الحَتْفَا
فذا رامِـح يَهْوى إليـه سِنَانُه | وذا أعزل قد عض أنمله لهْفا
كأن رقيبَ النجم أجدل مرقبٍ | يقلّب تحتَ الليلِ فى ريشِه طرفا
كأن سهيلا فى مَطالِع أفقهِ | مُفَارِقُ إلف لم يَجدْ بعـده إلفا
كأنّ بنى نَعْشٍ ونَعْشاً مَطَافِلٌ | بوَجْرَة قدأضللن فى مَهْمَهٍ خِشْفَا
كأن سُهاها عاشِقٌ بين عُوّدٍ | فآونةً يَبْدُو وآونةً يَخْفَى
كأن معلّى قُطْبِها فارسٌ لهُ | لواءان مَرْكُوزان قدكَرِهَ الزّحْفَا
كأن قدامَى النّسر والنّسْرُ واقعٌ | قُصِصن فلم تَسْمُ الخوافِى به ضَعْفَا
كأنّ أخـاهُ حـين دوّم طائراً | أتى دون نصف البَدْرِ فاختطف النّصْفَا
كأنّ المزيعَ الآبنوسىّ مَوْهِناً | سرى بالنسيج الخسروانىّ مُلْتَفّاً[2]
كأنّ ظلامَ الليلَ إذْ مال مَيْـلةً | صريعُ مُدامٍ بات يشربُها صِرْفَاً
كأنّ عمودَ الفجر خاقانُ عَسكَرٍ | من الترك نادَى بالنجاشىّ فاستَخْفَى
كأن لواءَ الشمسِ غُرّةُ جعفر | رأى القِرْن فازدادتْ طلاقته ضِعْفاً

لابن طباطبا العلوى

وقال ابن طباطبا [العلوى] :

كـأن اكتتامَ المشترى فى سَحَابهِ | وديعـةُ سرّ فى ضَمِيرِ مُذِيعِ
كأن سُهَيْـلاً والنجوم أمامَهُ | يعارِضُها راعٍ وراءَ قَطِيعِ

(١) الدبران : منزل القمر ، والشعرى العبور : نجم (م)

(٢) المزيع : الجزء من الليل ، والآبنوسى : أراد الأسود (م) .

وقد لاحتِ الشِّعرى العَبُور كأنها تَقَلُّب طَرْفٍ بالدموع همُوع
وأضحت الجوزاء فى أفق غَرْبها فباتتْ كنَشْوانٍ هناك صَرِيعِ
إلى أن أجاب الليلُ دَاعِيَ صُبْحِه وكان يُنادى منه غيرَ سميعِ

وقال :

وكأنَّ الهلالَ لما تَبدَّى شطر طوقِ المرآةِ ذى التذهيبِ
أو كقَوْسٍ قد انحنتْ طَرَفَاه أو كنُونٍ فى مُهْرَقٍ مكتوب

علي بن محمد العلوى

وقال على بن محمد العلوى يصف القمرَ ، وقد طرح جرمه على دِجلة :

لم أنسَ دِجْلَةَ والدُّجَى مُتَصرِّمٌ والبَدْرُ فى أفق السماء مغرِّبُ
فكأنها فيه رداء أزرقٌ وكأنه فيها طرازٌ مُذْهب

تميم بن المعز

وقال [الأمير] تميم بن المعز ، وكان يحتذِى مثل ابن المعتز ، ويقف فى التشبيهات بجانبه ، ويفرغ فيها على قالبه ، ويتبعه [فى] سلوك ألفاظ الملوك :

اسقِيانِى فلست أُصْغِى لعَذْلِ ليس إلّا تعلَّةَ النفس شُغْلِى
أأطيع العذول فى تركِ ما أهـوَى كأنى اتهمت رَأْيِى وعَقْلِى
عالانى بها فقد أقبل الليلُ كَلَوْن الصدود من بعد وَصْلِ
وانْجَلَى الغَيْمُ بعدما أضحكَ الرَّوْض بكاء السحاب جادَ بوَبْلِ
عن هلال كصَوْلجان نُضَارٍ فى سماء كأنها جَامُ ذَبْل

وقال :

ربَّ صفراء علَّلَتْنِى بصفراء وجُنْحُ الظَّلَام مُرْخَى الإزَارِ
بين ماء وروضةٍ وكروم ورَوَابٍ منيفةٍ وصحَارِ (١)
تتثنّى به الغصونُ علينا وتجيب القيانُ فيها القَمارى (٢)

(١) فى نسخه «بين ماء وبركة» والروابى: جمع رابية، وهو ما ارتفع من الأرض (م)
(٢) تتثنى : تتمايل ، والقيان : جمع قينة ، وهى الأمة المغنية ، والقمارى : جمع قمرى ، وهو ضرب من الحمام (م)

وكأن الدُّجَى غَدَائِرُ شَــعْرٍ وكأنَّ النجومَ فيهــا مَدَارِى[١]
وانجلَى الغيمُ عن هِلاَلٍ تبدَّى فى يَدِ الأُفْقِ مثل نِصْفِ سِوَارِ

وقال :

عتبتْ فانثنى عليهــا العِتَابُ ودَعا دَمْعَ مقلتيْها انسكَابُ
وضعت نحو خَدِّها بيديهــا فالْتَقَى اليــاسمينُ والعُنابُ[٢]
رُبَّ مُبْدِى تَعَتُّبٍ جعل العَتْــبَ رِياء وَهَمُّه الإعْتَابُ
فاسقنيها مُدَامةً تَصْبُغ الكأ سَ كما يصبُغ الخدودَ الشبابُ
ماترى الليل كيف رَقَّ دُجَاهُ وبَدَا طَيْلَسانُه يَنْجَابُ ؟
وكأنَّ الصباحَ فى الأفق بازٍ والدُّجَى بين مِخْلَبيْه غُرابُ
وكأنَّ السماء لُجَّةُ بَحْرٍ وكأنَّ النجومَ فيها حَبَابُ
وكأنَّ الجوزاءَ سَيْفٌ صَقِيل وكأنَّ الدُّجَى عليها قِرَابُ

من وصف الشراب والكؤوس والسُّقاة فى الليل

وقال :

وزنجيَّةِ الآباء كَرْخِيَّةِ الجَلَبْ عَبِيرِيَّةِ الأنفاسِ كَرْميَّةِ النَّسَبْ[٣]
كُمَيْت بزَلْنا دَنَّهــا فتفجَّرَتْ بأحمَرَ قَانٍ مثــل ما قَطَر الذَّهَبْ
فلمــا شرِبْنَاها صَبَوْنَا كأنَّنَا شرِبْنَا السرورَ المَحْضَ واللهوَ والطَّرَبْ
ولم نأتِ شيئًا يسخط المجدَ فِعْلُه ســوى أننا بِعْنَا الوقارَ من اللَّعِبْ
كأن كؤوسَ الشَّرْبِ وهى دوائر قطائعُ ماء جامدٍ تحمل اللَّهَبْ
يمدّ بها كفا خضيبا مُدِيرُهَا وليس بشىء غيرها هو مختضِبْ
فبتْنَا نُسَقَّى الشمسَ والليلُ راكدٌ ونقرب من بَدْرِ السماء وما قربْ

(١) المدارى : جمع مدرى ، وهى خشبة يمشط بها الشعر [المشط] (م)
(٢) فى نسخة « وسعت نحو خدها بيديها » وهى أليق مما هنا (م)
(٣) فى نسخة « عنابية الأنماس » (م)

وقـد حجب الغيمُ الهلالَ كأنهُ ستارة شَرْبٍ خلفها وَجْهُ من أحبّ
[كأنّ الثريّا تحت حُلكة لونها مداهن بلّور على الأرض تضطربْ]

وقال :

كأنّ السحابَ الغرّ أضبحن أكؤسا لنا ، وكأنّ الراحَ فيها سَنَا البَرْقِ
إلى أنْ رأيتُ النجمَ وهْو مغرّب وأقبل راياتُ الصباح من الشرق
كأن سوادَ الليلِ والصبحُ طالعٌ بقايا مجال الكُحْلِ فى الأعْيُنِ الزُّرْقِ

وقال :

وكأس يُعيدُ المُعْسِر يُسراً ، ويجتنى ثمارَ الغِنى للشَّرْبِ من شجر الفقْرِ
يولَّد فيهـا المزْجُ دُرًّا منضّـداً كما فتّتتْ فوق الثرى نُقط القطرِ[(١)]
صغار وكبرى فى الـكؤوس كأنها على الرّاح واوات تجمّعن فى سَطْرِ
إذا حثّها السـاقِى الأغرّ حسبْتَها نجومَ الثريا لُحْنَ فى راحةِ البدْرِ
صبحت بهاصحْبِى وقد رنْدَجَ الدُّجى بفضّة لألاءِ الصباح سَنَا الفَجْرِ[(٢)]
وقد أزْهَرَتْ بيضُ النجومِ كأنها على الأُفقِ الأعْلى قلائدُ من دُرّ

وقال :

ألاَ فاسقيانى قَهْوَةً ذهبيـةً فقد ألبسَ الآفاقَ جنحُ الدجى دَعَجْ
كأنّ الثريا والظلامُ يحفُّها فصوصُ لُجَيْنٍ قد أحاط بها سَبَجْ[(٣)]
كأنّ نجومَ الليـلِ تحتَ سوادِهِ إذا جنّ زنجىٌّ تبسّمَ عن فلج

وقال :

أيا دَيْرَ مرحنا سـقتْكَ رعـودُ من الغَيْم يهمى مزْنُها ويجودُ
فـكم واصلتنا فى رُبَاكَ أوَانِسُ يَطُفْنَ علينـا بالمُدَامَةِ غِيـدُ

---

(١) فى نسخة « نقطة القطر » والقطر ــ بالفتح ــ المطر (م)
(٢) رندج : سود ، مأخوذ من اليرندج ، وهو مايسود به الخف (م)
(٣) السبج ــ بالتحريك ــ خرز أسود (م)

[وكم ناب عن نُورِ الضحى فيك مَبْسِم ونابَتْ عن الوردِ الجنىّ خُدُودُ]
ومادَتْ على الـكُثبانِ قضبان فِضّةٍ فأثقلها من حَمْلِهنّ نهودُ
وإذْ لِمّتِى لم يوقظ الشيبُ ليلَها وإذ أثرى فى الغانياتِ حَمِيدُ
ليـالىَ أغدُو بين ثوبَىْ صبابةٍ ولَهْوٍ ، وأيامُ الزمانِ هُجُودُ

وقال :

سألتُه قبْلَةً منه على عَجَل فاحمرّ من خَجَل واصفرّ من وَجَلِ
وَاعْتَـلّ ما بينَ إسعافٍ يرقّقه وبين مَنْعٍ تمادَى فيـه بالعِلَلِ(١)

وقال : وجهىَ بَدْرٌ لا خفاء بهِ ومُبْصِرُ البَدْرِ لا يَدْعُوهُ للقُبَلِ

وهذا ينظرُ إلى قوله :

أباحَ لمُقلتى السهرَا وجار علىّ واقتَدَرَا
غزالٌ لو جَرَى نَفَسى عليه لذَابَ وانفطَرَا
ولـكِنْ عينُه حَشَدَتْ علىّ الغنْجَ والحوَرا
ومَنْ أوْدَى به قمرٌ فـكيفَ يعاتبُ القمرَا

كأنه ذهب إلى قول أبى نُوَاس :

كأنّ ثيابه أطلعـــن مِنْ أزراره قمَرَا
يزيدك وَجْهُه حُسْنا إذا ما زِدْتَه نظَرَا
بعيْنٍ خالَطَ التفتيـــرُ مِنْ أجفانها الحُورا
وَوَجْهٍ سابِرِىّ لو تَصَوّب ماؤه قطَرَا(٢)

قيل للجاحظ : مَنْ أنْشَدُ الناس وأشعرهم ؟ قال : الذى يقول : وأنشد هذه الأبيات .

ونظيرُ قولِهِ :

---

(١) فى نسخة « إسعاف يرقرقه » (م)
(٢) السابرى أصله الثوب الرقيق الجيد ، شبه به الوجه فى ملاسته ونعومته (م)

كأنَّ ثيابَه أطلعْـــــنَ من أزراره قمرا

قولُ الحكم[1] بن قنبر المازنى :

وَيْلِي على مَنْ أطارَ النومَ فامتنعا | وزاد قلبى إلى أوجاعِـه وَجَعا

وقال تميم :

نقبَتْ وجهَها بخزٍّ وجاءتْ | بمُدَامٍ منقَّبٍ بزُجَاجِ
فتأمَّلْت فى النقابَيْنِ منهـا | قمراً طالعاً وضوءَ سِرَاجِ
فاسقيَانى بلا مِزَاجٍ فإنِى | فى المعالِى صِرْفٌ بغير مِزَاجِ
وانظرا الأفْقَ كيف بدّله الإصـــباحُ من بَعْدِ آبنوسٍ بعَاجِ

وقال :

إذا حَـذِرْتَ زَماناً لا تُسَرُّ بهِ | كم قدأتى سَهلُ دهرٍ بعد أصْعَبِه[2]
فاقبَلْ من الدهرِ ما أعطاكَ مختلطاً | لعـــــلّ مُرّكَ يَحْلُو فى تقلّبِهِ
خُذْها إليك، ودَعْ لَوْمِى ،مشَعْشَعَةً | من كفّ أقنى أسيل الخدِّ مُذْهَبِه[3]
فى كل مُنْقِد حسن فيـه معترضٌ | عليـه يَحْمِيه من أن تَستبدَّ به
فكُحْلُ عينيـه ممنوعٌ بخَنْجَرِهِ | ووَرْدُ خـدَّيْهِ مَحْمِىٌّ بِعَقْرَبِه
لا تترك القدَحَ الملآنَ فى يدِهِ | إنى أخافُ عليـه من تلهُّبِه
فصُنْه عن سَقْيِنا ؛ إنى أغَارُ بِهِ | وسقّه واسْقِنى من فَضْلِ مَشْرَبِه
وانظرْ إلى الليلِ كالزّنجِىِّ منهزِماً | والصبحُ فى إثره يَعـدُو بأشْهَبِه
والبـدرُ منتَصِبٌ ما بين أنجُمِهِ | كأنه مَلِكٌ ما بَيْنَ مَوْكِبه

من المختار من شعر تميم بن المعز

وإذ أفضيت إلى ذكره ، فهاك من مختار شعره ، [قال] :

---

(١) فى نسخة « الحكيم بن قنبر » (م)
(٢) فى نسخة « وكم أتى سهل دهر ــ إلخ » (م)
(٣) فى نسخة « من كف ظبى أسيل الخد ــ إلخ » والأقنى : الوصف من القنا وهو ارتفاع قصبة الأنف ، وأسيل الخد : مستطيله فى رقة (م)

مُسْتَقبَلٌ بالذى يهوى و إن كثُرَتْ منه الذنوبُ ومقبولٌ بما صَنَعا
فى وجهه شـافعٌ يَمحُو إساءتَهُ من القلوب وَجِيهٌ حيثما شـفَعا
كأنما الشمسُ مِنْ أثوابه برزَتْ حسناً، أو البدرُ من أزرارِه طَلَعا

استعارة [مأخوذة] من قول الآخر ، وهو ابن زُريق :

أستودعُ الله فى بغداد لِى قمرا بالـكَرْخ من فَلَكِ الأزرار مَطْلَعهُ

ومن قول أحمد بن يحيى القران :

بَدَا فـكأنما قمرٌ على أزراره طلعَا
يحثّ المسكَ من عَرقِ الـجبين بنانُه وَلَعـا

وقال أبو ذر أستاذ سيف[1] الدولةِ :

نفسى الفِدَاء لمن عصيتُ عَواذِلى فى حُبِّهِ لم أخْشَ مِنْ رُقبَائِهِ
الشمس تظهرُ فى أسِرَّة وجْهِهِ والبـدرُ يَطْلُعُ من خِلاَلَ قَبَائِهِ[2]

وقال تميم :

أأعذل قَلْـبِى وَهْوَ لِى غيرُ عاذِل وأعْصِى غرامى وهو ما بين أضْلعى
ومَنْ لى بِصَبْرٍ أستزِيلُ به الجَوى ولا جلدى طوعِى ولا كَبِدى مَعِى
فأوّلُ شـوقِى كانَ آخرَ سَلْوَتى وآخرُ صَبْرِى كان أوّل أدْمُعِى

وقال :

وَرْدُ الخدودِ أرَقُّ من وَرْدِ الرياضِ وَأنْعَمُ
هـذا تنشّقُهُ الأنو فُ وذَا يقبِّلُه الفَمُ
وإذا عَدَلْتُ فأفضَلُ الـوَرْدَيْنِ وَرْدٌ يُلْثَمُ
لا وَرْدَ إلاّ ما توَلَّـى صِبْغَ حُمْرَتهِ الدَّمُ
هـذا يُشمُّ ولا يضـمّ وذَا يُضَمُّ ويُشْمَمُ[3]

(١) فى نسخة « وقال سيف الدولة » وفى أخرى « وقال أبو دارسان » تحريف (م) (٢) فى نسخة « والبدر يطلع من خلال تقائه » (م)

(٣) كان من حق العربية عليه أن يقول « ويشم » بالإدغام ، لـكنه فك الإدغام إقامة لوزن البيت (م)

سُبْحان من خلق الخدود دَ شقائقاً تتنَسّمُ
وأعارَها الأصداغ فهى بها شقيق يُعْلَمُ
واستنطقَ الأجفانَ فهى بلَحْظِها تتكلَّمُ
وتُبِينُ للمحبوبِ عَنْ سرِّ الحبيبِ فيفهَمُ
وتشير إن رأتِ الرقيبَ بلَحْظِها فتُسلِّمُ
وأعارَها مَرَضاً تَصِحُّ به القلوبُ وتَسْقَمُ
فِتَنُ العيون أجَلُّ من فِتَن الخدودِ وأعظمُ

وقال :

إنْ كانتِ الألحاظُ رُسْلَ القلوبْ فينا فما أهونَ كَيْدَ الرقيبْ
قبَّلْتُ مَنْ أهوى بعينى ولم يعلَمْ بتقبيلىَ خَدَّ الحبيبْ
لكنَّه قد فطِنَتْ عَيْنُهُ بلَحْظِ عينى فِطْنَةَ المستريبْ
إن كان علمُ الغيبِ مستخفياً عَنّا فعِنْدَ اللَّحْظِ علمُ الغيوبْ

وقال :

قالوا الرحيل لخمسةٍ تأتى سَرِيعاً من جمادى
فأجَبْتهم إنى اتخذْ ت له الأسى والحزنَ زادا[1]
سبحانَ مَنْ قسَم الأسى بين الأحِبَّةِ والبعادا
وأعارَ للأجفانِ حُسْناً تسترِقُّ به العِبادا

وقال :

عقْرَبُ الصُّدْغِ فوق تفّاحةِ الخدّ نعيمٌ مُطَرَّزٌ بعذابِ
وسيوفُ اللحاظ فى كلّ حِينٍ مانعاتٌ جَنى الثنايا العِذَابِ[2]
وعيونُ الوشاةِ يُفسِدْن بالرِّقْبَةِ والمَنْعِ رؤيةَ الأحبابِ[3]

(١) الأسى : الحزن الشديد (م) (٢) جنى الثنايا : أراد به الريق (م)
(٣) الرقبة ـ بالكسر ـ المراقبة (م)

فتى يَشتَفِى المحِبُّ وتُطْــفَى بالتدانِى حرارةُ الإكتئاب

وقال :

ترى عِذارَيه قد قاما بمعــذرتى عنـد العَذُول فيَغدُو وهو يعذِرُنى

رِيمٌ كأنَّ له فى كل جارِحةٍ عقدا من الحسْنِ أوْ نَوعاً من الفِتَنِ

كأنَّ جوهرَهُ من لُطفه عَرَضٌ فليس تحْويِهِ إلا أعيُنُ الفطـن

والله ما فتنَتْ عينى محاســـنُهُ إلا وقد سَحرتْ ألفاظُه أذُنى

ما تصدُرُ العينُ عنـه لحظَها مللاً لأنه كلّ شَخْصٍ مرتضًى حَسَنِ

يا منتَهى أمَلِى لا تُدْنِ لى أجَلِى ولا تعذِّبْ ظنونى فيك بالظَّنَنِ

إنْ كان وجهك وجهاً صِيغ من قمرٍ فإن قــدَّك قَدٌّ قُدَّ مِن غُصُنِ

وقال :

ألا يا نســيمَ الريح عرِّجْ مسلِّما على ذلك الشخصِ البعيدِ المودِّعِ

وهُبَّ على مَنْ شَفَّ جِسْمِى بعادُهُ سَمُوما بما استمليْتَ من نارِ أضلُعى (١)

فإنْ قال: ماهذا الحَرورُ؟ فقل لهُ : تَنَفُّسُ مُشتاقٍ بحبِّـك مُوجَعِ

ومختارُ شعره كثير ، وقد تفرّق منه قطعةٌ كافية فى أعراض الـكتاب .

[عَوْدٌ إلى وصف النجوم]

رجع ما انقطع

قال الصاحب أبو القاسم إسمعيل بن عباد :

الصاحب ابن عباد

لقد رحلَتْ سُعْدَى فهل لك مُسْعِد؟ وقد أنجدَتْ داراً فهل أنت مُنْجِدُ ؟

رعيتُ بطرفى النجمَ لما رأيتهـا تبَاعَدُ بُعْدَ النَّجْمِ بل هى أبْعَدُ

تُنيرُ الثريَّا وهى قُرط مسلسَـلٌ ويشغل منهـا الطرفَ دُرٌّ مُبَدَّدُ (٢)

وتعترِضُ الجوزاء وهى كـكاعب تَمِيلُ من سكرٍ بهـــا وتَمِيدُ (٣)

---

(١) السموم ـ بفتح السين ـ الريح الحارة تهب فى النهار غالباً، ومراده الريح الحارة مطلقاً ؛ بدليل أنه سماها حروراً فى البيت التالى، وأصل الحرور الريح الحارة تهب بالليل، غالباً (م) (٢) فى نسخة « ويطرف عنها الطرف در منضد » وفى أخرى « ويطرد عنها الطرف در منضد » (م) (٣) فى نسخة « وهى كواكب ـ إلخ » (م)

ونحسبها طَوْراً أسيرَ جنايةٍ ترشَّحَ بعدَ المشيِ وهو مُقيَّد
ولاحَ سُهيلٌ وهو للصُّبح رَاقِبٌ كما سُلَّ مِنْ غمدٍ جُرَازٌ مهنَّدٌ(١)
أرَدِّدُ طَرْفِي فى النجوم كأنها دنانيرُ لكنَّ السماءَ زَبَرْجَدُ
رأيتُ بها، والصبحُ ماحانَ وِرْدُهُ، قناديلَ والخضراء صَرْحٌ مُمرَّدٌ(٢)
وفيه لنا من مربط الشمسِ أشقرٌ إذا ما جرى فالريحُ تكبُو وتركدُ

لأبى على الحاتمى

وقال أبو على الحاتمى :

وليلٍ أقمنا فيه نُعْمِل كأسَنا إلى أن بَدَا للصُّبح فى الليلِ عَسْكَرُ
ونَجْمُ الثريا فى السماء كأنهُ على حُلَّةٍ زَرْقَاءَ جَيْبٌ مُدَنَّرٌ(٣)

للبحترى

البحترى :

ولقد سَرَيْتُ مع الكواكب راكباً أعجازَها بعزيمةٍ كالكوكبِ
والليلُ فى لونِ الغُرَابِ كأنهُ هو فى حُلُوكَتِه وإن لم يَنعَبِ
والعِيسُ تنصل من دُجاه كما انجلَى صبغُ الخضَابِ عن القَذَالِ الأشيَبِ
حتى تبدَّى الفَجْرُ من جنبَاته كالماء يَلْمَعُ من خِلَالِ الطُّحْلُبِ

للميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى .

أهلاً بفَجْرٍ قد نَضَى ثوبَ الدُّجى كالسيف جُرِّد من سَوَادِ قِرَابِ(٤)
أو غادةٍ شَقَّتْ صِداراً أزرقا ما بين ثُغْرَتِها إلى الأترابِ(٥)

لرجل من بنى الحارث ابن كعب

وقال رجلٌ من بنى الحارث بن كعب يصف الشمس :

مخبأةٌ أمَّا إذا الليلُ جَنَّها فتخْفَى وأمَّا بالنهار فتظهرُ
إذا انشقَّ عنها ساطِعُ الفَجْرِ وانْجَلَى دُجَى الليلِ وانجابَ الحجَابُ المستَّرُ
وألبس عرض الأرضِ لوناً كأنهُ على الأفق الشرْقِيِّ ثوبٌ مُعَصْفَرُ
تجلَّتْ وفيها حين يَبْدُو شعاعُها ولم يعلُ للعينِ القصيرةِ مَنظَرُ(٦)

---

(١) الجراز – بالضم بزنة غراب – السيف القاطع ، والمهند : المصنوع فى الهند (م)
(٢) الخضراء : السماء ، والصرح الممرد : القصر الرفيع
(٣) فى نسخة « جيب مدثر » تطبيع (م) (٤) قراب السيف : غمده
(٥) فى نسخة « صداراً أورقا » تطبيع (م) (٦) فى نسخة « ولم يحل للعين – إلخ »

عليها كَرَدْع الزعفرانِ يشبّهُ ... شعاعٌ تلألأ فهو أبيضُ أصفرُ[1]

فلما علَتْ وابيضّ منها اصفرارُها ... وجالَتْ كما جَالَ المَنيحُ المشهَّرُ[2]

وجلَّتِ الآفاقَ ضوءاً ينيرها ... بحرٌ لها وَجْهَ الضُّحَى. تتسعّرُ[3]

ترى الظل يُطْوَى حين تَبْدُو وتارةً ... تراه إذا زالتْ عن الأرض يُنْشَر

كما بدأتْ إذْ أشرقَتْ فى مَغيبها ... تعود كما عادَ الكبيرُ المعمَّر

وتَدْنَفُ حتى مايكادُ شعاعُها ... يَبين إذا ولَّتْ لمن يتبصّرُ

فأفنَتْ قروناوهْيَ فى ذاك لم تَزَلْ ... تموتُ وتَحْيَا كلّ يوم وتُنْشَر

[أجمل ماقال العرب]

وقال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوما : ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب فى الجاهلية ؟ فأنشده :

منع البقاءَ تقلُّبُ الشمس ... وطلوعُها من حيث لا تمسى

وطلوعُها بيضاءَ صافيةً ... وغروبُها صفراءَ كالوَرْسِ

تجرى على كَبِدِ السماء كما ... يَجْرِى حِمامُ الموتِ فى النَّفْسِ

اليوم تَعْلَم مايجىء به ... ومضَى بفَصْل قضائِه أمْسِ

قال : أحسنت ، فأخبرنى بأمْدح بيتٍ قَالَتْه العرب فى الشجاعة ، قال : قول كعب بن مالك الأنصارى :

نَصِلُ السيوفَ إذاقصُرْنَ بخَطْوِنا ... قُدُماً ، ونلحقها إذا لم تلحقِ

قال : فأخبرنى بأفضل بيتٍ قيل فى الجود ، فأنشده لحاتم طيىء :

---

(١) فى نسخة « كدرع الزعفران » تطبيع ؛ وردع الزعفران : أثره (م)

(٢) المنيح: أحد ثلاثة أقداح من أقداح الميسر لانصيب لواحدمنها،والآخران: السفيح ، والوغد (م) (٣) وجه الضحى : أوله ، وانتصابه على الظرفية (م)

أماوىّ ما يُغنى الثراءُ عن الفتىَ إذاحشرَجتْ يوماًوضاق بها الصدر
ترىْ أن ما أبقيتُ لم أكُ ربَّهُ وأن يدى مما بَخِلتُ به صِفرُ
ألم ترَ أنّ المـالَ غادٍ ورائحٌ ويبقَى من المال الأحاديثُ والذكرُ
غَنِينا زمانا بالتّصَعْلُك والغِنَى فـكلاً سقاناَهُ بكأسيهما الدّهرُ
فما زادَنا بَغْيًا على ذِى قرابةٍ غِنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقرُ

قال : فأخبرنى عن أحسَن الناس وصفا ، قال : الذى[1] يقول :

كأنّ قلوبَ الطيرِ رَطباً ويابساً لدىَ وَكرِها العنّابُ والحشَفُ البالِى

والذى يقولُ :

كأنّ عيونَ الوَحْشِ حول خِبَائنا وأرحُلنا الجَزْعُ الذِى لم يُثَقّبِ

والذى يقول :

وتعرفُ فيه من أبيه شمائلاً ومن خالِه ومن يزيد ومن حُجُرْ
سماحة ذَا، مع بِرّ ذَا ، ووفاء ذَا ونائل ذَا إذا صَحَا وإذا سَكِرْ

يريد امرأ القيس .

ومن ألفاظ أهل العصر فى طلوع الشمس وغروبها

ومتوع النهار[2] وانتصافه ، وابتدائه ، وانتهائه

بدا حاجِبُ الشمسِ ، ولمعَتْ فى أجنحةِ الطيرِ ، وكشفَتْ قِناعها، ونشرتْ شُعاعَها ، وارتفع سُرادِقُها ، وأضاءتْ مشارِقُها ، وانتشر جناحُ الضوءِ فى أفق الجو . طَنّبَ شعاعُ الشمس فى الآفاق،وذهّبَتْ أطْراف الجدران. أينع النهارُ[3] وارتفع. استوى شَبَابُ النهار ، وعلا رونق الضحى ، وبلغت الشمسُ كبدالسماء

(١) الأبيات الآتية فى الوصف كلها لامرىء القيس بن حجر الكندى (م)
(٢) تقول « متع النهار » من باب فتح ــ إذا ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال (م)
(٣) كذا . وفى نسخة « أينع النهار » وما أراها شيئاً (م)

انتعل كل شىء ظلّه ، وقام قائمُ الهاجِرَة ،ورمَت الشمس بجمَرَاتِ الظهر .اصفرَّتْ غِلاَلَةُ الشمسِ ، وصارت كأنها الدينارُ يلمعُ فى قرارِ المـاء ، ونفضَتْ تِبراً على الأصيل .وشَدَّتْ رَحْلَها للرحيل،وتصوَّبَتْ الشمسُ للمغيب،وتضيَّفَتْ للغروب[١] فأَذِن جَنبُها للوُجوب[٢] . شاب النهارُ ، وأقبل شبابُ الليلِ ، ووقفت الشمسُ للعيان ، وشافهَ الليلُ لسان النهارِ . الشمسُ قد أشرقَتْ بروجُها ، وجنحت للغروب ، وشافَهتْ دَرج الوجوبِ. الجوُّ فى أطمار منهجة من أصائله[٣] ، وشفوف مورَّسَة من غلاَئله . استتر وَجْهُ الشمسِ بالنِّقَاب ، وتوارَتْ بالحجابِ .كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق ، إلى مجتمع الغسَق .فلانٌ يركبُ فى مقدمة الصُّبح، ويرجع فى ساقة الشفق ، ومن حين تفتحُ الشمس جَفْنَها، إلى أن تغمض طَرْفها ، ومن حين تسكنُ الطيرُ أوكارَها ، إلى حينَ ينزلُ السَّرَاةُ مِنْ أكوارِها

* * *

المقامة الكوفية

مقامة لأبى الفتح الإسكندرى من إنشاء البديع ،اتصَلَتْ بذكرِ الليلِ والنهار

قال عيسى بن هشَام : كنت وَأنا فَتِيُّ السنِّ أشدُّ رَحْلِي لـكلِّ عَمَايَة، وأركضُ طِرْفِي لـكل غَوَاية ، حتى شربْتُ من العُمْرِ سائغه،ولبسْتُ من الدهر سابغَه ، فلمَّا صاح النهارُ بجانب ليلى ، وجمعتُ للمعادِ ذَيْلِى ، وطِئْتُ ظهْرَ المَرُوضة ، لأداء المفروضة ، وصَحِبَنِى فى الطريقُ رَجُل لم أنـكره من سوء ، فلما تجالينا ، وحين تجالينا ، سفرَتِ القصَّةُ عن أصلٍ كوفىّ ، ومَذْهَب صوفىّ، وسِرْنا فلما حللنا الـكوفةَ مِلْنَا إلى داره [ودخلناها] وقد بَقَل وجْهُ النهار ، واخضرَّ جانبُهُ ، ولما اغتمض جَفْنُ الليلِ وطَرَّ شارِبُه قُرِعَ علينا الباب ، فقلْنا :من القارعُ المُنْتَابُ ؟ فقال : وَفْدُ الليل وبريده ، وفَلُّ الجوع وطريده ، وأسير

(١) تضيفت للغروب : مالت نحو المعرب (م)

(٢) أذن جنبها : استمع ، وأراد أطاع ، والوجوب : السقوط (م)

(٣) الأطمار : جمع طمر — بالكسر — وهو الثوب البالى ، ومنهجة : ممزقة بالية ، والأصائل : جمع أصيل ، وهو الوقت الذى قبل غروب الشمس ، وفى نسخة « الجو فى أطيار بهجة — إلخ » (م)

الضّر ، والزمن المرّ ، وضيفٌ وطْؤه خفيف ، وضالّتُه رَغيف ، وجارٌ يستَعْدِى على الجوع ، والجَيْبِ المَرقوع ، وغريب أُوقِدت النارُ على سفره ، ونبحَ العَوّاء فى أثره (١) ، ونُبِذت خَلْفه الحُصيّاتُ ، وكُنِسَتْ بعده العَرَصات ، فنِضْوُه طَليح ، وعَيْشُه تبريح (٢) ، ومن دون أفراخه مَهَامِه فيح (٣) .

قال عيسى بن هشام : فقبَضْتُ من كيسى قَبْضَةَ الليثِ و بعثتُها إليه ، وقلتُ زِدْنا سؤالا نَزِدْكَ نَوالا ، فقال : ماعُرِض عَرْفُ العودِ ، على أحرَّ من نارِ الجُودِ ، ولا لُقِيَ وَفْدُ البرِّ ، بأحسن من بريد الشكر ، ومن ملك الفَضْل فليواس ، فلا يَذْهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس ، وأما أنتَ فحقَّق اللهُ أملَك ، وجعَل اليدَ العُلْيا لك .

قال عيسى بن هشام : ففتحنا البابَ ، فإذا شيخُنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلنا : يا أبا الفتح ، شدَّ ما بلَغتْ بك الخَصاصَةُ ، وهذا الزىُّ خاصة ! فتبسم وأنشأ يقول :

لا يَغُرَّنْكَ الذى أنا فيه من الطلَبْ
أنا فى بُرْدَة تُشَقُّ لها بُرْدَةُ الطَّرَبْ
أنا لو شِئتُ لاتَّخذْتُ شِقَاقا من الذهَبْ

[من رسائل البديع]

من البديع إلى بعض إخوانه

وكتب البديعُ إلى بعض إخوانه : غضبُ العاشقِ أقصرُ عمراً من أن ينتظِرَ عُذْرًا ، و إن كان فى الظاهر مَهَابَة سيْف ، إنه فى الباطن سحابةُ صَيْف ، وقد رَابنى إعراضه صَفْحا ، أجِدًّا قصدَ أمْ مَزْحاً ، ولو التبس القَلْبان حقَّ التباسهما ما وجد الشيطانُ بينهما مساغا ، ولا والله لا أُريكَ رَدًّا ، أجِدُ منهُ بدًّا ، وإن محبة تحتمل شَكاً لأجْدَرُ محبة ، ألاّ تُشْتَرى بحبَّةٍ ، وإنْ كان

(١) نبح الكلب بباحا : صاح ، والعواء : الكلب الكثير العواء (م)

(٢) نضوه — بالكسر — أراد به مطيته ، وطليح : هزيل مريض ؛ وتبريح من قولهم « برح به المرض ونحوه » إذا شق عليه وأجهده (م)

(٣) المهامه : جمع مهمه، وهى الصحراء ؛ والفيح: جمع فيحا. وهى الواسعة (م)

قصَدَ مَزْحا فما أغنانا عن مَزْح يحلُّ عُقَد الفؤاد [حتى نقف على المراد ، ولا تسعنا إلا العافية] والسلام .

رسالة أخرى من البديع إلى صديق له

وله إليه : المودّة ـ أعزّك الله ـ غَيْب ، وهو فى مكان من الصَّدْر ، لا ينفذه بصر ، ولا يُدْرِكه نَظَر ، ولكنها تُعْرَف ضرورة ، وإن لم تظهر صُورَة ، ويدرِكها الناس ، وإن لم تدركها الحوَاسّ ، ويستَمْلِي المرء صحيفتَها من صدره ، ويعلم حالَ غيرِه من نفسه ، ويعلم أنها حبٌّ وراء القلب ، وقلب وراء الخِلْب[1] ، وخِلْب وراء العَظم ، وعَظْمٌ وراء اللحم ، ولحم ورَاءَ الجلد ، وجلدٌ وراء البُرْد ، وبُرد [وراء البعد] . ولو كانت هذه الحجُبُ قوارير لم ينفذها نظر ، فيستَدِلّ عليها بغيرِ هذه الحاسّة بدليل إلاّ أن أزوره ، والله لو التبست به التباساً ، يجعل رأسينا رأساً ، مازدْته ودًّا ، ولوحال بينى و بينه سُورُ الأعرافِ ، ورمْلُ الأحقافِ ، ما نقصته حقاً .

* * *

لأبى الفضل الميكالى

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى :

وغَزَالٍ مَنَحْتهُ ظاهرَ الودِّ فجازَى بالصدِّ والإنتحاب
لم أَلمـــهُ إن ردَّنى لحجابِ ردّنى والِهَ الفؤاد لِمَا بى[2]
هو روحٌ وليس يُنكَر للرُّو ح تَوَارٍ عن الوَرَى بحِجَابِ

* * *

وللبديع إلى أخيه :

من البديع إلى أخيه

كتابى أطال اللهُ بقاءك ، ونحن وإن بعُدَتِ الدارُ فَرْعاَ نَبْعَة ، فلا يَجْنِينَّ بُعْدِى على قُرْبك ، ولا تمحوَنّ ذِكْرِى من قلبك ، فالأخوَان ، وإن كان أحدُهما بخراسان والآخر بالحجاز ، مجتمعان على الحقيقةِ مفترقان على المجاز ، والاثنان ، فى

(١) الخلب ـ بكسر الخاء وسكون اللام ـ لحمة رقيقة تصل بين الأضلاع .

(٢) فى نسخة :

« لم ألمه إذ ازوى فى حجاب * ردنى واله الحشا دا التهاب » (م)

المعنى واحد وفى اللفظ اثْنَانِ ، وما بينى و بينك إلا ستر،طولُهُ فِتْرٌ ، و إن صاحبى رَفيق ، اسمه سوفيق ، لنلتقينّ سريعاً ولنسعدَنّ جميعاً ، واللهُ ولىُّ المأمول .

من ابن العميد لبعض إخوانه

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه :

قد قرُبَ ـ أيدك الله ـ محلّك على تَرَاخِيه ، وتَصاقَب مستقرُّك على تَنَائيه؛ لأنّ الشوقَ يمثّلُك ، والذكر يخيّلك ؛ فنحنُ فى الظاهر على افتراق ، وفى الباطن على تلاق، وفى التسميةِ مُتَباينون ، وفى المعنى متواصلُون ، و إن تفارقت الأشباحُ، لقد تعانقت الأرواح .

جملة من كلام ابن المعتز فى الفصول القصار

الدهرُ سريعُ الوثبة ، شنيع العَثْرَة . أهلُ الدنيا كرَكْبٍ يُسَارُ بهم وهم نِيام . والناسُ وَفْدُ البِلى، وسكّان الثَّرَى ، وأقْران الرَّدَى . المرء نُصْبُ الحوادثِ وأسيرُ الاغترار. الآمالُ حَصَائِدُ[1] الرجالِ. الحِرْصُ يَنْقُصُ المرءَ من قَدْرِه،ولا يزيدُ فى رِزْقه . الكذب والحسدُ والنفاق أثافِىّ الذلّ . النّمامُ جِسْرُ الشر . الحاسدُ اسمهُ صديق ومعناه عدوّ الحاسدُ ساخِطٌ على القدَر،مغتاظٌ على من لاذنْبَ له،بخيل بما لايملكه ، يشفيك [منه] أنه يغتمّ فى وقت سرورك.الفُرْصَة سريعةُ الفَوْتِ بَطيئةُ العَوْد . الصبرُ من ذى المصيبة مصيبةٌ على ذوِى الشّمات . التواضعُ سُلَّم الشرف ، والجُود صِوَانُ العرضِ من الذم . الغَدْر قاطع. [الأسرار] إذا كثر[2] خُزّانها ازدادت ضياعا السوءُ كشجرة النار يَحْرِق بعضُها بعضا . عَبْدُ الشهوة أذلُّ من عبد الرقّ . وعاء الخطأ بالصَّمْت يختم ، والخرق بالرفقِ يلحم . الوَعْدُ مرضُ المعروف ، والإنجازُ برؤه ، والمَطْل تلفه . إذا حَضرَ الأجل ، افتضح

---

(١) فى نسخة « الآمال مصاير الرجال » ولاتصح لفظاً ولا معنى (م)

(٢) فى نسخة « كنوز السر إذا كثر خزانها ـ إلخ » (م)

الأمل . لاتَشِنْ وَجْهَ العفوِ بالتقريع . لا تنكحْ خاطبَ سِرّك . ومن زَاد أَدَبُه على عقله كان كالراعى الضعيف مع شاء كثيرة .

قال أبو العباس الناشىء لأبى سهل بن نوبخت :

زعمْتَ أبا سهل بأنك جامعٌ ضُروبًا من الآداب يجمعُها الكَهْلُ

وهَبْكَ تقولُ الحقَّ أى فضيلةٍ تكونُ لذى عِلْمٍ وليس له عَقْلُ

والهمُّ حَبْسُ الروح. قلوبُ العقلاء حصونُ الأسرار . مَن كَرُمَتْ عليه نفسُه هان عليه مالُه . مَنْ جرى فى عنان أمله ، عثر بأجَلِه . ما كلُّ من [يُحْسِنُ] وعدَه يحسنُ إنجازه . ربما أوردَ الطمعُ ولم يُصْدِر ، وضمن ولم يُوفِ . وربما شرق شاربُ الماء قبل ريّه . من تجاوزَ الكفافَ لم يُقْنِعْه إكثارٌ . كلما عظُم قَدْرُ المُنَافَسِ فيه عظمت الفجيعةُ بفَقْدِه ، ومن أرْحَلَهُ الحِرْص أنضاه الطلب . الأمانىّ تُعْمِى أعيُنَ البصائر ، والحظُّ يأتى من لم يؤمه . وربما كان الطمعُ وعاء حَشْوُهُ المتالف ، وسائقًا يَدْعُو إلى الندامة . ما أحْلَى تلقّى البغية ، وأمرَّ عاقبة الفراق . من لم يتأمّل الأمرَ بعَيْنِ عقله ، لم تقعْ حيلتُه إلاّ على مَقَاتِله .

[رثاء المعتضد ، وتعزيته]

وقال أبو العباس يَرْثى المعتضد :

قضَوْا ماقضَوْا من أمرِهم ثم قدَّموا إماما إمام الخَلْق بين يَدَيْه[1]

وصلوا عليـــه خاشعين كأنهم صفوفٌ قيامٌ للسلامِ عليـــه

وقال يَرْثيه :

قالت شريرة ما لجفْنِك ساهراً قَلِقًا ، وقد هدأتْ عيونُ النُّوَّمِ[2]

ما قد رأيتُ من الزمانِ أحلّ بى . هذا ، وتحت الصَّدْرِ ما لم تَعلَمِى

(١) فى نسخة « ثم قدموا * إماما إمام الحق ـ إلخ » (م)

(٢) فى نسخة « قالت سريرة » بالسين المهملة (م)

يانفس صبراً للزمانِ وريْبهِ ... فهو المليء بما كرهْتِ فسلّمى
إنّ الذى حازَ الفضائلَ كلَّها ... هو ذاكَ فى قَعْرِ الضريحِ المُظلِمِ
أما السيوفُ فمن صنائع بأسهِ ... لولاه لم يَرْوَيْنَ من سَفْكِ الدّم
وكأنّ أحْدَاثَ الزمانِ عبيدهُ ... فمتى يؤخّرهن لا تستقدم
يقْظانَ من سِنَةِ المضيّع قلبُهُ ... ومعوّل للمُعْوِلِ المتظلّمِ
يرْعَى الضغائنَ قبل ساعةِ فرصةٍ ... فإذا رآها أمكنَتْ لم يُحْجِمِ
كم فرصةٍ تُرِكَتْ فصارَتْ غصّةً ... تَشْجَى بطولِ تلهُّفٍ وتندُّمِ
ولرب كَيْدٍ ظلَّ يَنْجُد بعدها ... فى بشْرِ وَجْهٍ مطلَقٍ متجهّمِ
وهى المنايا إن رمين بنَبْلِها ... يرمين فى نَفْسِ الأجلِّ الأعظم
للهِ دَرُّكَ أى ليث كتيبةٍ ... والخيلُ تعثر بالقنَا المتحطّم
ولقد عمرت ولا حريم معاند ... حرمٌ ولا الإسلام بالمستسلم

وقال للمعتضد يعزّيه بابنهِ هرون :

ياناصرَ الدينِ إذ هُدّتْ قواعِدُهُ ... وأصْدَقَ الناسِ فى بُؤْسى وإنعام
وقائدَ الخيلِ مذ شُدّتْ مآزِرُهُ ... مذلّلاتٍ بإسْرَاج وإلجام
كأنهن قناً ليسَتْ لها عُقَدٌ ... يهزُّهَا الزَّجْرُ فى كرٍّ وإقدامِ
قُبّ كَطَىِّ ثيابِ العَصْبِ مضمرة ... تقرِّبُ النارَ بين البيض والهامِ[1]
وسائسَ الملك يَرْعاه ويكلؤُهُ ... إذا حلاَ الغمضُ فى أجفانِ نُوَّامِ
تَمْرِى أنامِلُه الدنيا لصاحبها ... ونَصْلُه مِنْ عِدَاهُ قاطرٌ دامِى[2]
كالسّهم يبعثُه الرّامِى فصفحتُه ... تَلْقى الرَّدَى دونَه، والفُوقُ للرامِى[3]
لا يَشْتَكى الدّهرَ إنْ خَطْبٌ ألمّ بهِ ... إلاّ إلى صَمْدَةٍ أوحَدِّ صَمصامِ[4]
صبراً، فدَيْناكَ إنّ الصبرَ عادَتُنَا ... وإن طُوِينَا على حُزْنٍ وتهيام

(١) فى نسخة « قب كطى ثياب القصر » تطبيع ، والعصب ـ بالفتح ـ برد يمنى يجمع غزله ويشد ثم يصبغ وينسج ، وقيل : هى برود مخططة (م)

(٢) تمرى : أصله قولهم « مرى فلان الضرع يمريه » إذا استخرج لبنه (م)

(٣) فوق السهم : موضع الوتر منه (م)

(٤) الصمصام : السيف (م)

فبادِر الاجْرَ نحو الصَّبْرِ محتَسِباً إنَّ الجزوعَ صَبُورٌ بعــد أيامِ

تعزيته فى جزع جاريته دريدة

ولما ماتت دُريدة[1]، وهى جارِيةٌ [المعتضد،و] كانت مَــكِينةً عنده ،جزِع عليها جزعا شديداً ، فقال له عبيد الله بن سليمان : مثلُك يا أميرَ المؤمنين تَهُون عليه المصائبُ ؛ لأنك تجدُ من كل فقيدٍ خَلَفا ، وتنالُ جميعَ ما تريد من العِوَض ، والعِوَض لايوجَد منك، فلا ابتَـلى اللهُ الإسلام بفقْدِك، وعمره بطولِ بقاءعُمْرك، وكأن الشاعر عَنَى أمير المؤمنين بقوله :

يُبْــكَى علينا ولا نَبــكِى على أحَدٍ لنَحْنُ أغْلَظُ أكباداً من الإبلِ

فضحك المعتضد وتسلّى وعاد إلى عادته .

قال محمد بنُ داود الجراح : فلقينى عبيدُ الله فأخبرنى بذلك ، وقال : أردت شعراً فى معنى البيت الذى أنشدته فما وجدته ؛ فقلت له قد قال البطين البجلى :

طوى الموتُ ما بينى و بين أحبَّةٍ بهم كُنتُ أُعطِى مَنْ أشاء وأمنعُ

فلا يحسب الوَاشُون أنَّ قَناتَنا تَلِينُ،ولا أنَّا من الموتِ نَجْزَعُ

ولــكنّ للألّافِ ــلابدّــ لَوْعَةً إذا جعلت أقرانهـــا تتطلَّعُ[2]

فــكتبه ، وقال : لو حفظته لما عدلتُ عنه .

[من شعر ابن المعتز]

وقال ابن المعتز ، وذكر الموتى :

وسُــكَّانِ دارٍ لا تَزَاوُرَ بينهم على قُرْبِ بعضٍ فى المحلة من بَعْضِ

كأنَّ خواتما من الطــينِ فوقهم فليس لها حتى القيــامة من فَضِّ

وقال يمدح عبيد الله بن سليمان :

---

(١) فى نسخة « دورة » (م)

(٢) فى نسخة « إذا جعلت أقرانها تتقطع » (م)

أيا مُوصِلَ النُّعمَى على كلِّ حالةٍ إلىَّ قريباً كنتُ أو نازحَ الدّارِ
كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْلِه وإن جادَ فى أرضٍ سِواها بإمطار
ويا مقبلاً والدَّهْرُ عنىَ مُعْرِضٌ يقسّمُ لحمِى بين نابٍ وأظفارِ
ويا مَنْ يَرَانِى حيث كنتُ بقلبهِ وكم من أناسٍ لا يَرَوْنَ بأبْصَارِ
لقد رُمْتَ بى آمالَ نفسىَ كلها فيا لَهْفَ نفسِى لو أُعِنْتَ بمقدار
ذكرتَ مُنى سَمْع الإمام وعينه ورفّعت نارى كى يرى ضوءها السارى
وكم نعمةٍ لله فى صرْفِ نِقْمَةٍ ترجّى ومكروهٍ حَلاَ بعد إمرار
وما كلُّ ما تَهْوَى النفوسُ بنافعٍ ولا كلّ ما تخشى النفوسُ بضَرّار

قوله : * كما يلحق الغيثُ البلادَ بسَيْله * مأخوذ من قول سهشل بن حرى وقد بعث إليه كثير بن الصَّلْتِ كُسوةً ومالا من المدينة :

جزَى اللهُ خيراً والجزاء بكفّهِ بنى الصَّلْتِ إخوانَ السماحةِ والمجدِ
أتانى وأهْلِى بالعراقِ نداهُمُ كما انقضّ سيلٌ من تهامة أو نجدِ

وقال ابن المَوْلى :

سُرِرْتُ بجعفرٍ إذْ حَلّ أرضِى كما سُرّ المسافرُ بالإيَابِ
كممطورٍ ببلدتِهِ فأضْحَى غَنِيًّا عن مطالَعة السَّحَابِ

* * *

وبعث عبدُ الله بنُ طاهر إلى أبى الجنوب بن أبى حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ دِرْهم فقال :

لعمرى لنعم الغَيْثُ غيثٌ أصابنا ببغداد من أرْض الجزيرةِ وَابِلُه(١)
ونِعْمَ الفتى والبِيدُ بينى وبينهُ بعشرين ألفًا صبّحَتْنِى رسائلُه(٢)

---

(١) الوابل : المطر الغزير (م)
(٢) البيد : الصحارى ، واحدها بيداء (م)

فـكنّا كحيٍّ صبّحَ الغيْثُ أهلهُ ولم تنتجِعْ أظعـانُه وحَمائله
أتى جودُ عبدِ اللهِ حتى كفت بهِ رواحلَنا سيرَ الفَلاةِ رَوَاحِلُه

[أبو شجاع]

وكانت بنو كلاب ومن والاها من العرب بنواحى الكوفه تجمّعوا وعزَمُوا على أخْذِ الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة،فبعثأبوشجاع عضد الدولة دِنير[1] ابن لشكروز فأصلحهما ، وكان أبو الطيب المتنبى بها فوصله و بعث إليه خلعاً وقاد إليه فرساً بسَرْجٍ ثقيل ، فقال فى قصيدة :

فـلو لم يَسِر سِرْنَا إليـه بأنفُسٍ غرائِبَ يُؤثِرْنَ الجيادَ على الأهْـلِ
وما أنا ممن يدَّعِى الشَّوْقَ قلبُـه ويعتَـلّ فى تَرْكِ الزيارةِ بالشُغْل
ولـكن رأيت الفَضْلَ فى القَصْدِ شِرْكَةً فكان لكَ الفَضْلانِ فى القَصْدِ والفَضْل
وليسَ الذى يتَّبِع الوَبْلَ رائداً كمَنْ جاءه فى دَارِه رائِدُ الوَبْل

[الموفق العباسى]

وكان ابنُ المعتزّ يمـدحُ أبا أحمد بن المتوكل ، ويلقّب بالناصر والموفّق ، وكانت حالُه ترامَتْ فى أيام المعتضد إلى غايةٍ لم يبلغها الخليفة ، وقد ذكرها الصولى فى قصيدة [لصاحب المغرب] ،فقال وقد اقتصّ خلفاء بنى العباس من أوّلهم:

ومعتضد مِنْ بعده وموفَّق يُرَدِّدُ من إرث الخلافة ماذَهبْ
مُوَازٍ لهم فى كل فَضْلٍ وسؤدد وإن لم يكن فى العدّ منهم لِمَنْ حَسَبْ[2]

وقال المعتضد ، أو قِيلَ على لسانه ، لما غلب الموفّق على أمره :

أليس من العجائبِ أنّ مثلى يرى ما هَانَ ممتنِعاً عليـهِ
وتؤخـذ باسْمِه الدنيا جميعاً وما مِنْ ذاك شىء فى يديهِ

وشعر ابن المعتز فيه :

(١) فى شرح ديوان المتنبى « دلير » باللام مكان النون (م)

(٢) فى نسخة « ينازلهم فى كل فضل — إلخ » (م)

إليك امتطينا العِيسَ تنفخ فى البُرى | وللصُّبْحِ طَرْفٌ بالظلامِ كَحيل
صَدِينَ من التَّهْجيرِ حتى كأنها | سيوفٌ جلاَها الصَّقْل فهى تحُولُ
فبتْنَا ضُــيوفاً للفَلاَةِ قِرَاهم | عَنِيق ونَصٌّ دائمٌ وذَمِيــلُ(١)
يهزّ برودَ العَضْـبِ فَوْقَ متونِها | نسيمٌ كنَفْثِ الراقياتِ عَلِيــلُ
ولما طغى أمْرُ الدَّعِيّ رميتَـــهُ | بعَزْمٍ يردُّ العَضْبَ وهو فَلِيلُ(٢)
وجــرّد من أغماده كل مُرْهَفٍ | إذا ما انتضَتْه الــكفُّ كاد يَسيلُ
جرَى فوق مَتْنَيه الفِرِنْدُ كأنما | تنفّس فيــه القَيْنُ وهو صقيلُ
وأعلمتــه كيف التصــافُح بالقنَا | وكيف تُروِّى البيضُ وَهْىَ مُحُولُ
سريعٌ إلى الأعداء، أما جنــابُه | فماضٍ، وأمّا وَجْهُه فجميـــلُ
ويقْرِى السؤال العُذْرَ من بعد ماله | ويستصغرُ المعروفَ حينَ يُنِيلُ

أخذ معنى قوله : « نسيم كنفث الراقيات عليل» عبدُ الـكريم بنُ إبراهيم، فقال :

سلامٌ على طِيب رَوْحاتنا | إلى القَصْرِ والنَّهَرِ الخِضْرِمِ(٣)
إلى مُزْبِدِ المَوْجِ طامِى العُبَا | ب يقذِفُ بالْبَانِ والساسمِ(٤)
تخَـــالُ به قَطماً مُقْرَما | يكرّ على قَطمٍ مُقْـــرمِ
ويَسجُو فيسحب فى ذائل | يَمَانٍ تَســـهَّم بالأنجُمِ
كأن الشمال على وَجْهِه | بها سَـــقَم وهى لمْ تَسْقَمِ
ضعيفة رَشٍّ كنَفْثِ الرّقى | على كبد المُدْنف المُغْرَمِ
إذَا دَرجَتْ فوقه دَرجَتَــه فى حَبَك الزَّرَدِ المحْـكمِ
وقد جللتَـــهُ بأوراقِها | فروعٌ غذَتْها نِطَافُ النَّمِ
علّتها الحَـــامُ بتغريدها | كما سجَعَ النَّوْحُ فى مَأتَمِ

(١) العنيق ، والنص ، والذميل : ضروب من السير السريع (م)
(٢) العضب : السيف القاطع ، وفليل : مكسور (م)
(٣) الخضرم : العظيم (م) (٤) الساسم : شجر أسود،ويقال:هو الآبنوس(م)

كأنّ شعاعَ الضحَى بينها ... على السوسن الغضّ والخُرّمِ
وشـــائع من ذَهَب سائل ... على خسروانيّـــة نُمّم
رُبا تتفقـــأ من فوقها ... عزَالِي الربيع لها اســـرزمٍ(١)
على كل محبية خـــلة ... تسدّى على جـــدْوَلٍ مفعَم
كما فتـــل الوَقْفَ صوّاغهُ ... وكالأرقم انسابَ للأرقم

[صاحب الزنج]

وقول ابن المعتز «ولما طغا أمرُ الدعيّ» يريد صاحب الزنج بالبصرة ، وكانت شوكته قد اشتدّت وظُفِر به بعد مواقعة كثيرة ، وفى ذلك يقول ابنُ الرومى فى قصيدة طويلة جدا يمدح فيهـا أبا أحمد [الموفق بن المتوكل ، وصاعد بن خالد ، والعلاء بن صاعد ابنه ، وهى من أجود شعره ، فقال] :

أبا أحمـد أبليتَ أمّه أحمدٍ ... بلاء سيرضاهُ ابنُ عمّك أحمد
حصرت عميدَ الزنج حتى تخاذلَتْ ... قُواه ، وأودَى زادُه المتزوّدُ(٢)
فظلّ ، ولم تقتله ، يلفظ نفسهُ ... وظلّ ، ولم تأسِرْه ، وهوَ مقيّدُ
وكانَتْ نواحِيه كِثَافاً فلم تزَلْ ... تحيّفهَا شَـحْذاً كأنكَ مِبْرَدُ(٣)
تفرّق عنــه بالمكايد جُنْدُهُ ... ويزدادهم جنداً وجندك محصدُ(٤)
ولابِسُ سَيْفِ القِرْنِ بعداستلابهِ ... أضرُّ له من كاسـديه وأ كْيَدُ
فما رُمْته حتى اسـتقلّ برَأْسِه ... مكان قناةِ الظهر أسمرُ أجرَدُ

[هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد :

ورأس مهراق قد ركبت قلّته ... لدنا يقوم مقام الليتِ والجيد]

ولم تأل إنذاراً له غـــيرَ أنهُ ... رأى أنّ مَتْنَ البحرِ صَرحٌ مُمرّدُ
سكَنْتَ سكونا كان رَهْناً بوَثْبةٍ ... عَماسٍ ، كذاك الليثُ للوَثْبِ يلبدُ(٥)

هذا مأخوذ من قول النابغة :

---

(١) فى نسخة « عزالى الربيع لدى المرزم » (م)
(٢) أودى : هلك (م) (٣) فى نسخة « وكانت نواحيه كفافا » تطبيع (م)
(٤) فى نسخة « وجندك يحصد » (م) (٥) عماس : شديدة (م)

وقلت يا قوم إن الليثَ منقبض ... على براثِنِه للوَثبةِ الضارِى

ويقول فى مدح صاعد :

يقرّظ إلا أنّ ما قيلَ دونهُ ... ويوصَف إلا أنه لا يحدّدُ[1]

أرقّ من الماء الذى فى حُسامِه ... طِباعاً ، وأمْضَى من شَبَاهُ وأنجَدُ

له سَوْرَة مُكْتَنَّةٌ فى سَكينةٍ ... كما اكتنّ فى الغِمْدِ الجُرَازُ المهندُ

كأنّ أباه حين سمّاه صاعدا ... رأى كيف يَرْقَى فى المعالى ويَصْعَدُ

[لما سمع البحترى هذا البيت قال : منى أخذه ، فى قوله فى العلاء بن صاعد] :

سمّاه أسرته العَلاَء وإنما ... قصدوا بذلك أن يتمّ عُلاَهُ

وهذا فى قوله ، كما قال [ابن] المرزبان وقد أنشد لابن المعتز فى مناقضة الطالبيين :

دَعُوا الأسْدَ تسكنُ فى غابهاَ ... ولا تدخلوا بين أنيَابها

فنحن ورِثْناَ ثيابَ النبى ... فَلِمْ تجذِبُونَ بهدّابها

[قال :] قد أخذه من [قول] بعض العباسيين :

دَعُوا الأسْدَ تسكن أغيالها ... ولا تقربوها وأشْبَالَها

ولكنه سرق سَاجاً ، وردّ عاجاً ، وغلّ قطيفة ، وردّ دِيباجا .

ومن قصيدة ابن الرومى :

تراه على الحَرْبِ العَوَانِ بمنزل ... وآثارُه فيها ، وإنْ غابَ ، شُهّدُ

كما احتجب المقدارُ والحكم حكمُهُ ... على الخلق طرّا ليس عنه مُعَرَّدُ[2]

البحترى :

ولى الأمور بنفسه ، ومحلّها ... متقاربٌ ، ومرامُها متباعِدُ[3]

---

(١) فى نسخة « ويوصف إلا أنه يتجدد »

(٢) ليس عنه معرد : ليس عنه مهرب (م)

(٣) فى نسخة « ربى الأمور بنفسه » وليست بشىء (م)

يتكفل الأدنَى، ويُدْرِكُ رأيه الأ　　أقصى ، ويتبعُه الأبِيّ العـانِدُ
إن غار فهو من النباهة منجد　　أو غاب فهو من المهابة شاهد

وقال أعرابى يصف رجلا : كان إذا ولّى لم يطابق بين جفونه ، ويرسل العيونَ على عيونه ؛ فهوغائبٌ عنهم ، شاهد معهم ، والمحسِنُ آمن،والمسىء خائف.

فتى رُوحه روحٌ بسيطٌ كيانه　　ومسكن ذاك الرُّوحِ نورٌ مُجَسَّدُ
صَفَا ونَفَى عنه القذَى فـكأنهُ　　إذا ما استشفّتْه العقولُ مصمّد
كرمتم لجاش المفحمون بمدحِكم　　إذا رَجَزُوا فيكم أثبْتُمَ فقصَّدوا
أرى مَنْ تعاطى ما بلغتم كرامُم　　مَنالَ الثريَّا وهو أ كْمَه مُقْعَد
كالأزهرتْ جنات عَدْنٍ وأثمرَتْ　　فأضْحَتْ وعُجْمُ الطيرِ فيها غرِّدُ

وفى هذه القصيدة يقول :

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيا به من صروفها　　يكون بكاء الطفلِ ساعةَ يُولدُ
وإلا فما يُبكِيه منها وإنهـــا　　لأفسَحُ مما كان فيـه وأرْغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنهُ　　بما سوفَ يَلْقَى من رداها يُهَدَّدُ

قال الصولى : افتتح ابنُ الرومى هذه القصيدة على مالايلزمه[1] من فتح ماقبل حَرْفِ الروى اقتدارا، فحمله ذلك على أن قال :

متاحٌ له مقداره فكأنما　　نقوّض ثَهْـلانَ عليه وصندَدُ[2]

ثهـلان : اسم جبل ، وهذالا يصحّ ، إنما هو صندِد بكسر الدال ؛ لأن فعلَلا لم يجىء إلا فى أربعة أحرف : درهم ، وهِجْرَع [للأحمق] ، وهِبْلَع للذى يبلعُ كثيرا ، وقلعم للذى يقلع الأشياء .

وقول ابن المعتزفى وصف السيف[3]: * كأنما تنفّس فيه القَيْنُ وهوصَقيل *
معنى بديع فى وصف الفرند ، وقد قال :

---

(١) فى نسخة « على ما يلزمه » والـكلام بعده يؤيد أن الأصل ما أثبتناه (م)
(٢) متاح : مهيأ ومقدر (م)　　(٣) أنظر ص ٧٩٦

ولى صارمٌ فيه المنايا كوامنٌ　　فما يُنْتَضَى إلا لسَفْكِ دماء

ترى فوق مَتْنَيْهِ الفِرِنْدَ كأنهُ　　بقية غَيْمٍ رقَّ دون سماء

وقال أيضاً إسحاق بن خلف :

ألقى بجانب خصره　　أمضى من الأجل المتاحْ

وكأنما ذَرَّ الهبا　　ء عليه أنفاسُ الرياحْ

ولما صار سيفُ عمرو بن معد يكرب الذى كان يسمّي الصمصامة إلى الهادى ، — وكان عمرٌو وهبه لسعيد بن العاص ، فتوارثَه ولدُه إلى أن مات المهدى ، فاشتراه موسى الهادى منهم بمالٍ جليل ، وكان أوسعَ بنى العباس كفّاً ، وأكثرهم عطاء — ودعا بالشعراء ، و بين يديه مِكْتَلٌ فيه بدْرَة ، فقال: قولوا فى هذا السيف ؛ فبدر ابن يامين البصرى فقال :

حاز صمصامةَ الزُّبَيْدِى من بيــن جميع الأنام موسى الأمينُ

سيفُ عَمْرو وكان فيما سمِعْنا　　خيرَما أُغمِدَتْ عليه الجفونُ

أخضر اللون بين خديه بردٌ　　من ذُعَافٍ يَميسُ فيه المنون(١)

أوقدت فوقَه الصواعِقُ ناراً　　ثم شابَتْ فيه الذعافَ القيونُ(٢)

فإذا ما سللتهُ بهــر الشمــس ضياءً فلم تكد تستبينُ

ما يُبَالى مَنِ انتَضَاهُ لحرب　　أشِمالٌ سطَتْ بهِ أو يَمينُ

يستطيرُ الأبصارَ كالقَبَسِ المشــعَل ما تستقرُّ فيه العيــونُ

وكأنَّ الفرِنْد والجوهر والجا　　رى على صفحتيْه ماءٌ معين

نِعْمَ مخراق ذى الحفيظة فى الهيــجاء يَعْصَى به ونِعْمَ القرينُ

قال موسى : أصبت ما فى نفسى ، واستخفَّه [الفرح] فأمر له بالمِكْتَل والسيف ؛ فلما خرج قال للشعراء : إنما حُرِمتم من أجلى ، فشأنكم المكتل

---

(١) الذعاف — بضم الذال بزنة غراب — السم ، ويميس : يتبختر ، والمنون : الموت (م)

(٢) شابت : خلطت ، والقيون : جمع قين ، وهو الحداد (م)

وفى السيف غناى [فقام موسى] فاشترى منه السيف بمالٍ جليل .

البحترى :

قد جُدْتَ بالطِّرْفِ الجوادِ فثنِّه ... لأخيك من جَدْوَى يديك بمُنْصُلِ (١)

يتناول الرّوحَ البعيدَ منالهُ ... عفواً ، ويفتح فى القضاءِ المُقْفَل

بإنارةٍ فى كل حَتْفٍ مظلمٍ ... وهدايةٍ فى كل نفسٍ مجهل

يَغْشَى الوغى فالترس ليس بجُنَّةٍ ... مِنْ حدِّه ، والدِّرْعُ ليس بمَعْقِل

ماضٍ وإن لم تُمْضِه يَدُ فارس ... بطلٍ ، ومصقولٌ وإن لم يُصْقَل

مُصْغٍ إلى حُكْم الردَى فإذا مَضَى ... لم يلتفتْ ، وإذا قضَى لم يَعْدِل

متوقّد يَفْرِى بأوّل ضَرْبَةٍ ... ما أدركَتْ ولو أنّها فى يَذْبُل (٢)

فكأنّ فارسه إذا استعصى به الزّ ... حفان يعصى بالسِّمَاكِ الأعزل (٣)

فإذا أصاب فكل شىء مَقْتَلٌ ... وإذا أُصيبَ فما له من مَقْتَلَ

حملت حمائله القديمة بقلة ... من عَهْدِ عادٍ غضّةً لم تَذْبل

وقال أبو القاسم بن هانى للمعز :

عجباً لمُنْصُلك المقلَّد كيفَ لم ... تَسِل النفوسُ عليك مِنْهُ مَسيلا

لم يخل جبّارُ الملوك بذكرهِ ... إلا تشحَّطَ فى الدماءِ قتيلا

فإذا رأيناهُ رأينا عِلّةً ... للنيرات ونيّرا مفلولا

بك حسنه متقلّدا وبَهاؤهُ ... متنكّبا ومَضاؤه مسلولا

فإذا غضبتَ علته دونك رُبْدَةٌ ... يَغْدُو بها طرْفُ الزمان كحيلا

وإذا طربت إلى الرِّضا أهدَى إلى ... شمسِ الظهيرة عارِضاً مصقولا

كتب الفرِنْد عليه بعضَ صفاتِكم ... فعرفتُ فيه التاجَ والإكليلا

---

(١) الطرف — بالكسر — الفرس ، والجدوى : العطاء ، والمنصل : السيف

(٢) يفرى : يقطع ، وفى نسخة « يبرى بأول ضربة » ولها وجه (م)

(٣) فى الديوان « فكأن شاهره » وهى خير مما هنا ، وفى نسخة « استعصى به فى الزحف » (م)

وقال :

هل يدنينّى من فنائك سابحٌ مَرِح وجائلة النّسوعِ أمونُ

ومهنّد فيه الفرِنْدُ كأنهُ درّ له خَلْفَ الفراتِ كمينُ

غضب المضارب مقفرا من أعين لكنّه من أنفس مسكون

وأهدَى الكندى إلى بعض إخوانه سيفا، فكتب إليه : « الحمدُ لله الذى خصّكَ بمنافع كمنافع ما أهديتَ ، وجعلكَ تهتزُّ للمكارم اهتزاز الصارم، وتمضِى فى الأمورِ مضاء حدّه المأثور، وتصونُ عرضك بالإرفادِ [1]، كما تُصَانُ السيوفُ بالأغماد ، ويطرد ماء الحياءِ فى صفحات خدّك المشوف ، كما يشفّ الرونقُ فى صفائح السيوف ، وتصقلُ شرَفك بالعطياتِ ، كما تصقلُ متونُ المشرفيّات .

[وفد الشام بين يدَىِ المنصور]

قدم على أبى جعفر المنصور وَفْدٌ من الشام بعد انهزام عبدِ الله بن على، وفيهم الحارثُ بن عبد الرحمن الغفارى ، فتكلّم جماعةٌ منهم ، ثم قامَ الحارث فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ إنا لَسْنَا وفْدَ مباهاة ، ولكنا وفدُ توبة استخفّت حليمَنا؛فنحن بما قدمنا معترِفون ، وبما سلَف منّا مُعتذِرون ، فإنْ تعاقبنا فبِمَا أجرَمْنا ، وإن تَعْفُ عنا فطالما أحسنْتَ إلى من أساء ، فقال المنصور : أنتَ خطيب القوم ، وردّ عليه ضياعه بالغُوطة .

وقال رجلٌ من أهل الشام للمنصور : ياأمير المؤمنين ، من انتقم فقد شَفَى غيظَه وانتصف ، ومن عفا تفضّل ، ومن أخذ حقّه لم يَجِبْ شكره ولم يذكر فَضْله ، وكَظْمُ الغيظِ حلم ، والتشفّى طَرَفٌ من الجَزَع، ولم يمدح أهلَ التقى والنهى من كان حليما بشدّة العقاب ، ولكن بحُسْنِ الصفحِ والاغتفارِ وشدةِ التغافل،

---

(١) الإرفاد : الإعطاء (م)

وبعدُ فالمعاقِب مستدعٍ لعداوةِ أولياءِ المذْنب ، والعافى مستدعٍ لشكرهم آمِنٌ من مكافأتهم ، ولأن يُثْنَى عليك باتّساع الصدْرِ خيرٌ من أن توصَف بضيقه ، على أنّ إقالتك عثراتِ عبادِ الله موجبٌ لإقالةِ عَثرَتك من ربّهِمْ ، وموصول بعفوه ، وعقابُك إيَاهم موصولٌ بعقابه ، قال الله عز وجل : « خُذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عن الجاهلين » .

[بعض ما قيل فى العفو]

وقال بعض الكتاب لرئيسه وقد عتب عليه : « إذا كنتَ لم تَرْضَ منى بالإساءةِ فلِمَ رضيت من نفسك بالمكافأة » .

وأذنب رجلٌ من بنى هاشم فقبضه المأمون ، فقال : ياأميرَ المؤمنين ، مَنْ حمل مثلَ دالّتى، ولَبِسَ ثَوْبَ حرمتى ، غُفِرَ له مثلُ زَلّتى، قال : صدَقْتَ وعفا عنه .

ولما دخل بعضُ الكتاب على أميرٍ بعد نكبة نالته فرأى من الأمير بعضَ الازْدِرَاء ، فقال له : لا يَضَعْنى عندك خمولُ النَّبْوة ، وزوال الثروة؛ فإنّ السيفَ العتيق إذا مسّهُ كثيرُ الصدَإ استغنى بقليلِ الجلاءِ حتى يعودَ حدُّه ، ويظهر فِرِنْدُه ؛ ولم أصِفْ نفسى عجباً ، لكن شكراً . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أشرفُ وَلد آدم ولا فخر » ؛ فجهر بالشكر ، وترك الاستطالة بالكبر .

[تميم بن جميل والمعتصم]

وكان تميم بن جميل السدوسى [قد أقام] بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه كثيرٌ من الأعراب ، فعظُم أمرُه ، وبَعُد ذكره ؛ فكتب المعتصمُ إلى مالك بن طَوْق فى النهوض إليه ، فتبدَّد جمعُه ، وظفر به فحمَلهُ مُوثَقا (٣) إلى باب المعتصم ، فقال أحمد بن أبى داود : مارأيتُ رجلاعاين الموت ، فما هاله ولاشغله عما كان يجبُ عليه أن يفعلَه إلا تميم بن جميل ؛ فإنه لما مثَلَ بين يدى المعتصم وأحضر

(١) فى نسخة « من حمل مثل حالتى » (م)
(٢) تبدد جمعه : تفرق المجتمعون إليه (م)
(٣) فى نسخة « فحمله مستوثقاً » وليس بذاك (م)

السيفَ والنِّطَعَ ، ووقف بينهما ، تأمله المعتصم — وكان جميلا وَسيما — فأحبّ أن يعلمَ أين لسانُه من منظره ، فقال : تَـكلم ياتميم ، فقال : أمَّا إذ أذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقولُ : الحمدُ للهِ الذى أحسنَ كلَّ شىء خلقه وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طين ، ثم جعل نَسْلَه من سُلَالةٍ من ماء مَهِين ، [ياأمير المؤمنين :] جبر [الله] بك صَدْعَ الدِّين ، ولمَّ بك شَعَثَ المسلمين ، وأوضحَ بك سُبُلَ الحقِّ ، وأخمدَ بك شِهابَ الباطل ؛ إن الذنوبَ تخرس الألسُن الفصيحة ، وتُعْيِى الأفئدةَ الصحيحة ، ولقد عظُمَتِ الجريرةَ ، وانقطعَت الحجّة وساء الظنُّ ، فلم يبق إلا عفوُك وانتقامُك ، وأرجو أن يكونَ أقربهما منى وأسرعهما إلىَّ أشبههما بك ، وأولاهما بكرمك ، ثم قال :

أرى الموتَ بين السيفِ وَالنّطْعِ كامنا ... يُلاحظنى من حيثما أتلفّت

وأكبرُ ظنّى أنكَ اليومَ قاتِلى ... وأىُّ امرىء ممـا قضَى اللهُ يفلت

وأى امرىء يأتى بعذْرٍ وحُجّةٍ ... وسيفُ المنايا بين عينيه مُصْلَتُ(١)

وما جزَعِى مِنْ أن أموتَ وإننى ... لأعلمُ أنَّ المـوتَ شىءٌ موقّتُ(٢)

ولـكنّ خَلْفِى صِبْيةً قد تركتهم ... وأكبادُهم من حَسْرةٍ تتفتّتُ

فإنْ عشتُ عاشـوا سالمين بغبْطةٍ ... أذُودُ الرَّدَى عنهمو إن متُّ مُوّتُوا

وكم قائلٍ لا يبعـد اللهُ دارَهُ ... وآخر جَـذْلانٌ يسرُّ ويشمتْ

فتبسَّم المعتصم وقال : يا جميل ، قد وهبتُك للصِّبية ، وغفرت لك الصَّبْوَة ، ثم أمر بفكّ قيودِه ، وخلع عليه ، وعقد له على شاطىء الفُرات .

[من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر]

وكتب المعتصمُ ـ حين صارت إليه الخلافةُ ـ إلى عبد الله بن طاهر : عافانا اللهُ وإياك ، قد كانت فى قلبى منك هَنَاتٌ غفرها الاقتِدار(٣) ، وبقيَتْ حزازات أخافُ منها عليك عند نظرى إليك ؛ فإن أتاك ألفُ كتاب أستقدمك فيهِ فلاتقدم ،

(١) أصلت السيف : أخرجه من غمده (م)
(٢) موقت : له وقت محدود لايتقدم عنه ولايتأخر (م)
(٣) فى نسخة « هفوات غفرها الاقتدار » (م)

وحَسْبُكَ معرفةً بما أنا مُنْطَوٍ لكَ عليه إطْلاَعِى إياك على ما فى ضميرى منك ، والسلام .

[الخليفة المعتصم]

قال العباسُ بن المأمون : ولما أفضَتِ الخلافةُ إلى المعتصم دخلتُ ، فقال : هذا مجلسٌ كنتَ أكْرَهَ الناسِ لجلوسى فيه ، فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، أنتَ تعفُو عما تيقَّنته ، فكيف تعاقب على ما توهَّمته ؟ فقال : لو أردت عقابَك لتركت عتابك .

وكان المعتصم شَهْماً ، شجاعاً ، عاقلا ، مفوّها ، ولم يكن فى [خلفاء] بنى العباس أمىّ غيره ؛ وقيل : [بل كان يكتبُ خطّا ضعيفا ، و] كان سبب ذلك أنه رأى جنازة لبعضِ الخدَم ، فقال : ليتنى مثله لأتخلّص من الكُتّاب ! فقال الرشيد : والله لا عذّبتك بشىء تختارُ عليه الموتَ .

قال أبو القاسم الزجاجى : وهذا شىء يُحْكَى من غير رِواية صحيحة ، إلا أنَّ جملته أنه كان ضعيفَ البَصر بالعربية .

وقرأ أحمد بن عمار المذرى (١) ــ وكان يتقلّد العَرْضَ عليه فى الحضرة ــ كتاباً فيه : «ومطرنا مطراً كَثُر عنه الكَلأ» فقال له المعتصم : ما الكَلأ ؟ فقال : لا أدرى . فقال : إنا لله وإنّا إليه راجعون ! خليفة أُمىّ وكاتبٌ أمى ! ثم قال : مَنْ يقرب منا من كتّاب الدار ؟ فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يتولّى قهرمَةَ الدار ، ويُشْرِفُ على المطبخ ، فأحضره ، فقال : ما الكَلأ ؟ فقال : النبات كله رطبهُ ويابسه ؛ فالرطب منه خاصة يقال له خَلاً ، ومنه سمّيت المَخْلاَة ، واليابس يقال له حشيش ؛ ثم اندفع فى صفاتِ البناتِ من ابتدائه إلى اكتماله إلى هَيْجِه ، فاستحسنَ ذلك المعتصم ، وولاّهُ العَرْضَ من ذلك اليوم ، فلم يزَلْ وزيراً مدةَ خلافته [وخلافةِ الواثق] ، حتى نكبه المتوكل بحقودٍ حَقَدَها عليه أيام أخيه الواثق .

---

(١) فى نسخة « أحمد بن عمار الشيذرى » (م)

المعتصم يكتب لملك الروم

وقال الرياشي : كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدَّده فيه، فأمر بجوابه ، فلما قُرِئَ عليه لم يَرْضَ ما فيه ، وقال لبعض الكتّاب : اكتب « أمّا بعدُ فقد قرأت كتابك ، وفهمت خطابك ، والجوابُ ما ترى ، لا ما تسمع ، وسيعلمُ الكافرُ لمن عُقْبَى الدار » .

بين الحجاج وقطرى بن الفجاءة

وهذا نظيرُ قول قَطَرى للحجّاج ، وقد كتب إليه كتاباً يتهدَّده ، فأجابه قطرى : أما بعد ، فالحمدُ لله الذى لو شاء لجمع شخصَيْنا ؛ فعلمت أنّ مُناقفة الرجال [أقوم] منْ تَسْطِير المَقال ، والسلام(١) .

[كعب بن معدان الأشعرى عند الحجاج]
[ووصفه بنى المهلب بن أبى صُفْرة]

ولما افتتح المهلبُ خراسان ، ونَفَى الخوارج عنها ، وتفرّقت الأزارقة كتب الحجاجُ إليه أن اكتب لى بخبر الوقيعة ، واشرح لى القصةَ حتى كأنى شاهدُها ؛ فبعث إليه المهلبُ كعب بن معدان الأشعريَّ ، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتا تقتصُّ خبرهم لا يخرم منه شيئاً ؛ فقال له الحجاج : أخطيب أم شاعر ؟ قال له : كلاهما ، أعزّ الله الأمير ! قال : أخبرنى عن بنى المهلب، فقال له : المغيرةُ سيدهم ، وكفاك بيزيد فارسا ، وما لقى الأبطال مثل حبيب ، وما يستحيى شجاع أن يفرّ من مُدْرِك ، وعبد الملك موتٌ [ذُعَاف وسمّ] ناقع ، وحسبك بالمفضّل فى النّجْدَة ، واسْتَجْهِزْ قبيصة ، ومحمد ليث غاب ، فقال الحجاج : ما أراك فضلت عليهم واحدا منهم ؛ فأخبرْنى عن جملتهم ومن أفضلهم ؟ فقال : هم — أعزّ اللهُ الأميرَ! — كالحَلْقَة المفرَغة لا يُدْرَى أين طرفها ، قال : إنّ خبرَ حَرْبِكم كان يبلغنى عظيما ، أفكذلك كان ؟ قال : نعم أيها الأمير ، والسماع دون العِيان . قال : أخبرنى كيف رِضاَ المهلّبِ عن جنده ورِضاَ جنده عنه ؟ قال : أعزّ الله الأمير ،

(١) فى نسخة « من تسطير القال والقلم » وفى أخرى « من تسطير القال والسلم » وكلاهما تحريف ما أثبتناه (م)

له عليهم شفقة الوالد ، ولهم به برّ الولد . قال : أخبرنى كيف فاتكم قطرى ؟ قال : كِدْنَاه فى منزله فتحوّل عنه ، وتوهّم أنه كادنا بذلك ، قال : فهلا اتبعتموه، قال: الكلب إذا أُجحر عقرَ، قال : المهلبُ كان أعلمَ بك حيث أرسلك.

[بشر بن مالك عند الحجاج]
[يصف أبناء المهلّب أيضاً]

وقد رُوِى أنّ المهلبَ لما فرغ من قَتْل عبد ربه الحرورى دعا بشرَ بنَ مالك فأنْفذه بالبشارة إلى الحجّاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما اسْمُك ؟ قال : بِشر بن مالك ، فقال الحجاجّ : بشارة وملك ! وكيف خلّفتَ المهلب ؟ قال : خلفته وقد أمن ما خاف ، وأدرك ما طَلبَ ، قال : كيف كانت حالُكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البداءة لهم ، والعاقِبَةُ لنا ، قال الحجاجُ : العاقبة للمتقين ، ثم قال : فما حالُ الجند ؟ قال : وسَعَهم الحقُّ ، وأغناهم النَّفَل ، وإنهم لمع رجلٍ يسوسُهم سياسة الملوك ، ويقاتِلُ بهم قتالَ الصعلوك ، فلهم منه برُّ الوالد ، وله منهم طاعة الولد ، قال : فما حال ولد المهلب ؟ قال : رعاةُ البَيَاتِ حتى يؤمنوه ، وحُماةُ السَّرْح حتى يردوه ، قال : فأيهم أفضل؟ قال : ذلك إلى أبيهم ، قال : وأنت أيضا ، فإنى أرى لك لسانا وعبارة ، قال : هم كالحَلْقة المفرغة لا يُدْرى أين طرفها ، قال : ويحك ! أكنت أعددت لهذا المقامِ هذا المقال؟ قال :لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ .

[أبو الصقر وصاعد بن مخلد]

ودخل أبو الصقر قَبْلَ وزارته على صاعِد بن مخلد،وهو الوَزير حينئذ ، وفى المجلس أبو العباس بن ثَوَابَةَ ، فسأل الوزيرُ عن رجل ، فقال : أُنفى ، يريد نفى ، فقال ابن ثوابة : فى الخَرْء ، فتضاحك به أهل المجلس،فقام أبو الصقر مُغْضَبا[1] .

(١) هذه القصة قد وردت بعبارات مختلفة فى نسخ هذا الكتاب ، وقد اخترنا أقرب هذه العبارات إلى الاستقامة (م)

[أبو العَيْناء وابن ثَوَابة]

وكان أبو العيناء يُعَادِي ابنَ ثوابة لِمُعَاداتِه لأبي صقر ؛ فاجتمعا في مجلس صاعد في غدِ ذلك اليوم ، فتلاحَيَا ، فقال ابنُ ثوابة : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك ضَيِّقَ الطعن ، كثيرَ الوَسَن ، خارًّا على الذَّقَن ، وقد بلغني تعدّيك على أبي الصقر ، وإنما حَلُم عنك ؛ لأنه لم يَجِدْ لك عزًّا فيذلّه ، ولا عُلوًّا فيضَعه ، ولا مَجْداً فيهدمه ؛ فعافَ لَحمَك أنْ يأكله ، ودمَك أن يسفكه ، فقال ابنُ ثوابة : ما تسابَّ إنسانان إلاَّ غلب ألأمُها ، فقال أبو العيناء : فلهذا غلبتَ بالأمس أبا الصقر !

[من مكارم أبي الصقر]

ومما يُعَدُّ من مكارم أبي الصقر أن ابنَ ثَوابة دخل عليه في وزارتِه ، فقال : تاللهِ لقد آثَرك اللهَ علينا وإن كنّا لخاطئين ، فقال أبو الصقر : لا تثريبَ عليك يغفر الله لك [وهو أرحم الراحمين] ، فما قصَّرَ في الإحسانِ إليه ، والإنعام عليه ، مدة وزارته .

[أبو الصقر وأبو العيناء]

ولما وليَ أبو الصقر الوِزارة خيّر أبا العيناء فيما يحبّه حتى يفعلَه ، فقال : أريد أن يكتبَ [لي الوزير] إلى أحمد بن محمد الطائي يعرِّفُه مكاني ، ويلزمُه قضاء حق مثلي .

فكتب إليه كتابا بخطّه ، فوصَّله إلى الطائي ، فسبب له في مدة شهر مقدار ألف دِينار ، وعاشره أجمل عشرة ، فانصرف بجميع ما يحبّه

كتاب من أبي العيناء إلى أبي الصقر

وكتب إلى أبي الصقرِ كتابا مضمنه : أنا — أعزّك الله — طليقُك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذْتَ بيدي عند عَثْرةِ الدهر ، وكَبْوَةِ الكِبَر ، وعلى أية حالٍ حين فقدت الأولياء والأشكال والإخوان والأمثال ، الذين يفهمون في غيرِ تَعب ، وهم الناسُ الذين كانوا غياثًا للناس ، فحللت عقدة الخَلّة ، ورَدَدْتَ إليّ بعد النفور النعمة ، وكتبت لي كتابا إلى الطائي ، فكأنما كان منه إليك ، أتيتهُ وقد استصعبَتْ عليّ الأمور ، وأحاطَتْ بي النوائب ؛ فكثّر من بِشْرِه ، وبذَل من يُسْرِه ، وأعطى من ماله أكرَمه ، ومن برّه أحكَمه ، مُكْرِماً لي

مدةَ ما أقمت ، ومُثْقِلالىْ من فوائده لما ودَّعت ، حكمنى فى ماله فتحكَّمتُ ، وأنتَ تعرفُ جَوْرِى إذا تمكَّنتُ ، وزادنى من طَوْله فشكَرْتُ ؛ فأحسن اللهُ جزاءك ، وأعظم حباءك ، وقدَّمنى أمامك ، وأعاذنى من فَقْدِك وحمامك ؛ فقد أنفقتَ علىَّ مما ملكك الله ، وأنفقتُ من الشكر ما يسّره اللهُ لى ، واللهُ عزَّ وجل يقول : (لِيُنْفِقْ ذو سَعَةٍ من سَعَتِه .) فالحمدُ لله الذى جعل لكَ اليدَ الغالبة ، والرتبة الشريفة ، لا أزال اللهُ عن هذه الأمة ما بَسَطَ فيها من عَدْلِك ، و بثَّ فيها من رِفْدِكَ .

[أبو العيناء يذم ابن الخصيب]

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذى عمله أبو العيناء فى ذمّ أحمد بن الخصيب لمَّا نُكِب على ألسنةِ الكتّاب والقوّاد وأرباب الدولة [فى ذلك الوقت] . قال : ذكره محمد بن عبد الله بن طاهر فقال : ما زال يَخرق ولا يرقَع . ومازلتُ أتوقع له الذى وَقع فيه . [وذكره أتامش ، فقال : غدر بمن آثره ، وتخطّى إلى مالا يقدرهُ ، فحل به مايحذره . وذكره بُغاء فقال : أبطَرتْه النعمة، ففجأته النقمة] وذكره وصيف فقال : تَرَكَ العقلاء على يَأْسٍ مرتبته ، والحمْقَى على رجاء درجته ! وذكره موسى بنُ بغاء فقال : لولا أنَّ القدَرَ يعشى البَصَر، لما نَهَى فينا ولا أمر. وذكره فارسُ بن بغاء فقال : لم تتمّ له نِعْمَةٌ ؛ لأنه لم تَكُنْ له فى الخير همةٌ . وذكره الفضل ابن العباس فقال: إن لم يكنْ تاريخ البلاء فما أعظم البلوى . وذكره هرون بن عيسى فقال : كانت دولةٌ من دُوَلِ المجانين ، خرجَتْ من الدنيا والدّين . وذكره المعَلَّى بن أيوب ، فقيل له : ما أعجَب ما نكبَ ، فقال : نعمتُه أعجبُ من نَكْبته ! وذكره ميمون بن إبرهيم ، فقال : لو تأمَّل فماله فاجتنبها، لاستغنى عن الآداب أن يطلبها ! وذكره محمد بن نجاح فقال : لئن كانت النعمةُ عظمَتْ على قوم خرجَ عنهم لقدعَظُمَت المصيبة على قوم نزل فيهم ! وذكره على بن [يحيى بن] المنجم ، فقال : لم يكن له أوَّل

يَرْجِــعُ إليه ، ولا آخر يعود عليه ، ولا عقل فيزكو لديه ! وذكره محمد بن موسى بن شاكر المنجم فقال : [قبّحه الله] إن ذكرتَ ذَا فَضْلٍ تنقّصه لما فيه من ضِدّه ، أو ذكرت ذَا نَقْص تولاّه لما فيه من شكله . وذكره ابنُ ثَوَابة فقال : امرؤ أساء عِشْرَة الأحرار ، فأصبح مُقفِر الديار . وذكره حجاج بن هرُون فقال: ما كان له فى الشرف أسبابٌ متَان ، ولا فى الخير عاداتٌ حِسان. وذكره [أحمد بن حمدون فقال : إن منحته القدرة لقد حلته النكبة . وذكره] محمد بن الفضل فقال: مازال يستوحِشُ بالنعمةحتى أنس بالنقمة وذكره عبد الله بن فراس فقال: كنت إذا نصحتهُ زنّانى ، وإذا غششته منّانى . وذكره أبو صالح بن عمار فقال : لئن علا بحظ لقد انحط بحق . وذكره سعيد بن حميد فقال : إذا أصاب أحجم ، وإذا أخطأ صمم .

[أبو بكر سيبويه وأهل مصر]

وكان فى هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسيبويه ناقلة البصرة يُشْبِهه فى حضورِ جوابِه وخطابِه، وحُسْن عبارته، وكَثْرَة رِوَايته ، وكان قد تناول البلاذُر[1]؛ فعرضت له منه لُوثة[2]، وكان أكثرُ الناس يتبعونه ويكتبون عنه ما يقول .

قال يوما للمصريين : يأهل مصر ، أصحابنا البغداديون أحزَمُ منكم ،لايقولون بالولد ، حتى يتّخِذوا له العُقَد والعُدَد ؛ فهم أبداً يعتزلون . ولا يقولون باتخاذ العَقَار خوفا أن يملِكهم سوء الجوار ؛ فهم أبداً يكنزون . ولايقولون باتخاذ الحرائر خوفاً أن تَتُوقَ نفسُهم إلى السَّرَارِى؛ فهم أبداً يتسرَّرُون . ولا يقولون أبداً بإظهـار الغنى [فى مكان] عُرِفوا فيه بالفقر ؛ فهم أبداً يسافرون .

ووقف يوماً بالجامع وقد أخذت الخلق مأخَذَها ، فقال: يأهل مصر، حيطانُ

(١) البلاذر : شجر هندى يعلو كالجوز ، ورقه عريض أغبر سبط حاد الرائحة إذا نام تحته شخص سكر ، وربما عرض له السبات ، وهو يضر المحرورين . ويثر الفم والبدن ، ويقرح ، ويورث البرسام والماليخوليا (م)

(٢) اللوثة ــ بضم اللام ــ الحمق ، والهيج ، ومس الجنون (م)

المقابر أنفعُ منكم ، يُسْتَنْزَهُ بها من التعب ، ويُسْتَدْفأُ بها من الريح، ويُسْتَظَلُّ بها من الشمس . والبهائم خيرٌ منكم تُمْتَطَى ظهورُها، وتُحْتذى جلودها، وتؤكل لحومُها .

وكان أبو الفضل بن خنزابَه الوزير ، ربّما رفع أنفَه تِيهاً ، فقال له سيبويه ، وقد رآه فعل ذلك : أشمُّ منى الوزيرُ رائحةً كريهة فشمّر أنفَه ، فأطرق واستعمل النهوض، فخرج سيبويه ، فقال له رجل : من أينَ أقبلت ؟ فقال : من عند الزَّاهي بنفسه ، المدلّ بفرسه(١) ، المستطيل على أبناء جِنْسه .

واستأذن على مسلم بن عبيد الله العلوى ، ومسلم من أهل الحجاز نزل مصر ، فحجب عنه ، فقال : قولوا له : يرجع إلى لبس العبَاء ، ومَصِّ النوى ، وسُكْنى الفَلا ، فهو أشبَهُ به من نعيم الدنيا .

وكان على شرطِ كافور الإخشيدى أحدُ الخاصَّةِ ، فوجد عليه سيبويه فى بعض الأمرِ ، فعزل عن الشرطة ،فوليها رَكى(٢) صاحب الراضى، فلم يحمده أيضاً، فوقف لكافور وهو مارٌّ إلى الصلاة يوم الجمعة ، فقال : أيها الأستاذ ، ولَّيت ظالماً ، وعزلْتَ ظالماً ، قليل الوفاء ، كثير الجفاء ، غليظ القَفا . فتبسّم ابن بُرك البغدادى ، وكان يسايرُ كافوراً ، فقال : وهذا ابن بركٍ ممن يغرّك ، لن ينفعك ولن يضرّك .

وأخلى الحمام لمفلح الحسينى ، فأتى سيبويه ليدخلَ ، فمُنِع ، وقيل : الأمير مفلحٌ به ، فقال : لا أنقى الله مغسولَه ، ولا بلّغه سُولَه ، ولا وقّاه من العذاب مَهُولَه ، وجلس حتى خرج، فقال :إن الحمام [لا يُخلى إلاَّ] لأحدِ ثلاثة : مبتَلًى فى قُبله ، أو مبتلى فى دُبره ، أو سلطان يخافُ من شره ، فأى الثلاثة أنت ؟ قال : أنا المقدَّم .

وأحضره أبو بكر بن عبد الله الخازن فقال: قد بلغنى بَذَاء لسانِك، وقبيحُ

---

(١) فى نسخة « المدل بطقسه » (م)   (٢) فى نسخة « زكى » (م)

معامَلتك للأشراف ؛ فاحذَرْ أن تعودَ فينالَكَ منى أشدُّ العقوبة ؛ فخرج [متحزنا فكان] الولدان يتولّعون به ويذكرون له الخازنَ ، فيشتدّ عليه ذلك،فينصرف ولا يكلّمهم ؛ فمرّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبى مُعَيطٍ ، وغلامٌ قد ألحّ عليه[1] بذلك ، فضحك المعيطى ، فقال للغلام : ضرب الله عنق الخازن كما ضرب النبى صلى الله عليه وسلم عنق عقبة بن أبى معيط على الكفر ، وضرب ظَهْرَ أبيك بالسوط كما ضرب علىّ بن أبى طالب بأمر عثمان رضى الله عنهما ظهر الوَليد بن عقبة على شُرْب الخمر ، وألحقك يا صبىّ بالصِّبْيَة ، يريد قولَ النبى صلى الله عليه وسلم، وقد قال له عقبة لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم علياً رضى الله عنه بقَتْله: « فمَنْ للصِّبية يا رسول الله » ؟ قال : النارُ لك ولهم فانصرف المعيطى و بَطْنُ الأرضِ أحبُّ إليه من ظَهْرِها .

[رَجْع إلى أبى العيناء]

وقال أبو العيناء : أنا أوّلُ من أظهر العقوقَ لوالديه بالبَصرة ، قال لى أبى: إنّ اللهَ قد قَرَن طاعتَه بطاعتى، فقال تعالى :(أنِ اشْكُرْ لى ولوالديك)فقلتُ : يا أبت ، إن اللهَ تعالى قد أمِننى عليك، ولم يأمنك على ، فقال تعالى : (ولا تقتلوا أولادكم خشْيَةَ إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم).

وقال أعرابى لأبيه : يا أبت ، إن كبيرَ حقك لايبطل صغير حقّى عليك ، والذى تَمُتّ به إلىّ أمتّ بمثله إليك ، ولست أزعُمُ أنّا سواء ، ولكن لايحل لك الاعتداء .

ودخل على عبيد الله بن سليمان فضمّه إليه ، فقال : أنا إلى ضمّ الكفاية أحوجُ منى إلى ضمّ اليدَيْن .

وقال له مرة : أنا معك مقبوض الظاهر ، مرحوم الباطنِ[2] .

---

(١) فى نسخة « وغلام قد لج عليه بذلك » (م)

(٢) فى نسخة « أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن » (م)

قال أبو الطيب المتنبى :

ماذا لقيت من الدنيا وأعْجَبِها   أنى بما أنا باكٍ منه محسودُ

وقال له رجل : يا مخنَّثُ ، فقال : وضربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَه !

[كلمات لأبى العيناء]

وذكر أبو العيناء محمد بن يحيى بن خالد بن برمك، فقال : بأبى وأمى دَامَ الوَجْهُ الطَّلْق ، والقول الحقّ ، والوعد الصّدق ، نيته أفضلُ من علانيته ، وفعلُه أفضل من قوله . وقال له المتوكل : ما أشدّ ما مرّ عليك من فَقْدِ بصرك ؟ فقال : ما حُرِمْت منه من النظر إليك أيها الأمير ! وقال لعبيد الله بن يحيى : مسَّنا وأهلنا الضرّ ، و بضاعتُنا الحمدُ والشكر ، وأنت الذى لا يخيب عنده حرّ . وقال له يوماً: قد اشتدَّ الحجاب، وفحش الحرمان ، فقال : ارفق يا أبا عبدالله ، فقال : لو رفق بى فعلك لرفق بك قولى ! وقال له : أيها الوزير ، إذا تغافل أهلُ التفضل هلك أهل التجمّل . وذم رجلا فقال : لا يعرفُ الحقَّ فينصره ، ولا الباطلَ فيُنكِره . وقيل له : ما أبلغ الكلام ؟ فقال : ما أسكَتَ المُبطِل ، وحَيّر المحق . وقيل له : مات الحسن بن سهل ، فقال : والله لئن أتعب المادِحينَ ، لقد أطال بكاء الباكين والله لقد أُصِيب بموتِهِ الأنام ، وخرِست بفقده الأقلام .

[مما قيل فى الرثاء]

لأشجع بن عمرو السلمى

قال أشجع بن عمرو السُّلمى :

مضى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبْقَ مَشْرِقٌ   ولا مغربٌ إلاّ له فيه مادِحُ

وما كنتُ أدرِى ما فواضلُ كفّه   على النـاس حتى غَيّبَتْه الصفائحُ

فأصبح فى لَحْدٍ من الأرض ميّتاً   وكانت بهِ حيّاً تضيق الصحاصِحُ[1]

كأن لم يمت ميتٌ سواك ولم تَقُمْ   على أحدٍ إلاَّ عليكَ النوائحُ

(١) الصحاصح : ما استوى من الأرض ، واحدها صحصح بوزن جعفر (م)

فما أنا من رُزْء وإنْ جَلَّ جازعٌ ولا بسرورٍ بعـــــدَ موتِك فارح

لئن حسُنَتْ فيك المراثى وذكرُها لقد حسُنَتْ من قَبْلُ فيك المدائحُ

سأبكيك ما فاضت دموعى، فإن تغِضْ فحسبُك منى ما تُكِنُّ الجوانحُ

قوله : * وكانت به حياً تَضيقُ الصحاصِحُ * يتعلّق بقول الحسين بن مطير فى مَعْن بن زائدة :

الحسين بن مطير فى معن ابن زائدة

أَلِمَّا على مَعْنٍ وقُولا لقـــبرِهِ: سقَتْكَ الغوادِى مَرْبعاً ثم مَرْبعاَ

فيا قبرَ معنٍ أنت أولُ حفـرةٍ من الأرض خُطَّت للسماحة مَضْجعاَ

ويا قبرَ مَعْنٍ كيف واريت جودَهُ وقد كان منه البَر والبحـر مُتْرَعاَ

بلَى قد وسعْتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ ولو كان حياً ضِقْتَ حتى تصدَّعا

فتى عِيشَ فى معروفه بعد موتِه كما كان بعد السيل مَجْرَاه مَرْتَعاَ

ولما مضَى معنٌ مضى الجودُ وانقضى وأصبح عِرْنينُ المكارم أجْدَعَا

لعبد الصمد ابن المعذل فى عمرو بن سعيد

وهذا كقول عبد الصمّد بن المعذل فى عمرو بن سعيد بن سَلم الباهلى :

أقبرَ أبى أمية لو عُـــلاهُ حملتَ إذاً لضقْت به ذِراعا

حويتَ الجودَ والتقوى وعمراً فكيف أطَقْت ياقبرُ اضطلاعا

لموتهـــمُ أطَقْت لهم ضماناً ولولا ذاك لم تُطِقِ اتّساعا

الخنساء فى أخيها صخر

وقول أشجع : * لئن حسنت فيك المراثى وذكرها * من قول الخنساء :

يا صَخْرُ بعدَك هاجنى استعبارى شانيكَ باتَ بذلّتى وصَغارى

كنا نعدّ لك المدائحَ مدّةً فاليوم صرتَ تُنَاحُ بالأشعار

الجنوب فى أخيها عمرو

وقالت جَنُوبُ أخت عمرو [ذى الكلب] :

سألتُ بعمرٍو أخى صَحْبَهُ فأفْظَعَنِى حين ردُّوا السؤالا

فقالوا : أتيح له نائما | أغرُّ السلاح عليه أجَالا[1]
أُتيحَ له نَمِرًا أجْبُلٍ | فنالا لعمرك منه ونَالا
فأقسمُ ياعمرُو لو نبَّهَاكَ | إذًا نبَّهَا منك داءَ عُضَالا
[إذًا نبَّها لَيْثَ عِرِّيسةٍ | مُبيدا مُفتيا نُفُوساً ومالا]
إذًا نبَّها غيرَ رِعيدةٍ | ولا طائشا دهشاً حين صَالا
هما معْ تصرف ريْبِ المنون | من الدهر ركنا شديدا أمالا
وقالوا : قتلناهُ في غارةٍ | بآية أنْ قد ورثنا النِّبالا
فهلاَّ إذًا قبلَ ريب المنون | فقد كانَ فدًّا وكنتم رجَالا
وقد علمَتْ فَهْم عند اللقاء | بأنهمُ لك كانوا نفالا
كأنهمُ لم يحسُّوا به | فيحلوا نساءهمْ والحِجَالا
ولم ينزلوا بمحولِ السنين | به فيكونوا عليه عِيالا
وقد علم الضيفُ والمرْملونَ | إذا اغبرَّ أُفقٌ وهبَّت شمالا
وخلَّتْ عَنَ أولادِها المرضعاتُ | ولم تَرَ عينٌ لمزنٍ بلالا
بأنكَ كنتَ الربيع المغيثَ | لمن يَعْتَفيك وكنت الثمَالا[2]
وخرقٍ تجاوزتَ مجهولَهُ | بوَجْنَاءَ حَرْفٍ تشكي الكَلاَلا[3]
[فكنتَ النهارَ به شمسَهَ | وكنتَ دجَى الليل فيه هلالا
وحيّ صبحت وحيّ أبَحْتَ | غداة اللقاء منايا عِجالا
وكم من قبيلٍ وإن لم تكن | أرَدْتَهُمُ منك باتوا وجالا

قال عمرو بن شبة : وكان عمرو بن عاصم هذا يَغْزُو فَهْماً فيصيب منهم ، فوضعوا له رصَدًا على الماء ، فأخذوه فقتلوه ، ثم مرُّوا بأخته جَنُوبَ ،فقالوا:أخاكِ ! فقالت : لئن طلبتموه لتجدُنّه [منيعا ، ولئن ضفتموه لتجدُنَّه مريعا ،ولئن وعدتموه

(١) يروى « أعز السباع عليه أحالا » (م)

(٢) يعتفيك : يطلب حاجته منك (م)

(٣) الخرق : الصحراء الواسعة الأطراف،والوجناء: الناقة،والكلال : التعب (م)

لتجدنه] سريعا ! فقالوا : قد أخذناه فقتلناه ، وهذا نبله . فقالت : والله لئن سلبتموه لا تجدون ثنته وافية ، ولا حجرته جافية ، ولرب ندى منكم قد افترشه، ونهب قد احتوشه ؛ ثم قالت الأبيات المتقدمة الذكر .

وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله :

ألا فى سبيل الله ماذا تضمنت   بطونُ الثرى واستُودعَ البلدُ القفرُ
بدور إذا الدنيا دَجَت أشرقَتْ بهم   وإن أجدبَتْ يوما فأيديهم القطْرُ
فيا شامتاً بالموت لا تشمتنْ بهم   حياتُهُم فخرٌ وموتهم ذكْرُ
أقاموا بظَهرِ الأرض فاخضرَّ عودُها   وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظَّهْرُ

لأبى عبيد الله العتبى يرثى ابنه

وقال أبو عبد الله العتبى ، وتوفى له بنون فُجع بهم ومات فى آخرهم ابنٌ له يكنى أبا عَمْرو كان يقول الشعر ؛ فقال يرثيه :

لقد شمت الواشون بى وتغيرتْ   وجوهٌ أراها بعد موت أبى عَمْرو
تجرّى عَلَىَّ الدهرُ لما فقدته   ولو كان حيّا لاجترأتُ على الدهر[(١)]
أسكّان بطن الأرض لو يُقبَلُ الفِدَى   فدينا، وأعطينا بكم ساكنى الظّهْر
فياليت مَنْ فيها عليها، وليتَ من   عليها ثوَى فيها مُقيما إلى الحَشْرِ
وقاسمنى دَهرى بنىّ مُشاطرا   فلما توفّى شطره مال فى شَطْرِى[(٢)]
فصاروا كأن لم يعرفِ الموتُ غيرهم   فثكلٌ على ثكل وقبرٌ على قبْرِ

وقال فى ابن توفى صغيرا :

إنْ يكُنْ ماتَ صغيراً   فالأَسَى غيْرُ صغيرِ
كانَ رَيْحَانِى فأمسى   وهو رَيحَانُ القبُورِ
غرَسَته فِى بساتيـــن البلى أيْدِى الدهرِ

---

(١) تجرى : أصله تجرأ فسهل الهمز بقلبها ألفا (م)

(٢) توفى : استوفى (م)

ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبى قوله :

فإن تَكُ فى قبر فإنك فى الحشا ... وإنْ تَكُ طفلاً فالأسى ليس بالطفل

خلف بن خليفة الأقطع

وقال خلف بن خليفة الأقطع :

أُعَاتِبُ نفسى إن تبسَّمْتُ خَالِيا ... وقد يَضْحَكُ الموتُورُ وَهْوَ حَزِينُ

و بالبدِّ أشجانى وكم من شَجٍ لهُ ... دُوَيْنِ المصلّى والبقيع ، شجُونُ

رُبًى حولها أمثالُها إن أتيتها ... قَرَيْنَك أشجاناً وهنَّ سُكُونُ

كَفَى الهجر أنّا لم يَضِحْ لكَ أمرُنا ... ولم يأتنا عمّا لديك يَقِين

لأبى عطاء السندى

وقال أبو عطاء السِّندى فى ابن هبيرة :

ألاَ إنَّ عينا لم تجُدْ يوم واسطٍ ... عليك بباقى دَمْعهاَ لجَمُودُ

عشيةَ قام النائحاتُ وشُقِّقَتْ ... جيوبٌ بأيدى مأتَمٍ وخدودُ[1]

فإن تُمْسِ مهجُورَ الفِنَا فربما ... أقام به بعد الوفُودِ وفُودُ

فإنك لم تَبْعَدْ عَلى متعهِّدٍ ... بلى كلُّ ما تحت الترابِ بعيدُ

لأعرابى

أعرابى :

ومن عجب أن بتَّ مستودعَ الثَّرَى ... و بتُّ بما زوّدْتنى متمتعا

فلو أننى أنصفتُك الودَّ لم أبِتْ ... خلافك حتى ننطَوِى فى الثرى معا

سأحمى الكرى عينى وأفترش الثرى ... يمينى إذا صار الثرى لك مضجعا

و بعدك لا آسَى لعظم رزيّةٍ ... قَضَيْتَ فهوّنتَ المصائبَ أجمعا

ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظما ونثرا .

[قال أبو نواس فى الأمين]

طوَى الموتُ ما بينى و بين محمدٍ ... وليسَ لما تَطْوِى المنيةُ ناشِرُ

---

(١) المأتم : النساء يحضرن الجنازة (م)

لئن عَمِرَتْ دورٌ بمن لا أحبّهُ ... لقد عمرت ممن أُحِبُّ المقابرُ
وكنت عليه أحْذَرُ الموتَ وحدَهُ ... فلم يبقَ لى شىء عليه أحاذِر

أم الهيثم السدوسية

وقيل لأمّ الهيثم السدوسية : ماأسرع ماسلوت عن ابنك الهيثم ! قالت : أما والله لقد رُزِئته كالبدرِ فى بهائه ، والرمح فى استوائه ، والسيف فى مَضائه ؛ ولقد فتّتَتْ مصيبتُه كبدى ، وأفنى فَقْدُه جلدى ، وما اعتَضْتُ من بعده إلاّ أمْنَ المصائب لفقدِه .

أبو العيناء يعزى .

وعزّى أبو العيناء أحمد بن أبى دُواد عن ولدٍ له ، فقال : ما أصيب من أثيب والله لقد هان لفقده، جليل المصائب من بعدِه .

لأعرابى مات بنوه بالطاعون

ودخل أعرابى من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون، فلما كان بِقِنَّسْرِينَ مات بنوه بالطاعون فقال :

أبعد بنىَّ الدهرَ أرجُو غَضارَةً ... من العيش أو آسى لما فات من عُمْرى
غطارِفَةٌ زُهرٌ مضَوْا لسبيلهم ... فلهفى على تلك الغَطَارِفة الزُّهْر
سقى اللهُ أجساداً ورائى تركتُها ... بحاضر قنسرين من صيِّب القَطْر
يذكّرنيهم كلُّ خير رأيتُهُ ... وشرّ، فما أنفكُّ منهم على ذِكْرِ

هذا البيت كقول الآخر :

رعاكِ ضمانُ الله يا أمَّ مالك ... ولله أن يرعاك أولَى وأوسعُ
يذكرنيك الخير والشرُّ والذى ... أخاف وأرجو والذى أتوقّعُ

لمسلم ابن الوليد

وقال مسلم بن الوليد :

وإنى وإسماعيل يوم ودَاعِه ... لكالغمْدِ يوم الرَّوعِ فارقه النَّصْلُ
أما والحبالات الممَرّات بيننا ... رسائل أدّتها المودةُ والوصلُ[١]
لما خنتُ عهداً من إخاءٍ ولا نأى ... بذكراك نأْىٌ عن ضميرى ولا شُغْلُ

(١) فى نسخة «وسائل أدتها المودة والأصل» (م)

وإنىَ فى مالى وأهلى كأننى ... لفقدك لا مالٌ لدىَّ ولا أهلُ
يذكّرنيك الخيرُ والشرُّ والحِجَا ... وقيلُ الخنى والحِلمُ والعِلمُ والجهلُ
فألقاك عن مذمومها متنزهاً ... وألقاك فى محمودها ولك الفضل
وأحمَدُ من إخلافك البخلَ إنهُ ... بعِرْضك لا بالمال حاشى لك البخلُ
أمنتجعاً مَرْوًا بأثقال همّةٍ ... دع الثِّقلَ واحمِلْ حاجةً مالها ثقلُ
ثناء كعُرْف الطيب يهدى لأهله ... وليس له إلاّ بنى برمك أهلُ
فإن أغشَ قوما بعدهم أو أزورهم ... فكالوحش يُدْنيها من القَنَص المَحْلُ

ومن ألفاظ أهل العصر فى التعازى وما يتعلق بمعانيها

من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب

خَبرٌ عز على النفوس مَسْمَعه، وأثر فى القلوب مَوْقِعُه. خَبَر تصطكُّ له المسامعُ، وترتجُّ به الأضالع، وتسقط له الحبالى، وتَصْحو منه السكارى خبرٌ كادت له القلوبُ تطيرُ، والعقول تَطيشُ، والنفوس تَطيح. خبر يخفض البصر ويقذيه، ويَقْبِض الأملَ ويقدح فيه. الخبر فى أثناءِ الرجاء قد انقطع، وأصمَّ به الناعى وقد أسمع. ناعى الفضائل قائم، وأنفُ المحاسنِ راغم. خبرٌ أحْرج الصَّدْرَ، وأحلَّ البكاء، وحَرَّم الصبر، وأطار واقع السكون، وأثار كامِنَ الوجوم، وثقلت وَطْأَتة على أجزاءِ النفس، وتأدّت معرته إلى سرّ القلب. كتبتُ والأرضُ واجِفةٌ، والشمسُ كاسفةٌ، للرزء العظيم، والمُصَاب الجسيم، فى فلك الملك، ورُكْنِ المجد، وقريع الشَّرْق والغرب، وما عسى أن يُقَال فى الفلك الأعلى إذا انْهَارَ من جوانبه، وتهافَتَ على مناكِبه. أتى الناعى[1]، فنذب المساعى، وقامت بواكى المجد، وكسفت شمسُ الفَضْل،

(١) الناعى: الذى يخبر بموت الميت (م)

وعاد النهارُ أسودَ ، والعيش أنــكد . غربَ لموته نجمُ الفَضْل ، وكسدت سوقُ الأدَب ، وقامت نوادب السماحة ، ووقف فلكُ الـكَرَم ، ولطمت عليه المحاسن خدودَها ، وشقت له المناقب جيوبَها [و بُرودها] ، قد كانت الرزيةُ بحيث مارت السماء مَوْرا ، وسارت الجبالُ سيرا ، حتى شوهدت الـكواكبُ ظهرا ، ثم تهافتتْ شفعاً ووترا ، فارتاعت الأمّة ، وانبسطت الظلمة ، وارتفعت الرحمةُ ، واضطربت المِلّة ، وقامت نوادبُ المجد ، وأصبح الناسُ من القيامةِ على وَعْد . إن المجدَ بعده لجارى الدمع ، وإنّ الفضل لمنزعج النفس ، وإنّ الـكرمَ لحرِجُ الصدر ، وإن المُلْكَ لواهِنُ الظهر[1] . كتابى وأنا من الحياة متذمّم، وبالعيش مُتبَرِّم، بعدما ماد الطوْد الشامخ ، وزال الجبـل الباذخ ، ونطقت نوادِب المجد ، وأقيمت مآتم الفضل . نعى فلان فتنكّر وَجْهُ الدهر ، وقبضت مُهْجَةُ الفَخْرِ ، فلا قَلْبَ إلاّ قد تباين صَدْعه ، ولاعين إلا وهى ترشحُ بالدَّمِ بعده . كتبتُ والأحشاء محترقة ، والأجفانُ بمائها غَرِقة ، والدمعُ وَاكِفٌ ، والحزن عاكف . مصابٌ أطلق أسرابَ الدموع وفرّقها ، وأقلق أعشارَ القلوب وأحرقها ، مصابٌ فضَّ عقودَ الدموع ، وشبَّ النارَ بين الضلوع . مصاب أذاب دموعَ الأحرار ، فتحلّبت[2] سحائبُ الدموعِ الغِزار ، وانسدّتْ مسالك السكون والاستقرار . كتبتُ عن عين تَدْمَع ، وقلبٍ يجزع ، ونفس تَهْلَع[3] ، وقد أذْلَتْ مَصُون العَبرة ، وحجبتُ وافِدَ الحيرة ، ومدَّ الهمُّ إلى جسمى يَدَ السقم ، وجرَّ الدمعُ على خدّى ذيولَ الدم . لولا أن العينَ بالدمع أنطقُ من كل لسان وقلم ، لأخبرتُ عن بعض ما أوْهَنَ ظَهْرى ، وأوْهى أزْرِى. إنَّ الفجيعة إذالم تحاربْ بجيشٍ من البكاء ، ولم يخَفّفْ من أثقالِها بالاشتكاء، تضاعفَ دَاؤها ، وازدادَتْ أعباؤها، وعزَّ دَواؤها . قد شفيتُ غليلى بما استَذْرَيْتُه

---

(١) واهن : ضعيف ، وواهن الظهر : كناية عن ضعف احتماله الأعباء (م)

(٢) تحلبت : سالت وانهمرت (م) (٣) تهلع : تحزن (م)

من أسراب الدموع المتحيرة ، وخففْتُ عني بعض البُرَحَاء بما امترَيْتُه من أخلافها المتحدرة . إن في إسْبَال العَبْرة ، و إطلاق الزَّفْرَة ، والإجهاش بالبكاء والنشيج ، و إعلانِ الصياح والضجيج ، تَنْفِيساً عن بُرَحَاء القلوب ، وتخفيفاً من أثقـالِ الـكُروبِ . قد أتى الدهرُ بماهدِّ الأصلاب ، وأطارَ الألبابَ ، من النازلة الهائلة ، والفجيعة الفظيعة . رُزْءٌ أضعفَ العزائم القويةَ ، وأبكى العيونَ البكيَّة . مصيبةٌ زَلْزَلتِ الأرضَ ، وهدَّمَت الـكرم المَحْض ، وسلبت الأجفان كَرَاهـا ، والأبدانَ قُوَاها . فجيعةٌ لا يُدَاوِى كَلْمَها آسٍ[1] ، ولا يسدّ ثَلْمَها تَنَاسٍ . مصيبةٌ تركتِ العقولَ مُدَلَّهَة ، والنفوسَ مُوَلهة . رُزْءٌ هضَّ وهاضَ[2] ، وأطال الانخزال والانخفاض ، ولم يَرْضَ بأن فَضَّ الأعضاء ، حتى أفاض الدماء . رزءٌ ملأَ الصدورَ ارتياعا ، وقسم الألبابَ شَعاعا ، وترك الجفونَ مَقروحة ، والدموع مسفوحة ، والقُوى مهدودة ، وطرق العزاء مسدودة . رزءٌ نكأَ القلوبَ وجرحَها ، وأحرَّ الأكبادَ وقرَّحها ، مالي يدٌ تخطّ إلاّ بكلفة ، ولا نفس تردد إلا في غصَّة ، ولا عين تنظر إلى من وراء قَذًى ، ولا صدر ينطوى إلاّ على أذى ؛ فالدموعُ واكفة ، والقلوب وَاجِفة ، والهمّ وارِد ، والانسُ شارد .

والناسُ مَأتمُهم عليــه واحدٌ في كل دارٍ رَنَّةٌ وزفيرُ

كأنى بِكِنْدَة وهي تَلَهَّفُ على حُجْر[3] ، والخنساء تَبكى على صخر . أنا بين عَبْرَةٍ وزَفْرَة ، وأنَّةٍ وحسرة ، وتململ واضطراب ، واشتعال والتهاب . مصيبةٌ أصبحتُ لِغُمَّتها وقيذا ، ولِـكُرْبَتها أخيذا . كَتبتَ وقد ملك الجزَعُ عَزَائى ، وحصل ناظرى في إسار بكائى ، فالقلْبُ دهش ، والبنَان يرتعِش ، وأنا من البقاء متوحّش . قد انتهى بى الهلَع إلى حيثُ لا التأسِّى مُصحِب ، ولا التناسى مصاحِب ، بى انزعاج يحلّ عُقَدَ الحزْمِ ، واكتئابٌ ينقضُ شروط العَزْم . قد بلغ الحزنُ مبلغاً

---

(١) الـكلم : الجرح ، والآسى : المعالج (م)

(٢) هض : كسر ودق ، وهاض العظم : كسره (م)

(٣) حجر : كان ملك كندة ، وقتله بنوأسد ، وهوأبو امرئ القيس الشاعر (م)

لم أبتذِله للنوائب ، و إن جلّت وَقْعاً ، ونالَت منى مَنالا لم يعتد طرق المصائب ، وإن عظُمت لجعا . كتبتُ عن اضطرابِ نفسٍ ، واضطرامِ صدر ، والتهاب قلب ، وانتهابِ صَبر ؛ فما أعظمه مفقودا ! وما أكرمه ملحودا ! إنى لأنوح عليه نَوْحَ[1] المناقب، وأرْثيه مع النجوم الثواقب، وأبْكيه مع المعالى والمحاسن ، وأثنى [عليه] بثناء المساعِى والمآثر . ليت يمينَ الزمانِ شَلَّتْ قبل أن فتكَتْ بمُهْجةِ الفضل ، وعَيْنَ الزمانِ كُفَّت قبل أن رأت مَصْرَع الفخر . لقد رُزِئْنا من فلان عالمًا فى شخص ، وأمّةً فى نفس . مضى والمحاسنُ تَبكِيه ، والمناقبُ تعزّى فيه . العيونُ لما قرّت به أسخنها فيه رَيْبُ المنون ، ولما شُرحَتْ به الصدور قبضها بفقْده المقدور . قد ركبَ على الأعناق ، بعد العِتاق ، وعلى الأجياد بعد الجيادِ ، وفاح فتيتُ المسكِ من مآثره ، كما يَفُوحُ العنبرُ من مجامره . كان منزلُه مَألفَ الأضيافِ ، ومَأنس الأشراف ، ومُنتَجَع الرّكْب ، ومَقْصد الوَفْد ، فاستبدل بالأُنس وَحْشة، وبالغضارة غُبرة ، و بالبياض ظُلْمَة، واعتاض من تَزَاحُم المراكب تلَادُمَ المآتم، ومن ضَجيج النداء والصهيلِ ،عجيجَ البكاء والعويل. هذى المكارمُ تُبْدِى شجْوَها لِفَقْدِه، وتَلْبَس حِدَادَها من بَعْده ، وهذى المحاسنُ قد قامَتْ نوادبُهَا مع نوادبه ، واقترَنَتْ مصائبُها بمصائبه . لو قُبِلَت الفِدْيَة لوقَيْتُه بنفسى وأيامِ عمرى ، عِلماً بأنّ العيشَ بمثله من إخوانِ الصفا يَصْفو ، و بظَعْنِه عن الدنيا يكدرُ ويَعْفو . لو وُقِى من الموت عزيزُ قومٍ لِعزّتِه ، أو كَبيرٌ بأولاده وأُسرته ، أو ذو سُلطان باستطالته وقُدرته ، أو زعيم دولةٍ بحَشْدِه وعُدّتِه ، لكان الماضى أحقّ من وُقى وأولى من فُدِىَ ، وكُنا أقدر على دفعِ ما حَدث ، وذَبٍّ ما كرث وأرْهَق ؛ لكنه الأمرُ المسوّى فيه بين مَنْ عزّ جانبُه وذَلّ ، وكَثُر مالُه وقَلّ ، حتى لحق المفضولُ بالفاضل ، والناقصُ بالكامل .

---

[1] فى نسخة « بنوح المناقب » والمناقب : جمع منقبة ، وهى الخصلة من خصال الشرف (م)

ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذم الدنيا

هو الدهرُ لايُعْجَب من طوارقِه ، ولا ينكر هجوم بوائقه . عطاؤه فى ضمانِ الارتجاع ، وحِباؤه فى قِرَان الانتزاع . من عرفَ الزمان لم يستشعِرْ منه الأمان ، وتصرّف الحوادثِ ، بين الموروث والوارث . الدهرُ مشحون بطوارقِ الغِيَر ، مَشُوبٌ صَفْوُ إيامه بالكَدَر ، ممزوجٌ صَابُه بالعسل ، موصولةٌ حبالُ الأمنِ فيه بأسباب الأجل . قدجعل اللهُ الدنيادارَ قلعة، ومحلَّ نُقْلَة[1] ، فمن راحلٍ ليومه ، ومن مؤخّر لغده ، وكلٌّ متشوّفٌ لأجله ، وجارٍ لأَمَدِهِ . ما الدنيا إلا دار النقلة ، ولا المقام فيها إلّا للرّحلة ، إنّ المرءَ حقيق إذا طرقه مايتحيَّف صَبْرَه [و يتطرّق صدره] ، أنْ يعودَ إلى عِلْمِه بالدنيا كيف نُصِبت على النُّقْلة ، وجنبَتْ طويل المهلة ، وابتدئت بالنفاد ، وشفُع كونُها بالفساد ، وأن الثاوِى فيها رَاحِل ، والأيام فيها مَرَاحل . موهوب الدنيا مسلوب و إن أرْجِىء إلى مَهَل ، وممنوحها مجذوب و إن أخّر إلى أجل . لو خلّد من سَبقَ ، لما وسِعَت الأرضُ مَنْ لحق ؛ ولذلك جعلتِ الدنيا دار قُلْعة[1] ، ومحلّ نجعة .

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها مُنِعْنا بهـا من جَيْئَةٍ وذُهوب
تملّـكها الآتِى تملُّكَ سـالبٍ وفارقها المـاضِى فراقَ سليب

وقال عتبة بن هارون : كنتُ مع فضل الرقاشي ، فمرّ بمقبرة ، فقال : يأهلَ الديار الموحِشة ، والمحال المُقْفِرة، التى نطق بالخراب فِناؤها ، وشُيِّد بالتراب بناؤها، ساكِنُها مُغْترِب ، ومحلّها مُقْتَرِب ، أهلُ هذهِ المنازلِ متشاغلون ، لا يتواصلون تواُصلَ الإخوان ، ولا يتزاوَرُون تزاورَ الجيران ، قد طحنهم بكَلْكَلِه البِلَى ، وأكلَهم الجَنْدَل والثّرَى .

---

(١) دار قلعة ــ بضم القاف وسكون اللام ، وعلى الإضافة ــ أى دار تحول وانتقال ، وقد وردت هذه العبارة فى كلام على بن أبى طالب كرم الله وجهه (م)

وقال خاقان بن صُبَيْح : لِوَحْشَة الشكّ التمسنا أُنْسَ اليقين ، ومن ذلّ الجهل هربنا إلى عزّ المعرفة ، ولخوْفِ الضلالة لزمنا الجادّة .

وقال بعضُ الحكماء: كونُ المصائب وسكونُ النوائب وبغتات المنايا مطويّات في الساعات ، متحركات في الأوقات ، وربّ مغتبط بساعة فيهما انقضاء أجله ، ومتمتع بوقت صار فيه إلى قبره ، ومنتظر ورودَ يوم فيه منيّتُه .

ووعظ أعرابيٌّ ابنا له أفسدَ مالَه في الشراب ، فقال : لا الدهر يَعِظُك ، ولا الأيامُ تنذرك ، والساعاتُ تعدُّ عليك ، والأنفاسُ تعد منك ، وأحبُّ أمْرَيك إليك ، أرَدُّهما للمضرة لديك .

[من مقامات بديع الزمان الهمذاني]

المقامة الأهوازية

ومن إنشاء بديع الزمان في المقامات : حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ في الأهواز في رُفْقة متى ما ترقّ العينُ فيهم تسهل ، ليس منّا إلا أمرد بكْر الآمال ، بضّ الجمال . أو مختطٌّ حسن الإقبال ، مرجوّ الأيام والليال ؛ فأفَضْنَا في العِشْرَة كيف [نضعُ قواعدَها ، والأخُوّة كيف] نحكم مَعاقدها ، والسرور في أي وقت نتعاطاه ، والأُنس كيف نَتَهاداهُ ، وفائت الحظّ كيف نتلافاه ، والشراب [من أين نخلصه ، والمجلس كيف نرتبه ؟ فقال أحدُنا : على البيت والمنزل ، وقال آخر: على الشراب والنقل] ، وقال بعضُنا : إلى السماع والجماع ، وقمنا نجر أذيال الفسوق ، حتى انسلخنا من السوق ، واستقبلنا رجلٌ في طِمْرين ، في يُمْنَاه عُكّازَة ، وعلى كتفه جِنَازَةٌ[1]؛ فتطيّرْنا لما رأينا الجِنازة ، وأعرضْنَا عنها صَفْحا ، وطوينا دونها كَشْحا ، فصاح بناصيحة كادت الأرضُ لها تنفطِر ، والنجومُ تَنْكَدِر ، وقال: لتروُنّها صُغْرا ، ولتركبُنّها قَسرا. مالكم تكرهون مطيّةً ركبها أسلافكم، وسيركبها أخلافُكم، وتتقذّرون سرير اواطِئه آباؤُكم ، وسيطؤه أبناؤُكم؟ أما والله لتحْمَلُنّ على

---

(١) الجنازة ــ بكسر الجيم ــ سرير الميت (النعش) ما دام فيه (م)

هذه العِيدان ، إلى تلكمُ الدِّيدان ، ولتنقُلُنَّ بهذه الجياد ، إلى تلكم الوِهاد . وَيْحَكم تطَّيَّرون(١) ، كأنكم مخيَّرون ، وتتكرهون ، كأنكم مُنزَّهون ، هل تنفع هذه الطِّيَرة ، يا فجرة ؟

قال عيسى بن هشام : فقد نقضَ علينا ما كُنَّا عقدناه ، وأبطلنا ما كنَّا أرَدْناه ؛ فَمِلْنا إليه ، وقلنا : ما أحوجَنا إلى وعْظِك ، وأعشقَنا للفظك ! ولو شئتَ لزِدْتَ ، قال : إنّ وراءكم مواردَ أنتم واردُوها ، وقد سرْتم إليها عشرين حَجَّة :

وإنّ امرأً قد سار عشرين حَجَّةً   إلى منهلٍ من وِرْدِهِ لقَرِيبُ

وفوقكم مَنْ يعلم أسراركم ، ولو شاء لهتك أستاركم ، يعاملكم في الدنيا بحِلْم ، ويقْضِى عليكم في الآخرة بعِلْم ، فليكن الموتُ منكم على ذكر ، لئلا تأْتُوا بنُكْر ؛ فإنكم متى استشعرتموه لم تجمَحُوا ، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا ، وإن نسيتموه فهو ذاكرُكم ، [وإن نمتم عنه فهو ثائركم ، وإن كرهتموه فهو زائركم] قلنا : فما حاجتك ؟ قال : هى أطولُ من أن تُحَدّ ، وأكثر من أن تُعَدّ ، قلنا : فسانحُ الوقت ؟ قال : ردُّ فائتِ العُمْرِ ، ودَفْعُ نازلِ الأمرِ ، قلنا : ما إلى ذلكَ سبيل ، ولكن لكَ ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها ، قال : لا حاجةَ لى فيها .

قوله * وإن امرأ قد سار عشرين حجة * محرف عن قول قائله :

* وإنّ امرأ قد سار خمسين حجة * والبيت لأبى محمد التيمى ، أنشده دِعبل :

إذا مامضى القَرْنُ الذى أنتَ فيهمُ   وخُلِّفْتَ فى قَرْنٍ فأنت غَرِيبُ

والبيت بعده . قال دعبل : وتزعم الرواة أنه لأعرابى من بنى أسد . وقال خلاد الأرقط : كنّا على باب أبى عمرو بن العلاء ومعنا التيمى ، فذكرنا كتابَ

(١) تطيرون ـ بتشديد الطاء والياء جميعاً ـ أصله تتطيرون ، فقلب التاء الثانية طاء ثم أدغمها (م)

الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم : إنى و إياك لِدَتان[1] ، و إن أمرأ قد سار خمسين حجة لقَمِن أن يَرده . فأصلحناهُ بيتاً ، فاجتلَبه التيمى فى شعره .

[من رسائل بديع الزمان الهمذانى] .

من البديع لأبى القاسم الكرخى

وكتب البديع إلى أبى القاسم الكرخى : أنا و إن لم ألق تطاوُلَ الإخوان إلا بالتطوّل ، وتجمل الأحرار إلا بالتجمّل ، أحاسب الشيخَ على أخــــلاقه ضنًّا بما عقدتُ يدى عليه من الظنّ به ، والتقدير فى مَذْهَبه ، ولولا ذاك لقلْتُ : فى الأرضِ مجالٌ إن ضاقَتْ ظلالُه ، وفى الناس واصلٌ إن رَثَّتْ حبالُه ، وأؤاخذه بأفعاله ؛ فإن أعارنى أذُناً واعيةً ، ونفسا مُرَاعية ، وقلبا متّعظا ، ورجوعا عن الذهاب ، ونزوعاعما يقرعُه من هذا الباب ، فرشت لمودّته صدْرِى[2] ، وعقدت عليه جوامع حَصْرِى ، ومجامع عُمْرِى ؛ و إنْ ركب من التعالى غَــيْرَ مركب ، وذهب من التّغالى فى غيرِ مذهب ، أقطعتُه خطة أخلاقه ، وولينه جانبَ إعراضه ، فــكنت امرأً :

لا أذودُ الطيرَ عن شَجَرٍ قد بلوتُ المرّ من ثمره

فإنى — أطال اللهُ بقاء الشيخ مولاى — و إن كنت فى مقتبل السنّ والعمر ، فقد حلبتُ شَطْرَى الدهر[3] ، وركبْتُ ظهرى البرِّ والبَحْرِ ، ولقيتُ وَفْدَى الخير والشر ، وصافحتُ يدى النَّفْع والضر ، وضربتُ إبطى العُسْر واليُسْر ، و بلوتُ طعمى الْحُلوِ والمر ، ورضعتُ ثديى العُرْف والنُّــكْر ؛ فما تكادُ الأيامُ تريني من أفعالها غريباً ، وتُسْمِعُنى من أقوالِها عجيبا ، ولقيت الأفراد ، وطارَحْتُ الآحاد ؛ فما رأيتُ أحدا إلاّ ملأت حافتيْ سمعِه و بصره ، وشــغلت حيّزَىْ فــكره ونَظَره ، وأثقلت كَفّه فى الْخَزْن ، وكفّتَه فى الوَزْن ؛ ووَدّ لو بارَزَ القِرْنَ

(١) لدة الإنسان ـ بكسر اللام وفتح الدال مخففة ـ المساوى له فى السن (م)
(٢) فى نسخه « فرشت لمودته خوان صدرى » (م)
(٣) حلبت شطرى الدهر : كناية عن التجربة والاختبار (م)

بصفحتى ، أو لَقِىَ الفَضْلَ بصحيفتى ، فمالى صَغُرْتُ فى عينه ؟ وما الذى أزْرَى بى عنده ؟ حتى احتجبَ وقد قَصَدْتُه ، ولزِم أرضَه وقد حضرته ، وأنا أحاشيه أن يجهلَ قَدْرَ الفضلِ ، أو يَجْحدَ فضلَ العلمِ ، أو يمتطى ظَهْرَ التِّيه ، على أهليه ، وأسأله أن يختصَّنى من بينهم بفضل إنعام إن زلت بى مرةً قَدَم رأى فى قَصْده ، وكأنى به وقد غضب لهذه المخاطبة المُجْحِفة ، والرتبة المتحَيِّفة ، وهو فى جنب جفائه يسير ، و إن أقلع عن عادته إلى الوفاء ، ونزع عن شيمته فى الجفاء ؛ فأطال الله بقاء الأستاذ وأدام عزَّه وتأييدَه

كتاب آخر من البديع إلى أبى القاسم

وله إليه رقعة :

بعزٌ علىَّ — أطال اللهُ بقاء الشيخ الرئيس — أن ينوبَ فى خِدْمته قلمى، عن قَدَمِى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وُصولى ، ويَرِدَ شِرْعَةَ الأُنسِ به كتابى ، قبل ركابى ، ولـكن ما الحيلةُ والعوائق جمة :

وعلىَّ أن أسـعى وليـــس علىَّ إدراكُ النجاح

وقد حضرتُ دارَه ، وقبَّلتُ جدارهُ ، وما بى حبُّ الجُدْرَان ، ولـكن شغفاً بالقُطَّانِ ، ولا عِشْق الحيطان ، ولـكن شوقا إلى السكان ، وحين عَدَتِ العَوَادِى عنه ، أمْليتُ ضميرَ الشوقِ على لسان القلم ، معتذِراً إلى الشيخ على الحقيقة ، عن تقصيرٍ وقع ، وفُتور فى الخِدْمَةِ عَرَض ، ولـكنى أقول :

إنْ يَكُنْ تَرْكِى لقَصْدِكَ ذنباً فـكفى ألا أرَاكَ عِقــَابا

كتاب منه إلى رئيس هراة

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد : ورد كتابُ الشيخ الرئيس سيدى، فظلت وفودُ النعم تَتْرَى علىَّ ، ومثلت لدى و بين يدى ، وقدأخَذَ مكارمَ نفسِه ، لجعلها قِلَادة غرْسِه ، وتتبع المحاسن من عِنده ، فحلَّى بها نحْرَ عَبْده[1] ، وما أشبَّه رائعَ حُلِيه ، فى نحرِ وَلِيِّه ، إلابالغُرَّةِ اللائحةِ[2] ، على [الدُّهْمَة] الـكالحة

(١) فى نسخة «فـكساها لعبده» (م)

(٢) أصل الغرة البياض فى وجه الفرس ، وأراد البياض مطلقا ، واللائحة : الظاهرة ؛ والـكالحة : العابسة (م)

لا آخذَ الله الشيخ بوصفٍ نَزَعَه عن عرضه ، وزَرَعه فى غير أرضه ، ونعتٍ سلَخه من خَلْقه وخُلُقه ، وأهداه إلى غير مستحقّه ، وفَضْلٍ استفاده من فَرْعه وأصله ، وأوصله إلى غير أهله . ذكر حديث الشوقِ ولو كان الأمرُ بالزيارة حتما ، أو الإذن [جَزْمًا] أطلق عزما ، لكان آخر نظرى فى الكتاب ، أول نظرى إلى الركاب ، ولاستعنت على كُلَف السير، بأجنحة الطير[1]، لكنه – أدام الله عزّه – صرعنى بين يدٍ سريعة النبْذ ، ورِجْل وشيكة الأخذِ ، وأرانى زهداً فى ابتغاء ، كحسوٍ فى ارتغاء ، ونزاعاً فى نزوع ، كذهاب فى رُجوع ، ورغبة فىّ كرغبة عنى ، وكلاماً فى الغِلاف ، كالضرب تحت اللحاف . فلم أصرّحْ بالإجابة وقد عَرَّضَ بالدعاء ، ولم أُعْلِن بالزيارة وقد أسرّ بالنداء ، ولو لم يَدّعى بلسان المُحاجاة ، ولم يجاهِرْنى بفم المناجاة ، لكنتْ أسرعَ إليه ، من الكرم إلى عطفيه، وفكرتُ فى مُرَادِ الشيخ ، فوجدتُه لا يتعدّى الكرم يشبّ ناره ، والفضل يُدرِك ثاره ، وإذا كان الأمرُ كذلك فما أولاه بترفيهِ مولاه ، عن زَفْرَةٍ صاعدة ، بسفرة باعدة[2] ، ونكباء جاهدة ... . وقد زادسيدى فى أمْرِ المخاطبة ، وما أحسن الاعتدال ، وقد كفانا منه الأستاذ ، وأسأله ألاّ يزيد ، وقد بدأ ويجب ألاّ يعيد ، فلا تنفع كثرة العدّ مع قلة المعدود ، والزيادة فى الحدّ مع نقصان المحدود نقص من الحدود ، وربّ ربح أدى إلى خُسْرَان ، وزيادة أفضَتْ إلى نُقْصَان ، ورأى الشيخ فى تشريفه بجوابه موفّق إن شاء الله تعالى .

اجتلَب قولَه فى أول هذه الرسالة من قول أبى إسحاق الصابى فى جواب كتاب لبعض إخوانه :

كتاب من الصابى لبعض إخوانه

"وصل كتابك مشحوناً بلطيف بِرّك ، موشّحاً بغامِر فَضْلك ، ناطقاً بصحّة

---

(١) فى نسخة « استعنت على السير ، أجنحة » (م)

(٢) فى نسخة « بزفرة قاصدة » (م)

عهدك ، صادقاً عن خلوص ودِّك ، وفهمته وشكرتُ اللهَ تعالى على سلامتك شكرَ المخصوص بها ، ووقفتُ على ماوصفته من الاعتدادِ بى ، وتناهَيْتَ إليه من التقريظ لى . فما زدتَ على أن أعَرْتَني خِلالَك . ونحلْتَني خِصالَك ، لأنَّكَ بالفضائل أوْلَى . وهى لكَ أحْرَى ، ولو كنت فى نفسى ممن يشتملُ على وصفه حَدٌّ إذا حددت ، أو يحيط بكماله وَصْفِى إذاوصَفْت ، لَشَرَعْت فى بلوغها والقرب منها . لكن المادحَ لك مستنفِد لك وُسْعه وقد بخَسك ، ومستغرق طَوْقَه وقد تَقَصَك ، فأبلغُ ما يأتى به المُثنى عليك ، ويتوصل إليه المُطرِى لك ، الوقوف فى ذلك دون منتهاه ، والإقرار بالعجز دون غايته ومَدَاه .

لابن الرومى

ونقـــال البديعُ ما ذكره من تَرْك السفر والبغية بما حضر من قولِ ابن الرومى :

أماحقٌّ حامِى عرض مثلك أن تَرى ... له الرِّفْدَ والتّرفيه أوجبَ وَاجبِ
أقمت لـكى تزدادَ نعْماكَ نعمةً ... وتغنى بوجهٍ ناضرٍ غـير شاحِبِ
وكى لا يقـــولَ القائلون أثابهُ ... وعاقبه والقـول جَمُّ المساغب
وليس عجيباً أنـ ينوبَ تكرّمٌ ... غذيت به من آملٍ لك عائب
دمَامِىَ ترْعى لا ذِمام سفينةٍ ... وحقىَ لا حقُّ القِلاص النجائب[1]

بين أبى العتاهية وابنه

ودخل على أبى العتاهية ابنهُ ، وقدتصوّف، فقال : ألمْ أكُنْ قد نهيتُك عن هذا ؟ فقال : وما عليك أن أتعوّد الخيرَ ، وأنشأ عليه ! فقال : يا بنى ، يحتاجُ المتصوف إلى رقّة حالٍ ، وحلاوة شمائل ، ولطافة معنى ، وأنت ثقيلُ الظل، مظلم الهواء ، راكد النسيم ، جامدُ العينين ، فأقبل على سوقك ؛ فإنها أعْوَدُ عليك . وكان بزّازا .

---

(١) الذمام ـ بكسر الذال ـ العهد . والقلاص : الإبل الفتية : واحدها قلوص، والنجائب : السريعة السير ، والمفرد نجيب ونجيبة (م)

فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص

نورُ الحقيقةِ ، أحسنُ من نور الحديقة . الزهد قطع العلائق ، وهَجْر الخلائق . الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة . التصوّف تَرْكُ التكلّف . قيل لمتصوّف : أتبيع مُرَقَّعتك ؟ قال: أرأيتم صياداً يبيع شبكَته ! وقيل لبعضهم : لو تزوَّجْتَ ! قال : لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها ، وأنشد :

تجرَّدْ من الدنيا فإنك إنما   سقطت إلى الدنيا وأنتَ مجرَّدُ

الدنيا نَوْم والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن في أضغاث أحلام .

ذو النون : العبد بين نعمة وذنب ، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار .

غيره : ينبغي للعبد أنْ يكون في الدنيا كالمريض لابد له من قوت ، ولا يوافقه كل طعام . ليس في الجنة نعيم أعظم من علم أهلها أنها لا تزول .

ابن المبارك : الزهد إخفاء الزهد . إذا هرب الزاهدُ من الناس فاطلبه ، وإذا طلبهم فاهرب عنه . من أطلق طرْفه كثر أسفُه . من سُوء القدر فضْل النظر من طاوع طَرْفه ، تابع حَتْفَه ، ومن نظر بعين الهوى حار ، ومن حَكم على الهوى جار ، ومن أطال النظر لم يدرك العانة ، وليس لناظرٍ نهاية . ربما أبصر الأعمى رُشْدَه ، وأصلَ البصير قَصْدَه . وقيل : ربَّ حربٍ جُنِيت من لفظة ، وربّ حبٍّ غُرِسَ من لحظة ، وأنشد :

نظرت إليها نظرةً لو كسوتها   سرابيلَ أبدانِ الحديدِ المسَرَّدِ
لرقّت حواشيها وفُض حديدُها   ولاَنتْ كما لاَنتْ لداود في اليَدِ [1]

وقال سعيد بن حميد :

نظرت فقادَتني إلى الحَتْف نظرةٌ   إلى مصمون الضمير تشير [2]

---

(١) في نسخة « لرق حواشيها » والحواشي : جمع حاشية . وحاشية الثوب : جانبه (م)

(٢) الحتف : الموت (م)

فلا تصرفنَّ الطَّرْفَ فى كل مَنْظَرٍ   فإنَّ مَعَارِيضَ البلاء كثير
ولم أر مِثْلَ الحبِّ أسقم ذا هوًى   ولا مثل حُكْمِ الحبِّ كيف يجُورُ
لقد صُنْتُ مابى فى الضمير لَوَ أنه   يُصان لدى الطَّرْف النموم ضميرُ

غيره :

اليوم أيقنت أن الحبَّ مَتْلَفَةٌ   وأن صاحبَه منه على خَطَرِ
كيف الحياةُ لمن أمسَى على شَرَفٍ   من المنيَّةِ بين الخوفِ والحذَرِ
يلومُ عينيه أحياناً بذنبهما   ويحملُ الذنبَ أحياناً على القدر
إذا نأى أو دَنَا فالقلبُ عندكمُ   وقلبُه أبداً منه على سَفَرِ

ونظر محمد بن أسباط الصوفى إلى أبى المثنى الشيبانى وقد نظر فى وجه غلام مليح ، فقال : [إياك و] إدْمانَ النظر [فإنه] يكشف الخبر ، ويفضَحُ البشَر ، ويطول به المكثُ فى سقَر .

وقال المَعلى الصوفىّ : شكوتُ إلى بعض الزهاد فسَاداً أجدُه فى قلبى، فقال : هل نظرتَ إلى شىء فتاقَتْ إليه نفسُك ؟ قلت : نعم ، قال : احفَظْ عينيك ؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك فى مكروه ، وإن ملكْتَهُمَا ملكْتَ سائرَ جوارِحك .

وقال مسلم الخوّاص لمحمد بن على الصوفى : أوْصِنى ، فقال : أوصيك بتقوى الله فى أمرك كلّه ، وإيثار مايحبّ على محبتك ، وإياك والنظر إلى كل ما دعاك إليه طَرْفك ، وشوّقك إليه قلبك ؛ فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئا من جوارحك ، حتى تبلغ لهما مايطالعانك به[1] ، وإن ملكتهما كنت الداعى إلى ما أردت، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردّا لك قولا .

قال بعض الحكماء : إن الله عزّ وجل جعل القلبَ أميرَ الجسدِ ، ومَلِكَ الأعضاء ؛ فجميعُ الجوارح تَنْقَادُ له ، وكُلّ الحواسّ تُطيعُه ، وهو مدبِّرُها[2]

---

(١) فى نسخة « حتى يطلب بهما ما يطالبانك به » (م)
(٢) وتقرأ « مدبِرها » بالباء الموحدة (م)

ومصرِّفها ، وقائدُها وسائقها ، و بإرادته تنبعثُ ، وفى طاعته تتقلّب ؛ ووزيره العقل ، وعاضِدُه الفهمُ ، ورائده العينان ، وطليعته الأذنان . [وهما فى النقل سـواء ، لا يكتمانه أمراً ، ولا يطويانِ دونه سرًّا ، يريد العين والأذن] .

وقيل لأفلاطون : أيهماأشدّ ضرراً بالقلبالسمع أمالبصر؟ فقال: هما للقلب كالجناحين للطائر ، لايستقلّ إلا بهما ، ولا ينهض إلا بقوتهما ، وربمـا قُص أحدُهما فنهض بالآخر على تعبومشقة . قيل : فما بالُ الأعمى يعشق ولا يرى، والأصم يعشقُ ولا يسمع ؟ قال : لذلك قلت : إن الطائر قد ينهــضُ بأحد جناحيه ولا يستقلّ بهما طيراناً ، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى ، و [طيرانه] أوْحَى[1] .

وقال الأسـود بن طالوت الجارودى : نظر إلىّ أبو الغـمر الصوفى وقد أطلتُ النظرَ إلى غلامٍ جميل ، فقال : ويحك ! إنّ طَرْفك لعظيم ما اجتنى من البلاء قد عرّضَك للمـكروه وطول العناء ، لقد نظرت إلى حَتْف قاتل للقلوب ، و بلاء مُظْهِر للعيوب ، وعارٍ فاضح للنفوس ، ومكروه مُذْهِل للعقول ، أ كل هذا الاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنتمَكْرَه ، ولم تخَفْ كيدَه ؛ اعـلم أنك لم تـكن فى وقت من أوقاتك ، ولا حالةٍ من حالاتك ، أقرب إلى عقوبة الله منك فىحالتك هذه ، ولو أخذك لم يتخلّصْك الثقلان ، ولم يَقْبَلْ فيك شفاعةَ إنس ولا جان .

ونظر محمد بن ضـوء الصوفى إلى رجل ينظرُ إلى غلام مليح ، فقال : كفى بالعبد نقصا عنـد الله ، وضَعَة عند ذوى العقول ، أن ينظرَ إلى كل ما سَنَحَ له من البلاء .

ونظر [أبو] مسلم الخشـوعى فأطال النظر ، فقال : إنّ فى خلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولى الألباب . ثم قال : سبحان الله ! ما أهجمَ طَرْفى على مكروه نفسه ، وأدمَنه على تسخّط سـيده ،

(١) أوحى : أسرع

وأغراه بما نهى عنه، وألهجَه بما حذّر منه ! لقد نظرت إلى هـذا نظراً شديدا خشيتُ أنه سيفضحى عند جميع مَنْ يعرفنى فى عَرْصَة القيامة ؛ ولقد تركنى نظرى هذا وأنا أستحيى من الله تعالى إنْ غفر لى ! ثم صعق .

ونظر غالبٌ المضرور[1] إلى غلام جميل على فرس رائع ، فقال : لا أدرى بم أداوى طَرْفى ، ولا بم أعالج قلبى ؟ ما أتوبُ إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه ، ولا أستغفِرُه من أمر إلاّ أتيت أعظم منه ، حتى لقد استحييتُ أن أسأله المغفرة لما يلحق قلبى من القنوط من عفوه ، لعظيم حالى بالمنكر الذى أصنعُه . فقال له قائل : وأىّ منكر أتيت ؟ فقال : أتريدُ منى أكثرَ من نظرى هـذا ! والله لقد خشيت أن يبطل كلُّ عمل قدمته ، وخير أسلفته . ثم بكى حتى ألصق خدَّه بالأرض .

ورأى بعضُ الزهّاد صوفيا يضحَكُ إلى غلام جميل ، فقال له : يا خارب القلب ، ويا مفتضح الطرْف ؛ أما تستحى من كِرَامٍ كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأفعال ، ويكتبون الأعمال ، وينظرون إليك ، ويشهدون عليك ، بالبلاء الظاهر ، والغِلّ الدخيل الخـامر ، الذى أقمت نفسَك فيه مقام مَنْ لا يُبَالى من وقف عليه ، ونظر من الخلق إليه .

وقال أبو حمـزة بن إبراهيم : قلت لمحمد بن العـلاء الدمشقى — وكان سيدَ المتصوفة ، وقد رأيتُه يمـاشِى غـلاماً وضيئا مدة ثم فارقه ـ : لِمَ هجرتَ ذلك الفتى بعد أنْ كنتَ له مواصـلا ، وإليـه مائلا ؟ فقال : والله لقد فارقته من غـير قِلًى ولا مَلَل ؛ ولقد رأيتُ قلبى يدعـونى إذا خـلوت به ، وقربت منـه ، إلى أمر لو أتيته لسقطت من عيْن اللهِ عز وجل ؛ فهجرتُه تنزيها للهِ ولنفسى عن مصارع الفتن ، وإنى لأرجو أن يعقبنى سـيدى من

---

(١) فى نسخة « غالية المضرور » (م)

مفارقته ما أعقب الصابرين عن محارِمه عنـد صدقَ الوفاء بأحسنِ الجزاء ؛ ثم بكى حتى رحمتُه .

قال أبو حمزة : ورأيتُ مع أحمد بن على الصّوفى ببيت المقدس غلاما جميلا ، فقلتُ : منذ كم صحبك هذا الغلام ؟ فقال : منذ سنين ، فقلت : لو سرتما إلى بعضِ المنازِهِ فـكنتما فيه كان أحمد لـكما من الجلوس فى المسجد بحيثُ يراكما الناس ؟ فقال : أخافُ احتيالَ الشيطانِ عليّ به وقت خَلْوتى ، وإنى لأكره أن يرانى اللهُ فيه على معصية فيفرّق بينى و بينه يوم يظفر المحبّون بأحبابهم

قال أبو الفتح البستى :

تنازع الناسُ فى الصوفىّ ، واختلفوا ... فيـه وظنّوه مشتقّا من الصوفِ

ولست أنحل هذا الاسمَ غيرَ فتًى ... صافَى فصُوفِيَ حتى لقّب الصوفى

ورأى بقراط رجلاً من تلامذته يتفرّس فى وَجْه أوحَيَا ، وكانت فائقـة الجمال ، فقال : ما هذا الشغل الذى منعك الروّية والفـكرة ؟ فقال : التعجبُ من آثار حكمة الطبيعة فى صورة أوحَيا ، فقال : لا تجعلنّ نظرك لشهوتك مركباً ، فيجمع لك فى الوحول الأذية [1] ؛ ولتَـكُنْ نفسُك منه على بال ، إنّ آثار الطبيعة فى وَجْه أوحَيا الظاهرة تمحق بصرك ، وإن فـكرت فى صورتها الباطنة تحد نظرَك .

وقال بعضُهم : رأيتُ جاريةً حسناء السـاعِد ؛ فقلت : يا جارية ، ما أحسن ساعدَك ! فقالت : [أجل ، لـكنه] لم تختص به ، فغضّ بصَرَ جسمك عما ليس لك ؛ لينفتح بصرُ عقلك فترَى مالك .

---

(١) فى نسخة « ليجمع لك ذحول الأذية » (م)

الرأى والهوى

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانيين : فضلُ ما بين الرأى والهوى أنَّ الهوَى يخصّ والرأى يعمّ ، وأن الهوى فى حيز العاجل ، والرأى فى حيز الآجل ، والرأى يبقى على طول الزمان ، والهوى سريع الدثور[1] والاضمحلال ، والهوى فى حيز الحس ، والرأى فى حيز العقل .

وقال بعضُ الحكماء : من انقاد لِهوَاه عرضته الشهوات .

وقال آخر : من جرَى مع هواه طَلْقا[2] ، جعل عليه للذل طرقا .

وقال ابن دُريد : أوصَى بعضُ الحكماء رجلا فقال : آمرك بمجاهدة هواك ؛ فإنه يقال : إنَّ الهوى مفتاحُ السيئات ، وخصيم الحسنات ، وكلّ أهوائك لك عدو ، وأعداها هوَى يكتُمك نفسَه ، وأعدى منه هوى يمثّل لك الإثم فى صورة التقوى ، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بحزْمٍ لا يشوبه وهَن[3] ، وصِدْقٍ لا يطمع فيه تكذيبٌ ، ومَضاءٍ لا يقاربُه التثبيط ، وصبر لا يغتاله الجزع ، وهمة لا يتقسّمها التضييع

وقال أبو العتاهية :

لا تأمن الموتَ فى طَرْفٍ وفى نفَسٍ ... ولو تمنَّعت بالحجّاب والحرسِ

فما تزالُ سِهامُ الموتِ نافــذةً ... فى جنب مُدَّرِع منا ومُــتَّرِسِ[4]

ما بالُ دِينِك ترضَى أنْ تدنّسَهُ ... وثوبُك الدهر مَغسولٌ من الدَّنسِ

ترجو النجاةَ ولم تسلُكْ مسالِكَها ... إنَّ السفينةَ لا تجـرِى على يَبَسِ

[من البد بدائه فى مجالس الخلفاء]

خرج شبيب بن شيبة من دارِ المهدى، فقيل له : كيف رأيتَ الناس؟ قال :

(١) الدثور : الهلاك (م)
(٢) طلقا ـ بفتح الطاء واللام ساكنة أو مفتوحة ـ شوطاً (م)
(٣) الوهن ـ بالتحريك ـ الضعف (م)
(٤) المدرع : لابس الدرع ، وأصله متدرع ، والمترس : لابس الترس (م)

رأيتُ الداخل راجيا والخارجَ راضيا . نحا إلى هـذا المعنى ربيعةُ الرقى فقال :

قد بسطَ المهدىّ كفَّ الندى للناس والعفو عن الظـالِمِ

فالراحلُ الصادرِ عن بابه مبشّرٌ للواردِ القـادم

وقال مسلم بن الوليد فى نحو هذا المعنى :

جزيت ابنَ منصورٍ على نأْى دارهِ جزاءَ مقـرٍّ بالصنيعة شاكرِ

فتًى راغمَ الأموالَ واصطنع العُلاَ وأرَّثَ نيرانَ النـدى للعشائر(١)

[ترى الناسَ أرسالا على باب داره] [عَلَى آمِنٍ يَحْدُو بِهِ حملُ صادرِ](٢)

وقال المتنبى :

وألقى الفمَ الضحّاكَ أعلم أنهُ قريبٌ بذى الكفِّ المفدّاةِ عهدُهُ

آخوال السفاح

دخل خالد بن صفوان على أبى العباس السفاح ، وعنده أخواله من بنى الحارث بن كَعْب، فقال : ما تقولُ فى أخوالى ؟ فقال: هم هامة الشرف، وعِرْنينُ الكَرم ، وغَرسُ الجود ، إنّ فيهم لخصالا ما اجتمعَتْ فى غـيرهم من قومهم : إنهم لأطولهم أمما ، وأكرمهم شِيَماً ، وأطيبهم طعما ، وأوفاهم ذمما ، وأبعدهم همماً ، الجمرة فى الحرب ، والرِّفْد فى الجَدْبِ ، والرأس فى كل خَطْب ، وغيرهم بمنزلة العَجْب(٣) . فقال : وصفت أباصفوان فأحسنْتَ ، فزادَ أخوالُه فى الفخر ؛ فغصب أبو العباس لأعمامه ، فقال : أفخرْ ياخالدُ ؟ قال : أعلى أخوال المؤمنين! قال :وأنتَ من أعمامه؟ قال: كيف أفاخر قوماهم بين ناسج برد ، وسائس قِرْد ، ودابغ جِلْد(٤)، دلّ عليهم هدهُد ، وغرّقهم جُرَذ ، وملكتهم أمّ ولد ! فأشرق وَجْهُ أبى العباس .

قال يموت ابن المزرّع : سمعتُ خالى الجاحظ ، وذكر كلام خالد هذا ، فقال : والله لو فكر فى جَمْعِ معايبهم ، واختصار اللفظ فى مَثَالبهم ،

---

(١) أرث النار : أوقدها ، وفى كافة النسخ « وأثبت نيران ــ إلخ » (م)

(٢) صدر هذا البيت مذكور فى نسخة . وعجزه عن ديوان مسلم بن الوليد (م)

(٣) العجب ــ بالفتح ــ أصل الذنب ومؤخر كل شىء

(٤) فى نسخة زيادة « وراكب عرد » والعرد ــ بفتح العين وسكون الراء ــ الحمار (م)

بعد ذلك المدح المهذب سَنَةً لكان قليلا ، فكيف على بديهته لم يَرُضْ له فكرا .

هكذا أورد هذه الحكاية الصولى ، وقد جاءت بأطولَ من هذا ، وليس من شَرْطِنا .

لمعن بن أوس

قال معن بن أوس المذلى :

لعمرك ما أدْرِى و إنى لأوْجَلُ ... على أيِّنا تَأتى المنيــــة أولُ
و إنى أخوكَ الدائمُ الودِّ لم أحُلْ ... إذا ناب خطبٌ أو نَبَا بك منزل [1]
كأنك تشفِى منك داء مساءتى ... وسُخطِى ، وما فى ريبتى ما تَعَجَّلُ
و إن سُؤْتَنِى يوما صبرتُ إلى غدٍ ... ليعقبَ يوما آخرٌ منك مُقْبلُ
ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى ... يمينَك فانظُرْ أىّ كف تبدَّلُ
وفى الناس إن رثَّتْ حبالُك واصلٌ ... وفى الأرض عن دارِ القلى مُتَحَوَّل
إذا أنت لم تنصِفْ أخاك وجدتَهُ ... على طرف الهجران إنْ كان يعقِلُ
و يركب حدَّ السيف من أن تَضِيمُهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرةِ السيفِ مَزْحَلُ
وكنتُ إذا ما صاحبٌ رامَ ظنتى ... و بَدَّل سوءا بالذى كان يفعل
قلبتُ له ظَهرَ المِجَنّ ولم أدُمْ ... عليه العهـــد إلا ريثما أتحوّلُ
إذا انصرفت نفسى عن الشىء لم تكد ... على بوجهٍ آخرَ الدهر تُقْبل

ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبى سفيان وأنشد شعر مَعْن ، فقال : لمن هذا ؟ فقال : لى يا أمير المؤمنين ، قال : لقد شَعُرْتَ بعدى يا أبا بكر ! ثم دخل عليه مَعْن فأنشد الشعر بعينه ، فقال : يا أبا بكر ، ألم تقل إنه شعرك ؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين ، إنه ظِئْرى [2] فما كان له فهو لى . أراد معاتبة معاوية فعاتبه بشعر مَعْنٍ ؛ ليبلغ ما فى نفسه ، وليس ادِّعاؤه له على حقيقة منه .

---

(١) حفظى «الدائم العهد لم أخن * إن ابزاك خصم ـ إلخ » (م)

(٢) ظئر الرجل ـ بكسر الظاء وسكون الهمزة ـ ابنه من الرضاع (م)

وقال خالد بن صفوان : دخلتُ على هشام بن عبد الملك ، فاستَدْناَنِي حتى كنت أقربَ الناسِ إليه، ثم تنفّس الصعداء ، وقال : ياخالد، ربَّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إلىّ حديثا منك ! فعلمت أنهَ أراد خالداً القَسْرِي، فقلت : أفلا تعيده ياأمير المؤمنين ؟ فقال : هيهات ؟ إن خالدا أدلّ فأملّ، وأوجف فأعجف، ولم يَدَعْ لراجع مرجعاً . وتمثل بهذا البيت :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تَـكَد عليه بوجهٍ آخرَ الدهـر تُقْبِلُ

وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة قال : كان عبد الملك بن مروان في سَمَرِه مع أهـل بيتِه وولده وخاصّته ، فقال لهم : لِيَقُلْ كلُّ واحدٍ منكم أحسن ماقيل من الشعر ، وليفصّل [مَنْ] رأى تفضيله ، فأنشدوا وفضّلوا ، فقال بعضهم : [امرؤ القيس ، وقال بعضهم :] النابغة ، وقال بعضهم : الأعشى ، فلما فرغوا قال : أشعرُ الناس والله من هؤلاء الذي يقول ، وأنشد بعض هذه الأبيات التي أنشد ، وهي لمعن بن أوس :

وذي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِه بحلميَ عنـــه وهو ليس له حِلْمُ
يحاول رغمي لا يحاولُ غـــيرهُ وكالموتِ عندي أن يَحُلّ به الرغْمُ
فإن أعفُ عنه أُغْض عيناً على قَذًى وليس له بالصَّفح عن ذنبه عِلْمُ
و إن أنتصرْ منه أَكُنْ مثل رائشٍ سهامَ عدوّ يُستهاض بها العظمُ
صـبَرْتُ على ما كان بيني و بينهُ وما يستوِي حَرْبُ الأقاربِ والسِّلْمُ
وبادرتُ منـه النأيَ والمرءُ قادرٌ على سهمه ما كان في كفه السهم
ويشتم عرضِي في المغيَّب جاهـداً وليس لَهُ عنـدي هَوَانٌ ولا شتم[1]
إذا سُمْتُه وَصْلَ القرابةِ سـامني قطيعتَها ، تلك السفاهةُ والإثمُ
فإن أدْعُه للنَّصْفَ يَأْبَ إجابتي ويَدْعُو لحكم جائرٍ غيرُهُ الْحُكْمُ[2]

(١) في المغيب : أي حين أكون غائبا عنه (م)

(٢) للنصف : أي للعدل والنصفة ، ويأب إجابتي : يرفضها ويمتنع عنها (م)

فو لا اتقاء الله والرَّحِم التى رعايتها حقٌّ وتعطيلها ظُلم
إذا لقــــلاه بارقٌ وخطَمْتُهُ بوسْمِ شَنَارٍ لا يشابهُهُ وَسْمُ(١)
و يسعى إذا أبنى ليهدمَ صـــالحى وليس الذى يبنى كمن شأنُه الهَدْمُ
يودُّ لَوَ انّى معـدمٌ ذو خصاصةٍ وأكرهُ جهدى أن يخالطَه العُدْمُ
و يعتـدُّ غنماً فى الحوادث نـكبتى وما إنْ له فيها سَنَاءٌ ولا غُنْمُ
فـــا زلتُ فى لِينى له وتعطُّفى عليـــه كما تحنو على الولَدِ الأمُّ
وخفضى له منى الجنـــاحَ تألّفا لتُدْنيَهُ مـــنى القرابةُ والرَّحْمُ
وصَبْرِى على أشياء منـــه تَريبنى وكَظْمى عن غيظى وقد ينفع الـكَظْمُ
لاسْتَلَّ منـه الضِّغْن حتى استللتُه وقد كان ذا ضِغْنٍ يصو به الحزم(٢)
رأيتُ انثـــلاماً بيننا فرقعتُه برفقى أحيانا وقد يُرقَع الثَلْمُ
وأبرأتُ غِلَّ الصـدرِ منه توسُّعا بحلمى كما يُشْفَى بالأدْوِيَةِ الـكَلْمُ
فأطفأتُ نار الحرب بينى و بينهُ فأصبحَ بعـد الحرب وهو لنا سَلْم

[من رسائل أبى الفضل بن العميد]

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى :

من ابن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى

وصل كتابك فصادفنى قريبَ عهد بانطلاق ، من عَنَتِ الفراق ، وأوقفنى مستريحَ الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق ، فإنّ الدهرَ جرى على حكمِه المـألوف فى تحـويل الأحوال ، ومضى على رَسْمِـه المعروف فى تبديل الأبدال ، وأعتقنى من مخالّتك عِتقا لاتستحقُّ به ولاء ، وأبرأنى من عهدتك براءة لا تستوجِبُ معها دَرَكا ولا استثناء ، ونزع من عُنقى رِبقَة الذّل فى إخائك بِيَدَىْ جفائك ، ورشّ على ما كان يحتدم فى ضميرى من نيرانِ الشوق ماء السلوّ ، وشنّ على ما كان يلتهبُ فى صَدْرى من الوَجْد

(١) يروى «بوسم شنار لايشاكهه وسم» والمعنى واحد (م)
(٢) يروى «وقد كان ذا ضغن يضيق به الحزم» وهى أظهر (م)

ماءَ اليأس، ومسح أعشار قلبي فَلأَمَ فُطُورَها بجميل الصبر[١]، وشَعَبَ أفلاذَ كبدى فلاحم صدوعَها بحُسْن العزاء ، وتغلغل فى مسالك أنفاسى فعوض نفسى من النزاع إليك نُزُوعاً عنك[٢]، ومن الذهاب فيك رجوعا دونك ، وكشفَ عن عينى ضَبَابات ما ألقاهُ الهوى على بصرى ، ورفع عنها غيابات ما مدّ له الشك دُون نظرى ، حتى حدَر النقاب عن صفحاتِ شِيَمك ، وسفَر عن وجوه خليقتك ؛ فلم أجدْ إلاّ منكراً ، ولم ألق إلا مستكبراً ، فوليتُ منها فِراراً ، ومُلِئتُ رُعْباً ، فاذهب فقد ألقيت حَبْلَكَ على غارِبك ، ورددتُ إليك ذمياً عهدك .

وفى فصل من هذه الرسالة : وأما عذرُك الذى رُمْت بَسْطَه فانقبض، وحاولْتَ تمهيدَه وتقريرَه فاستَوْفزَ وأعرض ، ورفعتَ بضَبْعه فانخفض ، فقد ورد ولقيته بوجهٍ يؤثر قبولَه على ردِّه، وتزكيته على جرحه ، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسه ، ولم يقم عند ظنّك به ، أنّى وقد غطّى التذمُّمُ وجْهَه ، ولفّ الحياءُ رأسَهُ ، وغضّ الخجلُ طَرْفَه ؛ فلم تتمكن من استكشافه ، وولّى فلم تقدر على إيقافه ، ومضى يعثُرُ فى فضولِ ما يغشاه من كرب حتى سَقَطَ ، فقلنا : لليدِ والفم : ثم أمر بمطالعة ما صحبه فلم أجده إلاّ تأبّط شراً ، أو تحمّلَ وِزْراً .

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول :

اقْرَ السلامَ على الأمير وقل لهُ	قَدْكَ اتئبْ أرْبَيْتَ فى الغُلَوَاء
أنتَ الذى شتّتَّ شَمْلَ مسرّتى	وقَدَحْتَ نارَ الشوقِ فى أحشائى
ورضيتَ بالثمن اليسير معوضةً	منى ، فهلاّ بِعْتَنى بغلاء
وسألتك العُتْبَى فلم ترَ لى لها	أهلاً ، فجُدْتُ بِعذْرَةٍ شَوْهاءِ[٣]
ورَدَتْ مموّهةً فلم يرفعْ لها	طرْف ، ولم ترزق من الإصغاء

---

(١) لأم : ضم وجمع ولحم ، والفطور : جمع فطر ، وهو الشق (م)

(٢) النزاع إليك : أى الشوق إليك ، والنزوع عنك : الانصراف عنك (م)

(٣) العتبى : الاسترضاء ، والعذرة ـ بالكسر ـ الاعتذار (م)

وأعار منطقها التذمّم سكتة فتراجعَتْ تمشى على استحياء
لم تشف من كدٍ ، ولم تبردْ على كبدٍ ، ولم تمسَحْ بجوانبَ داء
داوتْ جوًى بجوًى وليس بحازم من يستكفّ النارَ بالحلفاء
من يشف مِنْ كد بآخر مثلِهِ أثرتْ جوارحُهُ على الأدواءِ

وله إليه رسالة : أخاطب الشيخ سيدى ـ أطال الله بقاءه ـ مخاطبةَ مُحْرَجٍ يروم الترويحَ عن قلبه، ويريغ التفريجَ[1] من كَرْبِهِ؛ فأكاتبه مكاتبةَ مصدور ، يريدُ أن ينفثَ بعضَ ما به ، ويخفف الشكوى من أوصابه ، ولو بقيَتْ فى التصبّر بقيةٌ لسكتُّ، ولو وجدت فى أثناء وجدى مَخرجة يتحلّلها تجلُّد لأمسكت ؛ فقديما لبستُ الصديقَ على علاّته ، وصفَحْتُ له عن هَناته ، ولكنى مغلوب على العزاء ، مأخوذٌ عن عادتى فى الإغضاء ، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالى جفاء ، وذهب فى نفسى من ظلمك ما أنزف حلمى فجعله هباء ، وتوالى علىّ من قُبْحِ فعلِك فى هجر يستمر على نسَق ، وصدّ مطّردٍ متّسِق ، ما لو فُضّ على الورَى ، وأُفيض على البشَر لامتلأتْ منه صدورُهم ، فهل أقدرُ على ألاّ أقول ، وهل نَكِلُك إلى مراعاتك ، وهل نشكوك إلى الدهرِ حليفك على الإضرار ، وعقيدك على الإفساد[2] ، وأشكوه إليك ، فإنكما وإن كنتما فى قطيعة الصديق رضيعَىْ لِبَان ، وفى استيطاء مركب العقوق شريكى عنان ، فإنه قاصرٌ عنك فى دقائقَ مخترعةٍ ، أنتَ فيها نسيجُ وَحْدِك ، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة، أنتَ فيها وحيدُ عصرك ، أنتما متفقان فى ظاهرٍ يَسُرُّ الناظرَ ، و باطنٍ يسوءُ الخابر، وفى تبديل الأبدال ، والتحول من حالٍ إلى حال ، وفى بثّ حبائلِ الزورِ ، ونَصْبِ أشراك الغرور ، وفى خلف الموعود ، والرجوع فى الموهوب ، وفى فظاعة اهتضام ما يعير ، وشناعة ارتجاع ما يمنح ، وقَصْدِ مُشارّة الأحرار[3] ، والتحامل

(١) يروم ، ويريغ ، كلاهما بمعنى يطلب ، ووقع فى نسخة « يريد » فى مكان « يريغ » والمعنى واحد (م) (٢) عقيدك : معاهدك ومعاقدك ، يريد أنهما متفقان (م)
(٣) المشارة : المخاصمة (م)

عند ذوى الأخطار ، وفى تكذيب الظنون ، والميلِ عن النباهة للخمول ، إلى كثير من شِيَمكما التى أسندتما إليها ، وستكما التى تعاقدتما عليها ، فأين هو ممن لا يجارى فيه نقض عُرى العهود ، ونسكث قُوَى العقود ؟ وأنى هو عن النميمة والغيبة، ومشى الضرَاء[1] فى الغِيلة ، والتنفق بالنفاق فى الحيلة ، وأين هُو ممن ادّعى ضروبَ الباطل ، والتحلّى بما هو منه عاطل ، وتنقّص العلماء والأفاضل ؛ هـــذا إلى كثير من مَسَاوٍ منثورة أنت ناظمُها ، ومَخَازٍ متفرقة أنت جامِعُها . أنت أيّدكَ الله إنْ سوّيتَه بنفسك ، ووزنته بوزنك ، أظلَمُ منه لذويه ، وأعق منه لبنيه ؛ وهَبْك على الجملة قد زعمت — مفترياً عليه — أنه أشدُّ منك قدره ، وأعظمُ بَسْطَة ، وأتمّ نصرة ، وأطلق يدا فى الإساءة ، وأمضى فى كل سكانه شباة[2] ، وأحدّ فى كل عاملة شَدَاة[3] ، وأعظم فى كل مكروه مُتغَلغلاً ، وآلف إلى كل محذور متوصلا ، إن الدهر الذى ليس بمُعتِب من يجزعُ ، وإن المُنتَهَى منك مأمولة، ومن جهتك مرقوبة ، وهيهات ! فهل توهّم أنه لو كان ذا روح وجثمان ، مصوراً فى صورةِ إنسان ، ثم كاتبتهُ أستعطفه على الصلة ، وأستعفيه من الهجر ، وأذكّره من المودة ، وأستميل به إلى رعايةِ الثِقَة ، وأستعد على ما أشاعه الفراقُ فى نفسى من اللوْعة ، وأضْرَمه بالبعادِ فى صــدرى من الحرقة ، كان يستَحْسِنُ ما استَحْسَنْته من الاضطراب عند جوابى ، ويستجيز ما استَعْجَزْته من الاستخفافِ بكتابى .

وله فصل فى هذه الرسالة ، وقد ذكر دعواه فى العــلم :

وهبْك أفلاطون نفسه فأينَ ما سنَنْتَه من السياسةِ ، فقد قرأناه ، أنجدُ فيه إرشادا إلى قطيعة صديق ، وأحسبك أرسطاطاليس بعَيْنِه، أين مارَسَمْته من الأخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نرفيه هدايةً إلى شىء من العُقُوق ، وأما الهندسة فإنها باحثةٌ عن المقادير ، ولن يعرفها إلا مَنْ جهل مقدارَ نفسه ، وقَدْرَ الحقّ عليه وله ؛ بل لكَ فى رؤساء الآداب العربية [مِنّا ريحٌ ومضطرب ، ولسنا نَشَاحّك ، لكن أتحب أن تتحقق

(١) مشى فلان الضَراء ــ بزنة السحاب ــ أى مشى مستخفيا فيما يواريه من من شجر ونحوه ، ويقال ذلك لمن يوصف بأنه يختل ويخدع (م)

(٢) شباة السنان : حده (م) (٣) الشداة : بقية القوة ، وحد كل شىء (م)

بالغريب من القول ، دون الغريب] من الفصل ؟ وقد أغربت فى الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدى للرجوع عنه . وأما النحوُ فلن تُدْفع عن حذق فيــه ، وبَصَرٍ به ، وقد اختصرتَه أوْجزَ اختصار ، وسهلتَ سبيلَ تعليمه على من يجعلك قُدْوة ، ويرضى بك أسوةً ، فقلت : الغدرُ والباطلُ وما جرى مجراهما مرفوعٌ ، والصدق والحق وما صَاحَبَهما مخفوض ؛ وقد نصب الصديقُ عندك ، ولـكن غرضا يُرْشَق بسهام الغِيبة ، وعَلَما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضى ذى اللهجة فأعرف قَدْرَ حذقك فيــه ، إلا أنى لا أراك تتعرّضُ لـكاملٍ فيه ، ولا وافرٍ ، وليتك سبحتَ فى بحر المجتثّ حتى تخرج منه إلى شطّ المتقارب .

وفى فصل منها أيضا :

وهبْنى سكتُّ لدعواك سُكوتَ متعجّب ، ورضيتُ رِضاً متسخّط ، أيرْضى الفضلُ اجتذابَك بأهدابه ، من يدى أهليه وأصحابه ، وأحسبك لم تزاحِمْ خطّابَه ، حتى عرفت ذلة نَفَره وقلة بصره ، فاصدقنى هل أنشدك :

لو بأبانين جاء يخطبها ضرّج ما أنفُ خاطبٍ بدَم(١)

وليت شعرى بأى حلى تصدّيت لهُ ، وأنت لو تتوجت بالثريّا ، وقلدت قِلادة الفلك ، وتمنطقتَ بمنطقة الجوزاء ، وتوشّحْتَ بالمجرة لم تـكن إلا عُطُلا ، ولو توشّحْتَ بأنوارِ الربيع الزاهر ، وسرّجت جبينك غرّةَ البدرِ الباهرِ ، ما كنتَ إلا عُطُلا ، سيما مع قلّة وفائك ، وضَعْفِ إخائك ، وظلمة ماتتصرّف فيه من خِصالك ، وتراكم الدُّجَى على ضلالك ، وقد ندمْتُ على ما أعرتك من ودّى ، ولـكن أى ساعةِ مَنْدَم ، بعد إفناء الزمان فى ابتلائك ، وتصفّحى حالاتِ الدهر فى اختيارك ، وبعد تضييع ماغرسْته ، ونقض ماأسسْتُه ، فإن الودادَ غرسٌ إذا لم يوافق ثرى ثريا ، وجوّا عذِيّا(٢) ، وماء رَويّا ، لم يُرْجَ زكاؤه ، ولم يجر نماؤه ، ولم تتفتّح أزهارُه ، ولم تجن ثمارُه ، وليت شعرى ، كيف

---

(١) هذا بيت لمهلهل بن ربيعة أخى كليب بن ربيعة ، وقبل هذا البيت قوله :

أنكحها فقدها الأراقم فى جنب ، وكان الحباء من أدم

يقول ذلك فى ابنته وقدزوجها ممن لم يره كفئا (م) (٢) جوا عذيا : طيب الهواء (م)

ملك الضلالُ قيادى حتى أشكل علىّ ما يحتاجُ إليه المزوجان ، ولا يستغنى عنه المتآلفان ، وهما ممازجةطَبْع، وموافقةشَكْلٍ وَخلْق ، ومطابقة خِيم[1] وخلُق ، وما وصلتنا حالٌ تجمعنا على ائتلاف ، وحَتْنَا من اختلاف ، ونحن فى طرفى ضدَّين ، و بين أمرين متباعدين ، وإذا حصَّلت الأمرَ وجدتُ أقل ما بيننا من البعاد ، أكثر مما بين الوِهادوالنِّجَادِ[2]، وأبعدممابين البياض والسوادِ ، وأيْسَر ما بيننا من النفار أقلّ [ما بيننا من النضار،وأكثر ما] بين الليل والنهار ، والإعلان والإسرار

[حسن التأتى للأمور

قال أسد بن عبد الله لأبى جعفر المنصور : يا أميرَ المؤمنين ، فَرْطُ الخُيَلاَء ، وهيبةُ العزة ، وظلُّ الخلافة ، يكفُّ عن الطلب من أمير المؤمنين إلا عن إذْنِه ، فقال له : قل ، فقد والله أصبتَ مَسْلكَ الطلب ؛ فسأل حوائجَ كثيرةً قُضِيَتْ له .

وقال عمرو بن نهيك لأبى جعفر المنصور : يا أميرَالمؤمنين ، قد حصر خدَمك الإعظام والهيبة عن ابتدائك بطلباتهم ، وما عاقبةُ هذين لهم عندك ؟ قال : عطاء يزيدهم حياء ، وإكرامٌ يكسوهم هيبةَ الأبد

قال عيسى بن على : مازال المنصور يشاورُنا فى أمره حتى قال إبراهيم بن هرمَة فيه:

إذا ما أراد الأمر ناجى ضميرهُ ... فناجَى ضميراً غير مختلف العَقْلِ

ولم يُشْرِكِ الأدنين فى جُلِّ أمرِهِ ... إذااختلفت بالأضعفين قُوَى الحَبْلِ

فِقَر فى ذكر المَشُورة

المشورةُ لِقاحُ العقل ، ورائدُ الصواب ، وحَزْمُ التدبير . المشاورة قبل المساوَرة . والمشورةُ عينُ الهداية .

---

(١) الخيم ـ بكسر الخا ـ الطبع والسجية (م)

(٢) الوهاد : جمع وهدة ، وهي ما انخفض من الأرض ، والنجاد : جمع نجد ، وهو ما ارتفع من الأرض (م)

ابن المعتز : من رضى بحاله استراح ، والمستشيرُ على طرف النجاح .

وله : مَن أكثرَ المشورة لم يعدم فى الصواب مادحاً ، وفى الخطإ عاذراً .

بشار بن برد : المشاور بين إحــدى الحسنيين : صواب يفوزُ بثمرته أو خطأ يُشارِكُ فى مكروهه ، وقال :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعِنْ بحَزْم نصيحٍ أو مشورةِ حازم
ولا تحسَبِ الشورى عليك غضاضةً فإنّ الخوافِى قوةٌ للقوادم[1]
وما خير كفٍّ أمسك الغلّ أختها وما خيرُ سيفٍ لم يؤيَّدْ بقائم
وخَلِّ الهُوَيْنَى للضعيف ولا تكنْ نؤوما فإن الحزمَ ليس بنائم
وأدْنِ إلى القرب المقرّبَ نفسهُ ولا تُشهد النجوى امرأً غير كاتم
فإنك لا تستطرد الغمّ بالمنى ولا تبلغ العليا بغيرِ المكارم

* * *

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب فى حمالات لزمته فقال : أيها الأمير ، قد عظُم شأنك أن يُستعانَ بك أو يستعانَ عليك ، ولستَ تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنتَ أكبرُ منه ، وليس العجبُ من أن تفعل ، بل العجب من ألاّ تفعل ؛ فقضاها .

[تأريخ الكتب والرسائل]

استخلص القاضى أبو خليفة الفضلُ بن حباب الجمحىُّ رجلا للأُنس به، فقال: أُغَيِّر ثيابى وأعود ، قال : ما أفعل ، إيناسك وَعد، وإيحاشك نقد ، وكان أبو خليفة من جلّةِ المحدثين ، وله حَلاوةُ معنى، وحسن عبارة، وبلاغةُ لفظ. قال الصولى : كاتبتُ أبا خليفة فى أمور أرادها فأغفلتُ التاريخَ منها فى كتابين ، فكتب إلىّ بعد نفوذِ الثانى: وصل كتابك ـ أعزّك الله ـ مُبْهَم الأوان، مُظلِم المكان، فأدّى خيراً ما القرب

(١) الخوافى : ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت، والقوادم : عشر ريشات فى مقدم الجناح ، وهى كبار الريش ، تغطى الخوافى (م)

فيه بأولى من البُعْد ؛ فإذا كتبت — أكرمك الله تعالى ! — فلتكن كتُبُك مرسومةً بتاريخ ؛ لأعرف أدنى آثارك ، وأقرب أخبارك ، إن شاء الله تعالى :

وقال بعض الكتاب: التاريخ عمودُ اليقين ، ونافى الشك، به تُعْرَف الحقوق، وتُحفَظُ العهود .

وقال رجل لأبى خليفة سَلِّم عليه : ما أحسبك تعرف نسبى ، فقال : وجهك يدلُّ على نسبك ، والإكرامُ يمنع من مسألتك ، فأَوْجِدْ لى السبيل إلى معرفتك .

وسأل أبو جعفر المنصور قبل أن تُفضِيَ إليه الخلافةُ شبيبَ بن شيبة ، فانتسب له فعرفه أبو جعفر ، فأثنى عليه وعلى قومه ، فقال له شبيب : بأبى أنت وأمى ! أنا أحبّ المعرفة وأجِلّك عن المسألة ، فتبسّم أبو جعفر وقال : لطف أهل العراق ! أنا عبد الله بن محمد [بن على] بن عبد الله بن العباس ، فقال : بأبى أنت وأمى ، ما أشبهك بنسبك ؛ وأدلَّك على منصبك .

فقر وأمثال، يتداولها العمال

الولاية حلوة الرضاع مرّة الفطام . غُبَارُ العمل خيرٌ من زعفران العطلة .

ابن الزيات : الإرجاف مقدمة السكون .

عبدالله بن يحيى: الإرجاف رائد الفتنة .

حامد بن العباس : غرسُ البلوى ، يثمر الشكوى .

أبو محمد المهلبى : التصرف أعلى وأثنى ، والتعطل أضنَى وأعنى

أبو القاسم الصاحب : وَعْدُ الكريم ، ألْزَمُ من دَيْن الغريم .

ابن المعتز : ذلُّ العزْلِ يضحك من تِيه الولاية . وقال :

كم تائهٍ بولايةٍ وبعزْلِه رَكَضَ البَرِيدُ
سُكْرُ الولايةِ طيبٌ وخُمارها صَعْبٌ شديدُ

وقال : من ولى ولاية فتاه فيها فأخبره أنّ قدره دونها . العزل طلاقُ الرجال وحيض العمال . وأنشدوا :

وقالوا العَزْلُ للعمال حَيْـضٌ لحاهُ الله من حَيْضٍ بَغيضِ
فإنْ يكُ هكذا فأبُو عليٍّ من اللائى يَئِسْنَ من المحيضِ

منصور الفقيه :

يا مَنْ تولَّى فأبدى لنا الجفا وتبـدَّلْ
أليس منـك سمِعْنَا من لم يمتْ فسيُعْزَلْ

وقال أيضاً :

إذا عُزِل المرءُ واصـلتهُ وعند الولايةِ أسـتكبرُ
لأنَّ المولَّى له نخـوة ونفسى على الذلّ لا تَصْبِرُ

[من ترجمة منصور الفقيه ، وأخباره]

ومنصور هذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمى[1] ، وكان يتفقّه على مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ، وهو حلو المقطعات ، لا تزالُ تندر له الأبيات مما يُسْتَظْرَف معناه ، ويُستحلى مغزاه ، [ويبقى ثَنَاه] ، وهو القائل لما كفّ بصره :

مَنْ قال ماتَ ولم يستوْفِ مُدّتهُ لعظم نازلةٍ نالَتْهُ معـذور
وليس فى الحكم أن يحيا فتًى بلغَتْ به نِهايةَ مايخشى المقـاديرُ
فقل له عـيرَ مُرْتَابٍ بغفلتِه أو سوءِ مذهبه : قد عاش منصورُ

وعَتَبَ على بعض الأشراف ، وكانت أمُّه أمةً قيمتها ثمانية عشر ديناراً ، فقال:

من فاتنى بأبيـه ولم يفتنى بأمـه

(١) فى نسخة «التميمى» (م)

ورام شتمىَ ظلماً ‏ ‏ سكتُّ عن نصفِ شتمِه

وقال :

لو قيل لى خُذْ أماناً ‏ ‏ من حادث الأزمانِ

لما أخذتُ أماناً ‏ ‏ إلاّ من الإخوانِ

وقال :

رضيت بما قسمَ اللهُ لى ‏ ‏ وفوّضتُ أمرى إلى خالِقِى

كما أحسن اللهُ فيما مضى ‏ ‏ كذلك يُحسن فيما بَقِىَ

وقال :

لو كنت منتفعاً بعلمك مَعْ مواصلة الكبائرْ

ماضرَّ شُرْب السمّ واعلَمْ أن شرب السم ضائرْ

وقال :

إذا القوتُ تأتّى لك والصحةُ والأمنُ

وأصبحتَ أخا حُزْن ‏ ‏ فلا فارقك الحُزْنُ

ورأيت له فى أكثر النسخ — على أنّ أكثر الناسِ يرويه لإبراهيم بن المهدى ، وهو الصحيح — :

لولا الحياءُ وأننى مشهورُ ‏ ‏ والعيبُ يَعْلَقُ بالكبيرِ كبيرُ

لحلَلْت منزلنا الذى نحتلّهُ ‏ ‏ ولكان منزلَنا هو المهجور[١]

وهذا كقول الصاحب أبى القاسم :

[دعتْنِىَ عيناك نحو الصبا ‏ ‏ دعاء يكرر فى كل ساعَهْ

فلولا وحقك عذرُ المشيبِ ‏ ‏ لقلتُ لعينيك سمعاً وطاعَهْ

(١) هذا وجه ضعيف فى العربية . وهو أن تجعل « هو المهجور » جملة من مبتدأ وخبر فى محل نصب خبر كان، والفصيح أن تجعل «هو» ضمير فصل و«المهجور» بالنصب على أنه خبر كان ، نحو قوله تعالى : (كنت أنت الرقيب عليهم) .

وقال ابن دريد فى معنى البيت الأول فأحسن :]

إذا رأيت امرأً فى حال عُسْرَته مُصَافِياً لك ما فى وُدِّه خَلَلُ
فلا تمنَّ له أن يستفيدَ غِنًى فإنه بانتقال الحـال ينتقِلُ

[تغير الحال ، بكثرة الأموال]

وكان لمحمد بن الحسن بن سَهْل صديقٌ قد نالته عُسرةٌ ، ثم ولى عملا، فأتاه محمد قاضياً حقًا ومسلماً عليه ، فرأى منه [نبوةً و] تغيّراً ، فكتب إليه :

لئن كانتِ الدنيا أنالتكَ ثروةً وأصبحت ذا يُسْرٍ، وقد كُنتَ ذا عُسْر
لقد كشف الإثراءُ منك خلائقاً من اللؤم كانت تحتَ ثوبٍ من الفقر

وقال أبو العتاهية فى عمرو بن مَسْعَدة ، وكان له خِلاً قبل ارتفاع حاله ، فلما علَتْ رُتْبته مع المأمون تغيّر عليه :

غَنيت عن العهد القديم غنيتا وضيّعت عهداً كان لى ونسيتا
وقد كنت لى أيام ضَعفٍ من القوى أبر وأوْفَى منك حين قَويتا
تجاهلت عما كنت تُحسِن وَصْفَهُ ومُتّ عن الإحسان حين حَيِيتا

من بديع الزمان لابن المرزبان

وكتب بديعُ الزمانِ إلى أبى نصر بن المرزبان فيما ينخرطُ فى هذا السلك:
كنتُ ــ أطال الله بقاء الشيخ سيدى وأدام عزَّه ــ فى قديم الزمان أتمنَّى الخيرَ للاخوان، وأسألُ الله تعالى أن يُدِرّ عليهم أخلافَ الرزق [١]، ويمدلهم أكناف العيش، ويؤتيهم أصنافَ الفَضْلِ ، ويوطئهم أكنافَ العز ، وينيلهم أعرافَ المجدِ، وقُصاراىَ الآن أن أرغبَ إلى الله تعالى ألاَّ يُنِيلَهم فوق الكفاية ، فشدَّ ما يَطْغَونَ عند النعمة ينالونها، والدرجةِ يعلونها، وسَرُعَ ماينظرون من عال ، ويجمعون من مال ، وينسون فى ساعة اللدونة أوقاتَ الخشونة [٢]، وفى أزمان العذوبة أيام الصعوبة، وللكتَّاب مزيّة

(١) الأخلاف : جمع خلف ــ بالكسر ــ وهى حلمة ضرع الناقة (م)
(٢) اللدونة : اللين ، لدن الشىء ــ من باب كرم ــ لدانة ولدونة : لان ، وضده الخشونة (م)

فى هذا الباب ؛ فبينهم فى الغربة أعوان كما انفرج المشط ، وفى المَطْلَة إخوان كما انتظم السِّمْطُ ، حتى إذا لحظهم الجدُّ لحظةً حَمْقَاء بمنشور عمالة ، أو صَكِّ جِعالة ؛ عادَ عامر مودتهم خرابا ، وانقلب شرابُ عهدهم سَرَابا ، فما اتسعت دورُهم إلا ضاقت صدورُهم ، ولا عَلَت قدورُهم إلا خبَتْ بدورهم ، ولا عَلَتْ أمورُهم إلا أسْبِلَت ستورُهم ، ولا أُوقِدَتْ نارُهم إلا انطفأ نورهم . ولا هَمْلَجتْ عِتَاقهم إلا فظعت أخلاقهم ، ولا صلحت أحوالُهم ، إلا فسدت أفعالهم ، ولا كَثُرَ مالهم ، إلا قلَّ جمالهم ، وعزَّ معروفهم ، وورِمَتْ أنوفهم[1] ، حتى إنهم ليصيرون على الإخوان مع الخطوب خَطْبا ، وعلى الأحرار مع الزمان ألْبَا . فقُصَارَى أحدهم من المجد أن ينصبَ تحته تَخْتَه ، وأن يوطىء استه دستَه ، وحَسْبُه من الشرف دارٌ يصهرجُ أرضَها ، و يزخرف بعضَها ، و يزوِّق سقوفها ، و يعلِّق شفوفها[2] ، وناهيه من الشرف أنْ تغدو الحاشيةُ أمامَه ، وتحمل الغاشية قدَّامه ، وكفاه من الكرم ألفاظ فقاعية[3] ، وثيابٌ قداعية ، يلبسها ملوما ، و يحشوها لُوماً ، وهذه صفة أفاضلهم . ومنهم من يمنَحُكَ الودَّ أيامَ خُشكاره حتى إذا أخصب جعل ميزانَه وكيلَه ، وأسنانه أكيله ، وأنيسه كيسه ، وأليفه رغيفَه ، وأمينَه يمينه ، ودنانيره سَميره ، وصندوقه صديقَه ، ومفتاحه ضجيعَه ، وخاتمه خادِمَه ، وجمع الدرَّة إلى الدرَّة ، ووضع البَدْرَة على البدرة ، فلم تقع القَطْرَة من طَرْفه ، ولا الذرة من كفِّه ؛ ولا يخرج ماله عن عهدة خاتمه ، إلى يوم مأتمه ، وهو يجمعُ لحادثِ حياتِه ، أو وارثِ وفاتِه ؛ يسلُكُ فى الغَدْرِ كلَّ طريق ، و يبيعُ بالدرهم ألف صديق ؛ وقد كان الظنُّ بصديقنا أبى سعيد — أيده الله تعالى — أنه إذا أخصب آوانا كنفا من ظلّه ، وحبانا من فضله ، فمَنْ لنا الآن بعدله ؟ إنه — أطال الله بقاءه — حين طارت إلى أذنه عُقاب المخاطبة بالوزير ، وجلس من الديوان فى صَدْر الإيوان

---

(١) ورم أنف فلان : كناية عن إظهاره الكبر (م)

(٢) الشفوف : جمع شف — بالكسر — وهو رقيق الثياب (م)

(٣) فقاعية : ذات تشدق

أقتضِ عُذْره السياسة لدىّ ، بتعرض بعض المختلفة إلى ، وجعل يعرضـــه الهلاك ، ويتسبب إليه بمال الأتراك ، وجعلت أكاتبه مرة وأقصِدُه أخرى ، وأذكّره أن الراكب ربما استنزل ، والوالى ربما عُزِل ، ثم يجف ريق الخجل على لسان العذر ، فتبقى الحزازة فى الصدْرِ ، وما يجمعنى والشيخ إن كانزَادَهُ قولى إلا علوًّا فى تحكمه ، [وغلوًّا فى تهكمه] وجعل يمشى الجَمَزى فى ظلمه ؛ [ويبرأ إلىّ من علمه] ، فأقولُ ــ إذا رأيت ذِلّةَ السؤال منى وعزّةَ الرد منـه لى ــ :

قل لى متى فرزنتَ سُرْ عـة ما أرى يا بَيْذَق[1]

وما أضيع وقتاً فيه أضَعْتُه ، وزماناً بذكره قطعْته ، هلمّ إلى الشيخ وشرعتـــه ، فقد نكأ القلب بقَرْحه ، وكيف أصِفُ حالا لا يقرع الدهر مَرْوَةَ حالِه ، ولا ينتقض عروة إجلالِه ؛ فما أولانى بأن أذكره مجملا ، وأتركه مفصَّلا ، والسلام .

رسالة أخرى من البديع لبعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه فى أمر رجل ولى الأشراف :

فهمت ما ذكرت ــ أطال الله بقاءك ــ من أمر فلان أنه ولى الأشراف ، فإن يصدق الطير يكن إشرافاً على الهلاك ، بأيدى الأتراك ، فلا تحزُنْكَ ولا يتهُ فالحبل لا يبرم إلا للفتل ، ولا تعجبك خلعته فالثور لا يزيَّنُ إلا للقتل ، ولا يرعك نِفاقُه فأرخص ما يكون النِّفط إذا غلا [وأسفل ما يكون الأرنب إذا علا] ، وكأنّى به وقد شنّ عليه جران العَوْدِ ، شنّ المطرَ الجوْد ، وقيدله مركبُ الفجار ، من مربط النجار ، وإنما جرّ له الحبل ، ليُصْفَع كما صُفِــع من قبل ، وستعودُ تلك الحالة إحالة ، وينقلبُ ذلك الحبلُ حِبالة ، فلا يحسد الذئب على الإلية يُعْطَاها طعمة ، ولا يحسب الحبّ يُنثر للعصفور نعمة ، [وهبه وُلّى إمارة البحرين أليس

---

(١) الفرزان : قطعة فى لعبة الشطرَنج (الوزير) لها أهمية عظيمة ، ويقال له «الفرز» وفرزنَ : صار فرزاناً ، والبيدق : قطعة أخرى هينة الشأن ، والقطان أعجميان (م)

مرجعه ذلك العقل ، ومصيره ذلك الفضل ، ومنصبه ذلك الأصل . وعصارته ذلك النسل ، وقعيدته تلك الأهل] ، وقوله ذلك القول ، وفصله ذلك الفصل ، فكان ماذا ؟ أليس [ما] قدسلب أكثر مما أوتى، وما عدم أوفر مما غنم ! مالك تنظرُ إلى ظاهره ، وتعمى عن باطنه ؟ أكان يعجبك أن تكونَ قعيدتُه فى بيتك ، وبغلتُه من تحتك ، أم كان يسرُّك أن تكون أخلاَنُه فى إهابك ، وبوّابُه على بابك ، أم كنت تودّ أن تكونَ وَجْعَاؤه فى إزارك ، وغلمانه فى دارك ، أم كنتَ تَرْضَى أن تكون فى مربطك أفراسُه ، وعليك لباسُه ، ورأسك رأسُه ؟ جعلت فداك ! ما عندك خيرٌ مما عنده ، فاشكر اللهَ وحدَه على ما آتاك ، واحمَدْه على ما أعطاك ، ثم أنشد :

إن الغنىَّ هو الراضى بعيشته ... لا مَنْ يظلُّ على الأقدارِ مكتئبا

[فى البخل]

بين سهل ابن هارون والحسن بن سهل

ألّف سهل بن هارون كتاباً[1] يمدح فيه البخلَ ويذمُّ الجودَ ؛ ليظهر قدرته على البلاغة ، وأهداه للحسن بن سهل فى وزارته للمأمون ، فوقع عليه : لقد مدحتَ ما ذمَّه الله ، وحسَّنْتَ ما قبّح الله ، وما يقوم صلاحُ لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا نوالك عليه قبولَ قولِكَ فيه .

وكان الحسنُ من كرماء الناسِ وعقلائهم . سُئل أبو العيناء عنه ، فقال : كأنما خَلف آدمَ فى ولده ، فهو ينفع عيْلَتهم ، ويسدُّ خَلَّتهم ، ولقد رفع اللهُ للدنيا من شأنها ، إذ جعله من سكّانِها

أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر :

وكأنَّ آدمَ كان قبل وفاتِه ... أوصاك وهو يجودُ بالحَوْباء
ببنيه أن ترعامُ فرعيتَهم ... وكَفَيْتَ آدمَ عَيْلةَ الأبْنَاء

---

(١) فى كتاب البخلاء للجاحظ رسالة سهل بن هارون فى البخل ، وقد طبع كتاب البخلاء فى ليدن ، وطبع فى مصر أربع مرات .

وأخذ أبو الطيب المتنبي آخر كلام أبي العيناء فقال :

قد شرف اللهُ دُنيًا أنتَ ساكِنها   وشرَّفَ الناسَ إذ سوّاكَ إنسانا

وقيل للحسن بن سهل : لم قيل : قال الأول ، وقال الحكيم ؟ قال : لأنه كلام قد مرّ على الأسماع قبلَنا ، فلو كان زللاً لما نُقِل إلينا مستحسَنا .

ومن أمثال البخلاء ، واحتجاجهم ، وحِكَمهم

أبو الأسود الدؤلي : لا تُجاوِد الله؛ فإنه أجودُ وأمجد، ولو شاء ان يوسّع على خَلْقِه حتى لا يكون فيهم محتاج فعل. وقال: لو أطَعْنا المساكين في إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالا منهم.

وقال الكندي : قولُ «لا» يدفع البلاء ، وقول «نعم» يزيل النعم . وقال: سماع الغناء بِرْسام حادٌّ ؛ لأن المرء يسمع فيطرب ، فيسمح فيفتقر ، فيغتم فيمرض فيموت . وقال لابنه : يابني ، كُنْ مع الناس كالّلاعب بالقمار ، إنما غَرَضُه أخذ متاعهم ، وحِفْظُ متاعه .

وقال [غيره :] مَنْعُ الجميع أرْضَى للجميع . إذا قبح السؤال حسن المنع .

وقال عليُّ بن الجهم : من وَهَب في عمله فهو مخدوع ، ومن وَهَب بعد العَزْل فهو أحمق ، ومن وَهَب من جوائز سلطانه أو ميراث لم يتعَبْ فيه فهو مخذول، ومن وهب مِنْ كيسه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه ، المختوم على سمعه و بصره

ومِن إنشاداتهم :

لا تجُدْ بالعطـــاء في غير حقّ   ليس في مَنْع غير ذي الحقّ بُخْلُ

وقال كثيِّر :

إذا المالُ لم يوجِبْ عليك عطاءهُ   حقيقةُ تقوَى أو صديق تُرَافِقه
منعتَ ، و بعضُ المنع حَزْمٌ وقوة   ولم يفتلتك المـالَ إلا حَقائِقُه[1]

(١) لم يفتلتك المال : لم يأخذه منك بسرعة ، والحقائق : جمع حقيقة ، والمراد بها هنا مصارف المال التي يحق صرفه فيها ، مثل الإعانة على مكرمة ، أو دفع ضائقة، وفي نسخة «ولم يعتملك المال إلا حقائقه » (م)

ابن المعتز :

يارب جود جرَّ فقر امرىء فقام للناس مقام الذليل
فاشدد عرا مالك واستبقه فالبخل خير من سؤال البخيل

وكتب بعض البخلاء يصف بخيلا : حضرت ـ أعزك الله ـ مائدة فلان للقدر المجلوب ، والحين المتاح[1] ، والشقاء الغالب ، فرأيت أوانى تروق العيون محاسنها ، و يونق النفوس ظاهرها وباطنها ، و تزهى اللحظات ببدائع غرائبها ، وتستوفى الشهوات بلطائف عجائبها ، مكللة بأحسن من حلى الحسان ووجوهها وزهر الرياض و نورها ؛ كأن الشمس حلت بساحتها، والبدر يغرف من جوانبها فمددت يداً عنتها الشراهة ، وغلبها القدر الغالب، وجرها الطمع الكاذب ، و إذا له مع كسر كل رغيف لحظة نكر ، ومع كل لقمة نظرة شزر ، وفيما بين ذلك حرق قائمة ، يصلى بها من حضره من الغلمان والحشم ، [وقام بين يديه من الولدان] والخدم ، ومع ذلك فترة المغشى عليه من الموت ؛ فلما وضعت الحرب أوزارها برفع الخوان ، وتخلت عنه سمادير الغشيان[2] ، بسط لسان جهله ، ونصر ما كان من بخله ، ونظر إلى مؤاكله ، نظر المسترق له بأكلته ، المالك لخيط رقبته ! يظن أنه أولى من والديه بنسبته ، وأحق بماله ، من ولده وعياله ، يرى ذلك [فضلا ، وحقا لازما ، وأمرا واجبا] نزل به الكتاب والسنة ، واتفق عليه قضاة الأمة ، فإن دفعه رد حكم القضاة عليه ، وإن سمح به فغير محمود عليه .

فقر لابن المعتز وغيره فى الصديق والصدق

إنما سمى الصديق صديقا لصدقه فيما يدعيه لك ، وسمى العدو عدواً لعدوه

(١) أصل الحين ـ بالفتح ـ الهلاك ، والمتاح : المقدر المهيأ (م)

(٢) السمادير : شىء يتراءى للسكران بسبب ضعف بصره الناشىء عن السكر ، وهو أيضاً ما يغشاك من دوار أو نعاس (م)

عليك إذا ظفر بك . علامةُ الصديق إذا أراد القطيعةَ أن يؤخّر الجواب ، ولا يبتدئ بالكتاب ، لا يفسدنك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له . إذا كثرت ذنوبُ الصديق أُمْحِقَ السرورُ به ، وتسلطت التهم عليه . من لم يقدم الامتحانَ قبل الثقة والثقة قبل الأُنس أثمرت مودّتُه ندما . نُصْح الصديق تأديبٌ ، ونصحُ العدو تأنيب . ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد ، ما أُجِش الودّ بمثل العتاب .

تَرْكُ العتاب ــ إذا استحقّ أخٌ منك العتابَ ــ ذريعةُ الهَجْرِ

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى صديق له من الحَبْسِ : نحن فى الصحبة كالنَّسْرَيْنِ[1] ، لكنى واقع ، وعلى الطائر أن يغشَى أخاه و يراجع . من قلّ صدقه قل صديقه . من صدقت لهجته ظهرتْ حُجّته . الصادق بين المهابة والمحبة . من عُرِف بالصدق جاز كذبه ، ومن عرف بالكذب لم يَجُزْ صِدْقه ، ومن تمام الصدق الإخبار بما تحتمل العقول .

[كتاب الحسن بن وَهْب إلى أبى تمام يصف بلاغته]

وكتب الحسن بن وهب إلى أبى تمام الطائى : أنت حفظك الله تَحْتَذى من البيان فى النظام، مثل ما نقصد نحن فى النثر من الإفهام ، والفضلُ لك ــ أعزك الله ــ إذ كنت تأتى به فى غاية الاقتدار ، على غاية الاقتصار ، فى منظوم الأشعار ، فتحل متعقّده ، وتربط متشرده ، وتضم أقطاره ، وتجلو أنواره ، وتفصله فى حدوده ، وتخرجه فى قيوده ، ثم لا تأتى به مهملا فيستبهم، ولا مشتركا فيلتبس ، ولا متعقّدا فيطول ، ولا متكلفا فيحول ؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال، وتشرح فيه المقال ؛ فلا أعدمنا الله هَداياك واردة ، وفوائدك وافدة ، وهى طويلة

---

(١) النسران : نجمان فى السماء ، يقال لأحدهما : النسر الواقع ، ويقال للآخر: النسر الطائر (م)

وفى هذه الرسالة يقول أبو تمام ، وقد أرى أنه قال ذلك فى غيرها :

[لقد جَلّى كتابُك كل بَثّ ... جَوٍ ، وأصاب شاكلةَ الرمِىّ
فضضْتُ ختامَه فتبلجَتْ لى ... غرائبُه عن الخبر الجلِىّ
وكان أغضّ فى عينى وأندَى ... على كبدى من الزهر الجَنِىّ
وأحسَن موقعا منى وعنــدى ... من البُشرى أتت بَعد النعِىّ
كتبت به بلا لفظٍ كريهٍ ... على أذن ، ولا لفظٍ قمِىّ
وضُمّنَ صَـدْرُه مالم تَضَمّنْ ... صدورُ الغـانياتِ من الحلِىّ
فإن تَكُ من هـداياك الصفايا ... فربَّ هـديةٍ لك كالهَدِىّ
لئن غرّبتها فى الأرض بكرا ... لقد زُفّتْ إلى سمع كَفِىّ

وقال البحترى فى الحسن بن وهب :

وإذا تألق فى النـدىّ كلامه الـــمصقول خِلتَ لسانه من عضْبهِ[1]
وإذا دجَتْ أقلامه ثم انتحت ... برقَتْ مصابيحُ الدجا فى كُتْبه
باللفظ يقرب فهمه فى بعـده ... منّا ، ويبعـد نيله فى قُرْبه
حكَم فسائحها خلال بنـانه ... متدفّق وقليبُهَا من قلبه
كالروض مؤتلق بحمرة ورده ... وأنيق زهرته وخضرة عُشْبِهِ
أو كالبرود تخيرتْ لمتوّج ... من خاله أو وشيه أو عَصْبه[2]
وكأنها والسمع معقودٌ بهـا ... وجْهُ المحب بدا لعين محبّه

أنشد بعضُ الـكتاب هذه الأبيات أبا العباس ثعلبا ، فاستعادها حتى فهمها ، ثم قال : لو سمع الأوائل هذا ما فضّلوا عليه شعرا .

وقال بعض الـكتاب :

---

(١) خلت : ظننت ، والعضب : السيف القاطع ، ومن عادتهم تشبيه اللسان بالسيف ، وانظر إلى قول حسان * لسانى وسيفى صارمان كلاهما * (م)

(٢) الخال ، هنا : ضرب من البرود ، والوشى : أصله نقش الثوب ، وسمى به نوع من الثياب ، والعصب ـ بالفتح ـ برد يصبغ غزله ثم ينسج (م) .

ورسالة ألفاظها في النظم كالدرّ النثير
جاءتْ إليك كأنها التوفيقُ في كل الأمور
أرقّ من شكوى وأحـ ـسن من حياة في سُرُورْ
لو واجهت أعمى لأصـ ـبح وهو ذو طرْف بصيرْ
فكأنها أمل سَرَى من بعد يأس في السرُورْ
أو كالفقيد إذا أتتْ لقدومه بُشْرَى البشيرْ
أو كالمنام لساهرٍ أو كالأمان لمستجيرْ
كتبت بحبر كالنوَى أو كُفْر نعمى من كَفُور
فكأنما هو باطل ما بين حقّ مُسْتَنيرْ

وقال أحمد بن أبي العباس بن ثوابة] :

في كل يوم صدورُ الكتب صادرةً من رأيه وندى كفّيه عن مثلِ
عن خطِّ أقلامه يجرى القضاء على كل الخلائق بين البيض والأسَل (١)
كأن أسطره في بطن مُهْرَقه نَوْرٌ يضاحكُ دَمْعَ الواكِفِ الخضِلِ (٢)
لعابه على والصدر ينفثها وربما كان فيه النفع للعلل
كالنار تعطيك من نورٍ ومن حُرَقٍ والدهر يعطيك من غَمّ ومن جَذَلِ (٣)

وقال آخر :

مدادٌ مثل خافية الغراب وَرقٌ مثل رَقراق السرابِ
وأقلام كأرواح الجوارى وألفاظ كأيام الشباب

[مُثُل من بلاغة عمرو بن مسعدة]

قال أحمد بن يوسف : دخلت على المأمون ، وفى يده كتابٌ ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة ، ويصعّد فيه بصره ويصوّبه ؛ فالتفت إليّ وقد لحظني في

(١) البيض : السيوف ، والأسل : الرماح (م)
(٢) المهرق : الصحيفة يكتب فيها ، والواكف : المطر الغزير ، والخضل ـ بفتح فكسر ـ الندى (م) (٣) الجذل : السرور (م)

أثناء قراءته الكتاب، فقال : أراكَ مُفَكِّرا فيما تراه منى! فقلت: نعم ،وَقى اللهُ أمير المؤمنين المخاوف ! قال : لا مكروه إن شاء الله ، ولكنى قرأتُ كتاباً وجدتُه نظيرَ ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة ، فإنى سمعتُه يقولُ : البلاغةُ التباعد من الإطالة ، والتقرب من البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى ، وما كنتُ أتوهمُ أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه :

كتابى إلى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلى من الأجناد والقوّاد فى الطاعة والانقياد على أحسن ما تكونُ عليه طاعةُ جُنْدٍ تأخَّرَتْ أعطياتهم ، واختلت أحوالهم ! ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه [المسألة فى الإخبار] ، وإعفائه سلطانَه من الإكثار. ثم أمرَ لهم برزق ثمانية أشهر .

وفى عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمى[1] :

أعِنِّى على بلوق ناصب ... خفىّ كوخيك بالحاجبِ

كأنّ تألُّقه فى السماء ... يدا كاتب أو يدَا حاسِب

فروّى منازلَ تذكارُها ... يهيّج من شوقك الغالب

غريب يحنّ لأوطانِه ... ويَبكى على عصره الذاهب

كفاكَ أبو الفضل عمروالندى ... مطالعة الأمَلِ الكاذبِ

وصِدْق الرجاء وحُسْن الوفاء ... لعمرو بن مسعدة الكاتب

عريض الفِناء طويل البنا ... ء فى العزّ والشرف الثاقب

بنى الملك طَوْد له بيته ... وأهل الخلافة من غالب

هو المرتجَى لصروف الزمان ... ومعتصَم الراغبِ الراهب

جوادٌ بما ملكت كفُّهُ ... على الضيف والجار والصَّاحبِ

---

(١) روى أبو على القالى(الأمالى ١/١٨٠ الدار) البيتين الأول والثانى مع بعض تغيير فى أولها ولم ينسبهما ، ونسبهما البكرى فى اللآلى (٤٤٠) لعبد الله بن العباس ابن الفضل بن الربيع بن يونس .

بأُدْمِ الركاب ووَشْى الثيا ... ب والطِّرف والطفلةِ الكاعِبِ

نؤمله لجسام الأمورِ ... وندعوه للجَلَلِ الكارِبِ

خصيب الجناب مَطِير السحاب ... بشيمته لَيْن الجانِبِ

يروّى القنا من نحور العدا ... ويُغرِق فى الجودِ كاللاّعِب[1]

إليك تبدّتْ بأكوارها ... حراجيج فى مهمَهٍ لاحبِ[2]

كأنّ نَعَاماً تمادى بنا ... تزايل من بَرَدٍ حاصِب

يردْن نَدَى كفِّك المرتجى ... ويقضين من حقك الواجبِ

ولله ما أنت من جابرٍ ... بسجْل لقومٍ ومن خارب[3]

يُساق العدا بكئوس الردى ... ويسبق مسألة الطالبِ

وكم راغب نلته بالعطا ... وكم نلت بالحتْفِ من هارب

وتلك الخلائق أعطيتها ... وفَضْلٌ من المانع الواهب

كسبت الثناء، وكَسْبُ الثنا ... ءِ أفضلُ مكسبة الكاسب

يقينك يجلو ستور الدجى ... وظنُّك يُخْبِر بالغائب

وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة .

[الكلام الجيد الطبع ، والكلام المصنوع]

قلت : والكلامُ الجيد الطبع مقبول فى السمع ، قريبُ المِثَال ، بعيد المَنَال ، أنيق الديباجة ، [رقيق الزجاجة] ، يدنو من فَهْم سامعه ، كدنوّه من وهم صانعه ، والمصنوع مثقَّف الكعوب ، معتدلُ الأنبوب ، يطّرد ماء البديع على جَنَبَاته ، ويجول رَوْنَق الحسن فى صفحاته ، كما يجول السِّحْر فى الطَّرْف الكحيل،

(١) فى نسخة « ويعرق فى الجود كاللاعب » وما أثبتناه أوضح (م)

(٢) حراجيج : جمع حرجوج ، وهى السمينة الطويلة من النوق أو الشديدة الضامرة ، واللاحب . الواضح (م)

(٣) فى نسخة « ولله ماأنت من خابر » وفى أخرى « ولله ماأنت من حابر » وما أثبتناه خير منهما جميعا (م)

والأُثْرُ فى السيف الصقيل ، وحمل الصانِع شعره على الإكراه فى التعمل وتنقيح المبانى دون إصلاح المعانى يعفى آثار صنعته ، ويطفىء أنوار صيغته ، ويخرجه إلى فسادِ التعسف ، وقُبْح التكلف ؛ وإلقاه المطبوع بيده إلى قبول مايبعثه هاجسُه ، وتنفثه وساوسه ، من غير إعمال النظر ، وتدقيق الفِكر ، يخرجه إلى حَدّ المشتهر الرث ، وحيّز الغث ؛ وأحْسَنُ ما أجرى إليه ، وأعوّل عليه ، التوسطُ بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين ، من الطبع والصنعة .

وقد قال أعرابى للحسن البصرى : علمنى دينا وسيطا ، لا ساقطا سقوطا ، ولا ذاهبا فروطا ، قال الحسن : أحسنت ، خيرُ الأمور أوساطها . والبحترى عن هذا القوس ينزع ، و إلى هذا النحو يرجع .

قد تم ـ بعون الله تعالى وتوفيقه ـ الجزء الثالث من كتاب « زهر الآداب، وثمر الألباب » لأبى إسحاق الحصرى ، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الرابع مفتتحا بقول المؤلف « ومن الشعر الذى يجرى مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفى» نسأله سبحانه أن يوفق إلى إكماله .

فهرس الجزء الثالث من كتاب

« زهر الآداب ، وثمر الألباب »

لأبي إسحاق الحصري

فهرس الجزء الثالث من كتاب
«زهر الآداب، وثمر الألباب» لأبى إسحاق الحصرى

والحمد لله واسع الفضل ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه المصطفى ، وعلى آله وصحبه وعترته .



ونمر الألباب

لأبى إسحاق إبراهيم بن على ، الحصرى ، القيروانى

المتوفى فى عام ٤٥٣ من الهجرة

مفصل ومضبوط ومشروح بقلم المرحوم

الدكتور زكى مبارك

الجزء الرابع

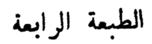
حققه وزاد فى تفصيله وضبطه وشرحه

محمد محيى الدين عبد الحميد



بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧


الطبعة الرابعة

الحمد لله كِفاءَ نَعمائه ، والشكر له على آلائِهِ ، وصلاتُه وسلامُه

على الصَّفْوَة من أنبيائه ، وعلى آله وصحبه وأوليائه

[نماذج من الشعر الجيد]

لابن المعتز

ومن الشعر الذى يجرى مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفى ؛ إذ قدم من الرقة بعد القبض على القرمطى فقال :

لا ورمّان النهــــود فوق أغصانِ القدودِ[1]
وعناقيد مِنَ أصدا غ ووَرْد من خُدودِ
وبدور من وُجوهٍ طالعــات بالسعود
ورسول جاء بالميـ ـعاد من بَعْدِ الوعِيـد
ونعيم من وِصَال فى قفَا طولِ الصدود[2]
ما رأت عينى كظبى زارنى فى يوم عيـد
فى قبَاء فاختىٍّ الــــلون من لبس الجديد[3]
كلما قاتل جنـد ىٌّ بسيف وعَمُـــودِ
قاتل الناسَ بعينيـــنَ وخدّين وجيـد[4]
قد سقانى الخمر من فيــــه على رغم الحسُودِ

---

(١) « رمان النهود » و « أغصان القدود » كلاهما من إضافة المشبه به إلى المشبه : أى النهود التى كالرمان ، والقدود التى كالأغصان ، مثل « ذهب الأصيل » و « لجين الماء » (م)

(٢) « فى قفا طول الصدود » أى بعده (م)

(٣) القباء ـ بفتح القاف ، بزنة السحاب ـ ثوب يلبس فوق الثياب ، وقيل : ثوب يلبس فوق القميص ويتمنطق عليه ، ويجمع على أقبية ، وفاختى : منسوب إلى الفاختة واحدة الفواخت ، وهى من ذوات الأطواق من الحمام ، قيل لها ذلك للونها ، فإن لونها يشبه الفخت ، الذى هو ضوء القمر (م)

(٤) الجيد ـ بكسر الجيم ـ العنق (م)

وتعانقنا كأنا وهوَ فى عَقْدٍ شديد
نقرع الثغر بثغر طيِّب عند الورود
[مثل ما عاجل بردٌ قطْر مُزن بجمود
سحرا من قبل أن ترجع أرواح الوفود
ومضى يخطر فى المشى كجبار عنيد]
مرحباً بالملك القادم بالجدِّ السعيد
يا مذل البغى يا قاتل حيَّات الحقُود
عش ودُمْ فى ظِلِّ عَيش خالد باق جديد
فلقد أصبح أعداؤك كالزرع الحصيدِ
ثم قد صاروا حديثاً مثل عادٍ وثمود
جاءهم بحرُ حديد تحت أجبالٍ بنُودِ
فيه عقبانُ خيولٍ فوقها أُسْدُ جُنودِ
وردُوا الحربَ فدوا كل خطىٍّ مديدِ[1]
وحسام شَرِهِ الحدّ إلى قَطْعِ الوَرِيد[2]
ما لهذا الفتح يا خيرَ إمام من نديد[3]
فاحمد اللهَ فإن الحَمْدَ مفتاحُ المزيدِ

لعلى بن الخليل أمام الرشيد

وقول على بن الخليل مولى يزيد بن مزيد الشيبانى وكان يُرمى بالزندقة ، قال الفضل بن الربيع : جلس الرشيد يوماً للمظالم ، فجعلت أتصفّحُ الناسَ ، وأسمعُ كلامهم، فرميت بطرْفى، فرأيتُ فى آخرهم شيخاً حسَنَ الهيئةِ والوَجْه ما رأيتُ أحسنَ منه ؛ فوقف حتى تَقوَّضَ المجلسُ[4] ثم قال : ياأميرالمؤمنين، رقعتى ؛ فأمر

(١) الخطى : الرمح ، نسبة إلى الخط ، وهو مرفأ للسفن تجلب إليه الرماح ، ومديد : طويل (م)

(٢) الوريد : عرق فى العنق (م) (٣) نديد : مثيل وشبيه (م)

(٤) تقوض المجلس : انفض أهله ، وأصله « تقوض البناء » بمعنى تهدم (م)

بأخذها ، فقال : إنْ رأى أمير المؤمنين أن يأذن لى بقراءتها ؛ فأنا أحسنُ تعبيراً لخطّى من غيرى ـ فقال له : اقرأ ، فقال : شيخ ضعيف ، ومقامٌ صَعب ، ولا آمَنُ الاضطراب ؛ فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يصلَ عنايَته بأمرى فى الإذن بالجلوس فعل ، فقال : اجلس ، فجلس وأنشأ يقول :

يا خيرَ من وخدت بأرحُلِهِ ... نُجُبُ الركاب بمَهْمَهٍ جَلْسِ (١)
تطوى السباسبَ فى أزمتها ... طىَّ التِّجَارِ عمائمَ البِرْسِ (٢)
لما رأتك الشمسُ طالعة ... سجدتْ لوجهك طلعة الشمسِ
خيرُ البرية أنت كلهم ... فى يومك الغادى وفى الأمسِ
وكذاك لن تنفكَّ خيرَهُمُ ... تمسِى وتصبح فوق ما تُمسِى
لله ماهرون من ملك ... عفّ السريرة طاهر النفسِ
تمّت عليه لربه نعَمٌ ... تزداد جدتها مع اللّبْسِ
من عترة طابَتْ أرومتها ... أهل العفاف ومنتهى القُدْسِ
متهللين على أسرّتهم ... ولدى الهياج مَصاعب شُمْسِ (٣)
إنى لجأتُ إليك من فزَعٍ ... قد كان شرّدَنى ومن لَبْسِ
لما استخرْتُ الله مجتهداً ... يمّمتُ نحوك رِحْلَة العَنْسِ (٤)
واخترت حِلمك لا أجاوزهُ ... حتى أغيَّبَ فى ثرَى رَمْسِى
كم قد سريت إليك مُدَّرعا ... ليلا يموجُ كحالِكِ النِّقْسِ (٥)
إن راعنى من هاجِسٍ فزَعٌ ... كان التوكّل عنده تُرْسِى
ماذاك إلاَّ أننى رجلٌ ... أصبو إلى نَفَرٍ من الإنْسِ

(١) وخدت : من الوخد ، وهو ضرب من السير السريع ، والنجب : جمع نجيب، والمهمه : الصحراء ، وجلس: غليظ ، يريد أن السير فيه يشق على سالكيه (م)

(٢) تطوى : تقطع ، والسباسب : جمع سبسب ، وهى الأرض المستوية البعيدة، والبرس ـ بالكسر ـ القطن (م) (٣) مصاعب : جمع مصعب ، وهو من الإبل الذى تصعب مقادته ، وشمس : جمع أشمس ، وهو الآبى النافر الممتنع (م)

(٤) العنس : الناقة الصلبة (م) (٥) النقس ـ بالكسر ـ الحبر (م)

بيضَ أوانسَ لا قرون لهـــا يمتلن بالتطويل والحَبْس
وأجاذب الفتيان بيهــمُ صفراء مثل مُجاجةِ الوَرْسِ
للماء فى حافاتها حبَبٌ نظم كرقم صحائف الفُرْسِ
والله يعـــــلمُ فى بنيته ما إن أضعت إقامةَ الخَمْسِ (١)

قال : ومن تكون ؟ قال : على بن الخليل ، الذى يقال إنه زنديق ، فقال له : أنت آمن ، وأمر له بخمسة آلاف درهم .

وصف دعوة لمحمد بن حازم

وأنشد أبو العباس المبرد لرجلٍ يصف دعوة دعاَ بها الله عز وجل ، وقد رأيتها فى شعر محمد بن حازم الباهلى :

وسارية لم تَسْرِ فى الأرض تَبْتغى محلاً ، ولم يقطع بها البيدَ قاطعُ
سرت حيث لم تُحْدَ الركاب ولم تُنَخْ لوردٍ ، ولم يقصر لها القيد مانعُ
تمر وراء الليل والليـل ضاربٌ بجثمانه فيه سَمِــــــيرٌ وهاجعُ
إذا وردَتْ لم يَرْدُدِ اللهُ وفـدها على أهلها ، واللهُ رَاءٍ وسامعُ
تفتّحُ أبوابُ السموات دونهـا إذا قرع الأبوابَ منهـنّ قارِعُ
وإنى لأرجـــو اللهَ حتى كأننى أرى بجميـلِ الظنّ ما اللهُ صانعُ

[من مستحسن الأجوبة]

بين معن بن زائدة ورجل من شيبان

ودخل رجل [من شيبان] على معن بن زائدة ، فقال : ما هذه الغيبة ؟ فقال : أيها الأميرُ ، ما غاب عن العَيْنِ مَنْ يذكرهُ القَلْب ، وما زال شوقى إلى الأمير شـديداً ، وهو دون ما يَجِبُ له ، وذِكْرى له كثيرا ، وهو دُون قَدْرِه ، ولـكن جفوة الحجّاب ، وقِلّةَ بشر الغلمان ، منعانى من الإتيان ! فأمر بتسهيل إذنه ، وأجزل صلته .

بين المنصور ومعن بن زائدة

وقال أبو جعفر المنصور لمعن بن زائدة : كبرت يا مَعْن ! قال : فى طاعتك يا أمير المؤمنين ، قال : إنك لجلْد (٢) ، قال : على أعدائك ، قال : وإنّ فيك لبقيّة ، قال :

(١) الخمس : أراد الصلوات الخمس المفروضة (م)
(٢) جلد : قوى شديد الاحتمال (م)

هى لك ياأميرَ المؤمنين ، قال : فأى الدولتين أحبُّ إليك ؛ هذه أم دولة بنى أمية ؟ قال: ذلك إليك ياأميرالمؤمنين ، إن زاد برُّك على برّهم كانت دولتُك أحبَّ إلى .

[من ترجمة معن بن زائدة ، وأخباره]

ومعن هذا هو معن بن زائدة بن عبد الله [بن زائدة بن مطر بن شريك بن عمرو أخى الحوفزان بن شريك بن عمرو بن قيس] بن شرحبيل بن منبه بن مرة ابن ذُهْل بن شيبان ، و بنو مطر بيت شيبان ، وشيبان بيت ربيعة .

لابن أبى حفصة فى بنى مطر قوم معن

وكانَ معن أجود الناسِ ، وفيه يقول مَرْوان بن أبى حفصة ويعم بنى مطر :

بنو مطرٍ يوم اللقاءِ كأنهم أسودٌ لها فى غِيلِ خَفَّانَ أشْبُلُ[١]

همُ يمنعون الجارَ حتى كأنما لجارهمُ بين السما كَيْنِ منزلُ

ولا يستطيعُ الفاعلون فعالَهمْ و إن أُحسنوا فى النائبات وأجملُوا

بهاليلُ فى الإسلام سادُوا ولم يكنْ كأوّلهم فى الجاهلية أولُ

همُ القومُ إن قالوا أصابوا و إن دُعُوا جابوا و إن أعْطَوْا أطابوا وأجْزَلوا

أخذ البيتَ الأولَ ابنُ الرومى ، وزاد فيه ، فقال :

تلقاهمُ ورِماح الخطّ بينهم كالأُسْدِ ألبسها الآجامَ خَفَّانُ

[الرأى والشجاعة]

أتى قوم من العرب شيخا لهم قد أرْبى على الثمانين، وأهدف على التسعين[٢]، فقالوا : إنّ عدوّنا استاق سَرْحَنا ، فأشِرْ علينا بما نُدْرِكُ به الثّأْر ، وننفى به العارَ ، فقال : الضعفُ فسخ همّتى ، ونكث إبرام عزيمتى ، ولكن شاوروا الشجعان من ذوى العزْم ، والجبناء من ذوى الحزم ؛ فإنّ الجبان لا يألو برأيه ما يَقِى مهجكم ، والشجاع لا يألو برأيه ما يشيد ذكركم ، ثم اخلصوا من الرأى بنتيجة تبعد عنكم معرّة نَقْصِ الجبان ، وتَهوّر الشجعان ، فإذا نجمَ الرأىُ على هذا كان أنفذ على عدوكم من السّهم الصائب ، والحسامِ القاضب .

(١) الغيل ـ بكسر الغين ـ موضع الأسد ، وخفان : مكان مشهور بالأسود ، والأشبل : جمع شبل ـ بالكسر ـ وهو ولد السبع (م)

(٢) أهدف على التسعين : قاربها وأشرف عليها (م)

[قضاء الله وعدله]

قال الأصمعى : سمعت أعرابية تقول لرجل تخاصِمُه : والله لو صُوِّر الجهل لأَظلم معه النهار ، ولو صُوِّر العَقْلُ لأضاء معه الليل ، وإنك من أفضلهما لمعدم ؛ فخَفِ الله ، واعلم أنَّ من ورائك حَكَمًا لا يحتاجُ المدَّعى عنده إلى إحضار البينة .

[بنو كليب]

قال الفرزدق يهجو كليبا :

ولو يُرْمَى بلؤم بنى كليب نجومُ الليل ماوضَحَتْ لِسارى
ولو لبس النهار بنو كليب لَدَنَّسَ لؤمُهم وَضَحَ النهارِ

[من جيد كلام الأعراب]

دعاء أعرابى بعرفة

وقال سفيان بن عيينة : سمعت أعرابيا يقول عشية عَرَفَة : اللهم لا تحرمْنِى خيرَ ما عندك لِشَرِّ ما عندى ، وإن لم تتقبَّلْ تَعبى ونصَبى فلا تحْرِمنى أجرَ المصاب على مصيبته .

عتاب بين صديقين

وقال آخر منهم لصديق استبطأه فلامه : كانت لى إليك زَلَّة يمنعنى من ذِكرها ما أَمَّلْتُ من تجاوُزك عنها ، ولستُ أعتَذِرُ إليك منها إلا بالإقلاع عنها .

وقال آخر لابن عم له : والله ما أَعْرف تقصيراً فأقلع ، ولا ذنباً فأعتب ، ولست أقولُ : إنك كذبت ، ولا إننى أذنبت .

وقال آخر لابن عم له : سأتخطى ذنبك إلى عُذْرِك ، وإن كنت من أحدهما على يقين ، ومن الآخر على شكّ ، لتتمّ النعمةُ منى إليك ، وتقومَ الحجَّةُ لى عليك .

وأصيب أعرابىٌّ بابن له فقال ـ وقد قيل له : اصبر ـ أعلى اللهِ أتجلَّدُ ، أم فى مصيبتى أتبلّد ؟ والله لَلْجَزَع من أمره أحبُّ إلىّ الآن من الصبر ! لِأن الجزعَ استكانة ، والصبر قَساوة ، ولئن لم أجزع من النقص لا أفرح بالمزيد .

دعاء أعرابى

ودعا أعرابى فقال : اللهم إنى أعوذُ بك أن افتقرَ فى غِنَاكَ ، أو أضلّ فى هُدَاكَ ، أو أذِلّ فى عزِّك ، أو أضام فى سُلْطَانك ، أو أضْطَهد والأمر إليك .

قال الأصمعي : سمعتُ أعرابيا يَعِظُ رجلا وهو يقول : وَيْحَك ! إنّ فلانا وإن ضحك إليك، فإنه يضحكُ منك ، ولئن أظهر الشفقةَ عليك، إنّ عقاربه لتسرى إليك ؛ فإنْ لم تتخذه عدوّا فى علانيتك ، فلا تجعله صديقاً فى سريرتك .

سمع أعرابىّ رجلا يقعُ فى السلطان ، فقال : إنك غُفْل لم تَسِمك التجارب ، وفى النصح لَسْعُ العقارب ، كأنى بالضاحك إليك ، وهو باكٍ عليك .

وحذّر بعضُ الحكماء صديقا له صحبه رجل ، فقال : احذَرْ فلانا فإنه كثيرُ المسألةِ ، حسن البحث ، لطيف الاستدراج ، يحفظُ أول كلامك على آخره ، ويعتبرُ ما أخَّرت بما قدَّمت ، فلا تظهرنَّ له المخافة فيرى أنْ قد تحرَّزْت ؛ واعلم أنَّ من يقظة الفِطْنة إظهارَ الغفلة مع شدة الحذر ، فباثِثه مباثَّةَ الآمِن ، وتحفَّظْ منه تحفظَ الخائف ؛ فإنَّ البحث يظهر الخفىّ الباطن ، ويُبْدى المستكنّ الكامن .

أتى أعرابىّ رجلا لم يكن بينه وبينه حرمة فى حاجةٍ له ، فقال : إنى امتطيتُ إليك الرجاء ، وسَرَيْتُ على الأمل ، ورافقتُ الشكر ، وتوسَّلْت بحُسْنِ الظن ، فحقق الأمل، وأحْسِنِ المثوبة، وأكرم الصَّفَد[1]، وأقِم الأَوَد[2]، وعجِّل السَّراح[3].

قال الأصمعي : وسمعتُ أعرابيا يقول : إذا ثبتت الأصول فى القلوب ، نطقت الألسنةُ بالفروع ! والله يعلم أنَّ قلبى لك شاكر ، ولسانى ذاكر ، ومحال أن يظهرَ الودّ المستقيم ، من الفؤاد السقيم .

ومدح أعرابى رجلا ، فقال : إنه ليغسل من العار وجوها مسودّة ، ويفتح من الرأى أبواباً منسدَّة .

وقال أعرابى :

كم قد ولدتمُ من رئيسٍ قَسْوَرٍ ... دامى الأظافرِ فى الخميس المُمْطِر
سَدِكَتْ أناملُه بقائم مرهف ... [وبنشر فائدة وجذوةِ مِنْبَرِ

(١) الصفد : العطاء ، وهو بفتح الصاد والفاء جميعاً (م)

(٢) الأود ـ بالتحريك ـ الاعوجاج (م)   (٣) السراح : الفكاك (م)

ما إن يريد إذا الرماحُ تشاجرَتْ　　درعا سوى سربال طِيبِ العنصر
يلقى السيوفَ بوجهه وبنحره]　　ويقيم هامته مقام المِغْفَر
ويقول للطِّرْفِ اصطبر لشبَا القنَا　　فعقرتُ ركن المجد إن لم تُعْقَر
وإذا تأمل شخصَ ضيفٍ مقبلٍ　　متَسَرْبل سربال مَحْلٍ أغبر[(١)]
أوْمَى إلى الكَوْمَاء هذا طارق　　نحرَتنىَ الأعداء إن لم تنحرى[(٢)]

وقال :

قامت تَصدَّى له عَمْداً لغفلته　　فلم يرَ الناسُ وجداً كالذى وجَدَا
جيداء رَبْدَاء لم تعقد قلائدَهَا　　وناهدٌ مثل قلب الظَّبْى مَا خضِدا
فراح كالحائم الصَّدْيَان ليس له　　صَبْرٌ ولا يأمن الأعداء إن وردَا

وقال آخر :

ومكتتماتٍ بعد وَهْن طرقننى　　بأرديةِ الظلماء ملتحفاتِ
دسَسْنَ رسولا ناصحا وتلونهُ　　على رقبةٍ منهنَّ مستَترات
فبتُّ أعاطيهنَّ صرفَ صبابةٍ　　وبتْنَ على اللذات معتكفات
فياوَجْدَ قلبى يوم أتبعتُ ناظرى　　سليمى وجادَتْ بعدها عَبرَاتِى

* * *

وقال الأحنف بن قيس : من لم يستوحش من ذُلِّ المسألة لم يأنفْ من الرد .
وقال سفيان الثورى لأخ له : هل بلغك شىء مما تكرهُه عمن لا تعرف
قال : لا ، قال : فأقلل ممن تعرف .

أخذه ابن الرومى ، فقال :

عدوُّك من صديقك مُستَفاد　　فأَقلِلْ ما استطعتَ من الصحابِ
فإنَّ الداء أكثر ما تراهُ　　يكونُ من الطعام أو الشراب
فدَعْ عنك الكثيرَ فكم كثير　　يُعاف ، وكم قليل مستطابِ ؟

---

(١) فى نسخة « سربال ليل أغبر » وهو الذى أحفظه (م)
(٢) الكوماء : الناقة العظيمة السنام (م)

وما اللُّجَجُ المِلاحِ مُرَوِّياتٍ ويُلْفَى الرِّىُّ فى النُّطَفِ العِذابِ

[جُمَل من ألوان المديح]

وقال رجل لخالد القسرى: والله إنك لتَبْذُل ماجلّ ، وتجبر ماانفلّ ، وتكثر ما قلّ ؛ ففضلك بديع ، ورأيك جميع ، تحفظ ما شَذَّ ، وتؤلف ما نَدَّ .

وسئل أعرابى عن قومه ، فقال : يقتلون الفَقْر ، عند شدّة القرّ ، وأرواح الشتاء ، وهبوب الجِرْبِياء[1] ، بأسنمة الجزور ، ومُتْرَعات القدور ، تهش وجوهُهم عند طلب المعروف ، وتعبس عند لمعان السيوف .

ووصف أعرابى قوما فقال : لهم جودُ كرام اتّسعت أحوالها ، وبأسُ ليوث تتبعُها أشبالُها ، وهِممُ ملوكٍ انفسحت آمالُها ، وفَخرُ آباء شَرُفَتْ أخوالها

وقال خالد بن صفوان ، وقد دخل على بعض الوُلاَة : قدمت فأعطيت كلاًّ بقِسْطِه من نظرك [ومجلسك] ، وصوتك ، وعَدْلِك ، حتى كأنك من كلّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد .

وذكر خالد رجلا فقال : كان والله بديعَ المنطِق ، ذلق الجرأة ، جَزْل الألفاظ ، عربىَّ اللسان ، ثابت العقدة ، رقيقَ الحواشى ، خفيفَ الشفتين ، بليلَ الريق ، رَحْبَ الشرف ، قليل الحركات، خفىّ الإشارات ، حُلْو الشمائل ، حسن الطلاوة ، حييًّا جريًّا ، قؤولا صموتا ، يفل الحزّ ، ويصيب المفاصل ، لم يكن بالهذر فى مَنْطقه ، ولا بالزمر فى مروءته ، ولا بالخرق فى خليقته ، متبوعا غير تابع ، كأنه علمٌ فى رأسه نار .

وقال بعض البلغاء لرئيسه : إنّ من النعمة على المُثْنِى عليك أنه لا يأْمَنُ التقصير ، ولا يخاف الإفراط ، ولا يحذر أن تَلْحقه نقيصةُ الكذب ، ولا ينتهى به المَدْحُ إلى غاية إلاَّ وَجَد فى فضلك عَوْنا على تجاوزها . ومن سعادةِ جَدِّك أن الداعى لا يعدم كثرةَ المشايعين ، ومساعدةَ النيّة على ظاهر القول .

---

(١) الجربياء : ريح الشمال ، أو بردها ، أو هى ريح بين الشمال والجنوب (م)

ألفاظ لأهل العصر ، فى ضروب المدائح

قد وضعت كثرةُ التجارب، فى يده مرآةَ العواقب. قد نجّذته صروفُ الدهور ، وحنّكته مصايرُ الأمور . قد أرضعته الحُنكة بلبانها ، وأدّبته الدُّرْبة فى إبانها . فلان نوازلُ التجارب حنّكته ، وفوادحُ الأيام عرّكته . هو عارف بتصاريف [الأيام ، آخذٌ برهان التجارب ، نافذ فى مجال التحصيل والتمييز . قدصحب الأيام، وتولّى] النقض والإبرام . هوابنُ الدهرحُنكةً وتجريبا ، وعُوداً على الدهرصليبا . قد أدّبه الليلُ والنهار ، ودارت على رأسه الأدوار ، واختلفت به الأطوار . له همّة علا جناحُها إلى عنان النجم . وامتدّ صباحها من شرق إلى غرب، لايتعاظمه إشراف الأمر إذا أخطره بفكره ، وانتساف الصّخْر إذا ألقاه فى وَهْمه ، هِمّتُه أبعدُ من مَناطِ الفرقد، وأعلى من منكب الجوزاء . أوسعُ من الأرض ذات العرض . هو حيّ القلب، منشرحُ الصدْر ، ذكىُّ الذهن، شجاعُ الطبع ، ليس بالنؤوم ولا السؤوم ، فذّ فَرْد ، وأسدوَرْد ، وكأنّ له فى كل جارحة قلبا . كأنّ قلبه عين ، وكأن جِسْمَه سمع . شهابٌ مقدّم ، وقِدْحٌ مقوّم . [وهو شهمٌ] مشدود النطاق ، قائم على ساق ، قد جدّ واجتهد، وحشر وحَشَد، شمّرعن ساق الجد ما أطاق، قد ركب الصعب والذَّلول ، وتجشّم الحَزْنَ والسُّهُول ، وقطع البر والبحر ، وأعمل السيفَ والرمْحَ ، وأسرجَ الدُّهم والشهب[1]. هو مولود فى طالع الكمال ، وهو جملة الجمال . قد أصبح عينَ المكارم ، وزَيْن المحافل . هو فَرْدُ دهره ، وشمسُ عَصْره ، وزينُ مِصْره، وهوعَلَم الفضل ، وواسطة عِقْدِ الدهر ، ونادِرَةِ الفلك ، ونُكْتة الدنيا ، وغُرّة العصر. قد بايعته يَدُ المَجْد ، ومالت به الشورى إلى النصر . فلان يزيدُ عليهم زيادةَ الشمسِ على البدر ، والبحر على القَطْرِ . هورائشُ نَبْلهم ، ونَبْعَة فضلهم ، وجُمّة وِرْدِهم ،

---

(١) أسرج : وضع السرج ، والدهم : جمع أدهم ، والشهب : جمع أشهب ، والدهمة والشهبة من ألوان الخيل (م)

وواسطة عِقْدهم . هو صَدْرُهم وبَدرُهم ، ومن عليه يدورُ أمرُهم ، يُنيف عليهم إنافة صفحة الشمسِ على كُرَةِ الأرض، كأنهم فلك هوقُطبُه ، وجَسَدٌ هو قلبُه ، ومملوك هو ربُّه . هو مشهور بسيادتهم، وواسطةُ قلادتهم.موضِعُه من أهل الفضل موضِع الواسطة من العِقْد ، وليلة التمِّ من الشهر ، بل ليلة القَدْر إلى مطلع الفجر . أفْضَل وأنعَم، وأسدى فى الإحسان وألحم ، وأسْرَج فى الإكرام وألجم، قسم من إنعامه مايسَعُ أمما،وتلقى السعادةأَمَما(١)، أعطاه عنانَ الاهتمام،حتى استولَى على قصَبِ المرام . رُدّ عنه الدهرُ أحصّ الجناح(٢)، وملّكه مَقَادة النجاح . أولاه من معهود البرّ ومألوفه ، وقصّرت الأعداء عن مِثاته وأُلوفه . أولاه إسعافا سَمْحا،وعطاء سحّا، ومننا صفواً وعفواً . أفاض عليه شِعابَ البرِّ ومَسَايله ، وجمع له شعوبَ الجميل وقبائله ، وهطلَتْ عليه سحائبُ عنايته ، ورفرفت حوله أجنحةُ رعايته . قد فكّه بكرمه من قَيْد السؤال ، ومعرّة الاختلال . رَاشه بعد ما حصّه الفقر ، وأرضاه وقد أسخطه الدهر . ملأ العيونَ ، وسهر دوننا لتحقيق الظنون . قد شِمتُ من كرمه أكرم سحاب ، وحصلت من إنعامه فى أخصبِ جَناب. قد سد ثُلمَةَ حالى، وأدرّ حَلُوبة آمالى . ما أخلو من طَلّ إحسانه ووابله ، وغابر إنعامه وقابله . قد استمطرتُ منه بنَوْء غزير . وسريتُ فى ضوء قمر منير . قد كرعتُ من برِّه فى مَشَارِعَ تغزر ولا تنزُر ، ورفَلْتُ من طَوْله فى ملابس تطول ولا تقصُر . إقامته فى ظلّ ظليل، وفضل جزيل، وريح بليل ، ونسيم عليل ، وماء رَوِيّ ، ومهاد وطِيّ ، وكنّ كنين ، ومكانٍ مكين . أنا آوى إلى ظلّه كما يأوى الطير المذعور إلى الحرم،وأُوَاجه منه وَجْهَ المجد وصورة الكرم . أنا من إنعامه بين خير مستفيض ، وجاه عريض، ونعم بيض . قد استظهرت على جَوْرِ الآيام بعَدْله،واستترتُ من دهرى بظلّه.ما أرددُ فيه طَرْفى

---

(١) أمما ـ بفتح الهمزة والميم ـ قريباً (م)

(٢) « أحص الجناح » كناية عن الضعف (م)

وأعدّ من خالص ملكى منتسبٌ إلى عطائه، أو مكتَسَبٌ بجميل آرائه . مسافة بصرى تبعد إن سافَرْتُ فى مواهبه، وركائب فكرى تَطْلَح[1] إن أنضيتُها فى استقراء صنائعه.
نعمته نعمة عمّت الأمم، وسبقت النعم، وكشفت الهموم ورفعت الهمم، نعمه قد سطع صباحُها مستنيراً، وطنب شعاعها مستطيراً، قد عرفتنى نِعَمُه حتى استنفدت شُكْرَ لسانى و يدى وأتعبت ظهرى، وملأت صَدْرى. نِعَمُه عندى مشرقةُ الجوّ، مغرقة النوء، مونقة الضوء. تتابَعتْ نِعمُه تتابعَ القَطْر على القفر، وترادفت مِنَنُه ترادفَ الغنى إلى ذوى الفقر. نِعمُه أشرقَتْ بها أرضِى، ومُطِرَ بهارَوْضى، ووَرِى لهازَنْدى، وعلا معها جَدِّى، وأتانى الزمانُ يعتذرُ من إساءته، وجاءنى الدهرُ ينتظرُ أمرى . نِعَمُه أنعمت البالَ، وسرّت النفس والحال. نعم تعمّ عمومَ المطر، وتزيدُ عليه بإفراد النفع عن الضرر. نعمٌ تَضْعف الخواطر عن التماسها، وتَصْغُر القرائح عن اقتراحها. له أيادٍ قد عمّت الآفاق، ووسمت الأعناق، وأيادٍ قد حبست عليك الشكر، واستعبدت لك الحر . مِنَنٌ توالَتْ تَوَالى القَطْر، واتسعت سَعَةَ البَرِّ والبَحْر، وأثقلت كاهل الحرّ . عندى قلادة منتظمة من مِنَنه قد جعلتها وَقفاً على نحور الأيام، وجلوتها على أبصار الأنام . أيادٍ يقصر عن حقوقها جهدُ القولِ، وتزهر فيها سواطع الإنعام والطَّوْل . أياديه أطواق فى أجياد الأحرار، وأفلاك تدورُ على ذوى الأخطار . له مِنَنٌ تضعف عن تحملها عواتق الأطواد، و يتضاعفُ حملها على السَّبع الشداد، لو تحمل الثَّقَلان ثقلَ هذا الامتنان لأثقل كواهلَهم وأضعف عواتقَهم. أياد يفرض لها الشكر ويحتم، ومِنن يبتَدأ بها الذكر و يُختَم. أياد تثقل الكاهلَ، ومِنَنٌ تُتْعِبُ الأنامل. مِنن تضعف مُنَنَ الشكر[2]، و ينشر معها قوى النّشر، منن هى أحسن أثراً من الغيث فى أزاهير الربيع، وأحْلى موقعاً من الأمن عند الخائف المروع . إن أتعبت نفسى فى

---

(١) تطلح : تعي وتضعف وتكل (م)

(٢) منن الأولى جمع منة بمعنى العطية وهى بكسر الميم ، ومنن الثانية جمع منة بمعنى القوة وهى بضم الميم (م)

تعداد مننه وحَصْرِها فسأطمع فى إحصاء السحاب وقَطْرِها . أياد لا تحصى أو تحصى محاسِنُ النجوم ، ومِنَن لا تحصر أو تحصر أقطارُ الغيوم . أيادٍ كعدد الرمل والنمل ، أعيت على العدّ ، ولم تقف عند حد . زادَتْ أياديه حتى كادت تجهد الأعداد ، وتسبق الإعداد . أياديه عندى أغزر من قَطْرِ المطر ، وعوارفه لدىّ أسرعُ من رَجْع البصر . رفعتنى من قَعْر التراب، إلى سَمْك السحاب . استنبطه من الحضيض الأوْهَد، إلى السناء الأمجد ، وقد نَبَّهَهُ عن خمول ، وأجرى الماء فى عوده بعد ذبول ، ورقّاه إلى ذرْوَة من المجد بعد نزول . فضائل تزل أقدام النجوم لو وطِئَتْها، وتقصر هِمَمُ الأفلاكِ لو طلبتها، ثبتَ قدَمُه فى المحلّ المنيف ، ومكّنه من جوامع التشريف. جذب بِضَبْعهِ من المسقط المنحطّ ، إلى المرفع المشتطّ .

ولهم فى أدعية من صدور الكتب تليق بهذه الأثنية والمدائح

أطال الله له البقاء، كطُول يدهِ بالعطاء، ومدّ له فى العمر، كامتداد ظله على الحرّ، وأدام له المواهب ، كما أفاض به الرغائب، وحرس لديه الفضائل، كما عوّذ به الشمائل[1] . تولّى الله عنى مكافأته، وأعان على الخير نيّته وفعله، وأصحب بقاءه عزاً يبسطُ يديه لأوليائه على أعدائه، وكلاءةً تذبّ عن ودائع مننه عنده[2]،وزاد فى نعمه وإن عظمتْ، وبلغه آماله وإن انفسحتْ ، ولا زال الفضلُ يأوى منه إلى رُكْنٍ منيع،وجناب مريع. لازالت الألسنُ عليه بالثناء ناطقة ، والقلوبُ على مودته متطابقة ، والشهاداتُ له بالفضل متناسقة . لا زال يعطف على الصادر والوارد ، عَطْفَ الأم والوالد . أبقاه اللهُ للجميل يُعْلِى معالمَه ، ويَحْمِى مكارِمَه، ويعمر مدَارِجَه ، ويثمِّر نتائجه . أدام اللهُ أيامَه التى هى أيام الفضائل ومواقيتها ، وأزمان المآثر وتواريخها . أدامه اللهُ

---

(١) الشمائل : جمع شمال ، وهى هنا الخصلة والخلة والطبيعة ، وقال الشاعر
* وما لومى أخى من شماليا * (م)

(٢) الكلاءة : الرعاية والحفظ ، وتذب : تدفع (م)

للمواهب ، ساميةَ الذوائبِ ، مُوفِية على مُنْيَة الراجى و بغية الطالب . أبقاه اللهُ للعطاء يفضّه بين خدمه ، والجمال يُفيضُه على إنشاء نعمه ، والله يتابعُ له أيامَ العلاء والغبطة ، والنماء والبسطة ، ليرتَع أنواع الخدم فى رياض فواضِله ، ويَكْرَع أصنافُ الحشم فى حياضِ مواهبه ، واللهُ يبقيه طويلَ الذراع ، مديد الباع ، مليًا بالاتصال[1] والاصطناع . جـزاهُ اللهُ عن نعمةٍ هيّـأها بعد أن أسبغهـا ، وعارفة مَلّاها[2] بعد أن سوّغها . أفضلَ ما جازى به مبتدىء إحسان ، و مُجير إنسان ، لا زال مكانُه مَضانا[3] للـكرم ، مَعانا للنعم ، لا تريمه المواهب ، ولا ترومُه النوائب ، بُسِطَت بالعلا يَدُه ، وقُرِن بالسعادة جَدّه ، وجُعل خيرُ يومَيْه غَدَه ، ولا زالت الأيام والليالى مطاياه ، فى أمانيه وآماله [وأيامه] ، وصَرَفَ صروف الغِيَرِ عن إصابة إقباله وكماله .

وقال ابن المعتز فى القاسم بن عُبيد الله :

أيا حاسـداً يكوى التلهف قلبَهُ ... إذا ما رآه غازياً وَسْطَ عَسْكَرِ
تصفّحْ بنى الدنيـا فهل فيهمُ لهُ ... نظيرٌ ترى ثم اجتهـد وتفكّرِ
فإن حدَّثَتْكَ النفسُ أنك مثـلُه ... بنَجْوى ضلالٍ بين جنبيك مُضْمَرَ
فجُدْ ، وأجد رأياً ، وأقدم على العِدا ... وشُدَّ عن الإثم المـآزرَ واصْبِرِ
وعاصِ شياطين الشباب وقارعِ الـنـوائب وارْفَعْ صرعَةَ الضر واجـبرِ
فإن لم تطق ذا فاعذر الدهر واعْتَرِفْ ... لأحكامه واستغفرِ اللهَ يغفـرِ

[منزلة صناعة الـكلام]

قال الجاحظ : صِناعةُ الـكلام عِلْق نفيس ، وجَوهرٌ ثمين ، هو الـكنزُ الذى لا يَفْنَى ولا يَبْلَى ، والصاحبُ الذى لا يُمَلُّ ولا يُقْلَى ، وهو العيارُ على كلّ

---

(١) فى نسخة « مليا بالإفضال » .

(٢) فى نسخة « وعارفة حلاها » .

(٣) مضانا : موضعا للصون ، ومعانا : موضعا للعون ، ولا تريمه : لا تبرحه .

صناعة ، والزمامُ لسكل عبارة ، والقِسْطاسُ الذى به يَستبينُ نَقْصُ كلِّ شيء ورُجْحانه ، والراوُوق الذى يُعرَفُ به صَفاء كلِّ شيء وكَدَره ، والذى كلُّ عِلم عليه عِيَال ، وهو لِـكلِّ تحصيل آلةٌ ومثال.

وقال ابن الرومى :

ما عُذْرُ معتزلىّ مُوسرٍ منعتْ ۔ كَفّاه مُعْتزليا مِثْلَه صَفَدا[1]

أيَزْعُم القَدَر المحتـوم ثبَّطَه ۔ إن قال ذاك فَقَدْ حلّ الّذى عَقَدا

وقال [ابن الرومى] :

لذوى الجدال إذا غَدَوْا لجدالهم ۔ حُجَجٌ تضلّ عن الهدى وتجُورُ

وُهُنٌ كآنية الزُّجاج تَصَادمتْ ۔ فهوَتْ ، وكلٌّ كاسرٌ مَكسورُ

فالقـاتِلُ المقتولُ ثَمَّ لِضَعْفِه ۔ ولوهْيِه ، والآمرُ المَأْمُورُ

وقال أبو العباس الناشىء يفتخرُ بالـكلام :

ونحن أناسٌ يعرفُ الناسُ فَضْلَنا ۔ بألسُنِنا زِينتْ صُدورُ المحافلِ

تُنير وُجوهُ الحقِّ عند جَوابِنا ۔ إذا أظلمتْ يوما وُجُوهُ المسائلِ

صمتْنَا فلم نَتْرُكْ مقالا لصامتٍ ۔ وقُلْنَا فلم نترك مَقـالا لِقائل

وقال يصفُ أصحابه :

فلو شَهِدْت مقـاماتى وأنْدِيَتِى ۔ يوْمَ الخصـام وماءُ الموت يَطَّرِدُ

فى فتيةٍ لم يلاق الناسُ مذ وُجِدوا ۔ لهم شبيهاً ولا يُلفَوْن إنْ فقدوا[2]

مجاورو الفضل أفْلاكُ العُلَا سبل التـقوى محلّ الهدى عُمْدُ النّهى الوُطُدُ

كأنهم فى صدورِ النـاسِ أفئدَةٌ ۔ تحسُّ ما أخطئوا فيها وما عَمَدُوا

يُبْدون للنـاس ما تخفِى ضمائرهم ۔ كأنهم وَجَدُوا منها الذى وَجَدوا

دَلّوا على باطنِ الدنيـا بظاهِرها ۔ وعِلْمِ ما غابَ عنهمْ بالذِى شَهِدوا

مطالع الحقِّ ما مِنْ شُبْهَةٍ غَسِقَتْ ۔ إلاّ وَمِنْهُمْ لدينا كوكبٌ يَقِدُ[3]

(١) الصفد ـ بالتحريك ـ العطاء . (٢) يلفون : يوجدون .
(٣) غسقت : أظلمت .

وقال سعيد بن حميد :

قالت : اكتمْ هوايَ واكْنِ عن اسمى ـ بالعزيز المُهَيْمِنِ الجبَّـــــارِ
قلت : لا أستطيع ذلك ، قالت : ـ صِرْتَ بعدى تَقُولُ بالإجْبَارِ
وتخلَّيْتَ عن مقــــالةِ بشر بـــن غياثٍ لمذهب النجَّـــارِ

وقال أبو القاسم بن عباد الصاحب :

كنتُ دهراً أقولُ بالإستطاعة ـ وأرى الجَـبْرَ ضـلَّةً وشناعه
ففقدت استطاعتى فى هوى ظَـــبْى ؛ فسمعاً للمُجْبِرين وطَاعَه

وقال أيضا :

ولمـا تنـاءتْ بالحبيب دِيَارهُ ـ وصرنا جميعا من عِيَانٍ إلى وَهْمِ (١)
تمـكَّن منّى الشوقُ غير مُخَالِسٍ ـ كمعتزلىّ قد تمـكَّنَ من خَصْمِ

[بعض ما قيل فى النسيب]

وأنشد محمد بن سلام بعضَ هذه الأبيات التى أنشدها ، وزعم أنها لأبى كبير الهذلى ، ورُويت ليزيد بن الطَّثْرِيّة وغـيره ، والرواة يُدْخلون بعض الشعر فى بعض ، وهى :

عُقَيْلِيــةٌ ، أمَّا مَلاَثُ إزارِها ـ فوعث ، وأمَّا خَصْرُها فبَتِيلُ (٢)
تقَيَّظُ أكْنَاف الحِمَىٰ ، ويُظِلها ـ بنَعْمان من وَادِى الأراك مَقِيلُ
فيا خُلَّةَ النفس التى ليس دُونَها ـ لنـا من أخلاَّء الصفاءِ خَلِيلُ
ويا من كَتَمْنَا حُبَّه ، لم يُطَعْ لَه ـ عدوٌّ ، ولم يُؤْمَنْ عليه دَخِيـلُ
أمَا مِنْ مقامٍ أشْتَكى غُرْبةَ النوى ـ وخَوْفَ العِدا فيه إليكِ سَبِيلُ
أليس قليلاً نظرةٌ إنْ نظرتُها ـ إليكِ ؟ وكلا ليس منكِ قليلُ

---

(١) عيان ـ بكر العين ـ معاينة ومشاهدة .

(٢) عقيلية : منسوبة إلى عقيل ، وملاث إزارها : الموضع الذى يدار عليه الإزار ، وبتيل : دقيق هضيم كأنه منقطع عما تحته ومافوقه ، وفى نسخة «فد عص»

وإن عناء النفس ــ مادمت هكذا عَنُودَ النوى محجوبةً ــ لطويلُ
أراجعـــةٌ قلبي علىّ فرائحٌ مع الرَّكب لم يكتب عليك قتيل
فلا تحملي وِزْرِي وأنت ضعيفةٌ فَحَمْلُ دمى يوم الحساب ثَقِيلُ
فياجنّةَ الدنيا ، ويا مُنْتَهَى المنى ويا نُور عيني ، هل إليك سبيلُ ؟
فديتكِ ، أعدائي كثير ، وشُقّتي بعيدٌ ، وأشياعى لديكِ قَلِيلُ
وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ بعلّةٍ فأفنيت عِلاّتي ، فكيف أقول ؟
فما كلَّ يومٍ لى بأرْضِكِ حاجةٌ ولا كلَّ يومٍ لى إليك رسولُ

وأنشد ابنُ سلّام لأبى كبير الهذلى :

وإنى لمستَنْشِقٌ لهـا الله كلّما لوى الدَّين مُعْتَلٌّ وشَحّ غَرِيمُ
سحائبَ لا مِنْ صَيِّبٍ ذى صَواعِق ولا مُحرِقاتٍ ماؤهنَّ حَمِيمُ
ولا مخلفات حين هِجْنَ بنَسْمَةٍ إليهن هوجاءُ المَهَبِّ عَقِيمُ
إذا ماهَبَطْنَ القاعَ قد ماتَ نَبْتُهُ بَكَيْنَ بهِ حتى يَعيش هَشِيمُ

[عمران بن حطان والحجاج]

ولما ظفر الحجّاج بعمران بن حطان الشارى[1] قال : اضربوا عُنُقَ ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئسما أدّبكَ أهلكُ ياحجّاج ! كيف أمنت أن أجيبك بمثلِ ما لقيتني به ؟ أبعدَ الموت منزلهٌ أصانِعك عليها ؟ فأطْرَق الحجاج استحياء ، وقال : خلّوا عنه ؛ فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطْلَقك إلا الله ، فارْجِعْ إلى حَرْبه معنا ، فقال : هيهات ! غلّ يداً مُطْلِقها ، واسترقّ رقبةً مُعْتِقُها ! وأنشد :

أأُقاتل الحجـاج عن سُلْطَانِهِ بيـدٍ تُقِرّ بأنهـا مَوْلاَتهُ ؟
إنى إذاً لأخُو الدّناءة ، والذى عفَّتْ عَلَى عرفانِهِ جَهـلاتهُ

---

(١) الشارى : واحد الشراة ، وهم الخوارج ، زعموا أنهم شروا أنفسهم وأموالهم من الله ــ أى باعوها ــ بأن لهم الجنة .

ماذا أقولُ إذا وقفت مُوَازِيا في الصفِّ وأحتجّتْ له فَعَلاَته؟
وتحدَّثَ الأكْفاء أنَّ صَنَائعا غُرِسَتْ لدَىَ فَخَنْظَلَت نخلاته
أأقول جار عليَّ ؟ إنى فيكُمْ لأحقّ مَنْ جارَتْ عليه وُلاَته
تالله ما كدت الأمير بآلةٍ وجوارحى وسِلاَحها آلاَتُه

أخذ أبو تمام هذا فقال معتذراً إلى أبى المغيث موسى بن إبراهيم الرافعى :

أألبسُ هُجْرَ القول مَنْ لوهَجَوْتهُ إذاً لهجَانى عنـه معروفُه عِنْدِى
كريم متى امْدَحْه أمدحه والورَى مَعِى ، وإذا مالمته لمتُه وَحْدِى

وعمران بن حطان هو القائل :

لم يعجز الموتَ شىءٌ دون خالقهِ والموتُ فَانٍ إذا ما غَاله الأَجَلُ
وكلَّ كرب أمامَ الموتِ مُنْقَطِعٌ بالموت ، والموتُ فيما بعدُه جَلَل[1]

وكان الفرزدَقُ عمل بيتا ، وحلف بالطلاق أنَّ جريراً لا ينقضه ، وهو :

فإنى أنا الموتُ الذى هو نازلٌ بنفسك فانظُرْ كيف أنْتَ مُحَاوِلهْ

فاتصـل ذلك بجرير ، فقال : أنا أبو حَزْرَة ، طلقت امرأةَ الخبيث ، وقال :

أنا الدَّهْرُ يُفْنِي الموتَ والدهرُ خالِدٌ فجئْنِى بمثلِ الدهرِ شيئاً يُطاوِلُهْ

وإنمـا أشار جرير إلى قول عمران .

وهو عِمْران بن حِطّان بن ظبيان بن سهل بن معاوية بن الحارث بن سدوس ابن سنان بن ذهل بن ثعلبة ، ويكنى أبا شهاب ، وكان من الشُّرَاة ، وكان من أخطب الناس وأفْصَحهم ، وكان إذا خطب ثارت الخوارِجُ إلى سلاحها ، وكان من أقبح الناسِ وَجْها ، قالت له امرأته وكانت فى الجمال مثله فى القبح : إنى لأرجو أن أكون وإياك فى الجنة ؛ لأن الله رزقك مِثْلِي فشكرت ، وابتلانى بمثلك فصبرت !

---

(١) جلل ، هنا : معناه يسير هين .

[بين أعرابى و بعض الولاة]

ودخل أعرابى على بعض الوُلاة فقال : أصْلَحَ اللهُ الأمير ، اجعلنى زِماماً من أزمّتك ، فإنى مِسْعَر حَرْب[1] ، ورَكّاب نُجُب ، شديدٌ على الأعداء ، ليّنٌ على الأصدِقاء ، منطوى الحصيلة ، قليلُ الثَّمِيلة[2] ، [قليل] غرار النوم ، قد غذَتنى الحروبُ أفَاوِيقها ، وحَلَبْتُ الدهرَ أشْطُره ، فلا يَمْنَعْكَ منى الدَّمَامة ، فإنّ تحتَها لشَهامة .

[الدنيا ، وأهلها]

قال المسيح عليه السلام : الدُّنيَا لإبليس مزرعة ، وأهلها له حُرّاث . وقال إبليس لعنَه الله : العجَب لبنى آدم يحبُّونَ الله و يَعْصونَه ، ويُبغضوننى ويُطيعوننى .

[أربع كلمات طيبات]

خرج الزهرى يوما من عند هشام بن عبد الملك فقال : مارأيتُ كاليوم ، ولا سمعت كأربع كلمات تكلّم بهن رجلٌ عند هشام ؛ دخل عليه فقال : ياأميرَ المؤمنين ؛ احفظ عنى أرْبَع كلمات ، فيهن صلاحُ مُلْكك ، واستقامةُ رعيّتك . قال : هاتهنّ ؟ قال : لا تَعِدن عِدةً لا تَثِقُ من نفسك بإنجازها ، ولا يغرنّك المرْتَقَى و إن كان سَهْلاً إذا كان المُنْحَدر وَعْرا ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتقِ العواقبَ ، وأن للأمورِ بَغَتَات فكُنْ على حذَر .

قال عيسى بن دَأْب : فحدّثت بهذا الحديث الهادى وفى يده لُقْمة قد رفعها إلى فِيهِ فأمسكها ، وقال : ويحك أعِدْ علىّ ! فقلت : يا أمير المؤمنين ، أسِغْ لقْمتك ، فقال : حديثك أحبُّ إلىّ .

---

(١) مسعر حرب : موقدها ومشعلها .

(٢) الثميلة : ما يبقى فى البطن من الطعام والشراب .

[بين معاوية وعمرو بن سعيد]

ولما عقد معاويةُ البيْعَةَ ليزيدَ قام الناسُ يخطبون؛ فقال لعمرو بن سعيد : قُمْ ياأبا أمية ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أمّا بعد فإنّ يزيد بن معاوية أجلٌ تؤمونه ، وأمل تؤملونه ، إن استضفتم إلى حِلْمه وسِعَكم[1] ، وإن احتجْتُم إلى رَأْيه أرشدكم ، وإن افتقرتم إلى ذات يده أغناكم ، جَذَع قَارح[2] ، سُوبِقَ فسَبَقَ ، ومُوجِدَ فَمَجَدَ ، وقُورِع فقَرَعَ ، وهو خَلفُ أمير المؤمنين ، ولا خلف عنه ، فقال له معاوية : اجْلِس ، فقد أبْلَغْتَ .

وعَمْرو بنُ سعيد هـذا هو الْأَشْدَق ؛ [وإنما سُمى الأشدق] لتشادقه فى الكلام ، وقيل : بل كان أفقم مَائِل الشدق ، وهـذا قول عوانة بن الحكم الكلبى ، وهو خِلَافُ قول الشاعر :

تشادق حتى مال فى القول شدقهُ   وكلُّ خَطيبٍ لا أبالكَ أشْدَقُ

وكان أبوهُ سعيد بن العاص أحدَ خطباء بنى أمية و بلغائهم .

ولما ماتَ سعيد دخل عمرو على معاوية فاستَنْطَقَه فقال : إن أوّل كل مركب صَعْب ، وإن مع اليوم غدا ، فقالَ معاوية : وفى هـذه العلة إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : أوصى إلىّ ولم يُوصِ بى ، فقال معاوية : إن ابن سعيد هذا لَأشْدَق !

[من تواضع الرشيـد]

قال ابن السماك للرشيد : ياأميرَ المؤمنين ، تواضُعُك فى شرفك أفْضَلُ من شرفك ؛ إنّ رجلا آتاه الله مالاً وجَمالا وحَسَبا ، فواسَى فى مَاله ، وعفّ فى جماله ، وتَواضعَ فى شرفه ، كُتب فى ديوان الله عز وجلّ .

---

(١) إن استضفتم : إن ملتم ، وفى نسخة « إن استطلعتم إلى حكمه » .

(٢) الجذع : الشاب الحدث ، والقارح : الشديد المجرب ، يريد أنا جامع لهذين الوصفين .

[للمتنبى فى حمى أصابته بمصر]

نالت أبا الطيب المتنبّى علّة بمصر ، فكان بعض إخوانه من المصريين يُكثر الإلمامَ[1] به ، فلما أبلّ قطعه ، فكتب إليه : وصَلْتَنى أعزّكَ اللهُ مُعتلاً ، وقطعتنى مُبِلاً ، فإن رأيت ألاّ تكدر الصحة علىّ ، وتحبّب العلة إلىّ ، فَعَلْتَ .

وفى هذه العلة يقول :

أقمتُ بأرضِ مِصْرَ ؛ فلا ورائى ... تَخُبُّ بىَ الركاب ، ولا أمامى

عَليلُ الجِسْمِ مُمْتَنِعُ القيامِ ... شديدُ السُّكْرِ من غيرِ المُدَامِ

وزائِرَتِى كَأَنّ بها حياءً ... فلَيْسَ تَزُورُ إلا فِى الظَّلامِ

بَذَلْتُ لها المَطارِفَ والحَشايَا ... فعافَتْها ، وباتَتْ فى عِظامِى

يَضِيقُ الجِلْدُ عن نَفَسِى وعنها ... فتُوسِعُهُ بأنواعِ السَّقَامِ

إذا ما فارقَتْنِى غَسَلَتْنِى ... كأنا عاكِفانِ على حَرَامِ

كأن الصّبح يَطْرُدها فتَجْرِى ... مدامِعُها بأربعةٍ سِجَامِ

أُراقِبُ وقتها مِنْ غيرِ شوقٍ ... مُراقبةَ المَشُوقِ المُسْتَهَامِ

ويَصْدُقُ وَعْدُها والصدقُ شرٌّ ... إذا ألقاكَ فى الكُرَبِ العِظامِ

ألفاظ لأهل العصر فى العيادة وما جانسها من ذكر التَّشَكِّى والمرض وتلونه ، وسوء أثره ، والانزعاج لِعوارضه

عرض لى مرضٌ أساء بالنجاة ظنى ، وكاد يصرف وجه الإفاقة عنى . هو شُورَى بين أمراض أربعة : صُدَاع لا يخفّ ، وحُمّى لا تُغِبُّ[2] ، وزُكَام لا يجف ، وسُعال لا يَكُفّ . عِلّة هو فى أسْرِها مُعْتَقل ، و بقَيْدِها مُكَبَّل .

---

(١) الإلمام به : الزيارة له وعيادته ، وأبل : برىء من مرضه .

(٢) الإغباب : أن تزور يوما وتترك الزيارة يوما .

أمراض تلوّنت علىّ ، وأساءت بى وإلىّ ، فأنا أشكرُ الله تعالى إذ جعلها عِظة وتذكيرا ، ولم يُبْقِ منها الآن إلا يسيرا ، أحسب أن الأمراض قد أقسمت على أن تجعل أعضائى مَرَاتعها ، [وآلت على أن تُصيّر جوارحى مرابِعَها] . عِلَل لا يصدر منها [آتٍ إلا لتكدير ورْد] ولا يعزل منها والٍ إلا بولىّ عهد . قد كرّت تلك العلة فعادت عِللا ، [وسقتنى بعد نَهَل عَلَلا][(1)] .علل بَرَتْه بَرْى الأخلّة ، ونقصته نَقْصَ الأهلّة ، وتركته حَرَضًا ، وأوسعته مَرَضا ، وغادرته والخيالُ أكثفُ منه جُثّة ، والطيفُ أوفر منه قوّة . عرض له من المرض ما صار معه القنوطُ يُغَاديه ويُراوِحه ، واليأس يُخاطبه ويُصافِحه . قد ورَدَ من سوء الظن أوْخَمَ المناهل ، وبات من حسن الرجاء على مرَاحل . طالعتُ الكرم يترجّح نجمه بين الإضاءة والأفول ، وتمثلُ شمسه بين الإشراق والغروب .-أصبح فلانٌ لا يُقِلّ رأسَه[(2)] ، ولا يحورطله ، ويدُ المنية تقْرَع بابه . ما هو للعلة إلا عَرض ، ولسهام المنية إلا غَرَض . شاهدتُ نفسى وهى تَخْرُج ، ولقيت رُوحى وهى تَعْرُج ، وعَرفت كيف تكون السَّكْرة ، وكيف تقع الغَمْرة ، وكيف طَعْمُ البعد والفراق ، وكيف تلتفُّ الساقُ بالساق . مرض لحقتنى رَوْعته ، وملكتنى لَوْعته . وجدت فى نفسى ألما أوْحَشُهُ آنَسُه وآنَسُه أوحشه . بلغنى من شكايته ما أوحش جناب الأُنْس ، وأرانى الظُّلمة فى مَطْلع الشمس . قد بلغنى ما عَرَضَ لك من المرض ، وألمّ بك من الألم ؛ فتحاملَ على سوداء صدرى ، وأقْذَى سوادَ طَرْفى ، وقد استنفد القَلَق لِعلّتك ما أعدّه الصبرُ من ذخيرة ، وأضعف ما قوّاه العزم من بصيرة . قَلْبى يتقلّب على حدِّ السيف إلى أن أعْرف انكشافَ العارض وزِيَاله ، وأتحقّق انحساره وانتقاله . أنهى إلىّ من الخبر العارض ، حسمَ الله مادّته ، وقصّر مُدّته ، ماأرانى الأفق مُظْلما ، والعيش مُبْهَما .

---

(١) النهل : الشرب الأول ، والعلل : الشرب ثانيا ، وكلاهما بالتحريك .

(٢) لايقل رأسه : لايرفعه ، أو لا يحمله .

فقر فى تهوين العلة بحسن الرجاء ، وذكر المشاركة والاهتمام بحلولها والاستبشار بزوالها

إن الذى بلغنى من ضَعْفِه قد أضعف المُنَّة ، وإنْ لم يُضعف الظنّ بالله والثِّقة . قد استشفّ العافية من ثوب رقيق . ما أكثر ما رأينا هذه العلل حَلَّتْ ثم تَجلّتْ وتوالت ثم تولّت . خبَّرنى فلان بعلّتك فأشركنى فيها ألما وقَلقا، فلا أعلّ اللهُ لك جسما ولا حالا ، فليست نِكَاية الشغل فى قلبى بأقلّ من نِكَاية الشكاية فى جسمك ، ولا استيلاء القَلَق على نفسى بأيسر من أعتراضِ السّقم لبدنك ، ومَنْ ذَا الذى يصحُّ جسمه إذا تألمت إحدى يديه ، ومن يحل محلّها فى القرب إليه ؟ أنا منزعج لشكاتك ، مبتهج بمُعَافاتك ، إن كانت علَّتك قد قَرَحَت وجرَحتْ ، فإنّ صحتك قد آسَت وآنست[1] . بلغتنى شكاتك فارْتَعت ، ثم عرفت خِفّتها فارْتحْت . الحمد لله على قُرْبِ المدة بين المِحْنَة والمِنْحة ، والنقمة والنعمة ، وعلى أنّا لم نتهالك بأيدى المخافة حتى تدارك بحُسْنِ الرأفة ، ولم نستسلم لخطّة الحذر حتى سَلِمَ من وَرْطَة القدر .

ولهم فى شكاة أهل الفضل والسؤود

شكاتُه التى تتألّم منها المروءةُ والفضل . ويسقم منها الكرم المحْضُ . شكاته التى غَصَّت بها حلوقُ المَجْدِ، وحَرِجَت لها صدورُ أهل الأدب والعلم[2]، وبدا الشحوبُ معها على وَجْه الحرية ، وحرم معها البِشْرُ على غُرّة المروءة . قد اعتلّ بعلّته الكَرَم ، وشكا بشكايته السيفُ والقلم . شكاة عرضت منه لشَخْص الكرم الغضّ ، والشرف المَحْض . لوقبلت مهجتى فديةً ، دون وَعْكةٍ تجدها ،

---

(١) آست : عالجت وداوت وطبت ، وآنست : جلبت الأنس .

(٢) حرجت لها الصدور : ضاقت .

جُدْتُ بها ، وساعة أنس تفقدها لبذلتها ، عالماً بأنى أفدى الكرم لا غير ، والفضل ولا ضَيْر .

ولهم فى تنسُّم الإقبال ، وذكر الإبلال

قد شِمْت بارِقَة العافية ، وشَمِمْتُ رائحةَ الصحة . أقبل صُنْعُ اللهِ من حيث لم أحتسب ، وجاءنى لُطفُه من حيث لا أرْتقب ، وتدرّجْت إلى الإبلال وقد حسبته حُلما ، ورضيت به دون الاستقلال غُنْما ، وقد تخلَّصتُ إلى شَطّ العافية لما تداركنى الله تعالى بلطيفة من لطائفه ، وجعل هبة الروح عارِفة من عَوارفه ، وتنسمتُ رَوْحَ الحياة ، بعد أن أشْفَيْتُ على الوفاة[1] ، وثَنَيْتُ وجهى إلى الدنيا بعد مواجهتى للدار الأخرى . قد صافَحَ الإقبال والإبلال ، وقارب النهوضَ والاستقلال . سيُريك اللهُ من العافية التى أذاقك ويُسْبِغ ثوبها ، ولا يعيد عليك مكروهَها . قد استقلَّ استقلالَ السيف حُودثَ عهدُه وأُعِيد فِرِنْدُه[2] ، والقمر انكشف سِرَارُه ، وذاعت أسراره[3] . حين استقلّت يدى بالقلم ، بشّرتك بانحسار الألم . قد أتاك اللهُ بالسلامة الفائضة ، وعافاك من الشكاة العارضة . أبلَّ فانشَرَحَت الصدور ، وشمل السرور . الحمد لله الذى حرس جسْمَك وعافه ، ومحا عنه أثَرَ السقم وعَفّاه . الحمد لله الذى جعل العافيةَ عقبى ما تشكيت ، والسلامة عِوَضاً عما عايَنْت . الحمد لله الذى أعفاك من مُعَاناة الألم . وعافاك للفَضْلِ والكرم ، ونظمنى معك فى سِلْكِ النعمة ، وضمّنى إليك فى مُنْبلج الصحّة . الحمد لله الذى جعل السلامةَ ثَوْبك الذى لا تنضوه[4] ، وسيفك فيما تأمله وترْجُوه . الله يَجْعَل السلامةَ أطول بُرْدَيْك ، وأشدّهما سُبوغا عليك ، ويدفع

---

(١) أشفى على الشىء : قاربه ودنا منه .

(٢) حودث عهده : أراد جدد صقاله ، وفرند السيف : جوهره .

(٣) السرار ــ بزنة الكتاب ــ الليلة التى يختفى فيها القمر .

(٤) لا تنضوه : لا تخلعه .

فى صدور المكارهِ دون ربْعك ، وفى نحور المحاذير قبل الانتهاء إلى ظلك . لازالت العافية شِعارَكَ ، ماواصل ليلُكَ نهارَكَ .

فقر فى أدعية العيادة ، والاستشفاء بكتبها

أغناك اللهُ عن الطبِّ والأطباء، بالسلامة والشفاء ، وجعله عليك تمْحِيصاً [1] لاتنغيصاً ، وتذكيراً لانكيرا ، وأدبا لا غضباً . الله يدرُّ لك صَوْبَ العافية ، ويُضْفِى عليك ثوبَ الكفاية الوافية . أوْصَل اللهُ تعالى إليك من بَرْدِ الشفاء ما يكفيك حَرَّ الأدواء . كتابك قد أدّى رَوْحَ السلامة فى أعضائى ، وأوْصَل بَرْدَ العافية إلى أحشائى . تركنى كتابُك والنعم تَثِبُ إلى صحتى، والخطوب تتجافى عن مُهْجتى ، بعد أمراضٍ اكتنفت ، وأسقام اختلفت . قد استبق كتابُك والعافية إلى جسمى كأنهما فرَساً رِهَان تباريا ، ورَسِيلاً مِضْمَار تجاريا . أبدلنى كتابُك من حُزون الشكاية سُهُولَ المعافاة ، ومن شدّة التألّم ، رخاء التنعّم .

قطعة من كلام الأطباء والفلاسفة

العاقل يتركُ ما يحبُّ ليستغنىَ عن العلاج بما يكره .

جالينوس : المرض هَرَم عارِض ، والهرَم مرضٌ طبيعى .

وله : مجالسة الثقيل حُمّى الروح .

بختيشوع : أكلُ القليل مما يَضُرُّ أصلح من أكل الكثير مما ينفع .

يوحنا بن ما سويه : عليك من الطعام بماحَدُث ، ومن الشراب بما قَدُم .

وقال له المأمون : ما أحْسَنُ ما يُتنقّل به على النبيذ ؟ قال : قول أبى نواس ، يريد قوله :

الحمد لله ليس لى مَثَـــلُ   خمرى شرابى وَنَقْلِىَ القُبَلُ

---

(١) التمحيص : الاختبار والامتحان .

ثابت بن قرة : ليس شيء أضر بالشيخ من أن تكون له جارية حسناء ، وطبّاخ حاذق ؛ لأنه يُكثر من الطعام فيَسْقَم ، ومن الجماع فيَهْرَم .

غيره : ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسل ، وخصومة يخامرها حسَد ، ومرض يمازجه هرم .

ثلاثة يجب مداراتهم : السلطان ، والمريض ، والمرأة .

ثلاثة يُعْذَرون على سوء الخلق : المريض ، والمسافر ، والصائم .

فقر في ذكر المرض والصحة والموت والحياة لغير واحد

شيئان لا يُعرفان إلاّ بعد ذهابهما : الصحة والشباب . بمرارة السقم توجد حلاوةُ الصحة . هذا كقول أبي تمام :

إساءةُ دَهْرٍ أذكرت حسْنَ فِعْلِهِ إليَّ، ولولا الشَّرْيُ لم يُعرَفِ الشّهدُ[(١)]

وقوله أيضا :

والحادثاتُ وإنْ أصابك بُؤْسها فهو الذي أدْراك كيفَ نعيمُها

ما سلامة بدن معرّض للآفات ، وبقاء عمر معرض للساعات ؟

قال أبو النجم :

إنّ الفتى يصبح للسقام كالغَرض المنصوب للسّهام

أخطأ رامٍ وأصابَ رَام

وقيل لبعض الأطباء وقد نهكته العلّة : ألاَ تتعالج ؟ فقال: إذا كان [الداء من] السماء بطل الدواء ، وإذا قدّر الرب بطل حَذَرُ المربوب ، ونِعْمَ الدواء الأمل ، وبئس الداء الأجل .

بزرجمهر : إنْ كان شيء فوق الحياة فالصحة ، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض ، وإن كان شيء مثل الحياة فالغِنَى ، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر .

---

(١) الشرى ــ بالفتح ــ الحنظل ، والشهد : العسل .

غيره: خيرٌ من الحياة مالا تَطيبُ الحياةُ إلا به، وشرٌّ من الموت ما يُتمنى الموت له .

قال المتنبي في مرثية أم سيف الدولة :

أطَاب النفسَ أنكِ مُتِّ مَوْتاً ... تَمنَّتْهُ البَواقِي والخَوَالِي
وزُلْتِ ولم تَرَىْ يوماً كريهاً ... تُسَرُّ النفسُ فِيهِ بالزوالِ
رِوَاقُ العِزِّ فوقك مُسْبَطِرٌّ ... ومُلْك عليّ ابنِكِ في كَمَالِ

الموت باب الآخرة

الحسن : ما رأيتُ يقيناً لاشكَّ فيه أشبه بشكٍّ لا يقين فيه من الموت

ابن المعتز : الموت سَهْمٌ مُرْسَل إليك ، وعمرك بقدر سفره نحوك

أخذه بعض أهل العصر فقال :

لا تَأْمَن الدهرَ الخؤو ... ن وخَفْ بوادرَ آفَتِهْ
فالموت سَهْمٌ مُرْسَلٌ ... والعمرُ قَدْر مسافَتِهْ

البستي :

لا يغرنْكَ أنني لَيِّنُ المـــسِّ ... فعزمي إذا انتضيتُ حُسامُ
أنا كالورد فيه راحةُ قَوْمٍ ... ثم فيــه لآخرين زُكَامُ

وقال آخر :

إن الجهولَ تضرُّني أخلاقهُ ... ضرر السُّعالِ لمن به استسقاه

ولآخر ، وهو البستي :

فلا تـكن عَجِلاً في الأمر تطلبهُ ... فليس يحمد قبل النّضج بُحْرَانُ

وقال آخر :

لا تعتمدْ إلا رئيساً فاضلاً ... إنْ الـكبار أطبُّ للأوجاع

وقال آخر :

وإني لأختصُّ بعض الرجال ... وإن كان فَدْمًا ثقيلا عَبَاما[1]

---

(١) الفدم ـ بالفتح ـ العيي عن الـكلام ، والعبام ـ كسحاب ـ الثقيل .

فإنَّ الجُبُنَّ على أنهُ ثقيل وخيمٌ يُشَهِّى الطَّعاما

وقال المتنبى :

لعلَّ عَتْبَكَ محمودٌ عواقبهُ وربما صحّتِ الأجسامُ بالعلل

وقال أيضاً :

أُعيذُها نَظَرَاتٍ مِنْكَ صادِقةً أنْ تحْسِبَ الشحمَ فيمَنْ شحْمُه وَرَمُ

[من الأجوبة المُفْحِمَة]

قال أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلالُ بن أبي بردة جَلْدا حين ابْتُلِى ، أحضره يوسف بن عمر فى قيودِه لبعض الأمر ، وهُم بالحيرة ؛ فقام خالدُ بن صفوان فقال ليوسفَ : أيها الأميرُ ، إنّ عدوّ اللهِ بلالاضربنى وحَبَسنى ولم أفارِقْ جماعة ، ولا خلعْتُ يداً من طاعة ، ثم التفت إلى بلالٍ فقال : الحمدُ لله الذى أزال سلطانَك ، وهدَّ أركانك ، وأزال جَمالك ، وغيرَّ حالك ، فوالله لقد كنتَ شديدَ الحجاب ، مستخفًّا بالشريف ، مظهِراً للعصبية ! فقال بلال : يا خالد ؛ إنمااستطلت علىّ بثلاث معك هنّ علىَّ : الأمير مُقْبِل عليك ، وهو عنى مُعْرِض . وأنت مُطْلَق ، وأنا مأسور . وأنت فى طينتك ، وأنا غريب ! فأفحمه ، [ويقال : إن آل الأهتم زعنفة دخلت فى بنى منقر فانتسبت إليهم][1]

وكان سبب ضربْ بلال خالداً فى ولايته أن بلالا مرّ بخالد فى موكب عظيم ، فقال خالد : * سحابة صيفٍ عن قليل تَقَشَّعُ *

فسمعه بلال ، فقال : والله لا تقشع أو يصيبك منها شؤبوب[2] برد ، وأمر بضرْبه وحَبْسِه .

[رثاء قَدَح]

وقال أبو الفتح كشاجم يرثى قَدَحاً له انكسر :

---

(١) مابين المعقوفين ساقط من أكثر الأصول ، وهو كلام مقحم .

(٢) الشؤبوب ـ بضم فسكون ـ الدفعة العظيمة من المطر

عَرَانى الزمانُ بأَحْدَاثه فبعضاً أطَقْتُ ، و بعضٌ فدَحْ[1]
وعندى فَجائع للحادثات وليس كفَجْعَتِنا بالقَدَحْ
وِعاءُ المُدَام ، وتاجُ البنـان ومُدْنِى السرور، ومُقْصِى التَّرَحْ[2]
ومعرض رَاحٍ متى تـكسه ويُستودع السرَّ منها يبحْ
وجسم هواء وإن لم يكن يُرَى للهواء بـكفٍ شَبح
يردُّ على الشخصِ تمثالهُ وإن تتَخِذْه مِرَاةً صَلَح
ويَغْبَقُ من نـكهاتِ المُدَام فتحسب منـه عَبيراً نَفَحْ
ورَقَّ ؛ فلو حلَّ فى كِفـَّةٍ ولاشىء فى أخْتها مارَجَحْ
يكادُ مع المـاء إن مسّهُ لمـا فيه من شكله ينفسح
هوَى من أنامل مجدولةٍ فياعجبا مِنْ لطيفٍ رَزَحْ
فأَفْقَدَنيـه على ضِـنّةٍ به للزمان غَرِيمٌ مَلَـح
كأنَّ له ناظـــراً ينتقى فتى يتَعَمَّدُ غـيْرَ المُنح
أقلّبُ ما أبقتِ الحادثا ت منه وفى العين دَمْعٌ يسُح
وقد قدح الوجـد منى بهِ على القَلْبِ من ناره ماقدح
وأعجب من زمن مانح وآخرَ يسلب تلك المِنَحْ
فلا تبعدنَّ فـكم من حَشَى عليك كَلِيمٍ وقَلْب قَرِحْ
سيُقفِرُ بعدك رَسم الغبُوق وتُوحِش منك مغَانى الصّبحْ

[من طرائف الوصف]

ومن أحسن ما قيل فى وصف قدح ، قول ابن الرومى يصف قدحا أهداه إلى على بن يحيى المنجم :

---

(١) عرانى : نزل بى ، وفدح : ثقل وعسر حمله

(٢) الترح : الحزن ، وفى نسخة « وتاج الـكرام »

لابن الرومى في وصف قدح

وبديع من البـــدائع يَسْبِي كلَّ عقل، ويَطَّبِي كلَّ طَرْفِ[1]
رَقَّ في الحسنِ والملاحةِ حتى ما يوفّيـه واصفٌ حقَّ وَصْفِ
كفم الحِبِّ في الملاحة بل أشـــهى وإن كان لايناجى بحرْفِ
تنفذ العينُ فيـــه حتى تراها أخطأتْه من رِقَّةِ المستشَفِّ
كهواء بلا هباء مشُـــوب بضياء، أرْقِقْ بذاك وأصْفِ
صِيغ من جوهر مصفًّى طباعا لا علاجاً بكيمياء مُصَفِّ
وسط القَدْرِ، لم يكبَّر لِجَرْعٍ مُتوالٍ، ولم يصغَّر لرَشْفِ
لا عجول على العقول جَهـولٌ بل حليم عنهنَّ في غير ضعفِ[2]
فيـــه نون معقرب عطَّفَتْه حكمَاءُ القيون أحكم عَطْفِ
مثل عطف الأصداغ في وجَنَاتٍ من حبيب يُزْهَى بحُسْنٍ وظرْفِ
ما رأى الناظرون قدًّا وشكلاً مثله فارِساً على بطن كَفِّ

للتنوخى في وصف قدح أيضا

وقال أبو القاسم التنوخى :

وراحٍ من الشمس مخلوقةٍ بَدَتْ لك في قَدَحٍ من نهارْ
هواءٌ ولكنه جامدٌ وماءٌ ولكنه غـــيرُ جارْ
إذا ما تأملتها وهى فيه تأمَّلت نوراً محيطاً بنارْ
فهذا النهاية في الابيضاضِ وهـذا النهايةُ في الاحمرارْ
وما كان في الحق أن يُقرَنا لفرْطِ التَّنافي وبعد النِّفَارْ
ولكن تجاور شكلاهما الـــبسيطَانِ فاتّفقا في الجِوارْ
كأنَّ المديرَ لهـــا باليمين إذا قام للسَّقْي أو باليَسار
تدرعَ ثوباً من الياسمين له فردُ كُمٍّ من الجلنار

(١) يطبى كل طرف : يستهوى كل نظر ، يريد أنه يأخذ بمجامع العقول والأبصار (م) .

(٢) في نسخة « لا صؤول على العقول » (م)

لكشاجم في رثاء منديل

وقال أبو الفتح كشاجم يرثي منديل كُم :

من يَبْكِ من وَجْدٍ على هالك ... فإنما أبكي على دَسْتَجَه[١]

جاذَبنيها رَشأٌ أغْيدٌ ... فجادت النفسُ بها مُخْرَجَه

بديعةٌ في نَسْجِها ، مثلها ... يفقد من يُحْسِن أنْ يَنْسُجَه

كأنما رِقَّةُ أشكالِها ... من رِقَّة العشّاق مُسْتَخْرَجه

كأنما مفتولُ أهدابِها ... أيدي دَبا في نَسَقٍ مُزْوَجه[٢]

كأنما تفريقُ أعلامها ... طَاوُسةٌ تختال أو دُرّجه

لَبيسَةٌ جَدَّدَها حسنها ... لا رَثّة السِّلْكِ ولا مُنْهَجه[٣]

كم رقعةٍ من عند مَعْشُوقةٍ ... تُرْسَلُ في أثنائها مُدْرَجَه

أو مسحة من شَفَةٍ عَذْبَة ... تُبْرِدُ حرّ الكَبِدِ المُنْضَجَه

إلى تحياتٍ لِطافٍ بها ... تُسْكِنُ مني مُهْجَةً مُزْعَجه

كانت لمَسْحِ الكاس حتى ترى ... منها لآثارِ القذَى مُخْرجه

وخاتمي يُعْقَدُ فيها إذا ... آثرتُ مِنْ كفيَ أن أخْرِجَه

وأتّقِي الجامَ بها كلّما ... كلله المازِجُ أو توّجه

فاستأثَرَ الدّهْرُ بها ؛ إنهُ ... ذو همّة مُجْلِية مُرْهجَه[٤]

فأصْبَحَتْ في كمّ مُختَالَةٍ ... مُلجمَة في هَجْرِنا مُسْرجَة

وله يصف سقوط الثلج

وقال أيضاً يصف سقوط الثلج :

الثلجُ يَسْقُطُ أم لُجَيْنٌ يُسْبَكُ ... أمْ ذا حَصَى الكافورِ ظَلّ يفرّكُ

راحت به الأرضُ الفضاء كأنها ... في كل ناحية بثغرٍ تَضْحَكُ

---

(١) في نسخة « أبكي على مسبجة » وفي أخرى « على سبجة » والدستجة : الحزمة (م)

(٢) الدبا : صغار الجراد والنمل (م) (٣) اللبيس : الذي أكثر لبسه ،والمنهجة: الخلقة البالية (م)

(٤) في نسخة « ذو نوب مجلبة مرهجة » (م)

شابت مَفارقُهَا فبيّن ضِحْـكها ... طوراً ،وعهدى بالمَشيب يُنَسِّكُ
أرْ بى على خُضر الغصون فأصبحَتْ ... كالدرّ فى قُضُب الزبرجدِ يُسلك
وتردّت الأشجارُ منه مُلاءةً ... عمّا قليـل بالرياح تَهَـتَّكُ
كانت كعودِ الهندطُرِّىَ فانكفى ... فى لَوْنِ أبيضَ وهو أسود أحلكُ
والجوُّ من أرَجِ الهواء كأنهُ ... خِلَعٌ تُعَنْبَرُ تارةً وتُمَسَّكُ[1]
فخذِى من الأوتار حظَّك إنمـا ... يتحرّك الإطرابُ حين تحرّكُ
فاليوم يوزَنُ بالملاحـــةِ ، إنهُ ... سيُطَلُّ فيه دَمُ الدّنان ويُسْفَكُ[2]

ولكشاجم أيضا

وقال أيضاً :

باكِر فهـذى صَبيحة قَرَّه ... واليوم يومٌ سمــاؤه ثَرّه
ثلج وشمسٌ وصَوْبُ غَادِيَة ... والأرضُ من كل جانب غُرّه
باتَتْ وقِيعانُها زَبَرْجَدَةٌ ... فأصبحَت قد تحوّلت دُرّه
كأنها والثلوجُ تضحكها ... تُعَارُ ممن أحبّــه ثغره
كأنّ فى الجو أيدياً نَثَرَتْ ... دُرًّا علينـــا فأسرعت نَثْره
شابَتْ فسُرّتْ بذاك وابتهجَتْ ... وكان عهدى بالشيب يُسْتَكْرَه
قد جلّيت بالبياض بلدتنـا ... فاجْلِ علينا الكؤوسَ بالْحُمْرَه

للصنوبرى فى المعنى

وقال الصنوبرى :

ذَهّب كؤوسك يا غــلا ... م فإنّ ذَا يومٌ مفضّضْ
الجوُّ يُجــلى فى البيا ... ض وفى حُلَى الكافور يُعرضْ
أزعمت ذا ثَلْجٌ وذا ... وَرْدٌ على الأغصان يُنْفَضْ
وردُ الربيع مــورَّدٌ ... والوَرْد فى تشرين أبْيَضْ

(١) فى نسخة « من داجى الهواء » وما أثبتناه موافق لما فى الديوان،والأرج: طيب الرائحة (م)

(٢) فى نسخة « فاليوم يؤذن بالملاحم » وهى تناسب آخر الكلام (م)

البستى

وقال البستى :

كم نظمنا عقود لهو وأنس　　وجعلنا الزمانَ للهو سِلكا
وفتقنا الدنان فى يوم ثلج　　عزل الكأسُ فيه رُشداً ونُسكا
فكأنَّ السماء تنحلّ كافو　　راً علينا ، ونحنُ نفتقُ مِسكا

للميكالى يصف الجمد

وقال الأمير أبو الفضل الميكالى يصف الجَمْد :

ربَّ جَنينٍ من حَيَا النمـير　　مهتّك الأستارِ والضمير
سللته من رحم الغدير　　كأنها صحائف البَلُّور
أو أكَرٌ تجسَّمتْ من نُور　　أو قِطَعٌ من خالص الكافور
لو بقيت سِلْكا على الدهور　　اعطّلتْ قلائد النُّحُور[1]
وأخجلت جواهرَ البحور　　[وسميت ضرائر الثغور]
ياحُسْنَهُ فى زَمنِ الحرور　　إذ قَيظُه مثل حَشَى المَهْجُور[2]
يُهْدِى إلى الأكبادِ والصدُورِ　　رَوحاً يُجلّى نَفْثَةَ المصدور
ويَجْلِبُ السرورَ للمَقْرورِ

ألفاظ لأهل العصر فى وصف الثلج والبرد والأيام الشتوية

ألقى الشتاء كَلْكَله ، وأحلّ بنا أثقاله . مد الشتاء رِواقه ، وألقى أوراقه، وحلّ نِطَاقه . ضرب الشتاء بجِرَانه ، واستقل بأركانه ، وأناخ بنوازله ، وأرْسَى بكلا كله ، وكلح بوجهه ، وكشّر عن أنيابه . قد عادت [هامات] الجبال شِيباً ، ولبست من الثلج بُرداً قَشِيباً . شابت مفارق البروج ، لتراكم الثلوج ، ألمّ الشيب بها وابيضّت لممها[3] . قد صار البردُ حجابا ، والثلج حجازاً . بَرْدٌ يغير الألوان ، وينشف الأبدان . برد يُقَضْقِض الأعضاء ، وينفض الأحشاء . برد يُجْمِد الريقَ فى الأشداق ، والدمعَ فى الآماق . بَرْدٌ حال بين الكلب وهَريره ،

(١) فى نسخة « تعطلت قلائد النحور » (م)
(٢) فى نسخة « ياحسنه فى زمن الحدور » تحريف (م)
(٣) فى نسخة « ألم الشتاء بهامات ابيضت لممها » (م)

والأسْدوزنيره ، والطير وصَفيره ، والماء وخريره . نحن بين لثق، ورثق ، وزلق[١] يوم كأنّ الأرضَ شابَتْ لهَوْله . يوم فضّى الجلباب ، مِسْكيّ النقاب ، عبوس قَمْطَرير ، كشّر عن ناب الزمهرير ، وفرش الأرض بالقوارير . يوم أخذت الشّمال زِمامه ، وكسا الصِّر[٢] ثيابه . يوم كأن الدنيا فيه كافورة ، والسماء بلّورة . يوم أرضه كالقوارير اللامعة ، وهواؤه كالزنابيز اللاسعة . يوم أرضُه كالزجاج ، وسماؤه كأطراف الزِّجاج[٣] . يوم يعمل فيه الخفيف إذا هجم ، ويخف الثقيل إذا هجَر ، نحن فيه بين أطباق البَرْد فما نستغيث إلا بحرِّ الراح، وسَوْرَة الأقداح. ليس للبرد كالبُرْدُ ، والخمْر ، والجَمْر . إذا كلِب الشتاء ، فترياق سمومه الصِّلاء، ودَرَقُ سيوفه الطِّلاء[٤] .

نقيض ذلك من كلامهم فى وصف القيظ وشدة الحر

قوِى سلطان الحرّ ، وبُسِطَ بساطُ الجَمْر . حَرُّ الصيف ، كحدِّ السيف . أوقدت الشمسُ نارَها ، وأذكت أُوارها . حرٌّ يلفح حُرَّ الوجه . حَرٌّ يشبه قَلْبَ الصبِّ ، ويُذيب دماغ الضَّبِّ . هاجرة كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نارُ الفراق . هاجرة تحكى نارَ الهَجْر ، وتذيب قَلْبَ الصخر . كأن البسيطة من وَقدة الحر ، بساط من الجمر . حَرٌّ تهرب له الحِرْباء من الشمس ، قد صهَرَت الهاجرةُ الأبدان ، وركبت الجنادبُ العيدان. حر يُنْضِج الجلود، ويُذيب الجلمود أيام كأيام الفُرْقة امتدادا ، وحرٌّ كحر الوَجد اشتدادا . حرٌّ لا يطيبُ معه عيش، ولا ينفع معه ثلج ولا خيش . حمارّة القيظِ ، تغلى كدم ذى الغيظ. آبَ آبٌ يجيش[٥] مِرْجَله ، ويَثُور قَسْطَله . هاجرة كقلب المهجور ، أو التنور المَسْجور . هاجرة كالجحيم الجاحم ، تجر أذيالَ السمائم .

(١) اللثق : ركود الريح وكثرة الندى (م)
(٢) الصر — بكسر الصاد — شدة البرد (م) (٣) الزجاج — بكسر الزاى — جمع زج (م)
(٤) كلب الشتاء : اشتد وقسا ، والترياق : دواء السموم ، والصلاء : الدفء بالنار ، والطلاء : الخمر (م) (٥) آب : رجع ، وآب : اسم شهر من شهور الصيف، وفى نسخه « آب آب بجيش مرجلة وتنور قسطله » تحريف (م)

[العجلة أمُّ الندامة]

قال بعض الحكماء : إياك والعجَلة فإنَّ العرب كانت تَكْنِيها امَّ الندامة ؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، ويعزم قبل أنْ يفكِّر ، ويقطع قبل أن يُقدِّر ، ويَحْمَدُ قبل أن يجرّب، ويذمّ قبل أن يَخْبُر ، ولن يصحب هذه الصفَةَ أحدٌ إلاَّ صحب الندامة ، واعتزل السلامة.

[تأميل ورجاء]

ولما وَلّى المهتدى[1] سليمانَ بن وهب وزارته قام إليه رجلٌ من ذوى حُرْمته ، فقال : أعزَّ اللهُ الوزير ؛ أنا خادمك المؤمِّل لدولتك ، السعيدُ بأيامك ، المنطوى القلب على وُدّك ، المنشورُ اللسان بمدحك ، المرتهن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وفيت كل صديق ودَّنى ثمناً ... إلا المؤمل دولاتى وأيّامى

فإننى ضامنٌ ألاَّ أكافئَهُ ... إلا بتسويغه فَضْلِى وإنعامى

وإنى لكما قال القيسى : ما زلتُ أمْتَطِى النهارَ إليك ، وأستدلُّ بفضلك عليك ، حتى إذا جنَّنى الليلُ فغضَّ البصرَ ، ومحا الأثر ، أقام بدنى ، وسافر أملى ، والاجتهاد عُذْر ، فإذا بلغتك فَقَدِ[2]. قال سليمان : لا عليك؛ فإنى عارفٌ بوسيلتك، محتاج إلى كفايتك واصطناعك ، ولست أؤخر عن يومى هذا توليتك ما يَحْسُنُ عليك أثره ، ويطيب لك خَبَرهُ ، إن شاء الله .

وكتب محمد بن عباد إلى أبى الفضل جعفر بن محمود الإسكافى وزير المعتز بالله وكان المعتز يختصّ به ، ويتقرّب إليه قبل الوزارة : مازلت — أيدك الله تعالى — أذم الدهر بذمّك إياه ، وأنتظر لنفسي ولك عُقْباه ، وأتمنى زوال حال من لا ذَنْبَ له

(١) فى نسخة « لما ولى المهدى محمد بن الواثق بن المعتصم سليمان بن وهب » (م)

(٢) فقد : فكفانى ذلك (م)

إلا عاقبة محمودة تكون لك بزوال حاله ، وأترك الإعذار[١] فى الطلب على الاختلال الشديد ؛ ضناً بالمعروف عندى إلاّ عن أهله ، وحَبْساً لشِعْرى إلا عن مستحقه .

فوقّع فى كتابه : لم أؤخر ذكرك ناسياً لحقِّكَ ، ولا مُهملاً لواجبك ، ولا مرجياً[٢] لمُهِمٍّ أمْرِك ، ولكنى ترقَّبت اتساعَ الحال ، وانفساحَ الآمال ؛ لأخصَّك بأسْناها خَطَرا ، و بأجلِّها قَدْرا ، وأعْوَدها بنَفْعٍ عليك ، وأوفرها رِزْقاً لك ، وأقربها مسافةً منك ؛ فإذا كنتَ ممن يَحْفِزه الإعجال ، ولا يتّسِع له الإمهال ، فسأختار لك خيرَ ما يشير إليه الوقت ، وأنعم النظر فيه ، وأجعله أول ما أمضيه ، إن شاء الله .

ولما ولى سليمان بن وهب الوزارة كتب إليه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

أبى دهرُنا إسعافَنا فى نفوسنا　　　وأسْعَفَنا فيمن نحبُّ ونكرمُ

فقلت له : نُعْماك فيهم أتِمّها　　　ودَعْ أمرَنا ؛ إن المهمَّ المقدَّمُ

فعجب من لطيف شكواه فى تهنئته ، وقضى حوائجَه .

[ووقّع عبيدالله فى كتاب رجل اعتدّ عنده بأثر جميل : وقفت على ما ذكرته من شكايتك ، فوقع ذلك عندنا الموقع الذى أرَدْته ، وصدَر جوابنا إليك بماشكرته ، ولم تَعْدُ ظننا ، وما قدرنا فيك ، ثم اعتدت الاعتداد حتى كأنك لم تكاتبنا ؛ فلا تفسدنّ تالد إحسانك بطارف امتنانك ، واقتصر من وصف سالفك على ذكر مستأنفك] .

[من حسن التقسيم]

ووقّع عبيد الله فى أمر رجل خرج عن الطاعة : أنا قادرٌ على إخراج هذه النعرة[٣] من رأْسه ، والوحرة من نفسه[٤] .

---

(١) فى نسخة « وأترك الاعتذار » (م) (٢) مرجيا : مؤخرا ، وأصله الهمز (م)
(٣) النعرة ــ كهمزة ــ الخيلاء والتعاظم ، والوحرة : الحقد (م)
(٤) فى نسخة « والوحرة من صدره ، والنعرة من نفسه » (م)

ونحوُ هذا التقسيم قولُ قتيبة بن مسلم بخراسان : من كان فى يده شىء من مال عبد الله فلينبذه ، أو فى فه فَلْيَلْفِظْه ، أو فى صدره فلينفثه .

وقال عبد الله بن على ، بعد قتله مَنْ قتل من بنى أمية ، لإسماعيل بن عمرو : أساءك ما فعلتُ بأصحابك ؟ قال : كانوا يداً فقطعتها ، [وعضداً ففتتها ، ومرة فنقضتها] ، ورُكْناً فهدَمته ، [وجبلا فهضَتَهُ] ، وجناحاً فقصصته ، قال : إنى لخليق بأن أُلحقك بهم ، قال : إنى إذاً لسعيد .

وقال المنصورُ لجرير بن عبدالله : إنى لأُعِدّك لأمر كبير! قال : ياأمير المؤمنين قد أعدّ الله لك منى قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطةً بطاعتك ، وسيفاً مسلولا على أعدائك .

وكتب الحسن بن وهب إلى القاسم بن الحسن بن سهل يعزّيه : مَدّ الله فى عمرك موفوراً غير منتقَص ، وممنوحاً غير ممتحَن ، ومُعْطًى غير مُسْتَلَب .

ومن جيد التقسيم مع المطابقة قولُ بعض الكتاب : إنّ أهل النصح والرّأى لايساويهم أهلُ الأفنِ والغِشّ ، وليس مَنْ جمع إلى الكفاية الأمانَةَ كمن أضافَ إلى العَجْزِ الخيانة .

وقالت هند بنت النعمان بن المنذر لرجل دَعَتْ له وقد أولاها يداً : شكَرتكَ يدٌ نالتها خَصاصة بعد ثروة ، وأغناك الله عن يد نالتها ثروة بعد فاقة .

ومن بديع التقسيم فى هذا النوع قولُ البحترى :

كأنك السيف حدّاهُ ورَوْنَقهُ والغيث وَابِلُه الدّانِى ورَيّقهُ
هل المكارم إلا ما تُجمّعُهُ أو المواهب إلا ما تفرّقهُ

وقال الحسنُ بن سهل يوماً للمأمون: الحمد لله يا أمير المؤمنين على جزيل ما آتاك؛

---

(١) فى نسخة « كانوا يدا فقطعتها ، وعقدة فنقضتها ، وركنا فهدمته ، وجناحا فقصصته » (م)

وسَنِيٍّ ما أعطاك ؛ إذ قسم لك الخلافة ، ووهب لك معها الحجّة ، ومكّنك بالسلطان ، وحلّاه لك بالعَدْل ، وأيّدك بالظفَر ، وشفعه لك بالعفو ، وأوجب لك السعادة ، وقرَنَها بالسياسة ، فمن فُسِحَ له فى مثل عطيّةِ الله لك؟ أم مَنْ ألبسه الله تعالى من زينة المواهب ما ألبسك ؟ أم من ترادفَتْ نعَمُ الله تعالى عليه ترادُفَها عليك ؟ أم من حاولها وارتبطها بمثل محاولتك ؟ أم أى حاجة بقِيَتْ لرعيّتك لم يجدوها عندك ؟ أم أى قيِّم للاسلام انتهى إلى غايتك ودَرَجتك ؟ تعالى الله ! ما أعظم ما خَصّ القرنَ الذى أنت ناصره ! وسبحان الله ! أية نعمة طبَّقت الأرض بك إن أُدِّىَ شكرها إلى بارئها ، والمنعمِ على العباد بها ؟ إن الله تعالى خالق الشمس فى فلَكها ضياء يستنيرُ بها جميعُ الخلائق ؛ فكلُّ جوهر زَهَا حسنُه ونوره فهى ألبسته زينتَهُ لما اتصل به من نورها ؟ وكذلك كل وَلِيّ من أوليائك سَعِد بأفعاله فى دولتك ، وحَسُنَتْ صنائعه عند رعيّتك ، فإنما نالها بما أيَّدتَه من رأيك وتدبيرك ، وأسْعَدْتَه من حسنك وتقويمك .

[بين قينة وأربعة من عشاقها]

قال بعضُ الظرفاء : اجتمع لقَيْنَةٍ أربعةٌ من عشّاقها ، وكلُّهم يُوَرِّى عن صاحبه أمرَه ، ويُخْفِى عنه خبرَه ، ويُومىء[1] إليها بحاجبه ، ويناجيها بلَحْظِه ؛ وكان أحدُهم غائبا فقدم ، والآخر مقيما قد عزَم على الشخوص ، والثالث قد سلَفَت[2] أيامُه . والرابع مستأنفَةٌ مودّته ؛ فضحكَتْ إلى واحد ، وبَكَتْ إلى آخر ، وأقصت[3] آخر ، وأطمعَتْ آخر ؛ واقترح كل واحد منهم ما يشاكِلُ بثَّه وشأنه ؛ فأجابته ، فقال القادم : جُعِلت فِدَاكِ ، أتحسنين :

ومن يَنْأَ عن دار الهوى يُكْثِر البُكا ... وقَوْلَ لَعَلِّى أو عَسى سَيكونُ

---

(١) يومىء : يشير (م) (٢) سلفت : مضت (م) (٣) أقصت : أبعدت (م)

وما اخترتُ نَأْيَ الدار عنك لِسَلْوةٍ ولـكنْ مَقاديرٌ لهنّ شـــؤونُ

فقالت : أحْسِنُه ، ولا أُقيمُ لَحْنه ، ولـكن مُطارحه لتستغنى به عنه ، اقرْبه منه ، وأنا به أحْذَقُ ، ثم غنت :

وما زلت مُذ شطَّتْ بك الدارُ باكياً أؤمِّلُ منك العَطْفَ حين تؤوب

فأضعفْتَ ما بى حـين أبْتَ وزِدْتنى عذابا وإعراضـــا وأنتَ قَريبُ

وقال الظاعن : جُعلت فِدَاك ، أتحسنين :

أزفَ الفِراقُ فأَعْلِنى جزَعَا ودَعِى العتابَ فإننا سَـــفْرُ

إنّ المحبَّ يَصُـــدُّ مقتربا فإذا تباعد شَـفّه الذِّكْر

قالت : نعم ، وأحسن منه ومن إيقاعه ، ثم غنت :

لأقيمنَّ مأتمـا عن قريب ليس بعد الفراق غَيْرُ النَّحيبِ

ربما أوْجَع النّوى للقــــلوب ثم لاسيّما فراقُ الحبيـــــبِ[1]

ثم قال السالف : جعلت فداك ، أتحسنين :

كنّا نُعاتبكم ليـــالىَ عُودُكم حُلوُ المَذَاقِ وفيكمُ مستَعْتَبُ

فالآن حين بَدَا التنكُّر منكم ذهبَ العِتَابُ فليس عنكم مَذْهَبُ

قالت : لا ، ولـكن أحسن منه فى معناه ، ثم غنت :

وصلتك لما كان ودُّك خالصا وأعرضتُ لما صار نَهْبًا مُقسّما

ولن يلبثَ الحوضُ الجديدُ بناؤه إذا كثر الورّادُ أن يتهدّما

فقال المستأنف : أتحسنين ، جعلت فداك :

إنى لأعْظِمُ أن أبوح بحـاجتى وإذا قرَأْت صحيفتى فتفهّمى

وعليـــك عَهْدُ الله إن أبثثته أحـــــــداً ولا آذنته بتكلُّم[2]

---

(١) فى نسخه « ربما أوجع النوى القلب حزنا » وفى أخرى « ربما أوجع الهوى للقلوب » (م) (٢) فى نسخة « ولا أبديته بتكلم » (م)

فقالت : نعم ، ومن غناء صاحبه[1] ؛ ثم غنّت :

لعمرك ما استودَعْتُ سِرّى وسرَّهَا   سوانا ، حِذاراً أن تَذِيعَ السرائر
ولا خالَطَتْهــا مُقْلَتاىَ بنَظْرَةٍ   فتعلم نَجْوَانَا العيــونُ النواظرُ
ولـكن جعلت الوَهْمَ بينى و بينها   رســولا فأدّى ما تُجِنّ الضمائر
أُكاتم ما فى النفس خوفاً من الهوى   مخـافةَ أن يُغرى بذِكرك ذَاكِرُ

فتفرقوا وكلّهم قد أومأ بحاجته ، وأجابته بجوابه .

[بين ابن المعتز وقينة]

قال أبو العباس بن المعتز : كان لنا مجلس حظّ أرسلت بسببه خادمة إلى قينة فأجابت ، فلما مرّت فى الطريق وجدَت فيه حارسا فرجعت ، فأرسلتُ أُعاتبها فـكتبت إلى : لم أتخلّف عن المسير إلى سيدى فى عشيتى أمس لأرى وَجْهَهُ المبارك وأُجيب دعاءه ، إلا لعلة قد عرَفْتَها فلانة ، ثم خِفْتُ أن يسبقَ إلى قلبه الطاهر أنّى قد تخلّفتُ بغير عذر ؛ فأحبَبْتُ أن تقرأ عذرى بخطّى ، ووالله ما أقدر على الحركة ، ولا شىء أسرّ إلى من رؤيتك ، والجلوس بين يدَيْك ، وأنت يا مولاى جاهى وسَنَدى ، لا فَقَدْت قربك ، ولك رأيك فى بسط العُذر موفقاً .

وكتبت فى أسفل الـكتاب :

أليس من الحرمان حظٌّ سُلبتهُ   وأحْوَجَنِى فيه البلاءُ إلى العُذْرِ
فصبراً فما هـذا بأوّل حادثٍ   رَمَتْنِى به الأقدارُ من حيثُ لا أَدْرِى

فأجبتُها: كيف أردّ عُذر من لا تتسلّط التهمة عليه ، ولا تهتدى المَوْجِدةُ إليه ! وكيف أعلمه قبولَ المعاذير ، ولستُ آمَنُ بعضَ خواطره[2] أن تشير إلى انتهاز فرصة فيما دعا إلى الفرقة ؛ وإن سَلِمْتُ من ذلك فمن يُجيرنى من نوكله

(١) فى نسخة « أحسن من غناء صاحبه » (م)
(٢) فى نسخة « بعض جواهره إلى يسير إلى انتهاز فرصة فما عاد إلى الفرطة » تحريف (م)

علىٰ تقديم العُذْر ، ووقوعه مواقع التصديق فى كل وقت ، فتتّصل أيامُ الشغل والعِـلّة ، وتنقضى أيامُ الفراغ والصحة ، فتطولُ مدةُ الغيبة ، وتَدْرُس آثار المودّة ، وكتبْتُ فى آخر الرقعة :

إذا غِبْت لم تعرف مكانىَ لذةٌ ... ولم يلق نفسى لَهْوها وسُرُورها

وحدّثتُ سمعاً واهناً غير مُمْسِك ... لقولى ، وعيناً لا يرانى ضَمِيرُها

[بين ابن المعتز و بعض الوزراء]

وكتب إلى بعض الوزراء : ما زال الحاسدُ لنـا عليك أيها الوزير يَنْصِبُ الحبائلَ ، و يطلب الغوائل ،حتى انتهز فرصته ،وأبلغك تشنيعا زَخْرَفه[1]،وكذبا زَوَّره ، وكيف الاحتراس ممن يحضر وأَغِيبُ ، و يقول وأَمْسِكُ؟مرتصدا لا يَغْفل وماكِراً لا يَفتر؛ وربما استنصح الغاش ، وصدق الـكاذب ؛ والحظوة لا تُدْرَكُ بالحيلة ، ولا يجرى أكثرها على حسب السَّبَب والوسيلة .

فأجابه : حصول الثقة بك ــ أعزّك الله ! ــ تُغْنِى عن حضورك ، وصدق حالتك يحتجُّ عنك ، وما تقرَّر عندنا من نيّتك وطويّتك يُغْنِى عن اعتذارك .

[من شعر ابن المعتز]

وقد قال ابن المعتز :

أخْنَى عليك الدهـــر مقتدراً ... والدهـــرُ ألأم غالب ظَفرا

ما زالت تَلْقَى كلَّ حادثةٍ ... حتى حَنَاك وبيَّض الشَّعَرَا

فالآن هـــل لك فى مُقَاربةٍ ... فلقد بلغت الشَّيْب والـكِبَرَا

لله إخـــــوان فقدتهمُ ... سكنوا بطونَ الأرض والحُفَرا

أين السبيلُ إلى لقـــائهمُ ... أم من يحدِّث عنهـــمُ خَبرا

كم مـــورِق بالبِشْر مُبْتَسم ... لا أجْتَـــنِى من غُصْنِه ثَمرَا

---

(١) فى نسخة « وأبلغك شيئاً زخرفه » (م)

ما زال يُوليني خــــلائقهُ وصبرت أرقُبـــه وما صَبرا
وعـــدو غيبٍ طَالب لدمى لو يستطيعُ لجـــاوز القدَرا
يُورِى زنادى كى يُخادِعنى ويُطير فى أثـــوابىَ الشَّرَرا

وقال أيضا :

وإنى على إشفاق عينى من القذى لتجمح منى نَظْرَةٌ ثم أطْـرِقُ[1]
كما حُلِّئَتْ من بَرْدِ مَاء طَرِيدةٌ تمدّ إليـه جِيدها وَهْىَ تفرق[2]

وقال :

ومازلتُ مذ شدَّت يدى عقد مِئْزَرِى غناىَ لغيرى وافتقارى على نفسى
ودلَّ علىَّ الحمـــدَ مَجْدِى وعِفّتى كما دلّ إشراقُ الصَّباح على الشمس

وقال :

سَعَى إلى الدَّن بالمِبْزَالِ يَنْقُرُهُ ساقٍ توشَّحَ بالمنـديل حين وَثَبْ
لمـا وَجاهَا بَدَتْ صفراءَ صافيـةً كأنما قَدَّ سـيراً من أديمِ ذَهَبْ

وقال :

لبسَتْ صفـــرةً فـكم فَتَنتْ من أعْيُنٍ قد رأيتهـــا وعُقُول
مثل شَمْس الغروب تَسْحَبُ ذيلا صَبَغَتْهُ بزَعْفَرَانِ الأصـــيل

والشمس عند طلوعها ، وعند غروبها ، تمـكّنُ الناظر إليها فيمكن التشبيه بها ؛ قال قيس بن الخطيم :

فرأيت مثل الشمس عنـد طلوعها فى الحسن أو كدنوِّها لغـروب

---

(١) فى نسخة « لتسنح منى نظرة ثم أطرف » (م)

(٢) وفيها « حلئت عن برد ماء ... وهى تعزف » وحلئت: منعت وطردت(م)

[جرير فى المدينة يُغْرِى بشعر قيس بن الخطيم]

ولما قدم جرير بن الخَطَفَى المدينةَ اجتمع إليه أهلُها ، وقالوا : يا أبا حَزْرَة ! أنشدنا من شعرك ، قال : ما تصنعون به ؟ وفيكم من يقول :

أنَّى سربت وكنت غير سروب ... وتقرِّبُ الاحلامُ غيرَ قريبِ

ما تمنعى يقظَى فقد نوّلته ... فى النوم غير مُصَرّد محسوب[1]

كان المنى يُلقِى بها فلقيتُها ... فلَهَوْت عن لَهْوِ امرىء مكذوب[2]

فرأيتُ مثل الشمس عند طلوعها ... فى الحُسْنِ أو كدُنوّها لغروب

تخطو على بَرْدِيَّتَيْنِ غَذَاهُمَا ... غَدِقٌ بِسَاحَةِ حائر يَعْبُوب[3]

[يعقوب بن داود]

وقّع يزيد بن خالد الكوفى رقعة إلى يعقوب بن داود ضمنها :

قل لابن داود والأنباء سائرةٌ: ... لا يُحْرِزُ الأجْرَ إلاّ مَنْ له عَمَلُ

يا ذا الذى لمْ تزل يُمْنَاه مُذْ خُلِقَتْ ... فيها لباغى نَدَاه العَلُّ والنهَلُ

إن كنت مسدىَ معروفٍ إلى رجلٍ ... لفضل شكرٍ فإنى ذلك الرجلُ

فامْنُنْ علىّ ببرٍّ منك يَنْعَشُنى ... فإننى شاكرُ المعروف محتملُ

قال يعقوب : قد جرَّبنا شكرك فوجدناه قد سبق برّنا ، وقد أمرتُ لك بعشرة آلاف درهم [تصلح حالك] ، وليست آخر ما عندنا لك ، فاستوفاها حتى مات .

---

(١) مصرد ـ بزنة المعظام ـ المقطع . وفى نسخة « مسرد » تحريف (م)

(٢) فى نسخة « بمن لهو ـ أرى ـ مكذوب » وما أثبتناه يوافق الأمالى ٢/٢٧٢ وحماسة ابن الشجرى ١٨٩ (م)

(٣) وقع هذا البيت فى نسخة ، على هذا الوجه :

تخطو على برد يبين خطاها ... عذق مخافة خابر لغيوب

وهذا البيت ليس فى الأمالى ولا فى حماسة ابن الشجرى، وهو فى ديوان قيس ص ٦ سادس أبيات قطعة عدتها ثلاثة عشر بيتا (م)

ولما سخط المهدىّ على يعقوب أحضره ، فقال : يا يعقوب ! قال : لبَّيْك يا أمير المؤمنين تلبية مكروبٍ لِمَوْجِدَتك ، شَرِق بغُصَّتك ، قال: ألم أرفع قَدْرَك وأنتَ خامل ، وأسيِّر ذكرك وأنت هامل ، وألبِسْكَ من نِعَم ِ الله تعالى ونِعَمِى مالم أجدْ عندك طاقةً لحمله ، ولا قياماً بشكرِه ؟ فكيف رأيت الله تعالى أظهر عليك ، وردَّ كَيْدَك إليك ؟

قال : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن كنت قلت هذا بتيقّن وعلم فإنى معترف ، و إن كان بسعاية الباغين ، ونمائم المعاندين ، فأنت أعلم بأكثرها ؛ وأنا عائذ بكرمك ، وعميم شرفك .

فقال : لولا الحنث[1] فى دَمك لألبستك قميصاً لا تَشدعليه زرًّا[2]؛ ثم أمر به إلى الحبس ، فتولّى وهو يقول : الوفاء يا أمير المؤمنين كَرَم ، والمودة رَحِم ، وما على العفو نَدَم . وأنت بالعفو جَدير ، و بالمحاسن خَلِيق . فأقام فى السجن إلى أن أخرجه الرشيد .

* * *

أخذ معنى قول المهدى : « لألبسنك قميصا لا تشدّ عليه زرا » أبو تمام فقال :

طوّقته بالحسام طَوْق ردًى أغناه عن مَسّ طَوْقِه بيدِهْ

وقال ابن عمر فى معنى قول الطائى :

طوّقته بحسام طَوْقَ داهيةٍ لا يستطيعُ عليه شَدَّ أزرارِ

* * *

(١) فى نسخة « لولا الحسب فى دمك » (م)

(٢) فى نسخة « لا تشد عليه أزرارا » (م)

ولما قبض المهدى على يعقوب ورأى أبو الحسن النميرى مَيْلَ الناس عليه ، وكان مختلطاً به قال :

يعقوبُ لا تبْعَد وجُنِّبْتَ الردى　　فلأبكينَّ كما بكى الغُصْنُ النَّدَى(١)

لو أنَّ خـيرك كان شرًّا كلهُ　　عند الذين عدَوْا عليك لما عدَا

أخذ هذا المعنى بعض المحدثين [فى الغزل] فقال :

لو أن هجرك كان وَصْـلا كلهُ　　مما أقاسى منك كان قليـــــلا

[بين أحمد بن أبى دواد والواثق]

قال أبو العيناء : قال لى أحمد بن أبى دُوَاد : دخلت على الواثق فقال لى : ما زال اليوم قومٌ فى ثَلْبك ونَقْصك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم ، والله وليُّ جزائه ؛ وعقابُ أمير المؤمنين من ورائه ، وما ذَلَّ — يا أمير المؤمنين — منْ كنت نَاصِره ، وما ضاق مَنْ كنتَ جاراً له ، فما قلت لهم يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبد الله :

وسعى إلىّ بصرم عَـزَّة مَعْشَرٌ　　جعـــل الإلهُ خُدودَهنَّ نِعَالَهَا(٢)

قال الفتح بن خاقان : ما رأيت أظـرف من ابن أبى دواد ؛ كنت يوما ألاعب المتوكل بالنَّرْد ، فاستُؤْذن له عليه ، فلما قَرُب منا هممت برفعها ، فمنعنى المتوكل وقال : أجاهرُ اللهَ وأستُره من عباده ؟ فقال له المتوكل : لما دخَلْتَ أراد الفتح أن يرفع النَّرْد ! قال : خاف يا أمير المؤمنين أن أعـلم عليه ! فاستحليناه ، وقد كنا تجهّمناه .

(١) فى نسخة « فلأبكينك ما بكى الغصن الندى » (م)

(٢) فى نسخة « وسعى إلى بعيب عزة معشر » (م)

[من خطباء العرب شبيب بن شيبة وخالد بن صفوان]

قِيل لبعض الأمراء : إن شبيب بن شيبة[1] يتعمَّل الكلام ويستدعيه ، فلو أمرته أن يصعدَ المنبر فجأة لافتضح ؛ فأمر رسولا فأخذ بيده فصعد به المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلّى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : إنّ لأمير المؤمنين أشباها أربعة : الأسد الخَادِر ، والبحر الزاخر ، والقمر الباهر ، والربيع الناضر ، فأما الأسد الخادر فأشبه صولته ومَضَاءه ، وأما البحرُ الزاخر فأشبهَ جودَه وعطاءه ، وأما القمرُ الباهر فأشبه نورَه وضياءه ، وأما الربيعُ الناضرُ فأشبه حُسْنَه وبهاءه ، ثم نزل .

وهذا الكلام يُنْسَبُ إلى ابن عباس يقوله في علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

وكان شبيب بن شيبة من أفصح الناس وأخطبهم ، ويشبَّه بخالد بن صفوان ؛ غير أن خالداً كان أعلى منه قدراً في الخاصة والعامة . وذكر خالد شبيباً فقال : ليس له صديقٌ في السرِّ ولا عدوّ في العلانية . وكانت بينهما معارضة[2] للنسب والجوار والصناعة، ولما قال الشاعر :

فَنحِّ شبيباً عن قراع كتيبةٍ وأدْنِ شبيباً من كلام مُلَفَّقِ

وكان لا ينظر إليه أحد وهو يخطب إلا تبين فيه الخجل .

وقال أبو تمام لعلي بن الجهم :

لو كنتُ يوماً بالنجوم مُصَدِّقاً لزعمتُ أنَّك نلتَ شكلَ عُطَارِدِ

أو قدَّمَتْكَ السِّنُّ خِلتُ بأنّه من لَفْظِك اشتقّتْ بلاغَةُ خَالِد

وقالت له امرأة : إنكَ لَجميل يا أبا صفوان . قال : كيف تقولين هذا وما فيَّ عمودُ الجمال ولا رِدَاؤه ، ولا بُرْنُسه . عمودُه الطول ، ولست بطويل ، ورِدَاؤه

(١) تختلف الأصول في هذا الاسم ؛ فبعضها يقع فيه « شبيب بن شبة » بباء موحدة مشددة بعد الشين ، وبعضها يقع فيه « شبيب بن شيبة » بياء مثناة تحتية ساكنة ثم باء موحدة مفتوحة ، ويتعمل الكلام : يتكلفه (م) (٢) في نسخة « مفاوضة » (م)

البياض ، ولست بأبيض ، و بُرْنسه سواد الشَّعَرِ ، وأنا أشمط ! ولكن قولى : إنك لمليح .

وكان خالد حافظاً لأخبار الإسلام ، وأيام الفتن ، وأحاديث الخلفاء ، ونوادر الرواة ، وكل ماتصرف فيه أهل الأدب ، وله يقول مكى بن سوادة :

علیم بتنزيل الكتاب ملقَّنٌ ذَكُورٌ لما سدَّاهُ أولَ أولا

يَبُذّ قَرِيعَ القوم فى كل مَحْفِل ولو كان سحبانَ الخطيبُ ودَغفلا

ترى خُطَبَاء الناس يومَ ارتجاله كأنهمُ الكروانُ صادف أجْدَلاَ(١)

أما سَحْبَان الذى ذكره فهو خطيبُ العربِ بأسْرِها غير منازع ولا مدافع ، وكان إذا خطب لم يُعِدْ حرفاً ، ولم يتوقّف ، ولم يتحبَّسْ ، ولم يفكر فى استنباط ، وكان يسيل غَرْباً ، كأنه آذِىُّ بَحْرٍ(٢) .

ويقال : إنّ معاوية قدم عليه وفد من خراسان وجّههم سعيد بن عثمان ، وطلب سَحْبان فلم يوجد عامّة النهار ، ثم اقْتُضِبَ من ناحية كان فيها اقتضاباً ، فدخل عليه فقال : تكلَّم ، فقال : انظروا لى عصاً تُقِيم من أودى ، فقال له معاوية : ما تصنعُ بها ؟ فقال : ما كان يَصْنَع موسى عليه الصلاة والسلام وهو يخاطبُ ربَّه وعصاه بيده ، فجاءوه بعصا فلم يَرْضَها . فقال : جيئونىَ بعصاى ، فأخذها ، ثم قام فتكلم منذ صلاة الظهر إلى [أن فاتت] صلاةُ العصر ، ماتَنَحْنَحَ ، ولا سَعَلَ ، ولا توقّف ، ولا تحبّس ، ولا ابتدأ فى معنى فخرج منه إلى غيره حتى أتمّه ولم يبق منه شىء ، ولا سأل عن أى جنس من الكلام يخطب فيه ، فما زالت تلك حالَه وكلّ عين فى السماطين شاخصةٌ إلى أن أشار له معاويةُ بيده أن اسكُت ، فأشار سَحبان بيده أن دَعْنى لا تَقْطَعْ علىّ كلامى ، فقال له معاوية: [الصلاة . فقال : هى أمامك ونحن فى صلاة يتبعها تحميد وتمجيد ، وعظة وتنبيه

(١) الأجدل : الصقر ، وهو من كواسر الطير (م)

(٢) الآذى : الموج (م)

وتذكير ووعد ووعيد ، فقال معاوية :] إنك أخطبُ العرب ، فقــال سحبان : والعجم ، والجنّ ، والإنس .

[عجلان بن سحبان]

وكان ابنه عجلان حُلْوَ اللسان ، جيِّدَ الكلام ، مليح الإشارة ، يجمعُ مع خطابته شعراً جيداً ، ويضرب الأمثال إذا خطب ، وينتزع النادرَ من الشعر ، والسائرَ من المثل ، فتَحْلُو خُطْبته ، وكان يَزِنُ كلامَه وَزْنا .

[دغفل بن حنظلة النسابة]

وأما دَغْفَل الذى ذكره مكى بن سَوادة فهو دَغْفَل بن حَنْظلة بن يزيد أحد بنى ذهل بن ثعلبة النسّابة ، وكان أعلمَ الناس بأنساب العرب ، والآباء والأمهات، وأحفظهم لمثَالبها ، وأشدّهم تنقيراً وَبَحْثاً عن معايب العرب ، ومثالب النسب .

قال له معاوية يوماً : والله لئن قلت فى هذا البيت[1] من قريش ما تجد فى آل حَرْبٍ مقالا ؛ فتبسّم دَغفل؛ فقال له معاوية : والله لتخبرنّى بتبسمك، وما انضمَّتْ عليه جوانحُك ، أو لأضربنّ عنقك ، وما آمَنُ أن تَـكْذب أو تزيد .

فقال : يا أمير المؤمنين، أنتم من بنى عبد مناف كسَنَام كَوْماء فتيَّة[2]،ذاتِ مرعًى خصيب ، وماء عَذْب ، وأَكَمةٍ بارزة ، فهل يوجد فى سَنام هذه مَدَبّ قُرَاد من عاهة ؟ فقال له معاوية : أَوْلى لك ! لو قلتَ غير هـذا ؛ أما على ذلك لو رأيت هنداً وأباها ، وزوجها ، وأخاها، وعمّها ، وخالها ، لرأيت رجالا تَحَارُ أبصارُ مَنْ رآهم فيهم ، فلا تجاوزهم إلى غيرهم ، جلالةً وبهاء .

[وصف العصا لأعرابى بين يدى الحجاج]

وعلى ذكر العصا لقى الحجّاج أعرابيا فقال : من أين أقبلت ؟ قال : من

(١) فى نسخة « فى هذا النسب من قريش » (م)

(٢) الـكوماء: الناقة العظيمة السنام (م)

البادية . قال : مابيدك ؟ قال : عصا أركزُها لصَلاَتِى ، وأُعِدُّها لِعُدَاتِى ، وأسوقُ بها دابّتى، وأقْوَى بها على سَفرى، وأعْتَمِدُ بها فى مشيتى ، لِيَتَّسِعَ بها خَطْوِى، وأعْبُرُ بها[1] النهر فتؤمننى ؛ وأُلقى عليها كسائى فتسترنى من الحرّ، وتقينى من القُرّ ، وتُدْنِى ما بعد منى ، وهى تحمل سُفرتى ، وعَلاَقة إدَاوَتى ، ومِشجَب ثيابى ، أعتمدُ بها عند الضِّراب ، وأقْرَع بها الأبواب ، وأتّقِى بها عَقُور الكِلاَب ، تنوبُ عن الرُّمح فى الطّعان ، وعن الحِرْز[2] عند منازلة الأقْرَان ، ورِثْتُها عن أبى ، وأورثُهَا بعدى ابنى ، وأهُشُّ بها على غنَمِى ، ولى فيها مآرِب أخرى ، كثيرة لا تُحْصَى .

[عِـــزّة الخليل بن أحمد]

قال النضر بن شميل : كتب سليمان بن على إلى الخليـل بن أحمد يستدعيه الخروج إليه ، و بعث إليه بمال كثير ، فردّه وكتب إليه :

أبلغْ سليمانَ أنى عنـه فى سَعَةٍ وفى غنًى غـيرَ أنى لَسْتُ ذا مَالِ
يسخُو بنفسىَ أنى لا أرى أحداً يموت هُزلا ولا يَبْقَى على حَال
والفَقْرُ فى النفس لا فى المال نَعرِفهُ ومِثْلُ ذاك الغنى فى النفس لا المالِ
والمالُ يَغشَى أناساً لا خَلاَقَ لهم كالسَّيْلِ يَغشَى أصول الدّندِنِ البالى[3]
كلُّ امرىء بسبيلِ الموت مرتَهَنٌ فاعمَلْ لنفسك ، إنى شاغلٌ بالى

أخذ هذا الطائى فقال :

لا تُنْكِرى عطلَ الكريم من الغِنَى فالسيلُ حربٌ للمكانِ العالى

وقال أيضاً يصف قوماً خُصوا بابن أبى دواد :

نزلوا مركز النَّدَى وذَرَاهُ وَعَدَتْنَا من دون ذاك العَوَادِى

---

(١) فى نسخة « وأبث بها النهر » ولا وجه له (م)

(٢) فى نسخة « وعن الحرب » (م)

(٣) الدندن ــ بكسر الدالين ــ كل ما اسود من نبات أو شجر (م)

غـــير أن الرُّبا إلى سُبُل الأنـــواء أَدْنَى ، والحظُّ حظ الوِهَادِ[١]

وهذا الشعر من أصلح شعر الخليل ، وكان شعره قليلا ضعيفاً ، بالإضافة إليه وهو أستاذ النحو والغريب ، وقد اخترع علم العروض من غير مثال تقدمه ، وعنه أخذ سيبويه ، وسعيد بن مسعدة ، وأئمة البصريين ، وكان أوسع الناس فِطْنَةً ، وألطفهم ذهنا . قال الطائى :

فلو نُشِر الخليل إذاً لعفَّت رَزاياه على فِطَنِ الخليلِ

للصابى يعزى عن طفل

[من رسائل الصابى]

وكتب أبو إسحاق الصابى إلى محمد بن عباس يعزيه عن طفل :

الدنيا ، أطال الله بقاء الرئيس ، أقدارٌ تَرِدُ فى أوقاتها ، وقضايا تجْرِى إلى غاياتها ، ولا يُرَدُّ منها شىء عن مَدَاه ، ولا يصدُّ عن مطلبه ومَنْحَاه ؛ فهى كالسهام التى تثبت فى الأغراض ، ولا ترجعُ بالاعتراض ؛ ومن عرف ذلك معرفةَ الرئيس لم يغضَّ من الزيادة ، ولم يَقْنَط من النقيصة[٢] ، وأَمِنَ أن يستخفَّ أحدُ الطرفين حلمه ، ويستنزل أحدُ الأمرين حَزْمَه ، ولم يَدَعْ أن يوطِّن نفسه على النازلة قبلَ نزولها ، ويأخذ الأُهْبَة للحادثة قبل حلولها ، وأن يجاور الخيرَ بالشكر ، ويساورَ المِحْنَة بالصبر ؛ فيتخيّر فائدةَ الأولى عاجلا ، ويستمرئ عائدةَ الأخرى آجلا .

وقد نفذَ من قضاء الله تعالى فى المولى الجليل قَدْراً ، الحديث سنًّا ، ما أَرْمَض ، وأَوْمَض ، وأَقْلَق وأقضّ ؛ ومسنى من التألم له ما يحقُّ على مثلى ممن توافَتْ أيادى الرئيس إليه ، ووجبت مشاركتُه فى الملمّ عليه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون وعندَ الله نحتسبه غُصْنًا ذَوى ، وشهاباً خَبَا ، وفرعا دَلّ على أصله ، وخَطِّيا أَنبته

(١) الأنواء : الأمطار ، واحدها نوء ، وفى نسخة «والحظ عند الوهاد»(م)

(٢) فى نسخة « ولم يقنط عند المصيبة ولم يجزع عند النقيصة » (م)

وَشِيجُه ؛ و إياه أسألُ أن يجعلَه للرئيس فَرَطا صالحا ، وذُخْراً عتيدا ، وأن ينفعه يوم الدين ، حيث لا ينفعُ إلا مثلُه بين البنين ، بجوده ومَجْدِه .

ولئن كان المصابُ عظيما ، والحادثُ فيه جسيما ، لقد أحسن اللهُ إليه ، و إلى الرئيس فيه ؛ أمّا إليه فإن الله نزّهه بالاخترام[١] ، عن اقترافِ الآثام ، وصانه بالاحتضار ، عن ملابسة الأوزار ، فورد دنياه رشيدا ، وصدَر عنها سعيداً ، نقى الصحيفة من سوادِ الذنوب ، برئ الساحة من دَرَن العيوب ، لم تدنّسه الجرائرُ ، ولم تعلَقْ به الصغائر والكبائر ، قد رفع اللهُ عنه دقيقَ الحساب ، وأسهم له الثواب مع أهلِ الصواب ، وألحقه بالصدّيقين الفاضلين فى المَعاد ، وبوّأه حيث أفضلهم من غير سَعْيٍ ولا اجتهاد .

وأما الرئيس فإن الله عز وجل لما اختار ذلك له قبضَه قبل رؤيته إياه على الحالة[٢] التى تكون معها الرقة ، ومعاينته التى تتضاعفُ معها الحُرْقة ، وحَماه من فِتْنَه المرافقة ، ليرفَعَه عن جزع المفارقة ، [وكان هو المبقّى] فى دنياه ، وهو الواحدُ الماضى الذخيرة لأخراه ، وقد قيل : إن تسلم الجلّةُ فالسّخل هدر[٣] ؛ وعزيز علىّ أن أقول قولَ المهوّن للأمر من بعده ، وألاّ أوفى التوجّع عليه واجبَ فَقْدِه ، فهو له سُلاَلة ، ومنه بَضعة ، ولكن ذلك طريقُ التسلية ، وسبيلُ التعزية ، والمنهَجُ المسلوك فى مخاطبة مثله ، ممن يقبل منفعة الذكرى و إن أغناه الاستبصار ، ولا يأبى ورودَ الموعظة و إن كفَاه الاعتبار ، والله تعالى يقى الرئيسَ المصائب ، و يعيذُه من النوائب ، و يرعاه بعينه التى لاتنامُ ، و يجعله فى حِمَاهُ الذى لا يُرام ، ويُبْقيه موفورا غير منتقَص ، و يقدّمنا إلى السوء أمامه ، و إلى المحذور قدّامه ، و يبدأ بى من بينهم فى هذه الدعوة ، إذْ كنت أراها من أسعد أحوالى ، وأعُدُّها من أبلغ أمانىّ وآمالى .

---

(١) الاخترام : الموت (م)

(٢) فى نسخة « على الحالة التى تصعب معها الفرقة ، وتتضاعف عندها الحرقة » (م)

(٣) الجلة ـ بكسر الجيم ـ المسان من الإبل ، والسخل ـ بفتح فسكون ـ ولد الشاة ، واحدة سخلة (م)

من الصابى إلى بعض الرؤساء

وكتب إلى بعض الرؤساء :

قد جَرَتِ العادةُ — أطال الله بقاء الأمير! — بالتمهيد للحاجة قبل موردها، وإسلاف الظنون الداعية إلى نجاحها ، وسالكُ هذه السبيل يسىء الظن بالمسئول ؛ فهو لا يلتمسُ فضلَه إلاَّ جزاء ، ولا يستدعى طَوْله إلاَّ قضاء ؛ والأميرُ بكرمه الغريب ، ومذهبه البديع ، يؤثر أن يكون السلفُ له ، والابتداء منه ، ويوجب للمهاجم برغبته عليه حقَّ الثقة به منه ، والحمــدُ لله الذى أفرده بالطرائق الشريفة ، وتوحّده[1] بالخلائق المنيفة ، وجعله عينَ زمانه البصيرة ، ولمْعته الثاقبة المنيرة[2] .

[من رسائل البديع]

كتاب منه إلى بعض أصحابه

وكتب البديع فى بابه إلى بعض أصحابه :

لك أعزَّك الله عادةُ فضل ، فى كل فصل ، ولنا شِنْبةُ مَقْت ، فى كل وقت ؛ ولعمرى إن ذا الحاجة مَقِيتُ الطَّلْعَة ، ثقيل الوطأة،ولـكنْ ليسوا سواء [؛أولو[3] حاجة تحتاج إليهم الأموال ، وأولو حاجة تحوجهم الآمال .

والأمير أبو تمام عبدُ السلام بن الفضل[4] المطيعُ لله أمير المؤمنين ـأيده اللهـ إن أحوجه الزمانُ فطالما خَدَمه ، وإن أهانه فـكثيراً ما أكرمه ونعمه . وقديماً أقلّه السرير ، وعرَفه الخَوَرْنَقُ والسدير . وإن نقصه المال فالعِرْضُ وافر ، وإن جفاه الملك فالفَضْلُ ظاهر ، وإن ابتلاه الله فلِيَبْتَليـكم به فينظر كيف تفعلون . وأنت تقابلُ مورده عليك من الإعظام،بما يستحقّ من الإكرام ، فلا تنظرن إلى ثوبٍ بال، فَتَحْتَهُ شرفٌ عال ، ولا تقس على البُرْدِ، ما وراءه من المجد، ولـكن إن نظرت ففى شامخ أصلِه ، وراسخ عقله ، وشهادة الفراسة له . ثم ليأت بعد هذه الآيات ما هو قضيةُ المروءة معه ، والأخوة معى ، بالِغاً فى ذلك غاية جهده ، والسَّيْفُ لا يرى فى غِمْده ، والحمد لله حق حَمْده .

(١) فى نسخة «ووحده» وهما بمعنى أفرده (م) (٢) فى نسخة «الباقية المنيرة» (م)

(٣) من هنا إلى العنوان الذى وضعناه فى ص ٩١٩ ساقط من جميع المطبوعات (م)

(٤) فى الرسائل (ص ١٦٠) «بن جعفر» (م)

كتاب منه إلى إبراهيم بن أحمد بن حمزة

وله إلى أبى إسحاق إبراهيم بن أحمد بن حمزة :

لو كانت الدنيا — أطال الله بقاء الشيخ ! — على مرادى تجرى ، لاخترت أن أضرب بهذه الحضرة أطناب عمرى ، وأنفق على هذه الخدمة أيام دهرى ، ولكن فى أولاد الزنا كثرة . ولعين الزمان نظرة ، وقد كنتُ حَظِيتُ من خدمة الشيخ المحسن بشرعة أُنْس نغصها بعضُ الوشاة علىّ ، وذكر أبى أقمت بطوس بعد استئذانى إلى مَرْوَ ، وفى هذا ما يعلمه الشيخ ، فإن رأى أن يحسن جَبْرِى بكتاب يطرز به مقدمى فعل إن شاء الله تعالى .

كتاب آخر إلى أبى نصر الميكالى

وله فى هذا الباب إلى أبى نصر الميكالى :

الشيخ — أعزهُ الله - مَلَكَ من قلبى مكانا فارغا[1]، فنزله غير منزل قُلْعَة ، ومن مودتى ثوبا سابغا ، فلبسه غير لِبْسَةِ خلعة ، ومن نصب تلك الشمائل شبكا ، وأرسل تلك الأخلاق شركا ، قَنَصَ الأحرار فاستخدمهم ، وصاد الإخوان واسترقهم .

وتالله ما يُغْبَنُ إلا من اشترى عبداً وهو يجدُ حرًّا بأرخص من العبد ثمنا، وأقلّ فى البيع غبنا ، ثم لا يهتبل[2] غِرّةَ وجوده ، و ينتهز فرصة امتلاكه بجوده، وأنا أنم للشيخ على مكرمة يتيمة، ونعمة وسيمة . فليعتزل من الرأى ما كان بهيما ، وليطلق من النشاط ما كان عقيما ، وليحلل حَبْوة التقصير ، وليتجنبْ جانب التأخير ، وليفتضَّ عُذْرَتها، و ينقض حجّتها وعُمْرتها ، برأى يجذبُ المجد باعه،و يعمر النشاط رِباعَه ؛ وتلك حاجةُ سيدى أبى فلان وقد ورد من الشيخ بحراً، وعقد به جسراً، وما عَسُرَ وَعْدٌ هو مستنجزُه، ولا بَعُدَ أمرٌ هو منتهزه ، ولا ضاعت نعمة أنا بَرِيدُ شكرها ، وعزيم نشرها ، وولىّ أمرها ؛ وهذا الفاضل قرارة مائها ، وعماد بنائها ؛ وقد شاهدت من ظَرْفه، ما أعجز عن وصفه ، وعرفت من باطنه ما لم يُدْرَ بظاهره ، ورأيتُ من أوله ما نَمَّ على آخره ، ثم له البيت المرموق، والنسب الموموق، والأولية

(١) يشير بهذا إلى قول الشاعر :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى — وحلت مكاناً لم يكن حل من قبل

ومنزل قلعة : يعنى لا يطول المقام به (م) — (٢) لا يهتبل : لا ينتهز (م)

القديمة ، والشيمة الكريمة ؛ وقد جمعتنا فى الود حلقة ، ونظمتنا فى السفر رفقة ، وعرفنى بما أنهض له وفيه ، فضمنت له عن الشيخ كرماً لا يغلق بابه ، وغدقاً[1] لا يخلف سحابه ؛ فليخرجنى الشيخ من عهدة هذه الثقة ، زادها إليه تأكداً ، وإن رأى أن أسأل الشيخ فى معناه عرفنى كيف المأتى له ، وإنما أطلت ليعلم صدق اهتمامى ، وفرط تقليدى للمنة والتزامى .

جواب منه عن صنيعة

وله جواب عن صنيعة بصاحب هذه العناية :

ورد فلان سيدى وهو عين بلدتنا وإنسانها ، ومقلتها ولسانها ؛ فأظهر آيات فصله ، لاجرم أنه وصل إلى الصميم ، من الإيجاب الكريم ، وهو الآن مقيم بين روح وريحان وجنة نعيم ، تحيته فيها سلام ، وآخر دعواه ذكرك وحسن الثناء عليك بما أنت أهله ، وأنا أصدق دعواه ،وأفتخر به افتخار الخصى بمتاع مولاه ، وقد عرفته ولسنه ، وكيف يجرى[2] فى البلاغة رسنه ، فما ظنك به ؟ وقد ملكتها المجانس ولحظتها العيون ، وسل صارماً من فيه ، يعيد شكرك ويبديه ، وينشر ذكرك ويطويه ؛ والجماعة تمدح لمدحه ، وتجرح بجرحه ، فرأيك فى تحفظ أخلاقك التى أثمرت هذا الشكر ، وأنتجت هذه المآثر الغر ، موفقاً إن شاء الله تعالى .

المقامة الأذربيجانية

ومن إنشائه فى مقامات الاسكندرى ، قال :

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : لما نطقنى الغنى بفاضل ذيله ، اتهمت بمال سلبته ، أو كنز أصبته ، فخفرنى الليل ، وسرت بى الخيل . وسلكت فى هربى مسالك لم يرضها السير ، ولا اهتدت إليها الطير ، حتى طويت أرض الرعب وتجاوزت حده ، وصرت إلى حمى الأمن ووجدت برده ، وبلغت أذربيجان وقد حفيت الرواحل ، وأكلتها المراحل ، ولما بلغتها :

---

(١) الغدق ــ بالتحريك ــ الماء الكثير (م)

(٢) فى نسخة « يجرى » وليس بذاك (م)

نزلنا على أن المقـام ثلاثة فطابَتْ لنا حتى أقمنا بها شهرا

فبينا أنا يوما فى بعض أسواقِها إذ طلع رجل برُكْوَةٍ قد اعتضدها[١]، وعصا قد اعتمدها ، ودنيّة قد تقلّسها ، وفوطةٍ قد تطيْلَسها ؛ فرفع عقيرته وقال : اللهم يا مبدئ الأشياء ومعيدَها ، ومحيي العظام ومبيدَها ، وخالق المصباح ومديره ، وفالقَ الإصباح ومنيره، وموصِلَ الآلاء سابغة إلينا ، ومُمْسِكَ السماء أن تقعَ علينا ، وبارئ النَّسَم أزواجا ، وجاعلَ الشمس سراجا ، والسماء سَقْفًا ، والأرض فراشا، وجاعلَ الليل سكنا والنهار معاشا ، ومنشىء السحاب ثِقالا ، ومرسل الصواعق نَكالا ، وعالِمَ مافوق النجوم ، وماتحت التخوم. أسألُك الصلاة على سيد المرسلين محمد وآلِه الطاهرين ، وأن تعيننى على الغربة أثنى حَبْلَها ، وعلى العُشْرَةِ أعدو ظلَّها ، وأن تُسهِّل لى على يدَىْ مَنْ فَطَرَتْهُ الفِطْرة ، وأطلعَتْه الطُّهْرَة ، وسعد بالدِّين المتين ، ولم يَعْمَ عن الحق المُبين ، راحلةً تَطْوى هذا الطريق ، وزاداً يسعنى والرفيق .

قال عيسى بن هشام : فناجيتُ نفسى بأن هذا الرجلَ أفصحُ من إسكندريّنا أبى الفتح ، والتفتُّ لفتةً ، فإذا هو أبو الفتح . فقلتُ : يا أبا الفتح ، بَلَغ هذه الأرضَ كيدُك ، وانتهى إلى هذا الشِّعْبِ صيدك ؟ ! فأنشأ يقول :

أنا جَوَّالةُ البـــــلا دِ وجَـوَّابةُ الأُفُقْ
أنا خُـذْروفةُ الزما نِ وعَمَّارةُ الطُّرُقْ
لا تَلُمْـنِى لك الرشا دُ على كُدْيَتِى وذُقْ

* * *

وقال الطرماح بن حكيم :

وما أنس مِ الأشياء لا أنس بيعةً من الدهر إذ أهل الصفاء جميع

(١) ركوة : وعاء يجمع فيه ما يحصله ، واعتضدها : جعلها فى عضده (م

و إذ دهرنا فيه اعتزاز، وطَيْرُنا ... سَواكِنُ فى أوكارهنّ وقوعُ
فهل لليالينـــا بنعف مليحة ... وأيامهنّ الصالحات رُجوعُ ؟
كأن لم يَرُعْكَ الظاعنون إلى بلًى ... ومثل فراق الظاعنين يَرُوعُ][1]

[أيام الشباب وأيام المشيب]

لعلى العلوى

وقال على بن محمد [بن الحسن] العلوى :

واهًـا لأيام الشـــبا ... ب وما لَبِسْنَ من الزخارفْ
وذهابهن بما عـــرفْـــنَ من المناكر والمَعارف
أيام ذكرك فى دوا ... وين الصِّبا صَدْرَ الصحائف
واهــــاً لأيّامى وأ ... يّا م الشهيات المَراشــفْ
الغارسات البَان قُضْـــباناً على كُثُب الرَّوادِفْ
والجاعــلات البَدْرَ ما ... بين الحواجبِ والسوالِف
أيام يُظهِرْنَ الخــــلا ... ف بغير نيَّاتِ المخالفْ
وقف النعيم عـلى الصِّبَا ... وزلت من تِلْكَ المواقِف

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

دَعَتْنِى إلى عهد الصِّبا رَبَّةُ الخدرِ ... وألقت قناعَ الخزِّ عن وَاضِح الثَّغْر
وقالت وماء العين يخلطُ كُحْلَها ... بصُفْرَةِ ماء الزعفران على النَّحْــرِ
لمن تطلبُ الدنيا إذا كنت قابضاً ... عنانك عن ذات الوِشاحين والشذْرِ
أراك جعلتَ الشيب للهَجْرِ عِلّةً ... كأن هلاَل الشهرِ ليس من الشهرِ

وقال [أحمد بن أبى طاهر] :

---

(١) من أول موضع إشارتنا فى ص ٩١٥ إلى هنا ساقط من جميع المطبوعات (م)

لأحمد بن أبي طاهر

يا من كَلِفت بحبِّهِ كلّفني بكاسات العُقار
وحيـــاة ما في وجنتيـــك من الشقائق والبَهار
وولوع رِدْفِكَ بالترَجْـــرج تحْتَ خَصْرِكَ في الإزار
ما إن رأيت لحسن وجـــهك في البريَّة من نجِار
لما رأيت الشـــيب من وجهي بما يحكي الخمار
[قالت غبار قد عـــلا ك فقلت ذا غير الغبار
هذا الذي نقـــل الملو ك إلى القبور من الديار]
قالت ذهبت بحجَّـــتي عني بحسن الاعتـــذار
يا هـــذه أرأيت ليـــلاً مـذ خلقتِ بلا نَهارِ

لخالد الكاتب

وقال خالد الكاتب :

نظرتْ إليَّ بعين من لم يَعْدلِ لما تمكّن طرْفُهَا من مَقْتَلِي
لما رأتْ شـــيباً ألمّ بمفرَقي صَدَّتْ صدودَ مُفَارقٍ متحمِّل
وظللتُ أطلُب وصْلَها بتملُّق والشيبُ يغمزها بألاّ تفْعَلِي

لابن الرومي

وقال ابن الرومي :

كفى حزَناً أن الشباب معجّلٌ قَصيرُ الليالي والمشـيبُ مخلّدُ
وعَزَّاكَ عن ليل الشباب مَعاشرٌ فقالوا :نَهار الشيب أهْدَى وأرْشَدُ
فقلت : نهارُ المرء أهْدَى لسعيهِ ولكنّ ظِلّ الليلِ أندى وأبْرَدُ
مَحَار الفتى شـيخوخة أو منيّة ومرجوعُ وهّاج المصابيح رِمْدِدِ[1]

وقال :

كان الشبابُ وقلبي فيه منغمِسٌ في لذةٍ لستُ أدرِي ما دواعيها

---

(١) المحار : المرجع ، حار يحور : رجع ، والمنية : الموت ، والمرجوع: المرجع أيضا ، ورمدد : الرماد (م)

رَوْح على النفس منه كادَ يُبْرِدُها بَرْدَ النسيم ولا ينفك يُحْيِيها
كأن نفسيَ كانت منهُ سارحةً فى جنَّةٍ بات ساقى الْمزْنِ يسقيها
يمضى الشبابُ ويبقى من لُبَانته شَجْوٌ على النفس لا ينفكُّ يُشْجيها[1]
ما كان أعظم عندى قَدْرَ نعمتِه لنفسه لا لحِــلم كان يُصبيها
ما كان يُوزَن إعجاب النساء بِهِ والنفسُ أوجب إعجابا بما فيها

وقال :

إذا ما رأتك البيضُ صَدَّت، وربما غدوتَ وطَرْفُ البيض نحوك أصْوَرُ[2]
وما ظلَمَتْك الغــانياتُ بصدِّها وإن كان فى أحكامها ما يجوِّرُ[3]
أعِرْ طَرْفك المرآة وانظر؛ فإن نَبَا بعينيك عنك الشيبُ فالبيضُ أعذر
إذا شَنِئت عينُ الفتى شَيْبَ نفسه فعيْنُ سِــوَاه بالشناءة أجْدَرُ[4]

لكشاجم

وقال كشاجم :

وَقَفَتْنِى ما بين حُــزْنٍ وبُوس وَثَنَتْ بَعْدَ ضحْــكَةٍ بعُبوسِ
إذْ رأتنى مشَطْتُ عاجاً بعــاج وَهِيَ الآبنــوس بالآبنوسِ

لأبى نواس

وقال أبو نواس :

بكرت تبصِّرنى الرَّشاد كأننى لا أهتــدى لمذاهب الأبرارِ
وتقول: وَيْحكَ قد كبرت عن الصِّبا ورمَى الزمانُ إليك بالأعْــذارِ
فإلى متى تَصْــبُو وأنت متيَّمٌ متقلِّبٌ فى راحةِ الإقتــارِ
فأجَبْتُها إنى عرَفْتُ مذاهبى فصَرَفْتُ معرفتى إلى الإنكارِ

---

(١) يشجيها : يحزنها (م) (٢) أصور : مائل (م)
(٣) يجور : ينسب إلى الجور ، وهو ضد العدل (م)
(٤) الشناءة : البغض والكراهية ، وشنئت : أبغضت (م)

لأحمد بن زياد

وقال أحمد بن زياد الكاتب :

ولما رأيتُ الشيبَ حلَّ بياضه بمَفْرِق رأسى قلت : أهلا ومرحبا

ولو خِلْتُ أنى إن تركت تحيتى تنَكَّبَ عنى رُمْتُ أنْ يتنكبا

ولكن إذا ماحلَّ كرهٌ فسامحت به النفسُ يوما كان للكُرْه أذهبَا

كأن هذا البيت ينظر إلى قول الأول :

وجاشت إلىَّ النفسُ أولَ مرةٍ فرُدَّتْ إلى معروفها فاستقرَّتْ

للمتنبى

أبو الطيب :

أنكَرْتُ طارقَةَ الحوادثِ مرةً ثم اعترفْتُ بها فصارتْ دَيْدَنَا

لابن الرومى

ابن الرومى :

لاح شَيْبى فصرتُ أمْرَحُ فيهِ مَرَحَ الطِّرْف فى العِذَارِ المحلَّى

وتولَّى الشباب فازددت غَيًّا فى ميادين بَاطِلِى إذ تولَّى

إنَّ من ساءه الزمانُ بشىء لأحقّ الورى بأن يتسلَّى

[المتنبى :

أترانى أسوء نفسىَ لمّا ساءنى الدهر ؟ لا ، لعمرىَ ، كلاّ]

للمتنبى

المتنبى :

تَصْفُو الحياةُ لجاهِلٍ أو غافلٍ عمّا مضَى فيها وما يُتَوَقَّعُ

ولمنْ يُغالطُ فى الحقائق نفسَه ويَسُومها طلبَ المُحالِ فيَطْمَعُ

للبحترى

[البحترى[1]]:

يكفيك من حَقٍّ تَخيلُ باطلٍ تردى به نفسُ اللَّهيف فترجعُ

---

(١) سقطت هذه الكلمة من جميع المطبوعات ، والبيت الآتى ليس من قصيدة المتنبى التى منها البيتان السابقان على هذه الكلمة ، وهو ثابت فى شعر البحترى ، لا جرم كانت هذه الكلمة من ألزم اللازمات (م)

وقلما تصح مغالطات أهل العقول ، عند أهل التحصيل ، وما أحسن ما قال الطائى :

لأبى تمام الطائى

لعِبَ الشيبُ بالمَفَارِقِ ، بل جـدّ فأبكى تُماضراً ولعوبا[1]

يا نسيبَ الثَّغام ذنبُك أبقى حسناتى عند الحسان ذُنُوبا[2]

لو رأى الله أنّ فى الشيب فَضْلا جاوَرَتْهُ الأبرار فى الخُلدِ شِيباً

وقد جاء فى التشاغل عن الدهر وأحداثه ، ونكباته ، ومصائبه ، وفجعاته ، والتسلى عن الهموم ، بماء الكروم ، شعرٌ كثير ؛ فمما يتعلّق منه بذكر الشيب قول ابن الرومى :

لابن الرومى

سأُعْرِضُ عمّن أعرض الدهر دونهُ وأشربها صِرْفاً وإن لامَ لُوَّمُ

فإنى رأيت الكأس أكرمَ خُلّةً وَفَتْ لى ورأسى بالمشيب مُعَمَّمُ

وصَلْتُ فلم تبخَلْ علىّ بوصْلِها وقد بخِلَتْ بالوصلِ عنىَ تَكْتُمُ[3]

ومَنْ صارمَ اللذات إنْ خان بعضها لِيُرْغِمَ دهرا ساءهُ فهو أرغم

أمِنْ بعد مَثْوَى المرء فى بَطْنِ أمهِ إلى ضيق مَثْوَاه من القبر يَسْلَمَ

ولم يَبْقَ بين الضيق والضيق فرجة أبى الله ! إنّ اللهَ بالعبد أرحم !

وقال العَطوى :

العطوى

أَعْجبْتنّ إنْ أناخ بىَ الدهـر فحا كَمْتُهُ إلى الأقداحِ

لا ترَدّ الهُموم يُنشِبْنَ أظفا راً حِدَادا بِشُرْبِ ماء قراح

أحمد الله ، صارت الكأس تأْسُو دون إخوانى الثقات جراحى

وقال ابن الرومى [ونحله بشارا] :

لابن الرومى

وقد كنت ذا حال أُطِيلُ ادِّ كارها و إرعاءها قلـبى لأهتز معجبا[4]

---

(١) تماضر ولعوب : من أسماء نساء العرب (م)

(٢) الثغام ــ بزنة السحاب ــ نبت أبيض الزهر والثمر (م)

(٣) تكتم : من أسماء النساء أيضا (م)

(٤) فى نسخة « وإرعاءها قلبا ثوى الدهر معجبا » (م)

فَبُدِّلْتُ حالا غير هاتيك ، غايتى — تناسىَ ذِكراها لتغرُبَ مَغْرِبا
وكُنْتُ أُدِيرُ الكأسَ مَلأَى رَوِيّةً — لِأَجْذَلَ مسرورا بها ولأطْرَبَا
وكانت مزيداً فى سرورى ومُتْعَتِى — فأَضْحَتْ مَفَرًّا من همومى ومَهْرَبا[1]

وهذا كما قال فى قَيْنَة و إن لم يكن من هذا الباب :

شاهدت فى بعض ماشاهدت مُسْمِعَةً — كأنّما يَوْمُهـــا يومان فى يوم
ظللتُ أشربُ بالأرطال ، لاَطَرَبًا — بذاك ، بل طلبــا للسُّكْرِ والنوم

ومن مليح شعره فى الشيب :

ومِنْ نكد الدنيا إذا ما تنكّرتْ — أمور ـ و إن عدّت صِغَاراً ـ عظائم
إذا رُمْتُ بالمنقاش نَتْفَ أشَاهِبِى — أُتيـــح له من بينهن الأداهمُ
يرَوِّعُ منقاشى نجـــوم مسائحى — وهُنَّ لعَيْنِى طالعـــاتٌ نَوَاجِمُ[2]

لأبى الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم :

أخى قُمْ فعاوِنّى على نَتْفِ شَيْبَةٍ — فإنِّىَ منهـا فى عذاب وفى حَرْب
إذا ما مضى المنقاش يأتى بها أَتَتْ — وقد أخذت من دونها جارة الجَنْبِ
كَجَانٍ على السلطان يُجْزَى بذَنْبِهِ — تَعَلّقَ بالجيرانِ من شِدّةِ الرعْبِ

وقد وشّحت هذا الكتاب بقطع مختارة فى الشيب والشباب ، وجئت هنا بجُمْلة ، وهذا النوع أعظم من أن نحيط به اختيارا ، أو نبلغه اختبارا .

شذور لأهل العصر ، فى وصف الشيب ومدحه وذمه

ذَوَى غُصْنُ شبابه . بَدَت فى رأسه طلائع المشيب ، [أخذ الشيب بِعِنَان شبابه] ، غزاه الشَّيْب بجيوشه ، طَرَّز الشيبُ شبابَهُ ، أَقْمَرَ ليـلُ شبابه ، ألجمه

---

(١) فى نسخة « فأضحت معزى من همومى ومهربا » (م)
(٢) فى ابن الرومى « يراوغ منقاشى » (م)

بلجامه ، وقاده بزمامه ، علاه غبارُ وقائع الدهرِ . وزن هـذا لابن المعتز * هذا غبارُ وقائع الدهر * بيناهو راقد فى ليـل الشباب ، أيقظه صبحُ المشيب . طوى مراحلَ الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب . جاوز من الشباب مَرَاحل، ووردَ من الشَّيبِ مَنَاهل. فَلّ الدهرُ شبا شبابه، ومَحا محاسنَ رُوَائه. قضى باكورة الشباب، وأنفقَ نَضَارَةَ الزمان. أخْلَق بُرْدَةَ الصِّبا ، ونهاه النهى عن الهوى . طار غرابُ شبابه . انتهى شبابه ،وشاب أترابه. استبدل بالأدهم الأبلقَ، وبالغراب العَقْعق[1]. انتهى إلى أشُدّ الكهل، واستعاض من حَلَك الغراب بقادمةِ النَّسر. افترّ عن نابِ القارح ، وقرع نَاجِذَ الحلم ، وارتاضَ بلجام الدّهرِ ، وأدرك عصر الحُنْكة وأوان المسكة. جمع قوّة الشباب إلى وَقَار المشيب. أسفر صبح المشيب، وعَلَتْه أبهة الكِبَر . خرج عن حدّ الحداثة ، وارتفع عن غِرَّةِ الغَرَارة . نَفَض حِبَرَةَ الصبا ، وَوَلّى داعية الحجا . لمـــا قام له الشيب مقام النصيح ، عدل عن علائق الحداثة بتَوْبة نَصُوح . الشيب حِلية العقل وشِيمة الوقار . الشيب زبدةٌ مخضتها الأيام ، وفِضّة سبكتها التجارب . سرى فى طريق الرُّشد بمصباح الشَّيب . عصى شياطين الشباب ، وأطاع ملائكة الشَّيْب . الشيخ يقول عن عِيان ، والشاب عن سَماع . فى الشيب استحكام الوَقَار وتناهى الجلال ، ومِيسَم التجرِبة ، وشاهد الحُنْكة الشيب مُقَدّمَة الموت والهرَم ، والمؤْذِن بالخرَف ، والقائد للموت . الشيبُ رسول المنية . الشيب عُنوَان الفساد . والموتُ ساحل ، والشيبُ سفينة تقرب من الساحل . صفا فلان على طول العمر ، صفاء التِّبْر على شعْب الجمر[2] . لقد تناهت به الأيامُ تهذيباً وتحليبا ، وتناهت به السّنُّ تجريباً وتحنيكا . قد وعظه الشَّيْبُ

---

(١) الأدهم : الأسود ، والأبلق : الذى لونه البلقة . وهى سواد فى بياض ، والعقعق : طائر لونه مختلط من سواد وبياض (م)

(٢) فى نسخة « على مقت الجمر »

بوَخْطِه ، وخَبطه السن بابنه وسِبْطِه ، قد تضاعفت عقودُ عمره ، وأخذت الأيام من جسمه . وَجَد مَسّ الـكبر ، ولحقه ضَعْفُ الشيخوخة ، وأساء إليه أثرالسنّ ، واعتراض الوَهن . هو من ذوى الأسنان العالية ، والصحبَة للأيام الخالية . هو هِمٌّ هَرِم ، قد أخذ الزمانُ من عَقْله . كما أخذ من عمره. ثَلَمه الدهر ثَلْمَ الإناء[1] ، وتركه كذِى الغارب المنكوب ، والسَّنام المجبوب. رماه من قوسه[2] الـكِبَر . أريق ماء شبابه ، واستشنَّ أديمه . كسر الزمانُ جناحَه ، و نقض مِرَّته . طوى الدهر منه مانشر ، وقيّده الـكبر ، يرسُفُ رسَفَان المقيّد ، هو شيخ مجتث[3] الجثّة ،واهِى المُنّة ، مغلول القوة ومفلول الفتوة[4] ، تقَاَتْ عليه الحركة ، واختلفت إليه رُسل المنيَّة . ماهو إلا شمسُ العصر،على القصر . أركانه قد وهَتْ ، ومُدّتُه قد تناهَتْ . هل بعد الغاية منزلة ، أو بعْدَ الشيب سوى الموت مرحلة ؟ ماالذى يُرْجَى ممن كان مثـله فى تعاجز الخُطا ، وتخاذُل القوَى ، وتدَانى المدى ، والتوجّه إلى الدار الأخرى ، أبعـد دِقّة العظم ، ورقّة الجلد ، وضَعْف الحسّ ، وتخاذل الأعضاء ، وتفاوت الاعتدال ، والقُرْب من الزوال . والذى بقى منه ذَماء[5] يَرقُبه المنُون بمَرْصَد ، وحُشاشة هى هَامَة اليوم أو غد . قد خَلق عمـره ، وانطوى عيشُه ، و بلغ ساحلَ الحياة ، ووقف على ثَنِيَّةِ الوداع ، وأشرف على دار المقام ، فلم يبق إلا أنفاسٌ معدودة ، وحركات محصورة . نَضب غديرُ شَبابه .

فقر لغير واحد فى المشيب

قيس بن عاصم : الشيبُ خطام المنية . أ كثم بن صيفى : المَشِيب عنوان الموت . الحجاج بن يوسف : الشيبُ نذير الآخرة . غيره : الشيبُ نومُ الموت .

(١) فى نسخة «ثلمة الإناء» (م)   (٢) فى نسخة «من قومه» (م)
(٣) فى نسخة «مجيب الجثة» (م)   (٤) فى نسخة «معلول الفتوة» (م)
(٥) الذماء ــ بفتح الدال ــ بقية النفس (م)

العتبى : الشيبُ مجمع الأمراض . العتابى: الشيبُ نذير المنيّة . محمود الوراق: الشيبُ أحد الميتتين. ابن المعتز : الشيبُ أول مَواعد الفَناء .وقال : عظِّم الكبير فإنه عرَف اللهَ قبلَك ، وارْحَم الصغير فإنه أغرُّ بالدنيا منك . غيره : الشيب قِناعُ الموتِ . الشيب غَمامٌ قَطْرُه الغموم . الشيبُ قذَى عينِ الشباب .

نظر سليمان بن وهب فى المرآة فرأى الشيب ، فقال : عَيْبٌ لاعدمناه !

وقيل لأبى العيناء : كيف أصبحت ؟ فقال : فى داء يتمناه الناس !

ابن المعتز :

أنكَرَتْ شرّ مشيبى ووَلَّت ... بدموع فى الرداء سُجُومِ

اعذرى ياشرّ شيبى بهمّ ... إنَّ شيبَ الرأسِ نَوْرُ الهموم

مسلم بن الوليد :

الشَّيْبُ كرهٌ ، وكُرهٌ أن أفارقهُ ... أعْجِبْ لشىء على البغضاء مودودِ

يَمْضِى الشبابُ فيأتى بعده بدلٌ ... والشيبُ يذهبُ مفقوداً بمفقود

وقال آخر :

لو أنَّ عُمْرَ الفتى حِسَابٌ ... كان له شَيْبُه فَذَالِكْ[1]

وقال بعضهم :

ولى صاحبٌ ما كنتُ أهوى اقترابَهُ ... فلمَّا التقينا كان أكْرَمَ صَاحِبِ

عزيزٌ علينا أنْ يفارقَ بعد ما ... تمنَّيتُ دهراً أنْ يكونَ مُجَانِبِى

يعنى الشيب ، يقول : لم أكن أشتهى اقترابه ، فلمّا حل كان أكرم صاحب ، عزيز علىَّ مجانبته ؛ لأنه لا يجانَبُ إلاّ بالموت .

---

(١) الفذالك : جمع فذلكة ، وهى جملة الحساب ، ووقع فى نسخة « كان له شيبه عذابا » (م)

أبو إسحاق الصابى :

والعمرُ مثـــلُ الكاس ير　　سب فى أواخرها القَذَى

أبو الفضل الميكالى :

أمْتِـعْ شبابك من لَهْوٍ ومن طرَبٍ　　ولا تُصِـخْ للملامِ تَمْعَ مُـكْتَرِثِ

فخيرُ عُمْرِ الفتى رَيْعَانُ جِـــدَّتهِ　　والعمرُ من فضة والشيبُ من خَبَثِ

[بعض ما قالوه فى الخِضَاب]

قولهم فى الخضاب

فى ذكر الخضاب : الخضاب أحدُ الشبابين

عبدان الأصبهانى :

فى مشيبى شماتةٌ لعُـــدَاتى　　وهو ناعٍ منغِّصٌ لى حياتى

و يعيب الخِضابَ قَوْمٌ ، وفيهِ　　لىَ أنسٌ إلى حضور وَفاتى

لا ومَنْ يعـــلم السرائرَ إنى　　ما تطلبت خُلّة الغانيات[1]

إنما رُمْتُ أن يُغَيَّبَ عنى　　ما تُرِينِيه كلَّ يوم مِرَاتى

وهو ناعٍ إلىَّ نفسى، ومَنْ ذا　　سرّهُ أن يرى وجوهَ النُّعاة؟

ابن المعتز :

رأت شيبة قد كُنتُ أغفلت قصَّها　　ولم تتعهَّدْها أكُفُّ الخَـــواضبِ

فقالت:أشَيْبٌ ماأرى ؟قلت: شامةٌ　　فقالت : لقد شانَتْكَ عند الحبائب

الأمير أبو الفضل الميكالى :

قد أبَى لى خِضَابَ شَيْبِى فؤاد　　فيـه وجد بكَتْمِ سِرِّى وَلُوعُ[2]

خافَ أن يحدثَ الخضابُ نُصُولاً　　ونصولُ الخِضاب شىءٌ بَدِيع

وقالوا : الخضاب من شهود الزور ، والخضاب حدادُ المشيب ، [إن خضب الشعرُ] فـكيف يخضب الـكِبَر . الخضاب كفنُ الشيب .

(١) فى نسخة « ماتطلبت حلية الغانيات » والحلة بضم الخاء ــ الخصلة (م)

(٢) فى نسخة « مراد حدثتنى بكتم سرى » (م)

ابن الرومى :

ليس تُغنِى شهادةُ الشَّعَر الأســـود شيئاً إذا استشنَّ الأديمُ
أفيرجـــو مُسَوّدٌ أن يُزَكَّى شاهد الخضب؟ أين ضلّ الحليمُ؟!
لا لعمرى ماللإخضاب لدَى الأبْـــصـــار إلا التكذيبُ والتأثيم
يدّعى للـكبير شَرْخَ شبابٍ قد تولّى به الشبابُ القـــديمُ
والسوادُ الدَّعِىُّ أوْجَب تـكذيـــباً إذا كذّب السواد الصميمُ

وله أيضاً فى هذا المعنى :

كالو أردنا أنْ نُحيــــلَ شبابنا مَشيباً ولم يَأْتِ المشيبُ تعذَّرا
كذلك يُعْنينا إحالةُ شيبنـــا شباباً إذا ثوبُ الشباب تحسّرا
أبى الله تدبير ابن آدم نفسه وأنّى يكون العبد إلاّ مُدَبَّرا

وقال :

قل للمسوِّد حين شيّب : هكذا غِشُّ الغَوَانِى فى الهوَى إيّاكا
كَذَبَ الغوانِىَ فى سوادِ عذارِه فـكذبنه فى ودهنّ كَذَاكا[1]
هيهات غرّكَ أن يُقَالَ غرائرٌ أىّ الدواهى غـيرهنّ دَهَاكا
لاتحسبن خَدَعْتَهُنَّ بحيلةٍ بل أنْتَ ويحك خادَعَتْكَ مُنَاكا؟

وقال أبو الطيب المتنبى :

ومِنْ هَوَى كلّ منْ ليستْ مُموهة تركْتُ لونَ مَشِيبِى غيرَ مخضوبِ
ومن هوى الصدقِ فى قولِى وعادته رغبتُ عن شعَرٍ فى الوجهِ مكذوب
ليتَ الحوادثَ باعَتْنِى الذى أخذَتْ مِنى بحِلْمِى الذى أعطتْ وتجريبى
فما الحدَاثَةُ مِنْ حِـــلْمٍ بمانعةٍ قد يوجد الحلمُ فى الشبّانِ والشيبِ

---

(١) فى نسخة « فـكذبنه فى ردهن كذاكا » تطبيع (م)

غيره :

يا خاضبَ الشيب بالحنَّاء يَسْتُرهُ ... سَلِ الإلٰهَ له سِتْراً من النارِ

وقد سلك أبو القاسم مسلكا طريفاً فى قوله :

أفْدِى المغاضبة التى أتْبَعْتُهَا ... نَفَساً يشَيِّع عِيسَهَا إذْ آبا[1]

والله لولا أنْ يُسَفِّهنِى الصِّبَا ... ويقولَ بعضُ القائلين تَصَابَى

لكسرت دُمْلُجَهَا لضيق عِنَاقِهِ ... ولَثَمْتُ من فِيهَا البرود رُضَابا[2]

بِنْتُم فلولا أن أُغيِّر لمتى ... عتباً وألقاكم علىَّ غضابا[3]

لخضبت شَيْباً فى عِذَارى كامنا ... ومحوتُ مَحْوَ النِّقْس منه شَبابا[4]

وخلعته خَلْعَ النجاد مذمما ... واعتضت من جِلْبابه جِلْبَابا

ولبست مُبْيَضَّ الحِدَاد عليكمُ ... لو أننى أجِـــدُ البياض خِضَابا

وإذا أردتَ إلى المشيب وفادةً ... فاجعل إليه مطيَّك الأحْقَابا

فلتأخذنَّ من الزمان حمامة ... ولتدفعنَّ إلى الزمانِ غرابا

ماذا أقول لِرَيب دَهْرٍ خائن ... جَمَع العِدَاةَ وفرَّق الأحْبَابا

[الوليد بن يزيد وقد غلبت عليه لذاته]

وقيل للوليد بن يزيد بن عبد الملك لَمَّا غلبت عليه لذَّاته . وملكته شهواته : يا أميرَ المؤمنين ؛ إن الرعية ضاعت بتضييعك أمْرَها ، وتركك ما يجب عليك من مصلحتها . فقال : ما الذى أغفلناه من واجب حقها ، وأسقطناه من مفروض ذمامها ؟ أمَا كَرَمُنا دائم ، ومعروفُنا شامل ، وسلطانُنا قائم ؛ وإنما لنا ما نحن فيه ، بُسِط لنا فى النعمة ، ومُكِّن لَنا فى المكرمة ، وأذات لنا الأمة[5] ، ومُدَّ لنا فى الحُرمة ، فإن تركتُ ما به وسع ، وامتنعت عما به أنعم ، كنت أنا

(١) العيس : الإبل ، وفى نسخة « ما آبا » (م)

(٢) فى نسخة « بضيق عناقها » والرضاب : ماء الفم (م)

(٣) فى نسخة «أن أغير لمتى عبثا» (م) (٤) فى نسخة «فى عذارى كاذبا» (م)

(٥) فى نسخة « وأذكى لنا فى الأمة » (م)

المزيل لنعمتى بما لا ينال الرعيةَ ضره ، ولا يؤودُهم ثِقْله[١] . يا حاجب لا تأذَنْ لأحد فى الكلام .

وقال عمرو بن عتبة للوليد بن يزيد ، وكان خاصا به : يا أمير المؤمنين ؛ أنطقتنى بالأُنس ، وأنا أسكت بالهَيْبة ، وأراك تأمرنا بأشياء أنا أخافُها عليك ، أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً ؟ قال : كلٌّ مقبولٌ منك ، معلوم فيه نقتك[٢] ؛ ولله فينا عِلْمُ غيب نحن صائرون إليه ! وتعود فتقول . فقتل الوليد بعد ذلك بشهر .

[بين الحجاج وأهل العراق]

وقال عبد الملك بن مَرْوان للحجاج : إنى استعملتك على العراق ، فاخْرُج إليها كَمِيش الإزار[٣] ، شديد الغِرّار ، قَليل العثار ، مُنْطَوى الخصيلة ، قَليل الثميلة[٤] ، غرار النوم ، طويل اليوم ، واضغط الكوفة ضَغْطة تَحْبق منها البصرة .

وشكا الحجاجُ يوما سوءَ طاعةِ أهلِ العراق ، وسقم مذهبهم ، وسخط طريقتهم ، فقال له جامع المحاربى : أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك ، على أنهم ما شنِئُوك لبلدك ، ولا لذاتِ يَدِك ، إلا لِماَ نَقَمُوه من أفعالك ؛ فدَعْ ما يُبْعِدهم عنك إلى ما يُدْنيهم منك ، والتمس العافيةَ ممن دونك تُعْطَها ممن فوقك ، وليكن إيقاعُك بعد وعيدك ، ووعيدُك بعد وَعْدك ثلاثاً .

فقال له الحجاجُ : والله ما أرى أن أردّ بنى اللَّخناء إلى طاعتى إلا بالسيف . فقال جامع : أيها الأمير ؛ إنّ السيف إذا لاقى السيفَ ذهب الخيارُ . قال الحجاج :

---

(١) لا يؤودهم : لا يثقلهم ولا يعجزهم (م) (٢) فى نسخة «معلوم لى فيك» (م)
(٣) كميش الإزار : مشمرا ، وهو كناية عن الجد ، وفى نسخة «شديد العوار» (م)
(٤) الخصيلة ـ بالخاء المعجمة ـ كل لحمة فيها عصب ، ويقولون «ارتعدت فرائصه ، واضطربت خصائله» يريدون اشتد خوفه ، والثميلة : بقية الطعام فى البطن (م)

الخيارُ يومئذ لله . قال جامع : أجلْ ، ولـكن لا ندرى لمن يجعله الله . فغضب الحجاج وقال : يا هَنَاه ؛ إنك من محارب ، فقال جامع :

وللحرب سُمِّينا وكنا محاربًا إذا ما القنا أمْسَى من الطعن أحمرا

فقال له الحجاج : والله لقد هممتُ أن أخْلع لسانك ، فأضربَ به وجهك .
فقال جامع : إن صَدَقناك أغضبناك ، و إن كذَبناك أغضبْنا الله . فقال الحجاج : أجل ، وسكن سلطانه ، وشغل ببعض الأمر ، وخرج جامع وانسلّ من صفوف الناس ، وانحاز إلى جبل العراق .

[جامع المحاربى]

وكان جامع لسِنا مُفوّها ، وهو الذى يقولُ للحجاج حين بنى واسطا : بَنَيْتَها فى غير بلدك ، وأورثتها غيْرَ ولدك .

وكان الحجاجُ من الفصحاء البلغاء ، ويقال : ما رُئى حضَرِىّ أفْصح من الحجاج ومن الحسن البصرى . وكان يحبُّ أهل الجهارة والبلاغة ، ويؤثرهم ويقربهم .

[أيوب بن القرية]

ولمـا دخل أيوب بن القرِّية على الحجاج ـ وكان فيمن أُسر من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث بن قيس الـكندى ـ قال له : ما أعددتَ لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كأنّها ركب وُقوف : دُنيا ، وآخرة ، ومعروف .

فقال له الحجاج : بئسما مَنَّيْتَ به نفسك يابْنَ القرّية ، أترانى ممن تخدعُه بكلامك وخُطبك ؟ والله لأنت أقربُ إلى الآخرة من موضع نَعْلى هذه .

قال : أقِلْنى عَثْرتِى ، وأسِغْنى رِيقى ، فإنه لا بدّ للجواد من كَبْوة ، والسيف من نَبْوَة ، والحليم من صَبْوَة .

قال : أنت إلى القبر أقربُ منك إلى العفو ، ألستَ القائل وأنت تحرّض حِزْبَ الشيطان ، وعدوّ الرحمن : تغدّوا بالحجاج قبل أن يتعشّى بكم ! وقد رُويت هذه اللفظة للغضبان بن القبعثرى . ثم قدمه فضرب عنقه .

قال الخُرَيمى لأبى دلف وأخذه من قول ابن القرّية :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاء القلوب كرَكْب وقوفْ

[كثير بن أبى كثير]

وبعث الحجاجُ إلى عامله بالبصرة : اخْتَرْ لِى عشرة من عندك ، فاختار رجالا فيهم كثير بن أبى كثير ، وكان عربيًّا فصيحا ، فقال كثير : ما أرانى أُفلِتُ من يد الحجاج إلاّ باللّحْن ، فلما دخلنا عليه دعانى فقال : ما اسمُك ؟ فقلت : كثير . قال : ابن مَنْ ؟ فقلت فى نفسى : إن قلت ابن أبى كثير لم آمن أن يتجاوَزَها ، قلت : ابن أبا كثير ، فقال : اعزب[1] لعنك الله ولعن مَنْ بعث معك ! !

[من قولهم فى المديح]

وقال النابغة الذبيانى يمدحُ آل جَفْنَة :

ولله عيناً من رأى أهْــلَ قُبةٍ أضرَّ بمن عادى وأكثر نافعا[2]

وأعْظَم أحلاماً وأكثر سـيّداً وأفضل مشفوعاً إليــه وشافِعا

متى تَلْقَهُم لا تَلْقَ للبيت عورة فلا الضيف ممنوعا ولا الجارُ ضائِعا

وأنشد محمد بن سلام الجمحىّ للنابغة الجعدى :

فتى كَمُلَتْ أخــلاقُه غيرَ أنهُ جوادٌ فما يُبْقِى من المــال باقيا

فتى تمّ فيه ما يَسُرُّ صــديقَهُ على أنّ فيه ما يسوءُ الأعاديا

[أشم طويل الساعدين شَمَرْدَلٌ إذا لم يَرُح للمجد أصبح غاديا]

ومن حُرِّ المدح وجيّد الشعر قولُ الحطيئة :

تزور امْرَأً يُعْطِى على الحمدِ مالهُ ومَن يُعْطِ أثمانَ المحامدِ يُحمدِ

يَرَى البخلَ لا يُبْقِى على المرء ماله ويعــلم أنّ المرءَ غيرُ مخلَّدِ

---

(١) عزب يعزب : بعد يبعد (م) (٢) فى نسخة « أضر لمن عادوا » (م)

كَسُوبٌ ومتلافٌ إذا ما سألتهُ تهلَّلَ واهتزَّ اهتزازَ المهنَّدِ
متى تأتِه تَعْشُو إلى ضوء نارهِ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خَيْرُ مُوقدِ

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه هذا البيت فقال : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ
أقِلّوا عليهم لا أباً لأبيكمُ من اللوم أو سُدّوا المكانَ الذى سَدُّوا
أولئك قومٌ إن بَنَوْا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شَدُّوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوْا بها وإن أنعموا لا كدَّرُوها ولا كَدُّوا
مَطَاعِين فى الهيجا مَكَاشِيفُ للدجَى بَنَى لهمُ آباؤهم وبَنَى الجَدُّ
وتعذلنى أبناءُ سَعْدٍ عليهمُ وما قلت إلا بالذى عَلِمَتْ سَعْدُ

لمنصور النمرى

وقال منصور النمرى :

ترى الخيل يوم الحرب يَظْمأْن تحتهُ ويَرْوَى القنَا فى كَفِّه والمَنَاصِلُ
حلالٌ لأطرَاف الأسِنة نَحْرُهُ حرامٌ عليها منه مَتْنٌ وكاهِلُ[1]

وقال آخر :

فتًى دهره شَطْرَانِ فيما يَنُوبهُ فَفى بَأْسِه شطرٌ وفى جُودِه شَطْرُ
فلا مِنْ بُغَاة الخير فى عينه قذًى ولا مِنْ زَئير الحرب فى أُذْنِه وَقْرُ

[الشراب وخطره]

وقال بعضُ الظرفاء : الشرابُ أولُ الخراب ، ومِفْتَاح كلِّ باب ، يَمْحَق الأموال[2]، ويُذْهِبُ الجمال ، ويَهْدِم المروءة ، ويُوهِنُ القوة[3]، ويَضع الشريف،

(١) يريد أنه لا يفر فينال خصمه ظهره (م)
(٢) يمحق الأموال : يفنيها (م)
(٣) يوهن القوة : يضعفها (م)

ويُهين الظريف، ويُذِلُّ العزيز، ويفلس التجار، ويَهتِك الأستار، ويورث الشَّنار[1].

وقال يزيد بن محمد المهلبي:

لعمرُكَ ما يُحْصَى على الكأس شَرُّها … وإن كان فيها لَذَّةٌ ورَخاء
مراراً تُريكَ الغَيَّ رشداً، وتارةً … تخيّل أن المحسنين أساءوا
وأن الصديق الماحض الودّ مبغِضٌ … وأنّ مديحَ المادحين هِجَاء
وجرّبْت إخوانَ النبيذ فقلّما … يدومُ لإخوان النبيذ إخاء

[من اعتلال الطفيليين، وحيلهم]

عُوتب طفيلي على التطفيل فقال: والله ما بُنِيت المنازلُ إلا لتُدْخَل، ولا نصبت للموائد إلا لتؤكل، وإني لأجمع فيها خلالا: أدخل مُجالسا، وأقعد مؤانسا، وأنبسط وإن كان ربُّ الدار عابساً؛ ولا أتكلّف مَغْرَما، ولا أنفق درهما، ولا أتعب خادما.

وقال ابن الدراج[2] الطفيلي لأصحابه: لا يهولنّكم إغلاقُ الباب، ولا شدّة الحِجاب، وسوء الجواب، وعبوس البواب، ولا تحذير الغراب، ولا منابذة الألقاب؛ فإنّ ذلك صائر بكم إلى محمود النوال، ومُغنٍ لكم عن ذُلّ السؤال، واحتملوا اللَّكْزَة المُوهِنة، واللَّطْمَة المزمنة، فى جنب الظفر بالبُغْيَة، ولدرك الأُمنية، والزَموا الطَّوْزَجَة للمعاشرين[3]، والخِفّة للواردين والصادرين، والتملّق للمُلْهين والمطربين، والبشاشة للخادمين والموكلين؛ فإذا وصلتم إلى مُرادكم فكلُوا محنكرين، وادّخروا لغدكم مجتهدين؛ فإنكم أحقّ بالطعام ممن دُعِي إليه، وأوْلَى به ممن وُضع له، فكونوا لوقته حافظين، وفى طَلَبه مُشَمّرين، واذكروا قول أبى نواس:

---

(١) الشنار ـ بفتح الشين ـ أشد العار (م) (٢) فى نسخة «وقال أبو الدراج» (م)
(٣) فى نسخة «والزموا المطارحة» (م)

لِنَخْمُس مالَ اللهِ من كلِّ فاجر　　وذى بِطْنَةٍ للطيِّبَاتِ أَكُولِ[1]

***

هذا يقوله أبو نواس فى أبيات تُسْتَنْدَر كلُّها ، ويستظرف جلُّها ، وهى :

وخَيْمَةِ نَاطُورٍ بِرَأْسِ مُنِيفةٍ　　تَهُمُّ يدًا مَنْ رَامَها بِزَلِيلِ[2]

إذا عارضتها الشمسُ فاءت ظلالُها　　وإن وَاجهَتْها آذَنَتْ بدُخُولِ

حطَطْنَا بهـا الأثقالَ فَلَّ هجيرة　　عَبُورِيَّةٍ تُذْكى بغَيْرِ فَتِيلِ[3]

تأَتَّت قليلاً ثم فاءت بمَذْقَةٍ　　من الظلِّ فى رثِّ الإناء ضَئِيلِ[4]

كأَنَّا لدَيْها بين عِطْفَىْ نَعَامَةٍ　　جَفَا زَوْرُها عن مـبرك ومَقِيل

حلَبْتُ لأصحابى بهـا دِرَّةَ الصِّبا　　بصفراء من ماءِ الـكروم شَمُولِ

إذا ما أَتَتْ دون اللَّهَاةِ من الفتى　　دعا همُّهُ من صَدْرِه بِرَحِيلِ

فلمـا توافَى الليلُ جنحاً من الدجى　　تصابَيْتُ واستجملتُ غيرَ جميـلِ

وأعطيتُ مَنْ أهوى الحديثَ كمابَدَا　　وذلَّت صَعْباً كان غير ذلول

فغنَّى وقد وسَّـدْت يُسراى خدَّه　　ألا ربما طالبتُ غَـيْرَ مُنيـلِ

فأنزلت حاجاتى بحقوَىْ مُسـاعدى　　وإنْ كان أدنى صـاحبٍ وخليل

فأصبحتُ أَلْحَى السكر والسكرُ محسنٌ　　ألاَ ربَّ إحسان عليك ثقيلِ

كفى حزَنًا أنَّ الجواد مقتَّرٌ　　عليه ، ولا معروفَ عند بخيـل

سأبغى الغِـــنى إما وزيرَ خليفة　　يقومُ سواءً أو مخيفَ ســـبيلِ

بكل فتى لا يُسْـــتطَار فؤادهُ　　إذا نوَّه الزحْفَانِ باسمِ قتيـــل

لنَخْمس مالَ اللهِ من كل فاجرٍ　　وذى بِطنَـــة للطيبات أَكُول[1]

ألم تر أنَّ المـــال عَوْنٌ على التقى　　ولَيْسَ جَوَادٌ مُعْدِمٌ كبَخِيلِ

(١) تقول : خمست المال أخمسه ـ من باب نصر ـ إذا أخذت خمسه (م)

(٢) الناطور : حارس الزرع ، والمنيفة : العالية . والزليل : الانزلاق (م)

(٣) الهجيرة : الهاجرة ، وعبورية : منسوبة إلى الشعرى العبور ، وطلوعها أشد الحر (م)　　(٤) فى نسخة « فى رث لأباء ضئيل » (م)

ألفاظ لأهل العصر فى صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم

شيطانُ مَعدته رَجيم ، وسلطانها ظلوم . هو آكَلُ من النار ، وأشْرَبُ من الرمل. لو أكل الفيلَ ما كفاه ، ولو شرب النيلَ ما أرْوَاه ، يجوبُ البلاد،حتى يقع على جَفْنَة جَوَاد. يرى ركوبَ البريد ،فى حضور الثّريد[1] . أصابعه ألزم للشِّواء، من سَفُّود الشَّوّاء ، وأنامله كالشبكة، فى صيد السمكة. هو أجْوَعُ من ذئب مُغتَس بين أعاريب. العيون قد تقلّبت، والأكباد قد تلهبت ، والأفواه قد تحلبت. امتدت إلى الخوان الأعناق ، [واحتدت نحوه الأحداق] ، وتحلّبت له الأشداق .

[وصف طائر]

سأل المهدى صباح بن خاقان عن طائر له جاء من آفاق الغابة فقال :

يا أمير المؤمنين، لو لم يَبِنْ بحسن الصفة لَبَانَ بحسن الصورة .قال : صِفه لى. قال : نعم ، ياأمير المؤمنين ، قُدَّ قَدَّ الجَلَمِ[2] ، وقوِّم تقويم القلَم، ينظرمن جَمرَتين ، ويلفظ بدرّتين، و يمشى على عقيقتين ، تكفيه الحبّة ، وتُرويه الغبّة[3] ، إن كان فى قفص فَلَقه ، أو تحت ثوب خرقه ، إذا أقبل فَدَيْناه ، و إذا أدبر حميناه .

[أحظى النساء عند المهدى]

ودخل عبدُ الله بن مصعب الزبيرى على المهدى ، فقال : ويحك يا زبيرى ؛ دخَلْتُ على الخيزران ، فلما قامت لِتُصْلِح من شأنها نظرت[3] إلى حُسنة ! فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ أدركك فى ذلك ما أدرك المخزومى حيث قال :

بينما نحن بالبلاَكِثِ بالقا ع سِرَاعا والعِيسُ تَهْوِى هُوِيّا

---

(١) فى نسخة «فى حصول الثريد» (م) (٢) الجلم - بالتحريك - المقص (م)
(٣) نسخة « وترويه العبة» بالعين المهملة (م)

خطرت خَطْرَةٌ على القلب من ذكـــراك وَهْناً فـما استطعت مُضِيًّا
قلت : لبيك إذ دعانى لك الشوْ ق وللحادِيَيْنِ كُرَّا المَطِيَّا

فأمر فرفعت الستور عن حُسْنة .

ثم قال لى : يا زبيرى ، واسوأتاه من الخيزران ! ثم انثنى راجعاً إليها فقلت : يا أمير المؤمنين ، أدركك فى هذا ما أدرك جميلا[1] حيث يقول :

وأنْتِ التى حَبَّبْتِ شَغْباً إلى بَدَاً إلىّ وأوطانى بلادٌ ســـواهما
حللتِ بهـــذا حَلَّة ثم حَلَّة بهــذا فطاب الوادِيَانِ كِلا هُمَا

فدخل على الخيزران ، فما لبث أنْ خرج ؛ قال الزبيرى : فدخلت ، فقال أنشدنى فأنشدته لصخر بن الجعد :

هنيئاً لـكأس جَذُّها الحبلَ بعدما عقدنا لـكأس موثقاً لا نخونها
و إشماتُها الأعــداء لما تألَّبُوا حوالىّ واشْتَدَّتْ عَلَىّ ضغونها
فإن تصبحى وكَّلْتِ عينىّ بالبكا وأشمتّ أعـدائى فقرّت عيونها
فإنّ حراما أن أخونك ما دعا بيَلْيَل قُمْرِىُّ الحمــامِ وجُونُها[2]
وما طرد الليلُ النهار، وما دَعَتْ على فَـنَنٍ وَرْقَاء شــاكٍ رَنينها[3]

فأمر لى على كل بيت بألف دينار ، وكانت الخيزران وحسنة أحظى النساء عند المهدى .

[وصف غلام] .

ووصف اليوسفى غلاما فقال : كان يعرفُ المراد باللَّحْظ ، كما يعرفه باللَّفظ ، ويُعَايِنُ فى الناظر ، ما يجرى فى الخاطر[4] ، أقرب إلى داعيه ، من يد مُعَاطِيهِ ؛

---

(١) نسب أبو تمام هذين البيتين إلى كثير ، ونسب أولهما إلى كثير فى معجم البكرى (م)
(٢) يليل : اسم واد (م) (٣) فى نسخة « زنينها » (م)
(٤) فى نسخة «مايحوى الخاطر» (م)

حديدُ الذهن ، ثاقبُ الفهم ، خفيفُ الجسم ، يُغنيك عن الملامة ، ولا يحوجك إلى الاستزادة .

وقال أبو نواس :

ومنتظرٍ رَجْعَ الحديث بِطَرْفِهِ إذا ما انثنى من لينه فَضَح الغُصْنَا
إذا جعل اللَّحْظَ الخفيّ كلامَهُ جعلت له عيـــنى لتفهمه أُذْنَا

وقال :

وإنى لطَرْفِ العَيْن بالعَيْنِ زَاجِرٌ فقد كدت لا يَخْفَى علىّ ضميرُ

وقد طرق هذا المعنى وإن لم يكن منه [من قال] :

بَلَوْتُ أخِلاَّء هـــذا الزمان فأَقْـلَلْتُ بالهَجْـر منهم نَصِيبى
وكُلُّهُمُ إن تصفَّحتـــــــه صديقُ العِيَان عـــدوُّ المَغيبِ
تفقّدْ مســاقِطَ لَحْظِ المريب فإن العيُونَ وجـــوهُ القلوبِ

وهو كقول المهدى :

ومطّلع من نفســـه ما يَسُرُّهُ عليه من اللحظ الخفىّ دليلُ
إذا القلبُ لم يُبْدِ الذى فى ضميرِهِ ففى اللَّحْظ والألفاظ منه رَسُولُ

[بين خالد بن صفوان وعلى بن الجهم]

ودخل خالد بن صَفْوان عَلَى علىّ بن الجهم بن أبى حذيفة فألفاه يريد الركوب فقُرِّب إليه حمار ليركبه ، فقال خالد : أما علمت أن العَيْرَ[1] عار ، والحِمَار شَنار ، مُنْـكَر الصوت ، قبيح الفَوْت ، مُتَزلّج[2] فى الضّحل ، مرتطم فى الوحل ، ليس بركوبة فحل ، ولا بمطية رَحْل ، راكبهُ مقرف[3] ، ومسايره مشرف .

فاستوحش ابن أبى حذيفة من ركوب الحمار ونزل عنه ، وركب فرساً ودُفع الحمار إلى خالد فركبه ، فقال له : ويحك يا خالد ! أتنهى عن شىء وتأتى مثله ؟ فقال : أصلحك الله ! عَيْرٌ من بنات الكُرْبال[4] ، واضح السربال ، مختلج

---

(١) العير ـ بالفتح ـ الحمار (م) (٢) فى نسخة « مرتج فى الضحل » (م)
(٣) مقرف : معرض للتهمة (م) (٤) الكربال : كورة من كور فارس (م)

القوائم[1] ، يحمل الرَّجْلة ، ويبلغ العقبة ، ويمنعنى أن أكونَ جباراً عنيداً ، إن لم أعترف بمكانى فقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين .

[كَرُّ الحدثان]

قال ابن دأب : خرجت مع بعض الأمراء فى سفر إلى الشام ، فمرَّ بى رجل كنت أعرفه حَسَنَ الحالِ من أصحاب الأموال الظاهرة فى حال رثة ، فسلّم علىّ فقلت : ما الذى غيَّر حالك ؟ فقال : تنقلُ الزمان ، وكرُّ الحدثان ؛ فآثرت الضَّرْب فى البُلْدَان ، والبُعْدَ عن المعارف والخُلاّن ، وقد كان الأمير الذى أنت معه صديقاً لى فاخترت البُعْدَ من الأشكال ، حين حَصَّنى[2] الإقلال ، واستعملت قول الشاعر:

بِنأْعَمِل نَصَّ العِيس حتى يكفَّنِى ... غنى المال يوماً أو غِنَى الحدَثَانِ[3]

فَللمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرى لهَا ... على المرء ذى العلياء مَسُّ هَوَانِ

متى يتكلم يُلغَ حُكْمُ كلامِهِ ... وإنْ لم يَقُلْ قالوا عَدِيمُ بَيَانِ

كأن الفتى فى أهله بورك الفتى ... بغير لسانٍ ناطق بلسانِ

قال ابن دَأْب : فلما اجتمعْتُ مع الأمير فى المنزل وصفتُ له الرجلَ ، فقال لى : ويحك ! اطلبه حتى أُصْلح من حاله ، فطلبته فأَعْوَزَنى .

[من قولهم فى الرثاء]

لأبى الشيص

وقال أبو الشيص يرثى [قتيلا] :

خَتَلَتْهُ المنونُ بَعْدَ اختيالِ ... بَيْنَ صَفَّيْنِ مِنْ قنًا ونِصَالِ

فى رداء من الصفيح صَقِيل ... وقميصٍ من الحديد مُذَالِ[4]

(١) فى نسخة « محكم القوائم » وفى أخرى « محملج » ولعله محرف عن « مهملج » (م)
(٢) حصنى – بالحاء المهملة – قص جناحى ، والإقلال : الفقر ، وفى نسخة « خصنى » بالخاء المعجمة (م) (٣) نص العيس : سير الإبل ، ونص فلان ناقته : أى سيرها أقصى ماتستطيع من السير (٤) رداء من الصفيح : أراد السيف ، وقميص من الحديد : أراد الدرع ، ومذال : طويل (م)

لحارثة بن بدر الغدانى

وقال حارثة بن بدر الغُدانى يرثى زيادا :

صَلَّى الإلهُ على قَـــبْرٍ وطهّره   عند الثوِيّة يسفى فَوْقَهُ المُورُ[1]

تهدى إليه قريشٌ نَعْشَ سيِّدها   فثمَّ حَلَّ الندى والعزُّ والخِيرُ[2]

أبا المغــيرة والدنيا مفجّعة   وإنَّ مَنْ غَرَّت الدنيا لَمَغْرُور

قد كان عندك للمعروف عَارِفَةٌ   وكان عندك لِلنَّكْرَاء تَنْكِيرُ

وكنت تُغْشَى فتُعْطِى المالَ من سَعَةٍ   فالآنَ بابُك أمسى وهو مهجور

ولا تلين إذا عوشِرت معتسراً   وكان أمْرَك ما يُوسِرْتَ مَيْسُورُ

لم يَعْرِف الناسُ مذ غيّبْتَ فتيتَهم   ولم يُجَلِّ ظلاما عَنْهُمُ نور[3]

فالناس بعدك قد خفّت حلومهمُ   كأنما نفَخَتْ فيهـــا الأعاصيرُ

أخذ هذا البيت من قول مهلهل بن ربيعة فى أخيه كليب، وكان إذا انتدى[4] لم تحلّ حَبْوَته ، ولم ينطق أحد إلا مجيباً له ، إجلالا ومهابة :

أنبئت أن النار بعدك أوقدت   واستبَّ بعدك يا كليبُ المجلس

وتحدثوا فى أمرِ كلِّ عظيمة   لو كنت حاضر أمْرِهم لم يَنْبِسوا

من أخبار حارثة بن بدر

وكان حارثة ذَا بيان وجَهارة [وأدب] ، وكان شـــاعراً عالمًا بالأخبار [والأنساب] ، وكان قد غلب على زياد ، وكان حارثة منهوماً فى الشراب ، فعُوتب زيادٌ فى الاستئثار به ، فقال: كيف أطَّرِح رجلا يُسايرنى مذ دخلت العراق، ولم يصكُّكْ ركابُه ركابى ، ولا تقدَّمنى فنظرت إلى قفَاه ، ولا تأخر عنى فلويت عنقى إليه ، ولا أخذ علىّ الشمس فى شتاء قط ، ولا الرَّوْح فى صيف ، ولا سألته عن باب فى العلم إلا قدّرت أنه لا يحسن غيره .

وقال له زياد : من أخطب ؟ أنا أم أنت ؟ فقال : الأمير أخطب إذا تَوَعّد

---

(١) يسفى : يثور ، والمور : التراب (م) . (٢) الخير ـ بكسر الخاء ـ الشرف والكرم (م) . (٣) فى نسخة « لم يعرف الناس مذ غيبت فتنتهم » (م).

(٤) انتدى : جلس فى الندى ، وهو مجتمع القوم للسمر والمشورة (م) .

أو وعد، و برَق ورَعد، وأنا أخطبُ فى الوفادة ، والثناء، والتحبير ، وأنا أكْذب إذا خطبت ، وأحشو كلامى بزيادات [مليحة] شهيّة ، والأمير يَقْصد إلى الحق، وميزانِ العدل ، ولا يَزيدُ فى كلامه ، ولا ينقص منه .

فقال له زياد : [قاتلك الله !] لقد أجدتَ تخليص صفتى وصفتك .

ولما مات زياد جفاه عبيدُ الله [ابنهُ] ، فقال [له حارثة : أيها الأمير، ماهذا الجفاء مع معرفتك بالحال عند أبى المغيرة ؟ فقال له عبيد الله] : إن أبا المغيرة بلغ مبلغا لا يلحقه فيه عيب ، وأنا أُنْسَب إلى من يغلبُ علىّ. وأنت تُديمُ الشرابَ، وأنا حديثُ السن ؛ فمتى قرَّبتك فظهرت منك رائحة الشراب لم آمَنْ أن يُظَنّ بى [ذلك] ، فدَع الشراب وكن أول داخل وآخر خارج .

فقال له حارثة : أنا لا أدعه لمن يملك ضرى ونَفْعى ، أأدَعهُ للحال عندك ؟ ولكن صَرّفنى فى بعض أعمالك . فولاّه سُرّق من بلاد الأهواز .

لأبى الأسود فى حارثة بن بدر

وقال أبو الأسود الدؤلى ،وكان صديقاً لحارثة:[1]

أحار بن بدر قد وَليت ولايةً ... فكن جُرَذاً فيها تخونُ وتَسْرقُ

ولا تَدَعَنْ للنـاس شيئاً تصيبه ... فحظُّك من ملك العراقين سُرّق

فما الناسُ إلا قائل فمكذبُ ... يقول بما يَهْوَى وإمَّا مُصَدَّق

يقولون أقوالا بظنّ وتهمة ... فإن قيل هاتوا حقّقوا لم يحقّقوا

فقال له حارثة :

جواب حارثة بن بدر

جزاك إلهُ العرش خَيْرَ جزائه ... فقد قلت معروفاً وأوْصيت كافياً

أمرتَ بشىء لو أمَرْتَ بغيره ... لألفيتنى فيه لأمركَ عاصياً

---

(١) هذا الشعر قد رواه ابن قتيبة فى الشعر ، ونسبه إلى أنس بن أناس الكنانى الدؤلى ،وهو من رهط أبى الأسود الدؤلى (م) .

[وصف امرأة]

قال الأصمعى : سمعت امرأة من العرب تصفُ امرأةً وهى تقول : سَطعاء بَضَّةٌ ، بيضاء غضّة ، دَرْماء رَخْصَة ، قَبَّاء طَفْلة ، تنظر بعينَىْ شـادنٍ ظَمآن ، وتبسم عن مُنَوِّر الأقحوان ، فى غبّ التهتَان ، وتشير بأساريع الـكُثبَان ، خلقها عميم ، وكَلاَمُها رخيم ، فهى كما قال الشاعر :

كأنها فى القُمُصِ الرقاق مُخَّة ساق بين كَفَّىْ ساقِ[1]

أعْجَلَها الشاوى عن الإحراقِ

ووصف أعرابى امرأة يحبّها فقال : هى زينة [فى] الحضُور ، وباب من أبواب السُّرور ، ولَذكرها فى المغيب ، والبعد من الرقيب ، أشهى إلينا من كل ولد ونسيب ، وبها عرفت فضل الحور العين ، واشتقْتُ بها إليهنَّ يوم الدين .

[من كلام الأعراب]

وسئل أعرابى عن سفر أكْدى فيـه ، فقال : ما غنمنا إلا ما قَصَرْنا من صلاتنا ، فأمّا ما أكلته منا الهواجر ، ولقِيَتْه منـا الأباعر ، فأمرٌ استخففناه ، لما أمّلناه .

وقال عبد قيس بن خُفَاف البُرْجمى لحاتم الطائى ، وقد وَفد عليه فى دماء حملها ، قام ببعضها وعجز عن بعض : إنى حملت دماء عَوَّلْتُ فيهـا على مالى وآمالى ، فأمّا مالى فقدّمته ، وكنتَ أكبرَ آمالى ، فإن تحْمِلْها فـكم من حقٍّ قضيت ، وهمٍّ كفيت ، وإن حال دون ذلك حائل لم أذمم يومك ، ولم آيس من غَدِك .

وقيل لأعرابى : لم لا تَضْرِبُ فى البلاد[2] ؟فقال : يمنعنى من ذلك طفل بارك ، ولِصٌّ سافك ، ثم إنى لستُ مع ذلك واثقاً بِنُجْحِ طَلِبتى ، ولا معتقدا بقضاء

(١) ساق الأول : هو ما بين الركبة والقدم ، والثانى هو الذى يطوف بالشراب (م)

(٢) لا تضرب فى البلاد : لا تسافر (م) .

حاجتى ، ولا راجياً عطف قرابتى ؛ لأنى أُقْدِم على قوم أطغاهم الشيطان ، واستمالهم السلطان ، وساعدهم الزّمان ، وأسكرتْهُم حداثة الأسنان .

وخرج المهدى بعد هَدْأة من الليل يطوفُ بالبيت ، فسمع أعرابية من جانب المسجد تقول : قوم متظلّمون ، نَبَتْ عنهم العيون ، وفدَحَتْهم الدُّيون ؛ وعضَّتْهم السنون ، بادَ رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثر عِيالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق[1] ، وصية الله ، ووصية رسول الله ، فهل آمِرٌ بخير ، كلأه الله فى سَفَره ، وخلفه فى أهله . فأمر نصراً الخادم ، فدفع إليها خمسمائة درهم .

[من مقامات البديع]

المقامة الأزاذية

ومن إنشاء البديع فى مقامات أبى الفتح الإسكندرى : حدثنى عيسى بن هشام قال : كنت ببغداذ ، فى وقت الأزاذ[2] ؛ فخرجتُ إلى السوق أعتامُ[3] من أنواعه ، لابتياعه ، فسرتُ غير بعيد إلى رجل قد أخذ أنواعَ الفواكه وصفّفها ، وجمع أنواع الرُّطَب وصنّفها ؛ فقبضتُ من كل شىء أحسنه ، وقرضتُ من كل نوع أجوده ؛ وحين جمعتُ حواشىَ الإزار ، على تلك الأوزار ، أخذَت عيناى رجلا قد لفّ رأسه [ببرقع] حياء ، ونصب جسده ، و بسط يدَه ، واحتضنَ عِيالَه ، وتأبّط أطفاله ، وهو يقول بصوت يَدْفَع الضعفَ فى صدره ، والحرَضَ فى ظهره :

وي لِى على كَفَّين من سَوِيقِ | أو شَحْمَة تُضْرَبُ بالدقيقِ
أو قصعة تُمــلأ من خِرْدِيق | تَفْثأ عنّا سَطَوَاتِ الرِّيقِ
تُقيمنا عَنْ مَنْهَجِ الطريق | يارازقَ الثروةِ بعــد الضيق
سَهِّلْ على كفّ فــتًى لبيقِ | ذى حَسَبٍ فى مَجْدِه عريق

(١) أنضاء : جمع نضو — بكسر النون — وهو المهزول (م) .
(٢) الأزاذ : ضرب من التمر (م) . (٣) أعتام : أختار (م) .

يُهدى إلينا قــدم التوفيق   يُنقِذ عَيْشى من يد الترنيــق

قال عيسى بن هشام : فأخذتُ من فاضل الـكيس أخذةً وأنلتُه إياها، فقال :

يامن حَبَاني بجميـل برّه   أفْضَى إلى الله بحُسن سره

واستحفظ اللهَ جميل ستره   إن كان لا طاقةَ لى بشُكْرِه

فاللهُ ربِّى من وراء أمره

قال عيسى بن هشام : فقلت : إن فى الـكيس فضْلا ، فابْرُزْ لى عن باطنك أخرج لك عن آخره ، فأماط لِثامه ، فإذا شيخنا أبو الفتح السكندرى ، فقلت : ويحك ! أى داهية أنت ؟ فقال :

نُقضِّى العمر تشبيها   على الناس وتَمْويهاَ

أرى الأيامَ لا تَبقى   على حال فأحكيها

فيوما شرُّها فىّ   ويوما شِرّتِى فيها

[من رسائل بديع الزمان]

وسأل البديع أبا نصر بن المرزبان ـ عاريَةً ـ بعضَ ما يتجمَّل به ، فأمسك عن إجابته ؛ فأعاد الـكتاب إليه بما نسخته :

لا أزالُ — أطال الله تعالى بقاء مولانا الشيخ ! — لسوء الانتقاد ، وحسن الاعتقاد ، أمْسَحُ جبينَ الخجل ، وأمدُّ يمين العَجَل ، ولضعف الحاسّة ، فى الفراسة ، أحسب الوَرَمَ شَحْما[1] ، والسرابَ شراباً ، حتى إذا تجشمت موارده ، لأشرب بارِده ، لم أجِدْ شيئاً .

وما حسبت الشيخَ سيدى ممن تعنيه[2] هذه الجملة حتى عرضت على النار عودَه ، ونشرت بالسؤال جُودَه ، وكاتَبْتُه أستعيره حلية جمال ، سحابةَ يوم أو شَطْرَه ، بل مسافةَ ميل أو قَدْرَه ، فغاص فى الفِطْنَة غوصاً عميقاً ، ونظر فى الـكيس

(١) أخذه من قول أبى الطيب المتنبى :

أعيذهـا نظرات منك صادقة   أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم   (م)

(٢) فى نسخة « ممن تحزنه » (م .

نظراً دقيقاً ، وقال : هذا رجل مشحوذ المُدْية ، فى أبواب الكُدْية[1] ، قد جعل استعارة الأعلاق طريقَ افتراسها ، وسبب احتباسها ، وقد منَّى ضِرْمــه ، وحدَّثَ بالمحال نفسه ، ولا لطيفة فى هذا الباب ، أحسن من التغافل عن الجواب ، فضلاً عن الإيجاب ، وكلا فما فى أبواب الردّ أقبح مما قرع ، ولا فى شرائع البخل أوحش مما شَرع ؛ ثم العُذر له من جهتى مبسوط إن بسطه الفَضْل ، ومقبول إن قَبله المجد ، وإنما كاتبتُه لأعيد الحال القديمة ، وأشرط له على نفسى أن أريحه من سَوْم الحاجات من بعد ، فمن لم يَسْتَحى من « أعْطِنى » ، لم يُسْتَحى له من « أعفنى » ؛ وعلى حسب جوابه أجرى المودة فيما بعد ، فإن رأى أن يجيبَ فعل إن شاء الله .

كتاب منه إلى سهل ابن محمد

وله إلى سهل بن محمد بن سليمان :

أنا إذا طويت عن خِدْمَة مولاى ــ أطال الله بقاءه ــ يوماً لم أرفع له بَصرى ، ولم أعدّه من عمرى ، وكأنى بالشيخ ــ أعزه الله ــ إذا أغفلت مفروض خِدْمته ، من قَصْدِ حضرته ، والمثول فى حاشيته ، وجملة غاشيته ، يقول : إن هذا الجائع لمّا شبع تضلّع ، واكتسى وتلفّع ، وتجلّل وتَبَرْقَع ، تربّع وترفّع ، فما يطوفُ بهذا الجناب ، ولا يَظهَرُ بهذا الباب ؛ وأنا الرجل الذى آواه من قَفْرٍ ، وأغناه من فَقْرٍ ، وآمنه من خَوْف ، إذ لا حَرٌّ بوادِى عَوْف ؛ حتى إذا وردت عليه رُقعتى هذه ، وأعارها طَرْف كرمه ، وطَرْف شِيَمِه ، ونَظَر فى عنوانها اسمى قال : بُعداً وسحقاً ، [وسبّا وتبّا] وحتّا ونحتاً ، وطَعْنا ولَعْنا ، فما أكذبَ سَرَابَ أخلاقه ، وأكثر أسْرَاب نفاقه ، فالآن انحلّ من عقدته ، وانْتَبه من رَقْدَته . وكاتبنى يستعيدنى ، كلاّ لا أزَوِّجُهُ الرِّضا ولا قُلاَمة ، ولا أمنحه المُنَى ولا كرامة ، بل أدعُه يركب رَاسه ، ويُقاسى أنفاسه ، فستأتينى به الليالى ، والكيس الخالى ، ثم أُرِيه ميزانَ قَدْره ، وأُذِيقه وبالَ أمره ، حتى

---

(١) الكدية ــ بضم فسكون ــ السؤال والشحاذة (م)

إذا بلغ موضع الحاجة من الرقعة قال : مَأرُبةٌ لا حَفَاوة ، ووَطر ساقَهُ ، لا نِزَاعٌ شَاقَه[(١)] ،فهذا بذَا،ولا أبعدمن تلك الهمم العالية،والأخلاق السامية أن يقول:مرحبا بالرّقعة وكاتبها،وأهلا بالمخاطبة وصاحبها[وقضاء الحاجة بإنجاحها،و إبرازها،وهى الرقعة التى سالت إلى من التمسته، كما اقترحته بما طالبته ،فرأيُهُ فيه موفق إن شاء الله تعالى].

وله أيضا إلى بعض الرؤساء يسأله إطلاق محبوس [بسببه] .

كتاب منه إلى بعض الرؤساء

الشيخ ـ أطال الله بقاءه ـ إذا وصل يدى بيده لم ألمس الجوْزَاء إلا قاعداً ، وقد نَاطَها مِنّةً فى عُنُق الدهر ، وصاغها إكليلا لجبين الشكر . وما أقْصَر يَدِى عن الجزاء ، واسانى عن الثناء . وهذا الجاهلُ قد عرف نفسَه ، وقلع ضرسه، ورأى ميزان قدْرِه ، وذاق وبال أمره ، وجهز إلىّ كتيبة عجائز عاجزات[(٢)] ؛ فأَطْلَقْن العويل والأليل ، و بعثنى شفيعاً إلى ، واستعنَّ بى علىّ ، وتوسَّلْن بكلمة الاستسلام ، ولحمة الإسلام ، فى فَكّ هذا الغلام ؛ فإن أحبَّ الشيخُ أن يجمعَ فى الطَّوْلِ بين الحوض والكوثر[(٣)] ، و ينظم فى الفَضْل ما بين الروض والمطر ، شفّع فى إطلاقه مَكَارِمَه ، وشرّف بذلك خادمه ، وأنجزنا بالإفراج عنه ، مُوَفَّقاً إن شاء الله تعالى .

[عفو عن ذى جَرِيرة]

المأمون

وقال رجل لإبراهيم بن المهدى : اشفعْ لى إلى أمير المؤمنين فى فَكّ أخى من حَبْسه ، وكان محبوسا فى عِدَاد العُصاة ، فقال للمأمون : ليس للعاصى بعد القُدْرة عليه ذَنب ، وليس للمصاب بعد الملك عذر[(٤)] . فقال : صدقت ؛ فما طَلِبَتك ؟ قال : فلان هَبْه لى . قال : هو لك .

---

(١) نزاع : أراد به نزوع القلب إليه ، وشاقه : أعجبه ،والمراد أنه إنما بعثه على الكتابة الحاجة إليه لا المحبة (م) .

(٢) فى نسخة « عجائز فاجرات » ولا يتفق مع موضوع الكتاب (م) .

(٣) فى نسخة « فى الطول إزاء الحوض إلى العفر » (م) .

(٤) فى نسخة « وليس للعاتب بعد ذلك عليه عذر » .

أحمد بن أبى خالد

وسأل أبو عبادة أحمد بن أبى خالد أن يطلق له أسارى ، ففعل ، فقال له : قد فككنا أسْرَاكَ . فقال : لا فَكَّ الله رِقَابَ الأحرار من أياديك !

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بالإطلاق من الأسر

الحمدُ لله حَمْدَ الإخلاص ، على حسن الخَلَاصِ ، الذى أفْضَى بك من ذِلَّةِ رِقّ ، إلى عزَّة عِتْق ، ومن تَصْلِيَةِ جحيم ، إلى جنَّةِ نعيم . خَرج من العِقَال ، خروج السيفِ من الصِّقال . خرج من إساره ، خروجَ البَدْرِ من سِراره . الحمدُ لله الذى فكَّ أسراً ، وجعل من بعد العُسْرِ يُسراً . خرج من البلاء ، خروج السيف من الجلاء . قد جعل الله لك من مَضَايق الأمور مخرجا نجيحاً ، ومن مغالق الأهوال مسرحاً فسيحاً[1] .

[أبو نواس يمدح الأمين]

مدح أبو نواس الأمين محمداً فى [أول] خلافته بقصيدته التى يقول فيها :

أقول والعِيسُ تعرَوْرِى الفَلَاةَ بنا ... صُعْر الأزمة من مَثْنَى ووُحْدانِ
ياناق لا تسأمى أو تبْلُغِى ملكا ... تقبيلُ راحته والرُّكن سِيّانِ
مقابلا بين أملاك تفْضِلهُ ... ولادتان ن المنصور ثِنْتان
متى تحطِّى إليه الرَّحْل سالمةً ... تَسْتَجْمِعِى الخَلق فى تمثال إنسان

قال [الحسن] : هذا لأن محمدا ولدهُ المنصور مرتين من قِبَل أن أباه هرون الرشيد بن المهدى بن أبى جعفر المنصور ، ومن قِبل أن أمه أمة العزيز بنت جعفر ابن [أبى جعفر] المنصور ، وكان المنصور دخل عليها وهى طفلة تلعب ، فقال : ما أنت إلا زُبَيْدة ، فغلب عليها هذا اللقب ، ولم يَلِ الخلافة مَنْ أبواه هاشميان غير على بن أبى طالب وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وابنه الحسن ، وأمه فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم، والأمين محمد بن الرشيد .

(١) المسرح : مكان السراح ، وهو الانطلاق والفكاك (م) .

رجع القول — فلما أنشده القصيدة قال : ما ينبغى أن يُسْمَع مدحُك بعد قولك فى الخصيب بن عبد الحميد :

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيب ركابُنا   فأىّ فتى بعـد الخصيب تزورُ؟
فتى يشترى حسنَ الثناء بمالهِ   ويعلم أن الدائراتِ تدورُ
فما فاته جُودٌ ، ولا حلَّ دونه   ولـكن يسيرُ الجود حيث يسيرُ[1]

فقـال : يا أمير المؤمنين ، كلُّ مدح فى الخصيب وغيره فَمَدْح فيك ؛ لأنى أقول ، ثم ارتجل :

ملـكتَ على طير السعادة واليُمْنِ   وجاءت لك العلياء مقتَبِلَ السنِّ
بمحيا وجود الدّين تحيـــا مهنأً   بحسن و إحسان مع اليُمْن والأمْن
لقد طابت الدنيـــا بطيب ثنائه   وزادت به الأيامُ حسناً إلى حُسْن[2]
لقد فك أرقاب العُفَاة محمـــدٌ   وأسكن أهل الخوف فى كنف الأمْنِ[3]
إذا نحْنُ أثنينــــا عليك بصالحٍ   فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى
و إن جرَت الألفاظُ يوماً بمدحةٍ   لغيرك إنسـاناً فأنْتَ الذى نَعْنى

قال : صدقت ، مَدْحُ عبدى مدح لى ؛ وَوَصَلَهُ وقرّبه .

* * *

وأما قول أبى نواس :

* إذا نحنُ أثنينا عليك بصـــالحٍ *

فمن قول الخنساء :

فما بلغ المُهْدُونَ للناس مِدْحَةً   و إن أطنبوا إلاّ الذى فيك أفْضَلُ
وما بلغت كف امرئ متناوَلاً   من المجد إلاّ والذى نِلْتَ أطْوَلُ

---

(١) يروى « فما جازه جود . . . ولـكن يصير الجود حيث يصير » (م) .
(٢) فى نسخة « بطيب محمد » (م) .   (٣) فى نسخة « أغلال العناة » (م)

[بين الأخطل ومعاوية]

وفد الأخطل على معاوية ،فقال : إنى قد امتدحتك بأبيات فاسمعها ،فقال : إن كنت شبّهتنى بالحية ، أو الأسد ، أو الصقر ، فلا حاجةَ لى بها ، وإن كنت [قلت] كما قالت الخنساء ، وأنشد البيتين ، فقل . فقال الأخطل : والله لقد أحسنَتْ ، وقد قلت فيك بيتين ما هما بدونهما ، ثم أنشد :

إذا مُتَّ ماتَ العُرْفُ وانقطع النَّدَى فلم يبق إلا من قليلٍ مصرَّدِ
ورُدَّت أكفُّ السائلين وأمسكوا عن الدين والدنيا بخزن مجدَّدِ

* * *

وقول أبى نواس : * وإن جَرَت الألفاظ يوماً بمِدْحَةٍ * من قول كثير فى عبد العزيز بن مروان :

مَتى ما أقِل فى سالف الدهْر مِدْحَةً فما هى إلاّ لابن ليلى المعَظّم

وقال الفرزدق :

وما أمرتنى النفس فى رِحْلَةٍ لها إلى أحَدٍ إلا إليك ضَميرُهَا

ولما أنشد أبو تمام أحمد بن أبى دُوَاد قصيدته :

* سقى عهدَ الحمى صوبُ العِهاد *

وانتهى إلى قوله :

وماسافرتُ فى الأفاق إلاّ ومِنْ جَدْوَاك راحِلَتى وزادى
مُقيمُ الظنِّ عندكَ والأمانى وإنْ قَلِقَتْ رِكابى فى البلادِ

قال له ابن أبى دُوَاد : هذا المعنى لك أو أخذته ؟ قال : هُو لى ، وقد ألممتُ فيه بقول أبى نواس :

وإنْ جَرَت الألفاظ يوما بمِدْحَةٍ لغيرك إنساناً فأنتَ الذى نعنى

وأخذه المتنبى فقال :

أَشَرْتَ أبا الْحُسَيْنِ بمدحِ قَوْمٍ نَزَلْتُ بهم فرحت بغـير زَادِ
وظَنُّونِى مَدَحْتهم قَدِيمـــا وأنتَ بمـا مَدَحْتهم مُرَادِى

وأما قول أبى تمام : « وما سافرتُ فى الآفاق - البيت » فمن قول المثقب العبدى ، [وذكر ناقته :

إلى عَمْرِو بن حمـــدَان أبينى أخى النَّجْدَات والمجد الرصين[1]

* * *

وأما قولُ أبى نواس : * فما فاته جود ولاحَلَّ دونه * البيت ، فمن قول الشمردل بن شريك [اليربوعى] :

ما قَصَّرَ المجد عنـكم يا بنى حكم ولا تجـاوزكم يا آل مَسعود
يحـــل حيث حللتم لا يَرِيمكم ما عاقبَ الدَّهْر بين البيض والسُّودِ[2]
إن يشهدوا يوجد المعروف عندهم خِدْناً وليس إذا غابوا بمَوْجُودِ

وقد قال الكميت الأسدى :

يســـير أبان قريع السما ح والمكرمَت مَعا حيث سارَا

* * *

وقول أبى نواس أيضاً :

* فتًى يَشْتَرِى حُسْنَ الثناء بماله *

مأخوذ من قول الراعى :

فتى يشـــترى حُسْنَ الثناء بمالِه إذا مااشترى الَمخْزَاةَ بالمَجْدِ يَبْهَسُ

[بين السفاح وأبى نخيلة]

دخل أبو نُخَيْلة على أبى العباس السفاح ، فاستأذنه فى الإنشاد ، فقال : لعنك الله ! أَلَسْتَ القائل لمسلمة بن عبد الملك :

أمسلمةُ يانَجْلَ خـــير خليفةٍ ويافارس الهَيْجَاو ياجبلَ الأرضِ

---

(١) فى نسخة «إلى عمرو ومن عمرو أتتنى» (م)
(٢) لايريمكم : لايفارقكم ،والبيض : الأيام، والسود: الليالى (م)

شكرتك إنّ الشكرحَبْلٌ من التقى ... وما كلُّ من أوليته نعمةً يقضِى
وألقيتَ لمّا أن أتيتك زائراً ... علىَّ لحافاً سابغَ الطولِ والعرضِ
ونبهْتَ من ذكرى وما كان خاملا ... ولكن بعض الذكر أنبهُ من بعض

ثم أمره بأن ينشد ، فأنشده أرجوزة يقول فيها:

كنّا أناساً نرهَبُ المُلاّكا ... ونركب الأعْجَاز والأوراكا
وكلّ ما قد مرّ فى سواكا ... زُورٌ، وقد كفّرَ هذا ذاكا

واسم أبى نخيلة الجنيد بن الجون ، [وهو مولى لبنى حماد] ، كان مقصّداً راجزاً .

* * *

قيل للخنساء : لئن مدحْت أخاك لقد هجوت أباك ! فقالت :

جارَى أباهُ فأقبلا وهُما ... يتعاوَرَان ملاءة الُحضْر(١)
حتى إذا جدَّ الجِراء وقَدْ ... ساوَى هناك القدر بالقدر(٢)
وعلاَ صِياحُ الناسِ : أيهما ؟ ... قال المجيب هناك:لا أدْرى
برقت صحيفةُ وَجْهِ والدهِ ... ومضى على غُلَوَائه يَجْرى
أولى فأولى أن يُسَاوِيهُ ... لولا جلالُ السِّنِّ والكِبَرِ
وهما كأنهما وقد بَرَزا ... صَقْرَان قد حَطَّا على وَكْرِ

وقيل لأبى عبيدة : ليس هذا فى شعر الخنساء . فقال : العامةُ أسقط من أن يجاد عليها بمثل هذا .

* * *

وقد أحسن البحترى فى نحو هذا ؛ إذ يقول فى يوسف بن أبى سعيد ، [ومحمد] بن يوسف الطائى :

جدٌّ كجد أبى سعيد إنهُ ... تَرَكَ السماكَ كأنه لم يَشرُفِ

---

(١) الحضر ـ بالضم ـ شدة عدو الفرس (م) .
(٢) الجراء ـ بكسر الجيم ـ جرى الفرس (م) .

قاسمتـــه أخلاقه وهى الردى للمعتدى وهى النـدى للمُعْتَفى
وإذا جرى فى غاية وَجَرَيْتَ فى أخرى التقى شأوا كما فى المَنْصَف (١)

* * *

قول الخنساء : * يتعاوَرَان ملاءة الُحضْر *
أبرع استعارة ، وأنصع عبارة ، وقد قال عدى بن الرقاع :

يتعاوران من الغبـــار مُلاءةً غبْرَاء محكمة هما نَسَجَاها
تطوَى إذَا وردا مكاناً جاسيا فإذا السنابِكُ أسهلت نَشَرَاها (٢)

وإلى هذا أشار الطائى فى قوله :

تُثِيرُ عَجَاجَةً فى كل ثَغْرٍ يهيمُ بها عدىُّ بنُ الرِّقاعِ

وأول من نظر إلى هذا المعنى شاعر جاهلى من بنى عقيل (٣) فقال :

ألاَ يا ديارَ الحىِّ بالسَّبُعَانِ عَفَت حِججاً بعدى وهُنَّ ثمان
فلم يبق منها غيرُ نُؤىٍ مُهَدَّمٍ وغيرُ أثَافٍ كالرَّكِىِّ رِعَانِ
وآياتِ هابٍ أورقِ اللون سافَرت به الريحُ والأمطارُ كلَّ مكان (٤)
قِفَارٌ مَرَوْرَاة تحارُ بها القطا وتمسى بها الجابان تقتربان (٥)
يثيران من نَسْج الغبار عليهما قميصين أسمـالاً ويَرْتديان

ومن مستحسن رثاء الخنساء وليلى وغيرهما من النساء

من رثاء الخنساء.

قال أبو العباس أحمد بن يحيى النحوى : أنشد أبو السائب المخزومى قول الخنساء :

وإنَّ صخراً لَمَوْلاَنا وسـيِّدُنا وإنَّ صَخْراً إذا نَشْتُو لنحَّارُ

(١) الشأو : الأمد والغاية ، والمنصف : النصف ، يريد نصف الطريق (م).
(٢) فى نسخة « إذا وردا مكانا ناشزا » (م)
(٣) ينسب بعض الناس هذا الشعر لابن أحمر ، وبعضهم ينسبه لابن مقبل (م).
(٤) فى نسخة « وآيات آب » (م) .
(٥) فى نسخة « ويمشى بها الجامان يعتركان » (م) .

وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ به — كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ

فقال: الطلاق لى لازم إن لم تكن قالت هذا وهى تتبختر فى مشيها، وتنظر فى عِطفها.

من بديع رثاء الخنساء

ومن مستحسن رثاء الخنساء قولُها ترثى أخاها صخراً:

اذهب فلا يبعدنْكَ اللهُ من رجل — منّاع ضيم وطلّاب لأوتارِ

قد كنت فينا صريحاً غير مؤتشب — مركّباً فى نصاب غير خوّار

فسوف أبكيك ما ناحتْ مطوّقةٌ — وما أضاءت نجومُ الليلِ للسارِى

أبكى فتى الحىّ نالته منيته — وكل نفسٍ إلى وقتٍ بمقدار

وقولها [تعنيه]:

شهّاد أنجيةٍ شدّاد أوهية. — قطّاع أودية للوترِ طلابا

سُمّ العُداة وفكّاك العُناة إذا — لاقَى الوغَى لم يكن للموت هيّابا

يهدى الرَّعيلَ إذا جار السبيلُ بهم — نَهْدَ التليل لزُرْق السُّمْرِ ركّابا

[من ترجمة الخنساء، وليلى الأخيلية]

من أخبار الخنساء

والخنساء اسمها تماضر بنت عمرو [بن الحارث] بن الشريد بن رياح بن [يقظة بن عُصَيّة بن خُفاف] بن امرئ القيس، وتكنى أم عمرو، ومِصْدَاقُ ذلك قولُ أخيها [صخر]:

أرى أمَّ عمرو لا تملُّ عيادتى — وملّت سليمى مَضْجَعِى ومكانى

سليمى: امرأته، وإنما لقبت الخنساء كناية عن الظبية، وكذلك [تسميتهم] الذلفاء. والذلف: قصر فى الأنف؛ وإنما يريدون به أيضاً أن ذلك من صفات

نسب ليلى

الظباء، وهى أشعر نساء العرب عند كثير من الرُّواة؛ وكان الأصمعى يقدم ليلى الأخيلية، وهى ليلى بنت عبد الله بن كعب بن ذى الرحّالة بن معاوية بن عبادة بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، وقيل لها الأخيلية لقول جدها كعب:

موازنة بينهما

نحن الأخايل ما يَزَالُ غلامُنا حتى يَدِبّ على العصا مذكورا

قال أبو زيد : [هـذا البيت لها فسُمّيت به ، وليلى أغزر بحرا] ، وأكثر تصرفاً ، وأقوى لفظاً ؛ والخنساء أذهب فى عمود الرثاء .

قال المبرد : كانت الخنساء وليلى الأخيلية فى أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول، وقلما رأيت امرأةً تتقدّم فى صناعة ، وإن قل ذلك ، فالجملة ما قال الله تعالى : « أو من يُنَشَّأ فى الِحْلْيَةِ وهو فى الخصام غير مبين » .

ومن أحسن المراثى ما خلط فيـــه مدحٌ بتفجعٍ على المرثى ، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولَهْجَة معربة ، ونظام غير متفاوت ، فهو الغاية من كلام المخلوقين .

واعلم أن من أجَلّ الكلام قولُ الخنساء:

يا صَخْرُ ورّاد ماء قـد تناذَرَه أهْـلُ المياهِ فما فى وِرْدِه عَارُ

مَشْىَ السَّبَنْتَى إلى هَيْجاء معضلةٍ لهـا سِلاَحَان أنيابٌ وأظفارُ[1]

وما عجول على بَوٍّ تُطِيفُ بِهِ لهـا حنينان إعلانٌ وإسرارُ

ترتع فى غفلة حتى إذا ادَّكرَتْ فإنمـا هى إقبالٌ وإدبارُ[2]

يوماً بأَوْجَعَ منى حين فارقنى صَخْرٌ، وللعيش إحْلاء وإمْرَارُ

لم تَرَهُ جارةٌ يمْشِى بساحتهـا لِرِيبةٍ حـين يُخْلِى بيتَه الجارُ

قال : ومن كامل قولها :

فلولا كثرةُ البـاكِين حـولى على إخوانهـم لقتَلْتُ نَفْسِى

وما يَبْكون مثلَ أخى،ولَـكِنْ أُسَلِّى النفسَ عنـــه بالتأَسِّى

يذكِّرُنى طلوعُ الشمسِ صخراً وأذْكُره لـكلِّ غروبِ شمس

---

(١) السبنتى ـ بفتح الشين والياء وسكون النون ـ الجرى، المقدام ،وهو أيضاً النمر (م) (٢) حفظى « ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت » (م)

يعنى أنّها تذكره أول النهار للغارة ، ووقت المغيب للأضياف .

***

لابن الرومى

وقد قال ابن الرومى فيما يتعلق بطَرف من هذا المعنى :

رأيتُ الدهرَ يَجْرَحُ ثم يَأْسُو ويُوسِى أو يعوض أو يُنَسِّى
أبَتْ نفسى الهُلَاعَ لرُزْء شىء كفى شجواً لنفسى رُزْء نفسى
أتجزعُ وحشــــةً لفراق إلْف وقد وطنتُهــا لحلول رَمْسِ

وقد أنــكر على من تعلّل بالتأسى بما قال غيرُه[1] ، فقال فى ذلك :

خليليّ قد علّلتمانىَ بالاسٰى فأنعمتما لو أننى أتعَـلّلُ
أللناس آثارِى ، وإلاّ فما الأسى وعيشكما إلاّ ضلالٌ مضَلّلُ
وما راحــةُ المرزوء فى رُزْء غيره أيَحْمِلُ عنــه بعضَ ما يتحمَّلُ
كِلا حامِلَىْ عِبْء الرزية مُثقَلٌ وليس معيناً مُثقَل الظَّهرِ مُثقَلُ
وضربٌ من الظلم الخفىّ مكانُهُ تَعَزّيك بالمرزوء حيــن تَأَمّلُ
لأنك يأســوك الذى هو كلّهُ بلا بَصَر لو أن جــورَكَ يَعْدِلُ

للخنساء

وقالت الخنساء :

وقائلة والنعش قد فات خطوها لتدركه يا لَهْفَ نفسى على صَخْرِ
ألا ثكلت أمُّ الذين غَدَوْا به إلى القبر! ماذا يَحْمِلُونَ إلى القبر؟ !
وما ذا يُوَارِى القبرُ تحت ترابهِ من الجود يابُؤْس الحوادثِ والدهر
فشانُ المنايا إذ أصابك رَيْبُها لتغدعَلَى الفِتْيَانِ بعدك أو تَسْرِى

وهذا المعنى كثير قد مرّت منه قطعة جيدة ، ولم تزل الخنساء تبكى على أخويها صخرٍ ومعاوية ، حتى أدركت الإسلام ؛ فأقبل بهــا بنو عمّها وهى عجوز كبيرة إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ! هذه الخنساء ،

---

(١) فى نسخة « بما قال عنترة » تطبيع (م) .

وقد قرّحت آماقَها من البكاء فى الجاهلية والإسلام ، فلو نَهَيْتَها لرجونا أن تنتهى ، فقال لها عمر رضى الله عنه : اتقى اللهَ وأيقنى بالموت ، قالت : أبكى أبى وخَيْرَ بنى مضر صخرا ومعاوية ، وإنّى لموقِنة بالموت ، قال : أتبكين عليهم وقد صاروا جَمْرَة فى النار ؟ قالت : ذلك أشدّ لبكائى عليهم ! فرقّ لها عمر وقال : خلّوا عن عجوزكم لا أبا لكم ! فكل امرىء يبكى شَجْوَهُ ، ونام الخَلِىُّ عن بكاء الشجى .

عمرو بن الشريد وأبناه

وكان عمرو بن الشريد يَأْخُذ بيد ابنيه معاوية وصخر فى الموسم ، ويقول : أنا أبو خَيْرَى مضر ، فمن أنكر فليغيّر ، فلا يغير ذلك عليه أحد ، وكان يقول : من أتى بمثلهما أخو بن من قبل فله حكمه ، فتُقِرّ له العرب بذلك .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : أنا ابن الفواطم من قريش ، والعواتك من سُلَيم ، وفى سُلَيم شرف كثير .

وكان يقال لمعاوية : فارس الجَوْن ، والجَوْن من الأضداد ، يقال للأسود والأبيض ، وقتلته بنو مرّة ، قتله هاشم بن حَرْمَلة ، فطلبه دُرَيد بن الصِّمّة حتى قتله ، وأما صخر فغزا أسد بن خزيمة فأصاب فيهم ، وطعنه ثَوْر ابن ربيعة الأسدى ، فأدخل فى جوفه حلقا من الدرع فاندَمَل عليه ، فنتأت قطعة من جنبه مثل اليد ، فمرض لها حولا ، ثم أشير عليه بقطعها ، فأحموا له شفرة ثم قطعوها ، فما عاش إلا قليلا .

من رثاء ليلى الأخيلية

ومن جيد شعر ليلى الأخيلية ترثى تَوْبَةَ بن الحميّر الخفاجى ، وكان لها محبًّا ، وله فيها شعرٌ كثير ، وقتله بنو عوف بن عُقَيل ، قتله عبد الله بن سالم :

نظرتُ وركنٌ من عَمَايَةَ دوننا[1]   وأركان جسمى أىّ نظرة ناظرِ
فآنست خيلا بالرقىّ مغيرةً   سَوابقُها مثل القَطَا المتواترِ

---

(١) عماية — بفتح العين — جبل فى بلاد نجد من بلاد بنى كعب وقشير وعقيل (م)

فإنْ تَكُنِ القَتْلَى بَوَاءً فإنكم ... فتى ما قتلتم آلَ عَوْفِ بن عامرِ (١)

فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ يا تَوْبَ إنما ... لقاه المنايا دَارِعا مثل حاسِرِ

أتتْهُ المنايا بين دِرْعٍ حصينةٍ ... وأسمرَ خَطِّيٍّ وجرداءَ ضامِرِ (٢)

كأنَّ فَتَى الفتيان تَوْبَةَ لم يُنِخْ ... قلائصَ يَفْحَصْنَ الحصَى بالكَراكِرِ (٣)

ولم يُدْعَ يوماً لِلْحِفَاظِ ولِلنُّهى ... وللحربِ تَرْمِي نارُها بالشَّرائرِ (٤)

وللبازلِ الكَوْماءِ يَرْغُو حُوَارُها ... وللخيلِ تَعْدُو بالكُماةِ المَسَاعِرِ (٥)

فتى لا تَخَطَّاه الرِّفَاقُ ، ولا يرى ... لِقِدْرٍ عِيَالا دون جارٍ مُجَاوِرِ

فتى كان أحْيَا من فتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وأشجعَ من لَيْثٍ بخَفَّانَ خَادِرِ (٦)

فتى لا تراهُ النَّابُ إلْفاً لِسَقْبِها ... إذا اخْتَلَجَتْ بالناس إحْدَى الكبائرِ

وكنتَ إذا مولاه خاف ظُلامَةً ... أتاكَ فلمْ يقنعْ سِوَاكَ بناصِرِ

وقد كنتَ مَرْهُوبَ السِّنانِ وبَيِّنَ الْلِّسَانِ ومِدْلاجَ السُّرَى غيرَ فاترِ

ولا تأخذُ الكُومُ الجِلادُ سِلاحَها ... لتوبةَ في حَدِّ الشتاءِ الصَّنابِرِ (٧)

وفود ليلى على معاوية

وقال بعض الرواة : بينا معاوية يسير إذ رأى راكبا ، فقال لبعض شُرَطه : ائتنى به وإياك أن تَرُوعه . فأتاه فقال: أجب أمير المؤمنين ، فقال : إياه أردت ، فلما دنا الراكب حدَر لثامه فإذا ليلى الأخيلية ، فأنشأت تقول:

معاوىَ لم أكَدْ آتيك تَهْوِى ... بِرَحْلِى نحو ساحتك الركابُ

(١) بواء ــ بفتح الباء والواو ــ متكافئين متماثلين (م)

(٢) خطى : منسوب إلى الخط ، والمراد الرمح ، والجرداء : القصيرة الشعر ، والضامر : الهضيم البطن ، والمراد الفرس (م)

(٣) القلائص : جمع قلوص ، وهى الناقة الفتية ، والكراكر : جمع كركرة، وهى رحى زور البعير ، أو صدره (م) (٤) الحفاظ ــ بالكسر ــ المحافظة على ما تجب المحافظة عليه ، وفى نسخة «ترمى نارها بالشرائر» (م) (٥) الحوار ــ بضم الحاء ــ ولد الناقة ، والكماة : جمع كمى ، وهو الفارس المتكمى فى سلاحه : أى المستتر فيه ، والمساعر : جمع مسعر ، وهو الذى يوقد الحرب ويشعلها (م)

(٦) الليث : الأسد ، وخفان : مأسدة قرب الكوفة ، وخادر : مقيم (م)

(٧) صنابر الشتاء : شدة برده .

تجوبُ الأرضَ نحوك ما تأنَّى ... إذا ما الأكْمُ قَنَّعها السَّرابُ
وكنتَ المرتجى وبك استغاثت ... لِتَنْعَشها إذا بخل السحابُ

قال : فقال : ما حاجتُك ؟ قالت : ليس مثلي يَطْلُب إلى مثلك حاجة ، فتخيّر أنت ! فأعطاها خمسين من الإبل ؛ ثم قال : أخبريني عن مُضَر ، قالت : فاخِرْ بمضر ، وحَارِب بقيس ، وكاثِرْ بتميم ، وناظر بأسد، فقال:ويحك ياليلى! أكما يقول الناس كان تَوْبة ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ليس كل الناس يقول حقا ، الناسُ شجرةُ بَغْيٍ ، يحسدون النّعم حيث كانَتْ ، وعلى مَنْ كانَتْ ؛ كان يا أمير المؤمنين سَبْطَ البنان ، حديدَ اللسان ، شَجَى الأقران ، كريم المَخْبَر ، عفيف المِئزر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أتعدّ الحق فيه :

بعيدُ الثَّرى لا يبلغ القَوْم قَعْرهُ ... ألدُّ مُلِدٌّ يَغْلِبُ الحقَّ باطِلُهْ[1]

فقال معاوية : ويحك يا ليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهرا خاربا ، فقالت من ساعتها مرتجلة :

مَعَاذ إلٰهي كان واللهِ توبةٌ ... جواداً على العِلاَّت جَمًّا نوافله[2]
أغرَّ خَفَاجِيًّا يرى البخل سبةً ... تُحَالِف كفَّاه النَّدَى وأنامله
عفيفا بَعِيدَ الهمّ صُلْبًا قَنَاتُهُ ... جميـلا محيّاهُ قليلا غوائِـلُهْ
وكان إذا ما الضيفُ أرْغَى بعيرهُ ... لديه أتاه نَيْـــــلُهُ وفوَاضِله
وقد علم الجوع الذى كان ساريا ... على الضيف والجيران أنك قاتله
وأنك رَحْبُ الباع ياتَوْبُ بالقِرَى ... إذا ما لئيمُ القوم ضَاقَتْ مَنَازِلُه
يَبيت قريرَ العين مَنْ كان جَارَهُ ... ويُضْحِي بخير ضَيْفُهُ ومُنَازِلُه

فقال لها معاويه : ويحك يا ليلى ! لقد جُزْتِ بتوبة قَدْرَه ، فقالت : يا أمير المؤمنين . والله لو رأيتَهُ وخبَرْتَهُ لعلمت أنى مقصرة فى نعْتِه ، لا أبلغ كُنْهَ ما هو له أهل . فقال لها معاوية : فى أى سنٍّ كان ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

(١) ألد : شديد اللدد ، واللدد ــ بفتح اللام والدال ــ الخصومة (م)
(٢) جما: كثيرا ، ويروى «عما» وهو بمعناه ، والنوافل: جمع نافلة ، وهى العطية(م)

أَتَتْهُ المنــايا حين تَمَّ تَمَامُهُ وأقْصَرَ عنه كلُّ قِرْن يُنَاضِله
وصار كليثِ الغاب يَحْمِي عَرِينَه فترضَى به أشبالُه وحلائِــلُه
عَطوفٌ حليمٌ حين يُطْلَبُ حلمه وسُمٌّ ذُعَاف لا تُصَابُ مَقَاتله

فأمر لها بجائزة ، وقال : أى ما قلت فيــه أشعر ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت شيئا إلاَّ والذى فيه من خِصَال الخير أكثر ، ولقد أجَدْتُ حيث أقول :

جزى اللهُ خــيرا والجزاء بكَفِّهِ فتًى من عُقيل سادَ غيرَ مكلَّفِ
فتى كانت الدنيا تَهُون بأسْرِها عليه فــلم ينفكّ جَمَّ التَّصَرُّفِ
ينالُ عليــاتِ الأمور بِهَوْنَةٍ إذا هى أعْيَتْ كلَّ خِرْقٍ مُسَوَّفِ (١)
هو المِسْك بالأرْى الضحا كى شِبْته بِدِرْياقَةٍ من خَمر بَيْسَان قَرْقَفِ (٢)

وفود ليلى على مروان ابن الحكم

ويقال : إنها دخلت على مروان بن الحكم فقال : ويحك يا ليلى ! أكما نعتِّ توبة كان ؟ قالت : أصلح اللهُ الأمير ! والله ما قلتُ إلا حقــا ، ولقد قصرت ، وما رأيت رجلا قطّ كان أرْبَطَ على الموت جأْشا ، ولا أقلَّ انحياشاً حين تحتدم بَرَاكاء الحرب ، ويَحْمَى الوطيس بالطَّعن والضرب ، كان والله كما قلت:

فتى لم يَزَلْ يزداد خَيْراً لَدُن نَشَا إلى أن عَلاَهُ الشَّيْبُ فوق المسايح
تَراه إذا ما الموتُ حلَّ بوردهِ ضَرُوباً على أقْرَانِهِ بالصفائح
شجاعٌ لدى الهيجاء ثَبْتٌ مُشَايحٌ إذا انْحَازَ عن أقْرَانِه كلُّ سَابِح
فعاش حميــداً لا ذميا فعــالهُ وَصُولاً لقُرْباه يُرَى غيرَ كالح

فقال لها مروان : كيف يكون توبة على ماتقولين وكان خارباً ؟ « والخارب سارق الإبل خاصة » ، فقالت : واللهِ ما كان خارباً ، ولا للموت هائبا ، ولــكنه

---

(١) هونة : أى سهولة ولين ورفق ، والخرق : الأحمق (م)
(٢) الأرى : العسل،وشبته : خلطته ،وبيسان : من بلاد الشام مشهورة بالخمر (م)

كان فتًى له جاهلية ، ولو طال عمره وأنسأه الموتُ لارْعَوَى قلبه ، ولقضى فى حب الله نَحْبَه ، وأقصر عن لهوه ، ولـكنه كما قال ابن عمه مسلمة بن زيد :

فلله قـوم غادروا ابن حُمَـيِّرٍ قتيلا صريعًا للسيوف البواتر
لقـد غادرُوا حَزْمًا وعزمًا ونائلاً وصَـبْراً على اليوم العبوس القماطرِ
إذا هاب وِرْدَ الموت كلُّ غَضَنْفَر عظيم الحـوايا لُبُّه غيْرُ حاضرِ
مضى قدُمًا حـتى يلاقىَ وِرْدَهُ وجادبسَيْبٍ فى السنين القواشر(١)

فقال لها مروان : يا ليلى ، أعوذُ بالله من درك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، فوالله لقد مات تَوْبة ، و إن كان من فتيان العرب وأشدائهم ، ولـكنه أدركه الشقاء ، فهلك على أحوالِ الجاهلية ، وترك لقومه عداوة .

ثم بعث إلى ناس من عقيل فقال : والله لئن بلغنى عنكم أمرٌ أكرهُه من جهةِ توبة لأصلبنكم على جُذوع النخل ، إياكم ودَعْوَى الجاهلية ، فإن الله قد جاء بالإسلام ، وهَدَم ذلك كله .

قدوم ليلى على الحجاج

وروى أبو عبيدة عن محمد بن عمران المرزبانى قال : قال أبو عمرو بن العلاء الشيبانى : قدمَتْ ليلى الأخيلية على الحجاج بن يوسف وعنده وجوهُ أصحابه وأشرافهم ، فبينا هو جالسٌ معهم إذ أقبلت جارية فأشار إليها وأشارت إليه ؛ فلم تلبث أن جاءت جاريةٌ من أجمل النساء وأكملهن ، وأتمهن خَلْقا ، وأحسنهن محاورة ؛ فلما دنت منه سلّمت ثم قالت : أتأذنُ أيها الأمير؟ قال : نعم ، فأنشدت :

أحجَّاجُ إن الله أعطـاك غايةً يُقَصِّرُ عنها مَنْ أراد مَداهَا
أحَجَّاجُ لا يُفْلَلْ سِلاحُك إنما الـ ـمنايا بكفِّ الله حيثُ يَرَاها

---

(١) القواشر : جمع قاشرة ، كأنها انقشر الجلد من جدبها ، وفى نسخة «الكواشر» وفى أخرى «البواسر» (م)

إذا ورد الحجاجُ أرضا مريضةً تَتَبَّع أقصى دائها فشــفاهَا
شفاها من الداء العيَاء الذى بها غُـلامٌ إذا هـزَّ القناةَ ثَناها
إذا سَمِـع الحجاجُ صَوْت كتيبةٍ أعدَّ لهـا قَبْلَ النزول قِراها
أعدّ لها مَصْـقُولة فَارِسِيَّةً بأيدى رجال يَحْلُبون صَراها[1]

حتى أتت على آخرها . فقال الحجاج لمنْ عنده : أتَعرفون مَنْ هذه؟ قالوا : ما نعرفها ، ولـكن ما رأينا امرأة أطْلَقَ لسانا منها ، ولا أجمل وَجْها ، ولا أحسن لَفْظًا ، فمَنْ هِىَ أصلح اللهُ الأمير ؟ قال : هى ليلى الأخيلية صاحبة توبة بن الحمير التى يقول فيها :

ولو أنّ ليلى الأَخْيَليّة سَلَّمَتْ علىّ ودونى جَنْـدَلٌ وصفائحُ
لسلَّمْتُ تسليمَ البشاشة أوْزَقَا إليها صَدًى من جانب القبر صائحُ

ثم قال لها : يا ليلى ، أنشدينا بعضَ ما قاله فيك توبة ، فأنشدته:

نَأَتْكَ بليـلى دارها لا تَزُورها وشطَّت نواها واسـتمرّ مَريرُها
وكنتُ إذا ما زُرْتُ ليلى تبرقعتْ وقد رَابنى منها الغَداةَ سفورُها
علىّ دِماء البُدْن إن كان زَوْجُها يَرَى لىَ ذنبا غيرَ أنى أزُورُها
وأنى إذا ما زرتُها قلت : يا اسْلَمِى فهل كان فى قولى اسْلَمِى مايَضِيرُها
حمـامةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ تَرَنّمى سقَاكِ من الغرِّ الغوادى مَطيرُها
أبينى لنا لا زال رِيشُكِ ناعما ولا زِلْتِ فى خضراء دانٍ بَرِيرُها[2]
وقد تذهبُ الحاجات يطلبها الفتى شَعاعًا وتَخْشَى النفسُ مالا يَضِيرُها
أيذهب رَيْعَان الشباب ولم أَزُرْ عَرَائرَ من هَمْدَانَ بيضًا نُحُورُها
ولو أن ليلى فى ذُرَى مُتَمَنّع بنَجْرَان لالتفّت علىّ قصورها

---

(١) مصقولة فارسية : أراد السيف ، وأصل الصرى ـ بفتح الصاد ـ بقية اللبن فى الضرع ، وأرادت به أنهم يأتون بآخر مايمكن من الضرب بها (م)

(٢) البرير : ثمر الأراك (م)

يقرُّ بعيني أنْ أرى العِيسَ تَرْتمى ... بنا نحو ليلى وهى تجرى صقورها
وأشْرِفُ بالغَوْرِ اليَفَاع لعلنى ... أرى نَارَ ليلى أو يَرَانى بَصِيرُها
أرتنا حَمام المَوْتِ ليلى ، ورَاقنا ... عيونٌ نَقيَّاتُ الحواشى تُدِيرها

حتى أتت على آخرها . فقال : يا ليلى ، ما رَابه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ؛ ما رآنى قط إلا متبرقعة ، فأرسل إلىّ رسولا إنه ملمٌّ بنا ، فنظر أهلُ الحىّ رسوله فأعدُّوا له وكمنوا ؛ ففَطِنْتُ لذلك من أمرهم ، فلما جاء ألقيت بُرقعى وسَفَرْت فأنكر ذلك ، فما زاد على التسليم وانصرف راجعاً. فقال لها الحجاج : لله درك! فهل كانت بينكما ريبة قط ؟ قالت : لا والذى أسأله صلاحك ، إلا أنى رأيت أنه قال قولا فظننت أنه خضع لبعض الأمر، فقلت:

وذِى حاجة قلنا له: لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حَيِيتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نَخُونهُ ... وأنت لأُخْرى صاحبٌ وخليل

فما كلمنى بشىء بعد ذلك حتى فرّق الموت بينى و بينه . فقال لها: حاجَتكِ ! قالت : أن تحملنى إلى قتيبة بن مسلم على البريد إلى خراسان ، فحملها فاستظرفها قتيبة ووَصلها ، ثم رجعت فماتت بساوة[١] ، وقَبْرُها هناك .

وروى المبرد أنها لما أنشدته الأبيات «أحجاج إن الله أعطاك».. إلى قولها «غلام إذا هز القناة ثنَاها » قال لها : لا تقولى غلام، ولكن قولى : همام ، ثم قال لها : أى نسائى أحَبُّ إليك أن أنزلك عندها ؟ قالت : ومن نساؤك أيها الأمير ؟ قال : أم الجلاس بنتُ سعيد بن العاص الأموية ، وهند بنت أسماء بن خارجة الفزارية ، وهند بنت المهلب بن أبى صُفْرة العَتَكية[٢]. قالت : هذه أحب إلى . فلما كان الغد دخلت إليه فقال: ياغلام أعطها خمسمائة. قالت : أيها الأمير ، اجعلها أُدْما[٣] .

---

(١) فى الأغانى «فماتت بالرى» (م) (٢) فى نسخة «القيسية» (م)
(٣) الأدم : جمع أدماء ، وهى السمراء اللون (م)

قيل لها : إنما أمر لك بشاء ، فقالت : الأميرُ أكرم من ذلك ؛ فجعلها إبلا أُدْما استحياء ؛ وإنما كان أمر لها بشاء [أولاً ، والأدم أكرمها] .

وأول هذا الحديث عن رجل من بنى عامر بن صعصعة يقال له وَرْقاء قال : كنت عند الحجاج فدخل الآذِن[1] فقال : أصلح اللهُ الأمير ! بالباب امرأة تَهْدِرُ كما يَهْدِرُ البعير النادّ[2] . قال : أدْخِلْها ، فلما دخلت نَسبها فانتسبَتْ له . فقال : ما أتى بك يا ليلى ؟ قالت : إخلافُ النجوم ، وقِلّةُ الغيوم ، وكَلَب البَرْد ، وشدة الجَهْدِ ، وكنت لنا بعد الله الرِّفْدَ .

قال لها : أخبرينى عن الأرض . قالت : الأرض مُغْبَرَّة ، والفِجَاج مقشعرّة ، وأصابتنا سنون مُجْحِفة مُظْلِمة ، لم تَدَعْ لنا هُبَعًا ولا رُبَعًا ، ولا عافِطة ولا نافطة[3] أهلكت الرجال ، ومزّقت العِيَال ، وأفسدت الأموال ، وأنشدت الأبيات التى مضت آنفا ؛ فالتفت الحجاجُ [إلى أصحابه] . وقال : هل تعرفون هذه ؟ قالوا : لا . قال : هذه ليلى الأخيلية التى تقول :

نحن الأخايلُ لا يزال غلامُنا ... حتى يَدِبّ على العَصَا مذكورا

تبكِى الرماحُ إذا فَقَدْنَ أكفَّنا ... حُزْنًا وتلقانا الرِّفاقُ بُحورا

وفى آخر حديثها قال لها : أنشدينا بعض شعرك ، فأنشدته:

لعَمْرُكَ ما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا لم تُصِبه فى الحياة المَعَايرُ

ومن كان مما يحدث الدهر جازعا ... فلا بدّ يوماً أن يُرَى وَهْوَ صَابِر

فلا يبعِدنْك الله يا تَوْبَ هالكا ... لدى الحرب إن دارت عليك المقادرُ

فكل جديد أو شباب إلى بِلًى ... وكل امرئ يوماً إلى الله صائرُ

وكل قرينَىْ أُلْفَةٍ لتفرُّق ... شَتَاتٍ وإن ضنّا وطال التَّعَاشُر

---

(١) الآذن : الذى ينقل الإذن بالدخول ، شبه الحاجب اليوم (م)

(٢) الناد : الشرود (م) (٣) الهبع – بزنة صرد – ابن الناقة الذى ينتج آخر فصل النتاج . والربع : الذى ينتج فى وقت الربيع . والعافطة : الضائنة . والنافطة : الماعزة (م)

فأقسمت أبكى بعد توبةَ هالكا وأحْفِلُ من دارت عليه الدوائر

فقال الحجاج لصاحب له : اذهب بها فاقطع عنى لسانها ، فدعا لهـا بالحجام ليقطع لسانها . فقالت له : ويحك ! إنما قال لك الأمير : اقطع لسانى بالعطاء ، فارجع إليه فاسأله ، فسأله فاستشاط غيظاً ، وهمّ بقطع لسانه ، [ثم أمر بها فأدخلت] فقالت : أيها الأمير ، كاد يقطع مِقْولى ، وأنشدته :

حجّاجُ أنت الذى ما فوقَه أحَدٌ إلا الخليفة والمُسْتَغْفَرُ الصَّمَد
حجاج أنْتَ شهابُ الحَرْب إن لقحت وأنْتَ للناس نورٌ فى الدُّجَا يَقِدُ[١]

* * *

احتذى الحجاجُ فى قوله : « اقطع لسانها » قولَ النبى صلى الله عليه وسلم لمـا أعطى المؤلفة قلوبهم يوم حُنَين مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين فسخطها وقال :

أتجعل نَهْبِى وَنهبَ العُبَيْـــد بين عُيَيْنَة والأقرعِ
وما كان حِصْنٌ ولا حَابِسٌ يفوقان مِرْداسَ فى مَجْمَعِ
وما كنت إلا امرأً منهمُ ومن تَضَع اليوم لا يرفَعِ[٢]

العُبيد:اسم فرسه ، وحصن [الذى ذكره] هو أبو عُيَيْنة بن حِصْن بن حذيفة ابن بَدْر سيد فزارة ، وحابس:أبو الأقرع بن حابس ، وقد تقدم نسبه - فأمر النبى صلى الله عليه وسلم بإحضاره ، فقال : أنت القائل :

أتجعل نهبى ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة

وكان النبى عليه الصلاة والسـلام كما قال الله عز وجل : « وما علّمْناه الشِّعْرَ وما ينبغى له » . فقال : قم يا على فاقطع لسانه . قال العباس : فقلت : يا علىّ ؟

(١) فى نسخة «وأنت للناس نور ضوؤه يقد» (م)
(٢) مع هذه الأبيات قوله ، وهو من شواهد النحاة :

وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئا ولم أمنع

أى : فلم أعط شيئا عظيما ولم أمنع البتة (م)

وإنك لَقَاطِعٌ لسانى ؟ قال : إنى مُمْضٍ فيك ما أمرت ، فمضى بى حتى أدخلنى الحظائر ، فقال : اعتدّ ما بين الأربعين إلى مائة ، قلت : بأبى أنت وأمى ! ما أحلمكم وأعلمكم وأعدلكم وأكرمكم ! فقال : إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أعطاك أربعين ، وجعلك من المهاجرين [فإن شئت] فخُذْها ، وإن شئت فخُذْ مائة ، وكن من المؤلَّفة قلوبُهم . فقلت : أَشِرْ علىّ . فقال : إنى آمرك أن تأخذ ما أعطاك . فأخذتها .

***

وكانت ليلى الأخيلية قد حاجَّت النابغة الجَعْدى فأفحمته .

ودخلت على عبد الملك ابن مروان وقد أسنّت فقال: ما رأى تَوْبَةُ فيك حتى أحبك ؟ قالت : رأى فىّ ما رأى الناسُ فيك حين ولّوك! فضحك عبدُ الملك حتى بدَتْ له سن سوداء كان يُخْفِيها .

[عود إلى رثاء شَوَاعر العرب]

لهند بنت أسد ترثى أخاها

وقالت هند بنت أسد الضبابية :

لقد مات بالبيضاء من جانب الحِمَى ... فتى كان زَيْناً للمواكب والشَّرْبِ

يلوذُ به الجانِى مخـــافة ما جَنَى ... كما لاذَتِ العَصْماء بالشاهقِ الصعب

تظلُّ بناتُ العمِّ والخالِ حَولَهُ ... صوادِىَ لاَ يرْوَيْن بالباردِ العَذْبِ

لأم خالد النميرية

وقالت أم خالد النميرية [تشبب بأثال الكلابى[١]] :

إذا ما أتتنا الريحُ من نحو أرضهِ ... أتتنا برِيَّاه فطاب هبوبُها[٢]

أتتنا بِمِسك خالط المسكَ عَنْبَر ... وريح خزامى باكَرَتْهَا جَنُوبها

أحِنُّ لذِكْرَاه إذا ما ذَكَرْتهُ ... وتنهلّ عبراتٌ تَفِيضُ غُروبها[٣]

حنينَ أســيرٍ نازحٍ شُدّ قيدهُ ... وإعوالَ نَفْس غاب عنها حَبِيبُها

---

(١) كذا وقع فى نسخة ، والسياق يقضى بأن يكون هذا الشعر رثاء لا تشبيبا (م)

(٢) الريا : الرائحة الطيبة (م) (٣) العبرات : جمع عبرة ، وهى الدمعة (م)

لأم الضحاك المحاربية

وأنشدنا أبو العباس أحمد بن يحيى [ثعلب] ، لأم الضحاك المحاربية وكانت تحب رجلا من الضِّباب حباً شديداً :

يأيها الراكب الغادِي لِطِيَّتِه ... عرِّج أبثّك عن بعض الذى أجِدُ
ما عالَج الناسُ من وَجْد تضمَّنهم ... إلا وَجَدْتُ به فوق الذى وجَدوا
حسبى رِضاه وأنّى فى مسرَّته ... ووده آخـــرَ الأيام أجتهدُ

وقالت :

هل القلبُ إن لاَقَى الضِّبابِىَّ خالياً ... لدى الرُّكْنِ أو عند الصَّفَا يتحرَّجُ
وأزْعَجنا قُربُ الفراقِ ، وبيننا ... حديثٌ كتنفيس المريضين مُزْعِج
حديثٌ لَوَ أنَّ اللحمَ يُشْوَى بحره ... غَريضا أتى أصحابَه وهو مُنْضَجُ

حليمة الخضرية

وأنشد الزبير بن بكار لحليمة الخُضْرية، وقد أنشدها المبرد لنبهان العَبْشَمِى[1] وهو أشبه[2] :

يقرُّ بعينى أنْ أرى مَنْ مكانُه ... ذُرَى عَقِداتِ الأجرَعِ المُتقَاوِدِ
وأنْ أرِدَ المـاء الذى شَرِبَتْ به ... سُلَيْمَى وإن ملَّ السُّرى كلُّ واخِد
وألْصِقَ أحْشائى ببَرْدِ تُرَابِه ... وإنْ كان مخلوطاً بسمِّ الأساوِدِ

للفارعة بنت شداد

وقالت الفارعَة بنت شداد ترثى أخاها مسعودا :

يا عين بَكِّى لمسعود بن شدَّادِ ... بكاء ذِى عَبَرات شَجْوُه بَادِى
من لايذابُ له شَحْمُ السَّدِيف ولا ... يَجْفُو العِيالَ إذ ما ضُنَّ بالزادِ
ولا يحلُّ إذا ما حَـــلَّ مُنْتَبِذاً ... يخشى الرزِية بين المـالِ والنادِى
قوّالُ مُحْكَمة ، نَقّاضُ مُبْرَمَةٍ ... فتاحُ مُبْهَمَةٍ ، حبّاس أوْرَادِ
قَتّالُ مَسْغَبةٍ ، وَثّاب مَرْقَبةٍ ... مَنّاعُ مَغْلَبَة ، فكّاكُ أقيادِ
حَلاَّلُ مُمْرِعَة ، فَرّاج مُفْظِعة ... حَمّالُ مُضْلِعَةٍ ، طَلاّعُ أنجاد

---

(١) العبشمى : المنسوب إلى عبد شمس ، وقالوا : عبدرى ، وعبقسى ، فى النسبة إلى عبد الدار وعبد القيس (م) (٢) إنما كان ذلك أشبه لأن الشعر فى امرأة كما ترى فى البيت الثانى ، وإن تأملت الثالث عرفت أنه الأشبة حقا (م)

حَمّالُ ألويةٍ ، شهّادُ أنديةٍ شدّادُ أوْهِيَة ، فرّاجُ أسْدَادِ
جمّاعُ كلِّ خصالِ الخيرِ قد علموا زَيْنُ القَرينِ ونِكْلُ الظالمِ العادِي
أبا زُرَارة لا تَبْعَدْ فكلُّ فتًى يَوْماً رهينُ صفيحاتٍ وأعْوَادِ
هلا سقيتمُ ، بنى جَرْمٍ ، أسيرَكُم نَفْسِى فداؤُكَ من ذى كُرْبَةٍ صادِى
نعم الفتى ، ويمينِ اللهِ ، قد علموا يَخْلُو به الحيُّ أو يَغْدو به الغَادِى
هو الفتى يحمدُ الجيرانُ مشهدَهُ عند الشتاء وقد هَمُّوا بإخماد
الطاعن الطعنةَ النَّجلاءَ يَتْبَعُها مُثْعَنْجِراً بعد ما تَغْلى بإزْبَاد
والسابئُ الزِّقَّ للأضيافِ إن نَزلُوا إلى ذَرَاهُ وغيثُ المُحْوِجِ الغَادِى

والمحسنات من النساء كثير ، وقد تفرّق لهن فى أضعاف هذا الكتاب ما اختير .

[عَبَرات المحبين]

مما أنشده ثعلب

وأنشد أحمد بن يحيى ثعلب :

ومستنجد بالحُزْنِ دمعا كأنهُ على الخد مما ليس يَرْقَأ حائرُ(١)
إذا ديمةٌ منه استقلّت تهلّلتْ أوائلُ أخرى مالهنّ أواخرُ
مَلاَ مُقْلتيه الدمعُ حتى كأنهُ لِمَا انهلّ من عينيه فى المـاء ناظر(٢)
وينظر من بين الدموعِ بمُقْلةٍ رمَى الشوقُ فى إنسانِها فَهْوَ سَاهِرُ

مما ينسب إلى قيس ابن الملوح

وقال آخر — ورُوِيَتْ لقيس بن الملوّح :

نظرتُ كأنى من وراء زجاجةٍ إلى الدار من ماء الصبابة أنظرُ
فعيناى طوْرا يَغْرقان من البُكا فأعشى ، وطوراً تحسِران فأُبصر

وقال غيلان :

لذى الرمة

وما شَنَّتَا خَرْقاء وَاهية الـكُلَى سقى بهما ساقٍ ولمـا تَبَلَّلا
بأضيع من عينيك للدَّمع كلّما توهمْتَ رَبْعاً أو توسّمْتَ منزلا

(١) رقأ الدمع يرقأ — من مثال فتح يفتح — سكن ، و «ما» فى قوله « مما ليس يرقأ» هى المصدرية ، وتقدير الكلام : كأنه — من عدم سكونه — حائر (م)
(٢) ملا : أصله ملأ (م)

وقال آخر :

وبما شجانى أنها يوم ودّعتْ تولّتْ وماء الجفْن فى العين حائرُ[(١)]
فلما أعادت من بعيد بنظرةٍ إلىّ التفاتاً أسلمتْه المحاجرُ[(٢)]

للبحترى

أبو عُبادة البحترى :

وقفْنا والعيونُ مشغّلاتٌ يُغالب طرفَها نظرٌ كليلُ
نهتْه رقبة الواشين حتى تعلّق لا يغيضُ ولا يسيلُ

مما أنشده جحظة

وأنشد أبو الحسن [جحظة] :

ومن طاعتى إياه أمْطرَ ناظرى إذا هو أبدى من ثناياه لى برْقَا
كأنّ دموعى تُبْصِرُ الوَصْلَ هاربا فمن أجله تجْرِى لتدركه سَبْقا

للمتنبى

أخذ البيت الأول المتنبى فقال :

يبتلُّ خدّى كلما ابتسمتْ من مَطرٍ برقُه ثناياها

لأبى الشيص

وقال أبو الشيص ، واسمه محمد بن عبيد الله ، وهو ابن عم دعبل :

وقائلةٍ وقد بَصُرَتْ بدمْعٍ على الخدين مُنْحَدِرٍ سَكوبِ
أتكذبُ فى البكاء وأنْتَ جَلْدٌ قديماً ما جَسَرْتَ على الذنوبِ
قميصُك والدموعُ تجول فيه وقلبك ليس بالقلب الكئيبِ
كمثل قميص يوسف حين جاءوا عليه عشيةً بدَمٍ كَذُوبِ
[فقلت لها : فداك أبى وأمى رَجَمْتِ بسوء ظنك فى الغيوبِ]
أما واللهِ لو فتّشْتِ قلبى لسرّك بالعويلِ وبالنحيبِ
دموعُ العاشقين إذا تلاقَوْا بظهْرِ الغيب ألسنةُ القلوبِ

---

(١) شجانى : أحزنى (م)

(٢) أسلمته المحاجر : كناية عن انهمال الدمع (م)

[من أخبار العباس بن الأحنف]

وقال بشار بن برد : ما زال فتى من بنى حَنِيفة يُدْخِلُ نفسَه فينا ويُخرِجُها منا حتى قال :

نزف البكاءُ دموعَ عينكَ فاسْتَعِرْ   عينا لغيرك دَمْعُها مِدْرَارُ
مَنْ ذَا يعيرك عينَه تَبْكِى بها   أرأيت عَيْناً للبكاء تُعَارُ ؟ !

قال : وهذا الذى عناه بشار هو أبو الفضل العباس بن الأحنف بن طلحة ابن هرون بن كَلدة بن خزيم بن شهاب [بن سالم] بن حبة بن كليب بن عدى ابن عبد الله بن حنيفة ، وكان كما قال بعض مَنْ وصفه : كان أحسن خَلْقِ الله إذا حَدَّث حديثاً ، وأحسنهم إذا حُدث استماعا ، وأمسكهم عن مُلاحاة إذا خُولِف ، وكان ملوكى المذهب ، ظاهر النِّعمة ، حسنَ الهيئة ، وكانت فيه آلاتُ الظَّرْفِ ، كان جميلَ الوجه ، فَارِه المركب ، نظيفَ الثَّوْب ، حَسَنَ الألفاظ ، كثير النوادر ، رطيب الحديث ، باقياً على الشراب ، كثيرَ المساعدة ، شديد الاحتمال ، ولم يكن هجّاء ، ولا مدّاحاً ، كان يتنزّهُ عن ذلك ، ويُشَبَّه من المتقدمين بعمر بن أبى ربيعة .

وسُئل أبو نواس عن العباس وقد ضمّهما مجلس فقال : هو أرَق من الوَهْم ، وأحسن من الفهم .

وكان أبو الهُذَيل العلاف المعتزلى إذا ذكره لعَنَه وزَنَّاه لأجل قوله :

وضعت خدِّى لأدنى من يُطيف بكم   حتى احْتُقِرْتُ وما مِثْـلِى بمحتَقَرِ (١)
إذا أرَدْتُ انتصارا كان ناصرَكم   قلبى ، وما أنا من قلبى بمُنْتَصِرِ
فأكثروا أو أقِلُّوا من مَلامكم   فكلٌّ ذلك محمول على القَدَرِ

---

(١) وضعت خدى : كناية عن الخضوع ، وأدنى : أقل ، ويطيف بكم : أراد من هو من خدمهم وحشمهم (م)

وقوله فى البيت الأوسط كقوله :

قلبى إلى ما ضرّنى داعِى ... يُكثِرُ أسقامى وأوجاعى

لَقلما أُبقَى على ما أرى ... يوشك أن ينعانىَ الناعى[1]

كيف احتراسى من عدوى إذا ... كان عدوى بين أضلاعى

وقيل [لعنان] جارية الناطفى : من أشعرُ الناس ؟ قالت : الذى يقول

وأهجركم حتى يقولوا : لقد سَلاَ ... ولستُ بسالٍ عن هواكِ إلى الحَشْرِ

ولكن إذا كان المحب على الذى ... يحب شفيقاً نازع الناس بالهَجْرِ

وقال [العباس] :

جرى السيلُ فاستبكانىَ السيلُ إذْ جرى ... وفاضَتْ له من مقلتىّ غروب

وما ذاك إلا أن تيقّنتُ أنهُ ... يمرّ بوادٍ أنتِ منه قريب

يكون أُجاجاً دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقّى طِيبَكم فيَطيب

فياساكِنِى شَرْقِىّ دجلةَ كلُكمُ ... إلى القلب من أجل الحبيبِ حبيبُ

موازنة بين العتابى والعباس

وقال الصولى : ناظرَ أبو أحمد على بن يحيى المنجم رجلا يُعْرَف بالمتفقه الموصلى فى العباس بن الأحنف والعتّابى ، فعمل علىٌّ فى ذلك رسالة أنفذها لعلى بن عيسى ؛ لأن الكلامَ فى مجلسه جَرَى . وكان مما خاطبه به أن قال : ماأهّل نفسَه قطّ العتّابى لتقديمها على العباس فى الشعر ، ولو خاطبه مخاطبٌ لدَفَعه وأنكره ؛ لأنه كان عالماً لايُؤْتَى من قلة معرفة بالشعر ، ولم أرَ أحداً من العلماء بالشعر مثل العتّابى والعباس ، فضلا عن تقديم العتّابى عليه لتباينهما [فى ذلك] ، و إن العتابى متكلف ، والعباس يتدفّق طبعا ؛ وكلامُ هذا سهلٌ عَذْب ، وكلامُ ذاك متعقّد كزّ ، وفى شعر هذا رقّةٌ وحلاوة ، وفى شعر ذاك غِلَظ وجَسَاوة ، وشِعْرُ هذا فى فنّ واحد وهو الغزل ؛ وأكْثَرَ فيه وأحسن ، وقد افتنّ العتّابى فلم يخرج فى شىء منه عمّا وصفناه .

---

(١) فى ديوانه «يوشك أن ينعى بى الناعى» وأحسبه محرفا عما هنا (م)

وإن من أحسن شعر العتابى قصيدته التى مدح بها الرشيد وأولها :

يا ليلةً لىَ فى حوران ساهرةً حتى تَكلَّمَ فى الصبح العصافيرُ

وقال فيها :

أفِى الأمَاقِى انقباضٌ عن جَفُونِهما أمْ فى الجفون عَنِ الآماقِ تَقْصِيرُ

وهذا البيت أخذه من قول بشار الذى أحسن فيه كل الإحسان وهو قوله :

جَفَتْ عَيْنِى عن التغميض حتّى كأنّ جفونَها عنها قِصارُ

فمسخه العتابى ، على أن بشاراً أخذه من قول جميل :

كأنّ المحبّ لِطول السُّهَادِ قصيرُ الجفون ولم تَقْصُرِ

إلا أن بشاراً أحسن فيه؛فنازعهما إياه فأساء ، وإنّ حقّ من أخذ معنى قد سُبق إليه أن يصنعه أجود من صَنْعَة السابق إليه ، أو يزيد عليه ، حتى يستحقه ، وأما إذا قصّر عنه فهو مسىء مَعِيب بالسرقة ، مذموم على التقصير .

ولقد هاجى أبا قابوس النصرانىّ فغُلِّبَ عليه فى كثير مما جرى بينهما على ضَعْف مُنّة أبى قابوس فى الشعر ، ثم قال فى هذه القصيدة :

ماذا عسى مَادِحٌ يُثْنِى عليك وقد ناداك بالوَحْىِ تقديسٌ وتطهيرُ

فُتَّ المَادحَ إلا أنّ ألسننا مستعلنات بما تُخْفِى الضمائيرُ[1]

فختم البيت فيها بأثقل لفظة لو وقعت فى البحر لكدَّرته ، وهى صحيحة ، وما شىء أملك بالشعر بعد صحّة المعنى من حُسْن صِحّة اللفظ ، وهذا عمل التكلف ، وسوء الطبع .

وللعباس بن الأحنف إحسان كثير ، ولو لم يكن إلا قوله :

أنكرَ الناسُ ساطِعَ المِسْكِ من دجْلة قد أوْسَع المشارِعَ طِيبا

(١) الضمائير : أصله الضمائر ، فأشبع كسرة الهمزة فتولدت ياء ، ويقع ذلك فى شعر العرب الفحول وإن كان مستكرها ؛ فمن ذلك قول الفرزدق يصف ناقة :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة نفى الدراهيم تنقاد الصياريف

فالدراهيم أصله الدراهم ، والصياريف أصله الصيارف ، فزاد الياء فى كل منهما (م)

فهمُ يعجَبُون منـــه وما يَدْ　رُون أنْ قد حَلَلْت منه قريبا
قاسمِينى هـــذا البلاء، وإلاّ　فاجعلى لى من التعزّى نصيبا
إنّ بعضَ العتابِ يدعو إلى العَتْـــب، ويؤذِى به المحبُّ الحبيبا
وإذا ما القلوبُ لم تُضْمِرِ العَطْـــف فلن يَعطِفَ العِتابُ القلوبا (١)

وقوله:

قالت مرِضتُ فعُدْتُها فتبرَّمَتْ　وهى الصحيحةُ والمريضُ العائدُ
تاللهِ لو أنَّ القلوبَ كقَلْبِها　ما رَقَّ للولد الصغـــيرِ الوالدُ
إنْ كان ذنبى فى الزيارة فاعْلَمِى　إنى على كَسْبِ الذنوب لَجَاهِدُ (٢)
ألقيت بين جفون عينى فُرْقَةً　فإلى مـــتى أنا ساهِرٌ يا رَاقِدُ
يقعُ البلاءِ ويَنْقضِى عن أهـــله　وبلاء حُبّك كلَّ يوم زائِدُ
سمّاك لى ناسٌ وقالوا: إنهـــا　لَهِىَ التى تَشْقَى بهـــا وتُــكابدُ
فجحدتهم ليكونَ غيرك ظَنهم　إنى ليعجبنى المحبُّ الجاحِدُ

وقوله:

إنى وإن كنتِ قد أسأت بِىَ الـــيَوْمَ لراجٍ للعَطْفِ منك غـدا
أســـتمتع الله بالرجاء وإن　لم أر منـكم ما أرتجى أبدا

وله:

أهْـــدَىَ له أحبابه أترجّةً　فبـكى وأشفق من عِيافة زاجرِ
متطيرا منهـــا أتَتْه وجِسْمُها　لونان بَاطنهـا خِلافُ الظّاهِرِ

ولئن وفَّى أبو أحمد العباسَ حقّه، لقد ظلم العتّابى ماكان مستحقه، من سرِ الكلام، وجَوْدَةِ رصف النظام. قال الصولى فى نسب العباس ــ وكان من

---

(١) لن يعطف العتاب القلوب: لن يميلها (م)
(٢) إن التى تقع اللام فى خبرها مكسورة الهمزة البتة (م)

خؤولته ـ : هو العباس بن الأحنف بن الأسود بن قُدَامة بن هيان من بنى [هفّان بن الحارث بن] ذهل بن [الديل بن] حنيفة . وله يقول الصريع يهجوه :

بنو حنيفةَ لا يَرْضَى الدَّعِيُّ بهم ... فاتْرُكْ حنيفةَ واطْلُب غيرها نَسَبَا

اذهب إلى عَرَبٍ تَرْضَى بنسبتِهم ... إنى أرى لك لونا يُشبه العـربا

وقال [أبو أحمد : قال] العباس :

حُرٌّ دعاهُ الهوَى سِرًّا فَلَبَّاهُ ... طَوْعا فأَضْحَكَ مَوْلاَهُ وأبكاه

فشاهَدَتْ بالذى يُخفِى لَوَاحظُه ... وعَدَّلَتْها بفيض الدمع عَيْنَاه

جازَيْتَنِى إذ رعيتُ الودَّ بعدك أن ... وكَّلْتِ طَرْفى بنجم الليل يرعاه

اللهُ يشهدُ أنى لم أخُنْك هوًى ... كفاك بيِّنة أنْ يَشْهَد اللهُ

وقال :

يامن يُكاتمنى تغـيُّر قلبه ... سأ كفُّ نفسى قبل أن تتبرما[1]

وأصُدّ عنك وفى يدىَّ بقيّةٌ ... من حَبْلِ ودِّك قبل أن يتصرَّمَا

يا للرجال لعاشقَين تَوَاقفَا ... وتخاطَبا من غَـيْرِ أنْ يتكلما

حتى إذا خافَا العيونَ وأشفقا ... جعلا الإشارةَ بالأنامل سُلَّمَا

وقال :

الله يعـلمُ ما أردت بهجركم ... إلاّ مساترةَ العدوِّ الكاشحِ

وعلمت أن تستُّرى وتباعدى ... أبقى لوَصْلِك من دُنوٍّ فاضحِ

وقال :

يَهِــيمُ بحرّان الجزيرة قَلْبُهُ ... وفيها غزالٌ فاترُ الطَّرْفِ ساحِرُهْ

يُؤازِرُه قلـبى علىَّ وليس لى ... يَدَانِ بمَنْ قلـبِى عَلَىَّ يُؤازِرُهْ[2]

---

(١) فى ديوانه «قبل أن تتحرما» (م)

(٢) فى نسخة « يامن يؤازرها قلبى ـ إلخ » (م)

[العين والقلب]

وقد قال سهل بن هرون :

أعان طَرْفِي على قلبي وأعضائي بنَظْرَة وَقَفَتْ جسْمِي على دَائي
وكنتُ غِرًّا بما يجنى على بَدَنِي لا عِلْمَ لى أنَّ بعضِي بعضُ أعدائي

وقال النظام :

إنَّ العيونَ على القلوبِ إذا جَنَتْ كانت بَلِيَّتَها على الأجسادِ

البحترى :

ولستُ أَعْجَبُ من عِصْيَانِ قلبكَ لِي حقًّا إذا كان قلبِي فيك يَعْصِينِي

وقال الأصمعى : سمعتُ الرشيد يقول : قَلْبُ العاشق عليه مع مَعْشُوقِهِ . فقلت : هذا والله يا أميرَ المؤمنين أحْسَنُ من قول عُروة بن حزام لعَفْراء فى أبياته التى أنشدها :

وإنّى لتَعْرُونى لذِكْراكِ روعةٌ لها بين جِلْدِى والعظامِ دبيبُ
وما هو إلاّ أن أراها فيه فُجاءةً فأُبْهَتَ حتى لا أكاد أُجِيبُ[١]
وأُصْرَفُ عن دائى الذى كُنْتُ أرتئى ويقرب مِنّى ذِكْرُه ويَغِيبُ
ويضمر قَلْبى غدرها ويُعِينها علىَّ ، ومالى فى الفؤاد نَصِيبُ

فقال الرشيد : من قال ذلك وَهْمًا ، فقد قلته علماً .

[من مأثور الحكم]

قال على بنُ عبيدةَ الريحانى : اكْتُم ودَّكَ فإنه عِرْضُك ، وصُنِ الأنس بك فإنه يُغْزِرُ[٢] حظك ، ولا تستكثر من الطمأنينة إلا بعد استحكام الثّقة ؛ فإن الأنس سريرةُ العقل ، والطمأنينة بذلَة المتحابّين ، وليس لك بعدهما تحفَة تَمْنحها صاحِبَك ، ولا حِبَاء تُوجب به الشكر على من اصطفيت .

---

(١) تجفطى «حتى ما أكاد أجيب» (م) (٢) فى نسخة « فإنه يد حظك » وإن لم تكن تطبيعا فهى محرفة عن « فإنه بدء حظك » (م)

وقال : ما أنصف مَنْ عاتب أخاه بالإعراض على ذَنْبٍ كان منه ، أو هجره لخلافٍ بما يكْرَه عنده ، إذا كان لايعتدُّ فى سالف أيام العشرة إلا بالرضا عنه ، ومشاكلته فيما يُؤْنسه منه . فإن كان العاتبِ شَـكاَ جميع ما ستَره من أخيه أولا ، فلقد تُتَمِّمُ الموافقة حظَّ الاغتفار ، وإن لم يكن وفَى له بكلّ ما استحقّ منه فليقتصّ بِمَّا وجَب منه عليه لأخيه بقدر ذنبه ، ثم العودة إلى الألفة أولى من تشتُّت الشَّمْلِ ، وأشبَهُ بأهلَ التصافى ، وأكْرَمُ فى الأحدوثة عند الناس .

وقال : الحياء لِبَاسٌ سابغ ، وحِجَاب وَاق ، وسِتْر من المساوى ، وأخُو العفاف ، وحَلِيف الدّين ، ومُصَاحب بالصّنع . ورَقيب من العِصْمَة ، وعين كَالِئَةٌ[1] تذودُ عن الفساد ، وتنْهى عن الفحشاء والأدناس .

وقال : لايخلو أحد من صَبْوَةٍ إلاّ أن يكونَ جَاسِيَ الخِلْقَةِ[2] ، منقوص البِنْية ، أو على خلاف تركيب الاعتدال.

[الهـوى]

ورأى سعيد بن سلم[3] بن قتيبة ابناً له قد شرع فى رقيقِ الشعر وروايته،فأنكر عليه ، فقيل له : إنه قد عشق ، فقال : دعُوه فإنه يلطُف ، وينظُف، ويَظرُف .

وقال الفضل بن أحمـــد بن أبى طاهر[4] ، واسم أبى طاهر طيفور : وَصَف الهوى قومٌ وقالوا : إنه فضيلة ، وإنه ينتج الحيـلة ، ويشجّع قَلْبَ الجبان ، ويسخّى قَلْبَ البخيل ، ويصفّى ذِهن الغبى ، ويطلق بالشِّعر لســانَ المُفْحَم ، ويبعث حَزْم العاجز الضعيف، وإنه عزيز تذل لهعزَّةُ الملوك،وتَضرع فيـــه صَوْلَةُ الشجاع ، وتَنْقَاد له طاعـةُ كل ممتنِـع ، ويذَلّل كلّ مستصعَب ، ويُبرز كل محتجب ، وهو داعية الأدب ، وأولُ باب تُفتَّقُ به الأذهان والفِطَن،

---

(١) كالئة : حافظة ، كلأه يكلؤه ـ من باب فتح ـ حفظه ورعاه ، وتذود : تمنع وتدفع (م) (٢) جاسى الخلقة : جافا غليظا (م) (٣) فى نسخة « سعيد ابن مسلم » (م) (٤) فى نسخة « أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر » (م)

وتستخرج به دقائقُ المكايد والحِيَل ، وإليه تستريح الهِمَم ، وتسكن نوافِرُ الأخلاق والشِّيَم[1]، يُمتِّع جليسه ، ويُؤنس أليفَه ، وله سرورٌ يجول فى النفس ، وفرَحٌ مستكِن فى القلب ، وبه يتعاطف أهلُ المودَّة ، ويتّصل أهْلُ الألْفة ، وعليه تتألّف الأشكال ، وله صَوْلاَت على القدر ، ومكَايد تُبطِلُ لطائف الحيل ، وظَرْفٌ يَظْهرُ فى الأخلاق والخِلَق ، وأرواح تَسْطَع من أهلها ، وتَعْبق من ذويها .

وقال اليمانى بن عمرو مولى ذى الرياستين : كان ذو الرياستين يَبْعَثُ بى و بأحداثٍ من أهله إلى شيخ بخراسان ويقول : تعلَّمُوا منه الحكمة ؛ فكنّا نأتيه ، وإذا انصرفنا من عنده اعترضَنَا ذُو الرياستين يسألُنا عما أفادنا فنخبره ؛ فسِرْنا إلى الشيخ يوماً فقال لنا : أنتم أدباء ، وقد سمِعْتُم الحكمة ، وفيكم أحداث ، ولكم نِعَم ، فهل فيكم عاشق ؟ قلنا : لا ، قال : اعشقوا ؛ فإنّ العشق يُطلِق الغبِىّ ، ويَفْتَحُ جِبِلّةَ البليد ، ويسخّى كفَّ البخيل ، ويَبْعَثُ على النظافة وحُسنِ الهيئة ، ويَدْعُو إلى الحركة والذكاء ، وشرف الهمة ، وإياكم والحرام .

قال : فانصرفنا ، فسألنا عما أفادنا فى يومنا ؛ فهِبْناه أن نخبره ، فعزَم علينا . فقلنا له : أمرنا بكذا وكذا ، قال : صَدَقَ ، أتعلمون من أين أخذَ هذا الأدب ؟ قلنا : لا . قال : إن بَهْرَام جور كان له ابنٌ رشَّحَه للملك من بعده ، فنشأ ساقطَ الهِمّة ، خامل المروءة ، دَنِىء النفس ، سَيِّىء الأدب ، كليل القريحة ، كَهَام الفِكْرِ[2]؛ فغمَّه ذلك ، ووكَّل به من المؤدبين والمنجّمين والحكماء مَنْ يُلاَزِمُه ويُعَلّمه ، وكان يسألهم فَيحْكُون له ما يسوءه ، إلى أن قال له بعض مؤدبيه : قد كنا نخافُ سوء أدبه فحدَث من أمره ما صِرْنَا إلى اليأس منه ، قال : وما ذلك ؟ قال: رأى ابنةَ فلان المرزُبان فَعَشِقها فغلبَتْ عليه ، فهو لا يهذِى إلاّ بأمرها ، ولا يتشاغَلُ إلاّ بذِكْرِها فقال بهرام جُور : الآن رَجَوْتُ صلاحَه .

(١) الشيم : جمع شيمة ـ بكسر الشين ـ وهى الخصلة والخلة والسجية (م)

(٢) كهام الفكر : ضعيفه متبلده (م)

ثم دعا بأبى الجارية فقال: إنى مُسِرٌّ لك سراً فلا يعدوَنّك[1]. فضَمِن له سَتْره فأعلمه أن ابنَه قد عشقَ ابنته ، وأنه يريد أن يُنكِحها إياه ، وأمره أن يأخذها بإطماعه بنفسها ، ومراسلته من غير أنْ يراها ، أو تَقَع عَيْنُه عليها؛ فإذا استحكم طَمَعُه فيهما تجنّتْ عليه ، وهجرَتْه ، فإذا استعتبها أعلمته أنها لا تَصْلُح إلاَّ لملك ، أو مَنْ هِمّتُه همةُ ملك ، وأن ذلك يمنعها من مُوَاصلته ، ثم ليعلمه خبرَها وخبَرَه ، ولا يُطْلِعها على ما أسَرَّ إليه، فقبل ذلك أبوها منه .

ثم قال للمؤدِّب : خوِّفْه بى ، وشجِّعْه على مراسلة الجارية ، ففعل ذلك ، وفعلت الجاريةُ ما أمرها به أبوها ؛ فلما انتهت إلى التجنّى عليه ، وعلم الفتى السببَ الذى كرِهَتْه من أجله أخذَ فى الأدب ، وطلب الحكمة ، والعلم ، والفروسية ، ولعب الصَّوالجة ، والرِّماية ، حتى مَهَر فى ذلك ، ورُفع إلى أبيه أنه يحتاجُ من المطاعم والآلات والدوابّ والملابس والوزراء فوق الذى كان له ؛ فسُرَّ الملكُ بذلك ، وأمر له بما أراد ، ودعا بمؤدِّبِه ، فقال : إنَّ الموضع الذى وَضع ابنى نفسَه فيه بحبِّ هذه المرأة لا يُزْرِى به[2] ؛ فتقدَّمْ إليه أن يرفع أمرَها إلىّ ويسألنى أن أزوِّجه إياها ، ففعل ، فزوَّجها منه ، وأمر بتعجيل نَقْلِها إليه ، وقال له : إذا اجتمعت أنت وهى فلا تُحْدِثْ شيئا حتى أصير إليك . فلما اجتمعا صار إليه فقال : يابنى ، لا يضعنَّ منها عندك مراسَلَتُها إياك ، وليست فى حِبالِك ، فأنا أمرتُها بذلك ، وهى من أعظم النّاسِ مِنّةً عليك ، بما دَعَتك إليه من طلب الحكمة ، والتخلُّق بأخلاق الملوك ، حتى بلَغتَ الحدَّ الذى تصلحُ معه المُلْكِ بعدى ؛ فزِدْهَا فى التشريف والإكرام بقَدْرِ ما تستحقّ منك . ففعل الفتى ذلك ، وعاش مسروراً بالجارية ، وأبوه مسروراً به ، وزاد فى إكرام المرزبان ، ورَفع مرتبته وشرفه بصيانته لسره وطاعته ، وأحسن جائزته وجائزة المؤدب

(١) لايعدونك : لايتجاوزنك إلى غيرك ، يأمره بكتمان السر (م)

(٢) لايزرى به : لايعيبه ولا ينقصه ولا يضع من قدره (م)

بامتثاله أمره ، وعَقَدَ لابنه الملك من بعده . قال اليمانى : وكان الشيخ الحسن بن مصعب .

ثم قال ذو الرياستين : قال على بن بلال :

سيهلك فى الدنيا شَفِيقٌ عليكُمُ ... إذا غالهُ مِنْ حادِثِ الدَّهْرِ غائلُهْ
ويُخفِى لكم حبًّا شديداً ورهْبَةً ... وللناس أشغالٌ، وحبُّك شاغلهْ
كريمٌ يُميت السرَّ حتى كأنه ، ... إذا استخبروه عن حديثك ، جاهلُه
يَوَدُّ بأن يُمْسِى عليلا لعلّها ... إذا سمعت عنه بشكوى تُرَاسِلُهْ
ويَرْتَاحُ للمعروف فى طَلَب العُلاَ ... لتُحْمَدَ يوماً عنــد لَيْــلَى شمائِلُهْ[1]

وذكر أعرابى الهوى فقال : هو أعظمُ مَسْلَكاً فى القَلْب من الرُّوح فى الجسم ، وأملك بالنفس من النّفس . يَظْهَر ويبطن ، ويَكْثُف ويَلْطُف ، فامتنعَ عن وَصْفِه اللسانُ ، وعَيِىَ عنه البيانُ ! فهو بين السِّحْرِ والجنون، لطيفُ المسلك والكُمُون . وأنشد :

يقولون لو دبّرتَ بالعَقْلِ حبَّها ... ولا خَيْرَ فى حُبّ يُدَبَّر بالعقل

[من رسائل الميكالى]

فصل للأمير أبى الفضل الميكالى :

لا زالت الأيام تَزِيدُ رُتْبَتَه ارتفاعا ، وباعَه اتِّساعا ، وعزَّتَه غلبةً وامتناعا ، فلا يبقى مجدٌ إلا شيَّدَتْه معاليه ومكارِمُه ، ولاملك إلاَّ افترَعَتْه صرائمُه وصَوَارِمُه .

وله فصل : لا زالت حياة الأحرار بفضله متَّسِمة ، ووجوهُ المكارم بغُرَرِ أيامه مبتسمة ، وأهواء الصدور بخِدْمة وُدِّه مرتسمة ، [وغنائم الشكر بين محاسن قوله وفعله مقتسمة] .

وله : الله يُديم رايةَ الأمير الجليل محفوفةً بالفَلْج والنصر، مكنوفة[2] بالغلَبة

---

(١) الشمائل : جمع شمال ، وهى الخصلة ، وقال الشاعر * وما لومى أخى من شماليا * (م) (٢) مكنوفة : محوطة (م)

والقهر ، حتى لايزاول خَطباً إلا تذلّلت به صِعَابُه ، ولا يُمَارِس أمراً إلا تيسَّرَتْ أسبابُه ، ولا يَرُوم[١] حالا إلا أذْعَن لهيبته وسُلْطانه ، وخَضَع لسيفهوسِنانِه ،وذلّ لمَعْقِد لوائه ، ومنثنى عنانه ، إلى أن ينالَ من آماله أقاصِيَهَا ، ويَمْلِكَ من مَبَاغيه أزِمَّتها ونواصيهاَ [ويُسَامِىَ الثريا بعلوِّ همته ويناصيها] .

وله فصل : إنما أشكو إليك زماناً سَلَب ضِعْفَ ما وَهب ،وفَجع بأكْثَرَ مما أمْتَع ، وأوحش فوق ما آنَس ، وعنف فى نَزْعِ ما ألبس ؛ فإنه لم يُذِقْنَا حلاوة الاجتماع ، حتى جَرَّعَنا مرارةَ الفراق ، ولم يمتعنا بأُنس الالتقاء ، حتى غادَرَنا رَهْنَ التلهُّفِ والاشتياق ، والحمدُ لله تعالى على كل حال يُسِىء ويسر ، ويَحْلو ويُمِر ، ولا أيأس من رَوْح الله فى إباحة صُنْع يجعل رَبْعَه مُنَاخى[٢] ، ويُقَصِّر مدةَ البِعَاد والتراخى ، فألاحظ الزمانَ بعين راض ، ويُقْبِلُ إلىّ حظّى بعد إعراض ، وأستأنف بعزّته عيشاً سابغَ الذيول والأعطاف ، رقيقَ المعانى والأوصاف ، عَذْبَ الموارِدِ والمناهل ، مأمونَ الآفاتِ والغوائل .

وله فصل : أنا أسأل الله تعالى أن يردَّ على بَرْدَ العيش الذى فَقَدْتُه ،وفسحة السرور الذى عَهِدته ؛ فيَقْصر من الفراق أمدُه ، ويعلو للالتقاء حكمه ويَدُه ، ويَرْجِع ذلك العهدُ الذى رَقّت غلائله ، وصفَتْ من الأقذاء مَنَاهله ، فلم أتهنَّأْ بعده بأُنس مقيم ، ولا تعلّقت يوما إلا بعيش بَهِيم .

فلو تَرْجِعُ الأيامُ بينى وبينهُ ... بذى الأثْلِ صَيْفاً مثل صيفى ومَرْبعى
أشُدُّ بأعناق النوى بعد هذهِ ... مرائر إن جاذَبْتُهَا لم تَقَطَّعِ

وما على الله بعزيز أن يقرِّبَ بعيداً ، ويَهَب طالعا سعيداً ، ويُسَهِّل عسيرا ، ويفكّ من رقّ الاشتياق أسيرا .

---

(١) لايروم : لايطلب ، وأذعن : خضع وذل (م)
(٢) المناخ : موضعالإناخة،وأصلها بروك الإبل ، وأراد بها الإقامة (م)

وله فصل من كتاب إلى أبى منصور عبد الملك الثعالبى :

قرأتُ خبرَ سلامته ، فَسَرَى السرورُ فى الجوانح ، واهتزَّت النفسُ له اهتزازَ الغُصْن تحت البارح :

أليس لِأخبار الأحبــةِ فرحةٌ ولا فرحة العطشان فَاجَأَهُ القَطْرُ

يقولون : قد أَوْفَى لوقتِ كتابهِ فتنْتَشِر البشرى وينشرِحُ الصَّدْرُ

ثم سألت الله تعالى أن يحرسَ علينا سلامَته سابغَةَ الملابس والمطَارف، موصولة التالِدِ بالطَّارِف .

وله فصل من كتاب تَعزية عن أبى العباس بن الإمام أبى الطيب :

لئن كانت الرزيَّة مُمِضَّة مؤلمة، وطُرُقُ العَزاء والسلوة مُبْهمة ، لقد حلَّت بساحةِ من لا تَنْتقِضُ بأمثالها مَرَائِرُه ، ولا تَضْعُفُ عن احتمالها بَصَائِرُه ، قد يتلقَّاها بصَدْرٍ فسيح، يحمى أن يبيحَ الحُزْنَ جنابَه ، وصَبْرٍ مشيح ، يحمى أن يُحْبِطَ الجزَعُ أجرَه وثوابَه ؛ كيف لا وآدابُ الدين من عنده تُلْتَمس ، وأحكامُ الشرع من لسانه ويده تُستفاد وتُقْتَبس ، والعيون تَرْمُقه فى هذه الحال لتجْرِى على سنَنه، وتأخذَ بآدابه وسُنَنه ؛ فإن تعزَّت القلوب فبحَسَب تماسكه عزاؤُها ، وإن حسنت الأفعال فإلى حميد أفعاله ومذاهبه اعتزاؤُها .

[من شعر الميكالى]

جملة من شعره فى تحسين القوافى والغزل

قال :

عذيرى من جفــونٍ راميات بسَهْمِ السِّحْرِ من عينَىْ غزالِ

غزانى طَرْفُه حتى سَـــبَانِى لأنتصرنَّ منـــه بِمَنْ غَزَا لى

وله أيضاً :

أمَا حان أنْ يشتفى المُسْتَهامُ بزَوْرَةِ وَصْـــلٍ وتأوى له[١]

---

(١) فى نسخة «أن يشفى المستهام» ولا يستقيم عليها وزن البيت (م)

يجمجم عن سُؤْلِهِ هَيْبة وعلم عِلْمُك تأويلَهُ

وقال أيضاً :

شكوتُ إليه ما أُلاقى فقال لى : رويداً ففى حكم الهوى أنتَ مُؤتلى
فلو كان حقًّا ما ادّعيتَ من الجوى لقلّ بما ألقى إذاً أن تموتَ لى

وقال أيضاً :

تفرّق قلبى فى هواه فعنده فريقٌ وعندى شُعبة وفَرِيقُ
إذا ظَمِئَتْ نفسى أقول لها: أسْقِنى فإن لم يكن راحٌ لديك فَرِيقُ[(١)]

وقال أيضاً :

شَافَهَ كَفِّى رَشأ بقُبْلةٍ ما شفَتِ
فقلت إذْ قبّلَها يا ليت كَفِّى شفَتِى

وقال :

يا شادناً غاب نَجْمُ الحسن لولاهُ قد كان يوسفُ لما مات وَلاَّهُ
ولاّه رقّى َطَرْفٌ فى شمائلهِ فاشتطّ فى الحكم لولا أن تولاّهُ
ارحم فتًى مُدْنفاً ما إنْ يُخَلِّصُهُ من غَمْرَةِ الوَجْدِ إلا أنت وَاللهُ

[الاهتزاز لقضاء حوائج الناس]

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْرٍ الجاحظُ : حدثنى أبو الهيثم بن السندى بن شاهك قال : قلت فى أيام ولايتى الكوفة لرجل من أهلها لا يجفُّ قلمه ولا تستريح يدُه، ولا تسكُن حركتُه فى طلب حوائج الناس، و إدخال المنافع على الضعفاء، وكان رجلا مفوّها: أخبرنى عن الشىء الذى هوّن عليك النصَب، وقوّاك على التّعبِ، ماهو؟

---

(١) الراح : الخمر ، وقوله «فريق» مؤلف من الفاء الواقعة فى جواب الأمر ، وكلمة «ريق» وهو ماء الفم ، ويتضمن تشبيه ريقه بالخمر (م)

قال : قد ، والله ، سمعتُ تغريدَ الأطيار بالأسْحَار على أفنان الأشجار ، وسمعتَ [خَفْق] أوتارِ العيدان ، وترجيعَ أصوات القِيَان ، فما طَرِبْتُ من صوتٍ قطُّ طَرَبى من ثناء حسن ، على رجلٍ قد أحسن ، ومن شاكر مُنْعِم ، ومن شفاعةِ شفيع محتسب لطالب ذاكر

فقال أبو الهيثم : فقلت له : لله أبوك ! لقد حُشيت كرما ! فبأى شيء سَهُلَتْ عليك المُعَاوَدةُ والطلب ؟ قال : لا أبلغ المجهود ، ولا أسأل إلا ما يجوز ، وليس صدقُ العذْرِ بأكره إلىَّ من إنجاز الوعد ، ولست لإكراه السائل بأكرهَ منى لإجحاف المسئول ، ولا أرى الراغب أوْجَبَ حقا علىَّ للذى قدم من حُسْنِ ظنه من المرغوب إليه للذى احتمل من كله . قال إبراهيم : ما سمعتُ كلاما قطّ أشدّ مؤالفة لموضعه ، ولا أليق بمكانه ، من هذا الكلام .

[بين عميلة الفزارى وأسيد بن عنقاء]

وروى أبو بكر بن شُقَير النحوى عن أحمد بن عبيد قال :

كان أسيد بن عنقاء الفزارى من أكبر أهل زمانه[1] ، وأشدّهم عارضةً ولسانا ، وطال عمرُه ، ونكبَه دهرُه ؛ فاختلّت حالُه ، فخرج يتبقل[2] لأهله ؛ فمرّ عليه عُمَيلة الفزارى ، فسلم عليه ، وقال : ياعم ؛ ما أصارك إلى ما أرى؟ قال : بُخْلُ مثلك بماله ، وصَوْنُ وجهى عن مسألة الناس . قال : أما والله لئن بقيتُ إلى غدٍ لأغيرَنّ من حالك ما أرى ، فرجع ابن عَنْقاء إلى أهله فأخبرهم بما قال عُمَيلة ، فقالوا له : غرّك كلامُ غلامٍ جُنْحَ ظلام فكأنما ألقموا فاهُ حجراً ؛ فبات متَمَلْمِلاً بين رجاء ويأس ، فلما كان السَّحَر سَمِع رُغاء الإبل ، وثُغاء الشاء ، وصهيل الخيلِ ، ولَجَبَ الأموال ، فقال : ما هذا ؟

---

(١) فى الأمالى (١/٢٣٧) «من أكثر أهل زمانه» (م)

(٢) يتبقل لأهله : يطلب لهم البقل (م)

قالوا : عُمَيلة قدساق إليك مالَه ، فخرج ابنُ عنقاء له(١)، فقسم مالَه شطرَين، وساهمَ عليه ، فأنشأ ابن عنقاء يقول :

رآنى على ما بى عُمَيلةُ فاشتكى	إلى ماله حالِى ، أسرّ كما جَهَر
دعانى فواسانى ، ولو ضَنَّ لم يُلَم	على حينَ لابَدْوٌ يُرَجَّى ولاحَضَر
فقلت له خيراً ، وأثنيت فِعْلَهُ	وأوفاكَ ما أوليت مَنْ ذَمّ أوشكر(٢)
ولما رأى المجدَ استُعيرت ثيابُهُ	تردّى بثوب سابغ الذيل واتَّزَر(٣)
غلامٌ رماه اللهُ بالحسن يافعاً	له سِيمِياءٌ لا تَشُقُّ على البصر
كأنّ الثريا عُلِّقَتْ فى جبينهِ	وفى أنفه الشِّعرى وفى خدِّه القمر
إذا قيلت العوراء أغْضى كأنهُ	ذليلٌ بلا ذُلّ، ولو شاء لانتصر

[من غرر المدائح]

وأنشد أبو حاتم عن أبى عبيدة لِلعَرَنْدَس أحد بنى بكر بن كلاب يمدح بنى عمرو الغَنَويين ، وكان الأصمعى يقول:هذا من(٤)المحال، كلابىٌّ يمدح غَنَويا !

هَيْنُون لَيْنُون أيسارٌ ذوو كرم	سُوَّاسُ مكرمةٍ أبناء أيسارِ
إن يسألوا العُرفَ يُعطُوهُ،و إن خُبِروا	فى الجهد أُدرِكَ منهم طيبُ أخبار
لاينطقون عن الأهواء إن نطقوا	ولا يمارون إن مارَوْا بإكثار
من تلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدَهم	مثلَ النجوم التى يسرى بها السارى
منهم وفيهم يُعَدّ الخيرُ متَّلِدا	ولا يُعَدُّ نثا خِزْىٍ ولا عارِ

[صُرُوف الدهر]

فصل لبعض الكتاب — ماتعجُّبك مما لقيت من الحَيْفِ !هل ضمن الدهرُ أن

---

(١) فى الأمالى «فاستخرج ابن عنقاء ثم قسم ماله شطرين وساهمه عليه» (م)
(٢) وفيه « وأوفاك ما أبليت» (م) (٣) وفيه « تردى رداء سابغ الذيل» (م)
(٤) فى الأغانى (٢٣٩/١) : « هذا المحال »

يُنْصِف ولا يَحِيفَ[١] ، أو يُبْرِم فلا يَنْقُض ، أو يُعَافِي فلا يُمْرِض ، أو يصفو فلا يكدِّر ، أو يَفِي فلا يَغْدر ؟ قدّر أن تَعذب لى مَشَارِبُه ، وتلين لى جوانبُه ، فَحُكْمُ الدنيا لا تترك حامداً لها إلاّ أسكتته ، ولا ضاحكا إلاّ أبكته ، أقوى ما كان بها ثقة ، وأشد ما كان لها مِقَة[٢] ، وأوكد ما كان رُكونا إليها ، وأعظم ما كان حرصا عليها .

[من لا يُوفِى النعمَ حقَّها]

وقال بعض الكتّاب يصف رجلا بالذم :

ما ظنّك بمن يعنف بالنعم عنف من ساءته مجاوَرَتُهَا ، ويستخف بحقها استخفافَ من ثَقُلَ عليه حَمْلُها ، ويَطَّرِحُ الشكر عليها اطّراح مَنْ لا يَعْلَمُ أنّ الشكرَ يَرْتَبِطها .

***

[عَوْد إلى غرر المدائح]

لأبى الشيص

وقال أبو الشيص :

يا من تمنّى على الدنيا مَبَالِغَهَا   هــلا سَأَلتَ أبا بِشْر فتُعْطاها

ما هبّت الريحُ إلاّ هَبَّ نَائِـلُهُ   ولا ارْتَقَى غاية إلاّ تخطّاهـا

غيره :

طِلاَبُ العُــلاَ إلاّ عليك يسير   وباعُ الأعادِى عن مَدَاكَ قَصِير

إذا عُدَّ أهلُ الفضل كنت الذى له   وللفَضْلِ فيــه أولٌ وأخير

لأبى الحجناء

وقال أبو الحجناء الأصغر نُصيب يصف إسحاق بن صباح :

كأنّ ابْنَ صبّاح، وكندةُ حَوْلَهُ   إذا ما بَدَا، بَدْرٌ تَوَسَّطَ أنجمــا

على أنّ فى البدر المحاقَ، وإن ذا   تمـــامٌ فما يزدادُ إلا تتمما

(١) يحيف : يجور ويظلم (م) (٢) المقة : الحب ، أو أشده (م)

تُرى المنـــبر الغربيّ يهتزُّ تحتهُ إذا ما عـلا أعْوَادَهُ وتـكلّما
فأنت ابْنُ خيرِ الناس إلا نبوةً ومن قبلها كنت السنام المقدّما

لنصيب في البرامكة

ونُصيب هو القائل في البرامكة ، وكان منقطعاً إليهم :

عند الملوك مَضَرَّةٌ ومنــافع وأرى البرامك لا تَضُرُّ وتنفعُ
إن العروق إذا استسرّ بها الثَّرَى أثّ النباتُ بهـا وطابَ المَزْرَعُ(١)
فإذا جهلت من أمرىء أعْرَاقَهُ وقَدِيمَهُ فانظر إلى ما يَصْنَعُ

أخذ هذا من قول سَلْم الخاسر :

لا تســـأل المرء عن خلائقه في وَجْهِهِ شـاهدٌ من الخـبر

لنصيب في بني سليمان بن علي

وقال نُصَيب في بني سليمان بن عليّ :

بني سليمان حزتم كلَّ مَـكْرُمَةٍ وليس فوقـكمُ فَخْـرٌ لمفتخرِ
لا تسأل المرء يوماً عن خلائقه . في وَجْهِهِ شَاهِدٌ يُنْبِيك عن خَبَرِ
حَسْبُ امرىء شرفاً أن ساد أسرته وأنت سُدْتَ جَمِيعَ الجنّ والبَشَرِ

سأل سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت رجلا حاجة ، فلم يقضها ، وسأل آخر ، فقضاها ، فقال للأول :

ذُممت ولَمْ تُحْمد ، وأبْتُ بحاجةٍ تَوَلّى سواكم شكرها واصطناعهاَ
أبى لك فعلَ الخيرِ رأيٌ مقصّرٌ ونَفْسٌ أضـاق الله بالبخل بَاعَهاَ
إذا ما أرادته على الخـيرِ مَرّةً عصاها ، وإن هَمّتْ بِشَرٍّ أطاعَهاَ

[فَعلَات الأجواد]

هشام بن عبد الملك

قال رجلٌ لهشام بن عبد الملك : قـد افتقرتُ يا أميرَ المؤمنين إلى ظهور حُسْن رأيك ، فإن رأيتَ إظهارهُ بسرور الصديق ، ورَغْم العدو ، فعلت ،

---

(١) في نسخة «أب النبات بها» تطبيع . وأث النبات : كثر والتف . (م)

قال هشام : أوجزت وملحتَ فيما سألت ؛ فلا تردّ لك طَلِبَة ، فما سأله شيئا إلا أعطاهُ أكثر منه .

عمرو بن مسعدة

قال حميد بن بلال : ولى عَمْرُو بن مَسْعَدة فارس وكرمان ، فقال له بعض أصحابه : أيها الأمير ، لو كان الحياء يُظهر سؤالاً لدعاك حيائى من كرمك فى جميع أهليك إلى الإقبال عَلَىّ بما يكثرُ به حَسَدُ عدوّى ، دون أن أسألك ، فقال عمرو : لا تَبْغِ ذلك بابتذالكَ ماء وجهك ، ونحن نُغْنيك عن إراقته فى خوض السؤال، فَارْفَعْ ما تريدُه فى رُقعة يصل إليك سراً ، ففعل .

محمد بن طيفور

وقال رجل من أهل فارس : قدم على محمد بن طيفور ، وهو عامل على بلاد أصبهان لبعض أهلها : كم تقدّرون صلات محمد فى كلّ سنةٍ للشعراء والمتوسلين ؟ قالوا : مائة ألف دينار ، سوى الخلع والحملان[1] .

وورد عليه يوماً كتابٌ من بعض إخوانه فى شأن رجل استماحه له فى دَرَجِه[2] : أنتَ أعزّك الله تعالى أجَلّ من أن يُتَوَسَّلَ بغيرك إليك ، وأن يُسْتَماح جُودُك إلاَّ بك ، غير أنى أذكرك بكتابى فى أمر حامله ، ما شرَع كرمُك [من الشكر] وزَرَع إحسانك من الأجر، قِبَل الصادرين والوارِدِين؛ فهنَّاك اللهُ تعالى ذلك ، ولا زالَتْ يَدُ الله بجميل إحسانه ونعمته متواترةً عليك .

فقال محمد للرجل : احتكم لك وله ؛ فأخذ منه ألفَ دينار ، ولمن كتب له مثلها .

إبراهيم بن المهدى

وقال رجل لإبراهيم بن المهدىّ : قد أوحشنى منك تَرَدُّدُ غليلٍ فى صدرى أهابُك عن إظهاره ، وأجِلّك عن كَشْفه ، فقال له إبراهيم: لكنى أكشف لك معروفى ، وأُظْهِر إحسانى ؛ فإن يكن غيرُ هذين فى خَلَدِك ، فاكْتُبْ رقعة يخرج توقيعى سراً لتقِفَ على ماتحبّ ، فبلغ كلامُه المهدى فقال : هذا والله غاية الكرم.

(١) فى نسخة « سوى الخلع والهدايا » (م)
(٢) فى نسخة « استماحه له فى منزله » (م)

محمد بن طيفور

وكتب محمد بن طيفور لبعض خاصته بمالٍ كثير وصَلَه به ، فكتب الرجلُ إليه : قد استغرقَتْ نِعْمَتُكَ وجُوهَ الشكر لك ، وغَوَّرَ الحمدِ فيما سلف منك ، ولولا فَرْطُ عجزى عن تلقّى ما يجبُ لك من الحمد لقبلتُ ما أنفذتَه .

فكتب إليه محمد : قد صغَّرَ شكرُك لنا ما أسلفناه إليك ؛ فَخُذْ ما أنفذناه ثوابا عن معرفتك بِشُكْرِ التافه[1] عندى ، وإلاَّ سمح شكرُك بما رأيناك له أهلا إلى أنْ يتسع قبول مثلك ما يستحقّ به جميلَ الدعاء ، وجزيلَ الثناء ، إن شاء الله تعالى .

[من نوادر الرثاء]

قرد زبيدة بنت جعفر

ولما مات قِرْدُ زُبيدة بنت جعفر ساءها ذلك ، ونالها من الغمّ ما عَرَفه الصغير والكبير من خاصّتها ، فكتب إليها أبو هارون العبديّ :

أيتها السيدة الخطيرة ؛ إنّ موقعَ الخَطْب بذهاب الصغير المعجب كموقع السرور بِنَيْلِ الكثير المُفرِح ، ومَنْ جهل قَدْرَ التعزية عن التّافِهِ الخفيّ، عَمِيَ عن التهنئة بالجليل السَّنِيّ ، فلا نَقَصَكِ اللهُ الزائدَ فى سرورك ، ولا حَرَمَكِ أجرَ الذاهب من صغيرك .

فأمرَتْ له بجائزة .

ثور ابن قريعة

وكتب أبو إسحاق الصابى عن ابن بقية فى أيام وزارته إلى أبى بكر بن قريعة يعزِّيه عن ثور أبيض بقوله ، وجلس للعزاء عنه تَرَاقُعًا وتحامُقا :

التعزيةُ على المفقود أطال الله بقاء القاضى إنما تكونُ بحسب محلهِّ من فاقِدِه ، من غير أن تُرَاعَى قيمتُهُ ولا قَدْرُهُ ، ولا ذاتُهُ ولا عينُهُ ؛ إذ كان الغرض فيها تبريدَ الغُلَّة ، وإخْمَادَ اللَّوْعَة ، وتسكين الزَّفْرَة ،وتَنْفيس الكُرْبة ، فربَّ وَلَدٍ

---

(١) فى نسخة « معرفتك بشكر ماأسديناه »

عاق ، وشقيق مُشاقّ ، وذى رحم أصبح لها قاطعا ، [ولأهله فاجعا] ، ورب قوم قد قلّدهم عارا ، وناطَ بهم شنَارا ، فلا لَوْم على تَرْكِ التعزية عنه ، وأحْرِ بها أن تستحيل تهنئةً بالراحة منه؛ وربَّ مالٍ صامتٍ غيرِ ناطقٍ ، قد كان صاحبُه به مستظهرا ، وله مستثمرا ، فالفجيعةُ به إذا فقد موضوعةٌ موضعها ، والتعزيةُ عنه واقعةٌ منه موقعها . وقد بلغنى أن القاضى أصيب بثور كان له ، فجلس للعزاء عنه شاكيًا ، وأجْهَش عليه باكيا ، والتدَم عليه وَالِهًا[١] ، وحُكيت عنه حكاياتٌ فى التأبين له ، و إقامة النّدبة عليه ، وتعديد ما كان فيه من فضائل البقر التى تفرقت فى غيره ، واجتمعَتْ فيه وَحْدَه ؛ فصار كما قال أبو نواس، فى مثله من الناس :

ليس على الله بمستنكَرٍ ... أن يجمع العالَم فى وَاحِدِ

لأنه يَكْرُب الأرض مغمورة[٢] ، ويُثيرها مزروعة ، و يرقص فى الدواليب ساقيًا وفى الأرحاء طاحنا ، و يحملُ الغَلاَّتِ مستقلا ، والأثقالَ مستخفًا ؛ فلا يَؤُوده عظيم ، ولا يُعْجِزه جسيم ، ولا يجرى فى الحائط[٣] مع شقيقه ، ولا فى الطريق مع رفيقه ، إلا كان جَلْدا لا يُسْبَق ، ومبرِّزاً لا يُلحق ، وفائتا لا يُنال شَأْوه وغايتُه ، ولا يبلغ مَدَاه ونهايتُه . و يشهدُ اللهُ أنّ ما ساءه ساءنى ، وما آلمه آلمنى ، ولم يَجُزْ عندى فى حق ودّه استصغارُ خَطْبٍ جلّ عنده ، فأرقَهُ وأمَضّه وأقلقه ، ولا تهوينُ صعبٍ بلغ منه وأرمضه، وشَفَّه وأمرضه ؛ فكتبت هذه الرقعة ،قاضيًا بها من الحق فى مصابه هذا بقَدْرِ ما أظهر من إكباره إياه ، وأبانَ من إعظامه له ؛ وأسألُ الله تعالى أن يخصّه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر ، عن البقر ، وأن يُفْرِدَ هذه البهيمة العجماء بأثَرَةٍ من الثواب ، يضيفها إلى المكلّفين من أهل

(١) فى نسخة « ولها » بدون ألف ، وليست بشىء ، يقال : وله الرجل يله — مثل وعد يعد ،ووله يوله — مثل وجل يوجل — فهو ولهان ، وواله، وآله ، والواله : الشديد الحزن (م) (٢) يكرب الأرض : يثيرها للزرع ، وفى نسخة « معمورة » بالعين مهملة (م) (٣) الحائط : البستان (م)

الألباب[1] ؛ فإنها وإن لم تكن منهم ، فقد استحقَّت ألاَّ تُفرد عنهم ، بأن مسّ القاضى سببُها ، وصار إليه مُنْتَسَبُها ، حتى إذا أنجز اللهُ ماوعد به [عباده المؤمنين] من تمحيص سيئاتهم ، وتضعيف حسناتهم ، والإفضاء بهم إلى الجنة التى رَضِيهاَ لهم داراً ، وجعلها لجماعتهم قَرَاراً ؛ وأورد القاضى ـ أيّده الله تعالى ـ مواردَ أهلِ النعيم ، مع أهْل الصراط المستقيم ، جاء وثَوْرُه هذا مجنوبٌ معه ، مسموح له به ؛ وكما أنّ الجنةَ لا يدخلها الخبث ، ولا يكون من أهلها الحدث ، ولكنه عَرَقٌ يجرى من أعراضهم ، كذلك يجعلُ الله ثَوْر القاضى مركبا من العَنْبَرِ الشِّحْرى، وماء الوَرْد الجُورى؛ [فيصير ثوراً له طورا ؛ وجُونَةَ عطرٍ[2] له طورا] وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر ، ولا مستصعَب ولا متعذّر ؛ إذ كانت قدرةُ اللهِ بذلك محيطةً ، ومواعيدُه لأمثاله ضامنة ، بما أعدّه اللهفى الجنة لعبادهِالصادقين ، وأوليائه الصالحين ؛ من شهوات أنفسهم وملاذّ أعينهم ، وما هو سبحانه مع غامر فضله وفائِض كرمه ، بمانعه ذلك مع صالح مساعيه ، ومحمود شِيَمه ؛ وقلبى متعلّق بمعرفة خبره ، أدام اللهُ عزّه فيما ادّرعه من شعار الصبر ، واحتفظ به من إيثار الأجْرِ ، ورفع إليــه من السكون لأمْرِ الله تعالى فى الذى طَرَقَه ، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه ، فليعرفنى القاضى من ذلك ما أكُونُ ضاربا معه بسَهْمٍ المساعدة عليه ، وآخــذا بقِسْطِ المشاركة فيه .

فصل من جواب أبى بكر : وصل توقيعُ سيدنا الوزير أطال اللهُ بقاه ، وأدام تأييده ونعماه ، وأكمل رفعته وعُلاه ، وحَرس مُهْجته وَوَقاه ، بالتعزية عن الثور الأبيض ، الذى كان للحَرْثِ مثيراً ، وللدواليب مُدِيرا ، وبالسَّبْقِ إلى سائر المنافع شهيراً ، وعلى شدائد الزمان مُساعدا وظَهيرا[3] . لعمرُكَ لقد كان بعَمله

(١) فى نسخة « من ذوى الألباب » والألباب : العقول ، واحدها لب (م)

(٢) الجونة ـ بضم الجيم ـ سلة صغيرة تغشى بالجلد ، تكون مع العطارين (م)

(٣) ظهيرا : معينا

ناهضاً، ولحاقات البقر رافضاً ، وأنّى لنا بمثله وشَرْواه[١] ، ولا شروى له ؛ فإنه كان من أعيان البقر ، وأنفع أجناسه للبشر ، مضاف ذلك إلى خَلاّتٍ لو لا خَوْفى من تجدُّد الحزن عليـه ، وتهييج الجزَع وانصرافه إليه لعدَدْتُها ؛ ليعلمَ ـ أدام الله عزه ـ أن الحزينَ عليه غيرُ مَلوم . وكيف يُلام امرؤ فقَد من ماله قطعةً يجب فى مثلها الزكاة ، ومن خَدَم معيشته بهيمة تُعين على الصوم والصلاة ، وقد احتذيتُ مامثّله الوزير من جميل الاحتساب، والصبر على المُصَاب؛ فقلت: إنا لله و إنا إليه راجعون قولَ من علم أنه أملك لنفسه وماله وأهله[٢] وأنه لا يملك شيئاً دونه ؛ إذ كان جلّ ثناؤه ، وتقدَّست أسماؤه ، هو الملك الوهّاب ، المرتجع ما ارتجع بما يعوض عليـه نفيس الثواب . وقد وجدت ـ أيد الله الوزير ـ للبقر خاصةً فضيلةً على سائر بهيمة الأنعام ، تشهد بها العقولُ والأفهام ، وذكر جملة من فضائلها .

* * *

وكأنَّ أبا نواس فى قوله :

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد

نَظَر فى هذا المعنى إلى قول جرير :

إذا غضبَتْ عليك بنو تميمٍ   حسبتَ الناسَ كلّهم غِضابا

[عَوْدٌ إلى المختار من الرثاء]

لامرأة العباس بن عبد المطلب

وقالت امرأةٌ من العرب ، يقال : إنها امرأةُ العباسِ عمّ النبى صلى الله عليه وسلم ، ترثى بنيها[٣] :

رَعَوْا من المجدِ أكنافا إلى أجل   حتى إذا كملت أظماؤهم ورَدُوا

مَيْتٌ بمصرٍ، ومَيْتٌ بالعراق، ومَيْـتٌ بالحجاز ، مَنايا بينهم بَدَدُ

كانت لهم هِمَمٌ فرّقن بينهمُ   إذا القعاديدُ عن أمثالهم قعدوا

---

(١) الشروى ـ بفتح الشين وسكون الراء ـ المثل ، والنظير ، وفى نسخة « وأنى لنا بمثله وشرائه وهو لا يشرى » تحريف (م)

(٢) فى نسخة « قول من علم أن المرء لا يملك نفسه وماله وأهله . بل لا يملك شيئا دونه » (٣) تنسب هذه الأبيات أيضا إلى فاطمة بنت الأحجم الخزاعية (م)

بثّ الجميل، وتفريج الجليل، وإعطاء الجزيل الذى لم يُعْطِه أحدُ

وقال عبدة بن الطبيبُ فى قيس بن عاصم :

عليك سلام الله قيسُ بنَ عاصمٍ ورحمتُهُ ما شاء أن يترحّما

تحية من ألبسته منك نعمة إذا زار عن شَحْطٍ بلادَك سلَّما[1]

فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدّما

وقيس بن عاصم هو القائل :

إنى امرُؤٌ لا يَعْتَرِى حسَبى دنسٌ يُغيِّره ولا أفنُ

من مِنْقَر فى بيتِ مكرُمةٍ والأصل يَنْبتُ حوله الغصْنُ[2]

خُطباء حين يقول قائلهمْ بيضُ الوجوهِ أعفّةٌ لُسُنُ[3]

لا يَفطِنون لعيبِ جارِهمُ وهُمُ لحسْنِ جوارِه فُطُنُ

لأخت الوليد ابن طريف

وقالت أختُ الوليد بن طريف الشيبانى ترثيه :

أيا شجَر الخابورِ مالك مُورِقا كأنك لم تَجزَعْ على ابن طَريف

فتًى لا يَعُدّ الزادَ إلاّ من التقى ولا المال إلاّ من قناً وسيوفِ

عليك سلامُ الله وقفا ؛ لأننى أرى الموت وَقَّاعاً بكل شريف

فقدناك فِقدَان الربيع ، وليتنا فَدَيْنَاك من فتياننا بألوف

لبكر بن النطاح

وخرج الوليد فى أيام الرشيد ، فقتله يزيد بن مَزْيد ، وفى ذلك يقول بكر ابن النطاح الحنفى :

يا بنى تغلب لقد فَجَعَتْكمْ من يزيدٍ سيوفُهُ بالوليد

لوْ سيوفٌ سوى سيوفِ يزيدٍ قارَعَتْهُ لاقتْ خِلافَ السعودِ

واترٌ بعضُها يقتّل بعضاً لا يفلُّ الحديدَ غيرُ الحديدِ

* * *

(١) فى نسخة « تحية من غادرته غرض الردى » (م)

(٢) فى الأمالى (١/٢٣٩) « والفرع ينبت حوله » (م)

(٣) وفيه « مصاقع لسن » (م)

[من شعر بكر بن النطاح]

وكان بكر كثيرَ التعصب لربيعة والمدح فيهم، وهو القائل:

ومن يفتقر منّا يَعِشْ بحسامِه ومن يفتقر من سائر الناس يَسْأَلِ

ونحن وُصِفْنَا دون كل قبيلةٍ بشدةِ بأس فى الكتاب المنزَّلِ

وإنا لَنَلْهُو بالسيوف كما لَهَتْ فتاةٌ بعِقْد أو سِخَابِ قَرَنْفلِ(١)

يريد قول الله عز وجل : « ستُدْعَوْن إلى قوم أولى بَأْس شديد » . جاء فى بعض التفاسير أنهم بنو حنيفة قوم مُسيلمة الكذاب .

وبكر القائل أيضا فى أبى دُلَفَ :

ياعصمة العرب الذى لو لم يكن حيًّا لقد كانت بغير عِمَاد

إنّ العيون إذا رأتْك حِدادُها رجعت من الإجلال غيرَ حِدَادِ

وإذا رميت الثغر منك بعَزْمةٍ فتَّحْتَ منه مواضعَ الأسدادِ

فكأن رمحَك مُنْقَعٌ فى عُصْفُرٍ وكأنَّ سيفك سُلَّ من فِرْصَاد

لو صال من غَضَبٍ أبو دلف على بِيض السيوف لَذُبْن فى الأغماد

أذكى وأوقد للعداوة والقِرَى نارَيْن نارَ وغًى ونار زناد

نسب أبى دلف العجلى

وأبو دلف هو القاسم بن عيسى بن إدريس بن معقل بن عمير بن شنبج بن معاوية بن خُزَاعى بن عبد العزّى بن دلف بن جشم بن قيس بن سعد بن عجل ابن لجيم .

* * *

وقد رُوِيت الأبيات التى مرت لأخت الوليد بن طريف لعبد الملك بن بجرة النميرى .

لدعبل الخزاعى

وقال أبو هِفَّان واسمه منصور بن بجرة ، قال : أنشدنى دعبل لنفسه :

وَدَاعُك مثل وَدَاع الربيع وفقدُك مثل افتقاد الدِّيَمْ

---

(١) السخاب ـ بزنة الكتاب ـ قلادة ليس فيها جوهر (م)

عليك السلام فكم من وفاء أفارق منك وكَمْ من كَرَمْ

فقلت : أحسنت ، ولكن سرقت البيتين من ربيعيين : الأول من قول القطامى :

ما للكواعب ودّعن الحياة كما ودّعْنَنِي واتخذن الشيب ميعادى

والثانى من قول ابن بجرة :

* فقدناك فقدان الربيع وليتنا *

وأنشد البيت . فقال : بلى ، والله سرق الطائى من ابن بجرة بيتا كاملا فقال :

عليك سلامُ الله وقفا فإننى رأيت الكريم الحر ليس له عُمُر

كذا وردت الحكاية من غير وجه ، وكان يجب إذا كان من ربيعيين أن يكون « فَقَدْناكَ فقادن الربيع » لأخت الوليد .

وقد قال السموءل فى قصر العمر :

يقرب حبّ الموتِ آجالَنَا لنا وتكرهه آجالهم فتطولُ

وقال ابن قتيبة : أخذ النميرى قوله : « أيا شجر الخابور » من قول الجن فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

رثاء عمر ابن الخطاب

أبعد قتيلٍ بالمدينة أظلمتْ له الأرض تهتزّ العِضَاه بأسْوُقِ

وقد أنشده أبو تمام الطائى للشماخ فى أبيات أولها :

جزى الله خيراً من أميرٍ وباركتْ يدُ الله فى ذاك الأديمِ الممزّق

[ومن يَسْعَ أو يركَبْ جناحى نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يُسْبَقِ]

قضيتَ أموراً ثم غادرتَ بعدها نوافج فى أكمامها لم تفتّق[1]

وما كنتُ أخشى أن تكونَ وفاتهُ بكفَّىْ سَبَنْتَى أزرق العين مُطرِق

تظل الحصَان البِكر تلقى جنينها نثا خبر فوق المطىّ معلّق

---

(١) النوافج : جمع نافجة ، وهى وعاء المسك ، والأكمام : جمع كم - بكسر الكاف - وهو وعاء الطلع ، وهو أيضا الغلاف الذى ينشق عن الثمر ، ويروى «بوائق فى أكمامها» والبوائق : جمع بائقة ، وهى الداهية والشر ، ولم تفتق : لم تفتح (م)

لبشار

وقد قال بشار قريباً من قوله : [ولا المال إلا من قنا وسيوف] :

على جَنَبات الملك منــه مَهَابَةٌ وفى الدرع عَبْلُ الساعدَين قَرُوعُ
إذا اختزنَ المـالَ البخيلُ فإنما خزائنهم خَطِّيةٌ ودُروعُ

للمتنبى فى فاتك

وهذا كقول أبى الطيب المتنبى فى فاتك الإخشيدى :

كنا نظن دِيارَه مملوءةً ذهَبا فمات وكلُّ دَارٍ بَلْقَعُ
وإذا المكارمُ والصَّوارمُ والقنا وبنَاتُ أعْوَجَ كُلّ شىء يجمَعُ[1]

لعبد الملك الحارثى

ومن بارع هذا النحو قول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى :

وإنى لأرباب القبور لغَابِطٌ لسُكْنى سعيدٍ بين أهل المقابرِ
وإنى لمفجوعٌ به إذْ تكاثَرَتْ عداتى ولم أهتف سِواهُ بناصِر
وكنت كمغلوبٍ على نَصْلِ سَيفه وقد حزّ فيه نَصْل حَرّان باتر
أتيناه زُوَّاراً فأمجدَنَا قِرًى من البَثّ والداء الدخيل المخامر
وأبنَا بزَرْعٍ قد نمَـا فى صدورنا من الوجد يُسْقَى بالدموع البَوادِرِ
ولمـا حضَرْنَا لاقتسام تُرَاثه أصبنا عظيمات اللُّهى والمآثِرِ[2]

أى لم نصب مالا، ولكنا أصبنا فَعالا.

[من كلاب الأعراب]

دخلت أعرابية على عبد الله بن أبى بكرة بالبصرة، فوقفت بين السِّماطين[3]، فقالت : أصلح الله الأمير ، وأمتَعَ به ؛ حَدَرتْنَا إليك سَنَةٌ أشتدّ بلاؤها ، وانكشف غِطاؤها ، أقودُ صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، فى بلد شاسعة ، تخفِضُنا خافضة ، وترفعُنا رافعة ، لِمُلِمّاتٍ من الدهر بَرَيْن عَظْمى ، وأذهبن لحمى ، وتركْنَنى والهة أدورُ بالحضيض ، وقد ضاق بى البلدُ العريض ، فسألت فى أحياء العرب : مَن الكاملةُ فضائلُه ، المُعْطَى سائلُه ، المكفىُّ نائله[4] ؛

(١) الصوارم : السيوف ، واحدها صارم ، وبنات أعوج : الخيل العربية الأصيلة (م) (٢) اللها — بضم اللام — العطايا الجزيلة (م)

(٣) السماط — بزنة الكتاب — الصف (م) (٤) فى نسخة «الكافى نائله» (م)

فَدُلِلْت عليك ـ أصلحك الله تعالى ـ وأنا امرأة من هَوازن ؛ وقد مات الوالد ، وغاب الرّافد ، وأنْتَ بعد الله غياثى ، ومنتهى أَمَلى ، فافعلْ بى إحدى ثلاث : إما أن تردّنى إلى بلدى ، أو تحسن صَفَدى[١] ، أو تقيم أَوَدى ! فقال: بل أجمعها لك ، فلم يَزَلْ يُجْرِى عليها كما يُجْرِى على عياله ، حتى ماتت .

أعرابى بباب عبيدالله بن زياد

قال العتبىّ : وقف أعرابىّ بباب عبيد الله بن زياد ، فقال : يأهل الغَضَارة[٢] ، حَقِب السحابُ[٣] ، وانقشعَ الرّبَابُ[٤] ، واستأسدت الذّئاب ، وردم الثَّمَد ، وقلّ الحَفَد[٥] ، ومات الولد ، وكنت كثيرَ العُفَاةِ ، صخِب السقاة ، عظيمَ الدّلاة[٦] ، لا أتضاءل للزمان ، ولا أحفل بالحِدْثَان ، حَىٌّ حِلَال[٧] ، وعَدَدٌ ومَالٌ ، فتفرقنا أيْدِى سَبَا ، بعد فقد الأبناء والآباء ؛ وكنت حسنَ الشارة ، خصيب الدّارَة ، سليم الجارة ، وكان محلى حِمى ، وقومى أَمّى ، وعِزّى جَداً ؛ قضى الله ولا رُجْعان لما قضى ، بِسَوَافِ المال[٨] ، وشتات الرجال ، وتَغَيُّر الحال ، فأغيثوا مَنْ شَخْصُه شاهدُه ، ولسانهُ وَافدهُ ، وفَقْرُه سائقهُ وقائِدُه .

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة البصرية

ومن مقامات الإسكندرى من إنشاء بديع الزمان ، قال :

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : دخلت البَصرة وأنا من سنىٍّ فى فَتَاء[٩] ، ومن الزِّىِّ فى حِبَرٍ ووِشَاء[١٠] ، ومن الغنى فى بَقَرٍ وشَاء ؛ فأتيت المِرْبَد مع رُفْقَة تأخذهم العيون ، ودخلنا غير بعيد فى بعض تلك المتنزهات ، ومَشَينا فى تلك المتوَجَّهات ، وملكتنا أرضٌ فحللناها ، وعَمَدنا لِقِدَاح اللَّهو فأجَلْنَاهَا ، مُطّرِحِينَ للحِشْمَةِ ،

---

(١) الصفد ـ بالتحريك ـ العطاء ، والأود ـ بالتحريك ـ العوج (م)
(٢) الغضارة : النعمة (م) (٣) حقب السحاب : احتبس ، والمراد المطر (م)
(٤) الرباب : الأبيض من السحاب (م) (٥) الحفد : الأعوان والأنصار (م)
(٦) الدلاة : جمع دال ، وهو المستقى بالدلو من البئر (م) (٧) حى حلال : مقيمون (م)
(٨) سواف المال : هلاكه (م) (٩) فتاء السن : ميعته ونضارته (م)
(١٠) الحبر : جمع حبرة ـ بوزن عنبة ـ وهو ضرب من الوشى ، والوشاء : نوع من اللباس مطرز (م)

إذْ لم يكن فينا إلا منَّا ، فما كان إلاَّ بأَسْرَع من ارتداد الطَّرْف حتى عنَّ لنا سَوَادٌ ، تخفِضُه وهاد ، وترفعه نجاد ، وعلمنا أنه يهمّ بنا ، فأتلعنا(١) له ، حتى انتهى إلينا(٢) سيرهُ ، ولقينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ؛ ثم أجال فينا طَرْفه وقال : يا قوم ؛ ما منكمْ إلاَّ من يلحظنى شَزْراً ، ويوسعنى زَجْرا(٣) ،ولا ينبئكم عنى، بأصدق منى؛ أنا رجل من أهل الإسكندرية، من الثغور الأموية ، قد وطّأ لى الفضل كَنَفَه ، ورحبت بى عبس ، ونمانى بيت ، ثم جَمْجَعَ بى الدهر عن ثُمِّهِ ورُمِّهِ(٤) ، وأتلاَنِى زغاليلَ حُمْر(٥) الحواصل :

كأنهمْ حَيَّاتُ أرض مَحْـلَةٍ   فـلو يَعَضُّون لذَكىّ سَمُّهمْ

إذا نَزَلْنَا أرسـلونى كاسباً   وإن رَحَلْنَا رَكِبُونى كلهُمْ

ونشزت علينا البيض(٦) ، وشمسَتْ منا الصُّفْر ، وأكلتنا السُّودُ(٧) ، وحطمتنا الحمر ، وانتابنا أبو مالك ، فما تَلقّانَا أبو جابر إلاَّ عن عُفْر(٨) ، وهذه البصرة ماؤها هَضُوم ، وفقيرها مهضوم ، والمرء من ضِرْسِه فى شُغْل ، ومن نفسه فى كلّ ، فـكيف بمن :

يُطَوِّف ما يُطَوِّف ثم يَأْوى   إلى زُغْبٍ مُحَدَّدَةَ العيونِ

كَسَاهُنَّ البِلَى شُعْثا فتَمْشِى   جِيَاعَ الناب ضامِرَةَ العيونِ

ولقد أصْبَحْنَ اليَوْمَ وقد سَرَّحْنَ الطَّرْف فى حىّ كَمَيْتٍ ، وفى بيت كلا بيت ، وقلبن الأكفّ على لَيْت ، فقَضَضْنَ عقد الضلوع ، وأفَضْنَ ماء الدموع ، وتَدَاعَيْنَ باسم الجوعِ :

والفقرُ فى زَمَنِ اللئا   مِ لكلِّ ذى كَرَمٍ عَلاَمَهْ

(١) أتلعناله : استشرفناومددنا أعناقنانحوه (م) (٢) فى نسخة «فأداه إلينا» (م)
(٣) فى نسخة «ويوسعنى حزرا» (م) (٤) ثمه ورمه : قليله وكثيره (م)
(٥) أتلانى : أتبعنى ، وزغاليل : أراد بهم أطفاله ، وحمر الحواصل : كناية عن صغرهم (م) (٦) البيض: الدراهم لكونها من فضة ، والصفر: الدنانير لكونها من ذهب ، والنشوز والشماس بمعنى الفراق (م) (٧) السود : الليالى ، والحمر : السنوات المجدبة ، وأبو مالك : الفقر (م) (٨) وأبو جابر: الخبز ، وماندمانا إلا عن عفر : يعنى كل حين مرة (م)

وقد اخترتُكم يا سادة ، ودلّتني عليكم السعادة ، وقلتُ(١) : قسما ، إن فيهم شيماً ، فهل من فتى يعشّيهن ، أو يُغَشّيهِنّ ؟ وهل من حرٍّ يغدِّيهن ، أو يردِّيهن ؟

قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على سَمْعِي كلامٌ رائع أبرع مما سمعت ، لا جرمَ أنا استمَحْنَا الأوساط ، ونفَضْنَا الأكمام ، و بَحَثْنَا الجيوب(١) ؛ وأنلْتُهُ مُطْرَفي ، وأخذت الجماعةُ أخْذِي ، وقلنا له : الحق بأطفالك ، فأعرض عنّا بعد شكر وفّاه ، ونشرٍ مَلَأ بهِ فَاهُ .

[من رسائل البديع]

ورسالة منه لبعض الرؤساء

ومن رسائله إلى بعض الرؤساء :

خُلقت ـ أطال الله بقاء السيد وأدام تأييده ـ مشروحَ جَنَانِ الصدر ، جموحَ عِنَانِ الحلم(٢) ، فسيح رُقعة الصدر :

حَمُولاً صبوراً لو تَعَمَّدَنى الردى لسِرْتُ إليه مُشْرِقَ الوَجْهِ راضيا
ألوفاً وفيًّا لو رُدِدْتُ إلى الصِّبَا لفارقتُ شَيْبِي مُوجَعَ القلب باكيا

والله لَأُحيلَنَّ السيد على الأيام ، ولأُكِلَنَّ استحالة رأيه فيَّ على الليالى ، ولا أزال أصفيه الولاء ، وأسنيه الثناء ، وأفرش له من صدرى الدَّهْنَاء ، وأعيره أذنا صماء ، حتى يعلم أىّ عِلْقٍ باع ، وأىّ فتى أضاع ، وليقفنَّ موقف اعتذار ، وليعلمنَّ بِنُصْحٍ أنَّى الواشون أم بحُبُول(٣) ، ولا أقول : يا حالف اذكر حِلاً ، ولكن يا عاقِدُ(٤) اذكر حَلاً ، ولست كمن يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أذَى رَهْطِهِ ، ويَشْتَاقُ إلى رمى يزيد لِسِبْطه(٥) ، ولكنى أقول :

هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخَامِرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أعراضنا ما استَحَلَّتِ

---

(١) فى نسخة « ونحتنا الجيوب » تحريف ، وبحث الجيوب : تفتيشها (م)
(٢) فى نسخة « جموح عنان القلم بحلم فسيح رقعة الصدر » (م)
(٣) هذا عجز بيت لكثير عزة ، وصدره * فلا تعجلى ياعز أن تتفهمى *
(٤) فى نسخة « ياعاقر » تحريف (م) (٥) فى نسخة « ويشتاق » بالشين معجمة ، وفى الرسائل (بيروت ١٤٠) « لو يستاق إلى الكفر من يدى سبطه » وسبطه : هو الحسن بن على ، رضى الله عنهما ! (م)

وأنا أعلم أن السيدَ لا يخرج عن تلك الحلية ، بهذه الرُّقْية ، وأن جوابَه أخشنُ من لقائه ، فإن نشط للاجابة فلتكن المخاطبةُ قرأت رقعتك ، فهوأخف مؤنة، وأقل تَبِعة .

رسالة منه إلى الشيخ العميد

وله إلى [الشيخ] العميد :

أنا ـ أطال الله بقاء الشيخ العميد ـ [مع إخوان نيسابور] فى ضيعة لا فيها أعان ، ولا عنها أصان ، وشيمة ليست بى تُنَاط ، ولا عنى تُماط ، وحرفة لا عَنّى تُزَال ، ولا فيها أدَال ، وهى الكُدْية التى علىّ تَبِعتُها ، وليس لى منفعَتُها ، فهل للشيخ العميد أن يلطف بصنيعته لطفاً يحط عنه دَرَنَ العار ، وشيمة التكسّب بالأشعار[1] ، ليخفّ على القلوب ظِلّه، ويرتفع عن الأحرار كَلّه[2] ، ولا يثقل على الأجفان شَخْصُه ، بإتمام ما كان عَرَضَه عليه من أشغاله، ليعلقَ بأذياله، ويستفيدَ من خلاله ؛ فيكون قد صان العلم عن ابتذاله ، والفضلَ عن إذلاله[3] ، واشترى حُسْنَ الثناء بجاهه ، كما يشتريه بماله ، والشيخ العميد فيما يوجبه من وَعْدٍ يعتمده ، ووفاء يَتْلو ما يَعده، عالِ رأيه إن شاء الله

[عود إلى غُرر المديح]

لأبى العباس الناشىء

وقال بعضُ أهل العصر،وهو أبو العباس الناشىء ،يمدحُ سعد الدولة أبا المعالى شريف بن سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان :

كأن مرآة فهم الدهر فى يدهِ   يرَى بها غائبَ الأشياء لم يَغِب

ما يرفع الفَلَكُ العالى سماء عُلاً   إلا علاها شريفٌ كوكبُ العربِ

يا من بعَيْنِ الرضا يلقَى مُؤمِلَهُ   والبُخْلُ يُطْبِقُ أجفاناً على الغضَب

لو يكتب المَلْكُ أسماء الملوك إذاً   أعطاك موضع بسم الله فى الكُتُب

---

(١) فى الرسائل (بيروت ١٦١) « وسمة التكسب بالأشعار » (م)

(٢) الكل ـ بفتح الكاف ـ الثقل (م) (٣) فى الرسائل « فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله ، والأدب عن إذ لاله » (م)

غرّبت فى كل يوم منك مكرمةً   فليس ذِكرُك فى أرض بمغترِبِ

بيته الأول كقول القائل :

أطلّ على الأشياء حتى كأنما   له من وراء الغيْب مُقْلَةُ شاهدِ

[وكما قال] أبو تمام الطائى :

أطَلَّ على كِلاَ الأفقين حتى   كأنَّ الأرضَ فى عينيه دارُ[1]

وأفرط ابن الرومى فقال :

أحاطَ علماً بكلٍّ خافيةٍ   كأنما الأرضُ فى يديه كُرَهْ

وقال محمد بن وهيب :

عليمٌ بأعقاب الأمور ، كأنما   يخاطبه من كل أمرٍ عواقبُهْ

وقال بعض شعراء بنى عبد الله بن طاهر :

وقوفك تحت ظلال السيوف   أقرّ الخلافةَ فى دارها

كأنك مطّلع فى القلوب   إذا ما تناجَتْ بأسرارها

وقال البحترى للفتح بن خاقان :

كأنك عينٌ فى القلوب بصيرةٌ   ترَى ما عليه مستقيمٌ ومائلُ

وقال فى سليمان بن عبد الله بن طاهر :

ينال بالظن ما فات اليقين به   إذا تلبّس دون الظن إيقانُ

كأن آراءه والظن يجمعها   تُريه كل خفىٍّ وَهْوَ إعلانُ[2]

ما غاب عن عينه فالقلبُ يذكره   وإن تَنَمْ عينُه فالقلب يَقْظَانُ

لأحمد بن محمد يمدح ابن وهب

وقال أبو الحسن أحمد بن محمد الكاتب يمدح عبيد الله بن سليمان [بن وهب الوزير] :

---

(١) يريد أن الأرض بالنظر إلى علمه بما يقع فى أرجائها صغيرة الرقعة كأنها دار واحدة (م)   (٢) فى نسخة « والحزم يتبعها » (م)

إذا أبو قاسم جادَتْ لنا يدُهُ ... لم يُحْمَدِ الأجْوَدَانِ البحرُ والمطَرُ
وإن أضاءت لنا أنوارُ غُرَّتِه ... تضاءل الأنوران الشمسُ والقمرُ
وإن مضى رأيه أوحَدُّ عزمتهِ ... تأخّر الماضيان السيفُ والقَدَرُ
من لم يبت حَذِراً من خوف سَطْوَته ... لم يدر ما المُزْعِجَان الخوفُ والحذر
ينال بالظن ما يَعْيَا العِيَانُ بهِ ... والشاهدان عليه العَيْنُ والأثر
كأنه الدهر فى نُعمى وفى نعمٍ ... إذا تعاقب منه النفــع والضرر
كأنه وزِمامُ الدهر فى يدهِ ... يرى عواقبَ ما يأتى وما يَذَرُ

وأصل هذا قولُ أوسِ بن حَجَر:

الألمعيَّ الذى يظن بك الظنَّ كأنْ قد رأى وقد سَمِعَا

وهذا المعنى قد مرّ فى أثناء الكتاب .

قال أبو الحسن جحظة البرمكى : قلت لخالد الكاتب : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت أرقَّ الناس شعراً ، قلت : أتعرف قولَ الأعرابى : **لأعرابى**

فما وَجْد أعرابيةٍ قَذَفَتْ بها ... صُروفُ الليالى حيث لم تكُ ظَنَّتِ
تمنَّتْ أحاليبَ الرعاء، وخَيْمَةً ... بنَجْدٍ ، فلم يُقْدَرْ لها ما تمنّتِ
إذا ذَكَرَتْ ماء العِضَاهِ وطِيبَهُ ... وريح الصبا من نحو نجدٍ أرنّتِ[1]
بأعْظَمَ من وجدٍ بليلى وَجَدْتهُ ... غداة غَدَوْنَا غدوة واطْمَأنّتِ
وكانت رياح تحملُ الحاجَ بيننا ... فقَدْ بَخِلَتْ تلك الرياحُ وضَنّتِ

فصاح خالد وقال : ويحك ! ويلك يا جحظة ! هـذا واللهِ أرَقّ من شعرى .

---

(١) أرنت : صوتت ، والرنين : الصوت،وفى نسخة«وماء الصبا من نحو نجران أنت » (م)

[تكاليف المجد]

فصل لأبى العباس بن المعتز

لن تكسب ـ أعزك اللهُ ـ المحامد ، وتستوجب الشرفَ ، إلا بالحَمْل على النفس والجال[1] ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبَذْل الجاه والمال ، ولو كانت المكارمُ تُنَال بغير مئونة لاشترك فيها السَّفَلُ والأحْرَار ، وتساهَمَهَا الوُضَعاء مع ذوى الأخطار ؛ ولكنّ اللهَ تعالى خصّ الكُرماء الذينَ جعلهم أهْلَها ، فخفّف عليهم حملها ، وسوّغهم فَضْلَها ، وحَظَرها على السَّفِلَة لصِغَر أقدارهم عنها ، وبُعْد طباعهم منها ، ونفورِها عنهم ، واقشعرارها منهم .

[وقال أبو الطيب المتنبى :

لولا المشقّةُ ساد الناسُ كلُّهمُ   الجودُ يُفقِرُ والإقدام قتّالُ]

وقال الطائى :

والحمد شَهْدٌ لا يُرَى مُشْتارُهُ   يَجْنيه إلاّ من نقيع الحَنْظَلِ[2]

شرٌّ لحامله ، ويحسبهُ الّذى   لم يؤذِ عاتِقَه خفيفَ المحملِ

أخذه الطائى من قول مسلم بن الوليد ، وقيل غيره :

الجودُ أخشنُ مَسًّا يا بَنِى مَطرٍ   من أنْ تبزّكوه كفُّ مُسْتَلِبِ

ما أعْلَمَ الناسَ أنّ الجودَ مدفَعةٌ   للذّمّ لكنّه يأتِى على النّشبِ[3]

وقال بعض الأجواد : إنا لَنَجِدُ كما يجد البخلاء ، ولكنّا نصبر ولا يصبرون .

[احتمال الغضب]

وقال الجاحظ : قيل لأبى عَبّادٍ وزيرِ المأمون ، وكان أسرعَ الناس غضباً : إنّ لقمان الحكيم قال لابنه : ما الحمل الثقيل ؟ قال : الغَضب . قال أبو عباد :

---

(١) فى نسخة «والحال» بالحاء مهملة ـ تحريف ، والجال : العقل والعزم (م)

(٢) اشتار العسل : جناه من كوارته ، وهذا مثل قولهم« ولا بددون الشهد من إبر النحل » (م) (٣) يروى « ماأعلم الناس أن الجود مكسبة للحمد »

لـكنّه واللهِ أخفُّ عليّ من الريش ! قيل له : إنما عنى لقمان أنَّ احتمالَ الغضب ثقيل ، فقال: لا، والله لا يَقْوَى على احتمال الغضب من الناس إلا الجمل !

وغضب يوماً على بعضِ كتّابه ، فرماه بدَوَاةٍ كانت بين يديه فشجّه ، فقال أبو عبّاد : صدق اللهُ تعالى فى قوله : (والذين إذا ما غضبوا هم يَغفِرون) . فبلغ ذلك المأمونَ فأحضره ، وقال له : ويحك ! ما تُحْسِن تقرأ آيةً من كتاب الله تعالى ! قال : بلى يا أمير المؤمنين ، إنى لأحفظ من سورة واحدة ألفَ آية ؛ فضحك المأمون وأمر بإخراجه .

نبذة من لطائف ابن المعتز ، وفضل تحققه بالبديع والاستعارات

مما تتعيّن العناية بمطالعتها

قال أبو بكر الصولى : اجتمعت مع جماعةٍ من الشعراء عنـد أبى العباس عبد الله بن المعتز ، وكان يتحقق بعلم البَديعِ تحققا يَنصُرُ دعواه فيـه لسانُ مذاكرته ، فلم يَبْقَ مَسْلَكٌ من مسالك الشعراء إلا سلك بنا شِعْبا من شِعَابه ، وأوردنا أحْسَنَ ما قيلَ فى بابه ، إلى أن قال أبو العباس : ما أحسن استعارة اشتمل عليها بيت واحد من الشعر ؟ قال الأسدى : قول لبيد :

وغداةِ ريحٍ قد كشفْتُ وقِرّة ... إذْ أصبحَتْ بيدِ الشَّمالِ زِمامُها

قال أبو العباس : هذا حسن ، وغيره أحمد منه ، وقد أخذه من قول ثعلبة ابن صُعَيرةَ المازنى[١] :

فتذاكرا ثَقَلاً رَثيداً بعدما ... ألقَتَ ذُكاء يمينَها فى كافرِ

(١) هكذا وقع فى لسان العرب (٤٦٣/٦) ووقع فى نسخة « بن صعير » بالعين مهملة وبغير تاء ، وفى أخرى « بن صغير » بالغين معجمة وبغير تاء ، قال فى اللسان « وذكر ابن السكيت أن لبيدا سرق هذا المعنى فقال :

حتى إذا ألقت يدا فى كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها » اهـ

والاستعارة فى هذه الأبيات متقاربة (م)

وقول ذى الرمة أعجب إلىّ منه :

ألا طرقت مىٌّ هَيُوماً بِذِكْرِهَا   وأيْدِى الثّريا جُنَّحٌ فى المغاربِ

وقال بعضُنا: بل قول لبيد أيضا :

ولقد حَمَيْتَ الخيلَ تحمل شِكّتِى   فُرُطٌ ،وِشاحى- إن غدوتُ- لِجامُها

قال أبو العباس : هذا حسن ، ولكن نَعدل عن لبيد .

وقال آخر : [قول الهذلى] :

ولو أننى استودَعْتُه الشمسَ لاهتدَتْ   إليه المنايا عَيْنُها ورَسُولُها

قال أبو العباس : هذا حسن، وأحسن منه[1]- فى استعارة لفظِ الاستيداع- قول الُحصَيْن بن الُحمَام ؛ لأنه جمع الاستعارة والمقابلة فى قوله:

نُطَارِدُهم نستودعُ البيضَ هامَهُمْ   ويستودِعُونا السّمْهَرِى المُقوَّما[2]

وقال آخر : بل قولُ ذى الرُّمة :

أقامَتْ به حتى ذَوى العودُ فى الثّرى   وَسَاقَ الثُّرَيَّا فى مُلاَءَتِهِ الفَجْرُ

قال أبو العباس : هذا لعمرى نهايةُ الخبرة ؛ وذو الرمة أبدعُ الناسِ استعارةً، وأبرعهم عبارة ، إلا أنّ الصواب حتى «ذوى العود والثرى» ؛لأن العود لا يَذْوى ما دام فى الثرى ، وقد أنكره على ذى الرمة غيرَ ابنِ المعتز . قال أبو عمرو ابن العلاء : كانت يدى فى يد الفرزدق فأنشدته هذا البيت ، فقال : أُرشِدُك أم أدَعُك ؟ قال : فقلت : بل أرْشِدْنِى، فقال : إنّ العود لا يَذْوِى فى الثّرى ، والصوابُ « حتى ذوى العود والثرى ».

قال الصولى : وكأنه نبه على ذى الرمة ؛ فقلت : بل قوله :

ولَمّا رأيت الليل والشمس حيّةٌ   حياةَ الذى يقضى حُشَاشَةَ نَازِعِ

(١) فى نسخة « هذا بديع ، وأبدع منه - إلخ » (م)

(٢) حذف نون الرفع من قوله « ويستودعونا » من غير ناصب ولا جازم ، وكان من حق العربية عليه أن يقول « ويستودعوننا » (م)

قال أبو العباس : اقتدحتَ زَندك يا أبا بكر فأَوْرَى[١] ، هذا بارعٌ جدا ، وقد سبقَه إلى هذه الاستعارة جرير حيث يقول :

تحيِي الرواسُ ربعها وتُجِدّهُ بعــد البِلَى فتُميتُهُ الأَمْطارُ[٢]

وهذا بيتٌ جمع الاستعارةَ والمطابقة ؛ لأنه جاء بالإحياء والإماتة ، والبلى والجِدة ، ولكنْ ذو الرمة قد استوفى ذِكْرَ الإحياء والإماتة فى موضعٍ آخر فأحْسَن ، وهو قوله :

ونَشْوَانَ من طولِ النعاس كأنهُ بحَبْلَين فى مَشْطُونةٍ يترجَّحُ[٣]

إذا مات فوق الرَّحْلِ أحييتُ روحَهُ بذكرِكِ والعِيسُ المراسِيلُ جُنَّحُ

فما أحد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس إلا وقد غمـره من بَحْرِ أبى العباس ما غاض معه مَعِينُهُ ، ولم ينهض حتى زوّدنا من برّه ولطفه نهاية ما اتسعت له حالُه .

[كتمان الحب]

وقال ابن المعتز : (لابن المعتز)

لما رأيت الحبَّ يَفْضَحُنِى ونَمَتْ علىَّ شـواهد الصبِّ

ألقيتُ غيرَكِ فى ظنونهمُ وسَتَرْت وَجْهَ الحبِّ بالْحُبِّ

وقال العباس بن الأحنف فى هذا المعنى : (لابن الأحنف)

قد جرَّر الناسُ أذيالَ الظنون بنا وفرّق الناسُ فينا قولَهم فِرَقا

فكاذبٌ قد رمى بالظَّنِّ غـيركمُ وصادقٌ ليس يَدْرى أنه صدَقا

[وقريب من هذا المعنى قول الفارضى رضى الله عنه ، وإن لم يكن منه : (للفارضى)

تخالفت الأقــوال فينا تباينا برَجْمِ أصولٍ بيننا ما لها أصْلُ[٤]

---

(١) أورى : أخرج النار ، هذا أصله (م) (٢) الروامس : الرياح (م) .

(٣) فى نسخة « فى أنشوطة يترجح » (٤) لعل الأصل « برجم ظنون » (م)

فشنّع قومٌ بالوِصَالِ ، ولم أصل ... وأرْجفَ بالسلوان قومٌ ولم أسْلُ
وما صَدَقَ التشنيعُ عنها لشقْوَتِي ... وقد كَذبَتْ عنى الأراجِيفُ والنقل][1]

لابن المعتز

وقال ابن المعتز :

لنا عَزْمَةٌ صمَّاء لا تسمعُ الرّقى ... تُبيت أُنوفَ الحاسدين على رَغْمِ
و إنا لنعطى الحقَّ من غير حاكم ... علينـا ، ولو شِئْنَا لِملنا مع الظلم

لأعرابى

وقد أخذه أبو العباس من قول أعرابى :

ألا يا شفاء النفسِ ليس بعـالم ... بك الناسُ حتى يعلموا ليلةَ القدْرِ
سوى رَجْمهم بالظنِّ والظنُّ كاذِبٌ ... مراراً وفيهم مَنْ يُصِيب ولا يَدْرِى

الحسين بن مطير

وقال الحسين بن مطير :

لقد كنت جَلداً قبل أن تُوقِد النوى ... على كَبِدِى ناراً بَطِيئاً خمودُها
ولو تُرِكَتْ نارُ الهوى لتضرَّمَتْ ... ولكنَّ شوقا كلَّ يوم يَزِيدُها
وقد كنتُ أرجو أن تموتَ صبابتى ... إذا قَدِمت أيامُها وعهـــودُها
فقد جعلت فى حبَّةِ القلب والحشا ... عِهادُ الهوَى تُولَى بشوقٍ يُعِيدُها
بمرتَجَّةِ الأرداف هِيفٌ خُصُورها ... عِذابٌ ثناياها عجاف نهودُها
وصُفْر تَرَاقِيها ، وحُمْرٌ أكفُّهَا ... وسودٌ نواصيها، و بيضٌ خدودُها
مخصَّرة الأوساط، زانتْ عقودَها ... بأحسن ممـــا زيّنتْها عقودها
يمنِّيننا حتى ترِفَّ قلوبُنـا ... رفيفَ الْخُزامَى بات طَلٌّ يَجُودُها
وفيهن مِقْلاق الوِشاح كأنهـا ... مَهاةٌ بتُرْبَانٍ طَـويلٌ عمودُها[2]

وقال :

قضى اللهُ يا أسماء أنْ لَسْتُ بارحاً ... أُحبك حتى يُغمِض العينَ مُغْمِضُ

---

(١) هذه الأبيات ساقطة من أكثر الأصول ، وهو الوجه (م)

(٢) تربان : اسم مكان بعينه،ووقع فى نسخة « بثرثار طويل عمودها » (م) .

فحبـــك بَلْوَى غير أن لا يَسُرُّنى ... وإن كان بَلْوَى أننى لك مُبْغِضُ[1]
فوا كبدا من لَوْعَةِ البَيْن كلّما ... ذكرتُ ومن رفض الهوى حين يرفض
ومن عـبرة تُذْرى الدموعَ وزفرة ... تقضقض أطرافَ الحشاَ ثم تنهض[2]
فياليتنى أقرضْت جَلْداً صبابتى ... وأقرضَنى صبْراً على الشوق مُقرِضُ
إذا أنا رُضْتُ القلب فى حُبّ غيرها ... بَدَا حبُّها من دونه يتعرّض

وكان الحسين قويّ أسْرِ الكلام ، جَزْلَ الألفاظ ، شديدَ العارِضة ، وهو القائل فى المهدى :

له يوم بُؤس فيــه للناس أبْؤُس ... ويومُ نعيم فيـــهِ للناس أنْعُمُ
فيُمطر يوم الجودِ مِنْ كفّه النّدَى ... ويَقْطرُ يومَ البؤس من كفّه الدمُ
فلو أن يومَ البُؤْس خــلّى عقابهُ ... على الناس لم يصبح على الأرض مُجْرِمُ
ولو أن يوم الجــود خَلّى نَوَالهُ ... على الأرض لم يصبح على الأرض مُعْدِمِ

وأنشد أبو هفّان له :

أين أهلُ العتاب بالدَّهْناء ... أين جيرانُنا على الأحْســاء
جاورونا والأرض ملبَسة نَوْ ... رَ الأقاحي تُجَادُ بالأنْواء[3]
كل يوم بأقحوان جَــديد ... تَضْحَكُ الأرضُ من بكاء السماء

لدعبل الخزاعى

أخذ هذا المعنى دعبل ، ونقله إلى معنى آخر ، فقال :

أين الشبابُ ؟ وأيّةً سلكا ؟ ... أم أين يُطلَب؟ ضَلّ ، بل هلكا
لاتعجبى يا سَلْم من رجــلٍ ... ضَحِكَ المشيبُ برأسِه فبَكَى

لمسلم بن الوليد

وقال مسلم بن الوليد فى هذا المعنى :

مُستعبر يبكى على دمنــــةٍ ... ورأسُه يَضْحَكُ فيه المشيب

---

(١) فى نسخة « غير أن لايسوءنى » والمعنى عليه غير مستقيم (م) .
(٢) فى نسخة « ومن عنده تذرى الدموع » تحريف (م)
(٣) تجاد : يسقيها الجود ــ بفتح الجيم وسكون الواو ــ وهو المطر (م)

[معالى الأخلاق]

مما أنشده الزبير بن بكار

وأنشد الزبير بن بكّار :

أُحبّ معالىَ الأخلاق جَهْدِى وأكره أن أعيب وأن أعابا
وأصفح عن سباب الناس حِلْماً وشرُّ الناسِ من حَبَّ السبابا
وأترك قائل العوراء عَمْــداً لِإهْلَـكه وما أعْيَا الجوابا
ومَنْ هابَ الرجال تهيَّبُوهُ ومن حقر الرجالَ فلن يُهابا

[رياضة النفس[١] على الفراق]

وعلى ذكر قوله :

* إذا أنا رُضْتُ[١] القلب فى حُبّ غيرها *

أنشد الأصمعى لغلام من بنى فزارة :

وأعرِضُ حتى يحسَبَ الناسُ أنما بىَ الهَجْرُ، لا والله ما بى لها هَجْرُ
[ولـكنْ أروضُ النفسَ أنظرهل لها إذا فارقت يوماً أحبّتَهَا صَبْرُ][١]

قال إسحاق الموصلى : قال لى الرشيد : ما أحْسَنُ ما قيل فى رياضة النفس على الفراق ؟ قلت : قول أعرابى :

وإنى لأسْتَحْيِى عيوناً ، وأتَّقِى كثيرا، وأستبقى المودّة بالهجْرِ
فأُنذِرُ بالهجران نفسى أرُوضها لأعلم عندالهَجْر هل لىَ من صَبْرِ[١]

[فقالَ الرشيد : هذا مليح ، ولـكنى أستملح قول أعرابى آخر :

خشيتُ عليها العَيْنَ من طول وَصْلِها فهاجَرتهــا يومين خوفاً من الهجرِ
وما كان هِجْرانى لهــا عن مَلالَةٍ ولــكننى جرّبْتُ نفسى بالصبر][٢]

---

(١) راض نفسه يروضها : ذللها وعودها حتى تتخلق بما يريدها ـه (م)
(٢) الملالة : السأم والـكراهية (م)

لابن الأحنف

قال الصولى : قال لى المبرد : عمك إبراهيم بن العباس أحزمُ رأياً من خاله العباس بن الأحنف فى قوله :

كان خُروجى من عندكم قدَراً   وحادثاً من حوادثِ الزمنِ
من قبل أن أعرض الفراق على   قَلْبى ، وأن أستعدَّ للحزَن

لإبراهيم الصولى

وقال عمك إبراهيم :

وناجيتُ نفسى بالفراق أرُوضُها   فقالت:رُوَيدًا لاأغرُّك من صَبْرى (١)
فقلت لها :فالهَجْرُ والبَيْنُ وَاحِدٌ   فقالت أأُمْنَى بالفراقِ وبالهَجْرِ (٢)

فقلت له : إنه نقل كلام خاله :

عرضت على قلبى الفِراق فقال لى   من الآن فايْأسْ لاأغرّك من صَبْرى
إذا صدّ من أهْوَى رجوتُ وِصالهُ   وفرقةُ مَنْ أهوى أحرُّ من الجَمْرِ

لابن الأحنف

وقال العباس بن الأحنف :

أرُوضُ على الهِجْرانِ نفسى لعلّها   تَماسَكُ لى أسبابُها حين أهجُرُ
وأعلم أن النفسَ تَكذِبُ وَعْدَها   إذا صدق الهجرانُ يوما وتَغدرُ
وما عرضَتْ لى نظرةٌ مُذْعرفتها   فأنظر إلا مُثّلت حين أنظرُ

للمتنبى

[وقال المتنبى من المعنى :

حَبَبْتُكَ قلْبى قبل حبِّكَ مَنْ نَأى   وقد كان غدّاراً فكنْ أنتَ وافيا
وأعْلم أنّ البيْنَ يُشْكِيكَ بعدها   فلستَ فؤادى إن وجدتكَ شاكيا]

لأبى صخر الهذلى

قال الحاتمى : والذى أراه وأذهب إليه أن أحسن من هذا المعنى قول أبى صخر الهذلى :

ويمنعنى من بعض إنكارِ ظُلْمها   إذا ظلمت يوما وإن كان لى عذرُ
مخافةُ أنّى قد علمت لئن بَدَا   لىَ الهَجْرُ منها ما على هَجْرِها صَبْرُ

---

(١) فى نسخة « لا أعيرك من صبرى » وليس بذاك (م)

(٢) البين — بالفتح — الفراق ، وأمنى : يقدر الله ذلك على (م)

وأنىَ لا أدرى إذا النفسُ أشرفت على هَجْرِها ما يبلغنَّ بىَ الهجر
فياحبّها زِدْنى جوًى كلَّ ليـلةٍ ويا سَلْوَةَ الأحزان مَوْعِدُكَ الحَشْرُ

شذور من كلام أهل العصر فى مكارم الأخلاق

ابن المعتز — العقلُ غريزة تزينها التجارب . وله: العاقلُ من عَقَل لسانه[١]، والجاهلُ من جَهِل قَدْره .

غيره : إذا تمّ العقلُ نقص الكلام . حُسْنُ الصورة الجمالُ الظاهر ، وحسن الخلق الجمالُ الباطن . ما أبينَ وجوه الخيرِ والشرِّ فى مِرْآةِ العقل إذا لم يُصْدِئْها الهوى . العاقلُ لا يَدَعُه ما ستر اللهُ من عيوبه أن يفرَحَ بما أظهر من محاسنه . بأيدى العقولِ تُمْسَكُ أعنَّةُ النفوس عن الهوى . أحْرِ بمن كان عاقلا أن يكونَ عما لا يَعْنِيه غافلا . التواضعُ من مصايد الشرف . من لم يتَّضِعْ عند نفسه لم يرتفع عند غيره .

يحيى بن معاذ — التكبُّر على المتكبر تواضع . الحلم حجابُ الآفات . أحيوا الحياءَ بمجاورة من يُسْتَحْيَا منه . مَنْ كساه الحياء ثوبَه ، ستر عن الناس عَيْبَه . الصبرُ تجرّع الغُصص ، وانتظارُ الفُرَص . قلوبُ العقلاء حصون الأسرار . انفَرِدْ بسرِّك ولا تودعه حازما فيزلّ ، ولا جاهلا فيخون . الأناة[٢] حُسْنُ السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة . من حَسُنَ خُلقه وجَب حقّه . إنما يستحق اسم الإنسانية مَنْ حَسُنَ خُلقه . يكاد سيء الخلق يُعَدُّ من البهائم والسباع .

أرسطاطاليس — المروءة استحياء المرء نفسه . المعروف حصْنُ النعم من صروف الزمن . للحازم كنزٌ فى الآخرة من عمله ، وفى الدنيا من معروفه . لا تستحى من القليل فإنّ الحرمان أقلُّ منه .

---

(١) عقل لسانه : حبسه ومنعه (م)
(٢) الأناة : التأنى والتروى فى الأمر قبل الإقدام عليه (م)

أبو بكر الخوارَزْمى ـ الطِّرف[1] يجرى و به هُزَال ،[والسيف يمضى و به انفلال] ، والحرُّ يُعْطِى و به إقلال[2] . بَذْلُ الجاه أحدُ المالين . شفاعةُ اللسانِ أفضلُ زكاة الإنسان . بَذْلُ الجاهِ رِفْدٌ للستعين[3] . الشفيعُ جناحُ الطالب . التقوى هى العُدّة الباقية ، والجُنّة الواقية . ظاهرُ التقوى شرفُ الدنيا ، و باطنها شرف الآخرة . من عفّت أطرافه ، حسنت أوصافه . قال أبو الطيب المتنبى :

ولا عِفّةٌ فى سيفهِ وسِنانهِ ولكنها فى الكف والفرج والفمِ

لقمان ـ الصَّمْتُ حُكْمٌ وقليل فاعِلُه . أربعُ كلمات صدرت عن أربعة ملوك كأنما رُمِيت عن قَوْسٍ واحدة ؛ قال كسرى : لم أندم على ما لم أقل ، وندِمْتُ على ما قلت مرارا . قيصر : أنا على ردّ ما لم أقل أقدرُ منى على ردّ ما قلت . ملك الصين : إذا تكلّمت بالكلمة ملكتنى ، و إذا لم أتكلم بها ملكتها . ملك الهند : عَجِبْتُ ممن يتكلّمُ بالكلمة إن رُفِعَتْ ضَرّته ، و إن لم تُرْفَع لم تنفعه . ما الدّخان على النار ، ولا العَجَاج[4] على الريح ، بأدلّ من ظاهر الرجل على باطنه ، وأنشد :

قد يُستدلُّ بظاهر عن باطنٍ حيث الدخان فثَمَّ مَوْقِدُ نارِ

مَنْ أصلح ماله فقد صَان الأكرمَيْن المالَ والعِرْضَ . من لم يحمد فى التقدير ولم يَذُبْ فى التدبير فهو سديد التدبير[5] . عليك بالقَصْدِ بين الطرفين ، لا مَنْعَ ولا إسراف ، ولا بخل ولا إتراف . لا تكن رطباً فَتُعْصَر ، ولا يابساً فتكسر ، ولا حلوا فَتُسْتَرَط ، ولا مرًّا فتُلْفَظ .

المأمون بن الرشيد ـ الثناء أكثر من الاستحقاق مَلَقٌ وهذَر ، والتقصير عِيٌّ وَحَصَر .

---

(١) الطرف ـ بكسر الطاء ـ الفرس (م). (٢) الإقلال : قلة المال (م) .
(٣) الرفد ـ بالكسر ـ العطاء (م) . (٤) العجاج: ما ثار من الغبار (م) .
(٥) فى نسخة « من لم يذم التقتير ، ولم يحمد التبذير ، فهو شديد التدبير » (م)

إكرامُ الأضياف ، من عادة الأشراف . وفى الخبر : لا تتكلّفوا للضيف فتبغضوه ؛ فمن أبغض الضيفَ أبغضه الله . ينبغى لصاحب الكريم أن يصبر عليه إذا جَمَعَتْهما نَبْوة الزمان ، فليس ينتفع بالجوهرة الكريمة من لم ينتظر نَفَاقها .

مواعظ عقلها بعض أهل العصر تتعلق بهذا الفصل

أغضِ على القَذَى ، وإلا لم تَرْضَ أبدا[1] . أجْمِل الطلبَ فسيأتيك [ما قُدِر لك ، صُنْ عرضك] ، وإلاَّ أخْلَقْت وجهك . جاور الناسَ بالكفِّ عن مساويهم . انْسَ رِفْدَك ، ولا تَنْسَ وعدَك ، كَذِّبْ أسواء الظنون بأحسنها[2] . أغْنِ من ولّيته عن السرقة ، فليس يكفيك من لم تكفه . لا تتكلفْ ما كُفِيتَ فيضيع ما أوليت .

ابن المعتز — لا تسرعْ إلى أرفع موضع فى المجلس، فالموضع الذى تُرْفَعُ إليه خيرٌ من الموضع الذى تُحَطُّ منه . لا تذكر الميتَ بسوء فتكون الأرض أكتم عليه منك . ينبغى للعاقل أن يُدَارى زمانه مداراةَ السابح للماء الجارى .

العتابى — المداراةُ سياسة رفيعة تجْلِبُ المنفعة ، وتدفع المضرّة ، ولا يستغنى عنها ملك ولا سُوقَة ، ولا يدع أحدٌ منها حظه إلا غمرته صروف المكاره .

[من رسائل العتابى وأدبه]

وكتب العتابى إلى بعض إخوانه :

لو اعتصم شوقى إليك بمثل سلوّك عنى لم أبذل وجهَ الرغبة إليك ،

---

(١) هذا من قول بشار :

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه (م)

(٢) فى نسخة « كذب سوء الظن بأحسنه » (م) .

ولم أتجشم مرارةَ تماديك ، ولكن استخفتْنا صبابتنا ، فاحتملنا قسْوتَك ، لعظيم قَدْرِ مودتك ، وأنت أحقُّ من اقتصَّ[1] لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من إبطائه .

وله : كتبتُ إليك ونفسى رهينة بشكرك[2] ، ولسانى علق بالثناء عليك ، والغالبُ على ضميرى لا ئمة لنفسى ، واستقلالٌ لجهدى فى مكافأتك ، وأنت ـ أصلحك اللهُ ! ـ فى عزِّ الغنى عنى ، وأنا تحت ذُلِّ الفاقةِ إلى عطفك ، وليس من أخلاقك أن تُولىَ جانبَ النَّبْوَة منك مَنْ هو عانٍ فى الضَّراعة إليك .

ودخل العتابى على الرشيد فقال : تكلَّم يا عتابى ؛ فقال : الإيناسُ[3] قبل الإبساس ، لا يُحْمَدُ المرء بأول صوابه ، ولا يُذَمُّ بأول خطئه ؛ لأنه بين كلام زوَّره ، أوعِىٍّ حَصَره .

ومرّ العتابى بأبى نُوَاس وهو ينشد الناس :

ذكر الكَرْخَ نازحُ الأوطانِ فبكى صَبْوَةً ولاَتَ أوانِ

فلما رآه قام إليه ، وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أنصفك الزمان :

قد علقنا من الخصيب حِبَالاً أَمَّنَتْنا طوارقَ الحدثانِ

وأنا القائل وقد جار علىَّ ، وأساء إلىّ :

لفظتنى البلادُ ، وانطوت الأكفاء دونى ، ومَلَّنى جيرانى
والْتَمَتْ حَلْقةٌ علىّ من الدَّهْرِ فجاءتْ بكَلْكَلٍ وجِرانِ
نازعتنى أحداثها مُنْيَةَ النفس وهدَّت خطوبُها أرْكانى
خاشعٌ للهموم معترف القلب كئيبٌ لنائبات الزمانِ

---

(١) اقتص : أصله القصاص ، وهو قتل القاتل ، والمراد هنا الانتقام عامة (م) .

(٢) فى نسخة « دعيت إليك ونفسى راغبة لشوقك بشكرك » (م) .

(٣) الإيناس: بعث الأنس إلى نفس الضيف واقتلاع الوحشة ، وأراد بالإبساس تقديم الطعام والقرى ، وضرب ذلك مثلا (م) .

[شعر الأعراب]

قال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي : سمعت عمي يحدث قال : أرقتُ ليلةً من الليالي بالبادية ، وكنت نازلا عند رجل من بني الصَّيْدَاء[١] ، وكان واسعَ الرَّحْل ، كريم المحل ، فأصبحتُ وقد عزَمْتُ على الرجوع إلى العراق ، فأتيت أبا مَثْوَايَ[٢]، فقلت : إني قد هَلِعت[٣] من الغُرْبَة ، واشتقْتُ إلى أهلي ، ولم أُفِدْ في قَدْمتي هذه كبيرَ علم . وإنما كنت أغتفِرُ وحشة الغربة وجفاء البادية للفائدة؛ فأظهر الجفاوة حتى أبرز غداء له فتغديت، وأمر بناقة مَهْرِيَّةٍ[٤] كأنها سبيكة لجُيْن [فارتحلها] واكتفلها ، ثم رَكِبَ وأرْدَفني ، وأقبلها مطلعَ الشمس ؛ فما سِرْنَا كبير مسير حتى لَقِيَنا شيخٌ على حمارٍ ، له جُمَّة قد صَبَغها بالوَرْسِ[٥]، كأنها قنبيطة، وهو يترنَّم ، فسلَّم عليه صاحبي ، وسأله عن نسبه فاعتزى أسديا من بني ثَعْلبة . قال : أتروى أم تقول ؟ قال : كُلاًّ . قال : أين تؤُم ؟ فأشار إلى موضعٍ قريبٍ من الموضع الذي نحنُ فيه . فأناخ الشيخ ، وقال لي : خُذْ بيد عمك فأنزله عن حماره ، ففعلت ، وألقى له كساء قد اكتفل به ، ثم قال : أنشدنا يرحمك الله وتصدق على هذا الغريب بأبيات يبثهن عنك ، ويذكرك بهن ، فأنشدني له :

لقد طال يا سَوْداء مِنْك المَواعدُ ... ودون الجدَا المأمولِ منك الفَرَاقدُ

تمنِّينَنَا بالوصل وَعْداً ، وغَيْمكم ... ضَبابٌ، فلاصَحْوٌ، ولاالغَيْمُ جائد

إذا أنْتَ أعطيتَ الغِنى ثم لم تَجُدْ ... بفَضْلِ الغِنى أُلفيتَ مالكَ حامدُ

وقَـــلَّ غناء عنك مالٌ جمعتَهُ ... إذا صـــار ميراثاً وَوَاراك لاحِدُ

إذا أنت لم تَعْرُكْ بجنبيك بَعْضَ ما ... يَرِيبُ من الأدنى رماك الأباعدُ

---

(١) في نسخة « من بني الصيد » وهذه عن الأمالي (١/١٦٩) (م)

(٢) المثوى : الإقامة ، وأبو مثواي : أي مضيفي (م)

(٣) هلعت : جزعت (م)   (٤) مهرية : منسوبة إلى مهرة (م)

(٥) الورس : نبت أصفر شبه الزعفران ، وفي نسخة « نَعْفها بالورس » (م) .

إذا الحلمُ لم يَغْلِبْ لك الجهل لم تزل ... عليك بُروقٌ جَمّــــةٌ ورواعِدُ
إذا العزمُ لم يفرُج لك الشك لم تَزَلْ ... جنيباً كما اســتَتْلَى الجنيبةَ قائِدُ(١)
إذا أنت لم تترك طعاماً تحبّـــهُ ... ولا مقعــــداً تَدْعُو إليه الولائد
تجلّلْتَ عاراً لا يزالُ يَشُـــبُّهُ ... عليك الرجال نَثْرُهم والقصائدُ

وأنشدني لنفسه :

تعزَّ فإنَّ الصــبرَ بالُحرِّ أجمــل ... وليس على رَيْبِ الزمان مُعَوَّل
فلو كان يُغْني أن يُرى المرء جازعاً ... لنازلةٍ أو كان يُغْــنِي التذلُّلُ
لكان التعزِّي عند كل مصيبةٍ ... ونازلةٍ بالحرِّ أولى وأَجْمَـــلُ
فكيف وكلٌّ ليس يَعْدُو حمامهُ ... وما لامرِئٍ عما قضى اللهُ مَزحلُ
فإن تكن الأيامُ فينا تبدَّلَتْ ... بنعمى وبؤسَى والحوادثُ تَفعلُ
فما لَيَّنَتْ منا قَناةً صَـــلِيبةً ... ولا ذلَّلَتْنا للذى ليس يَجْمُلُ
ولــكن رحَلْناها نفوساً كريمةً ... تُحمَّلُ مالا يستطاعُ فتَحْمِل
وقَيْنَا بحدِّ العَزْم منا نفوسَــنا ... فصحّتْ لنا الأعراض والناس هُزَّل

قال : فقمت إليه ، وقد نسيت أهلي ، وهانَ عليَّ طولُ الغربة ، وضَنْكُ العيش ، سروراً بما سمعت ، ثم قال : يابنى ؛ من لم يكن الأدب والعلمُ أحبَّ إليه من الأهل والولد لم يَنْجُب .

[خصومة قرشية]

خاصم بعضَ القرشيين عُمر بن عثمان بن موسى بن عبيد الله بن معمَر ، فأسرع إليه القرشي فقال : على رِسْلك ، فإنك لسريعُ الإيقاد(٢) وَشيكُ الصريمة ، وإني والله ما أنا مكافئك دون أن تبلغَ غايةَ التعدى ، فأبلغ غايةَ الإعذار .

---

(١) استتلى : استتبع ،وجعلها تالية ،والجنيبة : الفرس ،مثلا ، تقودها من غير أن تركبها (م) (٢) في نسخة « سريع الانتقال » (م) .

[ادّعاء]

قال عبد الله بن عبد العزيز ، وكان من أفاضل أهل زمانه : قال لى موسى ابن عيسى : أُنْهِىَ[١] إلى أمير المؤمنين ، يعنى الرشيد ، أنك تشتمه ، وتَدْعُو عليه، فبأىّ شىء استجزت[٢] ذلك؟ قال: أما شَتْمُه فهو والله إذاً أَكرمُ علىّ من نفسى، وأما الدعاءُ عليه فوالله ماقلتُ «اللهم إنه أصبح عبئاً ثقيلا على أكتافنا، لا تطيقه أبداننا ، وقَذًى فى عيوننا ، لا تنطبق عليه أجفاننا ، وشجًى فى حلوقنا ، لاتسيغه أفواهُنا ؛ فاكْفِنا مؤنته ، وفرّق بيننا و بينه » ! ولكنى قلت : « اللهم إن كان تَسمّى الرشيد ليرشدفأَرْشِدْه ، أو أتى غير ذلك[٣] فراجع به، اللهم إن له فى الإسلام بالعباس حقّا على كلّ مسلم ، وله بنبيك قرابة ورَحِما ، فقرّبْه من كل خير ، وباعِدْهُ من كل شر ، وأسْعِدنا به ، وأَصْلِحْه لنفسه ولنا » . فقال له : يغفر الله لك يا عبد العزيز ، كذلك بلغنا .

[عَزْلُ والٍ]

ولما حجّ الرشيد سنة ست وثمانين ومائة دخل مكة وعديله يحيى بن خالد ؛ فانبرى إليه العُمَرى فقال : يا أمير المؤمنين ، قف حتى أكلّمك ! فقال : أرسلوا زِمَام الناقة ، فأرسلوه ، فوقفت فكأنما أُوتِدَتْ ، فقال:[أقول؟قال:] قل ، فقال : اعزل عنا إسماعيل بن القاسم . [قال : ولم ؟ قال :] لأنه يقبل الرشوة ، ويُطيل النَّشوة ، و يضرب بالعشوة ، قال : قد عزلناه [عنكْ ،] ثم التفت إلى يحيى فقال: أعندك مثل هذه البديهة ؟ فقال : إنه ليجب أن يحسن إليه ، قال : إذا عزلنا عنه من يريد عَزْله فقد كافأناه .

---

(١) أنهى إليه : رفع إليه وبلغه ، وفى نسخة «أينتهى إلى أمير المؤمنين» وليس بذاك (م) (٢) فى نسخة « فبأى شىء استحق ذلك » (م)

(٣) فى نسخة « وإن كان غير ذلك » (م)

[حُرْمَة الكعبة]

ولما وجَّه عبدُ الملك بن مروان الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن الزبير وأوْصاه بما أراد أن يُوصيَه ، قال الأسود بن الهيثم النخعى: يا أمير المؤمنين ، أوْصِ هـذا الغلام [الثقفى] بالكعبة ألاَّ يَهْدِم أحجارَها ، ولا يَهْتِكَ أستارَها ، ولا يُنفِّر أطيارها ، وليأخذ على ابنِ الزبير شِعابها ، وعقابها ، وأنقابها[١] ، حتى يموتَ فيها جوعاً ، ويخرج مخلوعا .

[كتاب ينصر محاربا]

وكتبَ عبدُ الله بن طاهر إلى نَصْر بن شبيب وقد نزل به ليحارِبَه فى جُنْده، فوجده[٢] متحصناً منه ، فكتب إليه : اعتصامُك بالقِلاَل قيَّد عزمَك عن القتَال ، والتجاؤك إلى الحصون[٣] ، ليس ينجيك من المَنُون ، ولستَ بمُفْلتٍ من أمير المؤمنين ، فإما فارس مُطَاعِن ، أو راجل مستَأْمن . فلما قرأه حصره الرعب عن الجواب ، فلم يلبث أن خرج مستَأْمنا .

[من حكم الفرس]

قال بزرجمهر بن البختكان لبعض الملوك : أنعم تُشكر ، وأرهِبْ تُحْذَر ، ولا تهازل فتُحْقَر ، فجعلهن الملك نَقْشَ خاتمه بدلا من اسمه واسم أبيه .

ولما قتل أنو شروان بزرجمهر وجد فى منطقته رقعةً فيها مكتوبٌ : إذا كانت الحظوظ بالجدُود فما الحِرْص ؟ وإذا كانت الأمور ليست بدائمة فما السرور ؟ وإذا كانت الدنيا غرَّارة فما الطمأنينة ؟

[قال سقراط] : من كثر احتمالُه وظهر حِلْمُه قلّ ظلمُه وكثر أعوانه ، ومن قلّ همُّه على ما فاته استراحت نفسُه وصفا ذِهْنُه وطال عمره . وقال : من تعاهد

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى ما صعب مرتقاه من الجبال ، والأنقاب : جمع نقب ، وهو الطريق فى الجبل (م) .

(٢) فى نسخة «ليحاربه فى جدة متحصنا منه» (م)

(٣) القلال : قمم الجبال واحدها قلة ــ بضم القاف ، وتشديد اللام مفتوحة (م) .

نفسَه بالمحاسبة أمن عليها المُداهنة . وقال : الأمانيُّ حِبَالُ الجهل ، والعِشْرَةُ الحسنة وقايةٌ من الأسواء .

وشَتَمه بعضُ الملوك ـ وكان على فرس وعليه حُلَل و بزّة ـ فقال له سقراط : إنما تفخر عليّ بغير جِنْسك ، ولـكن رد كلّ جنس إلى جنسه وتعال الآن فلنتكلم .

وقال سقراط : من أُعطى الحِكمة فلا يجزع لِفَقْدِ الذهب والفضّة ؛ لأن من أعطى السلامة والدَّعة لا يجزع لفَقْدِ الألم والتعب ؛ لأن ثمارَ الحكمة السلامة والدّعة ، وثمار الذهب والفضة الألم والتعب ؛ وقال : القِنية ينبوع الأحزان ؛ فأقلوا القنية تقلّ همومكم . وقال : القُنْية مخدومة ، ومن خدم غير نفسه فليس بحر

وقال أبو الطيب :

أبداً تَسْتَرِدُّ ماتَهَبُ الدنــيا فياليتَ جودها كان بخلاَ
وكفَتْ كَوْنَ فَرْحَةٍ تُورِثُ الهَــمَّ وخِلٍّ يُغادِرُ الوَجْدَ خِلاَّ

[حكم للهنـــد]

وفى كتاب الهند : العاقلُ حقيقٌ أنْ تسخو نفسه عن الدنيا ، عِلْماً بأنه لا ينالُ أحدٌ منها شيئاً إلا قلّ إمتاعه به وكَثُر عناؤه فيه ، ووبالُه عليه ، واشتدّت مؤنته عند فِراقه ، وعلى العاقل أن يدوم ذِكْرُه لما بعد هذه الدار ، ويتنزّه عما تسيّره إليه نفسه من هذه العاجلة ، ويتنَحّى عن مشاركة الـكَفَرةِ والجهال فى حبِّ هذه الفانية التى لا يألفها ولا ينخدع بها إلا المغترون .

وفيه : لا يجدَّنَّ العاقلُ فى صحبة الأحباب والأخلاء ، ولا يحرصنَّ على ذلك كل الحِرْص . فإن صُحْبَتهم على ما فيها من السرور كثيرةُ الأذى ، والمؤنات ، والأحزان ، ثم لا يفى[1] ذلك بعاقبة الفراق .

وفيه : ليس من شهواتِ الدنيا ولذاتها شىء إلاّ وهو مولِّدٌ أذًى وحُزْناً ،

(١) لا يفى به : لا يعادله ولا يكون مكافئا له (م) .

كالماء المالح الذى كلما ازداد له صاحبُه شربا ازداد عطشاً ، وكالقِطْعة من العسَل فى أَسْفَلها سم للذائق ؛ فيه حلاوة عاجلة ، وله فى أسفلها سمّ ذعاف ، وكأحلام النائم التى تسرُّه فى منامه ، فإذا استيقظ انْقَطَع السرور ، وكالبرق الذى يُضىء قليلا ، ويذهب وشيكا[١] ، ويبقى صاحبُه فى الظلام مُقِيما ، وكدودة الإبريسم ماازدادَتْ عليه لفّاً إلا ازدادَتْ من الخروج بعداً .

وفيه : صاحبُ الدين قد فـكر ؛ فمَلَتْه السكينة ، وسكَن فتواضع ، وقَنع فاستَغْنَى ، ورَضى فلم يهتمّ ، وخلع الدنيا فنجَا من الشرور ، ورفض الشهوات فصار حرّا ، وطرح الحسد فظهرت له المحبَّة ، وسخَتْ نفسه عن كل فَان ، فاستَـكْمَل العقل ، وأَبْصَر العاقبة ، فأَمِنَ الندامة ، ولم يُوْذِ الناسَ فيخافهم ، ولم يُذْنِب إليهم فيسألهم العفو .

[وصية من عتبة بن أبى سفيان]

وقال سعد القصر مولى عُتبة بن أبى سفيان : وَلاَّنى عُتْبَة أموالَه بالحجاز ، فلما ودَّعته قال : يا سعد ، تعاهَدْ صغيرَ مالى فيكبر ، ولا تجف كبيره[٢] فيصغر ؛ فإنه ليس يمْنَعنى كثير ما عندى ، من إصلاح قليل ماف يدى ، ولا يمنعنى قليلُ ما عندى من كثير ما ينو بنى[٣] . قال : فقدمت الحجازَ ، فحدثت به رجالا من قريش ، ففرّقوا به الـكتبَ إلى الوكلاء .

[يزيد بن معاوية]

وقال يزيد بن معاوية لعبيد الله بن زياد : إنّ أباك كفَى أخاه عظيما ، وقد استـكفيتُك صغيراً ، فلا تتَّـكِلنَّ منى على عُذْر ، فقد اتـكلت منك على كِفاية ، ولأَنْ أقولَ لك : إياك ، أحبُّ إلىّ من أن أقول : إياى ؛ فإنَّ الظنّ إذا أخلف فيك أخلف منك ، فلا تُرِحْ نفسَك وأنت فى أدنى حظّك ، حتى تَبْلُغ

(١) وشيكا : سريعا قريبا (م) . (٢) فى نسخة « ولا تغفل كبيره » (م) .
(٣) ينو بنى : يعتريى وينزل بى (م) .

أقصاه ؛ واذكر فى يومك أخبارَ غَدِك ، واستزِدْنى بإحسانك إلى أهل الطاعة ، وإساءتك إلى أهل المعصية ، أزِدْكَ إن شاء الله تعالى .

[فضل العمامة]

ذكرت العمامة عند أبى الأسود الدؤلى فقال : جُنَّةٌ فى الحرب ، ودِثَارٌ فى البرد ، وكِنَّة فى الحرّ ، وَوَقَار فى النَّدِىّ ، وشرفٌ فى الأحدوثة ، وزيادةٌ فى القامة ، وهى [بعد] عادةٌ من عاداتِ العرب .

[من رسائل ابن العميد]

من كتاب له إلى أبى عبدالله الطبرى

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى :

وقفت على ماوصفت من برّ مولانا الأمير لك ، وتَوَفُّره بالفَضْل عليك ، وإظهار جميل رَأْيِه فيك ، وما أنزله من عارفةٍ[1] لديك ؛ وليس العجب أن يتناهى مِثْلُه فى الكرم إلى أبْعدِ غاية ، وإنما العجَبُ أن يَقْصُرَ شىء من مساعِيه عن نَيْلِ المجد كلّه ، وحِيازة الفضلِ بأجمعه ؛ وقد رجوتُ أن يكونَ ما يغرسه من صنيعةٍ عندك أجدر غرس بالزّكاء[2] ،وأضْمَنه للرّيْع والنَّماء ؛ فارْعَ ذلك،واركب فى الخِدْمَة طريقة تُبْعدك من الملاَل، وتوسطك فى الحضور بين الإكثار والإقلال، ولا تَسْتَرْسِلْ إلىحسن القبول كلّ الاسترسال ؛ فلأن تُدعَى من بعيد خيرٌ من أنْ تُقْصَى[3] من قريب ، وليكن كلامُك جوابا تتحرّز فيه من الخطَلِ ومن الإسهاب ، ولا يعجبنّك تَأَتِّى كلمة محمودة فيلجّ بك الإطنابُ تَوَقُّعاً لمثلها ؛ فربما هدمت مابنته الأولى ، وبضاعَتك فى الشرف مُزْجاة ، وبالعقل يَزمّ اللسان ، ويرام السَّداد ، فلا يستفزّنك طَرَبُ الكلام على ما يفسد تمييزك ؛ والشفاعة لا تعرضْ لها فإنها مَخْلَقَةٌ للجاه ؛ فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرفَ موقعها ، وتحصِّلَ وزنها ، وتطالعَ موضعها ؛ فإن وجَدْتَ النفس بالإجابة سَمْحَة ، وإلى

(١) العارفة : العطية ، والمعروف . وليس لها فعل (م) .

(٢) الزكاء : النماء ، ومثله الريع (م) (٣) تقصى : تبعد (م) .

الإسعاف هَشّة ، فأظهر ما فى نفسك غير محقّق ، ولا توهم أنّ عليك فى الرد ما يُوحشك ، ولا فى المَنْع ما يغيظك ، وليكن انطلاقُ وجهك إذا دُفِعتَ عن حاجتك أكثر منه عند نجاحها على يَدك ، ليخفّ كلامك ، ولا يثقل على سامعه منك . أقول ما أقولُ غيْرَ واعظ ولا مُرْشِد ، فقد جمّل اللهُ خصالَك ، وحسّن خلالك ، وفضّلك فى ذلك كله ؛ لكنى أُنبه تنبيه المشارك لك ، وأعلم أنّ للذكرى موضعا منك لطيفاً .

وله أيضاً : سألتَنِى عن شغفى[1] وَجْدِى به ، وشغفى حُبّى له ، وزَعمت أنى لو شئت لذهلت عنه ولو أردت لاعتَضْت منه * زعماً ، لعَمْرُ أبيك ، ليس بمزعَم * كيف أسْلُو عنه ، وأنا أراه ، وأنساهُ وهو لى تُجاه ؛ هو أغلب علىّ ، وأقربُ إلىّ ، من أنْ يُرْخى لى عنانى ، أو يُخَلِّينِى واختيارى ، بعد اختلاطى بمِلكه ، وانْخِرَاطِى فى سِلْكه ، و بعد أن ناط حُبّه بقلبى نَائط ، وسَاطَه بدمى سَائط[2] . وهو جارٍ مَجْرَى الرُّوح فى الأعضاء ، متنسم تنسُّم رَوْح الهواء ؛ إن ذهَبْتُ عنه رجعت إليه ، و إن هرَبْتُ منه وقَفتُ عليه ، وما أحِبّ السلوّ عنه مع هنَاتِه ، وما أوثر الخلوّ منه مع مَلاَته ؛ هذا على أنه إنْ أقبل علىّ بهتَنى إقبالُه ، و إن أعْرض عنى لم يَطْرُقْنِى خياله ، يبعد عنى مثاله[3] ، ويقرب من غيرى نَوَالُه ، و يردُّ عينى حاسئة ، ويَثْنى يدى خالية ، وقد بسط آفات العيون المقاربة ، وصدّق مرامى الظنون الكاذبة ، وَصْلُه يُنْذِرُ بصدّه ، وقُرْبه يُؤْذِن ببعده ، يُدْنِى عندما ينزح ، ويَأْسُو[4] مثل ما يجرح ، محالتُه أحوال[5] ، وخلّته خِلال ، وحكمه سِجَال ، الحُسْنُ فى عَوَارِفه ، والجَمَالُ من منائحه ، والبهاء من أُصوله وصِفَاته ، والسَّنَاء من نعوته وسِماته ، اسمُه مطابقٌ لمعناه ، وفَحْواه موافقٌ

(١) فى نسخة « شغفنى » و « شغفى » والمعنى متقارب (م)

(٢) ساط : خلطه (م)   (٣) فى نسخة « مقاله » (م)

(٤) يأسو : يداوى (م)   (٥) فى نسخة « خالته أحوال » .

لنجواه ، يتشابه حالاه ، ويتضارَع قُطْراه ، من حيث تلقاه يستنير ، ومن حيث تنْساهُ يستدير .

[هرب من الوباء]

وقع بالكوفة وباء ، فخرج الناسُ وتفرّقوا بالنجف ، فكتب شريح إلى صديق له خرج بخروج الناس : أما بعد ، فإنك بالمكان الذى أنت فيه بعَيْن من لا يُعجزه هرَب ، ولا يَفوتُه طلب ؛ وإنّ المكانَ الذى خلّفْتَ لا يعجّل لأحد حِمامَه[1] ، ولا يظلمه أيّامه ، وإنا وإياك لعلى بِساطٍ واحد ، وإن النجف من ذى قدرة لقريب .

وهرب أعرابى ليلا على حمار حِذَارا من الطاعون ، فبينما هو سائر إذ سمع قائلاً يقول :

لن يُسبق اللهُ على حمارِ ولا على ذِى مَيْعَةٍ طيَّار
أو يأتىَ الحَتْفُ على مقدار قد يصبح اللهُ أمام السارى[2]

فكرّ راجعا، وقال : إذا كان الله أمام السارى فلاتَ حينَ مَهْرب .

[قتيل الحب]

قال الأصمعى : أخبرنى يونس بن حبيب قال : أتى قومٌ إلى ابن عباس بفتًى محمول ضَعْفاً ، فقالوا : استشفِ لهذا الغلام ، فنظر إلى فتًى حُلْو الوجه ، عارى العظام ؛ فقال له : ما بك ؟ فقال :

بنا من جوى الشوق المبرِّح لَوْعَةٌ تكادُ لها نفسُ الشفيق تَذُوبُ[3]
ولكنما أبقَى حُشاشة ما نَرَى على مابه عُودٌ هناك صَليبُ[4]

فقال ابنُ عبّاس : أرأيتم وجها أعتق ، ولسانا أذْلَق ، وعُودا أصلب ، وهوًى أغلب ، مما رأيتم اليوم ؟ هذا قتيل الحبّ ، لا قوَدْ ولا دِيَة !

---

(١) الحمام ـ بكسر الحاء ـ الموت (٢) الحتف : الهلاك (م)
(٣) الجوى : الحزن ، والمبرح : البالغ الشدة فى الإجهاد، واللوعة : الحسرة(م)
(٤) الحشاشة ـ بضم الحاء ـ بقية الروح فى الجسد، و «عود» هو فاعل «أبقى»(م)

ابن عباس

وكان ابنُ عباس رضى الله عنهما حَبْرَ قريش وبَحْرَها ، وله يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم فقّهه فى الدين وعَلِّمْهُ التأويل . وفيه يقول حسان ابن ثابت :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بملتقطات لا تَرَى بينها فَصْلا
شَفَى وكَفَى ما فى النفوس؛ فلم يَدَعْ ... لذى لَسَنٍ فى القول جِدًّا ولا هَزْلاً
سموتَ إلى العَلْيا بغير مَشَقَّةٍ ... فنِلْتَ ذُرَاها لا دَنِيًّا ولا وَغْلاَ

[مسلم بن الوليد صريع الغوانى]

وقال مسلم بن الوليد :

أُعَاوِدُ ما قدمته مِنْ رَجائها ... إذا عاودَتْ باليأسِ فيها المطامِعُ
رأتْنِى غَنِىَّ الطَّرْفِ عنها فأعْرضتْ ... وهل خفت إلا أن تشير الأصابع[1]
وما زَيَّنَتْها النفسُ لى عن لجاجةٍ ... ولكن جَرى فيها الهوى وهو طائِع
فأقسمتُ أنْسَى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتها العينُ والستر واقِع[2]
فغطّت بأيديهــا ثِمارَ نحورِها ... كأيدى الأسارى أثقلَتْهَا الجوامِع[3]

وكان مسلم أنصاريا صريحا ، وشاعرا فصيحا ، ولقب صريعا أيضاً لقوله :

سأنقاد لِلَّذَّاتِ متبع الهــوى ... لأمْضِىَ همّا أو أُصيب فتًى مثلى
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا ... صريعَ حُمَيَّا الكأس والأعين النُّجْلِ

واجتلب له هذا الاسم لأجل هذا البيت ؛ وقد قال القطامى :

صريع غوانٍ راقهنَّ ورُقْنَهُ ... لَدُنْ شبَّ حتى شاب سودُ الذَّوائب

ومسلم أول من لطّف البديع ، وكسا المعانى حُلل اللفظ الرفيع ، وعليه يعوّل الطائى ، وعلى أبى نواس ، ومن بديع شعره الذى امتثله الطائى قوله :

تساقط يُمْنَاه الندى وشِماله الــرَّدى وعيونَ القولِ منطقُهُ الفصْلُ

---

(١) هكذا فى جميع المطبوعات ، وفى ديوان مسلم « رأتنى غو الطرف » (م)

(٢) فى نسخة « والسجف رافع » (م) (٣) الجوامع : الكبول والقيود ، واحدها جامعة (م)

كأنَّ نَمَّ فى فِيه تجرى مكانَها ... سُلَافة ما مجَّتْ لأفراخها النَّحْلُ
له هضبة تأْوِى إلى ظلٍّ بَرْمَكٍ ... منوطٌ بها الآمال ، أطنابُها السُّبْل
عَجول إلى أن يُودعَ الحمدُ مالَه ... يَعُدُّ الندى غنْماً إذا اغتُنِم البخْل (١)
وقد حرم الأغراض بالبيض والندى ... فأموالُهم نهب وأعراضهم بَسْل (٢)
حُباً لا يطير الجهلُ فى عرَصاتها ... إذا هى حُلت لم يفت حَلَّها ذَحْل (٣)
بكفَّ أبى العباس يُستمطر الغِنَى ... وتستنزلُ النُّعمى ويُستَرْعَفُ النَّصْلُ
متى شئت رفَّعت الستورَ عن الغنى ... إذا أنتَ زُرْتَ الفضلَ أوأذن الفضلُ

وقوله أيضاً :

إذا كنت ذا نَفْس جواد ضميرُها ... فليس يضر الجودَ أن كُنْتَ مُعْدِما
رآنى بعَيْنِ الجود فانتهز الذى ... أردت فلم أفغَرْ إليــــه به فَمَا
ظلمتك إنْ لم أجزل الشكرَ بعدما ... جعلتَ إلى شكرى نوالَكَ سُلَما
فإنك لم يترك نداك ذخيرةً ... لغيرك من شكرى ولا متلوَّما

وقال ليزيد بن مَزْيد :

مُوفٍ على مُهَج فى يوم ذى رَهَج ... كأنه أجلٌ يسعى إلى أملِ
ينال بالرِّفْق ما يَعْيا الرجالُ به ... كالموت مستَعْجلاً يأْتى على مَهَلِ
لا يَرْحَل الناسُ إلا نحو حجرته ... كالبيت يُضْحى إليه مُلتقى السُّبُلِ
يَقْرِى المنيَّة أرواحَ الكُماة كما ... يَقْرِى الضيُوفَ شحومَ الكُومِ والبُزُلِ (٤)
يكسو السيوفَ رءوس الناكثين به ... ويجعل الهامَ تيجان القَنَا الذُّبُلِ
قد عوَّد الطيرَ عاداتٍ وثقن بها ... فهنَّ يَتْبَعْنه فى كل مُرْتحَل

وهذا المعنى كثير .

* * *

---

(١) فى نسخة « إلى أن يودع الحر ماله ، يعد الندى بخلا » (م) .

(٢) بسل ــ بالفتح ــ أى حرام (م) . (٣) حبا : جمع حبوة ، وهى أن تجمع الرجل ساقيه إلى ظهره بثوبه أو يديه ، ووقع فى نسخة « حبالا يطير الجهل» تحريف ، والذحل : الثأر (م) . (٤) الكوماء : الناقة العظيمة السنام ، والكوم جمعها ، والبزل : جمع بازل وهو الجمل الذى تم له تسعة أعوام (م) .

[من شعر أبي نواس]

قال عمرو الوراق: سمعت أبا نُوَاس ينشد قصيدته :

أيُّها المنتابُ عن عُفُرِهْ لستَ مِنْ لَيْلِي ولا سَمَرِهْ
لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرَّ من ثَمَرِهْ

فحسدته عليها ، فلما بلغ إلى قوله :

وإذا مجّ القنا علَقاً وتراءى الموتُ في صُوَرِهْ
راحَ في ثِنْيَيْ مُفاضته أسدٌ يَدْمَى شبَا ظُفرِهْ
تتأيّى الطـــير غَزوته ثقةً بالشِّبْع من جَزَرِه
تحت ظل الرمحِ تتبعهُ فهي تتلوه على أثره

فقلت : ما تركت للنابغة شيئاً حيث يقول :

إذا ما غزَوْا بالجيش حَلق فوقَهم عصائبُ طَيْرٍ تهتدِي بعصائبِ
جَوَانِح قد أيقنّ أن قبيلَهُ إذا ما التقى الجمعان أوَّلُ غالب

فقال: اسكت ، فلئن أحسن الاختراع ، لما أسأت الاتباع .

أخذه الطائي فقال :

وقد ظُلِّلت عِقْبانُ راياته ضُحَى بعقبانِ طيرٍ في الدماء نواهِلِ
أقامتْ على الراياتِ حتى كأنها من الجيش إلا أنهـــا لم تقاتِلِ

[وصف جيش]

وقال المتنبي يصف جيشاً :

وذى لَجَبٍ لاذو الجنَاحِ أمامهُ بِنَاجٍ ، ولا الوحْشُ الُمثارُ بِسالِمِ
تمرُّ عليــه الشمس وهْيَ ضعيفةٌ تُطالعــه من بين ريش القَشاعمِ
إذا ضَوْءها لاقَى من الطيرِ فرجةً تَدَوّر فوق البيضِ مثل الدراهِمِ

* * *

[شِعْبُ بوّان]

ونظير قول أبي الطيب في هذا البيت وإن لم يكن في معناه قولُه يصف شِعب بَوّان ، وسيأتي ، وفي هذا الشِّعب يقول أبو العباس المبرد : كنت مع مع الحسين بن رجاء بفارس ؛ فخرجتُ إلى شِعب بَوّان ، فنظرت إلى تُرْبة كأنها الكافور ، ورِياض كأنها الثوب الموشى ، وماء ينحدر كأنه سَلاَسِلُ الفضة ، على حصباء كأنها حَصَى الدر ؛ فجعلت أطوف في حَنباتها ، وأدور في عَرَصاتها ، فإذا في بعض جدرانها مكتوب :

إذا أشرف المكروبُ من رأس تَلْعَة ... على شِعب بوّان أفاق من الكَرْب
وألهاه بطْنٌ كالحرير لطَافَةً ... ومطّرِد يجْرِي من البارد العَذْبِ[1]
وطيبُ رياض في بلادٍ مَرِيعَةٍ ... وأغصان أشجارٍ جَناها على قُرْبِ[2]
يُدِير علينا الكاسَ من لو لحَظْته ... بعينك مالُمْتَ المحبين في الحبّ
فبالله يا ريحَ الشمال تحمّلي ... إلى شِعب بوّان سلامَ فتًى صَبّ[3]

قال أبو العباس : فأخبرت سليمان بن وهب بما رأيت ، فقال : وقد رأيت تحت هذه الأبيات :

ليت شعري عن الذين تركْنَا ... خَلْفنا بالعراق هل ذَكَرُونا؟
أم يكون المدَى تطاوَلَ حتى ... قَدُمَ العَهْدُ بيننا فَنَسُونَا[4]
إن جفَوْا حرمة الصَّفاء فإنا ... لهمُ في الهوى كما عهدونا

وشعر المتنبي :

مَغانِي الشِّعب طيباً في المَغاني ... بمنزلة الربيع من الزمانِ
ولكنّ الفتى العَرَبيّ فيها ... غريبُ الوجه واليدِ واللسانِ
مَلاعِبُ جِنّةٍ لو سار فيها ... سليمانٌ لسار بترجمانِ
طبَتْ فُرْسانَنا والخيل حتى ... خشِيتُ وإن كَرُمْنَ من الحِرانِ

(١) في الأمالي (٣ / ١٢٨) « كالحريرة مسه » (م) .
(٢) وفيه « وطيب ثمار في رياض أريضة » (م) . (٣) وفيه « فبالله يا ريح الجنوب (م) . (٤) وفيه « أم لعل المدى تطاول » (م) .

غدونا تَنْفُضُ الأغصان فيه | على أعرافِها مِثْـــلَ الجُمانِ
فجئْتُ وقد حَجَبْن الشمسَ عنّى | وجِئْنَ منْ الضياء بما كفانِي
وألْقَى الشرقُ منها فى بَنانِي | دَنانيراً تَفِرُّ مِن البَنانِ

[ومنها :

يقول بِشِعْبِ بَوّانٍ حصانى | أعَنْ هذا يُسارُ إلى الطعانِ؟
أبوكُمْ آدم سَنَّ المعاصى | وعلّمَكُمْ مُفارقة الجِنانِ]

إنما أردت هذا البيت . ومنها :

لها ثَمَرٌ تُشِـــيرُ إليك منه | بأشْربة وقفْنَ بلا أوانِي
وأمْوَاهٌ يَصِلُّ بها حصاها | صَلِيلَ الحَلْىِ فى أيْدِى الغوانِي

[رَجْعٌ إلى وصف الجيش]

وأول من ابتكر هذا المعنى الأول الأفوه الأودى فى قوله :

وأرى الطير على آثارنا | رأْىَ عَيْنٍ ثقةً أنْ ستُمَارْ[(١)]

وقال حميد بن ثور وذكر ذئباً :

إذا ماغــدا يَوْماً رأيتُ غيابة | من الطير يَنْظُرْنَ الذى هوصانعُ[(٢)]
فهمّ بأمْرٍ ثم أزمع غـــيْره | وإن ضاق أمرٌ مرةً فهو وَاسِعُ

وقال مسلم بن الوليد :

وإنى لأستحيِى القُنوع ومَذْهبى | فَسيح وأقْلى الشّحّ إلاعلى عِرْضِى
وما كان مثلى يعتريك رَجَاؤُهُ | ولـكن أساءتْ نعمةٌمنْفتى مَحْضِ
وإنى وإشراقى عليــك بهمّتى | لكالمبتغى زبْداً من الماء بالمَخْضِ

أخذه أبو عثمان الناجم فقال :

لم تُحَصّل بمخْضِك المـاء إلا | زَبَدًا حين رمت بالجهل زُبْدًا

(١) ستمار : أى ستنال الميرة ، والميرة ــ بكسر الميم ــ الطعام (م) .
(٢) فى نسخة « إذا ما غزوا يوما » ، وفى أخرى « إذا ما عوى يوما رأيت غمامة » (م) .

[وصف وسفينة]

وقال مسلم أيضاً يصف السفينة :

كشفت أهاويل الدجى عن مهولهِ ... بجارية محمولةٍ حاملٍ بكْرِ
إذا أقبلتْ راعتْ بقُنَّةِ قرهبٍ ... وإن أدبرت راقت بقادمتَيْ نَسْرِ (١)
أطلَّتْ بمجذافين يعتورانها ... وقوَّمها كبحُ اللِّجام من الدُّبْرِ
كأنَّ الصبا تحكى بها حين واجهتْ ... نسيمَ الصَّبا مَشْى العروسِ إلى الخِدْرِ

[مما قيل فى وصف الأساطيل]

لابن هانى يصف أسطول المعز الفاطمى

وقال أبو القاسم بن هانىء يصف أسطول المعز بالله :

أمَا والجوارى المنشآت التى سَرَتْ ... لقد ظاهرتها عُدَّةٌ وَعَديدُ
قِبابٌ كما تُرْخَى القِبابُ على المَهَا ... ولكنَّ من ضُمَّتْ عليه أُسُودُ
[وما راع مَلْكَ الروم إلاَّ اطلاعها ... تنشَّرُ أعلام لها وبنود]
ولله ممَّا لا يرون كتائبٌ ... مسوَّمةٌ يجرى بها وجنودُ
أطال لها أنَّ الملائكَ خَلْفَها ... فمن وقفت خلف الصفوفِ رُدُودُ (٢)
وأن الرياح الذاريات كتائبٌ ... وأن النجوم الطالعاتِ سعودُ
عليها غَمامٌ مكفهِرٌّ صَبِيرُهُ ... له بارقاتٌ جَمَّةٌ ورُعُودُ (٣)
مواخرُ فى طامى العُبَاب كأنها ... لِعزمك بأسٌ أو لِكَفِّك جودُ
أنافتْ بها آطامُها وسَماَ بها ... بناءٌ على غير العَرَاء مَشِيد
[من الطير إلا أنهن جوارحٌ ... وليس لها إلا النفوسَ مَصِيدُ]
وليس بأعلى كبكب وهو شاهقٌ ... وليس من الصُّفَّاح وهو صَلُود
من الراسيات الشُّم لولا انتقالُها ... فمنها قِنَانٌ شُمَّخٌ ورُيُودُ (٤)
من القادحات النار تُضْرَم للصِّلَى ... فليس لها يومَ اللقاء خمودُ

(١) فى نسخة « بقنبة قرهد » والقرهب : الثور ، والقرهد : ولد الأسد أو ولد الوعل (م) . (٢) ردود : جمع رد ــ بكسر الراء ــ وهو كل ما اعتمدت عليه ورجعت إليه (م)
(٣) الصبير ــ بفتح الصاد ــ السحاب المتراكم بعضه فوق بعض (م)
(٤) الريود : جمع ريد ، وهو القطعة من الجبل (م)

إذا زَفَرَتْ غيظاً ترامَتْ بمارجٍ | كما شُبَّ من نارِ الجحيم وقودُ
تُعانِقُ مَوْجَ البحرِ حتى كأنه | سليطٌ له فيه الذُّبالُ عَتيدُ(١)
ترى الماء فيها وهو قَانٍ خِضَابهُ | كما باشرت رَدْعَ الخَلُوقِ جلودُ(٢)
فأنفاسُهن الحامياتُ صواعِقٌ | وأفواهُهن الزافرات حديدُ
يُشَبُّ لآلِ الجاثَليق سَعِيرُها | وما هي من آلِ الطريد بَعِيد
لها شُعَلٌ فوق الغِمَار كأنها | دِماءٌ تلقيها مَلاَحِفُ سُودُ
وغير المذاكى نَجْرُهَا غير أنها | مسوَّمةٌ تحت الفوارس قُودُ
فليس لها إلا الرياحَ أعنةٌ | وليس لها إلا العُبَاب كَدِيد(٣)
ترى كلّ قوداء التليل كما انثنت | سوالفُ غِيدٍ أعرضت وخُدود(٤)
رحيبة مدِّ الباعِ وهي نضيجة | بغيرِ شَوًى عذراء وهي وَلُود
تكبّرْنَ عن نَقْعٍ يُثار كأنها | مَوَالٍ وجُرْدُ الصافنات عَبِيدُ
لها من شُفوف العَبْقَرِيّ مَلابسٌ | مفوَّفَةٌ فيها النُّضَار جَسِيدُ
كما اشتملت فوق الأرائك خُرَّدٌ | أو التفَعَتْ فوق المنابر صِيدُ
لبوسٌ تكفُّ المَوْجَ وهو غُطَامِطٌ | وتدرأُ بَأْسَ اليمِّ وهو شديد
فمنه دروع فوقها وجَواشِنٌ | ومنها خَفَاتينٌ لها وبرود

لعلى الإيادى يصف أسطول القائم

وقال على بن محمد الإيادى يصف أسطول القائم فأجاد ما أراد :

أعجب لأسطولِ الإمام محمدٍ | وَلحسنه وزمانه المُستغرب
لبِسَت به الأمواج أحسنَ منظر | يبدو لعين الناظرِ المتعجّب
من كل مُشرِفَة على ما قابلت | إشراف صَدْرِ الأجدل المتنصّب
دَهْماء قد لبِسَت ثيابَ تَصَنّع | تَسْبِي العقولَ على ثياب تَرَهُّب

(١) السليط ــ بفتح السين ــ الزيت ، والذبال : جمع ذبالة (م)
(٢) الردع : الزعفران ، والخلوق ــ بفتح الخاء ــ ضرب من الطيب (م)
(٣) الكديد ــ بفتح الكاف ــ الأرض الصلبة (م) (٤) قوداء التليل : طويلة العنق (م)

من كل أبيض فى الهواء منشَّر منها وأسحمَ فى الخليج مُغَيَّب[1]
كمُلاَءة فى البر يقطع شدّها فى البحر أنفاسُ الرياح الشُّذَّب
محفوفة بمجاذِف مصـــفوفة فى جانبين دُوَيْنَ صُلْبٍ صُلَّب
كقوَادم النَّسر المرفرف عُرِّيت من كاسيات رياشه المتهدِّب
تَحْتَثُّها أيدى الرجال إذا وَنَتْ بمصعّد منه بُعَيْد مُصَـوَّب[2]
خرقاء تذهبُ إن يدٌ لم تهدها فى كل أوْب للرياح ومَذْهَب
جَوفاء تحمل موكباً فى جَوْفِها يومَ الرهان وتستقلّ بموْكب
ولها جناحٌ يستعار يُطِيرُها طوعَ الرياح وراحةِ المتطرِّب
يعلو بها حدَبُ العُبَاب مُطارةً فى كل لج زاخر مُغْـلَوْلب
تسمو بأجردَ فى الهواء متوَّجٍ عريان منسوج الذؤابة شَوْذَب[3]
يتنزّل الملاّحُ منـــه ذؤابة لو رام يركبها القطَا لم يَرْكَب
فكأنما رام اســـتراقةَ مَقْعدٍ للســـمع إلا أنه لم يُشْهَب[4]
وكأنما جِـنٌّ ابنِ دَاودٍ همُ ركبوا جوانبها بأعنَف مَرْكَب
سجَروا جواحِمَ نارها فتقاذفوا منها بألسُـــن مارج متلهِّب
من كل مسجورِ الحريق إذا انبرى من سجنه انْصَلَتَ انصلاتَ الكوكب
عُريان يقدمه الدخانُ كأنهُ صبحٌ يكرُّ على الظلام الغَيْهَب
ولواحق مثـــل الأهِـلّة جُنَّحٌ لحقَ المطَالب فائتات المَهْرَب
يَذْهَبْن فيما بينهن لطـــافةً ويجِئْن فعـــل الطائر المتغلِّب
كنضائض الحياتِ رُحن لواعباً حتى يَقَعْنَ ببركة ماء الميزَب
شرعوا جوانبها مجادف أتعبتْ شأوَ الرياح لهـا ولما تَتْعَب

(١) الأسحم : الأسود (م)
(٢) تحتثها : تحملها على السرعة ، وونت : فترت (م)
(٣) الشوذب من الرجال : الطويل الحسن الخلق (م)
(٤) لم يشهب : لم يرم بالشهاب ، يشير إلى قوله تعالى : (فأتبعه شهاب ثاقب

تنصاع من كُثَب كما نفر القَطَا طوراً ، وتجتمع اجتماعَ الربرب[1]
والبحرُ يجمع بينها فكأنه ليلٌ يقرِّب عقربا من عَقْرَب
وعلى كواكبها أُسود خِلاَفةٍ تختالُ فى عُدَد السلاح المُذْهَب
فكأنما البحرُ استعار بزِيِّهم ثوبَ الجمال من الربيع المعجب

[من لطائف التودّد]

كتب العباس[2] بن جرير إلى الفضل بن يحيى :

لا أعلم منزلةً توحشنى من الأمير ولا توحشه منى ؛ لأنى فى المودة له كنفسه، وفى الطاعة كَيَدِه ، وإنما أُلطِفُه من فضله ، وقد بعثت بعض ما ظننت أنه يحتاج إليه فى سفره . وذكر ما بعث .

وكتب غيره فى هذا المعنى : إذا كان اللَّطَف دليل محبَّةٍ ، ومِيسَم قُربة ، كفى قليلُه عن كثيره ، وناب يسيرُه عن خطيره ، لا سيما إذا كان المقصودُ به ذا همّةٍ لا يستعظم نفيسا ، ولا يستصغر خسيساً ؛ وقد حُزْت من هذه الصفة أجَلَّ فضائلها ، وأرفع منازلها .

وفى هذا المعنى : إن يَد الأنس طويلة بكل ما بلغت ، منبسطة بكل ما أدركت ، من حيث يدُ الحشمة قصيرة عن كل ما حَوَتْ ، مقبوضة دون ما أمَّلَتْ ؛ لأن بابَ القول مطلقٌ لذوى الخصوص[3]، محظور عند ذوى الهموم، ولتمكّن ما بيننا عاطيتك من لَطفى مالا دونه قلّة ، ثقةً منك بأنه يَرِد على مالا فوقه كثرة .

---

(١) الربرب — بوزن جعفر — جماعة بقر الوحش (م)
(٢) فى نسخة « أبو العباس » (م) (٣) فى نسخة « لذوى الحظوظ » (م)

ومن ألفاظ أهل العصر فى إقامة رسم الهدية فى المهرجان والنيروز

لمثل هـــذا اليوم الجديد والأوانِ السعيد سنّةٌ ، وعلى مثلى فيها أن يتحف ويُلطف ؛ وعلى مثل سيدنا ، ولا مِثْلَ له ، أن يَقْبَل ويشرف . لليوم رسمٌ إن أخلّ به الأولياء عُدّ هفوة ، وإن منع منه الرؤساء حُسب جَفْوة ، ومولاى يسوّغنى الدّالة فيما اقترن بالرقعة ، ويكسبنى بذلك الشرف والرفعة . الهدايا تــكونُ من الرؤساء مكاثرةً بالفضل ، ومن النظراء مقارضة بالمثل ، ومن الأولياء ملاطفة بالقُلّ[1] ، وقد سلــكت فى هذا اليوم مع مولاى سبيلَ أهْلِ طبقته من الأرباب ، وقد حملت إلى مولاى هدية [الملاطف ، لا هدية] المُحْتَفِل ، والنفس له ، والمال منه .

ولهم فى التهنئة بالنيروز والمهرجان وفصل الربيع

هذا اليوم غُرّةٌ فى أيام الدهر ، وتاجٌ على مفرق العَصْر . أسعد اللهُ مولانا بنَوْرُوزِه الوارِد عليه، وأعاده ماشاء وكيف شاء إليه. أسعد اللهُ تعالى سيدنا بالنوروز الطالع عليه ببركاته ، وأيْمنَ طائرَه فى جميعِ أيامه ومتصرفاته ؛ ولا يزالُ يلبَس الأيامَ ويُبليها وهو جديد ، ويقطعُ مسافة نحسها وسعدها وهو سعيد . أقبل النيروزُ إلى سيدنا ناشراً حُـلَله التى استعارها من شيمَتِه ، ومُبْديا حالته[2] التى اتخذها من سَجِيته ، ومستصحبا من أنواره ما اكتساه من محاسن فضلِه وإكرامه ، ومن أنظاره ما اقتبسه من جوده وإنعامه . ويوكد الوعد بطُولِ بقائه حتى يملّ العمر ، ويستغرق الدهر . سيدُنا هو الربيع الذى لا يذْبل شجرُه ، [ولا يزول سَحَرُه] ولا ينقطعُ ثمرُه ، ولا يُقلِعُ غَمَامه ، ولا تتبدّلُ أيامُه ؛ فأسعده الله تعالى بهذا

---

(١) القل — بضم القاف وتشديد اللام — القليل (م)

(٢) فى نسخة « ومبديا حليته » (م)

الربيع المتشبه بأخلاقه ، وإن لم ينَلْ قدرها ، ولم يحمل فَضْلَها ، ولم يجد بُدًّا من الإقرار بها . سيدُنا هو الربيع الذى يتّصِل مطرُه ، من حيث يُؤمَن ضررُه ، ويَدُومُ زهرُه ، من حيث يتعجل ثمرُه ؛ فلا زال آمراً ناهياً ، قاهراً عالياً ، تتهيَّأ الأعيادُ بمصادفة سلطانه ، وتستفيدُ المحاسنُ من رياض إحسانه . أسعد الله سيدنا بهذا النَّوْرُوز الحاضر ، الجديد الناضر ، سعادةً تستمرُّ له فى جميع أيامه على العموم دون الخصوص ، لتكونَ متشابهات [فى اكتناف] المواهب لها ، واتصالِ المسارّ فيها ، لا يفرق إلا بمقدار يزيد التالى على الخالى ، ويدرج الآتى على الماضى . عرّف الله سيدَنا بركة هذا المهرجَان ، وأسعدَه فيه ، وفى كل زمان وأوان ، وأبقاه ما شاء فى ظلالِ الأمانى والأمان . هذا اليومُ من محاسن الدهر المشهورة ، وفضائلِ الأزمنة المذكورة ، فلقّى الله تعالى سيدنا بركةَ وُرودِهِ ، وأجزل حظّه من أقسام سعوده ، هذا اليومُ من غُرَر الدهور ، ومواسم السرور ، معظّم فى الملك الفارسى ، مستطرَف فى الملك العربى ؛ فوفر الله تعالى فيه على مولاى السعادات ، وعرّفه فى أيامه البركات ، على الساعات واللحظات .

[الصفات التى تلزم فى رجل الشرطة]

وقال الحجاج بن يوسف : دلُّونى على رجل للشرطة ، فقيل : أى رجل تريد ؟ فقال : أريد رجلاً دائمَ العُبوس ، طويلَ الجلوس ، سمينَ الأمانة ، أعْجَفَ الخيانة[1] ، يهونُ عليه سِبَالُ الشريف فى الشفاعة[2] ! فقالوا : عليك بعبد الرحمن [بن عبد الله] التميمى ، فأرسل إليه يستعمله ، فقال : لست أعمل لك عملا إلا أن تكفينى ولدكَ ، وأهل بيتكَ ، وعيالك وحاشيتك ، فقال : يا غلام ناد : مَنْ طلب إليه حاجةً منهم فقد برئت منه الذمة .

---

(١) أعجف الخيانة : مهزولها وضعيفها ، والمراد أنه عديم الخيانة (م)

(٢) فى نسخة «يهون عليه سباب الشريف» وفى أخرى «سبال الأشراف» (م)

لأشجع السلمى يمدح صاحب شرطة الرشيد

وقال أشجع بن عمرو السُّلمى يمدحُ فى هذا المعنى إبراهيم بن عثمان بن نهيك صاحب شرطة الرشيد، وكان جباراً عنيداً :

فى سيف إبراهيمَ خوفٌ واقعٌ   بدوى النفاق ، وفيه أمْنُ المسلم
و يبيت يكلأُ والعيونُ هواجعٌ   مالَ المضيع ومُهْجَة المستسلِم
شَدّ الخطامَ بأنف كلِّ مخالفٍ   حتى استقام له الذى لم يُخْطَم
لا يُصْلِحُ السلطانَ إلا شِدةٌ   تغشى البرىَ بفضْلِ ذَنْبِ المجرِم
ومِنَ الولاة مُفَخَّمٌ لا يتَّقِى   والسيفُ تَقْطُر شَفْرَتاهُ من الدم[١]
منعَت مهابتُك النفوسَ حديثَها   بالأمر تكرهه و إن لم تَعْلَمِ

[من كلام الأعراب]

أعرابية تلوم أباها فى الجود

عذلَتْ أعرابية أباها فى الجود و إتلاف ماله ، فقالت : حَبْس المالِ ، أنْفعُ للعِيَال ، مِنْ بذْل الوَجْه فى السؤال ؛ فقد قلَّ النوالُ ، وكثر البُخَّالُ ، وقد أتلفت الطارِفَ والتِّلاد ، و بقيت تطلبُ ما فى أَيدِى العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضرّه .

دعوة أعرابية

قال الأصمعى : سمعت أعرابية تقول : اللهم ارزُقنى عمل الخائفين ، وخوفَ العاملين ، حتى أتَنعم بترك التنعم ، رجاء لما وعَدْتَ ، وخوفا مما أوعدت .

وقال آخر : اللهم من أراد بنا سوءاً فأحِطْه به كإحاطةِ القلائد ، بأعناق الولائد ، وأرسِخْه على هامَتهِ ، كرسوخ السِّجيل ، على هامِ أصحاب الفيل

وقال بعضُ الأعراب : نالنا وَسْمِىّ ، وخَلَفَه وَلىّ[٢] ؛ فالأرضُ كأنها وَشْىٌ [عبقرىّ] ؛ ثم أتتنا غُيُوم جَرَاد ، بمناجل حِدَاد ؛ فخرَّبت البلادَ ، وأهلكت العبادَ ؛ فسبحان من يُهلك القوىّ الأكول . بالضعيف المأكول .

(١) يروى « ومن الولاة مقحم » والمقحم ـ بزنة المعظم ـ الذى يقحم نفسه فى الأمور (م)   (٢) الوسمى : أول المطر ، والولى : المطر يتبع المطر (م)

السفاح وعمارة بن حمزة

وقال عمارة بن حمزة لأبي العباس السفاح ـ وقد أمر له بجوائز نفيسة ، وكُسْوَة وصلة ، وأدْنى مجلسه ـ : وصلك اللهُ يا أمير المؤمنين و برَّك ، فوالله لئن أردنا شُكْرَك على كُنْهِ صلتك ، فإنَّ الشكرَ ليَقْصُرُ عن نعمتك ، كما قَصُرْنا عن منزلتك ؛ غير أنَّ الله تعالى جعل لك فضلا علينا بالتقصير منا ، ولم تحْرِمْنا الزيادةَ منك لِنَقْصِ شكرنا .

السفاح وخالد بن صفوان

وقال أبو العباس السفاح لخالد بن صفوان : كيف عِلْمُك بأخوالي بني الحارث ابن كعب ؟ قال : يا أميرَ المؤمنين ، هم هامَةُ الشرف ، وعِرْنينُ الكرَم ، وفيهم خصالٌ ليست في غيرهم من قومهم ، هم أحسنهم أمما ، وأكرمهم شِيَماً ، وأهْناهم طعما ، وأوْفاهم ذِمما ، وأبعدهم هِمما ، هم الجَمْرَة في الحرب ، والرأسُ في كلِّ خطب ، وغيرهم بمنزلة العَجْب[1] .

عمر بن عبد العزيز وخالد بن صفوان

وعزّى خالدُ بن صَفْوَان عمر بن عبد العزيز وهنَّأه بالخلافة، فقال : الحمد لله الذي مَنَّ على الخَلْقِ بك ، والحمدُ لله الذي جعل نبوتكم رَحمة ، وخلافتكم عِصْمَة ، ومصائبكم أُسوة ، وجعلكم قُدْوَة .

وقال خالدُ بن صَفْوان لبعض الولاة : قدمت وأعطيت كلاً بِقِسْطِه من نظرك ومَجْلسك ، في صوتك وعَدْلك ، حتى كأنك من كلّ أحد ، وحتى كأنك لست من أحد .

وقال رجل لخالد : إن أباك كان دَميا ، ولكنه كان حليما ، وإنّ أمك كانت حسناء ، ولكنها كانت رَعْنَاء ، فيا جامع شَرِّ أبويه !

شذور في المقابح ومساوي الأخلاق

علي بن عبيدة الريحاني ـ أدْنس شعارِ المرء جهلُهُ .

---

(١) العجب ـ بفتح العين وسكون الجيم ـ أصل الذنب ، وهو أيضا مؤخر كل شيء (م)

(٢) الدميم ـ بالدال المهملة ـ القبيح الشكل ، ووقع في نسخة «ذميا» تطبيع (م)

ابن المعتز ـ نعَم الجاهلِ ، كالرياض فى المزابل . كلما حسُنَتْ نعمةُ الجاهل ازداد فيها قُبْحاً. لسانُ الجاهل مفتاحُ حَتْفه . لا ترى الجاهلَ إلا مُفْرطاً أوْ مُفرّطاً.

الجاحظ ـ البخلُ والجُبْنُ غريزةٌ واحدة ، يجمعهما سوء الظن بالله . البخلُ يَهْدِمُ مبانىَ الشرف .

وقال ابن المعتز : لما عرف أهلُ النَّقْصِ حالَهم عند ذوى الكمال ، استعانوا بالكِبْرِ ليعظِّمَ صغيراً ، ويرفَعَ حقيراً ، وليس ينفعُ الطمع فى وثاق الذلّ . الغضب يصدئْ العقلَ حتى لا يرى صاحبُه صورةَ حَسَنٍ فيرتكبه ، ولا صورة قبيح فيجتنبه . الغضبُ ينبىء عن كامن الحقد . من أطاع غضبَه أضاع أدبه . حدّةُ الغضب تعثر المنطق[1] ، وتقطع مادّة الحجّة ، وتفرّق الفَهْم[2] . غضب الجاهل فى قوله ، وغضبُ العاقل فى فِعْله . عقوبةُ الغضب تبدأ بالغضبان : تقبِّح صورتَه ، وتثلم دِينَه ، وتعجّل نَدَمه . ما أقبح الاستطالة[3] عند الغنى ، والخضوع عند الفقر . من يهتك سِتْر غيره تكشّفتْ عورات بيته . نفاق المرء من ذلةٍ . الشرير لا يظنُّ بالناس خيراً لأنه يراهم بعين طبعه . من عدّد نعمه محق كرمه . خُلْفُ الوعد خُلُق الوَغْد ، من أسرع كثُر عثاره .

[من المفاخرات]

بين كاتب ونديم

فاخر كاتبٌ نديماً ،فقال الكاتب : أنا مَعُونة ، وأنت مَؤُونة ؛ وأنا للجدّ ، وأنت للهَزْل ؛ وأنا للشدّة وأنت للّذة ؛ وأنا للحرب ، وأنت للسلم . فقال النديم : أنا للنعمة ، وأنت للخِدْمة ؛ وأنا للحضرة ، وأنت للمهنة ؛ تقوم وأنا جالس ، وتحتشم وأنا مُؤانس ؛ تَدْأب لراحتى ، وتَشْقى لسعادتى ؛ فأنا شريك ، وأنتَ معين ، كما أنك تابع ، وأنا قرين .

---

(١) فى نسخة «تغير المنطق» (م) (٢) تفرق الفهم : تبدده (م)
(٣) الاستطالة : التكبر (م)

بين صاحب سيف وصاحب قلم

وفاخر صاحبُ سيفٍ صاحبَ قلم ، فقال صاحبُ القلم : أنا أقتل بلا غَرَر، وأنت تقتل على خَطر . فقال صاحب السيف : القلمُ خادمُ السيف إن تم مراده ، وإلاَّ فإلى السيفِ مَعاده .

قال أبو تمام :

السيفُ أصْدَقُ أنباءً من الكتُب ... فى حَدِّهِ الحدُّ بين الجِد واللعبِ

إبراهيم بن المهدى :

فقد تلينُ ببعض القولِ تَبْذُلُهُ ... والوصل فى جبَلٍ صَعْبٌ مَرَاقِيهِ

كالخيزران مَنِيعٌ حين تكسِرهُ ... وقد يُرى لَيِّناً فى كفِّ لاَوِيه

لأبى الهيدام المرى يرثى

أبو الهَيْدام[1] عامر بن عمارة المرّى يرثى :

سأبكيك بالبيض الرِّقاق وبالقنَا ... فإن بها ما أدركَ الواتِرُ الوِتْرَا

ولسنا كمن يَبْكِى أخاه بعَبْرَةٍ ... يعصِّرها من ماء مُقْلَتِه عَصْرا

ولكننى أشْفِى فؤادى بغَمْرَةٍ ... وألهب فى قُطْرَىْ جوانبه جَمْراً

وإنا أُناسٌ ما تَفِيضُ دموعنا ... على هالكٍ منّا وإن قَصَمَ الظَّهْرا

[من وَصَايا الحكماء]

لقى رجل حكيما فقال : كيف تَرَى الدهر ؟ قال : يُخْلِقُ الأبدان ، ويجدِّدُ الآمال ، ويقرِّبُ المنية ، ويباعِدُ الأُمْنِية . قال : فما حالُ أهله ؟ قال : من ظفر به منهم تعب ، ومن فاته نَصِب . قال : فما الغنى عنه ؟ قال : قَطعُ الرجاء منه ، قال : فأيّ الأصحاب أبرّ وأوْفى ؟ قال : العمل الصالح والتقوى . قال : أيهم أضر وأرْدَى[2]؟ قال : النفس والهوى، قال : فأين المخرج؟ قال : سلوكُ المَنْهَج . قال : وما هو ؟ قال : بَذْل المجهود ، وترك الراحة ، ومداومة الفكرة . قال : أوْصنى . قال : قد فعلت .

---

(١) فى نسخة «أبو الهندام» وفى أخرى «أبو الهيدام» (م)
(٢) أردى : أشدردى ، والردى ــ بوزن الفتى ــ الهلاك (م)

وقال بعضُ الملوك لحكيم من حكمائه : عِظْني بعظة تنفي عني الخُيَلاء[١] ، وتزهّدني في الدنيا . قال : فَكِّر في خَلْقك ، واذكُر مبدأك ومصيرك ، فإذا فعلت ذلك صَغُرَتْ عندك نفسُك ، وعَظُم بصغرها عندك عَقْلُك ؛ فإن العقلَ أنفعهُما لك عِظَما ، والنفس أَزْينهما لك صِغَراً ؛ قال الملك : فإن كان شيء يُعِينُ على الأخلاق المحمودة فصفتك هذه . قال : صفتي دليل ، وفَهْمُك محجَّة ، والعلم علّية[٢] ، والعمل مَطية ، والإخلاص زمامها ، فخُذْ لعقلك بما يزينه من العلم ، وللعلم بما يَصُونُه من العمل ، وللعمل بما يحققه من الإخلاص ، وأنت أنت ! قال : صدقت .

[من المدح]

لابن الرومي

وقال ابن الرومي :

تَغْنَوْنَ عن كل تقريظ بمجدكمُ ... غِنَى الظباء عن التكحيل بالكَحَلِ

تلوح في دُول الأيام دولتكم ... كأنها مِلّةُ الإسلام في المللِ

وقال أيضاً :

كلُّ الخصالِ التي فيكم محاسِنُكم ... تشابهَتْ منكم الأخلاقُ والخلقُ

كأنكم شجرُ الأُتْرُجِّ طابَ معا ... حَملا ونَوْراً ، وطاب العودُ والورقُ

لأبي الفتح البستي

وقال البستي [في نحو هذا] :

فتى جمَع العلياءَ عِلْماً وعفَّةً ... و بأساً وجوداً لا يفيق فُواقا

كما جمع التفاحُ حسناً ونَضْرَةً ... ورائحةً محبوبةً ومَذَاقا

في مدح أبي دلف

قال أبو العباس المبرد : حدثني عجل بن أبي دلف قال : امتدح رجلٌ أبي بكلمة ، فوصله بخمسمائة دينار ولم يره ، وهي :

---

(١) الخيلاء : الكبر (م)

(٢) في نسخة «والعلم حيلة» وفي أخرى «والعلم حلية» (م)

مَالِي ومالكَ قد كلفتني شططاً ... حمل السلاح وقول الدّارعين قفِ
أمِن رجالِ المنايا خِلْتَني رجلاً ... أمْسي وأُصْبِحُ مشتاقاً إلى التَّلَفِ
أرى المنايا على غيري فأكرهها ... فكيف أمْشِي إليها بارزَ الكَتِفِ
أخِلْتَ أنّ سوادَ الليل غيَّرني ... وأن قلبيَ في جنبَيْ أبي دُلَفِ

قلت: هذا كحديث الذي دخل في قومٍ على شراب فسقوه غير الشراب الذي يشربون، فقال:

نبيذان في مجلس واحد ... لإيثار مُثْرٍ على مُقترِ
فلو كنتَ تفعل فِعْلَ الكرام ... فعلت كفعل أبي البَخْتري
تَتَبَّعَ إخوانه في البلاد ... فأغنى المُقِلَّ عن المُكْثِرِ

فاتصل شعره بأبي البختري فأعطاه ألف دينار ولم يَرَه.

[أحمد بن أبي فنن]

والأبيات التي مُدِح بها أبو دلف هي لأحمد بن أبي فنن(١)، وكان شاعراً مجيداً، وهو القائل:

ولما أبَتْ عينايَ أن تملكَ البُكَى ... وأن تحبسا سَحَّ الدموع السواكب(٢)
تثاءبت كي لا يُنكِرَ الدمعَ منكرٌ ... ولكن قليلاً ما بقاء التثاؤب(٣)
أعرَّضتماني للهوى ونممتُمَا ... عليَّ؟ لبئس الصاحبان لصاحبِ

وقال:

وحياة هجرك غير معتمِدٍ ... إلا لقصْدِ الحِنْثِ في الحلفِ
ما أنت أمْلحُ مَنْ رأيت ولا ... كَلَفي بحبِّك مُنْتَهَى كَلَفي

(١) في نسخة «أحمد بن أبي العيناء» وانظر اللآلي لأبي عبيد البكري (١٩٧) (م)
(٢) في اللآلي «أن تملكا البكى» ويروى «أن تقفا البكى»
(٣) «ما» في قوله «قليلاما» صفة لقليل، وفي نسخة «مايفيد التثاؤب» وليس بشيء، وكان من حق العربية أن يقول «ولكن قليل مابقاء التثاؤب» ولما ذكر وجه ليس هو المهيع.

قال الصولى : كنا بحضرة أبى العباس المبرد فأنشد هذين البيتين فاستظرفهما وأنشدنا فى ذلك :

وحياة غيرك غير معتمد بهِ حِنثاً ولكن مُغْظِماً لحياتكا[١]
ماينقضى طمَعِى و إن أطمعتنى فى الوعدمنك إلى اقتضاء عِدَاتكا[٢]

وقال الخثعمى :

ولم أر مثلَ الصدِّ أدعى إلى الهوى إذا كان ممن لا يخافُ على وَصْلِ
وآلَتْ يميناً كالزجاج رقيقــةً وما حَلَفَتْ إلاَّ لتَحْنَثَ من أجْلِى

وكان أحمد بن أبى فنن أسود ، ولذلك قال :

* أخلت أن سَوَادَ الليل غيّرنى *

ولما أُدخل على المعتزّ وامتدحه قال: هذا الشاعرُ الآدَم[٣]، قال بعض من حضر: لا يَضِرْه سوادُه مع بياض أياديك عنده ، قال : أجَلْ ، ووصله .

* * *

أخذ قوله :

* أرى المنايا على غيرى فأكرهها *

من قول أعرابى قيل له : ألا تَغْزُو ؟ قال : أنا والله أكره الموت على فراشى، فكيف أمشى إليه رَكْضاً ؟

[الاستطراد]

وهذا المذهب الذى سلكه أحمد ضربٌ من البديع يسمّى الاستطراد، وذلك أن الفارس يظهر أنه يستطرد لشىء ويُبْطِنُ غيره ، فيكرُّ عليه ، وكذلك هذا

---

(١) فى نسخة «وحياة عزك» (م)
(٢) العدات : جمع عدة ، بمعنى الوعد ، واقتضاؤها : طلب إنجازها (م)
(٣) الآدم : وصف من الأدمة ، وهى السمرة (م)

الشاعر يظهرُ أنه يذهبُ لمعنى فيعن له آخَر فيأتى به ، كأنه على غير قصد ، وعليه بناه ، وإليه كان مَعْزَاه[1] ، وقد أكثر المحدَثون منه فأحسنوا فى ذلك .

لإسحاق الموصلى

قال الأصمعى : كنت عند الرشيد فدخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلى فقال : أنشدنى من شعرك، فأنشده :

وآمرةٍ بالبُخْل قلت لها : اقْصِرِى ... فليس إلى ما تأمرينَ سبيلُ

أرى الناسَ خُلاَّنَ الجوادِ، ولا أرى ... بخيلاً له فى العالَمين خَليلُ

ومِنْ خير حالاتِ الفتى لو علمتِهِ ... إذا نال شيئاً أن يكونَ منيل

فَعالى فعالُ المُكْثِرِين تجمُّلا ... ومالى كما قد تعلمين قَليـــلُ

وكيف أخافُ الفقرَ أو أُحرمُ الغنى ... ورَأْىُ أمير المؤمنين جميــلُ

فقال الرشيد : يا فضل ؛ أعطه عشرين ألف درهم . ثم قال : لله أبيات تأتينا بها يا إسحاق ما أتْقن أصولها ، وأبين فصولها، وأقل فضولها ! فقال : والله يا أمير المؤمنين ؛ لا قبلتُ منها درهما واحدا . قال : ولم ؟ قال : لأن كلامك ، والله ، خيرٌ من شعرى . فقال : يافضل ؛ ادفع إليه أربعين ألفاً . قال الأصمعى : فعلمت أنه أصيد لدراهم الملوك منى .

لأبى تمام يصف فرسا

ومن ذلك[2] قول أبى تمام يصف فرسا :

وسابحٍ هَطِلِ التَّعْدَاء هَتّانِ ... على الجِرَاء أمينٍ غير خَوّانِ

أظمى الفُصوص ولم تَظمأْ قوائمهُ ... فَخَلِّ عَيْنَيك فى رَيّانَ ظمآن

فلو تراهُ مُشيحاً والحصى زِيَمٌ ... بين السنابك من مَثْنى ووُحْدَانِ

أيقنت ـ إن لم تثبَّت ـ أنَّ حافِرَهُ ... من صَخْر تَدْمُرَ أو من وَجْهِ عثمانِ

وقد احتذى البحترى هـذا الحذْوَ فى حمدَويْه الأحول ،وكان حمدويه هذا عدوا للممدوح ، فقال :

---

(١) معزاه ـ بالعين المهملة ـ اعتزاؤه : أى انتسابه ، وفى نسخة «مغزاه» بالغين المعجمه (م) (٢) أى من الاستطراد (م)

البحترى

وأغرَّ فى الزمن البهيم مُحَجَّل ... قد رُحْتُ منه على أغرَّ مُحَجَّلِ

كالهيكلِ المبنىِّ إلاَّ أنهُ ... فى الُحسْنِ جاء كصورةٍ فى هَيْكلِ

مَلَكَ العيونَ ؛ فإن بَدا أعطينهُ ... نظر المحبِّ إلى الحبيب المقبلِ

ما إنْ يعافُ قذًى ولو أوردْتَهُ ... يوماً خلائقَ حَمْدَوَيْه الأحْولِ

وفى قصيدته هـذه يحكى أن البحترى قال له أصحابه : إنك ستُعاب بهذا البيت ؛ لأنك سرقته من أبى تمام ، قال : أعاب من أخذى من أبى[1] تمام ؟! والله ما قلتُ شعراً قط إلا بعد أن أحضرت شعره فى فكرى ، قال : وأسقط البيت بعد ، فلا يوجد فى أكثر النسخ .

[سَبْقُ المتقدمين إلى الاستطراد]

الفرزدق

وهذا معنى قد أعجَب المُحْدَثين ، وتخيَّلوا أنهم لم يُسْبَقُوا إليه ، وقد تقدّم لمن قبلهم ، قال الفرزدق :

كأن فِقَاحَ الأزد حولَ ابن مِسْمَع ... إذا جلسوا أفواهُ بكْرِ بن وائلِ

لجرير

قال الحاتمى : وأتى جرير بهذا النوع لحثا[2] فى وَجْهِ السابق إلى هذا المعنى فضلا عمن تلاه ؛ فإنهُ استطرد فى بيتٍ واحد ، فهجا فيه ثلاثة ، فقال :

لما وضعت على الفرزدق مِيسَمِى ... وعلى البعيث جَدَعْتُ أنفَ الأخطل

وقيل هذا البيت مما يَرُد على الحاتمى ، وهو قوله :

أعددت للشعراء كأساً مُرّة ... فسقيت آخرهم بكأس الأولِ

السموأل مبتكر الاستطراد

قال أبو إسحاق : وأوَّل من ابتكره السموءل بن عادياء اليهودى ، وكل أحد تابع له فقال :

وإنّا أُناسٌ لا نرى القَتْلَ سُبّةً ... إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسلولُ

يقرّب حبُّ الموتِ آجالنَا لنا ... وتكرهُه آجالُهم فتطولُ

---

(١) فى نسخة «أعاب على أحد أخذى من أبى تمام ؟» (م)

(٢) حثا التراب يحثوه ويحثيه ـ مثل دعاه يدعوه ورماه يرميه ـ قبض قبضة منه ورماه به (م)

لطرفة بن العبد البكرى

وقد قال طرفة فى هذا المعنى :

فلو شاء ربى كنت قيسَ بن خالد ولو شاء ربى كنت عَمْرَو بن مَرْثَدِ
فأصبحتُ ذا مالٍ كثير ، وعادنى بَنُونَ كِرَامٌ سادةٌ لمسَوَّدِ

قيس بن خالد: ذو الجدَّين الشيبانى . وعمرو بن مَرْثد: سيد بنى قيس بن ثعلبة ، فدعا [عمرو] طرفة لما بلغه ذلك ، فقال : أما البنون فإن الله يعطيك ، ولكن لا تَرِيمُ حتى تكون من أوسطنا حالا ؛ وأمر بنيه وكانوا عشرة ، فدفع إليه كلُّ واحد منهم عشراً من الإبل ؛ فانصرف بمائة ناقة .

ابن عبدل وابن بشر بن مروان

وكان ابن عَبْدَل منقطعاً إلى عبد الله بن بشر بن مروان[1] ، فتأخر عنه برُّه ، وغاب أياما ، ثم أتاه فسأله عن غَيْبَته ، فقال : خطبتُ ابنةَ عم لى بالسواد ، فزَعَمَتْ أنَّ لها ديوناً وأَسْلافا[2] هناك ، وأنى إذا جمعتها لها صارت إلى محبتى، ففعلت ذلك ، فلما استنجزتها كتبت إلىّ :

سَيُخْطِئُك الذى أمّلْتَ منِّى إذا انتقضت عليك قُوَى حِبَالى
كما أخطاك معروفُ ابنِ بشر وكنت تَعُدُّ ذلك رأْسَ مالِ[3]

فقال : ما أحسن ما ألطفت بالسؤال ! وأجْزل صِلَته .

لبشار بن برد

ومن بديع هذا الباب قول بشار بن برد :

خليلىّ من كَعْبٍ أعينا أخاكما على دَهْرِه ؛ إن الكريمَ مُعِينُ
ولاَ تبْخلاَ بُخْلَ ابن قَزْعَة ؛ إنهُ مخافةَ أنْ يُرجى نَدَاه حزينُ
إذا جئتَه فى حاجةٍ سدَّ بابَهُ فلم تَلْقَه إلاَّ وأنتَ كمِين
فقل لأبى يحيى متى تبلغ العُلاَ وفى كل معروفٍ عليك يمين

لبكر بن النطاح

وقال بكر بن النطاح يمدح مالكَ بن طَوْق :

(١) وردت هذه القصة فى ذيل الأمالى (٤٦) وذكر أنها بين ابن عبدل ومعروف ابن بشر (م) (٢) فى الذيل « فأرسلت إلى أن لى أشاوى على الناس وديونا . » والأشاوى : جمع أشياء التى هى جمع شىء (م) (٣) فى الذيل « وكنت تعده لك رأس مال » (م)

عَرَضْتُ عليها ما أرادَتْ من المُنَى ... لترضَى فقالت:قم فَجِئْنِي بكوكبِ
فقلت لهـــا : هذا التعنّتُ كلهُ ... كمن يشتهى لحمَ عنقاء مُغْربِ
سَـــلِى كلّ أمرٍ يستقيمُ طِلاَبهُ ... ولا تذهبى يا درّ فى كلّ مَذْهَبِ
فأقسمُ لو أصبحت فى عزّ مالك ... وقُدْرَتِه ما رام ذَلك مطلبى
فتًى شقِيَتْ أموالُه بسماحِهِ ... كما شقِيَتْ قيسٌ بأرماح تغلبِ

واعتذر رجـلٌ إلى رجل بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله فلم يُقْبَلْ عذره ، فقال عبد الأعلى : أماَ والله لئن كان احتمل إثمَ الـكذب ودناءته ، وخضوعَ الاعتذارِ وذِلَّته ، فعاقبته على الذَّنْب الذاهب ، ولم تشكر له إنابة التائب ، إنك لمن يُسىء ولا يُحسن .

الحطيئة

وقال الحطيئة :

يَسُوسُونَ أحلاماً بعيـــداً أناتُهاَ ... و إن غضِبوا جاء الحفيظة والجِـدُّ
أقلُّوا عليهـــم لا أبا لأبيكمُ ... من اللومِ أوسُدُّوا المكان الذى سَدُّوا
أُولئــك قوم إنْ بَنَوْا أحسنوا البناَ ... و إن وعدوا أوفوا و إن عقدوا شدُّوا
و إن كانت النعْماء فيهم جَزَوْا بها ... و إن أنعموالاَ كدّروها ولا كدُّوا[1]
و إن قال مولاهم على جُـلّ حادث ... من الدهر رُدوا فضل أحلامكم رَدُّوا
و يعذلنى أبناء سَعْدٍ عليهـــمُ ... وما قُلْتُ إلا بالذِى عَلِمَتْ سَـعْدُ[2]

[شاعر باهلى فى حضرة الرشيد]

وَوَصَلَ سعيدُ بن سَـلْم إلى الرشيد شاعراً باهليًّا ، فأنشده قصيدةً حسنة ، فاستَرابَهُ الرشيد،وقال : أسمعك مستحسِنا ، وأنكرك متَّهِما[3]؛فإن كنتَ صاحب هذا الشعر فقُلْ فى هذين ، وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا جالسين .

---

(١) يروى « النعما عليهم جزوابها » (م)

(٢) ويروى «وقدلامنى أفناءسعدعليهم» (م) (٣) فى نسخة « وأكرمك متهما»(م)

فقال : يا أمير المؤمنين ، حملتني على غير الجدد : هَيْبة الخلافة ، ووَحْشَة الغُرْبة ، ورَوْعَة المفاجأة ، وجلالة المقام ، وصعوبة البديهة ، وشرود القوافي ، على غير الروِيَّة ، فليُمْهِلْني أميرُ المؤمنين حتى يتألَّفَ نافرُ القول .

فقال الرشيد : لا عليك ألاَّ تقول ؛ قد جعلت اعتذارك عِوَض امتحانك .

فقال : يا أميرَ المؤمنين ؛ نفَّسْتَ الخناق ، وسهَّلْتَ ميدان السباق ، ثم قال :

بنيتَ بعبـــد الله بعد محمـد ذُرَى قُبَّةِ الإسلام فاخْضَرَّ عودُها
هما طُنُبَاها بارَكَ الله فيهمـــا وأنت ـ أمـــيرَ المؤمنينَ ـ عمودُها

فقال الرشيد : وأنت بارك الله فيك ، سَلْ ولا تكن مسألتك دون إحسانك

فقال : الهنيدة يا أمير المؤمنين[1] ! فأمر له بها ، وبِخِلعٍ نفيسة ، وصِلَةٍ جزيلة .

[كاتب الحجاج عند سليمان بن عبد الملك]

دخل يزيدُ بن أبي مُسْلم كاتبُ الحجاج على سليمانَ بن عبد الملك ، فازْدَرَاه وَنَبَتْ عينهُ عنه ، فقال : ما رأَتْ عيني كاليوم قطّ ، لعن الله امرأً أجرَّك رَسَنَه ، وحكّمك في أمره . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، لا تَقُلْ ذلك ؛ فإنك رأيتَني والأمرُ عني مُدْبِر ، وعليـــك مُقْبِل ؛ فلو رأيتني والأمر عليَّ مقبل ، وعنك مُدْبِر ، لاستعظمتَ مني ما استصغرتَ ، واستكبرتَ ما استقلَلْتَ .

قال : عزمت عليك يابْنَ أبي مُسلم لتخبرنّي عن الحجاج ، أتراه يَهْوِي في جهنم أم قد قرَّ بها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تَقُلْ هذا في الحجاج ، وقد بذل لكم النصيحةَ ، وأمَّن دولتكم ، وأخاف عدوَّكم ، وكأني به يوم القيامة وهو عن يمين أبيك ، ويَسار أخيك ، فاجعله حيثُ شئت .

فقال له سليمان : اعزُبْ[2] إلى لعنة الله ! فخرج ، فالتفت سليمانُ إلى جلسائه

---

(١) الهنيدة ـ بزنة التصغير ـ اسم للمائة من الإبل (م) (٢) اعزب : ابعد (م)

فقال : قاتله الله ! ما أحسنَ بديهتَهُ، وترفيعه لنفسه ولصاحبه ! وقد أحسن المكافأة في الصنيعة ، خَلُّوا عنه .

[من أدب إبراهيم بن العباس الموصلى]

قال إبراهيم بن العباس الموصلى : والله ما اتَّكَلْتُ فى مكاتبةٍ قط إلاّ على ما يجلبه خاطرى ، وَيجِيشُ به صَدْرِى ، إلاّ قولى فى فصل : وصار ما كان يُحْرِزُهم يُبْرِزهم ، وما كان يعقلهم يعتقلهم . وقولى فى رسالة أخرى : «فأنزلوه من معقل إلى عُقَّال ، و بدّلوه آجالا بآمال» ، فإنى ألمت فى هذا بقول الصريع[1] :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ ... كأنه أجَـلٌ يَسْعَى إلى أملِ

وفى المعنى الأول يقول أبو تمام :

فإن يَبْنِ حيطاناً عليـــه فإنما ... أولئك عُقَّالاته لا مَعَاقلُه

وكان يقول: ماتمنّيت كلامَ أحدٍ أن يكون لى إلاّ قولَ عبدالحميد بن يحيى :

الناس أصنافٌ متباينون ، وأطوار متفاوتون ، منهم عِلْق مضنّة لا يُبَاع ، وغل مظنَّة لا يُبْتَاع .

ورد كتاب بعض الـكتاب إلى إبراهيم بن العباس بذم رجل ومدح آخر ؛ فوقّع فى كتابه : إذا كان للمحسن من الجزاء ما يُقْنِعهُ ، وللمسيء من النَّكال ما يَقْمَعه ، بَذَلَ المحسن الواجبَ عليه رغبة ، وانقاد المسىء للحق رهبةً . فوثب الناس يقبّلون يده .

ووقع لرجل مَتّ إليه بحُرْمة : تقدمت بحرمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ، أقوم بواجبها ، وأرْعاها من جميع جوانبها .

و إبراهيم بن العباس هو القائل :

لنا إبلٌ كُومٌ يَضيق بها الفَضا ... وتَغْبَرُّ منهـــا أرْضُها وسماؤُها

(١) الصريع : صريع الغوانى ، وهو مسلم بن الوليد ، وقد مضت له أبيات منها هذا البيت (انظر ص ١٠٢٤ من هذا الـكتاب)

فمن دونهـا أن تستباح دماؤُنا ومن دوننا أن يُستذمّ دماؤها[1]
حمًى وقِرًى فالموتُ دون مرامها وأيسَرُ خَطْب يوم حُقّ فناؤها

وقال الصولى : وجدت بخط عبــد الله بن أبى سعيد إبراهيم بن العباس أنشده لنفسه :

وعلّمْتَنِى كيف الهـوى وجهلتهُ وعَلّمَكُمْ صَبْرِى على ظلمكم ظلمى
وأعلم مالى عنـدكم فيردّنى هَوَاىَ إلى جَهْلى فأرجع عن عِلْمى

فقلت : أسبقك إلى هذا أحد ؟ فقال : العباس بن الأحنف بقوله :

تجنّبَ يَرْتادُ السلوّ فلم يَجِدْ له عنك فى الأرض العريضة مَذْهَبا
فعاد إلى أنْ راجع الوَصْلَ صاغراً وعاد إلى ما تشتهين وأعْتَبا[2]

قال الصولى : وأظن أنّ ابن أبى سعيد غلط فى هذه الرواية ؛ لأن الأشبه بقول ابن العباس : « فعاد إلى أن راجع الوصل صاغرا » قوله :

كم قد تجرعت من غَيْظ ومن حَزَنٍ إذا تجدّد حُزْنٌ هوّنَ الماضى
وكم سخِطت وما باليتمُ سَخَطى حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضى

وأنشد له :

لمن لا أرى أعرضتُ عن كلّ من أرى وصِرْتُ على قلبى رقيباً لقاتله
أُدافِعهُ عن سَلْوَةٍ وأردّهُ حياءً إلىَ أوصابه وبَلابله

وقال فى هذا النحو :

وأنتِ هوى النفسِ من بينهم وأنت الحبيبُ وأنت المطاعْ
وما بك إنْ بَعُدوا وَحْدَةٌ ولا معهم إنْ بعدتِ اجتماعْ

وقال الطائى :

إذا جئْتَ لم أحْزَنْ لبُعْدِ مفارقٍ وإن غِبْتَ لم أفرح بقُرْبِ مقيم

---

(١) فى نسخة «أن تستدام دماؤها » (م)
(٢) أعتبا : فعل ما يزول معه العتب (م)

فياليتنى أفديك من غُرْبَةِ النوى   بكلِّ أخٍ لى واصـــلٍ وحميم

وأصل هذا من قول مالك بن مِسْمَع للأحنف بن قيس : « ما أشتاق للغائب إذا حَضَرْتَ ، ولا أنتفع بالحاضر إذا غِبْتَ » .

وقال إبراهيم بن العباس :

تدانَتْ بقومٍ عن تَنَاء زيارةٌ   وشطَّ بليلى عن دنوٍّ مَزَارها[1]

وإنّ مُقِيماتٍ بمنعرج اللِّوى   لأقربُ من ليلى وهاتيك دَارُها

وليلَى كمثل النارِ ينفعُ ضوءها   بعيداً نَأَى عنها ويُحرِقُ جَارُها

كأنه نظر إلى قول النَّظار الفَقْعَسِيِّ :

يقولون هذى أُمُّ عمرٍو قريبةٌ   دَنَتْ بك أرْضٌ نحوها وسماء

ألا إنما بُعْدُ الخليـــلِ وقُرْبُهُ   إذا هو لم يُوصَلْ إليـــه سواء

وقوله : « وليلى كمثل النار » كقول العباس بن الأحنف :

أحْرَم منكم بمـــا أقول وقد   نال بهِ العاشقون مَنْ عَشِقُوا

صِرْتُ كأنّى ذُبَالةٌ نُصِبت   تُضِيءُ لِلنّاسِ وَهْيَ تَحْـتَرِق

وقال إبراهيم بن العباس :

أميل مع الصديق على ابن عمى   وآخُذُ للصديق من الشقيق

وإن ألفيتَنِى حُرًّا مُطَاعاً   فإنك وَاجدى عَبْدَ الصَّدِيق

أفرّق بين معروفى ومَنّى   وأَجْمَعُ بين مالى والحقوق

[رثاء مصلوب]

قال العقيلى يَرْثِى صديقا له أُخذ فى خربة[2] فقتل وصلب :

لعمرى لئن أصبحتَ فوق مشذّب   طويلٍ تُعَفِّيكَ الرياحُ مع القَطْرِ

---

(١) فى ديوان إبراهيم بن العباس « دنت بأناس » والتنائى : البعد ، وشط : بعد (م)

(٢) فى نسخة « أخذ فى جزية » وفى أخرى « فى خزية » (م)

لقد عشتَ مبسوطَ اليدين مرزّأً ... وعُوفيت عند الموت من ضَغْطَة القبرِ
وأفْلَتَّ من ضيقِ التراب وغَمِّه ... ولم تفقد الدنيا؛ فهل لكَ من شُكْرِ
فما تشتفى عيناى من دائِم البُكَى ... عليكَ، ولو أنى بكيتُ إلى الحشر
فطُوبَى لمن يبكى أخاه مُجَاهراً ... ولكننى أبكى لفقدك فى سِتْرِ

[كلام لا يحتمل الجواب]

وكتب محمد بن كثير إلى هارون الرشيد :

من محمد بن كثير إلى الرشيد

يا أمير المؤمنين؛ لولا حظ كرم الفعل فى مَطَالع السؤال، لألهى المطل قلوبَ الشاكرين، ولصرف عيونَ الناظرين إلى حسن المحبة، فأىّ الحالين يُبْعِدُ قولَك عن مجاز فعلك ؟

فقال هارون الرشيد : هذا الكلامُ لا يحتمل الجواب؛ إذ كان الإقرار به يمنعُ من الاحتجاج عليه .

[تعجيل الإحسان]

بين المأمون ويحيى بن أكثم

وقال يحيى بن أكثم للمأمون يذكر حاجةً له قد وعده بقضائها، واغفل ذلك :

أنتَ يا أمير المؤمنين أكرمُ من أن نعرِّضَ لك بالاستنجاز، ونقابلك بالادّكار، وأنت شاهدى على وَعْدِك، وأن تأمر بشىء لم تتقدّمْ أيامه، ولا يقدر زمانه، ونحن أضعفُ من أن يستولىَ علينا صبرُ انتظارِ نعمتك، وأنت الذى لا يؤوده[1] إحسان، ولا يُعْجِزُه كرَم؛ فعجِّل لنا يا أميرَ المؤمنين مايزيدك كرماً، وتزدادُ به نعما، ونتلقّاه بالشكر الدائم .

فاستحسن المأمون هذا الكلام، وأمر بقضاء حاجته .

للمأمون ورجل من بنى الدهاقين

قدم على المأمون رجلٌ من أبناء الدهاقين وعظمائهم، من أهل الشام، على عِدَة سلفَتْ له من المأمون[2]، من تَوْلِيته بلدَه، وأن يضمّ إليه مملكته، فطال على

(١) لا يؤوده : لا يعجزه ولا يضعفه (م) (٢) عدة : وعد ، وسلفت : مضت (م)

الرجل انتظارُ خروجِ أمرِ أميرِ المؤمنين بذلك ، فقصد عَمْرَو بن مسعدة وسأله إيصالَ رقعةٍ إلى المأمون من ناحيته ، فقال : اكتُبْ بما شئت فإنى مُوصِلُه ، قال : فتولَّ ذلك عنى ، حتى تكون لك نعمتان . فكتب عمرو :

إن رأى أميرُ المؤمنين أنْ يفكَّ أسْر عِدَته من رِبْقَة المطْلِ ، بقضاء حاجة عَبْدِهِ ، والإذْنِ له بالانصراف إلى بلده ، فعل مُوَفَّقاً .

فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عَمْراً ، وجعل يعجب من حُسن لفظها ، وإيجازِ المرادِ فيها ، فقال له عمرو : فما نتيجتُها يا أميرَ المؤمنين ؟ قال : الكتابة له فى هذا الوقت بما سأل : لئلا يتأخَّر فَضْلُ استحساننا كلامه ، وبجائزة تنفى دناءة المطل .

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظمُ الناسِ أجراً ، وأنْبَهُهُم ذِكراً ، من لم يرضَ بحياة العَدْلِ[1] فى دولته ، وظهور الحجَّة فى سلطانه ، وإيصال المنافع إلى رُعيَّته فى حياته ، حتى احتالَ فى تخليدِ ذلك فى الغابرين بعده ، عنايةً بالدين ، ورحمةً بالرَّعية ، وكفايةً لهم من ذلك مالو عنوا باستنباطه لكان يعرض أحد الأمرين ، إما الإكداء[2] عن إصابة الحق فيه لكثرة ما يعرض من الالتباس ، وإما إصابةُ الرأى بعد طول الفكر ، ومقاساةِ التجارب ، واستغلاق كثير من الطرق إلى دَرَكه ؛ وأسعد الرُّعَاةِ من دامت سعادةُ الحق فى أيامه ، وبعْدَ وفاتِه وانقرَاضِه .

[فضل الإيجاز]

وقال رجل لسويد بن مَنْجُوف ، وقد أطال الخطبة بكلام افتتحه للصلح بين قومٍ من العرب :

« يا هذا ؛ أتيت مرعًى غَيْرَ مَرْعَاك ، أفلا أدلُّك عليه ؟ قال : نعم . قال :

---

(١) فى نسخة «بموت العدل» (م)

(٢) فى نسخة «أما الكد» (م)

قل : « أما بعد ، فإنّ في الصلح بقاء الآجال ، وحفظ الأموال ، والسلام » .
فلما سمع القوم هذا الكلام تعانَقُوا وتواهبوا التِّرات[1]

[أبو مسلم]

قال عبدالله بن مسعود[2] : لما أُمِرَ أبو مسلم بمحاربة عبد الله بن على[3] دَخَلْتُ عليه فقلت : « أيها الأمير ، تريد عظيما من الأمر » ؟ قال : وما هو ؟ قلت : عم أمير المؤمنين وهو شيخُ قومه ، مع نَجْدَةٍ ، و بأس ، وحَزْم ، وحسن سياسة . فقال لى : يابن شبرمة ، أنت بحديثٍ تعلم معانيه ، وشِعْرٍ توضح قوافيه ، أَعلمُ منك بالحرب ؛ إن هذه دولة قد اطردَتْ أعلامها ، وامتدت أيامها ، فليس لمناوئها والطامِع فيها يدٌ تنيله شيئاً من الوثوب عليها ، فإذا ولَّت أيامها فدع الوزَغ بذَنَبه فيها .

قال بعض حكماء خراسان : لما بلغنى خروج أبى مسلم أتيتُ عَسْكَره لأنظر إلى تدبيره وهيبته ، فأقمت فيه أياماً ، فبلغنى عنه شدة عُجْب ، وكِبْرٌ ظاهر ، فظننت أنه تحلّى بذلك لعىّ فيه أراد أن يَسْتُرَه بالصَّمْتِ ، فتوصَّلت إليه بحيث أسمع كلامه ، وأغيب عن بصره ، فسلمت فردَّ رداً جميلا ، وأمر بإدخال قوم يريد تنفيذَهم فى وجه من الوجوه ، وقد عقدوا لرجلٍ منهم لواء ، فنظر إليهم ساعة متأمِّلا لهم ، وقال : افهموا عنى وصيَّتى إياكم ؛ فإنها أجْدَى عليكم من أكثر تدبيركم ، وبالله توفيقكم . قالوا : نعم أيها السالار ، ومعناه السيد بالفارسية ، فسمعتُه يقول ، ومترجم يحكى كلامه بالفارسية لمن عبَّر له منهم بالعربية : « أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها سببُ الظَّفَر ، وأكثروا ذِكْرَ الضغائن فإنها تبعث على الإقدام ، والزموا الطاعة فإنها حِصْنُ المحارب ، وعليكم بعصبيَّةِ الأشراف ، ودعُوا عصبية الدناءة ؛ فإن الأشرافَ تظهر بأفعالها ، والدناءة بأقْوَالها » .

---

(١) الترات : جمع ترة ، وهى ـ بوزن عدة ـ الثأر (م)
(٢) فى نسخة «عبدالله بن شبرمة» (م) (٣) خرج عبد الله بن على حين مات السفاح وولى الخلافة أبو جعفر المنصور فى سنة ١٣٧ .

من أوصاف أبي مسلم

وذكر إدريس بن معقل أبا مسلم فقال : بمثل أبي مسلم يُدْرَكُ ثار ، ويُنفى عار ، ويُؤكد عَهْد ، ويُبرم عقد ، و يسهّل وَعْر ، ويُخاض غَمْرٌ ، ويُقلع ناب ، ويُفتح باب .

[حساب]

وقال رجلٌ لأبي جعفر المنصور : أيْنَ ما تُحُدِّثَ به في أيام بني أمية ؟ إنَّ الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين ، ولم تعامل بالعدل في الرعية ، وقسمة الفيء بالسويَّة ، صار عاقبةُ أمرها بَواراً ، وحاقَ بوُلاتها سوء العذاب .

قال : فتنفس ثم قال : قد كان ما تقولُ ، ولـكنا يا أخي استعجَلْنا الفانية على الباقية ، وكأن قد انقضَتْ هـذه الدار . فقال له الرجل : فانظر على أي حالة تنقضي .

وقال أبو الدوانيق وكان فصيحاً بليغاً : « عجباً لمن أصار عِلْمَه غرَضاً لسهام الخطايا ، وهو عارفٌ بسُرْعَةِ المنايا ، اللهم إنْ تقض للمسيئين[1] صَفْحاً فاجعلني منهم ، و إن تهَبْ للظالمين فسحاً فلا تحْرِمني مايتطوّل به المولى على أخَسّ عبيده » .

[من كلام الأحنف بن قيس]

الأحنف ابن قيس يصف العقل

سُئِل الأحنف بن قيس عن العقل ؟ فقال : رأس الأشياء ؛ فيه قوامُها ، و به تمامُها ؛ لأنه سراجُ ما بَطَن ، وملاك ما عَلَن ، وسائس الجسَدِ[2] ، وزينة كل أحد ، لا تستقيم الحياة إلا به ، ولا تدور الأمور إلا عليه .

ولما خطب زياد خطبته المشهورة قام الأحنف بن قيس ، فقال : الفرس بشَدِّه ، والسيف بحدِّه ، والمرء بجدِّه ، وقد بلغ بك جدك ما أرى ، و إنما الثناء بعد البلاء ، فإنا لا نُثْني حتى نبْلُو[3]

---

(١) في نسخة « إن تقض للمسلمين » (م) (٢) في نسخة « وسائس الجد » تطبيع (م) (٣) البلاء : الاختبار ، بلاه يبلوه : اختبره (م)

[مما كتبه ابن الزيات]

وكتب ابنُ الزيات عَهْدَ الواثق على مكة بحضرة المعتصم : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين قد قلّدك مكةَ وزمزم ، تُرَاثَ أبيك الأقدم ، وجدِّك الأكرم ، وركْضَةَ جبريل[1] ، وسُقْيَا إسماعيل ، وحَفْرَ عبد المطلب، وسِقَايَةَ العباس ؛ فعليك بتقوى الله تعالى ، والتوسعة على أهل بيته .

وكتب : لو لم يَكُنْ من فضل الشكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليه ، وزيادة منتظرة له ، ثم قال لمحمد بن رَباح : كيف ترى ؟ قال : كأنهما قرطان بينهما وَجْه حسن ، ومع ذلك ذكر ابن الزيات أمرَ الحَرَم بتعظيمٍ وتفخيم

ألفاظ لأهل العصر فى التهنئة بالحج ، وتفخيم [أمر] الحرم

و [تعظيم] أمر المناسك والمشاعر ، وما يتصل بها من الأدعية

قصدَ البيتَ العتيق ، والمَطَاف الكريم ، والملتزم النبيه ، والمستلَم النزيه . [وقف بالمُعَرَّفِ العظيم ، ووردَ زمزم والحَطِيم] . حَرَمُ الله الذى أوسعه للناس كرامة ، وجعله لهم مَثَابة[2] ، وللخليل خُطّة ، وللذبيح خُلّة ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم قِبْلَة ، ولأمته كَعْبة ، ودعا إليه حتى اتى من كل مكان سحيق ، وأسرع نحوه من كل فجّ عميق ، يعودُ عنه مَنْ وُفّق وقد قُبلت توبتُه ، وغُفِرت حَوْبَته[3] ، وسَعِدت سفرته ، وأنجحت أوْبَتُه ، وحُمِد سَعْيه ، وزكا حجُّه ، وتقبل عَجّه وثَجّه[4] . انصرف مولاى عن الحجّ الذى انتضى له عزَائمه ، وأنضى فيه رَوَاحله ، وأتعب نفسه بطلب راحتها ، وأنفق ذخائره بشراء سَعَة الجنة وساحتها ؛ فقد زكَتْ إن شاء الله تعالى أفعاله وتُقبِّلت أعماله ، وشكر سعيه ، وبلغ هديه .

---

(١) يروى أن جبريل — عليه السلام ! — ضرب بقدمه موضع بئر زمزم فأنبط الماء (م) (٢) مثابة : أى مكانا يعود إليه من خرج منه (م)

(٣) الحوبة — بالفتح — الذنب (م) (٤) العج : رفع الصوت بالتلبيه ، والثج : إراقة دم الهدى (م)

قد أسقطتَ عن ظَهْرِكَ الثقلَ العظيمَ ، وشهدتَ المَوْقِفَ الكريمَ ، ومحصت عن نفسك بالسّعْى من الفجّ العميق ، إلى البيت العتيق . حمداً لمن سهل عليك قضاء فريضة الحج ، ورُؤْيةَ المَشْعَرِ والمَقَام ، وبركةَ الأدعية والموسم ، وسعادةَ أفنية الحطيم وزمزم فصد أكْرَمَ المقاصد ، وشَهِدَ أشرفَ المشاهد ؛ فورد مَشَارِعَ الجنة ، وخيَّم بمنازل الرحمة . وقد جُمعت مواهب الله لديك : فالحجّ أديت فرضه ، وحَرَمُ اللهِ وَطِئْتَ أرضه ، والمقام الكريم قُمْتَه ، والحجر الأسود استَلَمْتَه ، وزُرْتَ قبرَ النبى صلى الله عليه وسلم مشافهاً لمشهده ، ومشاهداً لمسجده . ومباشرا باديه ومَحْضره ، وماشياً بين قبره ومنبره ، ومصليا عليه حيث صلّى ، ومتقرباً إليه بالقرابة العظمى ، وعدت وسَعْيُك مشكور ، وذَنْبُك مغفور ، وتجارتك رابحة ، والبركات عليك غَادية ورائحة . تَلَقّى اللهُ دعاءك بالإجابة ، واستغفارك بالرضا ، وأملك بالنُّجْح ، وجعل سَعْيَك مشكوراً ، وحجّك مبروراً . عرّفَ الله تعالى مولاى مناهجَ ما نواه ، وقَصَده وتوخّاه ، ما يسعده فى دنياه ، ويحمد عُقْبَاه .

[من شعر قَطَرى بن الفُجَاءة]

قال أبو حاتم : أتيت أبا عبيدة ومعى شعر عُرْوة بن الورد ، فقال لى : مامعك؟ قلت : شعر عروة ، قال : شعر فقير ، يحمله فقير ، ليقرأه على فقير ! قلت : ما معى [شعرٌ] غيره ؛ فأنشدنى أنت ما شئت ، فانشدنى :

يا رُبَّ ظِلِّ عُقابٍ قد وقَيْتُ بِهِ ... مُهْرِى من الشمس والأبطالُ تَجْتَلِدُ[1]

وربَّ يوم حَمى أرْعَيْتُ عَقْوته ... خَيْلِى اقتسارا وأطرافُ القَنا قِصَدُ[2]

ويوم لَهْو لأهل الخَفْضِ ظلّ بِهِ ... لَهْوِى اصْطِلاء الوغى وَنَارُه تقِدُ

(١) العقاب ، هنا : الراية ، وتجتلد : يجالد بعضها بعضا (م)

(٢) العقوة ــ بالفتح ــ الساحة والمحلة ، وقصد : جمع قصدة ــ بالكسر ــ وهى القطعة مما يكسر (م)

مُشَهَّراً مَوْقِفِى والحربُ كاشِفَةٌ … عنها القناعَ وبَحْرُ الموت يطَّرِدُ
ورب هاجِرة تَغْــلِى مراجلها … مخرتها بمَطايا غارةٍ تخِدُ[1]
تجْتَابُ أَوديةَ الأفزاع آمِنــةً … كأنها أُســد بصطادُها أسد
فإن أمُتْ حَتْفَ أنفى لا أمُتْ كمداً … على الطعان وقَصْرُ العاجزِ الكَمَدُ[2]
ولم أقل لم أساقِ الموت شاربَهُ … فى كأسه والمنايا شُرَّعٌ وُرُد

ثم قال : هذا والله هو الشعر ، لاما يتعلّون به من أشعار المخانيث.

والشعرُ لقَطَرى بن الفجاءة المازنى ، وكان يُكْنَى فى السلم أبا محمد ، وفى الحرب أبا نَعامَةِ ، وكان أطولَ الخوارج أياماً ، وأحدّم شوكة ، وكان شاعراً جواداً ، وهو القائل أيضاً :

لا يركنن أحد إلى الإحجامِ … يوم الوغى متهيّباً لِحمامِ
فلقد أرانى للرماح دريئَةً … من عن يمينى تارةً وأمامى
حتى خضَبْتُ بما تحدّر من دمى … أكنافَ سَرْجِى أو عِنانِ لجامى
ثم انصرفتُ وقد أصبت ولم أُصَب … جَذَعَ البصيرة قارِح الإقدام

[من جَيِّد المديح]

المسيب ابن علس

وقال المسيب بن علس :

تبيت الملــوك على عَتْبها … وشيبان إن غضبت تعتب
وكالشهد بالراح ألفاظُهــمْ … وأخــلاقُهم منهما أعذب
وكالمِســك تُرْبُ مقاماتهم … وتُرب أصــولهمُ أطيبُ

وقال آخر :

اذكر مجالس من بنى أســد … بَعُدُوا فحنَّ إليهــمُ القَلْبُ
الشرق منزلهم ، ومَنْزِلُنــا … غَرْبٌ ، وأين الشرقُ والغرب؟

---

(١) الهاجرة : الوقت نصف النهار ، ومخرتها : قطعتها ، وتخد : مضارع وخد فى سيره ، إذا أسرع (م) (٢) قصره كذا وقصاراه : أى غاية مايطلب (م)

من كل أبيضَ جُـلُّ زينته   مسكٌ أحمُّ وصارم عَضْبُ[١]
ومدجَّج يَسْعَى لغــارته   وعقـيرة بفنائه . تَحْبُو[٢]

آخر :

رأيتُكم بقيــة آل حَرْب   وهَضْبَتها التى فَوْقَ الهضَابِ
تُبَارون الرياحَ ندًى وجوداً   وتمتثلون أفعـالَ السحاب
مذكرنى مقامى اليــومَ فيكم   مقامى أمسِ فى ظـلِّ الشباب

[بين سعيد بن عبدالملك وسعيد بن حميد]

كتب سعيد بن عبد الملك إلى سعيد بن حميد :

أكره — أطال اللهُ بقاءك ! — أن أضعَك ونفسى موضع العُذْر والقبول ، فيكونَ أحدُنا معتـذِراً مقصِّراً ، والآخر قابلا متفضِّلا ، ولكن أذكر ما فى التلاقى من تجديد البرّ ، وفى التخلُّف من قلة الصبر ، وأسألُ الله تعالى أن يوفقك و إيانا لما يكونُ منه عقبى الشكر

فأجابه : وصل كتابُكَ — أكرمك الله تعالى ! — الحاضرُ سرورُه ، اللطيف موقِعُه ، الجميل صدوره ومَوْرِدُه ، الشاهدُ ظاهره على صِدْقِ باطنه ، ونحن — أعزّكَ الله — نجعل جزاءك حسن الاعتراف بفضلك ، ومجارانك التقصير دونك ؛ ونرى أن لا عُذْرَ فى التخلف عنك ، و إنْ حالت الأشغالُ بيننا وبينك . و إن كنتَ سامحت فى العذر قبل الاعتذار ، وسبَقْتَ إلى فضيلة الاغتفار ، فلا زلت على كلّ خير دليلا ، و إليه داعياً ، و به آمراً ؛ ولقد التقينا قبل وصولِ كتابك لقاء أحدث وطراً ، وهاج شَوْقاً ، وأرجو أن تتّسم لنا الجمعة بما ضاقت به الأيام ؛ فتنال حظًّا من محادثتك والأنس بك

---

(١) الصارم : السيف والعضب : القاطع ، وفى نسخة «وغارس هضب» (م)
(٢) فى نسخة «وعقيرة تنتابه يحبو» (م)

[منزلة سعيد بن حميد]

ولسعيد بن حميد حلاوةٌ فى منظومه ومنثوره ، لـكنه قليلُ الاختراع ، كثير الإغارة على مَنْ سبقه ؛ وكان يقال : لو رجع كلامُ كل أحد إلى صاحبه لبقى سعيد ابن حميد ساكتاً .

وفيه يقول أبو على البصير :

رَأسُ من يدعى البلاغة منى   ومن الناس ، كلهم فى حِرِأُمِّهْ
وأخونا ولست أكنى سعيد بـــن حميد تُؤَرخ الـكُتب باسمهْ

هذا المعنى ينظرُ إلى قول منصور الفقيه وإن لم يكن منه :

تَضيق به الدنيـا فينهضُ هاربا   إذا نحن قلنا : خـيرُنا الباذلُ السَّمحُ
فإن قيل : من هذا الشقى ؟ أقُلْ لهم   على شَرْطِ كتمان الحديث : هو الفَتحُ

وكان سعيدٌ يَهْوَى فضل الشاعرة ؛ فعزم مرة على سفر ، فقالت له :

كذَّبتَنِى الوُدَّ أن صافحتَ مرتحلا   كفَّ الفراقِ بكفٍّ الصبرِ والجلَدِ
لا تذكرنَّ الهوى والشوقَ لو فُجِعَتْ   بالشوق نفسُك لم تصبر على البُعُدِ

وكان سعيد عند بعض إخوانه ، فنهض منصرفا وأخذ بعضادَتَى الباب ، وأنشأ يقول :

سلامٌ عليـكم ، حالَتِ الـكأس بيننا   وولَّتْ بنـا عن كل مرأى ومَسْمَعِ
فلم يبقَ إلا أنْ يصافِحَنى الـكرَى   فيجمع سكراً بين جسمى ومَضْجعى

وقال [سعيد] :

أرَى ألسُنَ الشكوى إليك كليلةً   وفيهنَّ عن غـــير الثناء فُتُورُ(١)
تقيمُ على العَتْبِ الذى ليس نافعاً   وليس لهــا إلا إليك مَصِيرُ
وما أنتَ إلاَّ كالزمان تلوَّنَتْ   نوائبُ من أحــداثه وأمور
فإنْ قلَّ إنْصَافُ الزمانِ وجُودُه   فمن ذا على جَوْرِ الزمان يُجيرُ

***

(١) كليلة : ضعيفة متعبة ، وقوله « غير الثناء » وقع فى مكانه «عين الثناء» (م)

[من السرقات الشعرية]

أما قوله :

* تقيمُ على العَتْبِ الذى ليس نافعاً *

فمن قول المؤمّل :

لا تغضبنّ على قوم تحبّهمُ فليس منك عليهم ينفعُ الغَضَبُ
يا جائرين علينا فى حُكُومَتِهم والجَوْرُ أقبحُ ما يُؤْتَى ويُرْتَكَبُ
لسنا إلى غيركم منكم نفرّ إذا جُرتم، ولكن إليكم منكمُ الهرَبُ

وأول من نبّه على هذا المعنى النابغةُ الذبيانىُّ فى قوله للنعمان بن المنذر .

فإنكَ كالليلِ الذى هو مُدْرِكى وإن خِلْتُ أنّ المنتأَى عنك واسِع
خَطَاطِيفُ حُجْنٌ فى حبال متينة تمدُّ بها أيد إليك نَوازِع

سرقَه أشجع السُّلمى فقال لإدريس بن عبد الله بن الحسين بن على ، وقد بعث إليه الرشيد مَن اغْتَاله فى المغرب :

أتظنُّ يا إدريس أنك مُفْلِتٌ كَيْدَ الخلافة أو يقيك حِذَارُ
إنّ السيوفَ إذا انتضاها عَزْمُه طالتْ ، وتقصر دونها الأعمارُ
هيهات إلاّ أن تَحُلّ ببلدةٍ لا يهتدى فيها إليك نَهَارُ

وقال سَلْم الخاسر يعتذر إلى المهدى :

إنى أعز بخير الناسِ كلهمُ وأنت ذاك لما يأتى ويجتنبُ
وأنتَ كالدهرِ مبثوثا حبائِلُهُ والدهرُ لا مَلْجَأٌ منه ولا هرَبُ
ولو ملكتُ عِنانَ الريحِ أصرفهُ فى كل ناحيةٍ ما فاتكَ الطّلَبُ
فليس إلا انتظارى منك عارِفةً فيها من الخوفِ مَنجَاة ومُنْقلَب

وقول سَلْم :

* ولو ملكت عِنَان الريح أصرفه *

كأنه من قول الفرزدق للحجاج :

ولو حملَتْنِى الريح ثم طلَبْتَنِى ... لكنتُ كَشىءٍ أدركتْهُ مقادِرُهْ[1]

وقول على بن جبلة لحُميد الطوسى :

وما لامرئٍ حاوَلْتَه منك مهرَبٌ ... ولو رفعَتْه فى السماء المَطالِعُ

أخذه البحترى فقال :

سُلِبُوا وأشرقت الدماءُ عليهمُ ... محمرةً فكأنهم لم يُسْلَبوا

فلوَ أنّهم ركبوا الكواكب لم يكن ... ليجيرهم من حدِّ بأسك مهرَبُ

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى نحو قول النابغة :

وإنى وإن حدّثْتُ نفسى بأننى ... أفوتك إنّ الرأىَ منى لعازبُ

لأنك لى مثلُ المكان المحيط بى ... من الأرض لولا استنهضَتْنِى المذاهب

وأما قول سعيد : * وما أنت إلا كالزمان * والبيت الذى يليه ، فكأنه ألمّ فيه بقول شَمَعْل الثعلبى وإن لم يكن المعنى بنفسه :

أمِنْ جَذْبَةٍ بالرجل منى تباشرت ... عُدَاتى ، ولا عَتْبٌ علىّ ولا هجرُ

فإنّ أميرَ المؤمنين وفِعْلَهُ ... لكالدهر ، لا عارٌ بما صنعَ الدهْرُ

وقال رجل من طيئ وكان رجل منهم يقال له زيد من ولد عروة بن زيد الخيل قتَل رجلا اسمه زيد فأقاد منه السلطان ، فقال الطائى يفتخر على الأسديين :

علا زَيْدُنا يوم الحمى رَأْسَ زيدكم ... بأبيَضَ مشحوذ الغِرَار يَمَانِى[2]

فإن تقتلوا زيداً بزيد فإنما ... أقادكم السلطان بَعْدَ زَمَانِ

وقول الثعلبى مأخوذ من قول النابغة ، وهو أوّل من ابتكره :

وعيرَتْنِى بنو ذبيان خشيتَهُ ... وما علىّ بأن أخشاكَ مِنْ عارِ

---

(١) فى نسخة «وأن لو ركبت الريح» وفى نسخة أخرى «لكنت كشىء أدركته مقادره» (م) (٢) حفظى «بأبيض ماضى الشفرتين يمان» (م)

ومن جيد شعر سعيد بن حميد :

أهابُ وأستحيي وأرقب وعدَهُ   فـلا هو يبدأنى ولا أنا أسألُ
هو الشمسُ مجراها بعيدٌ وضوءها   قريبٌ ، وقلبى بالبعيـد موكَّلُ

وهذا المعنى و إن كان كثيراً مشهوراً فما يكادُ يدانَى فى الإحسانِ فيه .

وقد قال أبو عيينة :

غزَتْنِي جيوشُ الحبِّ من كل جانب   إذا حان من جُنْدٍ قفـولٌ غزَا جُنْدُ
أقول لأصحابى: هِيَ الشمسُ ضوءها   قريبٌ ، ولكن فى تناولِهـا بُعْدُ

وقال العباس بن الأحنف :

هى الشمسُ مسكَنُها فى السماء   فعَزِّ الفؤاد عَزَاءً جميـلا
فلَنْ تستطيع إليها الصعـودَ   ولنْ تستطيعَ إليكَ النزُولاَ

وقال البحترى :

دنوتَ تواضعاً وعَلَوْتَ قَدْراً   فشأناكَ انحـدارٌ وارتفاعُ
كذاك الشمس تبعد أن تدانى   ويَدْنُو الضوء منها والشـعاع

وقال ابن الرومى :

وذَخَرْتُه للدهر أعلمُ أنه   كالدهر فيـه لمن يؤول مَآلُ
ورأيتُه كالشمس إن هى لم تُنَلْ   فالنُّور منها والضـياءُ يُنال

وقال المتنبى :

بيضاءُ تُطمِعُ فيما تحت حُلَّتِها   وعَزَّ ذلك مطـلوباً لمن طلبَا
كأنها الشمسُ يُعْيِي كَفَّ قابِضِها   شُعاعها وتَرَاه العـينُ مقتربا

وقال سعيد بن حميد ، و يروى لفَضْل الشاعرة :

ما كنتُ أيام كنتِ راضيةً عنّى بذاك الرضـا بمغتبِطِ
علماً بأنّ الرضا سيتبَعُهُ منك التجنّى وكثرةُ السّخَطِ
فكلُّ ما ساءنى فمَنْ خُلُقٍ منك وما سرّنى فمَنْ غَلطِ

وفى هذا المعنى يقول أبو العباس الهاشمى من ولد عبدالصمد بن على، ويُعرَف بأبى العِبَر .

أبكى إذا غَضِبَتْ، حتى إذا رضِيَتْ بكيتُ عند الرضا خوفاً من الغضبِ
فالموت إنغَضِبَتْ، والموتُ إن رضِيتْ إن لم يُرِحْنِى سلوٌّ عشْتُ فى تعَبِ

وقال العباس بن الأحنف :

إذا رضيت لم يَهْنِنِى ذلكَ الرّضاَ لصحة علمى أن سيتبعه عَتْبُ
وأبكى إذاما أذْنَبَتْ خوف عَتْبِها فأسألها مرضاتَهَا ولها الذَّنْبُ
وصالكُم هجرٌ، وقربكُم قِلًى وعطفكُم صدٌّ وسَلْمُكُمُ حَرْبُ
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظةٌ وكلّ ذَلُولٍ من أموركم صَعْبُ(١)

وقال :

قد كنتُ أبكى وأنتِ راضيةٌ حِذَارَ هذا الصدود والغَضَبِ
إن تمّ ذا الهجرُ ياظَلوم ولا تمّ فمالى فى العيش من أرَبِ(٢)

وما أحسن قول القائل :

وما فى الأرض أشقى من محبّ وإن وجد الهوى حُلوَ المذاقِ
تَراهُ باكياً فى كل حين مخافةَ فُرْقَةٍ أو لاشتياق(٣)
فيبكى إن نَأَوْا حذراً عليهم ويبكى إن دَنَوْا خوفَ الفِرَاقِ

---

(١) ذلول : سهل القادة ، وصعب : أى يعسر قياده ، وأصله فى الخيل والإبل (م)
(٢) الأرب ـ بالتحريك ـ المقصد (م) (٣) يروى « فى كل حال » (م)

وتَسْخَنُ عينه عند التنائى   وتَسْخَنُ عينه عند التلاقِ

***

[الاقتباس من القرآن الكريم]

وقال سعيد بن حميد: إذا نزعْتُ فى كتابى[1] بآية من كتاب الله تعالى أرت إظلامه ، وزَيَّنتُ أحكامه ، وأعذبتُ كلامَه .

أمثال للعرب والعجم والعامة وما يماثلها من كتاب الله تعالى

[مما هو أجل منها وأعلى] أخرجها أبو منصور عبد الملك الثعالبى

قال علىّ رضى الله تعالى عنه : « القَتْل أنفى للقتل » ، وفى القرآن : « وَلَكُمْ فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولى الألْبَاب» .

والعربُ تقول لمن يعيّر غيره بما هو فيه : « عَيّر بُجَيْرٌ بُجَرَه ونَسى بُجَيْرٌ خَبَرَه[2] » ، وفى القرآن : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسىَ خَلْقَه » .

وفى معاودة العقوبة عند معاوَدَة الذنب : « إنْ عادت العَقْرَبُ عُدْنا لها » وفى القرآن : « و إن عُدْتم عُدْنا » . « و إن تَعُودوا نَعُدْ » .

وفى ذَوْق الجانى و بالَ أمره : «يدَاك أوْ كتَا ، وَفُوكَ نَفخ » . وفى القرآن: « ذلك بما قدّمت يَدَاك » .

وفى قُرْب الغد من اليوم قول الشاعر * وإن غداً لِنَاظِره قَرِيب * وفى القرآن : « أليسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب » .

وفى ظهور الأمر : « قد وضح الأمر لذى عَيْنَين » ، وفى القرآن : « الآنَ حَصْحَصَ الحَقّ » .

وفى الإساءة إلى من لا يقبل الإحسان : «أعطِ أخاك تمرة، فإن أبَى فَجَمْرَة».

---

(١) فى نسخة « إذا برعت فى كتابك » (م)

(٢) هذا مثل ، يضرب لمن يعير غيره بالذى هو فيه (م)

وفى القرآن : « ومنْ يَعْشُ عن ذِكْرِ الرحْمنِ نُقَيِّضْ لهُ شيطاناً فهُوَ لهُ قرِينٌ » .

وفى فَوْت الأمر : « سَبَقَ السَّيْفُ العَذَل » ، وفى القرآن العظيم : « قُضِيَ الأمْرُ الذى فيه تَسْتفْتِيَانِ » .

وفى الوصول إلى المراد ببَذْلِ الرغائب : « من ينكح الحسناء يُعْطِ مهْرَها » وفى القرآن : « لَنْ تَنالُوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » .

وفى منع الرجل مُرَاده :

* وَقَدْ حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزَوَانِ[1] *

وفى القرآن : « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْن ما يَشْتَهُونَ » .

وفى تَلافِي الإساءة : « عاد غيث على ماأفسد » ، وفى القرآن : « ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السيئة الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا » .

وفىالاختصاص: «كلمقام بمقال[2]» . وفىالقرآن «لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌ» .

العجم: « من أحترق كُدَسه تمنى إحراق أكداس الناس[3] »، وفى القرآن: « وَدُّوا لوْ تَكْفُرُونَ كما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً » .

العامة : « مَنْ حفر لأخيه بئْراً وَقَعَ فيها » ، وفىالقرآن : [ولا يَحِيقُ المكر السَّيِّء إلا بأهْلِهِ » .

ومن الشعر :

كل امرىء يشبهه فعله   ما يفعل المرء فهو أهله

وفى القرآن : « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شاكِلَتِهِ » .

العامة : « كل البقل ولا تسأل عن المَبْقَلَة » .

وفى القرآن : « لا تَسْأَلُوا عن أشْيَاء إن تُبْدَلكم تَسُؤكم » .

---

(١) هذا عجز بيت من كلام صخر بن عمرو أخى الخنساء ، من أبيات يقولها فى امرأته ، وصدره قوله :   * أهم بامر الحزم لو أستطيعه *   (م)

(٢) فى نسخة «وفى اختصاص كل مقام بمقال : لكل مقام مقال» (م)

(٣) الكدس ـ بوزن رطب أو بوزن جمل ـ الكومة من الطعام أو التمر أو الدراهم (م)

شعر :

كم مرةً حفَّت بك المَكَارِهْ خَارَ لكَ الله وأنتَ كارِهْ

وفى القرآن : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فيه خَيْرًا كثيراً » .
العامة : « المأمول خيرٌ من المأكول » ، وفى القرآن : « وللآخِرَةُ خيرٌ لكَ مِنَ الأُولى » . العامة : « لوكان فى اليوم خيرٌ ما سلّم علىّ الصياد » ، وفى القرآن : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خَيْرًا لأسمعهم » . المتنبي : *مصائِبُ قوم عند قوم فوَائد *
وفى القرآن : «وإنْ تُصِبْكُمْ سيئةٌ يَفْرَحُوا بهاَ» . *عند الخنازير تنفُق العذرة*
وفى القرآن : « الخَبِيثَاتُ لِلخَبِيثِينَ وَالخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ» . العجم : « لم يردِ الله بالنملة صلاحاً إذ أنبت لها جناحا » ، وفى القرآن : « حتى إذا فرحوا بمـا أُوتُوا أَخَذْنَاهم بغتة » . العامة : الكلب لا يَصِيد كارها ، وفى القرآن : « لا إكْرَاهَ فِى الدِّينِ » . العجم : « كل شاة تُناط برجلها » ، وفى القرآن : « كل نفس بما كسبت رهينة » .

جملة من مكاتبات [بعض] أهل العصر

أبو القاسم محمـد بن على الإسكافى عن الأمير نوح بن نصر وعن ابنه عبد الملك لأبى طاهر وشمـكير بن زياد يَشْـكرُه على حَميد سيرته :

مَنْ حمدناه ـ أعَزَّكَ اللهُ تعالى ـ من أعيان المِلَّةِ الذين بهم افتِخَارُها، وأعوانِ الدولة الذين بهم استظهارُها ، بخلَّة ينزع فيهامن خلالِ[1] الفضْل، وخصْلَة يكمل بهامن خصال العَدْل. وإنّك ـ أعزّك الله! ـ من نحمده بالارتقاء فى درَجِ الفضائل، والاستواء فى كلّ الشواكل ؛ فإنه ليس من مَحْمَدَة إلا وسهمُك فيها فائز ، [ولا من شدة إلا ومَهْلُك[2] فيها بارز] ، وذلك ـ أعزك الله تعالى! ـ أمرٌ قد أغنى صِدْقُ خبره عن العِيَانِ ، وكفى بيان أثره تكلّف الامتحان ، ولو أعطينا النفوسَ مُنَاها ،

(١) الخلة ـ بضم الخاء ـ الخصلة، وجمعها خلال (م)

(٢) المهل ـ بالفتح وبحمل ـ العمل بسكينة ورفق وغير عجلة، وهو أيضا التؤدة والرفق (م)

وسوّغناها هَواهاَ ، لأوردنا عليك فى ذرور[1] كلِّ شارقٍ جديدَ شُكر ، وجدّدنا لك مع اعتراض كل خاطر جميلَ ذِكر ، لكنا للعادة فى تَرْكِ الهوى ، والثقة بأنك مع صالح آدابك تحلّ الأدنى من الإحماد محلّ الأوفى ، فيُقضى لك بأنه ــ وإن عظم قدرُه ــ يسير العدد ، وعلى ماهو ــ وإن تناهى لفظُه ــ باقى الفَخْر مدى الأبدَ ، وكان مما اقتضانا الآن تناولك به أخبارٌ تواترت ، وأقوال تظاهرت ، بإطباق سكان الحَضْرة ونيسابور من أهل عملك على شُكرٍ ما يتزيّد لهم وفيهم من موادّ عدلك،وحسن فَضْلك ، حتى لقد ظلّوا ولهم فى شكر ذلك محافل تُنعقَد، ومشاهد تشْهد ، يعجب بها السامعُ والرائى ، ويقترنُ بها المؤمنُ والداعى ؛ فإن هذا ــ أعزّك الله ــ حال يطيب مَسْمَعه ، ويلذّ موقعه ، حتى لقد ملأ القلوبَ بَهجاً ، والصدور ثلجاً ، حتى استفزّها فَرْطُ الارتياح ، وصِدْقُ الانشراح ، إلى هذا الكتاب أن أعجلناه ، وهذا الشكر أن أجزلناه . بعد ذكرٍ لك اتصل كل الاتصال ، وأجمل كل الإجمال، وتضاعف به حظّك من الرأى أضعافاً ، وأشرف محلك على كل المحال إشرافاً ، ونحن نهنيك ــ أعزك الله ــ على التوفيق الذى قسمَه اللهُ لك ، والتيسير الذى وكلَه بك ، ونبعثك على استدامتها بصالح النية ، و بصادق البغية ، لتدنوَ من العدل على ما ترعى ، وتحسن الهَدْى فيما تتولّى . فرأيك أبقاك الله تعالى فى إحلال ذلك محله من استبشار به تستكمله ، واستثمار له تعجّله [إن شاء الله تعالى] .

وكتب إليه يعزيه : « إن أحقّ من سلّم لأمر الله تعالى ورضى بقَدَرِه ، حتى يُمَحّصَ مصطنعا[2] ، ويَخلصَ مُصْطَبرا ، وحتى يكون بحيث أمر الله من الشكر إذا وَهب ، والرضا إذا سَلب ، أنت أعزك الله تعالى؛ لمحلّك من الشكر والحِجَا ، وحظك من الصبر والنُّهى ، ثم لِماَ ترجعُ إليه من ثبات الجَنان[3] عند النازلة ،

---

(١) ذرور : طلوع ، وأراد من كل شارق الشمس ، يعنى فى طلوع كل يوم (م)

(٢) فى نسخة «حتى يمضى مصطنعا» (م) (٣) الجنان ــ بوزن السحاب ــ العقل (م)

وقوة الأركان لعزّ الدولة الفاضلة ، فإنّ لك فيهـا وفى سَهْمِك الفائز ، ومَهَلِك البارز ، عِوَضا عن كل مَرْزوء ، ودَرَكاً لكل مَرْجُوّ ، ونسأل الله أن يجعلك من الشاكرين لِفَضْله إذا أبلى ، والصابرين لحكمه إذا ابْتَلى (١) ، وأن يجعل لك لا بِكَ التعزية ، ويقيك فى نفسك وفى ذَويك الرزيّة ، بمنه وقدرته .

وله إليه : ترامى إلينا خَبَرُ مُصابك بفلان؛ فخلص إلينا من الاغتمام به ما يحصل فى مثله ممّن أطاع ووَفى ، وخدم ووالى ، وعلمنا أن لفقدك مثله لَوْعةً ، وللمصاب به لَذْعة ؛ فآثرنا كتابنا هذا إليك فى تعزيتك، على يقيننا بأنّ عقلك يُغنِى عن عِظَتِك ، ويهدى إلى الأوْلَى بشيمتك ، والأزيد فى رُتبتك ، فَلْيُحْسُنْ ـ أعزك الله ـ صبرُكَ على ما أخذه منك ، وشكرُك على ما أبقى لك ، وليتمكّن فى نفسك ما وفّر لك من ثوابِ الصابرين ، وأجزل من ذُخْر المحسنين ، وليَرِدْ كتابك بما ألهمك الله تعالى من عزاء ، وأبلاكَه (١) من جميل بَلاء، إن شاء الله تعالى

وله إليه جواب : وصل كتابُك ـ أعزك الله تعالى ـ مفتتَحا بالتعزية عن فلان، و بوَصْفِ توجّعك للمصيبة ، ونحن نحمدُ الله تعالى الذى يُنْعِم فضلا، ويَحْكُمُ عَدْلا ، ويَهَبُ إحسانا ، ويسلب امتحانا ، على مَجارى قضيّته كيف جَرَتْ آخذة ومعطية ، ومَوَاقع مشيئته كيف مضت سـارّة ومسيئة ، حَمْدَ عالمين أن لا حكم إلا له ، ولا حولَ إلا به ، ومستمسكين بما أمر به عند المساءة من الصبر ، والمسرة من الشكر ، راجين ما أعده الله من الثواب للصابرين ، والمزيد للشاكرين . وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل وإليه ننيب (٢) ، وأما وَحْشَتُك ـ أعزك الله ـ للحادث على الماضى ، عفا الله عنه ، فمثلُك من ذَوى الصفاء والوفاء اختصّ بذلك واهتمّ له ، وعرف مثلَه فاغتمّ به ؛ فإن الطاعة نسبٌ بين أوليائها ، والنعمة سبب بين أبنائها،

---

(١) أبلى : أعطى ، وابتلى : اختبر وامتحن ، والاسم البلاء (م)

(٢) إليه ننيب : إليه نرجع (م)

فلا عجب أنْ يمسك فى هذا العارض ما يمسُّ أولى المشاركة ، و يخصك من الاهتمام ما خص ذوى المشابكة .

وله إليه أيضاً فى أمر غزاة : ورد خَبَرُكَ أكرمَكَ الله تعالى بنفوذك لوجهك فيمن جمعهم اللهُ تعالى للسَّعْيِ فى سبيله إلى جملتك ؛ فأمَّلنا أن يكون ذلك موصولا بأعظَم الخيرة ، مؤدّيا إلى أحسن العُقبة . إلا أنَّا أحسسنا من الغُزَاة الذين بهم تعتضد ، و إيّاهم تستنجد ، فُتُورَ نيَّات ، وفساد طَوِيَّات ؛ وهذا كما علمت بابٌ عظيم يجبُ الاطلاع بالفكر والرأى عليه ، والاحتراس بالجدّ والجهد من الخَطَل فيه . [فسبيلُك أن تتأمَّل أمركَ بعين استقصاء العَوْرَةِ ، واستدراكَ الآخرة] ، فإن أنتَ وجدت فى عدتك تمامَ القدرة ، وفى عُدّتك مقدار الكفاية ، ولم تَجِدْ نيات أولئك الغُزَاة مَدْخُولة ، ولا عُرَامِ مَحْلُولة[1] ، استخرت الله تعالى فى المسير بكلّ ما تقدرُ عليه من الحَزْمِ فى أمرك ، ثم إن تكن الأخرى ، وكان القوم على ما ذكرت من كَلال البصائر ، وضَعْفِ المرائر[2] ، عملت على التلوّم لحديثٍ يحدّثك به كتابُنا هذا إن اجتليت ما ذكرته ، و إن لم تبلغ بلاغة ما اخترته ، فاعتلق بذَيْله[3] .

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة القزوينية

وهذه المقامة من إنشاء البديع ، قال عيسى بن هشام : غزَوْتَ الثغر بقَزْوِين سنة خمس وسبعين ، فما اجتزنا حَزْناً ، إلاّ هبطنا بَطنا ، حتى وقف بنا المسيرُ على بعض قُرَاها ، فمالت الهاجِرة بنا إلى ظِل أثلاَثٍ فى حِجْرِها عين كلسان الشَّمْعَة ، أصفى من الدمعة ، تسيح فى الرَّضْرَاض ، سيح النَّضْنَاض[4] ؛ فَنِلنا من المأكل ما نلنا ، ثم ملنا إلى الظل فقِلْنا ؛ فما ملَكَنا النومُ حتى سمِعْنا صوتاً أنكرَ من صوتِ الحمار ، ورَجْعاً أضعفَ من رَجْع الحُوارِ ، يَشْفَعُهما صَوْتُ طَبْلٍ كأنه خارج

(١) العرى: جمع عروة، وأصلها أخت الزر من الثوب، ويشبه به البنك من الناس (م)

(٢) الكلال : الضعف ، والبصائر : جمع بصيرة ، وهى العقل والفطنة ، والمرائر : جمع مريرة وهى العزمة ، وأصلها مالطف وطال واشتد فتله من الحبال (م)

(٣) اعتلق بذيله : تمسك به (م)

(٤) الرضراض : الحصى ، والنضناض : الحية التى تتلوى دائما (م)

من ماسِفَىْ أسد ؛ فذَادَ عن[1] القوم رَائد النوم ، وفتحت العيون إليه وقدحالت الأشجار دونه ، وأصغيتُ فإذا هو يقول على إيقاع صوت الطّبل :

أدعو إلى الله فهل من مُجيبْ	إلى ذَرًى رَحْبٍ وعَيْشٍ خصيبْ
وجنّةٍ عاليـــةٍ ما تَني	قطوفُها دانيــةً ما تَغيبْ[2]
يا قومُ إنى رجـــلٌ تائبٌ	من بَلدِ الكُفر وأمرى عَجيبْ[3]
إنْ أكُ آمَنْتُ فـكم ليـلةٍ	جَحَدْتُ فيها وعَبَدْتُ الصّليب
يارُبَّ خِـــنزيرٍ تمشَّشتهُ	ومُنْكرٍ أحرَزْتُ منه النَّصيب[4]
ثمّ هـــدانِي اللهُ، وانتَاشَنِي	من زَلّةِ الكُفر اجتهادُ المُصيب[5]
فظلْت أُخْفِي الدِّين فى أُسْرتى	وأعبـــدُ الله بقَلْب مُنِيبْ
أَسْجُدُ لِلاّتِ حِذَار العِدَى	ولاأجى الكعبة خَوْفَ الرقيبْ
وأســـألُ اللهَ إذا جَنّنى	لَيْلِى وأضنانىَ يومٌ عَصِيب
رَبِّ كما أنك أنقـــذتنى	فنجِّني ؛ إنىَ فيهـــم غريب
ثم اتّخَذْتُ الليلَ لى مركباً	وما سِوَى العزم أمامى نَجِيب
وَقَدْكَ مِنْ سيرىَ فى ليــــلةٍ	يكادُ رأسُ الطفل فيها يَشِيبْ
حتى إذا ما جُزْت بحر العمى	إلى حمى الدين نفضت الوَجِيبْ
وقلت إذ لاح شِعارُ الهدى	نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قريب

ولما بلغ هذا البيت قال : يا قومِ ؛ وطِئْت والله بلادكم بِقَلْب لاالعِشْق شاقَه ، ولا الفَقْرُ ساقَه ، وقد تركت وراء ظَهْرِى حدائقَ وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلا مُسَوّمَة ، وقناطير مُقَنْطَرَة ، وعُدّةً وعديدا ، ومراكبَ وعَبيدا ، وخرجتُ خروجَ الحيَّة من جُحْره ، وبرزتُ بروزَ الطائر من وَكْره ، مُؤْثِراً دينى على

---

(١) ذاد : منع (م) (٢) تنى : تفتر (م) (٣) تائب : راجع (م)

(٤) تمششته : أكلت مشاشه ـ والمشاش ـ بزنة الغراب ـ طرف مالان من العظام (م) (٥) انتاشنى : خلصنى وأنقذنى (م)

دُنياى . وجامعاً يُمنَاى إلى يُسراى ، واصلا سَيْرِى بسُراى[1] ، فلو رفعتم النار بشررها ، ورميتم الروم بحجرها ، وأعنتمونى على غَزْوِها مساعدة وإسعاداً ، ومرافدة وإرفاداً ، ولا شـطَطَ ، فـكلٌ قادر على قَدْرِته ، وحَسب ثَرْوَته . ولا أستكثر البَدْرَة ، ولا أردّ التمرة ، وأقبل الذّرة ، ولـكل منى سهمان ، سَهمٌ أُذلّقه للِقّاء[2] ، وسهمٌ أفوّقه بالدّعاء ، وأرشُق به أبواب السماء ، عن قَوْسِ الظلماء .

قال عيسى بن هشام : فاستفزّنى رائعُ ألفاظه ، وسرَوْتُ جِلْباب النوم ، وعدوت إلى القوم ، وإذا والله شيخُنا أبو الفتح الإسكندرى ، بسنيفٍ قد شَهره ، وزِىٍّ قد نكره ؛ فلمـا رآنى غَمزنى بعينه وقال : رحم الله امرأً أحسن حَذْسه ؛ وملك نَفْسه ، وأغنانا بفاضل قَوْله ، وقسم لنا من نَيله ! ثم أخَذ ما أخذ ، فقمتُ إليه فقلت : أنت من أولاد بنات الروم ؟ فقال :

أنا حالى مع الزما ن كحالى مع النسَبْ
نسَبى فى يَدِ الزما ن إذا سامه انقلَبْ
أنا أمسى من النبيـطِ وأُضحِى من العرَبْ

[عاقبة السؤال بلفظ حسن]

قال سليمانُ بن عبد الملك : ما سألنى أحـدٌ قط مسألة يثقلُ علىّ قضاؤها ، ولا يخفّ على أداؤها ، بلفظٍ حسنٍ يجمعُ له القلب فهمَه إلا قضيتُها ، وإن كانت العزيمة نفذت فى منعه[3] ، وكان الصواب مستقرًّا فى دفعه ، ضنًّا بالصواب أن يردّ سائله ، أو يحرم نائله .

[ابن رفاعة يتحدث عن النعمان بن المنذر والحارث الغسانى]

وقال أبو عبيدة : كان أبو قيس بن رِفاعة يَفِد سـنةً إلى النعمان بن المنذر

---

(١) السير : الذهاب فى الأرض أى وقت كان ، والسرى ـ بالضم ـ سير عامة الليل (م) (٢) ذلق السكين : حدده ، وذلق السراج : أضاءه وأوقده ، هذا أصل هذه العبارة (م) (٣) فى نسخة «قصدت فى منعه» ولها وجه (م)

اللخمى وسنة إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسّانى ، فقال له الحارث يوما وهو عنده : يابن رفاعة ، بلغنى أنك تفضّل النعمان علىّ ! قال : كيف أفضّله عليك أبيتَ اللعنَ ! فوالله لقفَاك أحْسَنُ من وَجْهه ، ولأمّك أشرفُ من أبيه ، [ولآباؤك أشرف من جميع قومه] ، ولأمسُك أفضل من يومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحِرمانك أنفع من بَذْلِه ، ولَقليلُكَ أكثر من كثيره ، [ولثِمادُك أغزرُ من غديره ، ولكرسيّك أرفع من سريره ، ولجدْوَلُكَ أغمر من بحوره ، وليومُك أفضلُ من شهْرِه ، ولشهرُك أشرف من حَوْله ، ولحولك خير من حقبه ، ولزندك أورى من زَنْدِه ، ولجندك أعزّ من جنده ، ولهزلُك أصوب من جدّه ، وإنك لَمِنْ غسّان أرباب الملوك ، وإنه لمن لَخْمٍ كثيرى النوكِ ! فعلامَ أفضِّلُه عليك ؟ وقد روى مثل هذا الكلام للنابغة الذبيانى مع النعمان بن المنذر] .

[أربعة أبيات]

وقال المفضل الضبى : دخلت على المهدى فقال قبل أن أجلس : أنشدنى أربعة أبيات لاتزد عليهنّ ، وعنده عبد الله بن مالك الخزاعى ، فأنشدته[١] :

وأشعث قد قدّ السّفَارُ قميصَه ... يجرّ شواء بالعصا غير مُنْضَجِ
دعوتُ إلى ماناببى وأجابنى ... كريمٌ من الفتيان غير مزَلَّجِ[٢]
فتى يملأ الشّيزَى ويُرْوِى سنانَه ... ويضرب فى رأس الكمى المدجّجِ
فتى ليس بالراضى بأدنى معيشة ... ولا فى بيوتِ الحىّ بالمتولّجِ

فقال المهدى : هذا هو ، وأشار إلى عبد الله بن مالك ، فلما انصرفتُ بعثَ إلىّ بألف دينار ، وبعثَ إلىّ عبد الله بأربعة آلاف .

[أبو الأسود الدؤلى وامرأته]

تنازع أبو الأسود الدؤلى وامرأته إلى زياد فى ابنهما ، وأراد أبو الأسود أخْذَهُ

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة للشماخ بن ضرار الغطفانى (انظر ديوانه ص ٩ مصر) (م) (٢) المزلج : الرجل الناقص ، أو هو الدون (م)

منها فأبَتْ ، وقالت المرأة : أصلح الله الأمير . هـذا ابنى ، كان بطنى وعاؤهُ ، وحجرى فناؤه ، وثديى سقاؤه ، أكلؤه إذا نام ، وأحفظه إذا قام ؛ فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، فلما استوفى فصالَه ، وكملت خصالُه ، واستوكعَت أوصالُه[1] ، وأمّلْتُ نفعَه ، ورجوت عَطْفَه ، أراد أن يأخذه منى كُرها ، فآدِنى أيها الأمير ؛ فقد أراد قهرى ، وحاول قَسْرِى .

فقال أبو الأسود : هذا ابنى حملتُه قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وأنا أقوم عليه فى أدبه ، وأنظر فى تقويم أوَدِه[2] ، وأمنحه علمى ، وألهمه حلمى ، حتى يكمل عقله ، و يستكمل فتلُه .

فقالت المرأة : صدق أصلحك الله ؛ حمله خِفًّا ، وحملته ثِقْلاً ، ووضَعه شهوة ، ووضعتُه كُرها .

فقال زياد : اردُدْ على المرأة ولدَها ؛ فهى أحقّ به منك ، ودعنى من سَجْعك .

[عظات ووصايا]

عظة حكيم

قال الأصمعى : بلغنى أن بعض الحكماء كان يقولُ : إنى لأعظكم ، و إنى لـكثيرُ الذنوب ، مسرفٌ على نفسى ، غير حامد لها ، ولا حاملها على المكروه فى طاعة الله . وقد بلوتُها فلم أجد لها شكراً فى الرضاء ، ولا صبرا على البَلْوَى . ولو أن أحـداً لا يعظ أخاه حتى يحكم أمرَه لَتُرِكَ الأمر . . . . ولـكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس ، وتذكيرٌ من النسيان ، واعلموا أن الدنيا سرورُها أحزان ، و إقبالها إدبار ، وآخر حياتها الموت ، فكم من مستقبل يوما لا يستكمله ، ومنتظر غدا لا يبلغه ؟ ولو تنظرون الأجل ومسيره لأبغضتُم الأمل وغرورَه .

عظة عبد الملك ابن مروان أهله وولده

جمع عبد الملك أهله وولده فقال : يابنى أميّة ، ابذُلوا نَدَاكم ، وكفوا أذاكم ، وأجملوا إذا طلبتم ، واغفروا إذا قدرتم ، ولا تُلْحِفُوا إذا سألتم ، ولا تبخلوا إذا سُئلتم ؛ فإن العفو بعد القدرة ، والثناء بعد الخبرة ، وخير المال ما أفاد حـمـداً ونَفَى ذما

(١) استوكع : كملت وتمت ، وأوصاله : أعضاؤه (م)

(٢) أوده : اعوجاجه وميله ، وتقويمه : تعديله (م)

[وصف هشام بن عبد الملك بصفته]

ودخل سعيد الجعفرى على هشام بن عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى أريد أن أصفك بصفتك ، فإن انحرف كلامى فلهيبة الإمام ، واجتماع الأقوام ، وتصرف الأعوام ، ولربّ جوادٍ عثر فى أرسانه[١] وكبا فى ميدانه[٢]، ورحم الله امرأً قصّر من لفظه ، وألصق الأرض بلحظه ، ووعى قولى بحفظه . فخاف هشام أن يتكلّم فيقصّر عن جائزة مثله ، فعزم عليه فسكت .

[حاتم الطائى يتحمل الديات عن عبد قيس البرجمىّ]

قال عبد قيس بن خُفاف البُرْجُمىُّ لحاتم الطائى وقد وفَد عليه فى دماء تحملها وعجز عن البعض : إنه وقعت بينى و بين قومى دماد فتواكلوها ، و إنى حملتها فى مالى وأملى، فقدّمت مالى، وكُنْتَ أملى ، فإن تحملها فرُبّ حقّ قضيتَه،وهمّ قد كفيتَه ، و إن حال دون ذلك حائل لم أذمُم يومك، ولم أيأس من غدك .

[وَصْفُ ثقيل]

قال أبو على العتابى : حدثنى الحمدونى قال : بعث إلىّ أحمد بن حَرْب المهلبى فى غداةٍ ، السماء فيها مُغيمَة ، فأتيته والمائدةُ موضوعةٌ مُغَطّاة ؛ وقد وافَتْ عُجاب المغنّية ، فأكلنا جميعاً ، وجلسنا على شرابنا ، فما راعنا إلا داقٌّ يدقّ الباب ، فأتاه الغلام فقال : بالباب فلان ؛ فقال لى : هو فتًى من آل المهلب ، ظريف، نظيف ، فقلت : مانريد غير ما نحن فيه ، فأذِن له ، فجاء يتبختر وقُدّامى قَدَحُ شراب فكسره ، فإذا رَجلٌ[٣] آدَمُ ضَخْم ، قال : وتكلم فإذا هو أعيا الناس ، فجلس بينى و بين عُجاب ، قال : فدعوت بدَواة وكتبت إلى أحمد ابن حرب :

---

(١) الأرسان : جمع رسن ـ بالتحريك ـ وهو ما يقاد به الفرس ونحوه(م)
(٢) كبا : كبو : عثر (م) (٣) آدم : وصف من الأدمة ، وهى السمرة (م)

كدّر الله عيشَ من كدّر العَيْـــشَ ! فقد كان صافيا مُستَطَابَا
جاءنا والسماء تهطل بالغَيْـــث وقد طابقَ السماعُ الشرابا
كسر الكاسَ وهي كالكوكب الدرّ يِّ ضَمَّت من المدَام رُضَابا
قلت لما رُميتُ منه بما أكـــره والدهرُ ما أفَاد أصابا
عجِّل الله نقمةً لابن حربٍ تدعُ الدارَ بعــد شهرٍ خرابا

ودفعتُ الرقعة إلى أحمد ، فقال : [ويحك] ألا نفّسْتَ فقلتَ بعد حول ؟ فقلت : أردت أقول بعد يوم ، فخفت أن تصيبنى مضرّة ذلك ، وفطن الثقيل فنهض ، فقال : آذيتَه ! فقلت : هو آذانى .

[طيلسان ابن حرب]

وقال الحمدونى فى طيلسان ابن حرب :

ولى طيلسانٌ إن تأملت شخصَهُ تيقنت أنَّ الدهر يَفْنَى وينقرضْ
تصدَّعَ حتى قد أُمِنْت انصداعَهُ وأظهرتِ الأيامُ من عمره الغرَضْ
كأنى لإشفاق عليـــه ممرِّضٌ أخا سَقَم مما تمادَى به المرَضْ
فلو أنَّ أصحابَ الــكلام يرَونهُ لمَارَوْك فيه وادَّعَوْا أنه عرَضْ(1)

[وقال فيه :

لطيلسان ابن حرب نعمةٌ سبقَتْ بها تبيّنَ فضـــلى فهو متّصِلُ
قد كنتُ دهرا جهولاً ثم حنَّكَنِى عليه خوفى من الأقوام إن جهلُوا
أظل أجتنب الإخوانَ من حذر كأنما بِىَ جرحٌ ليس يندملُ
يا طيلسانًا إذا الألحاظ جُلْنَ به فعلْنَ فعلَ سهام فيــه تنتضِلُ
لئن بليتَ فـكم أبليتَ من أمم تَتْرَى أبادتهمُ أيامُك الأولُ

(1) أصحاب الكلام : أراد علماء الكلام (علم التوحيد = علم العقائد) وماروك : أراد جادلوك وشككوك ، والعرض ـ بالتحويك ـ مالايقوم بنفسه ، وإنما يقوم بغيره ، كالبياض (م)

وكم رآك أخ لى ثم أنشدنى : ودّع هريرة إن الركب مرتحل]

وقال فيه(١) :

يا بْنَ حرب كسوتَنِى طيلساناً أمْرَضَتْه الأوجاعُ فَهْوَ سقيم

فإذا ما لبستُهُ قلتُ : سُبْحاَ نَكَ مُحْيِى العظام وهى رَمِيمُ

طيلسانٌ له إذا هَبَّتِ الريـحُ عليـه بمنكبىَّ هميمُ

أذكرتْنِى بيتاً لحسّان فيهِ حُرَقٌ للفؤاد حين أقوم

لو يَدِبُّ الحولىُّ من ولد الذَّ رِّ عليها لأندَبَتْهَا الكُلُومُ(٢)

وقال أيضاً :

يا قاتلَ اللهُ ابنَ حرب لقد أطال إتعابى على عَمْدِ

بطيلسانٍ خِلْتُ أنّ البلى يطلبه بالوِتْر والحِقْدِ

أجدُّ فى رَفْوِى له ، والبلَى يلهو به فى الهَزْلِ والجد

ذكّرنى الجنة لمـا غدَا أصحابُها منها على حَرْدِ(٣)

إن أتْهَمَ الرَّفَّاء فى رفوه مضَى به التمزيقُ فى نَجْدِ

غنيته لمـا مضى رَاحلاً : ياواحدِى تتركنى وحدى!

وقال أيضا فيه :

إنَّ ابنَ حرب كسانى ثوبا يُطيـل انحرافَهْ

أظلّ أدفع عنـه وأتّقى كلّ آفـه

فقد تعلمت من خَشْـيتى عليـه الثقافه

وقال أيضاً :

طيلسانٌ ما زال أقدم فى الدهـر من الدهر ما لِرَفْويهِ حيله

---

(١) البيتان الأول والثانى من هذه الأبيات فى وفيات الأعيان لابن خلكان (٦/٩٣ بتحقيقنا) (٢) أندبتها : جرحتها،والكلوم:جمع كلم-بالفتح-وهوالجرح(م)

(٣) يشير إلى القصة التى ذكرت فى سورة القلم من الآية ١٦ إلى الآية ٢٦ (م)

وترى ضَعفه كضعف عجوز رَثّةِ الحال ذات فقر مُعيله
غمرته الرقاع فهو كمِصْرٍ سكنته نُزّاع كلّ قبيله
إنْ أزَيِّنْهُ يابن حرب بذمى فجرير قد زانَ قبلى بَجِيلَه

جرير : أبن عبد الله البجلى ، وله صحبة [رضى الله عنه ، وقد] قال غسان فى هجائه جريراً :

لعمرى لئن كانت بجيلة زَانَها جريرٌ لقد أخزى كُلَيْباً جريرُها

وقال الحدونى فى معناه الأول[1] :

يابْنَ حرب إنى أرى فى زوايا بيتنا مثـل ما كسوتَ جماعَهْ
طليلسانُ رَفَوْتُهُ ورفوت الـرّ فْوَ منه حتى رَفَوْتُ رِقَاعه
فأطاع البِـلى وصار خليعا ليس يعطى الرفّاء فى الرفو طاعه
فإذا سائلٌ رآنىَ فيهِ ظنّ أنى فتى منَ أهل الضّيَاعَهْ[2]

وقال فيه :

طَيْلَسانٌ لابنِ حرب يتداعى لا مِسَاسا[3]
قد طوَى قرْناً فقرناً وأناسـا فأناسـا
لَبِس الأيام حتّى لم تدع فيـه لِبَاساً
غاب تحت الحسّ حتى لا يُرى إلا قياساً

[من رسائل ابن العميد]

من ابن العميد إلى الطبرى

كتب أبو الفضل بن العميد إلى أبى عبد الله الطبرى :

كتابى وأنا بحالٍ لولم ينغّص منها الشوقُ إليك، ولم يُرَنّقِ صَفْوها النِّزاعُ نحوك، فعدَدْتُها من الأحوال الجميلة ، واعتددت حظّى منها فى النعم الجليلة ؛ فقد جمعتُ ليها بين سلامةٍ عامّة ، ونعمةٍ تامة ، وحَظِيتُ منها فى جسمى بصَلاَح ، وفى سفرى

(١) هذه الأبيات الأربعة فى ابن خلكان (٦/٩٤) وثمة مقطعات ليست هنا (م)
(٢) فى نسخة كما فى ابن خلكان « من أهل الصناعة » (م)
(٣) لامساس : أى لاتمسنى ، وهذه كناية عن شدة بلاه (م)

بنجاح ، لـكن ما بقى أن يَصْفُوَ لى عيش مع بُعْدِى عنك ، و يخلو ذرْعى مع خلوِّى منك ، و يَسُوغ لى مطعم ومشرب مع انفرادى دونَك ، وكيف أطمعُ فى ذلك وأنتَ جزء من نفسى ، وناظمٌ لشَمْلِ أُنسى ، وقد حُرِمْت رؤيتَك ، وعَدِمْت مشاهدتَك ، وهل تسكنُ نفس متشعّبة ذاتُ انقسام ، وينفع أنس مُتَشتّت بلا نِظام ، وقد قرأتِ كتابك جعلنى اللهُ تعالى فداءك ؛ فامتلأتُ سرورا بملاحظة خطِّك ، وتأمُّل تصرفك فى لفظك ، وما أقرِّظُهما فكلُّ خصالك مقرّظٌ عندى ، وما أمدحُهما فكلُّ أمرك ممدوح فى ضميرى وعَقْدِى ، وأرجو أن تكونَ حقيقةُ أمرك موافقةً لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك و إلا فقد غطّى هواك وما أُلْقِى على بَصَرِى .

من ابن العميد إلى عضد الدولة

وله إلى عضد الدولة يهنئه بولدين :

أطال اللهُ بقاء الأمير الأجلّ عضد الدولة ،دام عزّه وتأييده،وعلوُّه وتمهيده ، و بَسْطَتُه وتوْطيده ، وظاهرَ له من كل خير مزيده ، وهنّاه ما اختصّه به على قُرْبِ الميلاد ، من توافر الأعداد ، وتكثّر الأمداد ، وتثمّر الأولاد ، وأراه من النجابة فى البنين والأسباط[1] ،ما أراه من الكرم فى الآباء والأجداد،ولا أخْلَى عينَه من قرّة، ونفسه من مَسرّة،ومتجدّد نعمة، ومستأنف مكرمة ، وزيادةٍ فى عدده ،وفَسْحٍ فى أمده ، حتى يبلغَ غايةَ مَهلِه ،و يستغرق نهاية أمَله،و يستوفى مابعد حُسْنِ ظنّه ؛وعرفه اللهُ السعادةَ فيما بشّرَ عَبْده من طلوع بدرين هما انبَعَثَا من نورِه ، واستنارا من دُوره ، وحفّا بسريره ، وجعل وفودَهما متلائمين ، وورودهما توْأمين ، بشيرين بتظاهُر النعم ، وتواتُر القِسم ، ومؤذِنَيْن بترادفِ بنين [يغصُّ] بجمعهم مُنْخَرق الفضَاء ، و يَشْرَقُ بنورهم أفق العلاَء ، وينتهى بهم أمَدُ النماء[2] ، إلى غاية تفوتُ

---

(١) الأسباط : جمع سبط ـ بكسر السين وسكون الباء ـ وهو ولد البنت (م)

(٢) النماء : الزيادة (م)

غايةَ الإحصاء ، ولا زالت السبلُ عامرة ، والمناهلُ غامرة ، يصافِحُ صادِرهم بالبشر [الوارد] ، وآمِلهم بالنيل القاصد .

* * *

لأبى الطيب فى ابنى عضد الدولة

وقال أبو الطيب وذكر أبا دلف وأبا الفوارس ابنى عضد الدولة :

فلم أر قبله شِبْلَىْ هِزَبْرٍ كشبليه ، ولا فرسَىْ رهانِ
فعاشا عيشة القمرين يحيى بضَوئِهما ولا يتحاسدانِ
ولا ملَكا سِوَى مُلْكِ الأعادِى ولا وَرِثا سِوَى مَنْ يَقْتُلانِ
[وكانا ابنَا عدو كاثراه له ياءَىْ حروفِ أُنَيْسِيانِ]
دُعاء كالثَّناء بِلا رِياء يُؤَدِّيهِ الجَنانُ إلى الجَنانِ

* * *

من الإسكافى فى تهنئة واستبطاء

وكتب أبو القاسم الإسكافى عن نوح بن نصر إلى وَشْمَكِير بن زياد فى استبطاء وتهنئة :

وصل كتابُك ناطقاً مفتتَحه بجميل العُذر ، فيما نقَلَ من المكاتبة ، وبعث من المطالعة ، ومُعْرِباً مختتَمُه عن جُملة خبرِ السلامة التى طبَقت أعمالك ، والاستقامة التى عمت أحوالَك ، وفهمناه ، ولولا أنَّ مواتاتك — أيدك الله تعالى — فيما تأتى وتَذَر ، وتَرتِّى وتدبّر ، عادةٌ لنا أورثتناها قرابة ما بين وفاقِنا ووِفاقك ، ومُلاءمة حال ألجأتنا لحال استحقاقك ؛ لكنا ربما ضايَقْناك فى العُذر الذى اعتذرتَ به ، وإن كان واضحاً طريقُه ، وناقَشْناك فيه ، وإنْ كان واجباً تَصْدِيقه ، لفَرْطِ الأنس [يَخْلُص إلينا] بكتابك ، والارتياح بخطابك ، اللَّذين لا يؤدِّيان إلا خبرَ سلامةٍ توجِبُ الإحماد ، فنحن نأبى إلاَّ إجراء تلك العادة ، كما عودْتَنا ، وإلاَّ التجافى عما تريد فيه من الزيادة التى أرَدْتَها ، ولا ندع مع ذلك أن يصل تَسويفُك[١] إلى الإقلال الذى اخترته بإحمادك على الكتاب إذا كتبته ، توخِّيا[٢] لأن تكون مؤهلا فى الحالين لخالصة

(١) سوّف الأمر تسويفا : أرجأه وأخره (م)
(٢) توخى الأمر يتوخاه توخيا : قصده (م)

التنويل ، مقدماً فى درج التفضيل ، موفىً حقائق الإيثـار ، موقىً لواحِقَ الاستقصار ، ونستعين بالله على قضاء حقوقك ، وعلى جميـل النية فى أمورك ؛ فإن ذلك لا يُبلَغ إلا بقوّته،ولايُدْرَكُ إلا بِحَوْله ، وأما بعد فقد عفّى[1] — أعزّك الله تعالى — ما أفاد كتابك بخبَر السلامة من أنسه ، على آثارِ مَنْ سبقه بخبر العلة من وحْشَة ، فأوجبتنا مقابلة موهبة الله تعالى فى المحبوب صنع ، والمكروه دفع ، نستقبلُ به إخلاصَ المواهبِ لنا ، ونستديمُ به أخصَّ المراتبِ بنـا ، فرأْيك — أعزّك الله تعالى — فى المطالعة بذكر تستمدُّه فى القوة والصحة من مزيد ، والطاعة والكفاية من توفيق وتسديد ، موفقاً إن شاء الله تعالى . .

ألفاظ لأهل العصر فى ضروب التهانى وما ينخرط فى سلكها

من ذلك فى التهنئة بالمولود وما يجرى مجراها من الأدعية ،
وما يختصّ منها بالملوك أو الرؤساء

مرحبا بالفارس المصدِّق للظنون ، المقرِّ للعيون ، المقبل بالطالع السعيد ، والخير العَتيد ، أنجب الأبناء لأكرم الآباء . أنا مستَبْشِر بطلوع النجم الذى كنّا منه على أمَل ، ومن تطاول استِسْرَاره [الذى كنا منه] على وَجَل ، إن يشأ الله يجعله مقدمـة إخوة فى نَسق كالفريد المتّسق[2] . قد طلع فى أفق الحرية أسـعدُ نجم ، [ونَجَمَ[3]] فى حدائق المروءة أذكى نبت . يا بُشْرَاى بطلوع الفارس الميمون جَدُّه ، المضمون سَعْده ، عليه خاتَمُ الفضل وطابَعُه ، وله مَنهَمُ الخير وطالِعُه . الحمد لله على طلوع هذا الهلال الذى نَراه إن شاء الله بدرا لايُضْمِرُ السِّرَارُ بهاه ، ولا يبلغ المَحَاقُ سَناءه وسناه ، وقد بَشَّرَتْ قوابله بالإقبـال وعُلُو الجدِّ[4] ، واقترن قدومُه بالطالع السَّعْد . هنَّأك الله تعـالى بقوّة الظَّهْر ،

---

(١) عفى : غطى وستر (م) (٢) الفريد : أراد الدر ، والمتسق : المنتظم (م)
(٣) نجم : طلع (م) (٤) الجد ـ بفتح الجيم ـ البخت والحظ (م)

واشتدَاد الأزْر . الفارس المكثِر لسواد الفضل ، الموفِّر لحالِ الأهل ، المستوفى شرفَ الأرومة ، بكرم الأبوة والأمومة ، وأبقاه حتى نراه ، كما رأينا جَدَّه وأباه. عرفت آنِفاً ما كثَّر الله به عددَه ، وشدَّ عَضُدَه ، من طلوع الفارس الذى أضاء له الأفق ، وطال به باعُ السعادة ، فعظمت النُّعْمَى لدىَّ ، وأوردتِ البُشرى غاية المُنَى علىَّ . مرحباً بالفارس القادم ، بأعظم المغانم ، سَوِىَّ الخلق [سامِى العِرق] يلوح عليه سيماء المجد ، وتتجاذبه أطراف الملك والحد . وردت البُشْرى بالفارس الذى أوْسَع ر باع المجدِ تأهيلا ، ومنَاكِبَ الشرفِ ارتفاعاً ، وأعْضَاد العزّ اشتداداً . واتتنى بُشْرى البشائر[1] ، والنعم المحروسة على النظائر ، فى سُلاَلَة العز وسليله ، وابن منبر الملك وسرِيرِه ، والأمير القادم بغُرَّة المكارم ، الناهض إلى إلى ذرْوَة العلياء ، بآباء أمراء ، وملوك عظماء . مرحباً بالفارس المأمول لشدِّ الظهور ، المرجوّ لسدِّ الثغور . الحمد لله الذى شدَّ أزْرَ الدولةِ ، ونظم قلادة الإمرة ، ودعم سَرِيرِ العزَّة ، ووطّد منابرَ المملكة ، بالقمر السعد ، وشِبل الأسد الوَرْد . قد تنسَّمت المكارمُ والمعالى ، وتباشرت الخُطَبُ والقوافى ، بالفارس المأمولِ لشدِّ أزْرِ الملك ، وسدِّ ثَغرِ المجد ، وتَطَاولَ السريرُ شَوْقا إليه ، واهتزَّت المنابرُ حرصاً عليه . قد افْتَرَّ جَفْنُ العالمَ عن العينِ البصيرة ، واستُغرِب مضحَكه عن اللمعة المُنيرة ؛ أما الأمير فالتاج لجبينه يبهى ، والركاب بقدمه تزهى[2] ، أللهم أرِنى هذا الهلالَ بَدْراً قد علاَ الأقدار قدراً ، و بلّغه الله فيه من مُنَاه ، حتى نراه وأخاه ، مُنِيفين على ذرْوَة المجد ، آخذين من أوفر الحظْوَةِ بأعْلى الجد .

ولهم : والله يمتّع به ، و يرزقُ الخيرَ منه ، و يحقِّقُ الأملَ فيه . عرف الله تعالى آثار بَرَكة الموود المسعود ، وعَضَّدَ الفضل بالزيادة فى عدده ، وأقرّ عَيْنَ

---

(١) واتاه يواتيه : أسعفه وأنجده ، وتقرأ « وأتتنى » بالهمز من الإتيان بمعنى المجىء (م) (٢) فى نسخة « هو آمال الأمير فالتاج بجبينه سما ، والركاب بقدمه زها » وليس كما ينبغى (م)

المجد بالسّادة من ولده . عرفه الله تعالى من سيادة مقدمه ، ما يجمعُ الأعداء تحت قَدَمه . عمرك اللهُ تعالى حتى ترى هذا الهلال قمراً باهراً ، وبَدراً زاهراً ، يَكْثُر به عدد حَفَدَتك ، و يعظم معه غُصَّة حَسَدَتِك ، من حيث لا تَهْتَدِى النوائبُ إلى أغراضكم،ولا تطمع الحوادثُ[١] إلى انتقاصكم ، متّعك الله بالولد، وجعله من أقوى العُدَد ، ووصّله بإخوة متوافرى العدَد ، شادّى الأزْر والعَضُد . هناك الله تعالى مَولده ، وقرن باليُمْن مَوْرِدَه ، وأراك من بنيه أولاداً بَرَرَه [وأسباطاً وحفدة ، وعرفك بركة قُدُومه، ونجح مقدمه،وسعد طالعه ، و يمن طائره ،وعمّرك الله] حتى ترى زيادة الله منه كما رأيتها به[٢]، واللهُ يبلّغك أفضل ماتقسمه السعود ، وتَعْلو به الجدود ، حتى يستغرق مع إخوته مساعىَ الفضلِ ، و يَشيدُوا قواعِدَ الفخـر ، و يزحموا صُدور الدَّهْر، و يضبطوا أطراف الأرض ؛ والله يَحْرُسه منْ نواظر الأيام أنْ تَرْنُو إليه[٣] ، وأطماع الليالى أن تتوجه عليه ، حتى يستقلَّ بأعباء الخدمة ، و ينهض بأثقالِ الدعوة، و يخف فى الدفع عن البَيْضَة، و يُسْرِعَ فى حماية الحَوْزَة، واللهُ يديمُ لمولانا من العُمْر أكلاه ، ومن العزّ أهناه ، ليُطَبِّقَ العالمَ بفضله وعَدْله، و يدبِّرَ الأرض بالنجباء من نَسْله .

ولهم فى ذكر المولود العلوى

غُصْن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، شجرُه أهل أنْ يَحْـلُوَ ثمرُه ، وفَرْعٌ بين الرسالةِ والإمامةِ مُنْتَمَاه ، خليق أن يُحْمَد بَدْؤُه وعُقْبَاه . مرحباً بالطالع بأيمن طالع ، ومَنْ هو من أشْرَفِ المَناصب والمنابع ، حيث الرسالة والخلافة ، والإمامة والزّعامة، أبقاه الله تعالى حتى يتهنّأ فيه صوانع المنن[٤]، و يعد حُسْنُه من بنى الحسن.

---

(١) فى نسخة « ولا تطلع الحوادث ــ إلخ » (م)

(٢) فى نسخة « كما ترى مهابته » (م) (٣) ترنو : تنظر (م)

(٤) فى نسخة « حتى يتهيأ منه صنائع المن » (م)

ولهم فى التهنئة بالإملاك[1] والنفاس ، وما يقترن به من الأدعية

من اتصل بمولاى سببُه ، وشَرُفَ به مَنصبه ، كان حقيقاً بالرغبة إلى الله تعالى فى توفيره وتكثيره ، وزيادته وتَثميره ، لتزكُوَ منابتُ الفضل ، وتَنمى مغارِسُ النبل والفخر ، وتطيب معادِنُ المجد . بارك الله لمولاى فى الأمر الذى عقده ، وأحمده إيّاهُ[2] وأسعده ، وجعله موصولا بنَماء العدد ، وزكاء الولدِ ، واتصال الحبْل ، وتكثير النسل . والله تعالى يَخيرُ له فى الوُصْلة الكريمة ، ويقرنها بالمِنْحَةِ الجسيمة . قد عظَّم الله بَهْجَتِى ، وضاعف غبْطَتِى ، بما أتاحه من سرورممهّد ، بجمع شَمْل مجدّد ، فلا زالت النعم به محفوفة ، والمَسَارُّ إليه مصروفة ، جعل الله هذه الوصلة أكيدة العُقْدة ، طويلة المدة ، سابغة البركة والفَضْل ، طيبة الذرية والنَّسْل . وصلَ الله هذا الاتصال السعيد ، والعقد الحميد ، بأكمل المواهب ، وأحمد العواقب ، وجعل شَمْل مَسَرّتك ملتئما ، وسببَ أنسك منتظماً . عرّفك الله تعجيل البركات ، وتوالى الخيرات ، ولا أخلاك اللهُ من هذه الوُصلة [من التهانى بنجباء الأولاد ، وكبْتَ بكثرة عددك الحُسّاد . هناك الله مولاى الوُصلةَ] بكثرة العدد ، ووفور الوَلد ، وانبساط الباع واليد ، عَالِىَ القدر والجد .

ولهم فى التهنئة بالولاية والأعمال ، وما يتصل بها من الأدعية

للوزراء والقضاة والعمال

عرفتُ أخبارَ البلدِ الذى أحسنَ اللهُ إلى أهله ، وعطف عليهم بفضله ، إذ أُضيف إلى ما يُلَاحِظه مولاى بعين إيالته ، ويشفى خَلَّه بِفَضْلِ أصالته . أنا من سُرّ

---

(١) الإملاك : التزويج ، تقول « أملك الرجل ابنته » تريد أنه زوجها (م)

(٢) أحمده إياه : جعله يرى عاقبته محمودة ، ووقع فى الأصول كلها « وأحمده أباه » ولا نراها إلا مصحفة عما أثبتناه (م)

بالولايةَ يلبسُ مولاى طِلاَلها ، و يسحَبُ أذيالها ، بنعم مستفادة ، ورُتب مستزادة ، سرورى بما أعلَمه بكسبه[١] الثناء فى كل عملٍ يدبّره، من أحدوثة جميلة، ومثوبة جزيلة ، ويُؤْثِرُه من إحياء عدل ، و إماتَة جَوْر، وعمارةٍ لسُبُلِ الخيرات، و إيضاحٍ لطرق المكرمات ، سيدى يُوفِى على الرتب التى يُدْعَى لها بحلوله[٢] ؛ فهنيئاً لها بتجمّلها بولايته ، وتحلّيها بكفايته . الأعمالُ إن بلغت أقصى الآمال، فكفايةُ مولاى تتجاوزُها وتتخطاها ، والرتبُ و إن جلّت قدراً ، وكبرت ذِكراً ، فصناعته تَسْبِقها[٣] وتَنْسَؤُها ، غير أنّ للتهانى رسماً لا بدّ من إقامته ، وشرطاً لا سبيلَ إلى نَقْض عادته . الأعمال و إن بلغت أقصى الآمال فكفايةُ سيدى توفى عليها إيفاء الشمسِ على النجوم ، وترتفع عنها ارتفاع السماء على التخوم. سيدى أرفع قَدْراً وأنْبَه ذِكراً ، من أنْ نُهنّئَه بولاية و إن جلّ أمرُها وعظم قَدْرُها. قد أعطِيتْ قوسُ الوزارة باريها، وأضيفت إلى كُفِئِها وكافيها ، وفُسِخَ فيها شَرْط الدنيا الفاسد فى إهداء حظوظها إلى أوْغادها ، و نُقِض بها حكمها الجائر فى العدول بها عن نُجبَاء أولادها . الدنيا أعز اللهُ الوزيرَ مهنّأة بانحيازها[٤] إلى رَأْيه وتنفيذه ، والممالكُ مغبوطةٌ باتصالها إلى أمره وتدبيره . قد كانت الدنيا مستشرفةً لوزارته ، إلى أنْ سعِدَت بما كانت الأيامُ عنه مخْبِرة ، وحَظِيَتْ بما كانت الظنون به مبشّرة . أنا أهنّىء الوزارة بإلقائها إلى فَضْلِه مقادَتها ، و بلوغِها فى ظلّه إرادتها ، وانحيازها من إيالته إلى واضحة الفخر ، وتوشحها من كفايته بعزّة سائدةٍ على وَجْه الدهر . الحمدُ لله الذى أقرّ عين الفضل ، ووطّأ مِهادَ المجد ، وترك الحساد يتعثّرون فى ذيول الخيْبَةِ ، و يتساقطون فى فضول الحسْرَة ؛ وأرانى الوزارة وقد استكمل الشيخُ إجلالها ، ووفّى لها جمالها :

---

(١) فى نسخة « سرورى بما أعمله يكسب الثناء — إلخ » (م)

(٢) فى نسخة « يدعى له بحولها فيتهنأ لها بتجميلها » (م)

(٣) فى نسخة « تنسقها » (م) (٤) فى نسخة « بانحياز الولاية » (م)

فلم تكُ تصلحُ إلاَّ لهُ ولَم يَكُ يَصْلح إلاَّ لَهَا

والقاضى عَلَمَ العلم شرقًا وغربًا ، ونَجْم الفضل غَوْراً ونَجْداً ، وشَمْسُ الأدب برًّا وبحراً ، فسبيلُ الأعمالِ أن تهنَّأ إذا رُدَّتْ إلى نظرِه الميمون ، وعُصِبت برأيه المأمون . [أسعد اللهُ القاضى بما جدّ] له من رأى مولانا وارتضاه ، واعتمده لأجل أمر الشريعة وأمْضاه ، وأسعد المسلمين والدين بما أصاره إليه ، وجمع زمامه فى يديه . عرّف الله سيدى من سعادة عمله ، أفضلَ ما ترقّاه بأمله ، ولقّاه من مناجح أمْرِه ، أفضل ما انْتَحَاهُ بفكره . خار اللهله فيما تولاَّه وتطوّقه ، وبلّغه فى كل حال أمَلَه وحققه ، وعرفه من يُمْنِ ما باشره تدبيره[1] الخير [والخِيرَة] والبركات الحاضرة والمنتظرة ، وجعل المناجح إليه أرسالا ، لا تملّ تَوَالِيا واتِّصَالا . أسعده اللهُ أفضلَ سعادة قُسِمَتْ لوالِى عمل ، وأسهم له أخصَّ بركة أُسْهِمَت لِمُسَامِى أمل[2] ، أحضر اللهُ السداد عَزْمَه ، والرشادَ همّه ، وكنفه العِصْمَة وأيَّده ، وقَرَنَه بالتوفيق ولا أفرده . هنأه الله تعالى الموهبة التى ساقَها إليه ، ومدّ رِوَاقَها عليه ؛ إذ كانت من عقائل المواهب ، مُسْفِرة عن خصائص المراتب ، وحلّت فيه محلّ الاستحباب لا الإيجاب ، والاستحقاق دون الاتفاق . هنأ اللهُ نعمته الفضل[3] الذى الولاية أصغر آلاتها ، والرياسة بعض صفاتِها

ولهم فى التّهنئة بذكر الخِلَع والأجبية

أُهَنِّئُ سيدى مزيد الرِّفْعَة ، وجديد الخِلْعَة ، التى تَخْلَعُ قلوبَ المنازِعين ، واللواء الذى يلوى أيْدِى المنابذين ، والحظَّ الذى لو امتطاه إلى الأفلاك لحازَها ، أو سَامَى به الجَوْزاء لجازَها . بلغنى خبرُ ما تطوّعت به سماء المجد ، وجادت به

---

(١) فى نسخة « ما باشره وتدبره » (م) (٢) فى نسخة « لسامى أمل » (م)
(٣) فى نسخة « هنأ الله همته بالفضل الذى — إلخ » (م)

أنواء الملك ، فصن من الخلع أسناها ، ومن المراكب أبهاها ، [ومن السيوف أمضاها ، ومن الأفراس أجْرَاها ، ومن الإقطاعات أنماها] . لبس خلعته متجَلّلا منها ملابسَ العِز ، وامتطى فرسَه فارعا به ذِرْوَةَ المجد ، وتقلّد سيفه حاصدا بحد. طُلَى أعدائه[١] وغَامِطِى نعمائه ،واعتنق طوقه متطوّقاً عزّالأبد ،واعتضد بالسوارين المودِيَيْنِ بقوة الساعد والعَضُد ، وسَاسَ أولياءه ولواء العزّ عليه خافق ، وهو بلسان الظَّفَر والنَّصْرِ ناطق . قد لبس خلعته التى تعمد بها [رفعته] ، وامتطى حُمْلاَنَهُ الذى واصل به إحْسَانه[٢]،تمنطق بحُسامه الذى ظاهر أبواب إنعامه، وَتختم بخاتِميه، اللذين بسطا مِنْ يديه ؛ ووقَّعَ من دَوَاته ، التى أعْلَتْ من درجاته قد زرَّرت عليه سماء الشرف عُرَى الخلعة ، التى تتراءى صفحاتُ العزّ على أعطافها ، و تمتَرَى مزايا المجدِ من أطرافها ، وركب الحِملان الذى تتناول قاصيتى المنى من ناصيته ، والمركب الذى تُسْتَخْذى[٣] حُلَى الثريا لحليته،والسيف والمنطقة الناطقان عن نهاية الإكرام، الناظمان قلائد الإعظام.خلع تخلع قلوب الأعداء من مَقَارّها[٤] ، وتعمر نفوس الأولياء بمسارّها ، وسيف كالقضاء مَضاء وحدًّا ، ولواء يَخْفق قلوب المنازعين إذا خفق ، وحملات تصدع منكب الدّهْرِ إذَا انطلق[٥] .

ولهم فى التهنئة بالقدوم من سفر

أُهنِّئُ سيدى و نَفسِى بما يَسَّرَه اللهُ من قدومه سالما ، وأشكره على ذلك شكراً قائما ؛ غَيْبَةُ المكارم مقرونةٌ بغيبتك ، وأَوْبَةُ النعم موصولةٌ بأَوْبتك ؛ فوصل الله تعالى قدومك من الكرامة ، بأضعاف ما قَرَنَ به مسيرَك من السلامة. وهنأك أيامَك ، و بلّغك محابّك ؛ ما زلْتَ بالنيّة مسافراً ، و باتّصال الذكر

---

(١) الطلى ــ بضم الطاء ، بوزن الهدى ــ الأعناق أو أصولها (م)

(٢) فى نسخة « وامتطى حملاته التى واصل بها إحسانه » (م)

(٣) فى نسخة « والمراكب الذى يستحد بالحلية على السير » (م)

(٤) فى نسخة « عن مقارها » (م) (٥) فى نسخة « إذا نطق » (م)

والفكر لكَ ملاقيا ، إلى أن جمع الله شَمْلَ سروري بأَوْبَتك[١]، وسكّن نافرَ قلبى بعودتك ، فأسأل الله أن يسعدك بمقدمك سعادةً تكون فيها [بالإقبال] مُقَابلا ، و بالأمانى ظافرا ، ولا أوحش منك أوطانَ الفضل ، ورِبَاعَ المجد ، بمنّهِ وكرمه .

[من أحسن الشعر]

قال الهَيْثم بن عدى : أنشدنى مجالد بن سعيد شعراً أعجبنى ، فقلت : من أنشدكه ؟ قال : كنا يوما عند الشعبى فتناشدنا الشعرَ، فلما فرغنا قال : أيُّكم يحسن أن يقولَ مثلَ هذا ، وأنشدنا :

خليليّ مهلاً طالما لم أقلْ مَهْلاَ ... وما سرفا ـِم الآن قلت ولا جهلا[٢]

و إنّ صِباَ ابن الأربعين سَفَاهةٌ ... فكيف مع اللاتى مُثِلْتُ بها مَثْلا

يقول لىَ المُفْتِى وهنَّ عشيةً ... بمكّة يَسْحَبْن المُهَدَّبة السُّحْلا[٣]

تَقِ الله لا تنظرْ إليهنَّ يا فتى ... وما خلتُنى بالحج ملتمِساً وَصْلا

فوالله لا أنسى و إن شَطَّتِ النوى ... عرانينَهن الشمَّ والأعينَ النُّجْلاَ

ولا المسكَ فى أعرافهن ولا البُرىٰ ... جَواعلَ فى أوساطها قَصَباً خَدْلا

خليليّ لا والله ما قلت مَرْحَباً ... لأوّل شَيْبَاتٍ طَلَعْنَ ولا أهلا[٤]

خليليّ إن الشيب داء كرهتُهُ ... فما أحسن المَرْعَى وما أقبح المحلا

قال مجالد : فكتبت الشعر ، ثم قلنا للشعبى : من يقوله ؟ فسكت، فحسبنا أنه قائله .

[المراثى التى قيلت على قبر عمرو بن حممة الدوسى]

قال الشَّرْقى بن القَطَامى : لما مات عَمْرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِى ـ وكان أحد من تتحاكمُ العربُ إليه ـ مَرَّ بقبره ثلاثة نفر من أهل المدينة قادمين من الشام : الهِدْم أبن امرئ القيس بن الحارث بن زيد ، وهو أبو كُلْثوم بن الهِدْم الذى نزل عليه

(١) أوبتك : رجوعك (م) (٢) فى نسخة «ولا سرفا منى المقال» (م)
(٣) فى نسخة «المهذبة النجلا» تصحيف ، وأراد بالمهدبة السحل الثياب البيض، واحدها سحيل ، وانظر الأمالى ٢/١٢٤ (م) (٤) يروى « خليلى لولا الله » (م)

النبى صلى الله عليه وسلم ، وعتيك بن قيس بن هَيْشَةَ بن أمية بن معاوية ، وحاطب ابن قيس بن هيشة ابن معاوية . وحاطب بن هيشة الذى كانت بسببه حرب حاطب ، فعقروا رواحلهم على قبره ، وقام الهِدْم فقال :

لقد ضمّتِ الأثراء منك مُرَزّأً ... عظيم رَمَادِ النار مشترك القدْرِ

إذا قلت لم تترك مقالا لقائل ... وإن صُلْتَ كنتَ الليثَ تحمى حمَى الأجر

حليما إذ ما الحلمُ كان حزامةً ... وقوفاً إذا كان الوقوف على الجمر(١)

ليبكِكَ من كانت حياتُك عِزّهُ ... وأصبح لما مُتّ يغضى على الصُّغر

سقى الأرض ذات الطُّول والعرض مُثْجِمُ ... أحمّ الذرى واهى العُرَى دائمُ القَطْرِ(٢)

وما بِىَ سقيا الأرضِ لكنّ تربةً ... أضلّك فى أحشائها ملْحد القبْر

وقام عتيك بن قيس فقال :

برَغْم العلا والجودِ والجد والندى ... طَوَاكَ الرّدَى ياخيرَ حافٍ وناعلِ

لقد غال صَرْفُ الدهر منك مرزّأً ... نهوضاً بأعباء الأمور الأثاقل

يضُمُّ العُفَاة الطارقين فِنَاؤُهُ ... كما ضمّ أُمّ الرأس شَعْبَ القبائل

ويَسْرُو دجا الهيجا مضاء عزيمةٍ ... كما كشف الصبحُ اطّراقَ الغياطل(٣)

ويُسْتَهزَم الجيشُ العرمرم باسمه ... وإن كان جرّاراً كثيرَ الصواهل

فإما تُصِبْنا الحادثاتُ بنَكْبَةٍ ... رمَتْك بها إحدى الدواهى الضآبل(٤)

فلا تَبْعَدَنْ إن الحتوفَ مواردٌ ... وكلُّ فتى من صرفها غيرُ وائل(٥)

وقام حاطب بن قيس فقال :

سلامٌ على القبر الذى ضمّ أعظماً ... تحومُ المعالى نحوه فتُسَلِّم

---

(١) فى الأمالى ٢/١٤٣ « وقورا إذا كان الوقوف على الجمر » وفى نسخة من نسخ هذا الكتاب « حليم إذا ما الحلم حل حزامه » تحريف قبيح (م)

(٢) فى الأمالى « أحم الرحا » والرحا : وسط الغيم ومعظمه (م)

(٣) الغياطل : جمع غيطلة، وهى الظلمة واختلاط الأصوت ، والبقرة الوحشية (م)

(٤) الضآبل : جمع ضئبل ، وهى الداهية (م) (٥) غير وائل : غير ناج (م)

سلام عليـــه كلما ذرّ شارقٌ ... وما امتدّ قِطع من دُجى الليل مُظلِمُ

[فيا قبرَ عمرو جاد أرضا تعطّفت ... عليك مُلِثٌّ دائمُ القَطْرِ مُرزِمُ

تضمّنتَ جسما طاب حيًّا وميتا ... فأنت بما ضُمِّنْتَ فى الأرض مُعْلَم

فلو نطقَتْ أرضٌ لقال ترابُها ... إلى قبر عَمْرو الأزدِ حلّ التكرم

إلى مَرْمَسٍ قد حَلّ بين تُرَابه ... وأحجارِه بدْرٌ وأضبط ضَيْغَم

فلا يبعدنْك اللهُ حيًّا وميّتاً ... فقد كنتَ نورَ الخطبِ والخطبُ مُظلِمُ

لعمرُ الذى حُطَّتْ إليه على الوَنَا ... حدابيرُ عوجٌ نيُّها مُتَهمِّمُ]

لقـــد هدم العلياء موتُك جانبا ... وكان قديما رُكْنُها لا يُهدَّمُ

[بلاغة الأعراب]

أعرابى يصف قومه

قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يذكر قومه فقال : كانوا إذا اصطفُّوا تحت القَتَام ، مطرت بينهم السّهام ، بشؤبوب الحِمَام[1] ، وإذا تصافحوا بالسيوف ، فغرت أفواهها الحُتُوف ، فرب قِرْن عارِم قد أحسنوا أدبه ، وحَرْبٍ عبوس قد أضحكتها أسنتهم ، وخَطْب مُشْمَئِزّ ذَلّلوا مناكبه ، ويوم عَماس قد كشفوا ظُلْمَته بالصبر حتى تتجلّى . كانوا البحر لا يُنكَش غُمَاره ، ولا يُنْهَنه تيّاره .

أعرابى يصف حاله عند الموت

قال العتبى : سئل أعرابى عن حاله [عند موته] فقال : أجدنى مأخوذا بالنّقلة ، محجوجا بالمهلة ، أُفارق ما جمعت ، وأقدم على ما ضيَّعت ، فيا حيائى من كريم قدَّم المعذرة ، وأطال النظِرَة[2] ، إن لم يتداركنى بالمغفرة ، ثم قضى .

الإخوان ثلاثة

وقال بعضُ الرواة : كان يقال : الإخوان ثلاثة : أخ يخلصُ لك وُدَّه ، ويبلغ لك فى مهمّك جُهْده ، وأخ ذُو نيَّةٍ يقتصرُ بك على حسن نيته ، دون رِفْدِه[3] ومعونته ، وأخ يجاملك بلسانه ، ويشتغل عنك بشأنه ، ويوسعك من كذبه بأيمانه .

أعرابية تسأل

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وقفت علينا أعرابية فقالت : يا قوم ، تعثر بنا الدهر ، إذ قلّ منا الشكر ، وفارقنا الغِنى ، وحالفنا الفقر ، فرحم الله امرأ فهم

(١) القتام : الغبار الذى أثارته الخيل فى المعركة ، والشؤبوب : الدفعة من المطر (م)

(٢) النظرة : التأخير والتأجيل (م) (٣) الرفد ــ بالكسر ــ العطاء (م)

بعقل ، وأعطى من فَضْل ، وواسَى مِنْ كَفَاف ، وأعان على عَفَاف .

[ذل السؤال]

قال أبو بكر الحنفى : حضرتُ مسجد الجماعة بالكوفة ، وقام سائلٌ يتكلّم عند صلاةِ الظهر ثم عند العصر والمغرب ، فلم يُعطَ شيئاً ، فقال : اللهم إنك بحاجتى عالم غير معلّم ، واسعٌ غير مكلَّف ، وأنت الذى لا يرزؤك نائل ، ولا يُحْفيك(١) سائل ، ولا يبلغ مِدْحَتَك قائل ، أنت كما قال المُثْنُون ، وفوق ما يقولون ، أسألك صبراً جميلا ، وفرجاً قريباً ، ونَصْراً بالهدى ، وقرّة عين فيما تحب وترضى ، ثم ولّى لينصرف ، فابتدره الناسُ يعطونه ، فلم يأخذ شيئاً ، ثم مضى وهو يقول :

ما اعتاض باذلُ وجهه بسؤالِه عِوَضاً ، ولو نال الغِنَى بسُؤَالِ
وإذا السؤالُ مع النوال وَزَنْتَهُ رجَح السؤال وخفَّ كلُّ نَوَالِ

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة الأهوازية (المكفوفية)

ومن مقامات الإسكندرى إنشاء البديع : حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنت فى بلاد الأهواز ، وقُصارايَ لفظة شرود أصيدها ، أو كلمة بايغة أستفيدها ؛ فأدّانِي السير إلى رُقْعَةٍ [من البلاد] فسيحة ، وإذا هناك قومٌ مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبط الأرض بعصاً على إيقاع لا يختلفُ ، وعلمت أنّ مع الإيقاع لَحْناً ، ولم أبْعُدْ لأنال من السماع حظًّا ، أو أسمع من البليغ لَفْظاً ، فما زلت بالنظّارة ، أزحَم هذا وأدفعُ ذاك ، حتى وصَلْتُ إلى الرجل ، وصرفت الطرف منه إلى حُزُقَّةٍ كالقُرْنَبِ(٢) ، مكفوف فى شَمْلة من صوف ، يَدُور كالخُذْروف(٣) ، مُتَبَرْنِساً بأطْوَلَ منه ، معتمِداً على عصاً فيها جلاجل ، يَضْرِبُ الأرض بها على إيقاعٍ غَنِج ، ولفظٍ هَزِج ، من صدرٍ حَرِج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقل دَيْنى ظَهْرِى وطالبتنى طَلّتِى بالمَهْرِ(٤)

---

(١) لايحفيك ــ بالحاء المهملة ــ لايثقل عليك ، ووقع فى نسخة « لايخفيك » تحريف (م) (٢) الحزقة : القصير المتقارب الخطو ، والقرنب ــ بوزن جعفر ــ اليربوع أو الفارة (م) (٣) الخذروف : لعبة من لعب الصبيان (م) (٤) الطلة : الزوجة (م)

أَصْبحتُ من بعد غِنًى وَوَفْرِ ساكِنَ قَفْرٍ وحليفَ فَقْرِ
يا قومُ هـــل بينكمُ من حُرٍّ يُعينني على صُروفِ الدهرِ
يا قومُ قد عِيل بفَقْرِي صَبْرِي وانْـكشفَتْ عني ذيولُ السِّتْرِ
وفَضَّ ذا الدهرُ بأيدي البَتْرِ ما كان لي من فضّة وتِبْرِ
آوِي إلى بيت كَقِيدِ الشِّبْرِ خاملَ قَدْرٍ وصغـــيرَ قِدْرٍ[1]
لو ختم اللهُ بخـيرٍ أمري أعقبني من عُسْرَة بِيُسْرِ
هل من فتى فيـكم كريم النَّجْرِ محتسب فِيَّ عظـيم الأجر

إن لم يكن مغْتنما للشكر

قال عيسى بن هشام : فرقَّ له والله قلبي ، واغرورقت عيني ، وما لبثت أن أعطيته دينارا كان معي ، فأنشأ يقول :

يا حُسْنَها فاقِعَـةٌ صفراء معشوقة منقوشةٌ قَوْرَاء
يكاد أنْ يَقْطُر منها المـاء قد أثمرَتْها هِمَّـــةٌ عَلْيَاء
نَفْسُ فتًى يملِـكُهُ السَّخَاء يصرفه فيــه كما يَشَاء
يا ذا الذي يعنيه ذَا الثناء ما يتقضَّى قَدْرَكَ الإِطْرَاء

فامْضِ على الله لكَ الجزاء

ورحم الله من شدَّها في قَرَن بمثلها ، وآنسها بأُختها، فناله الناس ما نالوه[2]؛ ثم فارقهم وتبعتُه ، وعلمتُ أنه متعامٍ لسرعة ما عرَف الدينار ، فلما نظمَتْنا خَلْوة مددتُ يُمْناي إلى يسرى عَضُدَيه ، وقلت : والله لتريَنّي سِرَّك ، أو لأكشفنَّ سِتْرك ؛ فـكشف عن توأَمَتي لوْز[3] ،وحَدَرت لثامه،فإذا هو والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت : أنت أبو الفتح ؟ فقال : لا

أنا أبو قَلَمُونِ في كلِّ لَوْنٍ أكُونُ

(١) كقيد الشبر : كقدره (م) (٢) ناله الناس : أعطوه م)
(٣) توأمتي لوز : كناية عن حدة عينيه .

اخْتَزْ من الكسب دُوناً　　فإنّ دَهْــــرَكَ دُونُ
زَجِّ الزمان بحُمْقٍ　　إنّ الزمان زَبونُ
لا تُخْــــدَعَنّ بعَقْلٍ　　ما العقلُ إلا الجنونُ

[من شعر كشاجم]

وقال أبو الفتح كشاجم :

ما زال حرُّ الشوقِ يَغْلِبُ صَبْرَها　　حتى تحـــدَّرَ دَمْعُها المتعلِّقُ
وجرى من الكُحْلِ السحيق بخدِّها　　خَطٌّ تُؤَثِّرُهُ الدموعُ السُّبَّقُ
فكأنَّ مَجْرَى الدمع حِلْيةُ فضّة　　فى بعضه ذَهبٌ و بعضٌ مُخْرَقُ

وقال :

ما لذةٌ أكلُ فى طيبها　　من قُبلةٍ فى إثرها عَضّهْ
كأنمـــا تأثيرها لمعَةٌ　　من ذَهبٍ أُجرِىَ فى فضّهْ
خَلَسْتُها بالكُرْهِ من شادنٍ　　يَعْشَق بَعضِى بالمُنَى بَعْضَهْ

وقال :

ومستهجنٍ مَدْحِى له إن تأكَّدَتْ　　له عُقَدُ الإخلاصِ ، والحرُّ يُمْدَحُ[1]
ويَأْبَى الذى فى القلب إلاّ تبيّناً　　وكلّ إناء بالذى فيــه يَرْشَحُ

وقال :

و إذا افتخرتَ بأعظُمٍ مقبورة　　فالناس بين مكذِّب ومُصَدِّقِ
فأقِمْ لنفسك فى انتسابك شاهداً　　بحديثِ مَجْدٍ للقديم محقِّق

وقال :

يا مُسْدِىَ العُرْفِ إسراراً و إعلانا　　ومُتْبِع الـــبرِّ والإحسانِ إحسانا[1]
أقْلِـع سحابَك قد غرَّقتنى نِعَماً　　ما أدْمَنَ الغَيْثُ إلاّ كانَ طُوفَانا[2]

---

(١) المسدى : المعطى ، أسدى يسدى : أعطى ، والعرف : المعروف (م)

(٢) أقلع سحابك : أراد اقطع معروفك وعطاءك ، وأدمن : دام وتتابع (م)

هذا مولد من قول أبي نواس :

لا تسدِيَنّ إلىّ عارفَةً حتى أقوم بشُكرِ ما سَلفا

البحترى :

ألحّ جُوداً ولم تَضرُرْ سحائبُهُ وربمـا ضَرَّ فى إلحاحِه المطرُ

مواهبٌ ما تجَشَّمنا السؤالَ لهـا إن الغمام قَليبٌ ليس يحتفَر(١)

وقد أخِذَ على ذى الرمة قولُه :

ألا يا اسلمى يا دارمَىّ على البِلَى ولا زال مُنْهَلاً بجَرْعائِك القَطْرُ

قالوا : وأحسن منه قول طرفة :

فسقى ديارك غَيْرَ مفسدِها صوبُ الربيع وديمةٌ تَهمِى

وقد تحرز ذو الرمة مما تؤول عليه بالسلامة فى أول البيت .

* * *

وقال كشاجم :

أيا نَشوان من خمرٍ بفيهِ متى تَصْحُو وريقُك خَنْدَرِيسُ(٢)

أرى بك ما أراه بذى انتشاء ألحّ عليه بالكاس الجَليسُ

تورُّد وجْنَةٍ وفتورُ لحظٍ تُمرّضــه وأعطافٌ تميسُ

وقال :

وما زالَ يَبْرِى جملةَ الجسم حُبُّها وينقصه حتى نَقَصْتُ عن النقصِ(٣)

وقد ذُبْتُ حتى صِرْتُ إنْ أنا زرتها أمِنتُ عليها أن يَرَى أهْلُها شخصِى

[الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره]

كتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء : نَبَتْ بى غرّةُ الحداثة ، فردّتنى إليك التجربة ، وقادَتنِى الضرورة ، ثقةً بإسراعك إلىّ وإن أبطأْتُ عنك ،

---

(١) تجشمنا : تكلفنا ، والقليب : البئر (م) (٢) الخندريس : اسم من أسماء الخمر (م) (٣) يبرى : ينحل ويهزل ويضعف ، وفى نسخة « على النقص »(م)

وقبولك العذرَ وإن قصرتُ عن واجبك ، وإن كانت ذنوبى سدَّتْ علىّ مسالكَ الصفح عنى ، فراجِعْ فىَّ مجدك وسؤددك ، وإنى لا أعرف موقفاً أذل من موقفى ، لولا أنّ المخاطبة فيه لك ، ولا خطَّة أدْنى من خُطَّتى ، لولا أنها فى طلب رِضاك .

وهذا المعنى الذى ذهب إليه من الرجوع إلى الرئيس بعد تجربة غيره قد أكثر الناسُ منه قديماً وحديثاً وسأفيض فى طرفٍ من ذلك :

وأنشد أبو عبيدة لزياد بن مُنْقِذ الحنظلى ، وهو أخو [المرار العَدَوى ، نسب إلى أمة العدوية ، وهى فُكَيهة بنت تميم بن الدُّوَل بن جَبَلَة بن عدى بن] عبد مناة بن أُد بن طابخة ؛ فولدت لمالك بن حنظلة عديًّا ويربوعاً ؛ فهؤلاء من ولده يقال لهم [بنو] العَدَوِيّة ،وكان زيادٌ نزل بصَنْعَاء فاجتواها[1] ومنزله بنجد، فقال فى ذلك قصيدة يقول فيها وذَكَرَ قومه :

مُخَدَّمون ثِقَالٌ فى مجالسهم ... وفى الرحال إذا صاحبتهم خَدَمُ[2]

لم أَلْقَ بعدهمُ حيًّا فأَخبرَهم ... إلاّ يزيدهمُ حبّا إلىّ همُ

[وأراه أول من استثار هذا المعنى .

وكان ابنُ أبى عَرَادة السعدى مع سلم بن زياد بخراسان وكان له مكرِما فتركه وصحب غـيره فلم يحمد أمره ، فرجع إليه ، فقال :

عتبتُ على سَــلْم فلما فقدتُه ... وجرّبْتُ أقواما بكيتُ على سَلْمِ

رجعتُ إليه بعد تجريبِ غيره ... فكان كَبُرْءٍ بعد طولٍ من السقْمِ]

وقال مسلم بن الوليد :

حياتك يابْنَ سعدان بن يحْيَى ... حيــاةٌ للمكارِم والمَعَالِى

جلبت لكَ الثناء فجاء عَفْواً ... ونَفْسُ الشكرِ مطلقةُ العِقَالِ

(١) اجتواها : كرهها واستوخمها (م)

(٢) مخدمون: يكثر غيرهم خدمتهم،وثقال فى مجالسهم: كناية عن الحلم والثبات (م)

وترجعنى إليكَ ـ وإن نَأَتْ بى ديارى عنك — تجربةَ الرجال

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد للبحترى :

أخٌ لك عاداه الزمان فأصبحت مذممةً فيما لديه المطـــــالِبُ
متى ما تَذوَّقه التجاربُ صاحباً من الناس تردُدْهُ إليك التجاربُ

وأنشد :

حياةُ أبى العباس زَيْنٌ لقـــومهِ لــكلّ امرئٍ قاسَى الأمور وجرّبا
ونعتِبُ أحياناً عليــــه ولو مَضَى لَــكُنّا على الباقِى من الناس أعْتَبا[١]

قال الصولى : جرى ذِكْرُ المــكتفى بحضرة الراضى فأطريته وأكثرتُ الثناء عليه ، فقال لى : يا صولى ؛ كنتَ أنشدتنى لجرير :

أسْليك عن زيد لتسلى ، وقد أرى بعينيك من زيد قَذًى ليس يَبْرحُ

فقلت : يا أميرَ المؤمنين ، مَنْ شكر القليل كان للــكثير أشدّ شكراً ، وأعظم ذكراً ، قال : فأين أنا لك من المــكتفى ؟ فأنشدته للطائى :

كم من وساعِ الجودِ عندىَ والنَّدَى لَمّــا جرى وجريت كان قَطوفا[٢]
أحسنتما صَفَدِى ، ولــكن كنتَ لى مثـــلَ الربيع حَياً وكان خريفا
وكِلاَ كما اقْتَعدَ العُلاَ فركبتها فى الذّروة العليـــا وجاء رَدِيفا[٣]
إن غاض ماء المزنِ فِضْتَ ، وإن قَسَتْ كَبِدُ الزمان علىّ كنتَ رءوفا

وكان المــكتفى أول من نادمه الصولى ، واختلط به .

من اسمه على ممن استخلف

ولم يلِ الخلافة أحد اسمه علىّ إلا علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، وعلىّ بن المعتضد المــكتفى بالله ، وكان سبب اتصاله به وانقطاعه إليه أنّ رجلا يعرف بمحمد بن أحمد المــاوردى نزع إلى المــكتفى بالرّقة ، وكان ألعبَ الناس

---

(١) أعتبا : أشد عتبا (م) (٢) الوساع : الواسع ، والقطوف : البطىء السير (م)
(٣) الرديف : الذى يركب خلف راكب (م)

بالشطرنج ، فلما قدم عليه بغداد وهو خليفة قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أعلم الناس بهذه الصناعة ، فأقطعنى ما كان للرازى الشطرنجى ؛ فغاظ ذلك المكتفى، وندب له الصولى فلم يُرَ معه الماوردى شيئاً . فقال له المكتفى : صار ماء وردك بَوْلا ، قال الصولى : فأقبل المكتفى علىّ ورتّبنى فى الجلساء ، فحجبت يوما عنه ، واتصل بى أن خصمى شمّت بى ، فكتبت قصيدة للمكتفى أقول فيها :

قد ساء ظنُّ النــاس بى وتنكّروا   لمّـا رأونى دون غيرىَ أُحْجَبُ
إن كان غَلْبيـــه يُقرِّبُ أمرهُ   دونى فإنى عن قـــريب أُغْلَبُ

فضحك، وأمر لى بمائتى دينار ، واندرجْتُ فى خدمته .

[فى بيعة يزيد بن معاوية]

اجتمعت وفودُ العرب عند معاوية رحمهُ الله تعالى ، وكان إذا أراد أن يفعل شيئاً ألقى منه ذرءا إلى الناس (١) ، فإذا امتنعوا كفّ، وإن رَضُوا أمضى ، فعرض ببيعة يزيد ، فقامت خطباء معدّ فشققوا الكلام ، وأطنبوا فى الخطاب ، فوثب شابٌ من غسّان قابضاً على قائم سيفه ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنّ الحَيْفَ فى حكم السيف (٢)، و بعد النسيم الهَيْف (٣)؛ فإنّ هؤلاء عجزوا عن الصّيال، فعوّلوا على المَقَال ، ونحن القاتلون إذا صُلْنَا ، والمعجبون إذا قلنا ، فمن مال عن القَصْدِ أقمناه ، ومن قال بغير الحق وقَمْنَاه (٤) ، فلينظر ناظرٌ إلى موطىء قَدَمه ، قبل أن تَدْحض فيَهْوِى هوِىَّ الحجر من رأس النِّيق (٥)؛ فتفرّق الناس عن قوله، ونَسُوا ما كانوا فيه من الخطب .

---

(١) ذرءا : أى شيئا منه ، ووقع فى نسخة « ألقى منه طرفا » (م)
(٢) الحيف : الظلم والجور (م) (٣) الهيف : ريح حارة (م)
(٤) وقمناه : قهرناه وأذللناه (م) (٥) النيق : أرفع موضع فى الجبل (م)

[فى الإقدام حياة]

وقال المهلب يوماً لجلسائه : أراكم تعنّفوننى فى الإقدام ، قالوا له : إى والله، إنك لسَقوط بنفسك فى المهالك ، قال : إليكم عنى ! فوالله لولا أن آتى الموت مسترسلا، لأتانِى مستعجلا ؛ إنى لستُ آتى الموتَ من حُبّه، إنما آتيه من بُغضِه، ثم تمثّل بقول الُحصَين بن الُحمَام المرى :

[تأخرت أستبقى الحياة فلم أجِدْ ... لنفسى حياة مثــلَ أن أتقدما

ومن هذا أخذ أبو الطيب المتنبى قوله] :

أرى كلّنا يَهْوى الحياةَ لنفسهِ ... حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا

فحبُّ الجبانِ النفسَ أورده التُّقَى ... وحبُّ الشجاعِ النفسَ أورده الحَرْبَا

وقال أبو دلف:

الحربُ تَضْحَكُ عن كَرِّى و إقدَامى ... والخيلُ تعرفُ آثارِى وأيَّامِى

سَــيْفِى مُدَامِى، ورَيْحَانى مثقفتى، ... وهمَّتى مِقَةُ التفصــيل لِلْهَامِ(١)

وقد تجرَّد لى بالحســن منفردا ... أمْضَى وأشْــجَع منى يوم إقدامى(٢)

سلّت لواحظُه سيفَ السّــقَامِ على ... جسمى فأصبح جسمى رَبْعَ أسقامِ

[من أخبار أبى دلف وشعره]

وكان أبو دلف شاعراً مجيداً ، وجواداً كريماً، جامعاً لآلات الأدبِ والظرف، وله شعرٌ جيد فى كل فن ، وهو القائل :

أحبــك يا جَنَان؛ فأنتِ منى ... محلّ الروحِ من جسَدِ الجبانِ

ولو أنى أقول : مكان روحى ... لخِفْتُ عليكِ بادِرَة الزمانِ

---

(١) اللقة : المحبة ، ووقع فى نسخة « وهمتى نية التفصيل » (م)

(٢) فى نسخة « وقد تجرد بالحسن ذو بدع » (م)

لإقدامى إذا ما الخيلُ جالَتْ　　　وهاب كُماتُها حَرَّ الطِّعَانِ[١]

وكان يتعشَّق جارية ببغداد فإذا شخَصَ إلى الحضرة زارها ، فركب فى بعض قَدَماته إليها ، فلما صار بالجسر مشَى على طرف طيلسان بعض المارّين ، فخرقه ، فأخذ بعِنانه، وقال : يا أبا دلف ؛ ليست هذه كرخك، هذه مدينة السلام؛ الذئب والشاة بها فى مَرْبَع واحد ! فثنى عنانه متوجّهاً إلى الكرخ ، وكتب إلى الجارية :

قَطَعَتْ عن لقائك الأشغالُ　　　وهمومٌ أَتَتْ علىَّ ثِقَالُ

فى بلاد يُهَانُ فيها عزيزُ الـقوم حتى تنالَه الأنذالُ

حيثُ لا مدفعٌ بسيفٍ عن الضيـم ولا للكُمَاةِ فيها مجالُ[١]

ومقام العزيز فى بَلد الهو　　　ن إذا أمكن الرحيلُ محالُ

فعليك السلام يا ظَبْيَة الكَرْ　　　خ أقمتم وحان منَّا ارتحالُ

ودخل أبودلف على المأمون بعد الرِّضا عنه،فسأله عن عبد الله بن طاهر.فقال: خلَّفتُه يا أميرَ المؤمنين أمين غَيْب ، نصيح جَيْب ، أسداً عاتياً ، قائماً على برَائنه، يسعد به وليُّك، ويَشْقَى به عدوُّك، رَحْبَ الفِناء لأهل طاعتك ، ذا بأس شديد لمن زاغ عن قَصْدِ محجَّتِك ، قد فقّهه الحزْم ، وأيقظَه العزْم ، فقام فى نحر الأمور على ساق التشمير ، يُبْرِمها بأَيْدِه[٢] وكَيْدِه ، ويفلّها بحدِّه وجدِّه ؛ وما أشبهه فى الحرب إلا بقول العباس بن مرداس :

أكرُّ على الكتيبة لا أبالى　　　أحَتْفِى كان فيها أمْ سِوَاها

[فقال قائل : ما أفصحه على جَبَلِيَّتِهِ ! فقال المأمون : وإن بالجبل قوما أمجاداً ، كراماً أنجاداً ، وإنهم ليوفُّونَ السيفَ حظّه يوم النّزال ، والكلام حقَّه يوم المقال ، وإن أبا دلف منهم] .

---

(١) الكماة : جمع كمى ، وهو الفارس المتكمى فى سلاحه ، أى المستتر (م)

(٢) الأيد : القوة (م)

[من رسائل الميكالى]

فصل لأبى الفضل الميكالى من كتاب تعزية عن أبى العباس بن الإمام أبى الطيب .

لئن كانت الرزيّة بمصيبةٍ مُؤْلمة ، وطُرُقُ العزاء والسَّلْوة مبهمة ، لقد حلّت بساحةِ من لا تُنْتَقَضُ بأمثالها مرائرُه ، ولا تَضْعُفُ عن احتمالها بصائرُه ، بل يتلقّاها بصَدْرٍ فسيح يَحْمِى أن يَفْتَحَ الحزنُ بابه ، وصبرٍ مشيح يحمى أن يُحْبطَ الجزعُ أجره وثوابَه ، ولم لا وآدابُ الدينِ من عنده تُلتمس ، وأحكامُ الشرع من بنَانِه ولسانه تستفاد وتُقتَبَس ، والعيونُ ترمُقُه(١) فى هذه الحال لتجرىَ على سَنَنه ، وتأخذَ بآدابه وسُننه ؛ فإن تعزَّت القلوب فبحُسْنِ تماسكه عزاؤها ، وإن حسُنَت الأفعال فإلى حميدِ أفعاله ومذاهبه اعتزاؤُها .

وله من تعزية إلى أبى عمرو البحترى : قدّس الله رُوحَه ، وسقى ضريحه ؛ فلقد عاش نبيه الذِّكْر ، جليلَ القَدْرِ ، عَبِقَ الثناء والنَّشْر ، يتجمَّل به أهل بلده ، ويتباهى بمكانه ذوو مودَّتِه ، ويفتخر الأثَرُ وحاملوه بتراخى بقائه ومُدَّتِه، حتى إذا تسنَّم ذِرْوةَ(٢) الفضائل والمناقب ، وظهرت محاسنُه كالنجوم الثواقب ، اختطفته يدُ المِقْدَار ، ومُحِىَ أثره بين الآثار ، فالفضلُ خاشعُ الطَّرْفِ لفَقْدِه ، والكَرَمُ خالى الرَّبْع من بعده ، والحديثُ يندبُ حَافِظَه ودَارِسَه ، وحُسْنُ العهد يبكى كافله وحارسه .

وله : فأما الشكرُ الذى أعارنى رداءه ، وقلّدنى طَوْقَه وسناءه ؛ فهيهات أن ينتسب إلا إلى عادات فَضْله و إفضاله ، ولا يسيرَ إلاَّ تحت رايات عُرْفه ونَوَاله ، وهو ثوب لا يحلَّى إلا بذكره طِرَازه ، واسمٌ له حقيقته ولسواه مجازُه ، ولو أنه

(١) ترمقه : تنظره وتتطلع إليه (م)

(٢) تسنم : علا ، وأصله ركب فوق السنام ،وهو أعلى مكان فى الإبل ؛ وذروة كل شىء : أعلاه (م)

حين ملكَ رِقِّى بأياديه ، وأعجز وُسْعِى عن حقوق مكارِمه ومساعيه ، خلَّى لى مذهبَ الشكر ومَيْدَانه ، ولم يجاذبنِى زِمامَـه وعنانه ، لتعلَّقت عن بلوغ بعض الواجب بعُرْوَة طَمَع ، ونهضت فيه ولو على وَهن وظَلَع [١] ، ولـكنه يَأبى إلا أن يستولى على أمدِ الفضائل ، ويتسنم ذُرَا الغوارب منها والـكواهل ؛ فلا يَدَعُ فى المجد غايةً إلاّ يسبق إليها فارطا ، ويُخَلِّفُ من سوَاهُ عنها حسيراً ساقطاً ؛ لتكون المعالى بأسرِها مجموعة فى مِلْـكِه ، منظومةً فى سِلْـكِه ، خالصةً له من دعوى القسيم وشِرْكِه .

وله فصل من كتاب إلى أبى سعيد بن خلف الهمذانى : فأما التُّحْفَةُ التى شَفعها بكتابه فقد وصلَتْ ، فكانت ضَرَّةً لزَهْرِ الربيع ، موفية بحُسْنِ الخطِّ على الوَشْىِ الصنيع ، وليس يَهتَدِى لمثل هـذه اللطائف فى مَبَرَّةِ الإخوان ، إلاَّ من يُعَدُّ من أفراد الأقران ، ولا يَرْضَى من نفسه فى إقامةِ شَعائِر البرّ دون القِران [٢] ، والله يمتّعه بما منَحَهُ من خصائص هى فى آذان الزمان شُنُوف [٣] ، وفى جِيده عقد مرصوف .

[عتـــاب]

للخريمى يعاتب الوليد بن أبان

وقال أبو يعقوب الخريمى يعاتب الوليد بن أبان :

أتعجب منى إن صبرتُ على الأذى	وكنتُ امرأً ذا إرْبةٍ متجمِّلاَ
فإنِّى بحمـــد الله لا رَأْىَ عاجزٍ	رأيت ، ولا أخطأْت للحقِّ مَفْصِلا
ولـكن تدبَّرْتُ الأمورَ ؛ فلم أجِدْ	سوى الحلم والإغضاء خيراً وأفضلاَ
وأقسم لولا ســـالِفُ الودِّ بيننا	وعهــدٌ أبَتْ أركانه أن تزَيَّلاَ
وأيامُك الغـــرُّ اللواتى تقدَّمَتْ	وأوليتنيهـــا مُنْعِماً مُتَطَوِّلا

(١) الوهن : الضعف ، والظلع : أن تغمز فى سيرك (م)

(٢) القران ــ بكسر القاف ــ أن تجمع الشىء إلى الشىء (م)

(٣) الشنوف : جمع شنف ــ بالـكسر ــ وهى حلية تلبس فى أعلى الأذن (م)

رحلتُ قلوصَ الهَجْرِ ثم اقتعدتها | إلى البعد ماألفيت فى الأرض مَعْمَلا
وأ كْرَمْتُ نفسى والكرامةُ حظُّها | ولم ترنى لولا الهـوَى متذلِّلا
وعارضت أطراف الصَّبَا أبْتغِى أخاً | يُعِـينُ إذا ما الهمُّ بالمرء أعْضَلاَ
أخاً كأبى عمـرو ،وأنَّى بمثلهِ | إذا الحُرُّ بالمجـدِ ارتدَى وتَسَرْبَلاَ
جزى الله عثمان الخريمىَّ خـيرَ ما | جزى صاحباً جَزْلَ المواهب مُفْضِلا
أخًا كان إن أقبلتُ بالودِّ زادنى | صفاء و إن أدبرتُ حَنّ وأقبـلا
أخًا لم يخنِّى فى الحيـاة ولم أبِتْ | يخوّفنى الأعداءُ منـه التنقّلا
إذا حاولوهُ بالسـعاية حاولوا | به هَضْبَةً تأبَى بأنْ تتَخَلْخَلا
يحكّمنى فى ماله ولسـانهِ | ويركبُ دونى الزاعـبِىّ المؤَللا[1]
كفى جفوةً الإخوانِ طولَ حياتهِ | وأورث ممـا كان أعطى وأجزلا
وبات حميـداً لم يكدِّر صنيعَهُ | ولم أقْلِهِ طولَ الحيـاة ومَاقَلاَ
وكنت أخاً لو دام عهدُكَ واصلاً | نَصوراً إذا ما الشرُّ خَبَّ وهَرْوَلاَ
فغيَّرك الواشـون حتى كأنما | ترانِى شُجَاعا بين عينيك مُقْبِـلا

[من ترجمة أبى يعقوب الخريمى]

وأبو يعقوب هـذا إسحاق بن حسان ، قال المبرد : كان أبو يعقوب جميل الشعر ، مقبولا عند الـكتاب ، وله كلامٌ قوى ، ومَذْهَبٌ متوسط ، وكان يرجع إلى نسب كريم فى الصُّغْد ، وكان له وَلاَءٌ فى غطفان ، وكان اتصاله بمولاه أبى عثمان بن خُرَيم المرى الذى يقال له خُرَيم الناعم ، وكان أبو عثمان هـذا قائداً جليلا ، وسيدا كريما . وسُئل [خُرَيم] عن لَذَّةِ الدنيا،فقال: الأمْنُ فإنه لاعيشَ لخائف ، والعافيةُ فإنه لا عيشَ لسقيم ، والغِنَى فإنه لا عيشَ لفقير . وقيل له :

---

(١) الزاعبى : الرمح الذى إن هززته تدافع كله ، والمؤلل : المحدد طرفه (م)

ما بلغ من نعمتك ؟ قال : لم ألبس جديداً في صيف ، ولا خَلَقا في شتاء . وفي نسبه في الصُّغْد يقول :

أبا لصُّغْدِ باس أن تعيرني جُمْلُ — سَفاها ومن أخلاق جارتنا البخل[١]
وما ضرَّنِي أنْ لم تَلِدْني يُحَابِر — ولم تَشْتَمِلْ جَرْم عَلَيَّ ولا عُكْلُ[٢]

يقول فيها :

[ودون الندى في كل قلب ثنيةٌ — لها مَصْعَدٌ حَزْنٌ ومُنْحَدَرٌ سهلُ]
ووَدُّ الفتَى في كل نَيْلٍ يُنيلهُ — إذا ما انقضى لو أن نائلَه جَزْل
وأعلم علما ليس بالظن أنه — لكل أناس من ضرائبهم شَكْلُ
وأن أخِلاَّء الزمانِ غَناؤهم — قليلٌ إذا ما المرء زَلَّت به النعْلُ
تَزَوَّدْ من الدنيا متاعاً لغيرها — فقد شَمَّرَتْ حَذَّاء وانصرم الحَبْلُ[٣]
وهل أنت إلا هامةُ اليوم أو غدٍ — لأمِّك من إحدى طوارقها الثُّكْلُ

وقال يتشوق الحسن بن التَّخْتَاخ[٤] :

ألاَ مُبلغٌ عنى خليلى ودونهُ — مطا سَفَرٍ لا يَطْعَمُ النومَ طالِبُهْ
رسالةَ ثاوٍ بالعراق ورُوحهُ — بفُسطاط مصر حيث جُمَّت عجائبُه
له كلَّ يوم حَنَّةٌ بعد رَنَّة — يجيش بها في الصدر شوق يغالبه
إلى صاحب لا يُخْلِقُ النأيُ عَهْدَهُ — لناه ولا يَشْقَى به من يُصَاقِبُه
تَخَيَّره حرًّا نقيًّا ضميرهُ — جميلا محيّاه كريماً ضرائبُه
هو الشهدُ سِلْماً ، والذُّعافُ عَدَاوَةً — و بَحْرٌ على الورّاد تجرى غَوارِبُهْ
فياحَسَنَ الحُسْنِ الذى عَمَّ فضلهُ — وتمت أياديه وجُمَّتْ مناقِبُه
إليك على بُعْدِ المزار تطلّعتْ — نوازعُ شَوْقٍ ما تُرَدُّ عوازِبُه
أرى بعدك الإخوانَ أبناء عَلّةٍ — لهم نَسَبٌ في ودِّهم لا أناسبه

(١) في نسخة « أن يغيرني الجهل » وليس بذاك (م)
(٢) يحابر ، وجرم ، وعكل : من قبائل العرب (م)
(٣) في نسخة « فقد شمرت حدباء » والحذاء : السريعة (م)
(٤) في نسخة « ابن المحتاج » وفي أخرى « ابن البحناج » (م)

فهل يَرْجِعَنْ عيشى وعيشُكَ مَرّةً ببغداد دَهرٌ مُنْصِفٌ لا نُعاتِبُه
لَيالِيَ أرْعَى فى جَنَابِك رَوْضَةً وآوِي إلى حِصْنٍ مَنِيع مراتبُه[١]
وإذ أنت لى كالشهد بالرّاح صُفِّقا بماء رِصافٍ صفّقتْهُ جَنائبُه[٢]
عسى ولعلّ اللهَ يجمعُ بيننا كما لاءمت صَدْع الإناء مَشاعِبُه

فقر وفصول فى معان شتى

قال العتابى : حظّ الطالبين من الدّرْك، بحسب ما استصحبوا من الصَّبْر.

بعض الحكماء : الحلم عُدّة للسفيه ، وجُنّة من كَيْدِ العدو ، وإنك لن تقابل سفيها بالإعراض عن قوله إلاّ أذللتَ نفسه ، وفَللْتَ حدّه ، وسَللْتَ عليه سيوفاً من شواهد حِلْمِك عنه ، فتولّوا لك الانتقامَ منه .

وقال آخر : العجلة مكسبة للمذمّة ، مجلبة للندامة ، منفّرة لأهل الثقة ، مانعة من سدَادِ الرغبة .

وأتى العتابىَّ وهو بالرّى رجلٌ يودّعه فقال : أين تريد ؟ قال : بغداد ، قال : إنك تريد بلدا اصطلح أهلُه على صحّة العلانية ، وسَقَم السريرة ، كلُّهم يعطيك كله ، ويمنعك قُلّه

وقال يحيى بن خالد لرجل دخل عليه : ما كان خَبَرُك مع فلان ؟ قال : قد افتديت مكاشفته واشتريت مكاشرته[٣] بألف درهم ، فقال يحيى : لا تبرح حتى يكتبَ الفضلُ وجعفر عنك هذا القول .

قال الأصمعى : سمعتُ أعرابيا يدعو ، ويقول : اللهم ارزقنى عملَ الخائفين ، وخَوْفَ العاملين ، حتى أتنعم بتَرْكِ التنعم ، رجاء لما وعدت ، وخوفا مما أوعدت .

وللعتابى : أما بعد فإنه ليس بمستخلَص غَضَارةُ عيشٍ إلا من خلال مكروهه ،

(١) فى نسخة «منيع ترائبه» (م) (٢) صفقا : خلطا ، ورصاف : جمع رصفة ـ بالتحريك ـ وهى الحجارة المرصوف بعضها إلى بعض فى مسيل الماء ، والجنائب : جمع جنوب ، وهى الريح التى تقابل ريح الشمال (م) (٣) مكاشرته : معالنته بالبغض (م)

ومن انتظر بمعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الأيام فرصته .

كتب بعض الكتاب إلى أخ له : إن رأيت أنْ تحدِّدَ لى ميعاداً لزيارتك ، أتقوّته[1] إلى وقت رؤيتك ، ويُؤنِسُنى إلى حين لقائك ، فعلت إن شاء الله

فأجابه : أخاف أن أعِدَكَ وَعداً يعترضُ دون الوفاء به مالا أقدر على دَفعِه ، فتكون الحسرةُ أعظمَ من الفرقة .

فأجاب المبتدئ : أنا أسر بموعدك ، وأكون جَذِلاً[2] بانتظارك ، فإن عاق عن الإنجاز عائق ، كنتُ قد ربحتُ السرورَ بالتوقُّع لما أحبّه ، وأصبتُ أجرى على الحسرة بما حرمته .

وكتب أخٌ إلى أخ له يستدعيه : أما بعد فإنه من عانى الظَّمأ بفُرْقتِك استوجب الرىّ من رؤيتك ، والسلام .

وكتب آخر فى بابه : يومُنا يومٌ طاب أوّله ، وحَسُنَ مستقبَله ، وأتت السماء بقِطَارها ، فحلَّت الأرضَ بأنوارِها[3] ، وبك تطيب الشّمول ، ويُشْفَى الغليل ، فإن تأخَّرت عنا فرّقت شَمْلَنا ، وإن تعجلت إلينا نظمت أمرنا .

قال إسحاق الموصلى : قال لى ثُمامة بن أشرس ، وقد أصِبت بمصيبة : لمصيبةٌ فى غيرك لكَ ثوابُها ، خير من مصيبة فيكَ لغيرك أجرُها .

ومرّ عُمَر بن ذَر بابْنِ عياش المنتوف ، وكان سَفِه عليه فأعرض عنه ، وتعلّق بثوبه ، وقال : يا هَنَاه ؛ إنا لم نجد لك جزاء إذ عَصَيْتَ اللهَ فينا ، خيراً من أن نُطيعه فيك . أخذه من قول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : ما عاقبتَ من عصى اللهَ فيك بمثل أن تُطيع الله فيه .

وكتب بعضُ الكتاب إلى رئيسه : ما رجائى عدلَكَ بزائدٍ على تأميلى فَضْلك . كما أنه ليس خوفى صِيالك ، بأكثر من خَشْيَتى نكالَك ؛ لأنك

---

(١) أتقوته : أجعله قوتالى (م) (٢) جذلا : مسرورا (م)

(٣) القطار ـ بكسر القاف ـ المطر . والأنوار : جمع نور ـ بالفتح ـ وهو نور الزهر (م)

لا تَرْضَى للمحسن بصغير المَثُوبَة ، كما لا تقنع للمسيء إلاّ بموجع العقوبة .

وقال آخر : ما عسيت أن أشكرك عليه من مَوَاعد لم تُشَبْ بمَطْلٍ ، ومرافِدَ لم تشن بمنّ ، وعهد لم يمازجه مَلَق ، ووُدّ لم يشبه مذق .

وقال آخر : علقت به أسباب الجلالة غير مستشعر فيها بنَخْوة ، وترامت له أحوالُ الصرامة غير مستعمل معها السطوة ، هذا مع دَمَاثة فى غير حَصَرٍ ، ولينِ جانب من غير خَوَر[1] .

فصل لابن الرومى : إنى لَوَلِيُّك الذى لم تزل تنقادُ لك مودتُه من غير طمع ولا جزَع ، وإن كنتَ لذى رغبة مَطمعاً ، ولذى رَهْبة مهربا .

أبو فراس الحمدانى :

كذاكَ الوِداد المَحْضُ لا يرتجى لهُ ثوابٌ ، ولا يُخْشى عليه عقابُ

[بين حنيفة ونمير]

غزَتْ حنيفة نميراً فانتصفوا منهم ، فقيل لرجل منهم : كيف صنعَ قومُك ؟ قال : اتبعونى وقد أحقبوا كل جُمَالية خيفانة[2] ، فما زالوا يخصِفُون [أخفاف] المطيّ بحوافر الخيل ، حتى لحقوهم ؛ فجعلوا المُرّان أرْشِيةَ الموتِ ، فاسْتَقَوْا بها أرْوَاحَهم .

[دعـــاء]

ودعا أعرابى فقال : اللهم إن كان رزقى نائياً فقرِّبه ، أو قريباً فيسِّره ، أو ميسّراً فعجله ، أو قليلا فكثره ، أو كثيراً فثمّره .

[من رسائل البلغاء]

بين المأمون وعامله على الرقة

وكتب عَنْبَسة بن إسحاق إلى المأمون وهو عاملُه على الرّقّة ، يصف خروجَ الأعراب بناحية سِنْجار وعَيْثَهُمْ بها[3] : يا أميرَ المؤمنين ، قد قطع سُبُلَ المجتازِين ،

(١) الدماثة : اللين والسهولة ، والحصر ـ بالتحريك ـ احتباس القول والعى ، والخور : الجبن والضعف (م) (٢) أحقب البعير : جعل عليه الحقب ، وهو حبل يشد به الرحل ، والجمالية ـ بضم الجيم ـ الناقة القوية الوثيقة ، والخيفانة : السريعة (م)

(٣) عيثهم ـ بالفتح ـ إفسادهم (م)

من المسلمين والمعاهدين ، نَفَر من شُـذّاذ الأعراب الذين لا يرقبون فى مؤمنٍ إلاًّ[1] ولا ذِمّة ، ولا يخافون من الله حدًّا ولا عقوبة ، ولولا ثقتى بسيفِ أمير المؤمنين وحَصْده هذه الطائفة ، و بلوغه فى أعداء الله ما يَرْدَع قاصِيَهم ودَانِيَهم ، لأذِنْتُ بالاستنجاد عليهم ، ولاَ بْتَعَثْت الخيلَ إليهم ، وأميرُ المؤمنين مُعَانٌ فى أمورِه بالتأييد والنصر إن شاء الله .

فـكتب إليه المأمون :

أَسْمَعْتَ غَيْرَ كَهام السمعِ والبصر لا يَقْطَع السيفُ إلا فى يَدِ الحذرِ
سيصبح القومُ من سيفى وضاربِه مِثْلَ الهشيم ذَرَتْه الريحُ بالمَطَرِ

فوجّه عنبسة بالبيتين إلى الأعراب ، فما بقى منهم اثنان .

بين الحسن بن سهل والمطلب بن عبد الله

وكتب المطلب بنُ عبد الله بن مالك إلى الحسن بن سهل فى رجل توسّل به :

طَلَبُ العافين الوسائلَ إلى الأمير ـ أعزّه الله ـ يُنْبِىء عن شروعِ مواردِ إحسانه ، و يَدْعُو إلى معرفة فَضْله ، وما أنصفَه ـ أعزه الله تعالى ـ مَن توسّل إلى معروفِه بغيره ؛ فرأىُ الأمير ـ أعزه الله ـ فى التطوّل على من قَصُرَتْ معرفتُه عن ذلك بما يريد الله تعالى فيه موفقاً إن شاء الله تعالى .

فـكتب إليه الحسن : وصلك الله بما وصلتنى فى صاحبك من الأجرِ والشكر ، وأراكَ الإحسان فى قَصْدِكَ إلى بأمثاله فرضاً يفيدك شـكره ، و يعقبك أجره ، فرأيك فى إتمام ما ابتدأتَ به و إعلامى ذلك مشكوراً .

وكان المطلب ممدَّحاً كريما ، وقد حسد دعبل شرَفه و إنعامه،وغبط إحسانه و إكرامه ، إذ يقول :

أَضرب ندى طلحة الطلحات معـترفا بلُؤْم مُطّلب فينا وكن حكما
تَخْلُصْ خزاعةُ من لُؤْم ومن كرم فلا تعدّ لهـا لؤماً ولا كرماً

وأمر طلحة أعْرَفُ من أن يُوصف .

---

(١) الإل ـ بكسر الهمزة وتشديد اللام ـ العهد (م)

وما أبعد قول دعبل من قول البحترى لصاعد بن مخلد وأهل بيته :

بنى مَخْـلَدٍ كفوا تدفُّق جودكم ولا تبخسونا حظنا فى المكارمِ
ولا تَنْصُروا مَجْدَىْ قنان ومخلد بأنْ تذهبوا عنا بسُمْعَة حاتم[1]
وكان لنا اسمُ الجود حتى جعلتمُ تَغُضُّون منا بالخلال الكرائم

[رثاء يزيد بن مزيد]

قال الزبير بن بكار : لما مات يزيدُ بن مَزيد بأرمينية قام حبيب بن البَراء خطيباً ، فقال : أيها الناس ، لا تَقْنَطوا من مثله وإن كان قليلَ النظير ، وهَبُوهُ من صالح دعائكم مثل الذى أخلَص فيكم من نواله ، والله ما تفعل الديمة المَطْلة فى البقعة الجَدْبة ما عملت فينا يدَاه من عدله ونَداه .

فسرق هذا أبو لُبابة [الشاعر] فقال :

ما بقعــةٌ جادَها غَيثٌ وقَرَّ بها فأزهرت بأقاحى النَّبتِ ألوانا
أبهى وأحســنُ مما أثَّرتْ يدهُ فى الشرق والغربِ معروفاً وإحسانا

* * *

[وقال ابن المبارك يمدح يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة :

وإذا تُباع كريمةٌ أو تُشْتَرى فســواك بائعُها وأنت المشترى
وإذا توعَّرت المسالكُ لم يكن فيها السبيلُ إلى نداك بأوْعَر[2]
وإذا صنعت صنيعةً أتممتها بيدَيْن ليس نداهُما بمكدَّر
وإذا همت لمُعْتَفِيك بنائل قال الندى ـ فأطعتَه ـ لك: أكثِرِ[3]
يا واحدَ العرب الذى ما إن لهم من معــدَل عنه ولا من مَقْصَر]

---

(١) فى نسخة « ولا تنصروا مجدى قيان ومخلد » وفى ديوان البحترى «قنان وخالد » (م) (٢) توعرت المسالك : صعبت وشقت على سالكها ، والندى ـ بزنة الفتى ـ الجود والكرم (م) (٣) المعتفى ، ومثله العافى : طالب المعروف (م)

[من رسائل بديع الزمان]

كتب البديع أبو عبد الله أحمد بن الحسين بن يحيى : أما أبو فلان فلا شك أنّ كتابى يَرِدُ منه على صَدْرٍ مَحَا اسْمِى من صحيفته، وقطع حَظِّى من وظيفته، ونَسِى اجتماعنا على الحديث والغزل، وتصرفنا فى الجدّ والهَزْل، وتقلّبنا فى أعطاف العيش، بين الوقار والطَّيْش، وارتضاعنا ثَدْىَ العشرة؛ إذ الزمان رقيقُ القشرة، وتواعُدنا أن يلحق أحدُنا بصاحبه، وتصافحنا من قبل ألاّ نصرم الحبل، وتعاهدنا من بعد ألاّ ننقض العهد، وكأنى به وقد اتخذ إخوانا فلا بأس، فإن كان للجديد لذة فللقديم حُرْمة، والأخوّة بُرْدَة لا تضيق بين اثنين، ولو شاء عاشرنا فى البَيْن، وكان سألنى أن أرتاد له[1] منزلاً ماؤه رَوِىّ، ومرعاه غَذِىّ، وأ كاتبه ليُنهِض إليه راحلته؛ فهاك نيسابور[2] ضَالّته التى نشدتها وقد وجَدْتُها، وخراسان أُمنيته التى طلبتها وقد أصَبْتُهَا، وهذه الدولة بغيته التى أرادها وقد وردتها، فإن صدّقنى رائداً، فليأْتنى قاصداً.

وله إلى بعض إخوانه يعزيه عن أبيه : وصلَتْ رقعتُك ياسيدى والمصاب لعمر الله كبير، وأنتَ بالجزَع جدير، ولكنك بالعزاء أجدر، والصبرُ عن الأحبّة رشد كأنه الغىّ، وقد مات الميت فَلْيَحْىَ الحىّ، والآن فاشدُدْ على مالك بالخمس، فأنتَ اليوم غيرُك بالأمس، وكان الشيخُ رحمه الله وكيلك، تَضحك ويبكى لك، وقد موّلك ما ألَّف فى سراه[3] وسيره، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره، وسيعجُمُ الشيطان عودَك، فإن استلانك رماك بقومٍ يقولون : خيرُ المال ما أُتلِف بين الشراب والشباب، وأُنفق بين الحَبَاب[4] والأحباب، والعيش بين القِدَاح والأقداح[5]، ولولا الاستعمال، ما أريد المال ! فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب، وغداً فى الخراب، واليوم وَاطَرباً للكاس، وغداً واحَرَباً من

---

(١) أرتاد: أطلب (م)   (٢) فى نسخة «فهاهى نيسابور» (م)

(٣) فى نسخة «ما ألف من سراه» (م)   (٤) الحباب ـ بفتح الحاء ـ وهى نفاخات الماء (م)   (٥) القداح : أراد بها قداح الميسر . والأقداح : أراد بها كؤوس الخمر، يعنى يضيع المال بين المقامرة والسكر (م)

الإفلاس ، يامولاى ذلك الخارجُ من العود يسمِّيه الجاهل نَقْراً ، ويُسَمِّيه العاقل فقْرا . وكذلك المسموع فى الناى ، هو فى الآذان زَمْرٌ ، وفى الأبواب سَمْرٌ ، فإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودك من هذا الوجه ، رَماك بقوم يمثّلون الفقرَ حِذَاء عينيك ، فتجاهد قلْبك ، وتحاسب بَطْنك ، وتناقش عِرْسك[1] ، وتَمْنع نفسَك ، وتتوقّى دنياك بوزرك ، وتراه فى الآخرة فى ميزان غَيْرك ، لا ، ولكن قَصْداً بين الطريقين ، وميلا عن الفريقين ، لا مَنْع ولا إسراف ، والبخل فَقْرٌ حاضر ، وضرٌّ عاجل ، وإنما يبخلُ المرء خيفة ما هو فيه .

ومن ينفق الساعاتِ فى جَمْعِ ماله   مخافةَ فَقْرٍ فالذى صنع الفقرُ

وليكن لله فى مالك قسم ، وللمروءة قسم ؛ فصِلِ الرَّحم ما استطعت ، وقدّر إذا قطعت ، فلأنْ تكون فى جانب التقدير ، خيرٌ من أن تكون فى جانب التبذير .

وله إلى رئيس عناية برجل : كتابى أطال الله بقاء الرئيس ، والكاتب مجهول ، والكتاب فضول ، وبحسب الرأى مَوْقعه ، فإنْ كان جميلا فهو تطَوُّل ، وإن كان شَيْناً فهو تَقوُّل ، وأيةً سلك الظنّ فله ـ أيّده الله تعالى ـ المنّ ، من نيسابور عن سلامةٍ شاملة نسألُ الله تعالى ألاَّ يُلْهينا بسكرها ، عن شُكْرِها ، والحمد لله رب العالمين . يقول الشيخ ـ أيّده الله تعالى : مَنْ هذا الرجل ؟ وما هذا الكتاب ؟ فأمّا الرجلُ فخاطِبُ وُدّ أولاً ، وموصلُ شكرٍ ثانيا ؛ وأما الكتابُ فلِحام أرحام الكرام ؛ فإن يُعِن اللهُ الكِرامَ تتَّصِل الأرحام . هذا الشريفُ قد جار به زمانُ السوء ؛ فأخرجه من البيت الذى بلغ السماءَ مَفْخَرا ، ثم طلب فوقه مَظْهَرا[2] ؛ وله بعدُ جلالةُ النسب ، وطهارةُ الأخلاق ، وكرمُ العَهْد ، وحضرنى فسألته عما وراءه ، فأشار إلى ضَالَّةِ الأحرار ، وهو الكرم مع اليسار ،

---

(١) عرس الرجل ـ بكسر العين وسكون الراء ـ زوجه (م)

(٢) هاتان الفقرتان مأخوذتان من قول النابغة الجعدى :

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا   وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

وَنبَّه على قَيد الكرام ، وهو البِشر مع الإنعام ، وحدَّث عن بَرْدِ الأكباد ، وهو مساعدة الزمان للجَوَادِ ، ودلَّ على نزهة الأبصار ، وهو الثَّراء ، ومُتْعَة الأسماع ، وهو الثناء ، وقلّما اجتمعا ، وعَزَّ ماوُجِدَا معا . وذكر أنّ الشيخَ الرئيس — أيده الله — جامعُ هــذه الخيرات ، وسألنى الشهادةَ له ، وَبَذْلَ الخط بها ، ففعلت ، وسألتُ الله إعانته على هِمَّته ؛ فرأىُ الشيخ — أيده الله تعالى فى الوقوف على ما كتبت ، وفى الإجابة - إنْ نَشِطَ — الموفق إن شاء الله

وله إلى ابن أخته : وَصَلَ كِتابُك بما ضَمّنته من تَظَاهُرِ نعم الله عليك ، وعلى أبويك ، فسكنت إلى ذلك من حالك ، وسألتُ اللهَ بقاءك ، وأن يرزقنى لقاءك ، وذكرت مصابك بأخيك ، رحمه الله تعالى ، فكأنما فتّ عَضُدِى ، وطَعَنْتَ فى كبدى ، فقد كنت معتضداً بمكانه ، والقدرُ جارٍ لشانه ، وكذلك المرء يدبّر ، والقضاء يدمّر ، والآمال تنقسم ، والآجال تَبْتسم ، فاللهُ يجعله لك فَرَطاً ، ولا يُرِينى فيك سُوءاً أبداً ، وأنت إن شاء الله تعالى وارثُ عمره ، وسدادِ ثَغْرِه ، ونِعْمَ العِوَضُ بقاؤك .

إنَّ الأشاء إذا أصاب مُشَذِّبًا   منــه اتمهل ذُراً وأثَّ أسافِلاَ(١)

وأبوك سيدى أيده الله تعالى وألهمه الجميل ، وهو الصبر ، وأناله الجزيل ، وهو الأجر ، وأمْتَعَهُ بك طويلا ، فما سُــوِّتَ بديلا ، وأنت ولدى ما دمت والعلمُ شانك ، والمدرسةُ مكانك ، والدفتر نَديمك ، وإن قصَّرت ، ولا إخالك ، فغيرى خالك .

وله من كتاب إلى أبى القاسم الداوُدى بسجستان :

كتابى — أطال اللهُ بقاء الفقيه — كتابُ مَنْ ينسى الأيام وتذكره ، ويطويها

(١) الأشاء — بزنة السحاب — صغار النخل ، والمشذب : الذى يقطع القشور والعيدان المتفرقة من الشجر ، واتمهل : اعتدل وانتصب ، والذرا : الأعالى ، وأث : التف وكثر (م)

وتنشُره ، ويبيد أبناء دهره ، وراء ظهره ، ويخرج أهل زمانه ، من ضمانه ، فإذا تناولهم بيُمناه ، وتسلَّمهم بيسراه ، أقسم أن صَفْقَتَه هى الرابحة ، وكفّته هى الراجحة ، وأنا ــ أيد الله الفقيه ــ على قُرْب العهد ، بالمهْد ، قد قطعت عَرْضَ الأرض ، وعاشرت أجناس الناس ، فما أحدٌ إلا بالجهل اتّبعته ، وبالخبرة بِعْتُه ، وبالظن أخذته ، وباليقين نَبَذْتُه ، وما حَمْدٌ وضعتُه فى أحد إلاّ ضيَّعته ، ولا مَدْحٌ صَرَفْتُه إلى أحد إلاّ غربته ، ومن احتاج إلى الناس ، وزَنَهم بالقِسْطَاسِ ، ومن طاف نصف الشرق ، فقد لقى رُبعَ الخلق ، ومن لم يجد فى النِّصْف لَمْحَةً دالّة ، لم يجد فى الكل غرّةً لائحة ، وكان لنا صديقٌ يقول : إن عشت تسعين عاماً مت ولم أملك ديناراً ؛ لأنى قد عشت ثلاثين ولم أملك ثلثها ، وهذا امرى ياس ، يُوجبه قياس ، وقنوط ، بالحجة مَنُوط ، ودُعَابة ستكون جِدًّا ، ووراء هـذه الجملة مَوْجِدَة على قوم ، وعَرْبَدَةٌ إلى يوم ، والأمير السيد واسعُ مجال الهمم ، ثابتُ مكانِ القَدَم ، وأنا فى كَنَفِه صائبُ سَهْم الأمل ، وَافِرُ الجذل ، والحمد لله على ما يُوليه ، ويُولينا مَعْشَر مَوَاليه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وذرِّيته .

وله إلى إبراهيم بن حمزة خادم الأستاذ الجليل : قد أتبع قدمَه ، إلى الخِدْمَة قلمَه ، وأتلى لسانَه ، فى الحاجة بَنَانَه ، وقد كان استأذنه فى توفير هذا اليوم فى مجلس السيد الجليـل فأَذِنَ له على عادته السليمة ، وشيمته القويمة ، ومَنْ وَجد كَلأً رَتَع[1] ، ومَنْ صادف غيثاً انتَجَع[2] ، ومن احتاج للحاجات سَأَل ، وبَقى أن يشفع الأستاذ الجليل بإزاء الحوض عَفَرَه[3] ، وينظم إلى رَوْضِ الإحسان مطره ، ويطرِّز أُنسَنَا بأبى فلان ؛ فقد وُصِفَ لى حتى حننت شوقاً إليـه ، وَوجْداً به ، وشَغَفاً له ، وغُلُوًّا فيه ، ورَأْيُه فى الإصغاء إلى الـكرم عالٍ ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) الـكلأ ــ بوزن الجبل ــ العشب رطبه ويابسه ، ورتع : رعى (م)

(٢) الانتجاع : طلب المرعى (م)

(٣) العفر ــ بوزن الجبل ــ وجه الأرض ، وأول سقية سقيها الزرع (م)

[من مقامات بديع الزمان]

المقامة السجستانية

ومن إنشائه فى مقامات أبى الفتح السكندرى :

حدّثنا عيسى بن هشام قال: حدانى إلى سجستان أَرَب[1] ، فاقتعدت طِيَّته ، وامتطيتُ مَطِيَّته ، واستخرْتُ الله تعالى فى العَزْمِ حَدَوْتُه أمامى، والحزم جعلته قدّامى ، حتى هدانى إليها، ووافيت دُروبَها[2] ، وقد وافت الشمس غُروبَها، واتفق المبيتُ حيثُ انتهيت؛ ولما انتُضِى نَصْلُ الصباح، وبرز جَبينُ المصباح، مضيتُ إلى السوق أتّخذ منزلا ، فحيث انتهيتُ من دائرة البلد إلى نُقْطتها ، ومن قلادةِ السوقِ إلى واسِطَتها ، خَرقَ سَمْعِى صوتٌ له من كلّ عِرقٍ معنى ، فانتحيتُ وَفْدَهُ ، حتى وقفتُ عنده ؛ فإذا رجلٌ على فرسه، مختنق بنَفَسِه، قد ولاّنى قَذالَه وهو يقول: من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرِّفُه بنفسى، أنَا باكورةُ اليمن، أنا أحدوثة الزمن، أنا أُدْعِيَّة الرجال ، وأُحْجيَّة ربات الحِجَال[3] ، سلُوا عنى الجبال وحُزونَها، والبحار وعيونَها ، والخيلَ ومتونها ، مَنِ الذى ملك أسوارها، وعرف أسرارها ، ونهج سَمْتَها ، وولج حرّتَها ؟ وسـلوا الملوكَ وخزائنها ، والأغلاق ومعادِنها ، والعلوم و بواطِنَهَا ، والخطوبَ ومَغَالِقها ، والحروبَ ومضايقَها ، مَن الذى أخـذ مخزَنَها ، ولم يؤدّ ثمنَها ؟ ومن الذى ملك مفاتحها ، وعرف مصالحها ؟ أنا والله فعلتُ ذلك ، وسفَرتُ بين الملوك الصِّيد ، وكشفت أستارَ الخطوب السُّود . أنا والله شهدت حتى مصارِعَ العُشّاق ، ومرضتُ حتى لِمَرضِ الأحداق ، وهصَرْتُ الغصونَ الناعمات ، وجنَيْت جنى الخدود الموَرَّدَات ، و نفرْتُ عن الدنيات نفورَ طبْع الـكريم عن وجوه اللئام ، ونبَوْتُ عن المحرمات نبوَّ سمع الشريفِ عن قبيح الكلام ، والآن لما أسفرَ صُبْحُ المشيب ، وعَلَتْنى أُبّهة الـكِبَر ، عَمدْتُ

(١) حدانى : بعثنى ، والأرب ـ بالتحريك ـ الحاجة (م)

(٢) الدروب : جمع درب ، وأصله الطريق الموصل إلى بلاد الروم (م)

(٣) الأدعية والأحجية : الـكلام الذى يخالف معناه لفظه (م)

لإصلاح أمْرِ المعادِ ، بإعداد الزّاد ، فلم أرَ طريقاً أهدى إلى الرشاد مما أنا سالكه، يَرانى أحدُكم راكب فرس وهَوَس[1] ، فيقول : هذا أبو العجَب ، لا ، ولكنى أبو العجائب ، عايَنْتُها وعانَيْتُها ، وأمُّ الكبائر قايَسْتها وقاسَيْتها ، وأخو الأعْلاق ، صَعْباً أخذتها ، وهوناً أضعتها ، وغالياً اشتريتها ، ورخيصاً بعتها ؛ فقد والله صحِبْتُ لها المواكب ، وزاحَمْتُ المناكبَ ، ورَعَيت الكواكبَ ، وأنضَيْتُ الركائب ، ولا منّ عليكم ، فما حصلتها إلا لأمرى ، ولا أعددتها إلاّ لنفسى ، لكنى دُفِعْتُ إلى مكاره نَذَرْتُ معها ألاّ أدخِرَ عن المسلمين نَفْعَها ، ولا بدّ لى أن أخلع رِبْقَة هذه الأمانة من عُنق إلى أعناقكم ، وأعرِضَ دوائى هذا فى أسواقكم ، فليشْتَرِه منى من لا يتقزّزُ من موقف العبيد ، ولا يأنفُ من كلمة التوحيد ، وليَعْنُنْه من أنجبَتْ جدودُه ، وسُقى بالماء الطَّاهر عودُه .

قال عيسى بن هشام : فدُرت إلى وجهه لأعلم عِلْمَه ، فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، وانتظرت إجفالَ النعامة بين يديه ، ثم تعرّضت فقلت : كم يُحِلّ دواءك هذا ؟ قال : يُحِلُّ الكيسُ ما مست الحاجةُ ؛ فانصرفت وتركته .

المقامة القردية

ومن إنشائه فى هـذا الباب : حدّثنا عيسى بن هشام قال : بينا أنا بمدينة السلام، قافلا من البيت الحرام[2] ، أميس مَيْس الرِّجْلَة[3] ، على شاطىء الدّجلة، أتأمّل تلك الطرائف ، وأتقصّى تلك الزخارف ، إذ انتهيت إلى حَلْقة رجال مزدحمين ، يَلْوِى الطَّرَبُ أعناقَهم ، ويشقّ الضحِك أشداقَهم ، فساقنى الحِرْصُ إلى ما ساقهم ، حتى وقَفْتُ بمَسْمَع صوتِ رجل دون مَرْأى وجهه ، لشدّة الهجْمَة ، وفَرْطِ الزّحمة ، وإذا هو قَرّاد يُرْقِص قردَه ، ويُضْحِك مَنْ عنده ، فرقصت رَقْص المحرج ، وسرت سيرَ الأعْرج ، فوق أعناق الناس ، يلفِظُنى عاتقُ هذا لِسُرّة ذاك ، حتى افترشت لِحْيَةَ رجلين ، وقعدت بين اثنين ، وقد

(١) فى المقامات « راكب فرس ، ناثر هوس » (م)
(٢) مدينة السلام : بغداد ، وقافلا : راجعا (م)
(٣) أميس : أتبختر ، والرجلة : ضرب من البقول يقال له « البقلة الحمقاء » (م)

أشرقنى الخجل بريقه ، وأرهقنى المكانُ لضيقه ، فلما فرغَ القرّادُ من شُغْلهِ ، وانتفض المجلس عن أهله ، قمت وقد كسانى الرّيب حُلّته ، ووقفت لأرى صورتَه ، فإذا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : ما هذه الدناءة ؟ ويحك ! فقال :

الذنبُ للأيام لَا لِى فاعْتِبْ على صَرْفِ اللَّيالِى
بالحُمْقِ أدركْتُ المُنَى ورَفَلْتُ فى ثَوْبِ الجمالِ

المقامة الإصفهانية

ومن إنشائه فى هـذا الباب أيضاً : حدثنا عيسى بن هشام قال : كنت بأصفهان أعتزِم المسيرَ إلى الرَّىّ ، فحللتها حلولَ الفَىِّ[1] ، أتوقّع النُّقْلَة كل لَمْحة ، وأترقّب الرِّحْلة كلّ صَبْحَة ؛ فلما حُمّ ما توقّعته ، وأزِف ما ترقّبته ، نُودِى للصلاة نداء سمعتُه ، وتعيّن فَرضُ الإجابة ؛ فانسَلَلْتُ من بين الصحابة ، أغتنم الجماعة أُدْرِكها ، وأخشى فواتَ القافلة أتركها ، لـكنى استعنتُ ببركة الصلاة، على وَعْثاء الفَلاة ؛ فصِرْتُ إلى أول الصفوف ، ومَثَلْتُ للوقوف ، وتقدّم الإمام للمِحْراب ، وقرأ فاتحةَ الـكتاب ، [وثنّى بالأحزاب[2]] ، بقراءة حمزة ، مَدّةً وهمزة ، وأتبع الفاتحة بالواقعة ، وأنا أتصلّى بنار الصبر وأتصلّب ، وأتقلّى على جمر الغيظ وأتقلّب ، وليس إلا السكوت والصبر ، أو الكلامُ والقبر ، لِمَا عرفتُ من خشونة القوم فى ذلك المقام ، أن لو قطعتُ الصلاة دون السلام ، فوقفتُ بقدَمِ الضرورة على تلك الصورة ، إلى انتهاء السورة ، وقد قَنِطْت من القافلة ، ويَئِسْتُ من الراحلة ، ثم حنى قَوْسَه للركوع ، بنوعٍ من الخشوع ، وضربٍ من الخضوع ، لم أعْهَدْه قبل ذلك ، ثم رفع رأسه ويدَه ، وقال : سَمِعَ اللهُ لمن حمده ، وقام ، حتى ما شكَكْتُ أنه نام ، ثم أكبّ لوجهه ، فرفعت رأسى أنْتَهز فُرْصة ، فلم أرَ بين الصفوف فُرْجة ، فعُدْت للسجود ، حتى كبّر للقعود ، وقام للركعة الثانية ، وقرأ الفاتحة والقارعةَ ، قراءةً استَوْفَى فيها عُمْرَ الساعة ، واسترقّ أرواح

(١) الفى : الظل ، وأصله الفىء ــ بالهمز ــ فسهل الهمز (م)

(٢) هذه الـكلمة ليست فى المقامات ،والصواب تركها ؛ لأنه سيقول بعد ذلك « وأتبع الفاتحة بالواقعة » (م)

الجماعة ، فلما فرَغ من ركعتيه ، مال للتحية بأَخْدَعَيْه ، فقلت : قد قَرُب الفرج ، وآن المخرج ، فقام رجل فقال : مَنْ كان منكم يحبُّ الصحابة والجماعة ، فليُعِرْنى سَمْعَه ساعة .

قال عيسى بن هشام : فلزِمْتُ أرضى ، صيانةً لعرضى ، فقال : حقيق علىَّ ألاّ أقولَ على اللهِ إلا الحق ، قد جئتُكم ببشارة من نبيّكم ، لكنى لا أُؤدِّيها حتى يطهِّرَ اللهُ هذا المسجد من نَذْلٍ جحد نُبُوّته ، وعَادَى أُمّته .

قال عيسى بن هشام : فرَبطنى بالقيود ، وشدَّنى بالحبال السُّود ، ثم قال : رأيتُه صلى الله عليه وسلم [فى المنام] كالشمس تحت الغمام ، والبدر ليلة التّمام ، يسيرُ والنجمُ يَتْبَعه ، ويسحبُ الذَّيْل والملائكة تَرْفَعُه ، ثم علّمنى دعاء ، وأوصانى أن أُعلِّم ذلك أمّتَه ، وقد كتبتُه فى هذه الأوراق بخَلوق[1] ومسك ، وزعفران وسُكّ ؛ فمن استوهَبَه منى وَهَبْتُه ، ومن أعطَى ثمنَ القِرْطَاس أخذته .

قال عيسى بن هشام : فانثَالَتْ عليه الدراهم ، حتى حيَّرته ؛ ونظرت فإذا شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : كيف اهتديت إلى هذه الحيلة ؟ ومتى اندرحت فى هذه القبيلة ؟ فأنشأ يقول :

النَّاسُ حُمُرٌ فجَوِّزْ ... وابْرُزْ عليهم وبرِّزْ
حتى إذا نِلْتَ منهمْ ... ما تشتهيه ففَرْوِزْ[2]

[جارية ذات أدب وجمال تبذّ أبناء الخلفاء]

وصفت لعبد الملك بن مروان جاريةٌ لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه فى ابتياعها ، فامتنع وامتنعت ، وقالت : لا أحتاجُ للخلافة ولا أرغبُ فى الخليفة ، والذى أنا فى ملكه أحبُّ إلىَّ من الأرض ومَنْ فيها . فبلغ ذلك عبد الملك فأغراه بها ؛ فأضعف الثمن لصاحبها وأخذها قَسْرا ، فما أعجب بشىء

(١) الخلوق ـ بفتح الخاء ـ ضرب من الطيب ، والسك ـ بضم السين ـ مثله (م)
(٢) فروز الرجل ـ بوزن دحرج ـ مات (م)

إعجابه بها ، فلما وصلت إليه ، وصارت فى يديه ، أمرها بلزوم مجلسه ، والقيام على رأسه ؛ فبينما هى عنده ، ومعه ابناه الوليد وسليمان ، قد أخلاهما للمذاكرة ، فأقبل عليهما فقال : أىُّ بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال الوليد : قول جرير فيك :

أَلستمْ خَيْرَ من رَكِبَ المَطايا وأَنْدَى العالمينَ بُطُونَ راحِ

وقال سليمان : بل قول الأخطل :

شُمْسُ العداوة حتى يُستقادَ لهم وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا

فقالت الجارية : بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرّ كلابُهُمْ لا يَسْأَلون عن السَّوادِ المُقْبِلِ

فأطرق ، ثم قال : أى بيت قالته العرب أَرَقّ ؟ فقال الوليد : قولُ جرير :

إنّ العيونَ التى فى طرْفِها حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِين قَتْلَانا

فقال سليمان : بل قولُ عمر بن أبى ربيعة :

حبَّذا رَجْعُها يَدَيْهَا إليهـــا من يَدَىْ دِرْعِها تحلُّ الإزَارا

فقالت الجارية : بل بيت يقوله حسان :

لو يَدِبّ الحولىّ من ولد الذرّ عليهـــا لَأَنْدَبَتْهَا الكُلُومُ[(١)]

فأطرق ، ثم قال : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد : قول عنترة :

إذْ يتّقون بِىَ الأسنَّة لم أخم عنها ، ولو أنى تَضَايَق مقدمى[(٢)]

فقال سليمان : بل قوله :

وأنا المنيةُ فى المواطن كلها فالموتُ منى سابق الآجالِ

فقالت الجارية : بل بيت يقوله كعب بن مالك :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنا قُدُماً ونلحقها إذا لم تلحقِ

فقال عبد الملك : أحسنْتِ ، وما نرى شيئاً فى الإحسان إليك أبلَغَ من رَدِّك

---

(١) أندبها . جرحتها ، والكلوم : جمع كلم ، وهو الجرح (م)

(٢) لم أخم : لم أجبن ، ولم أنكل ، ولم أحجم (م)

إلى أهلك . فأجمل كِسْوَتها ، وأحسن صِلَتَها ، وردَّها إلى أهلها .

* * *

ومثل قول كعب بن مالك قول نَهْشَل بن حَرِّىّ :

إنا بنى نَهْشَل لا ندَّعى لأبٍ   عنهُ ، ولا هو بالأبناء يَشْرِينا

إن تُبْتَدرْ غايةٌ يوما لمكرمةٍ   تَلْقَ السوابقَ منّا والمُصَلِّينَا

إنّا لَمِنْ معشر أَفْنَى أوائلَهم   قولُ الكماةِ : ألا أين المحامونا

لوكان فى الألف منا واحدٌ فدَعَوا   مَنْ فارسٌ خالَهم إياهُ يَعْنُونا

إذا الكماة تأبَوا أن ينالهمُ   حدُّ السيوفِ وصلناها بأيدينا[1]

إنما أردت هذا البيت .

وقوله : * لوكان فى الألف منا واحد * أخذه من قول طَرَفَة بن العبد :

إذا القوم قالوا مَن فتى خِلْتُ أننى   عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتبلّدِ

* * *

[نَهْشَل بن حَرِّىّ]

وكان نهشل شاعرا ظريفا ، وهو نَهْشَل بن حَرِّىّ بن ضَمْرَة بن جابر بن قَطَن بن نَهْشَل بن دارم ، وكان اسم جده ضمرةَ هذا : شِقَّة ، وردعلى النعمان بن المنذر فقال : من أنت ؟ فقال :أنا شِقَّة،وكان قضيفا[2] نحيفاً دميما،فقال له النعمان : تَسْمَعُ بالمعيدىّ لا أن تَراه ، والمُعَيْدِى: تصغير المعدِّىّ ، فذهبت مثلا ، فقال : أبيتَ اللعنَ ! إن الرجال لا تُكال بالقفزان ، وليست بمُسُوك[3] يُستَقَى بها من الغُدْرَان ، وإنما المرء بأصغرَيْه قلبه ولسانه ، إذا نطق نطق ببيان ، وإذا قاتَلَ قاتل بجَنَان ، فقال : أنت ضَمْرة ! ونَهْشَل هو القائل :

ويومٍ كأنّ المُصْطَلِين بحَرِّهِ   وإن لم يكن جَمْرٌ قيام على الجمر

أقمنا به حتى تجلَّى ، وإنما   تُفرَّج أيامُ الكريهة بالصَّبْرِ

(١) الذى أحفظه عن الحماسة «إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم * حد الظباة» (م)

(٢) القضيف :النحيف (م) (٣) مسوك: جمع مسك ـ بالفتح ـ وهو الجلد (م)

[أثر الشعر]

وكان عبدُ الملك يقول : يا بنى أمية ، أحسابُكم أعراضُكم ، لا تعرضوها على الجهال ، فإنّ الذمّ باقٍ ما بقىَ الدهر ؛ والله ما سرّنى أنى هُجيت ببيت الأعشى ، وأن لى طلاعَ الأرض ذهبا ، وهو قوله فى عَلْقمة بن عُلاثة :

يبيتون فى المشتَى مِلاءً بطونهم وجاراتهم غَرْثَى يَبِتْنَ خمائصا

والله ما يُبالى من مُدح بهذين البيتين ألّا يُمدح بغيرها ، وهما قول زهير :

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلُوا وإن يُسْأَلُوا يعطوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[1]

على مُكْثِرِيهم حَقٌّ من يَعْتَرِيهمُ وعند المقلّينَ السماحة والبَذْلُ

وقال ابنُ الأعرابى : أمدحُ بيتٍ قاله المحدثونَ قولُ أبى نواس :

أخذتُ بحَبْلٍ من حبال محمدٍ أَمِنْتُ به من طارقِ الحَدَثانِ

[تغطيت من دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تسأل الأيامُ عنى َ مادرَتْ وأين مكانى ما عرفْنَ مكانى

وهذا كقول أعرابى ، ذكر بعضُ الرواة أن مالك بن طَوْق كان جالساً فى بَهْوٍ مطلّ على رحبته ومعه جلساؤه، إذ أقبل أعرابى تخُبّ به ناقتُه، فقال : إياى أراد ، ونحوى قصد ، ولعل عنده أدباً يُنتفع به . فأمر حاجبه بإدخاله ، فلما مثل بين يديه قال : ما أقدمك يا أعرابى ؟ قال : الأمل فى سَيْبِ الأمير والرجاء لنائله[2] . قال : فهل قدّمت أمام رغبتك وسيلة ؟ قال : نعم ، أربعة أبيات قلتها بظهر البرية ؛ فلما رأيت ما بباب الأمير من الأبهة والجلالة استصغرتها ، قال : فهل لك أن تنشدنا أبياتك ؟ ولك أربعة آلاف درهم ، فإن كانت أبياتُك أحسن فقد ربحنا عليك ، والا قد نلتَ مرادك وربحتَ علينا ، قال : قد رضيت ، فأنشده :

---

(١) يستخبلوا المال : يطلب إليهم أن يعيروا إبلهم ليشرب المستعير ألبانها وينتفع بأوبارها . وييسروا : يدخلوا فى لعب الميسر (م)

(٢) السيب : العطاء ، ومثله النائل (م)

وما زلتُ أخشى الدهر حتى تعلقت ... يداى بمن لا يَتَّقِى الدهْرَ صاحِبُهْ

فلما رآنى الدهر تحت جناحه ... رأى مُرْتَقًى صعبا منيعا مطالبُهْ

وأنى بحيث النجمُ فى رأس باذخٍ ... تُظِلُّ الورى أكنافهُ وجوانبُهْ

فتى كسماء الغيث والناسُ حولَه ... إذا أجدبوا جادتْ عليهم سحائبُهْ

قال : قد ظفرنا بك يا أعرابى ، والله ما قيمتها إلا عشرة آلاف درهم . قال : فإن لى صاحبا شاركته فيها ما أراه يرضى ببيعى ، قال : أتراك حدَّثت نفسك بالنكث ؟ قال : نعم ، وجدتُ النكث فى البيع أيسرَ من خيانة الشريك ، فأمر له بها .

[أنصف بيت ، وأصدق بيت]

وأنصفُ بيتٍ قالته العربُ قولُ حسان بن ثابت لأبى سفيان بن الحارث فى جوابه عما هجا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى محمد بن عمار عن أبيه قال : أنشد النبىَّ حسانُ بن ثابت قوله :

هَجَوْتَ محمداً ، فأجبتُ عنه ... وعنـد الله فى ذاك الجزاء

فقال النبىّ عليه السلام : جزاؤك الجنة يا حسَّان .

فلما انتهى إلى قوله :

فإن أبى ووالده وعرضى ... لعِرْضِ محمدٍ منكمْ وقاء

قال النبىّ عليه السلام : وقاك الله حرَّ النار .

فلما قال :

أتَهْجُوهُ ولستَ له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

قال مَنْ حضر : هذا أنصفُ بيت قالته العرب .

وأصْدَقُ بيت قالته العرب وأمدحُه قولُ كعب بن زهير فى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تحمله الناقة الأدماء معتجرا ... بالبُرْدِ كالبدر جلَّى ليلة الظُّلَم

وفى عِطَافَيْهِ أو أثناء بردته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

وقال الأصمعي : والجهال يروون هذا البيت لأبي دهبل ، واسمه وهبُ بن ربيعة ، في عبد الله بن عبد الرحمن الأزرق والي اليمامة ، والصواب ما ذكرناه ، وهو بصفات النبيّ صلى الله عليه وسلم أعْلَق ، وبمدحه أليق.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم

سليل أكرم نَبْعة ، وقريع أشرف بقعة . جاب بأمته الظلمات إلى النور ، وأفاء عليهم بالظلّ بعد الحرور . وهو خِيَرَةُ الله من خلقه ، وحجّته في أرضه . الهادي إلى حقّه ، والمُنبه على حكمه . والداعي إلى رُشدِه ، والآخذُ بفرضه . مباركٌ مولده ، سعيدةٌ غرّتُه ، قاطعة حجَّتُه ، ساميةٌ درجتُه ، ساطع صباحُه ، متوقّد مصباحُه ، مُظَفَّرةٌ حروبُه ، مُيَسَّرةٌ خطوبُه ، قد أفردَ بالزعامة وحده ، وخُتِمَ بأن لا نبيّ بعده . يُفصَح بشِعاره على المنابر ، وبالصلاة عليه في المحاضر ، وتعمر بذكره صدورُ المساجد ، وتستوي في الانقياد له حالة المقرّ والجاحد . آخر الأنبياء في الدنيا عمرا ، وأولهم يوم القيامة ذكرا ، وأرجحهم عند الله ميزانا ، وأوضحهم حجّة وبرهانا . صدعَ بالرسالة ، وبلغ بالدلالة ، ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم . أرسله الله قمراً للاسلام منيرا ، وقدراً على أهل الضلال مبيرا . صلى الله عليه وسلم . خير من افتتحت بذكره الدعوات ، واستنجحت بالصلاة عليه الطلبات . خير مبعوث ، وأفضل وارث وموروث . وخير مولود ، دعا إلى خير معبود . صلى الله على كاشف الغمّة عن الأمة . الناطق فيهم بالحكمة ، الصادع بالحق ، الداعي إلى الصدق ، الذي ملك هَوَادِيَ الهدى ، ودلّ على ما هو خيرٌ وأبقى . صلى الله عليه بشير الرحمة والثواب ، ونذير السطوة والعِقاب . صلى الله على أتمّ بريته خيراً وفضلا ، وأطيَبِهم فرعا وأصلا ، وأكرمهم عودا ونجارا ، وأعلاهم منصبا وفخارا ، وعلى أهله الذين عظّمهم توقيرا ، وطهّرهم تطهيرا هم مقاليد السعادة ومفاتيحها ، ومعارجُ البركةِ ومصابيحُها . أعلام الإسلام وأيمان الإيمان . الطيبون الأخيار ، الطاهرون الأبرار . الذين أذهب عنهم الأرجاس ، وجعل مودتهم واجبةً على الناسِ . هم حَبْل الهدى وشجرة الإيمان ، أصلها نبوّة ، وفرعها مروّة ، وأغصانها تنزيل ، وورقاتُها تأويل ، وخَدَمُهَا ميكال وجبريل .

لبديع الزمان الهمذانى

ولبديع الزمان إلى بعض الأشراف فى دَرْج كلام تقدَّم :

إن جعلنا نَعُدُّ مَفاخركم ، ونحُدُّ آثاركم ، نفِد الحصى قبل نفودِها ، وفنِيت الخواطرُ ، قبل أن تفنى المآثر ، ولم لا ، وإن ذُكِر الشرف فأنتم بنو بَجْدته ، أو العلم فأنتم عاقدو إزرته . أو الدين فأنتم ساكنو بلدته ، أو الجود فأنتم لابسو جلدته ، أو التواضع صبرتم لشدّته ، أو الرأى صُلْتُم بحدته ، وإنَّ بيتاً تولى الله عز وجل بناءه ، ومهّدَ الرسولُ عليه السلام فناءه ، وأقام الوصىُّ رضوان الله عليه عمادَه ، وخدم جبريلُ عليه السلام أهله ، لحقيق أن يُصانَ عن مدح لسانٍ قصير .

لأعرابى

وذكر النبىَّ صلى الله عليه وسلم أعرابىٌّ فقال : بأبى وأمى رسول رب العالمين ، ختمت به الدنيا ، وفتحت به الآخرة ، صلى الله عليه وسلم ، به يبدأ الذكرُ الجميلُ ويختم .

خاتمة المؤلف

إلى هذا المكان أمسكت العنان . والإطنابُ فى هذا الكتاب يعظم ويتّسع ، بل يتصل ولا ينقطع ؛ إذ كان غرضى فيه أن ألمح المعنى من معانيه ، ثم أنجرّ معه حيث انجرّ ، وأمرّ فيه كيف مرّ ، وآخذ فى معنى آخر غير موصول بشكله ، ولا مقرون بمثله ، وقد أخل نظاما ، وأفرد توأما ، نَشْرًا لبساط الانبساط ، ورغبة فى استدعاء النشاط . وهذا التصنيف لا تُدرك غايتُه ، ولا تُبلغ نهايته ؛ إذ المعانى غير محصورة بعدد ، ولا مقصورة إلى أمد . وقد أبرزْتُ فى الصدر، صفحةَ العُذْر ، يجولُ فِرِندُها ، ويثقبُ زندها ، وذلك أنى ما ادَّعيتُ فيما أتيتُ إلا ما [لا] يكون ما تركته أفضل مما أدركتهُ ، وأنى لم أسلك مذهبا مخترعا لم أسبَق إليه ، ولا قصدت غرضاً مبتدَعا لم أغلَبْ عليه ، ومن ركب مطيّة الاعتذار ، واجتنب خطيّة الإصرار فقد خرج من تَبِعة التقصير ، وبرىء من عهدة المعاذير .

وأما بعد فإن أحقّ من احتُكِم إليه واقتصر عليه الاعترافُ بفضل الإنصاف ، وليعلم من يُنْصِف أن الاختيارَ ليس يعلم ضرورة ، ولا يوقَف له على صورة ، فيكثر الإغماض ، ويقل الاعتراض ، ويعلم أنَّ مالا يقع بهواه ، قد يختاره سواه ، وكلٌّ يَعْمل اقتدارَه ، ويحسن اختياره ، فلو وقع الاجماع على ما يُرْضِى ويُسْخِط ، ويثبِّتُ ويسقط ، لارتفع حجاجُ المختلفين ، فى أمر الدنيا والدين .

وقال المتنبي :

تخالف الناسُ حتى لا اتفاق لهم إلا على شَجَب والخلف في الشجَبَ

فقيل : تخلص نفسُ المرء سالمةً وقيل: تشرك جسم المرء في العطب

الشجب : الموت ، وهي لفظة معروفة، و إن كانت غير مألوفة عند أهل النقد .

وقد أنكرها البحتري على عبيدالله بن عبدالله بن طاهر في مجاذبته إياه حيث يقول :

وَلَوَ أنَّ الحكيم وازن في اللَفظِ واختار لم يقل شجبُه

وكان أبو الطيب نظر إلى ما رواه أبو ظبيان ، قال : اجتمع نفرٌ من أهل الكلام على رجل من الملحدين ، فجعلوا لا يأتون بمسألة إلا سألهم الدليلَ عليها ، وناقضهم فيها ، فأعياهم كثرةُ ما يقول ويقولون ، فقال بعضهم: أما بعد فإن الموت لاشكَّ فيه فقال الملحد: ما رأيتُ خاطباً وواعظاً وشاهداً لا يُرَدّ أوجز منه ، وقلما ترى معنًى إلا وهو يدَافع أو يناقَض ويُحَارُ به عن سواء المحجّة. وقيل: من طلب عيباً وجده .قال أبو عمرو بن سعيد القُطْرُبلي: ليس من بيتٍ إلا وفيه لطاعنٍ مَطْعَن ، إلا قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهبُ العُرف بين الله والناس

وقول طَرَفَةَ بن العبد :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبـار من لم تزوّد

وقول علي بن زيد :

عن المرء لا تَسَلْ وسَلْ عن قرينه فكل قرينٍ بالمقارنِ مُقْتَـدِ

ولعلم بذلك قال قتيبة بن مسلم لأبي عيّاشٍ المنتوف ، وقد دخل عليه و بين يديه سلّة زعفران : أنشدني بيتاً لا يصارف ولا يُكذَّب وهي لك ، فأنشده ما ليس لطاعن فيه مطعن :

فما حَمَلَتْ من ناقةٍ فوق كورها أبرَّ وأوفى ذمّةً من محمـدِ

[صلى الله عليه وسلم ، ورحم وكرَّم ، وشرَّف وعظَّم ، وعلى آله الطيبين، وسلم تسليما]

قد تم كتاب « زهر الآداب ، لأبي إسحاق الحصري »

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على كريم الآباء والأمهات

فهرس الجزء الرابع من كتاب
« زهر الآداب ، وثمر الألباب » لأبي إسحاق الحصري

والحمد لله حق حمده، وصلاته وسلامه على نبيه وعبده

